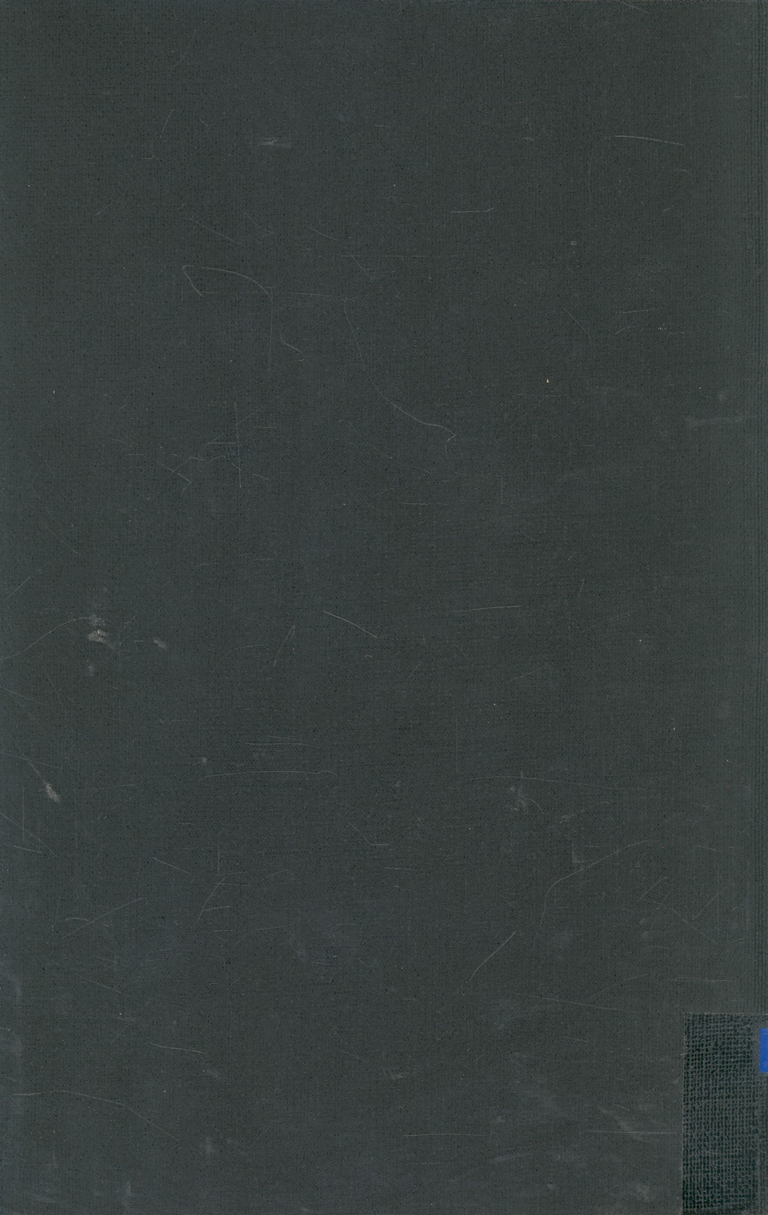






١٩٣

[illegible]

لـ يعقوب صروف

امير لبنان

الفصل الاول

النصح بالاخلاص

هضاب لبنان آكام يعلو بعضها بعضاً من ساحل بحر الروم الى قنن صنين مرتصفة على طول البلاد من طرابلس الشام الى ساحل صيداء . رصّعتها القرى والدساكر ووشحتها حراج الصنوبر والبلوط وتخللتها اودية وفجوات تنساب فيها الجداول والغدران وقد قامت على جوانبها الحدائق والبساتين من التوت والزيتون والتين والرمان . ودُبجت ارضها بطرائق الديباج من النرجس والخزام والاقحوان . بلاد المروءة والضيافة والشهامة والعفاف . مضى على سكانها دهور طوال وهم يغرسون كرومهم ويجنون ثمارهم ويذودون عن ذمارهم بالبيض الصفاح . جانبهم عزيز وحرزهم حريز . يمرُّ بهم الغزاة من مصر وبابل واليونان والرومان كالطيور القواطع تلتهم ما تراه ُ وتغادر البلاد واهلها فيعودون الى زرعهم وضرعهم يغرسون البساتين ويزرعون الحقول ويسومون القطعان ويبنون البيوت ويشيدون القصور آمنين ناعمي البال الى ان ينتابهم غازٍ آخر كما تنتاب الاوبئة البلدان فيظاهرونهُ او يشاغبونهُ حسب مقتضى الحال

لما كثر مرور الغزاة في بلاد الساحل بين بيروت ولبنان انحدر الامراء آل ارسلان من الشوف الى الغرب ونزلوا قرىً تطلُّ على طريقهم لاستكشافها فُسمّيت الشويفات وبنوا فيها دورهم حيث ضافهم سلطان دمشق الملك المؤيد المحمودي الخاصكي منذ خمس مئة عام ونزل على الامير سيف الدين ثلاثة ايام

في دار من هذه الدور وقف الامير احمد صباح يوم من اواخر عام ١٨٥٩ وقف في رواق يطلُّ على بحر الروم وغابة الزيتون المعروفة بصحراء الشويفات . وكانت سفن الصيادين قد خرجت من بيروت للصيد ونشرت شراعها لنسيم الصبا وقد هب صباحاً من البر الى البحر قبل اشتداد الهجير فجازت خلدة وشقت صدر الماء فارغى وازبد . ونشرت الغزالة اشعتها

48880

على الرمال بين الصحراء والبحر فعصفرتها وعبثت بما تجمع على اوراق الزيتون من ندى الليل فطار ضباباً لطيفاً كانفاس المحبين

وقف الامير هنيهة يقلّب طرفهُ في ما يراهُ من جمال الطبيعة ويستنشق نسيم الصباح ويصغي الى تغريد الطيور وهمَّ بالخروج للصيد ثم عاد الى التفكير في كتاب ورد عليهِ في الليل الفائت من الكولونل روز قنصل انكلترا في بيروت وقال في نفسهِ لامرٍ دعاني القنصل اليهِ ولا بدَّ من تلبية دعوتهِ . ولم يستغرب دعوة القنصل لهُ وتخصيصهُ اياهُ دون ابناء عمهِ لانهُ كان يعتمد عليهِ بعد ابيهِ والكتاب ليس من القنصل نفسهِ بل من ترجمانهِ . ثم دخل غرفتهُ وافتقد الكتاب وقرأهُ ثانية فاذا هو يقول فيهِ

"الجناب الاكرم والملاذ الافخم الامير احمد ارسلان المحترم دام بقاهُ

بعد اداء واجب التحية والاكرام اعرض ان سعادة القنصل امرني لكي اكتب اليكم ادعوكم الى دار القنصليَّة غداً صباحاً للمذاكرة في بعض الشؤون الهامَّة والمرجو تشريفكم في الوقت المعيَّن وادام الله بقاءكم"

فقال في نفسهِ ما هذه الامور الهامَّة يا ترى ولماذا لم يكتب القنصل نفسهُ اليَّ بالفرنسويَّة او يظن انني اكون آلة في يدهِ كما كان المرحوم والدي تلك ايام مضت ولن تعود . نعم ان انكلترا وفرنسا ساعدتا دولتنا على الروس في حرب القرم ولكن تلك المساعدة لا تقضي علينا بالاستعباد وليس من صواب الرأي ان نجاري خورشيد باشا في ما طلبهُ ولكن لا يليق بنا ان نستميت الى هذا الحد

ثم نظر الى ساعتهِ ونادى مسروراً عبدهُ وامرهُ ان يشدَّ على جوادهِ ولبس ثيابهُ بذلةً من الجوخ الكحلي وطاقاً مزركشاً بالقصب وتقلد سيفهُ وهو لجدهِ الاعلى الامير جمال الدين قلَّدهُ بهِ السلطان سليم الفاتح في مدينة دمشق يوم دخلها ظافراً . وتنكَّب قربينة صنعت لابيهِ في بيت شباب صنعها لهُ اولاد نفاع من فضلات نعال الخيل المطرَّقة فجاءت مجوهرةً كالسيوف الدمشقية يطلق بها عشرين حوَّاشة معاً فتنطلق منها كالمدفع الرشاش ولا يستطيع اطلاقها الاَّ من كان ساعدهُ من الحديد مثل ساعدهِ . والقى على كتفيهِ برنساً ابيض من نسج دمشق ثم اعتلى صهوة جوادهِ ووضع فردين صغيرين في قربوصهِ وهما هدية لابيهِ من ابرهيم باشا اهداهما اليهِ قبل واقعة اللجاة . وسار وامامهُ عبداهُ مسرور وسالم وهما بالعدَّة الكاملة مع كلٍّ منهما يطقان وزوج طبنجات وبندقية نظامية ابرهيمية من البنادق التي القتها جنود ابرهيم باشا وهي عائدة الى مصر . فمرَّ في طريق متعرّج بين البيوت والحوانيت وكانت نساء

القرية ذاهبات يستقين وجرارهنَّ على اكتافهنَّ او رؤُوسهنَّ والبراقع مسدولة على وجوههنَّ لا يبين منها الَّا عين واحدة يكشفنها لينظرن طريقهنَّ . فلما دنا منهنَّ وقفنَ كاسرات الطرف هيبةً ووقارًا وكذلك كان الرجال يقفون في حوانيتهم ويضعون اكفهم على صدورهم ويحيونهُ

وسار من تحت كفرشيما والحدث الى الشياح والناس ينظرون اليهِ شزرًا لان قلوبهم كانت موغرةً بالاحقاد . ومرَّ في حراج بيروت وكان الهجير قد اشتدَّ وعلا صوت الصراصير فوقف هنيهة في ظل صنوبرة كبيرة مما بقي من الصنوبر الذي غرسهُ الامير فخر الدين المعني وهي منتصبة بين الاشجار التي غرسها ابرهيم باشا كالجبار بين الاطفال حتى اذا كثر رفس الجواد من كثرة الذباب استأنف السير ومرَّ في طريق الميدان فالباشورة . وعرف اصحاب الحوانيت انهُ من امراء الجبل من قيافتهِ وعدَّتهِ لكنهم لم ينهضوا للسلام عليهِ لاعتقادهم ان اهالي لبنان فلاحون كلهم حتى امراؤُهم ولو كانوا من نسل الملوك . ولا هو بادأهم بالسلام انفةً وعنوًا . ودار من عند السور (عصور) وصعد في طريق المصيطبة الى بيت الكولونل روز قنصل الانكليز الجنرال فبادر اليهِ قواسَّان كانا واقفين عند الباب وامسكا بركاب جوادهِ فنزل عنهُ ونفح كلًّا منهما بريال ودخل غرفة كبيرة كواها تطل على حديقة غناء نسقت فيها اشجار البرتقال والتفاح والرمان وانواع الورد والياسمين وكانت الغرفة مفروشة بالبسط الفارسيَّة وفيها مقاعد مكسوة بالحرير المطرز من نسج دير القمر ومكتب كبير من خشب الجوز مطعم بعرق اللولوء من عمل دمشق وكراسي انكليزيَّة كبيرة مكسوة بالجلد البني امامها موائد صغيرة . فلاقاهُ القنصل الى الباب ورحب بهِ ثم أُتي بالقهوة ودار الحديث بينهما على شؤُون الجبل وثورة الخواطر فيهِ فشكا الامير من ان نصارى المتن والعرقوب وزحلة ودير القمر قد اكثروا من ابتياع الاسلحة ولا عمل لهم الَّا سبك الرصاص ولف الفشك فلا عجب اذا فعل دروز الشوفين فعلهم . قال ويبلغني ان كسروان كلها متحفزة للثورة وان يوسف بك كرم قابل قنصل فرنسا فشدَّ القنصل ازرهُ واكدَّ لهُ ان فرنسا لا تتخلى عن الموارنة بوجه من الوجوه . فقال القنصل ولكن بلغني ان خورشيد باشا قال لكم مثل ما قال قنصل فرنسا ليوسف بك . فقال الامير اما انا فلم اقابل خورشيد باشا . فقال القنصل نعم لم تقابلهُ انت ولكن قابلهُ جماعة من بيت عماد وبيت نكد ومضى اثنان منهم الى خلوات البياضة لهذا الغرض وقد استدعيتك الآن لكي احذرك من عواقب الثورة فانهُ اذا استفحل الخطب فلا يبعد ان تحتل بلادكم دولة اجنبيَّة وهذا لا نرضاهُ لكم ولا للدولة العثمانية وامس كان عندي سعيد بك فاخبرتهُ بما اخبرتك بهِ الآن وليس الخوف من عقالكم بل الخوف من جهالكم وانا اعلم

شدة طاعتهم للعقال ولكن ما كل وقت يكون العقّال على يقظة من امرهم

وطالت المذاكرة نحو ساعتين حتى اذا حان وقت الغداء دعا القنصل الامير للغداء معهُ ويُغدي معهما شاب انكليزي اسمهُ السرهنري بدمونت في غرفة مجاورة لغرفة الاستقبال وجلسوا بعد الغداء يدخنون التبغ و يشربون القهوة ويتكلمون في مصالح الجبل وتاريخ امرائهِ وسبب الخلاف بين اليزبكية والجانبلاطية وبين النصارى والدروز الى غير ذلك مما يهتم بهِ قناصل الانكليز خاصة وكان كلامهم بالفرنسوية . وقد سُرَّ السرهنري بحديث الامير احمد وطلب اليهِ ان يسمح لهُ بزيارتهِ في دارهِ بالشويفات فقال حبًّا وكرامة وان سمحت فاني آتي بنفسي واذهب بك . فقال السرهنري اني لا اكلفك الى ذلك وسازورك بعد غدٍ مع احد قواسة القنصلية . ثم استأذن الامير احمد في الانصراف فودعهُ الكولونل روز والسرهنري بدمونت الى باب القنصلية

ومرَّ وهو راجع في طريقهِ ببيت رجل اسمهُ الشيخ درويش ويكنى بابي نخر. وكان هذا الرجل قد رآهُ ذاهبًا الى دار القنصل فجلس في رواق بيتهِ ينتظر عودتهُ حتى اذا مرَّ بهِ قام للقائهِ ودعاهُ لينزل ويشرب القهوة . واعتذر الامير عن النزول بفوات الوقت فقال لهُ الأَنزلت فان المرحوم والدك كان يشرفنا كلما نزل الى بيروت وبيتنا مستعد لقبول الزوَّار وامس شرفنا الوالي والسرعسكر . وما زال بهِ حتى ترجَّل وصعد معهُ الى رواق كبير يطل على الطريق فلما جلس قال لهُ الشيخ درويش يا سبحان الله انك جلست على الكرسي الذي كان يجلس عليهِ المرحوم والدك وهو الكرسي الذي يجلس عليهِ دولة الوالي كلما زارنا هات اخبرني اين كنت ولا تخفِ عني شيئًا فان المرحوم والدك كان يطلعني على كل اخبارهِ واسرارهِ وقد كان ابي صديقًا لهُ واوصاني لاكون صديقًا لك قل لي اين كنت . فقال الامير كنت في بيت الكولونل* روز لشغل خصوصي

فقال الشيخ اي نعم لشغل خصوصي اسمع يا ابني ولا تملّك الاجانب منك ولا تحد عن خطة ابيك رحمهُ الله ولماذا لم تذهب الى بيت الوالي مثل سائر مناصب الجبل

فقال الامير اني ذاهب اليهِ

فقال الشيخ احسنت احسنت وتفضَّل خذ القهوة . انظر ما اجمل هذه الفناجين فانها من الصيني الحر اشتراها المرحوم والدي من دمشق الشام كل فنجان بعشرة فندقليات اذا رميتهُ على الارض لا ينكسر والظروف من صياغة اسطانبول فضة روباص وذهب بندقي والمرجان من اعلى طبقة . الظروف اشتريتها انا من اسطانبول اخذتها من الدلال بثمن بخس بالنسبة

الى ثمنها الاصلي كانت لازميرلي باشا الصدر السابق وبيعت مع بعض التحف بعد ما قتل . ما اكثر تقلبات الدهر يقال انها كانت للسلطان مصطفى . نعم كانت للسلطان مصطفى فاهداها الى ازميرلي باشا اما انا فاشتريتها بمالي . كل ما عندي اشتريتهُ بمالي لاني اكره المهاداة فان الهدية بلية على ما يقال فانت الآن تشرب القهوة في فنجان من الصين وظرف كان يشرب منهُ السلطان مصطفى غفر الله لهُ

وكان الامير احمد يعرف هذا الرجل وحبهُ للفخر والمباهاة ولذلك لقب ابا فخر فلم يسؤْهُ كلامهُ لكنهُ ودَّ تقصير الزيارة على قدر الامكان فلم يكد يشرب القهوة حتى نهض وقال تعذرني الآن يا ابا فخر لان لا بدَّ لي من رؤْية دولة الوالي

فقال احسنت وان اردت فانا اذهب معك اليهِ ولكن قد حانت صلاة العصر ولا بدَّ لي من الذهاب الى الجامع لاني لا اترك الصلاة مطلقاً فعلى الطائر الميمون

فودعهُ الامير بعد ان طلب اليهِ ان يشرفهُ الى الشويفات وركب جوادهُ وسار الى دار الولاية واقام مع الوالي نصف ساعة دار فيها الحديث على شؤُون الجبل وكان الوالي يتودَّد اليهِ على خلاف عادتهِ وقال لهُ انتم سيف الدولة ولا غنى لنا عنكم ولا غرض لنا الاَّ استتباب الامن في البلاد وكف يد الاجانب عنها ولا بدَّ للدولة من ذلك مهما كلفها ونصيحتي لك ان تكون في خاطرها مثل ابناء عمك

فقال الامير نحن لا نخرج عن خاطر الدولة لان طاعتها فرض علينا ولكن يا حبذا لو فضّت هذه المشاكل من غير حرب اهلية

فقال الوالي هذا الذي نودهُ ولكن اذا كان لا بدَّ من الحرب الاهلية فالدولة لا تتغاضى عنكم لانها لا تترك الحزب القوي ليفتك بالضعيف وقد ابنت رأْيي بالاسهاب لشيخ العقل ولا بدَّ من ان يجمعكم ويبسطهُ لكم ولا اخفي عليك ان ترددك على القنصل لا يرضينا

فقال الامير كيف ذلك والذي اعلمهُ ان دولة الانكليز من اشد الدول صداقة لدولتنا العلية

فقال الوالي نعم هي كذلك ولكن ليس كل رجالها على رأْي واحد

قال ذلك وصمت فعرف الامير ان مدة الزيارة انقضت فقام وودع فوقف لهُ الوالي وشيعهُ الى باب الغرفة التي استقبلهُ فيها على خلاف عادتهِ . وكان هذا الحديث باللغة التركية لان الامير احمد تعلمها لما كان في الاستانة مع ابيهِ وهو يحسن التكلُّم بها كما يحسن التكلّم بالفرنسوية وكان العصر قد اذن فركب جوادهُ وعبداهُ معهُ وسار راجعاً الى الشويفات في الطريق الذي جاء فيهِ . وكان يفكر في كلام القنصل المسهب وكلام الوالي الموجز

واحوال الجبل وما يمكن ان تأول اليهِ اذا نشبت فيهِ حرب اهلية تسفك فيها الدماء وتحرق البيوت . وراجع ما كان من نتائج الحروب الاهلية السابقة وكلها ضعف على ضعف وذلٌّ على ذلٍ فقال لا بدَّ لي من اتباع نصيحة القنصل وحمل ابناء عمي على اتباعها . ووصل الى نهر الغدير وهو تائه في فيافي الافكار وحانت منهُ التفاتة فرأى نسوةً جالسات وراء مطحنة نخفق فؤادهُ وغض طرفهُ وظل سائرًا

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب وانتشر ذهب الاصيل على ربى لبنان والبس الافق طرازًا معلمًا من البرفير والارجوان

الفصل الثاني

بارقة الامل *

في احوال الناس سرٌّ غامض لا ينطبق على قاعدة معلومة وهو الاتفاقات الكثيرة التي تقع على غير انتظار . يخطر على بالك رجل لم ترهُ منذ سنين كثيرة وفي الساعة التي يخطر على بالك فيها تراهُ آتيًا لزيارتك كأن قوة روحية تقدمتهُ ووصلت اليك فأعلمتك بقدومهِ

وتفتش عن عبارة قرأتها في كتاب فتقع عينك عليها حالما تفتح الكتاب وقد تفتش عنها مرةً اخرى فلا تجدها الاَّ بعد العناء الطويل فكيف اتفق ان عثرت عليها في المرة الاولى

وينشغل بالك بامرٍ هام وترتبك فيهِ ولا ترى وجهًا لحلهِ ثم تقابل احد اصدقائك اتفاقًا او رجلاً لا تعرفهُ ولم ترَهُ قبلاً فتجد عندهُ حل المشكل والخبر اليقين كأنهُ سُخر لخدمتك وقت حاجتك اليهِ

على هذا النمط كان الامير احمد في نظر السرهنري بدمونت فلم يكد يخرج من دار القنصلية حتى دخل السرهنري مكتبهُ وعاد الى اتمام الكتاب الذي شرع في كتابتهِ الى امهِ ذاكرًا فيهِ خلاصة ما جرى لهُ يومًا بعد يوم من حين وصولهِ الى بيروت . وكان قد اخبر امهُ عن كل ما رآهُ وسمعهُ من حين قدومهِ وعن درسهِ جغرافية البلاد من بيروت الى صيداء وتعيينهِ مكان الواقعة التي جُرح فيها جدُّهُ الاعلى كونت بدمونت لما اوفدهُ ملك الانكليز الملقَّب بقلب الاسد لفتح بيروت فقد عين مكان الواقعة بالتدقيق وكانت تقاليد عائلتهِ تجعلها قرب نهر الدامور المعروف عند الاقدمين باسم تاميراس او داموراس حيث حدثت المعركة الدموية المشهورة بين انطيوخس ملك سورية ونيقولاوس قائد الجيوش المصرية فدارت الدائرة

على الجنود المصرية وقتل منها الفا رجل وأُخذ الفا اسير وعادت فلولها الى صيداء وذلك قبل التاريخ المسيحي بنحو ٢١٨ سنة . لكنهُ وجد ان شكل الارض هناك لا ينطبق على الوصف الذي وصفها بهِ ولف خادم جدهِ بل ينطبق على جهات خلدة حيث تكثر نواويس الحجر التي ذكرها ولف في وصفهِ ولا عبرة بما جاء في دليل اورشليم من ان خلدة على اثني عشر ميلاً رومانيًا عن بيروت لان الاسم القديم وهو هلدوى ينطبق على الاسم الجديد فالواقعة حدثت قرب خلدة وجدّهُ لجأ الى كهف من الكهوف التي قرب الشويفات ولا بدّ من ان تكون رفاتهُ هناك حتى الآن لان خادمهُ ولف سدَّ باب الكهف الداخلي عليهِ بعد ان لفهُ بردائهِ

ولما قابل السرهنري الامير احمد وعرف انهُ من امراء الشويفات شعر كأن بارقةً من الامل بدت امام عينيهِ ثم لما علم انهُ من طائفة الدروز اصحاب الطريقة السرية الخاصَّة بهم كادت نفسهُ تطير حبورًا وجعل يسترق اللحظ ويتفرَّس في وجههِ . وكان الكولونل روز يعلم انهُ مغرَم بالمباحث التاريخيَّة والاثرية فاشار الى عائلة الامير وقال للسرهنري لا يبعد ان يكون جدك كونت بدمونت قد التقى بجد الامير منذ سبع مئة سنة في ضواحي هذه المدينة وقد يكون بينكما ثارات واخاف ان تتقاضياها الآن

فتبسم السرهنري وقال اما الآن فاننا في جوار الامير والعرب يرعون الجوار ويحمون الجار . فقال الامير بل انا في حماكم وضيف عليكم

فقال الكولونل ان السرهنري جاء هذه البلاد للتفتيش عن رفات جدهِ لانهُ توفي فيها على قول خادمهِ بعد ان قُتل اكثر رجالهِ وأُسر من بقي منهم حيًّا وارجو ان تبذل جهدك لكي ينال بغيتهُ

فقال الامير حبًّا وكرامة اني من الساعة في خدمتهِ باذل جهدي في تحقيق بغيتهِ

فشكرهُ السرهنري على مروَّتهِ وكرم اخلاقهِ واتفق معهُ على ان يزورهُ بعد يومين ليريهُ ما حول الشويفات من الكهوف القديمة

وذكر السرهنري هذه الامور كلها لامهِ وهو يعجب من هذا الاتفاق الغريب ويقول اني موفَّق باذن الله الى ان قال لها : — فاذا عدت ومعي الوثيقة وختم قلب الاسد عليها فلا يبقى لي منازع في كونتية بدمونت ولا يبقى اعتراض لاڤلين ولا لامها . اواه يا اماه لو تعلمين كم اقاسي من هذا البعاد وقد آليت على نفسي ان لا اكتب الى اڤلين حتى اجد الوثيقة . قال ولف انها من الفضة وعليها ختم قلب الاسد وانهُ وضعها على صدر سيدهِ لما لفهُ بردائهِ هذا هو الخبر المسلسل في تاريخ العائلة وان باب المغارة الى جهة الشمال الغربي وقد سدها من

الداخل على اسلوب يظهر منهُ ان نهايتها هناك لا بد وان اهتدي اليها ان شاء الله . وهذا الامير شاب في نحو الرابعة والعشرين تلوح على وجههِ لوائح الشهامة وعزة النفس وهو يحسن الفرنسويَّة ولا بدَّ من انهُ يحسن لغتهُ العربيَّة والكولونل روز يكرمهُ كثيرًا وقال لي ان اباهُ كان من اخلص الناس لنا لكنهُ يخشى ان لا يكون مثل ابيهِ لان الذين علَّموهُ اللغة الفرنسوية اثروا في ذهنهِ فضلاً عن ان اللغة وآدابها تكفي لهذا التاثير . ولا ادري لماذا لا يسعى رجالنا في نشر اللغة الانكليزيَّة وتعليمها لابناء الامراء والعظماء كما يسعى الفرنسويون في نشر لغتهم فاننا اذا فعلنا استفدنا تجارةً وسياسةً . وقد رأيت كثيرين هنا يتكلمون الفرنسويَّة والايطالية ولم ارَ احدًا يتكلم الانكليزيَّة من ابناء البلاد غير اثنين او ثلاثة ولا احد يهتم بتعليم اللغة الانكليزيَّة غير بعض المرسلين الاميركيين . وسازور الامير بعد غد واكتب اليكِ عن زيارتي لهُ بالتفصيل . ثم فصَّل لها كيفية سفرهِ من الاستانة العلية الى بيروت لكنهُ لم يذكر لها شيئًا عن المهمة السياسية التي جاء لاجلها

وكانت الباخرة الفرنسويَّة على اهبة السفر فطوى الكتاب وارسلهُ مع مكاتيب القنصليَّة وركب هو والقنصل جوادين وخرجا للنزهة على رمل بيروت الى ان بلغا البحر ورأيا غروب الشمس وقد امتدَّت اصابع الشفق حتى بلغت الافق الشرقي وهو منظر بديع قرأ عنهُ في الكتب ولكنهُ لم يرهُ قبل الآن فقال ما اجمل هذا المنظر وما ابدعهُ للتصوير اين مصورو الطبيعة يأتون هذه البلاد فيرون فيها كل يوم منظرًا بديعًا تعجز الوانهم عن تصويرهِ

فقال القنصل نعم هي كما تقول وفوق ما تقول ومتى جاء فصل الربيع تتعشقها تعشقًا وما هضاب اسكتلندا وجبال سويسرا شيئًا مذكورًا في جنب جبال لبنان وهضابهِ ولكن انظر كيف صار اقرع اجرد من توالي المحن وهذه المدينة التي كانت من اعظم المدائن الرومانية تكاد اعلامها تندرس ولولا الاصلاح القليل الذي نالها في زمن الدولة المصرية لصارت اثرًا بعد عين . اين ارز لبنان وبلوط باشان اين المعاقل والمصانع لا ترى مكانها غير اديرة الرهبان ومزارع الفلاحين . اما دور الامراء والمشايخ فلا تذكر في جنب ما كانت عليهِ قصور الامراء في سالف الزمن . اين المدارس والمشاهد التي كانت بيروت غاصَّة بها في عهد الرومان لم يبقَ منها غير بعض الاعمدة الكبيرة مبثوثة بين الخرائب والانقاض دالة على عظمتها السالفة

فقال السر هنري أوَ تبقى الحال على هذا المنوال

فقال القنصل كلاً لان دوام الحال من المحال فان لم تفلح مساعينا احتلَّت فرنسا البلاد كما تعلم وان افلحت فلا بدَّ لنا من وضع حد لسوء الادارة

الفصل الثالث

الغداء على الغدير

الى الشمال الشرقي من الشويفات قرية كبيرة تفضلها في غزارة مائها وكثرة بساتينها ولو قلّت عنها في عدد سكانها وفخامة مبانيها وهي قرية كفرشيما او قرية الفضة . نزلها الامراء الشهابيون من قديم الزمان كما نزل الارسلانيون الشويفات . وبنى الشهابيون الدور الكبيرة واعتنوا بغرس الجنائن والبساتين فيها وفي ما جاورها من رياض الغدير وهو نهر شتوي يفيض في الشتاء حتى يطمَّ على الربى ويجفُّ في الصيف حتى لا تبقى فيهِ نقطة ماء

في دار من دور كفرشيما امير من آل شهاب اسمهُ الامير عباس لم يتنصَّر مع اخوتهِ وابناء عمهِ بل بقي على الاسلام مثل اقاربهِ في حاصبيا ووادي التيم وكان عندهُ خطيب يصلي وراءهُ لكنهُ كان سمحاً لا يجادل اخوانهُ الاَّ بالتي هي احسن ولا منع زوجتهُ واولادهُ من التنصُّر بل كانت زوجتهُ شديدة التمسُّك بالنصرانية والاكرام لقسوسها . وكثيرًا ما قصدهُ مطران بيروت وتجادلا طويلاً ثم انتهى الجدال بينهما بقولهِ لكم دينكم ولي ديني فيتركان الجدال ويعودان الى وصف الدخان الجبيلي والشقيفي فان المطران كان مولعاً بالاول والامير بالثاني وكانا كلاهما مغرمين بالسعوط ومع المطران حقَّة مرصعة بالماس اهدتها اليهِ الامبراطورة اوجيني زوجة الامبراطور نبوليون الثالث لما زارها في فرنسا فلم يكن يسعهُ الاَّ استنشاق السعوط منها من وقت الى آخر وتقديمها الى الامير حتى يرى حجارة الماس على غطائها والامير يقدم لهُ حقَّة سوداء سادجة من صنع الصين لكن حلمة شبقهِ كانت من الكهرباء وتحتها حلقات من الجزع والعقيق مرصعة بالذهب . والشبق نفسهُ قضيب طويل من الورد الاخضر يقطعهُ ويثقبهُ بيدهِ وقد غرس وردًا كثيرًا في حديقة دارهِ لهذه الغاية فلا تلبث القصبة في يدهِ يومين حتى يبدلها بغيرها قبلما تجف

وكان للامير عبَّاس ابنان وابنة اسمها سلمى وفي اليوم الذي مضى فيهِ الامير احمد ارسلان الى بيروت لمقابلة الكولونل روز قامت الاميرة سلمى وطالبت امها بوعدها وهو النزول الى الغدير للنزهة وتناول الغداء هناك لان مطر الخريف كان قد كسا الارض بساطًا سندسيًّا وظهر زهر العصفر فدبَّجهُ بطراز معلَم . فنادت امها جاريةً اسمها زهرة وقالت لها قولي لمرجان اننا نازلتان الى الغدير وقولي للخزندار ان يرسل غداءنا الى هناك ويدعو ام يوسف لتوافينا اليهِ . وارسلت سلمى الى صفا ابنة عمها تدعوها الى النزهة معهما . ثم ركبت

الاميرة هند وابنتها وابنة سلفها خيولاً عربية مطهمة تتهادى بما عليها من الحلى ونزلنَ الى الغدير ونزل معهنَّ مرجان وبيدهِ نارجيلة جوزتها من البلور المطرَّش وقلبها من الفضة والذهب وقد علَّق على جنبهِ كيس التنباك من المخمل الاحمر المزركش بالقصب ونزلت زهرة ومعها طاس من الفضة وجارية اخرى بطاس آخر وخادم يحمل سجادتين وساروا الهوينا وقد تكبَّدت الشمس السماء فلم يصلوا الى الغدير الاَّ قبيل الظهر . ثم تبعهم بعض الخدم والحشم ومعهم ما طهاهُ الطهاة من فاخر الطعام وسلتان من العنب والليمون . فمدُّوا سماطًا للاميرات ووقفت الجواري في خدمتهنَّ حتى اذا اكتفين من الطعام واكلن الحلوى والفاكهة اتكأنَ يتطارحنَ الحديث . وكانت ام يوسف من افكه نساء القرية حديثًا واوسعهنَّ رواية فلا يطيب للشهابيات عيش بدونها فيدعونها من بيت الى بيت ولا يخرجنَ للنزهة الاَّ وهي معهنَّ تطرفهنَّ بالاحاديث المختلفة بعضها صحيح وبعضها مختلق او مزوَّق فحدثتهنَّ تلك الساعة عن اعمال السحر والتعزيم التي كان يعملها الشيخ بشير تلحوق وكان من اعلم اهل زمانهِ وامهرهم وادهاهم . ومما قصَّتهُ عنهُ انهُ كان يضع ابريقًا بين رجلين ويتلو عليهِ بعض الآيات من القرآن والزبور فيدور الابريق من جهة الى اخرى من تلقاء نفسهِ بقوة السحر وانهُ كان يوقف عصاهُ فتقف ثم يأمرها فتدور امام الجلوس من امام واحد الى امام آخر من غير ان يلمسها احد . ويضع ابريقين في زاويتين من زوايا الغرفة واحدًا ملآنًا والاخر فارغًا ثم يتلو بعض الآيات فينتقل الابريق الفارغ من مكانهِ ويسير الى مكان الابريق الملآن ويسير الابريق الملآن من مكانهِ الى مكان الابريق الفارغ هذا والناس ينظرون ويعجبون ولا يشكُّون انهُ يفعل ذلك بقوة سحرية . ويضع بيضة في اناء ويسلقها فتثب من الماء الغالي من نفسها وتبعد عنهُ . واعجب من ذلك قدرتهُ على شفاء المجانين من جنونهم لكنهُ لا يستطع ذلك ما لم يقفل باب غرفتهِ عليهِ ويبقى فيها عشرة ايام او اكثر صائمًا جاهدًا واخيرًا يأتيهِ ملك الجن ويقول لهُ اطلب ما تريد فيقول الشيخ ان فلانًا اصيب بالجنون واطلب منك ان تساعدني على شفائهِ فيقول لهُ ملك الجن لبَّيك وسعديك قد اجيب طلبك . ولما تورَّمت امرأة الشيخ احمد تلحوق حتى ظُنَّ انها حامل وطال الزمن عليها ولم تلد ولا شفيت من الورم امرَّ الشيخ بشير يدهُ عليها فشفيت للحال وزال الورم كلهُ وأُتي اليهِ بالشيخ يوسف تلحوق وهو مجنون جنونًا مطبقًا فابقاهُ عندهُ يومين ثم ارجعهُ الى بيتهِ صحيح الجسم والعقل

وكانت كلما اوردت قصةً من هذه القصص تستشهد على صحتها باسماء كثيرين من الرجال المعروفين في البلاد حتى لم تبقَ شبهة في نفس الاميرة هند وابنة سلفها ان كل ما كان الشيخ

بشير يفعلهُ هو من قبيل السحر الحقيقي اما الاميرة سلمى فقالت ان كان الشيخ بشير ماهرًا الى هذا الحد فلماذا لا يستعمل سحرهُ في ما ينفعهُ وينفع ابناء عمهِ وانا لو كنت مكانهُ اقدر ان استخدم الجن لجعلتهم يملكونني الدنيا

فصلَّبت امها على وجهها وقالت اسكتي ولا تتكلمي بهذا الكلام مَن منا ينكر الجنّ الم يستحضرهم عمكِ مرة ولما رآهم ملأوا المكان الذي كان فيهِ وضاق بهم ذرعًا وهم يرقصون حولهُ لم يرَ سبيلاً لصرفهم عنهُ الاَّ بان امرهم ليذهبوا وينقبوا لهُ الارض التي فوق نهر بيروت فذهبوا ونقبوها كلها في ساعتين من الزمان ولكنهم جعلوا جلالها ممتدةً عرضًا من اعلى الى اسفل فلا تصلح للزرع ولا لشيء ثم عادوا اليهِ يطلبون عملاً يعملونهُ لهُ فحار في امرهِ واخيرًا التفت الى ما حولهُ فرأى بلاسًا اسود فقال لهم خذوهُ واغسلوهُ لي حتى يصير ابيض فمضوا بهِ يغسلونهُ وحتى الآن لم يعودوا ولولا هذه الحيلة لخطفوا روحهُ

فصادقت ام يوسف على كلامها وقصَّت عليهنَّ قصَّة القديسة هندية التي كان ملك الجان يأتيها ليلاً في شكل تيس من المعزى فتركب عليهِ وتذهب بهِ الى بلاد الصين وتعود منها بالحرير تدفعهُ الى الخواجه جاماتي وتذهب وترجع في ليلة واحدة من غ ان يشعر بها احد. قالت وقد اغنى الخواجه جاماتي من الحرير الذي جلبتهُ لهُ من بلاد الصين وها دارهُ امامنا على قمة سبنيه ولولا ذلك ما استطاع رجل فلاَّح ان يبني دارًا مثل دور الامراء

فقالت الاميرة سلمى سمعت ابي يقول ان الجاماتي كان يدين الامراء ويستدُّ الحرير منهم بثمن بخس ثم يبيعهُ لتجار الافرنج بثمن غالٍ وهذا سبب غناهُ

فقالت لها امها من اين عرف ابوكِ ذلك والجاماتي نفسهُ يقول ان الحرير يأتيهِ من الصين

فقالت الاميرة صفا الحق مع سلمى وانا سمعت ان ميخائيل طوبيا صار اغنى من قارون من مشتراهُ الحرير من الامراء والفلاحين بثمن بخس وبيعهِ لتجار الافرنج في مرسيليا

فقالت ام يوسف انا لم اسمع ان ميخائيل طوبيا استخدم الجن مثل الجاماتي ولكن لا احد ينكر السحر واستخدام اللعين خزاهُ الله. ثم قصَّت قصة رجل اراد آخر ان يقتلهُ غيلة فاتى احد السحرة وكتب لهُ كتابة سحرية على قطعة من الشحم ومضى وعلقها في مغارة عميقة فجعلت الكتابة السحرية تذيب الشحم رويدًا رويدًا وكلما ذاب منهُ شيءٌ نحل جسم الرجل حتى كاد يموت سلاًّ وعجز الاطباء عن شفائهِ واخيرًا استشاروا لهُ احد السحرة فعرف بسحرهِ امر الشحمة ففتشوا عنها حتى وجدوها ونزعوا الكتابة عنها فسلم الرجل من الموت ثم شفي ولولا ذلك لمات لا محالة

فقالت سلمى اذا كان الامر كذلك فلماذا لا يستعين الولاة بالسحر على التخلص من أعدائهم بدل المخاطرة بانفسهم ورجالهم . انا لا اصدق شيئاً من ذلك

فقالت ام يوسف هاكِ قصة جرت للمرحوم ابي يوسف بالقرب من المكان الذي نحن فيهِ الآن . كان ذات ليلة راجعاً من بيروت وكان القمر بدراً فلما وصل الى الوروار سمع غناءً وزغردةً فظن ان على الطريق اناساً آتين بعروس ثم لما قرب من المطحنة علا الصوت كثيراً واتاهُ اربعة اولاد وهم يصفقون ويغنون ويقولون يا ابا يوسف يا ابا يوسف تعال انظر العروس فسار معهم رغماً عنهُ حتى اذا وصل الى قرب الماء رأى عروساً مجلوَّةً وحولها جمهور غفير من الرجال والنساء وهم بالحلى والحلل فقبضوا عليهِ وقالوا لهُ هلمَّ نكتب الكتاب فصلَّب يدهُ على وجههِ فانشقَّت الارض وابتلعت العروس وكل الذين كانوا معها . ولما قالت ام يوسف ذلك ارتجفت مفاصل الاميرة هند والاميرة صفا واما سلمى فقالت ان معلمي قصَّ عليَّ قصة من هذا القبيل وهي انهُ كان سائراً مرةً في طريق لم يسر فيهِ من قبل فوصل الى بئر سمع صوتاً خارجاً منها فاطلَّ واذا في قعر البئر نساءٌ يستقين ماءً فلم يشكَّ انهنَّ من الجن فاسرع العدو ولما اتمَّ غرضهُ من المكان الذي كان ذاهباً اليهِ خاف ان يعود في الطريق الذي ذهب فيهِ فعاد في طريق آخر يمرُّ من تحت البئر وكان هناك درج يوصل الى اسفل البئر والنساءُ ينزلن بهِ ويستقين من الماء فلو لم يمرَّ في ذلك الطريق لاعتقد انهُ رأى نساء الجن في البئر

فقالت لها امها لا يمكننا الاَّ التصديق بوجود الجن وابوكِ يصدق بوجودهم والمطران ايضاً وكل احد يصدق بوجودهم وهم الذين رجموا بيت خالكِ بالحجارة فقد فتشنا عن الراجمين كل مكان ولم نرَ احداً . وقالت الاميرة صفا دعونا من هذا الحديث فقد صرت اخاف من خيالي ولا يمكنني ان انام وحدي الليلة

وقصَّت ام يوسف عليهنَّ قصصاً اخرى مضحكة فاطربتهنَّ بعد ان خوَّفتهنَّ بقصص السحر والجن فمضى النهار ومالت الشمس الى المغيب وهن لا يشعرن. ولما مرَّ الامير احمد والتفت اليهنَّ ثم غضَّ طرفهُ نظرت ام يوسف الى الاميرة صفا ثم نظرت كلتاهما الى الاميرة سلمى فرأتاها قد احمرَّت واطرقت الى الارض فتغامزتا ولم تقولا شيئاً . وكان العبيد قد أتوهنَّ بالخيل فركبنَ وعدنَ الى بيوتهنَّ

ودخلت الاميرة هند غرفة ابنتها في المساء وقالت لها اين كان احمد يا ترى الظاهر انهُ لم ينظرنا ألم تغيري فكركِ من جهتهِ تقول خالتكِ ان عمهُ واولاد عمهِ يحسبونهُ رئيس العائلة وركنها

فقالت سلمى نعم ولكنهُ درزي وفوق ذلك فانا لا اميل اليهِ مهما كان
فقالت امها وابوكِ لا يرضى بمجيد لانهُ شاب خليع
فقالت سلمى وَمن قال اني اريدهُ . انا لا اريد احداً ولا اريد ان افارقكِ وافارق ابي

الفصل الرابع

ما وراء الستار

في دار فخيمة من دور الاستانة العلية التي تطلّ على البسفور اجتمع جماعة من وكلاء الدولة وكبار العلماء . اتوها خفية الواحد بعد الآخر واوصدوا الابواب وجلسوا ينظرون في احوال السلطنة وما آلت اليهِ من الضعف وجعل كلٌّ منهم يقصُّ القصص المختلفة عن احوال البلاد التي لهُ فيها اصدقاء يكاتبونهُ منها او التي كان مأموراً فيها . وبعد ان نظروا في الداء مليًّا في قلّة موارد الخزينة وفي ما آلت اليهِ حال الجيش بعد عودتهِ من حرب القرم وفي الاعتداء على الحدود اخذوا ينظرون في الدواء فاشار واحد منهم ان يعيدوا قراءة الفاتحة وقسم اليمين المغلظة بان لا يبوح احد منهم بكلمة مما قيل ويقال في ذلك الاجتماع فقرأُوها واقسموا كلهم على الكتمان واتباع الخطة التي يقع الاجماع عليها . ولا يُعلم حتى الآن ما هي الاقوال التي قالوها والآراء التي ارتأَوها ولكن يعلم انهم اجمعوا اخيراً على ان يعملوا عملاً يغيظ الدول الاوربيَّة ويجعلها تساعدهم على تغيير الحالة . وكان بعض المأمورين في سوريَّة من حزبهم فبعثوا اليهم من اطلعهم على القرار الذي اجمعوا عليهِ . واهالي سوريَّة غافلون وسكان لبنان منهم لا ينبذون ضغائنهم واحقادهم التي اضعفتهم واذلتهم فتعبث بهم الاهواء وينقادون صاغرين الى كل من يدعي زعامتهم وكيف لا تكون الحال كذلك وقد تسلط عليهم الجور والظلم قروناً طوالاً ولسان حالهم يقول

احيا الضغائن آباءٌ لنا سلفوا   فلن تبيد وللآباء ابناءُ

فاتفقت الكلمة في ذلك الاجتماع على ايقاد نار الثورة وان يكون القصد منها التنكيل بالنصارى لا انتقاماً منهم بل لغرض سياسي . وهذا شأن رجال السياسة في كل زمان يبيعون النفوس بيع السماح لاغراض يقصدونها ولولا ذلك ما كان لنصف الحروب والثورات سبب معقول . وهم على هذا النمط من سالف عهدهم وانما يختلفون في الاساليب التي يبتدعونها وقلَّ من يستطيع ان يجاهر بالشكوى منهم او يقول كما قال ذاك الاعرابي لعمر بن عبد العزيز

ان الذين بعثتَ في اقطارنا نبذوا كتابك واستُحلَّ المحرمُ
طلسُ الثياب على منابر ارضنا كلٌّ يجور وكلهم يتظلمُ
واردت ان يلي الامانة منهمُ عفٌّ وهيهات الامين المسلمُ

او مَن يقول ما قالهُ المنصور قبلما ولي الخلافة

حتى متى لا نرى عدلاً نسرُّ بهِ ولا نرى لولاة الحق اعوانا
مستمسكين بحق قائمين بهِ اذا تلوّن اهل الجور الوانا
يا للرجال لداءٍ لا دواءَ لهُ وقائد ذي عمًى يقتاد عميانا

ولا تحسبنّ العمران الغربي مزيلاً لهذه الشكوى وشافياً من هذا الداء كلاًّ بل ان مطامع اهل الغرب تفوق مطامع اهل الشرق ودهاتهم من رجال المال ورجال السياسة يتذرّعون الى نيل مآربهم بكل وسيلة ويستحلون كلّ عمل فيدخل روّادهم بلاداً بعيدة ويخاتلون صاحبها حتى يعاهدهم معاهدة لا بدّ لهُ من الاخلال بها ثم يتعقبونهُ الى ان يستولوا على بلادهِ او على خيراتها بحجة مخالفتهِ لذلك العهد . ولا بدّ من ذلك ما دام هذا التنازع للبقاء سنّةً للكون

في غرفة من غرف الدار الكبيرة التي يسكنها الامير احمد ارسلان وقد سكنها ابوهُ وجدهُ من قبلهِ جماعة من الامراء والمشايخ والعقّال اجتمعوا على اثر عودة الامير احمد من عند الكولونل روز وتداولوا في احوال الجبل فقصّ عليهم الامير ما قالهُ لهُ الكولونل وما قالهُ الوالي وجعل كلٌّ يبدي رأيهُ ويعيد تاريخ الجبل ويذكر اسباب الاحقاد القديمة من عهد آل تنوخ وآل معن وتعرُّض الدول الاوربية لابرهيم باشا وكيف استتبت السلطة للباب العالي على البلاد بمساعدة دولة انكلترا ولولاها ما استطاعت الدولة العلية ان تخرج ابرهيم باشا من بلاد الشام بل كان نصف رجال الدروز الآن منتظمين في سلك الجنود المصرية . وبعد كلام طويل في هذا الشأن تناول الحديث شيخ اشيب من التلاحقة وقصّ عليهم ما فعلهُ السنيور ود قنصل الانكليز في دمشق الشام منذ ثماني عشرة سنة لما هرب الامير امين ارسلان والامير اسعد شهاب ونحو الفين من الدروز الى حوران فراراً من عمر باشا الذي اعتقل امراء الدروز ومشايخها وكاد يوقع بكل عظيم منهم فان والي الشام اوجس منهم شرًّا لا سيما وانهُ يعلم ما فعل الدروز بعساكر ابرهيم باشا في تلك البلاد الوعرة فجمع اعوانهُ واستشارهم في الامر فاشاروا عليهِ ان يلجأ الى السنيور ود لكي يقنع الدروز بالعودة الى الطاعة والرجوع الى

اوطانهم . والظاهر ان السنيور ود سرَّ بذلك لانهُ كان يود ان يتوسط امر الدروز من نفسهِ ويخشى ان لا تقبل وساطتهُ على حد قولهم كل معروض مرفوض فقبل الوساطة على شرطين الاول ان يُطلب العفو لاولئك الرجال من الباب العالي . والثاني ان يؤَمنوا على ارواحهم الى ان يأْتيهم العفو . فقال لهُ الوالي احمد باشا اني اسمح لهؤُلاء العصاة ان يقيموا في دار القنصلية الى ان يصل فرمان العفو من الباب العالي وأُطلق كل اقاربهم الذين قبض عليهم وادعهم يقيمون معهم في دار القنصلية

فبعث السنيور ود ترجمانهُ الى حوران ومعهُ امر الوالي بالمهادنة الى حين وصول العفو من الاستانة وكتب معهُ الى الامراء والمشايخ ضامناً لهم سلامتهم بناءً على ضمانة الوالي لهُ وناصحاً لهم لكي يسلموا وينزلوا الى دمشق . وبعد ايام قليلة عاد الترجمان ومعهُ الامير اسعد شهاب (وكان قد انضمَّ الى الدروز لانهم وعدوهُ بالولاية على الجبل) والشيخ يوسف عبد الملك وغيرهما من مشايخ الدروز وسبعمائة من اتباعهم . ومضى السنيور ود الى الوالي بمشايخ الدروز فرحَّب الوالي بهم واعطى كلاًّ منهم شالاً من الكشمير علامة العفو والرضا . ثم وصل بقية الدروز فضاقت بهم دار القنصلية ورأى السنيور ود انهُ يستحيل عليهِ ان ينزلهم كلهم في دارهِ الى ان يرد العفو من الاستانة فسمح لهم الوالي بالعودة الى بلادهم ما عدا سبعين من روَساتهم بقوا في دمشق منتظرين فرمان العفو . وبعد شهرين جاء الفرمان المنتظر وفيهِ امر صريح بالقبض على اولئك المشايخ وقتلهم وارسال روُوسهم الى الاستانة وكان احمد باشا قد عُزل من ولاية دمشق ووُلي علي باشا بدلاً منهُ فجاء كاخيتهُ الى دار القنصلية قبلما اشتهر ما في الفرمان وقال لمشايخ الدروز على مَ انقطعتم عن التردد على دولة الوالي فتفضلوا واشربوا فنجان قهوة فانخدع الشيخ يوسف عبد الملك بهذا الكلام وسار معهُ الى دار الولاية فقبض عليهِ حالما وصلها وبلغ السنيور ود ذلك فهرع الى دار الولاية وابى ان يجلس الاَّ ويطلق سبيل الشيخ فاخبرهُ الوالي بمضمون الفرمان ثم قرأهُ لهُ فالتفت الى احمد باشا وكان جالساً مع علي باشا وقال لهُ كيف كان الاتفاق بيني وبينك أَلم يكن على كذا وكذا وقصَّ على علي باشا واقعة الحال ثم قال لاحمد باشا انك لو ذكرت للباب العالي واقعة الحال كما وقعت تماماً لجاء الفرمان بالعفو حتماً . فاجاب احمد باشا انني ذكرت لهم كل ما حدث بالتدقيق فكانت النتيجة كما ترى . وقال علي باشا لا بدَّ لنا من العمل بالامر العالي

فقال السنيور ود ان استطعتم ان تفعلوا ذلك فافعلوا ولكن اعلموا ان انكلترا لا تخفر ذمة قنصل من قناصلها

ثم احتدم الجدال بينهُ و بينهما ثلاث ساعات على غير طائل واخيرًا قالا لهُ انك ان لم تسلمنا كل الرجال الذين عندك برضاك اضطررنا ان نرسل قوة عسكرية ونستلمهم عنوةً

فاطرق برهة يفكر في امرهِ ثم قال لعلي باشا نحن اصدقاء منذ عهد طويل ولي عليك جميل لا تنكرهُ فاذا كان لا بدَّ لك من العمل حسب امر الدولة فارجو من فضلك ان تنذرني قبل ارسال القوة العسكرية بنصف ساعة حتى اخرج النساء والاطفال من دار القنصلية

فقال لهُ علي باشا وهل مرادك ان تقاومنا بالقوة

فقال القنصل حتمًا ولا بدَّ لي من الدفاع عن شرف القنصلية ولا يمكن ان تمسوا احدًا من كل الذين في حمانا ما دمت في قيد الحياة وانت تعلم ما يفعل اناس مسلحون مثلنا اذا وقعنا في اليأس ولا يخفى عليك ان الدولة الانكليزية لا تدع نقطةً من دمنا تذهب هدرًا فاذا شئت ان تلقي دولتك في المشاكل فافعل ما تشاء

ثم نهض وهمَّ بالخروج فطلب اليهِ علي باشا ان يتمهل واخذ يفكر في امرهِ ثم قال لهُ اني اعرف الانكليز واعرف مقدرتهم ولا اريد ان اكون سببًا للخلاف بينهم وبين دولتنا العلية فآخذ العهدة على نفسي واوقف الامر العالي وغاية ما يصيبني العزل او الابعاد وهما اهون من حرب دولية

ثم امر بان يطلق سبيل الشيخ يوسف عبد الملك فعاد الى دار القنصلية بين ستة من القواسة . واجتمع اهالي دمشق يرون مقدرة قنصل الانكليز ويعجبون بها

قال المتكلم وبقينا في دار القنصليَّة سبعة اشهر لاني كنت في جملة من لجأ اليها الى ان جاء العفو من الاستانة وقد بلغنا ان العفو صدر منها بواسطة سفير الانكليز فاذا كان قناصل الانكليز وسفراؤهم يحموننا ويدافعون عنا اينما كنا فكيف لا نسمع مشورتهم ولا نعمل حسب ارادتهم

وكان المتكلم شيخًا جليلاً مسموع الكلمة وكانت هذه الحادثة معروفة عند بعض الحضور فشهدوا بصحتها وكاد ينفض الاجتماع على ان لا يحركوا ساكنًا ولا يأتوا عملاً من شأنهِ اثارة حرب اهلية في البلاد ولكن قال واحد منهم قبل انفضاض المجلس هب ان خصومنا اعتدوا علينا وتكرَّر اعتداؤهم فهل نصبر على الضيم فأجاب اكثر الحضور كلاَّ كلاَّ . ثم اتفقوا على ان يرسلوا خبر ما قرَّ عليهِ قرارهم الى الخلوات كلها في الجبل ووادي التيم وحوران

ستأتي البقية

الفصل الخامس

سورية في البارلمنت الانكليزي

غطى الضباب مدينة لندن ووقفت المركبات عن السير والناس عن المشي ولم تعد المصابيح تُرى في الشوارع فلم يصل الأعضاء الى دار البارلمنت الاَّ بشق الانفس . ولما انتظم عقدهم وجلس كلٌّ في مكانهِ حسب درجتهِ دارت المجادلات على نتائج الحرب بين النمسا وسردينيا ومعاهدة زورك وتنازل امبراطور النمسا عن لمبرديا للامبراطور نبوليون الثالث الذي اعطاها لسردينيا وعلى ماجريات الحرب الاميركية الاهلية والقبض علي جون برَوْن الذي غنم الترسانة الاميركية بعد ان قُتل نصف رجالهِ . وعلى ما جرى لسفراء انكلترا وفرنسا واميركا في بلاد الصين وهم ذاهبون الى بكين فصُدُّوا عن دخولها . وطال البحث في هذه المسائل الى ما بعد نصف الليل

وكان العضو النائب عن لنكشير قد طلب من مجلس النواب ان ينظر في ما شاع عن قرب نشوب الحرب في سورية وعما يقال عن دسائس بعض الدول الاوربية رغبة في احتلال تلك البلاد واقفال ابوابها دون التجارة الانكليزية . فلما حانت الفرصة للمناقشة في هذا الموضوع نهض وقال ان لنا في سورية تجارة واسعة فنرسل الى مدينة بيروت في السنة ما ثمنهُ اكثر من ستماية الف جنيه فاذا نشبت حرب اهلية هناك بارت تجارتنا واذا استولت عليها دولة اوربية فقولوا على تجارتنا السلام . وانا اسأل الرئيس عمَّا عندهُ من الاخبار في هذا الصدد وعن التحوُّطات التي اتخذتها الحكومة لمنع هذا الضرر عن التجارة الانكليزية

فقال الرئيس ان الوزارة مهتمَّة بهذا الامر تمام الاهتمام وقد عقدت لجنة للبحث فيهِ ومتى علمت الخبر اليقين لا تضن باطلاع المجلس عليهِ

فقال العضو اننا لا نكتفي باطلاعنا على الاخبار لان عملاءنا في تلك البلاد يكتبون لنا باخبارها كل اسبوع ونحن نعلمها كما تعلمها الوزارة وانما يهمنا ان تتخذ الحكومة التدابير اللازمة لمنع الحرب الاهلية وان تذاكر الحكومة الطامعة باحتلال سورية وتكف يدها عن ذلك

فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذه المسائل كلها وهي ترجو ان تطرح على المجلس نتيجة اعمالها بعد وقت غير بعيد . ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان الوزارة تهتم بكل امر لهُ علاقة بنا ولكنها لا تكفل النجاح في كل امر لان زمام الدنيا ليس في يدنا

ونهض المستر غلادستون حينئذٍ وكان ناظرًا للمالية وقال ان مالية البلاد لا تمكن الوزارة

من عمل كل ما تتمناهُ ولكن الوزارة لا تضن بانفاق المال اذا كان انفاقهُ واجبًا لتعزيز قوة البلاد وحفظ متاجرها . ثم قال ولا يخفى على حضرة العضو الكريم ان جيوشنا تحارب الآن في بلاد الصين مع جيوش الدولة التي اشار اليها ولنا كلينا مصلحة واحدة فلا ننتظر منها ان تسعى في عمل يكون من ورائهِ الاضرار بنا

ففهم الاعضاء مع كلامهِ تهديدًا خفيًّا ولكنهُ لطيف لا يؤاخذ بهِ

وفي اليوم التالي اجتمعت اللجنة برئاسة لورد رسل وزير الخارجية ونظرت في ما كتبهُ سفير انكلترا في الاستانة عن ثورة الافكار التي يراد بها خلع السلطان عبد المجيد باية واسطة كانت ولو بالتنكيل بالمسيحيين حتى تنهض دول اوربا وتنتصر لهم . وفي ما كتبهُ قنصلها في بيروت عن سعي فرنسا المتواصل في تحريض موارنة الجبل على مقاومة القوة بالقوة . ثم نظرت في تقرير غرفة التجارة عمَّا تستوردهُ سورية من منسوجات انكلترا وما تصدرهُ اليها من الصوف وعرق السوس . وبعد بحث طويل في هذا الموضوع قرَّ رأيها على ما تكتب بهِ الى سفيرها في الاستانة والى سفيرها في باريس وخلاصتهُ السعي في منع الحرب الاهلية بكل واسطة ممكنة وحمل الدروز على الاخلاد الى السكينة وعدم الاغترار بمواعيد الولاة الذين يعدونهم بالمساعدة

وفي تلك الليلة اجتمع جماعة من الماليين عند واحد منهم ودار البحث على القرض الاخير الذي عقدتهُ فرنسا والقرض الثاني الذي طلبهُ فكتور عمانوئيل ملك سردينيا ليستعين بهِ على ضم ممالك ايطاليا بعضها الى بعض

فقال احد الحضور واسمهُ ابن حاييم ان القرض الأول مكَّن فكتور عمانوئيل من التغلُّب على النمسا فاذا تيسَّر لهُ بهذا القرض الثاني ان يضمَّ ممالك ايطاليا بعضها الى بعض ويصير ملكًا عليها كلها نكون قد خدمنا امرة سافوى خدمةً لا مثيل لها جزاء دفاعها عنَّا

وقال آخر ليس من غرضنا ان نخدمهُ او لا نخدمهُ بل ان نستثمر اموالنا في بلاد نأمن عليها فيها . اما فرنسا فماليتها ثابتة وشعبها مجتهد مقتصد ولا خوف عليها مهما زاد دينها واما ايطاليا فبلاد فقيرة واكثر خيراتها تذهب الى خدَمة الدين فيها . ولو علمنا ان حياة كافور تطول عشرين سنة اخرى لوثقنا انهُ يصلح البلاد ويبني مالية الحكومة على اساس وطيد اما واحوال ايطاليا لا تزال مرتبكة والسلطة الدينية قوية فيها فلا يحسن المجازفة في تديين المال لها

وبعد اخذ وعطاء في هذا الموضوع اتفقوا على ان لا يكتتبوا باكثر من مئة مليون فرنك

ثم قال ابن حاييم كتب الينا الخواجه بخور من دمشق ان الاحوال فيها وفي بيروت

ليست علي ما يرام وان دروز الجبل يستعدون للحرب الاهلية وقد استدان روُساؤُهم منهُ نحو خمسين الف جنيه بربا عشرين في المئة وطلبوا مئة الف جنيه اخرى وهو لا يرى مانعاً يمنع اعطاءهم اياها لانهم وعدوهُ برهن ضياعهم في البقاع وهي تساوي اضعاف ذلك . والدروز داخلون في ذمة انكلترا فلا يجسرون ان يهضموا لنا حقًّا عندهم

وقال آخر انني التقيت منذ ساعة باللورد فلان فاخبرني ان الوزارة باذلة جهدها في منع الحرب الاهلية من سورية وقد ارسلت الاوامر المشدَّدة الى سفيرها في باريس وسفيرها في الاستانة ليبذلا جهدهما في ما يمنع اثارة الحرب

فقال ابن حايم ان تمَّ ذلك فهو اصلح لنا وان لم يتم ونشبت الحرب فلا بدَّ من ان تلجأ الدولة العثمانية الى التعويض على المنكوبين وخزائنها فارغة فينفتح امامنا سبيل آخر للكسب

الفصل السادس

التفتيش الاول

لما حان الوقت الموعود لذهاب السر هنري بدمونت الى الشويفات لزيارة الامير احمد والتفتيش عن المغارة التي فيها رفات جدهِ كونت بدمونت خاطب الكولونل روز في ذلك وطلب منهُ ان يسمح لهُ بذهاب الترجمان معهُ لئلاَّ يجد الامير احمد غائباً فيتعذَّر عليهِ التكلم مع احد لانهُ لا يعرف كلمة من العربيَّة . وقام في الصباح وركب جوادهُ وركب معهُ الترجمان ايضاً وقوَّاس من قواسة القنصلاتو وساروا نحو الشويفات فوصلوها بعد ساعتين من الزمان ولقوا الامير احمد في انتظارهم عند نهر الغدير ومعهُ جماعة من الامراء ابناء عمهِ والخدم والحشم فرحَّبوا بالسر هنري وساروا امامهُ وكان الامراء بالخيول المطهَّمة وقد غطوا سروجها بصفائح الذهب الوهاج فوق لبد الشعر الاسود وقلدوا اعناقها برصائف من الذهب لوسواسها نغم شجي تسمعهُ الاصائل وتطرب بهِ فيزيد اعجابها وتهاديها فتظنها ترقص رقصاً وهي تسير زميلاً . حتى اذا بلغوا دار الامير احمد استأذنوا السر هنري في نصب الميدان اكراماً لهُ وانقسموا قسمين وجعلوا يكرون ويفرون ويتراشقون بالجريد فطرب لذلك طرباً شديداً . وكانت الشمس قد تكبدت السماء واشتدَّ الهجير فشكرهم على ما ابدوهُ لهُ وقال انهُ طالما تمنى ان يرى ميداناً مثل هذا يلعب فيهِ امراء البلاد على صهوات الصافنات الجياد . ثم ترجَّل وترجلوا ودخلوا ديواناً جلسوا فيهِ واستراحوا هنيهة وقدمت لهم الشربات والشبقات ومدَّ السماط وعليهِ فاخر الطعام وأُتي بعدهُ بالحلويَّات وكانوا ثمانيةً الامير احمد وخمسة من ابناء اعمامهِ

والسر هنري والترجمان . واكل السر هنري من كل الالوان واستطابها على دسمها وكان يكلم الامير احمد بالفرنسوية وهو يترجم لابناء عمهِ

واستراحوا بعد الطعام ساعة زمانية ثم التفت السر هنري الى الامير احمد وقال لهُ لا بد لي من العودة الى بيروت الليلة وارجو من فضلك ان ترسل معي واحدًا من اتباعك يريني ما حول بلدكم من المغاير. فقال الامير احمد انا اذهب في خدمتك فهل تريد ان نذهب راكبين او ماشيين . فقال السر هنري بل افضل ان نذهب ماشيين الّا اذا وجدت في ذلك مشقة او كان المكان بعيدًا جدًّا

فضحك الامير احمد وقال اني اجري النهار كلهُ وراء الصيد واحبُّ ما عليَّ ان امشي معك لاسيما واننا مضطرون ان نصعد وننزل في اماكن لا تسير الخيل فيها . ثم قاما وودعا الحضور وسارا وحدهما قاصدين المغاير التي كان الامير احمد يمرُّ بها وهو يجري وراء الصيد فنزلا اولاً الى غربي القرية ودارا الى جنوبيها وشرقيها وهبطا في جهة كفرشيما ومشى معهما ثلاثة من خدم الامير وكانا كلما وصلا الى باب مغارة يراجع السر هنري ما قالهُ ولف خادم جدهِ عن وصف المغارة والجهة التي تطل عليها ويدخل الخدم المغارة ويخبرون عمَّا رأوهُ فيها واستمروا على هذه الحال نحو ثلاث ساعات الى ان اجهدهم التعب ومالت الشمس الى المغيب ولم يرَ السر هنري مكانًا ينطبق على الوصف الذي عندهُ

وبينما كان السر هنري والامير احمد يجوبان الشعاب والهضاب يفتشان عن المغارة التي دفن فيها الكونت بدمونت كانت الاميرة هند خالة الامير احمد قد ذهبت هي وابنتها وابنة سلفها الى نبع ماء في مكان بين كفرشيما والشويفات وتغدين هناك ثم تبعتهنَّ ام يوسف واتى معها رجل قزم كثير الهزل والمزاح يسمى عنتر وهو من افكه الناس حديثًا واسرعهم خاطرًا يقيم في دور الامراء للهزل والتهريج فلما وصل قال للاميرات خافت ام يوسف ان تخطفها الجن اذا اتت وحدها فاتت بي معها مع اني اكدت لها ان الجن يخاف منها ولو لم يكن ابو يوسف اعمى القلب ما وقع هذه الوقعة ولكن لا فولة مسوسة الّا ولها كيّال اعمى

فانتهرتهُ ام يوسف وقالت اسكت ياخبيث وخلّنا من لسانك ولا تذكر مسألة الجن فان الست سلمى لا تصدق بالجن ولا بالعفاريت

فقالت الاميرة صفا دعونا من سير الجن والعفاريت فاني خفت في المرة الماضية ولم انم طول الليل

فقال القزم الحق في يد الست صفا وانا اخاف من الجن لئلاَّ تخطفني . وعلى ليقه

ياست هند اتاكم ضيوف من اولاد عمكم ملأوا الدار

فقالت قبحك الله على هذه البشارة نحن نهرب من الناس والناس تلحقنا

فقال اذا اردتِ ان تتخلصي منهم فلا اسهل من ذلك ديني الفقير منهم فلا تعودي ترين وجههُ واطلبي من الغني ان يدينكِ فلا يعود يرى وجهكِ

فقالت اصبت وان كان فراق البدوي بعبا فلا كان البدوي ولا كانت العبا

وقبل ان تتم كلامها وصل الامير احمد والسر هنري والرجال الثلاثة الذين معهم . فاضطربت الاميرات لما رأين رجلاً بثياب افرنجية ولكن لم يطل اضطرابهنَّ لان الامير احمد كان قد اخبرهنَّ انهُ لقي في بيروت عند القنصل شابًّا انكليزيًّا من عائلة شريفة وانهُ وعدهُ بزيارة الشويفات بعد ايام قليلة فلما رأَينهُ ادركنَ حالاً انهُ هو الشاب الذي اخبرهنَّ عنهُ . وتقدم الامير احمد وعرَّفهنَّ بهِ

فنظرت اليهِ الاميرات معجبات من جمال طلعتهِ واعتدال قامتهِ ونظر هو اليهنَّ فرأى الجمال الشرقي الذي قرأ عنهُ في حكاية الف ليلة وليلة وكتُب الروايات والرحلات وكان يظن انهُ من قبيل الشعر والمبالغات

ودعتها الاميرة هند للجلوس معهنَّ وشرب القهوة وقدَّمت لهما السكاير وسألت السر هنري عن كيف رأى البلاد وعمَّا اذا كان معهُ احد من اهلهِ وطلبت اليهِ ان يزورهم ويضيفهم تلك الليلة . وكان الامير احمد يترجم بينها وبينهُ فاجابها السر هنري انهُ آسف لانهُ ثقَّل عليهنَّ بمجيئهِ اليهنَّ في تلك الساعة ولكنهُ سُرَّ جدًّا برؤية الاميرات الشهابيات وانهُ كان يحسب انهنَّ يحتجبنَ مثل سائر نساء الجبل فاذا هنَّ مثل الاميرات في بلادهِ لا يحرمن مخلوقات الله من نظرهنَّ كما لا تحرم الشمس النبات من باهر اشعتها

فسرَّت الاميرة هند بهذا التشبيه ونظرت صفا وسلمى اليهِ باسمتين ثم اطرقتا حياء اما القزم فكان يتأخر الى الوراء رويدًا رويدًا وهو يزور بعينيهِ ويقلب شفتيهِ . والتفت اليهِ الامير احمد وقال لهُ مالي اراك تهرب منا يا عنتر

فقال متى حضرت الملائكة هربت الشياطين . فقال الامير اذًا كان يجب ان تهرب قبل مجيئنا

فقال عنتر كنت عازمًا على الهرب ولكن ام يوسف مسكتني لانهُ لا يطيب لها عيش في البعد عني

فقالت ام يوسف اسكت يا لعين خلّنا من شرك فانت في كل عرس لك قرص

والتفت السرهنري الى الامير احمد كأنهُ يستفهم منهُ عمَّا يقولهُ القزم فترجمهُ لهُ فضحك وهو يقول في نفسهِ هذا مجلس من مجالس الامراء حقيقة وهذا من الاقزام الذين لا يخلو منهم مجلس انس من مجالس الملوك

وكان الخدم قد غلوا القهوة وارادوا تقديمها للسرهنري قبل غيرهِ فأبى الَّا ان تقدَّم الى الاميرات اولاً . فقالت لهُ الاميرة هند اذاً العادة عندكم مثل العادة عندنا تقديم الاميرات على الامراء . وترجم لهُ الامير احمد ذلك وقال لهُ ان هذه هي العادة عندنا ايضاً ولكنها خاصَّة بالاميرات واما سائر الناس فرجالهم مقدمون على النساء في كل شيءٍ . فعجب السرهنري من ذلك وقال اذاً لم يفضَّل اميرات الشرق الَّا لان حقهن في التفضيل اثبت من ان يُنكر

وكان مجلسهُ مواجهاً لمجلس الاميرة سلمى فلم يسعهُ الَّا النظر اليها مرةً بعد اخرى فصبغ الحياء وجنتيها وزادها جمالاً على جمال . ولحظ حرج موقفها وشعر من نفسهِ انهُ في موقف تذوب فيهِ المهج فنهض واستأذن في الانصراف فنهض السيدات اجلالاً لهُ فودعهنَّ مصافحةً وعاد ادراجهُ هو والامير احمد وهو مبلبل الافكار وخاف ان يظهر امرهُ فجعل يحاول جمع افكارهِ المشتتة وهو ينظر الى ما حولهُ فيرى صوراً تمر امام عينيهِ ولا يفقه لها معنىً الى ان وقعت عينهُ على نبات صغير الورق لهُ ثمر احمر كحبوب المرجان فوقف وقال للامير احمد انظر هذا نبات الفوّة الذي يستعمل في الصباغة وهذه اول مرة رأيتهُ نابتاً

وكان عارفاً بعلم النبات مغرماً بجمع الحشائش فاخذ يصف بعض ما يراهُ منها لكي يخفي ما بهِ من تبلبل الافكار

ولجَّ عليهِ الامير احمد لكي يبيت عندهُ تلك الليلة وارسلت امهُ تلجُّ ايضاً فاعتذر بانهُ لا بدَّ من عودتهِ حالاً لكي يكتب مكاتيبهُ لقيام سفينة البريد في الصباح لكنهُ وعد بالعودة في الاسبوع التالي لاستئناف البحث عن المغارة

الفصل السابع

مطارح النظر

التنازع سنَّة الكون بهِ ارتقت انواع الحيوان والنبات واليهِ مرجع التفاضل بين الشعوب والامم . وهو شامل لاعمق عواطف النفس كما انهُ عامٌّ لما في الكون من العوالم

كان السرهنري بدمونت مغرماً بابنة خالهِ اڤلين برادن يراها عين الكمال ومجمع الجمال وهي تدلُّ عليهِ ولا ترى في قلبها ما يجذبها اليهِ لانها رأت منهُ سيراً على غير الطريق السوي مثل

اكثر الشبان الذين يربون في نعمة وينغمسون في الملاهي. فان امهُ ارسلتهُ الى مدرسة اكسفرد وقطعت لهُ مئة جنيه في الشهر فكان ينفقها وينفق فوقها وهذا شأن اكثر الشبان في تلك المدرسة . وكان قليل الدرس ولكنهُ ذكي الفؤاد فحصَّل ما يكفي لنيل الشهادة وخرج من المدرسة ولا مطمع لهُ في الدنيا الاَّ ابنة خالهِ فلا يرى غيرها ولما رأي منها الدل والصدود رهن نفسهُ لمشيئتها وانقطع عن الملاهي وعكف على الدرس وطلب المعالي ولا غاية لهُ الاَّ رضاها حتى حسدها عليهِ اترابها . اما هي فبقي الدلال شأنها والغنج ديدنها . وحدث ذات يوم ان ذكرت القاب الشرف وانساب الشرفاء فقال ان جدَّهُ كان مع الملك ركارد ملك الانكليز الملقب بقلب الاسد وانهُ كان فارساً مغوارًا وانعم عليهِ الملك بلقب كونت قبل وفاتهِ

فتبسمت اڤلين قائلة اراك تصدّق هذه الاقاصيص الموضوعة كأَنها حقائق راهنة

فقال لها هذا ليس من الاقاصيص الموضوعة بل هو خبر ثابت بالسند المتصل وانا اصدّق ولف كما اصدّق اصدق الناس . والفارس الباسل لا يكذب ولا يختلق الاخبار . وقد ذكر ولف في الخبر الذي نُقل عنهُ انهُ وضع وثيقة لقب جدي على صدرهِ لما دفنهُ وهذا كلام من رأى بعينهِ ولمس بيدهِ . نعم ان نجهُ هذا اللقب غير مذكور في سجل الالقاب ولكن اي سجل يحفظ بالتدقيق والناس في دار الحرب . ولم تصفُ الايام لقلب الاسد بعد رجوعهِ وخلاصهِ من الاسر حتى تطالبهُ عائلتنا باثبات ذلك في سجلات الحكومة

فبقيت اڤلين على ريبها وقالت لهُ ان انت وجدت الوثيقة اثبتّ الكونتية لك لانك الوارث الوحيد لهُ الآن

فقال نعم وسأفعل ذلك وابذل دونهُ كل مرتخص وغالٍ ان كان يرضيكِ

وكانت تتكلم معهُ على سبيل المزاح اما هو فاخذ الامر بالجد وجعل يفتش في كتب الانساب والتواريخ وعقد النيَّة على الذهاب الى سورية ليفتش عن الوثيقة فيها . وكان قد انتظم في وزارة الخارجيَّة فطلب ان يُنقَل الى بلاد الشام فنقل اولاً الى الاستانة ثم الى مدينة بيروت وآمالهُ معلقة باكتشاف الوثيقة وارضاء ابنة خالهِ وهو لا يرى غيرها امام عينيهِ . اما الآن فعاد من الشويفات على غير ما ذهب فقد ذهب اليها وفي قلبهِ شخص واحد وامام عينهِ مطلب لا يرى سواهُ وهو ان يعود بالوثيقة فترضى ابنة خالهِ عنهُ وترتفع منزلتهُ في عينيها وعاد وقلبهُ يتنازعهُ شخص آخر شخص الجمال والدلال فتاة لم يرَ اجمل منها في بلادهِ ولا في غيرها فتاة من نسل الامراء الذين حاربوا فرسان الصليب ودحروهم في بلاد الشام . ولقد ربي مع ابنة خالهِ وشبَّ معها واحبَّها كما يحبُّ الاخ اختهُ ولكنهُ كان يشعر دائماً انها بعيدة عنهُ

وازداد البعد بتقدمهما في السن فظن انهُ لم يملأ عينيها لسيرهِ في طرق لا ترضيها فغيَّر اسلوب معيشتهِ وبذل جهدهُ في مرضاتها . وكلما ظن انهُ بلغ المراد رأى انهُ لم يزل حيث كان بالنسبة اليها لا هي تقصيهِ ولا هي تدنيهِ لكنهُ لم يفشل ولا قطع الامل وقد تحمَّل مشقة السفر الى بلاد الشام قربةً منها وزلفى

والآن شعر كأن آمالهُ كلها كانت اماني واقلين لا تحبهُ الاَّ كما تحب الاخت اخاها تهتمُّ بامرهِ وترجو لهُ الخير والفلاح تحزن لحزنهِ وتفرح لفرحهِ . تتألم اذا اصابهُ مكروه وتفتخر اذا فعل فعال الكرام وتفتديهِ بنفسها اذا وقع في شدة ولكنها لا تلقي اعتمادها عليهِ ولا تحسب انهُ الرجل الذي يكفلها في السراء والضراء

ثم قال في نفسهِ ولكن من هذه الاميرة ومن هم قومها وما هي اخلاقهم واطوارهم ومن اي مذهب هم وكيف ينظرون اليَّ وقد لا اراها بعد الآن وقد تكون مخطوبة او متزوجة وقد يكون اهلها ارفع مني حسباً ونسباً فلا يتنازلون لمصاهرة اناس مثلنا . كنت استطيع ان اسأل الترجمان عنها ولكنهُ يعد ذلك فضولاً مني . ولا يبعد ان تكون خطيبةً للامير احمد وهي ابنة خالتهِ ولعلها احمرَّت لما رأتهُ . لم تتكلم على مسمعي غير كلمة واحدة حينما عرَّفها بي فقد قالت بالفرنسوية انها تسر بمعرفتي . ما امهر هؤُلاء الفرنسويين في تعليم لغتهم ونشرها في الآفاق . هذا كلهُ فعل الرهبنات . يطردونهم من بلادهم وينفقون عليهم في سائر البلدان لينشروا فيها لغتهم . لا بدَّ من ايضاح ذلك لنظارة الخارجيَّة حتى تهتم حكومتنا بنشر لغتنا اهتمام الفرنسويين بنشر لغتهم

سأكتب لامي عن هذه الفتاة وهي تقرأ كتابي لاقلين فتثور الغيرة في قلبها ذلك القلب الطاهر . قوتل الرجال ما اقل وفاءهم . لا لا لا انساكِ يا اقلين ابداً . ان افتكاري بهذه الاميرة السورية من قبيل الجنون الوقتي الذي يعتري الشاب . دقائق جديدة تكونت في دماغي كما يقول العلماء ارتسمت فيها اول صورة وقعت عليها لكنها تزول سريعاً كما ارتسمت سريعاً

خطرت هذه الخواطر على بال السر هنري وناجى نفسهُ بها وهو ماسك القلم وعازم على الكتابة لامهِ ونظر الى ساعة امامهُ وقال حسبي من احلام الصبا وانغض رأسهُ مسرعاً كانهُ يجزر ذباباً حطَّ عليهِ وغرضهُ نزع هذه الافكار من بالهِ وشرع في الكتابة فملأَ صفحات كثيرة وصف فيها كل ما لقيهُ في ذهابهِ الى الشويفات ورجوعهِ منها

الفصل الثامن

الاجتماع الثاني

عاد وكلاء الدولة والعلماء الى الاجتماع في دار رشيد افندي وكلهم متشوف الى الاطلاع على ما فعلتهُ اللجنة التنفيذية التي شُكّلت لاجراء ما اقروا عليهِ في اجتماعهم السابق وعلى ما ورد عليها من اشياعهم في سورية فقرئ كتاب وارد من دمشق مؤداهُ ان سكانها على اتم الوفاق والوئام وانهُ يتعذر ايقاظ الفتنة فيها لا سيما وان اميرًا من نزلائها لا يستحل خفر ذمة احد بوجه من الوجوه ولا يصدق ان ما طُلب منهُ يعود بالنفع على احد . واعوانهُ اشداء يفعلون كل ما يأمرهم فيستطيع ان يحمي بهم المدينة كلها

ولما قُرئ هذا الكتاب ضحك احد المأمورين وقال ان كانت كل الكتب التي وردتنا على هذا النسق فلا فائدة من قراءتها غير التضليل فان الامير هو الذي اشار على فرنسا باحتلال سورية وارشدها الى السبيل المؤدي الى ذلك فوعدتهُ بجعلهِ اميرًا عليها

فناقضهُ مأمور آخر وكثر الحجاج واللجاج بين الطرفين الى ان تصدَّى لهما احد الحضور واطلعهما على كتابة معهُ من سفارة باريس فنظروا فيها ثم نظر بعضهم الى بعض وصمتوا

وقرئ كتاب وارد من بيروت وكلهُ امل وتأكيد وتفاؤل بنيل المراد. فقال احد العلماء اوصوهم ان لا يسرفوا . ثم قرئ كتاب وارد من لبنان يشكو كاتبهُ فيهِ من احد المأمورين ويقول اننا نظنهُ جاسوسًا وطلب ابعادهُ فكلّف احد الحضور بالسعي في نقلهِ الى ولاية اخرى

ودار الكلام على الخطة التي يراد اتباعها في كل انحاء الولاية بناء على الكتاب المسهب المرسل من سفارة لندن . ومدار هذه الخطة اثارة الرأي العام الاوربي باعمال تستفز الاوربيين الى "التداخل" ولا خوف من فوز المعتدى عليهم لان دولة عظيمة ستمنعهم من ان يعضدوا بعضهم بعضًا ولا يتسع لها مجال التداخل لان الدولة المناظرة لها توقفها عند حدها وتحبط مساعيها وتمنعها من ازدراد اللقمة التي اختطفتها فتحصل الغاية المطلوبة من غير ضرر كبير

وكان بين الحضور رجل اشيب تدلُّ ملامح وجههِ على انهُ عرك الدهر وذاق ما فيهِ من خلٍ وخمر وكان صامتًا لا يتكلم ولكن وجههُ يدلُّ على انهُ كان يتتبَّع المتكلمين ويزن كل كلمة فلما رأى انهم فرغوا من الكلام التفت الى رئيس المجلس وقال لقد علمتنا التجارب ان العامَّة لا تقف عند حد محدود اذا أُطلق لها العنان والذي اخشاهُ هو ان النتيجة لا تكون حسب التقدير فلو نلنا بغيتنا وافتديناها برجل او رجلين او عشرة او مئة لهان الامر وقلنا ويل اهون

من ويلين ولكنني اخاف ان نطلق العنان للغوغاء فيسرفوا في القتل والتنكيل فتفقد البلاد جانباً كبيرًا من سكانها الذين عليهم اعتمادها في الصناعة والتجارة ويتسع المجال للتداخل الاوربي فوق ما نريد . فهما بالغنا في التحذير لكي لا يسرفوا لا نوفي الامر حقَّة ولا بدَّ لنا من انتداب اناس يعوَّل عليهم لكي يديروا هذه الحركة ضمن حدودها المعقولة فوافقوهُ على رأيهِ وانتدبوا ثلاثة ارسلوهم الى بلاد الشام لهذه الغاية

في الليلة التي اجتمع فيها وكلاء الدولة في الاستانة للنظر في امر يمكّنهم من ابدال الحالة الحاضرة باصلح منها اجتمع ثلاثة من المرابين في بيت الخواجه بخور بدمشق والبيت في حي اليهود يوصل اليهِ بزقاق ضيق لا يسع الاَّ اثنين يمشيان معاً وكذلك باب البيت ضيق واطئ يضطرُ الداخل منهُ ان يحني رأسهُ حين دخولهِ ولكن البيت واسع رحب في دارهِ فسقية كبيرة يتدفق الماء منها والارض حولها مرصوفة بالرخام المجزَّع وفيها دوائر غرست فيها اشجار الليمون والريحان وامامها ديوان عضائدهُ من الرخام الناصع البياض وابواب الغرف التي حولهُ يحيط بها قوائم من الرخام المنقوش نقشاً بديعاً يمثّل بعضهُ شرفات لها اساطين وحنايا مفرغة

ويدخل من هذه الابواب الى غرف كبيرة مفروشة بالبسط العجميَّة على جوانبها مقاعد من المخمل المعرَّق او الحرير المحجَّر تنار بمصابيح مدلاَة من السقف زجاجها ملوَّن . وفيها منصات عليها مصابيح اخرى من نوع الطلمبا يوقد فيها زيت الزيتون . وفي وسط الغرفة كانون كبير من النحاس الاصفر اوقدت فيهِ نار الفحم لتدفئتها . فدخل الثلاثة غرفةً من هذه الغرف وتداولوا في الانتقال الى بيروت لان اصدقاءهم في اوربا ولا سيما في باريس ولندن كتبوا اليهم انهُ يخشى من حرب اهلية في بلاد الشام وهم لا ناصر لهم فايَّة فئة غلبت تطمع باموالهم وتسلبها اما بيروت فلا يخلو مرفأوها من سفينة اجنبيَّة يلجأون اليها اذا دعت الضرورة

وقال واحد منهم اني لا ارى ما يخشى منهُ فبالامس استدان امير من امراء لبنان عشرين الف غرش من محلنا في بيروت لتزويج ابنتهِ فما دام الناس يهتمون بالانفاق على افراحهم فهم غير مشغولي البال بامر مهم مثل الحروب الاهلية

فقال آخر وانا جاءني من ابن خالي في دير القمر ان الناس هناك لاشغل لهم الاَّ صب الرصاص وعمل الفشك (الخرطوش) وقد اخبروهُ صريحاً انهم ينتظرون ثورة عامة

فقال الخواجه بخور وهذا هو الصواب فان عملاءنا في كل مكان يقولون ان الفتنة كامنة الآن كالنار تحت الرماد ولا بدَّ من ايقاظها قريباً ورأيي ان نستشير الامير المغربي في امر انتقالنا فاني اعتقد فيهِ الاخلاص . فاجمعوا على ان يستشيروهُ ويفعلوا حسب مشورتهِ

الفصل التاسع

العرس والميدان

خُصّت بلاد الشام باقليم لا اعدل منهُ على وجه البسيطة ساحلها من المنطقة الحارّة ينبت فيهِ النخيل والصبر والبرتقال ويقتني سكانهُ الابل لحمل اثقالهم . وجبالها يكللها الثلج اكثر فصل الشتاء والربيع وينبت فيها الارز والبربريس وتقيم فيها الدباب والارانب . والبلاد بين بين الاعتدالُ بعينهِ لا ينبت نبات في المنطقة المعتدلة الاّ ويجود فيها — التين والزيتون والكرم والتوت واللوز والجوز والمشمش والتفاح والليمون والرمان والصنوبر والسنديان والدلب والشربين والورد والياسمين . كل شجر مثمر وغير مثمر وكل نبت مزهر وغير مزهر . فصول اربعة تتوالى في مواقيتها كأنها جارية على قواعد الحساب . الخريف بوسميهِ يعدُّ الارض للزرع والشتاء بمزنهِ يخترق طبقاتها ويروي جذور اشجارها ويمدُّ مياه ينابيعها . ويفعم غدرانها وانهارها ويأتي الربيع بشآبيبهِ فيروي نباتها حتى يزهر ويثمر ثم تمسك السماء عن المطر ستة اشهر متوالية بين الاعتدالين من اواسط الربيع الى اواسط الصيف فتنضج الاثمار وتتيسر الاعمال

واذا ترفّه المرء واراد الابتعاد عن الساحل فلا اكثر من ان يسير ساعتين فيصل مكاناً هواؤُهُ عليل وماؤُهُ نمير كأنهُ انتقل من وادي النيل الى جبال الالب

ولكن مهما كثر الخير والمير في بلاد صغيرة كبلاد الشام لا تستوفي اسباب الحضارة ما لم يكن لاهلها بضاعة يتجرون بها حتى يشتروا بثمنها ما لا يجدونهُ في بلادهم من الحاجيات والكماليات فاذا كثر عندهم الحديد فقد ينقصهم النحاس واذا كثر الحرير فقد ينقصهم الكتان واذا كثرت الفضة فقد ينقصهم الذهب . ولقد كان السوريون اهل تجارة من قديم الزمان بل هم اول من ركب السفن وخاض البحار وضرب بالقوافل شرقاً وغرباً وامتدت تجارتهم من الهند الى اسبانيا على طول نصف الكرة الشرقي وساروا بسفن سليمان الى جنوبي افريقية وما ذلك الاّ لانهم وجدوا في بلادهم من البضائع ما تروج سوقهُ في سائر البلدان . وتقلبت الدول وكرت القرون بغيرها واهالي الشام يسعدون ويشقون ولكنهم لم ينفكوا عن التجارة براً وبحراً ومرّت بهم سنون تشيب الولدان وابتلوا بولاة كانهم زبانية الجحيم ولكنهم لم يفقدوا خصب ارضهم وكبر همتهم

الزمن الذي حدثت فيهِ حوادث هذه الرواية سُبق بقرون كلها ظلم جور وارهاق تلتها فترة صغيرة ساد فيها الامن . الفترة التي استتبّ فيها الامر للامير بشير الشهابي المعروف

بالكبير ثم لابرهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر. في هذه الفترة عاد الناس الى زراعتهم وتجارتهم فنقبوا اراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دود الحرير وبعثوا بهِ الى فرنسا فتدفقت عليهم ميازيب النضار · رجل واحد من اهالي عمشيت لا من الامراء ولا من المشايخ كسب من تجارة الحرير ما استطاع ان يوفي بهِ الاموال الاميرية عن بلاد البترون وبلاد جبيل وبلاد الفتوح دفعةً واحدةً · هذا الرجل واسمهُ ميخائيل طوبيا اقام في عمشيت قريتهِ وجعل يشتري الحرير من اهالي البلاد المجاورة ويرسلهُ الى مرسيليا وبلغ من علو همتهِ انهُ كان يملي على خمسة من الكتّاب في وقت واحد كانهُ نبوليون الاول · ولا يستطيع الانسان ان يدير الاعمال الكبيرة الّا اذا كان كبير الهمة

واقتنى غيرهُ قوافل من الجمال او البغال لنقل بضائع المشرق الاقصى من العراق الى دمشق ومنها الى ساحل بيروت وحمل بضائع اوربا الى داخلية البلاد لنقلها الى المشرق الاقصى . فلا تمرُّ بك ليلة الّا وتسمع غناء المكارين يحدون لجمالهم واجراس بغالهم تحيي ظلمة الليل وتطرب آذان النيام فتتدفق ينابيع النضار على جانب كبير من السكان · خلة جرى عليها اهالي الشام من عهد الفينيقيين واستمروا عليها اكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون اخرى والدهر في الناس قلّب

وكان امراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زرع التوت وتربية دود الحرير فصارت مزارعهم في البقاع تأتيهم بما يحتاجون اليهِ من الحبوب وحراجهم في الجبل تسوّم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربى فيها الدود ويعصر منها الزيت فتمتعوا برفاه العيش وظهر ذلك في اعراسهم ومآتمهم

وكانت الاميرة صفا مخطوبة للامير قاسم من امراء الحدث وجاء الوقت المعيّن للاحتفال بزفافها اليهِ فجاءها التجّار والصاغة من بيروت بالاطالس والمقصبات الحلبيّة والحلى المختلفة من عقود وقلائد وخواتم واساور واقراط وضفائر مرصعة باللؤلوء والماس والياقوت واهدى العريس اليها هدايا فاخرة من انسجة دمشق ودير القمر ومصوغات بيروت وصيداء . وجاء اليوم الموعود للخروج بموكب العروس من كفرشيما الى الحدث وهو يوم احد قبل الصوم الكبير وكانت الاميرة جلنار ام الامير قاسم تخاف ان يكون يوم العرس يوماً مطيرًا فنذرت لمار انطونيوس انهُ اذا كان اليوم صحوًا تصنع لهُ اكليلاً من الذهب وتعلق امامهُ قنديلاً من الفضة · وعلم المطران بنذرها فلما انحبس المطر من اول الاسبوع وغابت الشمس يوم السبت تحيط بها غيوم حمراء خاف ان يأتي الامر على غير ما يودُّ ولكن اصبح الصباح يوم الاحد ولا غيم في السماء

ولا ضباب في الجو وفاضت اشعة الغزالة على ربى لبنان وانتشرت علي ساحل بيروت

وفاخر بحرُ الروم لون سمائهِ   وسارت جواريهِ عليها المطارفُ
وسالت على الكثبان غدران عسجدٍ   من الشمس فيها الظل غرثان وارفُ
وساحل بيروت الخصيبُ ونهرها   وتلك الروابي والقرى والصفاصف
بساط وسيفٌ والنهود ولؤلؤٌ   نضيد على صدر الربى متراصف

وكان الامراء آل شهاب وآل ابي اللمع قد وفدوا الى الحدث من جهات مختلفة اتى كلٌّ منهم بموكبهِ من الخدم والحشم فلم تعد تسمع الاَّ صهيل الخيل واطلاق البنادق واصوات الطبول والدفوف والزمور وكلما وصل وفد منهم قوبل بالاغاني والزغاريد وقماقم العطر ومجامر البخور واجتمع اولاد القرية ووقفوا عن كثب مبهوتين مدهوشين والسعيد منهم من أُعطي فرساً ليمشي بهِ اما آباؤهم فقاموا على خدمة الضيوف والاتباع كأنهم كلهم من خدم الامير

وقام الامراء في الصباح واعتلوا صهوات خيولهم فتألف من ذلك موكب كبير يأخذ الطرف مهابةً وجلالاً سارت في مقدمتهِ الاميرة جلنار ام الامير قاسم على جواد اشهب يتهادى بما عليهِ من الحلى والى جانبيها اثنان من خواص اهل القرية ماسكان بركابها ووراءها سائر الامراء وامامهم وخلفهم خلق كثير فيهِ المغنون والمطبلون والمزمرون . وسار هذا الموكب الهوينا وكلما مرَّ ببيت قابلتهُ نساؤهُ بالزغاريد وقماقم ماء الورد الى ان خرجوا من بين البيوت وساروا في الارض البراح بين الحدث وكفرشيما وكان الماء قليلاً في نهر الغدير فقطعوهُ ولقوا هنالك وفداً من كفرشيما آتياً لاستقبالهم والترحيب بهم فتصافحوا وهم على ظهور الجياد واكثر رجالهم من اطلاق البنادق ثم نُصب الميدان في سهل فسيح على ضفة الغدير فانقسم الامراء فريقين وجعلوا يترامون بالجريد يهجم الفارس منهم والجريدة في يدهِ ويرمي بها خصمهُ فتخرج كالشهاب الثاقب لان زخم الفرس يضاف الى قوة الساعد ويراها الخصم مقبلة اليهِ فيحيد من طريقها او يغطس تحت بطن جوادهِ او يستلقيها بيدهِ او يدفعها عنهُ بجريدة اخرى . والفتيان من القريتين يجولون في الميدان وكلما وقعت جريدة التقطوها واعطوها لفارس من الفرسان . وظلَّ اولئك الامراء في كر وفر وهجوم ودفاع الى ان تصبَّبت جباههم عرقاً وسبحت جيادهم في عرقها واذا بفتى يصرخ ويقول اخ يا عيني يا امي . كان هذا الشاب يلتقط الجريد فاصابتهُ جريدة ذهبت بعينهِ فالتفَّ عليهِ غيرهُ من الفتيان واتوا بهِ الى الامير الذي ضربهُ وقالوا لهُ انظر يا سيدي عبدك فلان طارت عينهُ . فقال اربطوها لهُ ثم نادى وكيلهُ وقال لهُ ارسل الى هذا المسكين كيس غلة وخمسمائة غرش فتقدَّم ابو الفتى وقبَّل

يد الامير ودعا لهُ بطول العمر · ومن يهن يسهل الهوان عليهِ

وكان الامير احمد ارسلان في جملة المدعوين الى هذا العرس وذكرهُ للسر هنري بدمونت في احدى خطراتهِ الى بيروت فود السرهنري ان يكون حاضرًا ليشهد الميدان ولعب الجريد، فدعاه الامير احمد الى الحضور وكان يعلم ان الميدان سينصب على ضفة الغدير فوافاهُ السرهنري الى كفرشيما وسارا مع امرائها الذين لاقوا امراء الحدث ووقفا يريان الفرسان تكرُّ وتفر ولم يشتركا معهم وحاول كثيرون اغراء الامير احمد بالنزول الى الميدان فلم ينزل معتذرًا بوجود السرهنري معهُ . وهو في الباطن يخشى حدوث ما لا يرضاهُ لان الاحقاد الكامنة بين النصارى والدروز كانت قد اخذت في الظهور . وتطاول احد الفتيان عليهِ ووجَّه جريدة اليهِ وهو يقول خذها يا امير احمد ولا تقل اني غدرتك فاستلقى الامير احمد الجريدة بمحجن كان في يدهِ ولم يحذفهُ بها . وكان ابنا الامير عباس اخوا الاميرة سلمى هناك فبادرا الى الذي رمى الجريدة وتكلما معهُ لان امهما اوجست شرًّا من حضور ابن اختها فاوصت ابنيها ان لا يفارقاهُ وقالت لهما ان العيون محمَّرة فلا تدعا ابن خالتكما وحدهُ

ولما انتهى الميدان واصيب الفتى بجريدة فقأت عينهُ . قال بعض الحضور ان هذا الامير الافرنجي لا بد وان يكون عارفًا بالطب فاتوا بالفتى اليهِ فنظر واذا العين قد فقئت تمامًا فقال للامير احمد لا ارى ان رد النظر اليها في الامكان ولكن يجب ان تعالج لكي لا تلتهب ويمتد الالتهاب الى اختها ثم نزع ورقة من جيبهِ وكتب لهُ سطرين الى طبيب في بيروت ليذهب اليهِ بها فاخذها الفتى وقبل يدهُ

ثم سار الموكب في طريقهِ كأن عين ذلك الفتى ذبابة كانت على رأسهِ فاطارتها الجريدة عنها حتى اذا بلغ الموكب دار العروس في كفرشيما علت الزغاريد وطلقات البنادق واصوات الطبول والزمور وبادر رجال القرية الى استلام الخيول والمشي بها · وتصافح الامراء ودخلت ام العريس واعتنقت كنتها، ثم قُدمت القهوة والشبقات ومُدَّت اسمطة الطعام من الخرفان المحمرة والديوك المقمرة والرز المفلفل والالبان والاسماك وانواع الحلوى . ولما فرغ الامراء من الطعام جلس الاهالي والاتباع افواجًا افواجًا حتى اذا امتلأَت الخواصر وفرغت الجفان انتظم الموكب ثانيةً وقامت العروس فودعتها الاميرة سلمى وكاد يغمى عليها واعتنقتها الاميرة هند وهي تبكي لانها ربتها بعد وفاة امها فكانت مثل ام لها وودعها ابوها وزوجتهُ لانهُ كان قد تزوج بعد وفاة امها . فخنقت العبرات الاميرة صفا لا سيما وانها تذكرت امها وشعرت حينئذٍ باليتم شعورًا اليمًا لم يخامر قلبها من قبل · ثم اركبوها وساروا بها الهوينا وهم ينشدون

الاناشيد ويطبلون ويزمرون الى ان وصلوا الى دار العريس فقام المطران ولفيف الكهنة بصلاة الاكليل ووزعت الهدايا من اكياس القصب ومناديل الحرير ومدت اسمطة الطعام وزينت الدار وما حولها تلك الليلة واطلقت فيها السهام النارية

وبينما الناس في لهو وطرب يغنون ويزمرون ويطلقون السهام فتشق عنان السماء علت الجلبة والضوضاء وهجم القوم بعضهم على بعض حتى اختلط الحابل بالنابل . فان شاباً كان يطلق سهماً فاصاب فتى من اولاد الامراء في راسهِ فوقع صريعاً وظن ابوهُ ان السهم ارداهُ فاستل سيفهُ وضرب الشاب بهِ فانتصر لهُ رفاقهُ وهجموا على الامير وهجم اعوانهُ عليهم وعلا الصياح حتى اختلط الجمع كلهُ اختلاطاً وخرج العريس ومن معهُ وخرج النساء ايضاً وتركن العروس في حجلتها . وكان الظلام حالكاً خارج البيت الاّ حيث توقد المشاعل فتركها الرجال الموكلون بها واختلطوا بالغوغاء ومضت ساعتان من الزمان وذلك الجمع كالبحر الزاخر ثم خمد الهيجان رويداً رويداً فانجلي عن كثيرين من الجرحى والعريس في جملتهم فانهُ اصيب بعصيّ شدخت رأسهُ فعادوا بهِ الى داخل الدار ولكنهم فتشوا عن العروس فلم يجدوها . وتناقل النساء هذا الخبر وبلغ الرجال فجعلوا يفتشون في جوانب البيت وغرفهِ وعادت الضوضاء ومضت ساعتان في التفتيش على غير جدوى

وتضاربت الاقوال حينئذٍ فمن قائل ان الجن خطفت العروس بحلاها ومن قائل ان اميراً آخر يحبها وتحبهُ ولكن اباها ابى تزويجها منهُ فارسل اتباعهُ اختطفوها وهم الذين صوّبوا السهم الى ذلك الفتى لكي يقلقوا الجمع فيلهو عنهم. ومن قائل انها كانت تريد ان تترهب ولكن اباها منعها من ذلك وابى الاّ تزويجها فبعث الراهبات من اختطفها . لكن الاكثرين كذبوا هذا القول الاخير اجلالاً للراهبات عن هذا الفعل المنكر . وكيفما كانت الحال فان التفتيش استمر الى الصباح ولم توجد العروس ولا وجد اثر لها وقام في نفوس الاكثرين ان الجن اختطفوها

وجلست الاميرة هند مع ابنتها تلك الليلة وقالت لها لا ادري لماذا اشعر بضيق في صدري على فراق صفا مع ان حماتها تحبها كما تحب الام ابنتها وقاسم من نخبة الشبان نعم انهُ لا يقاس باحمد ولكنهُ افضل من كل اولاد عمهِ . هل رأيتِ احمد بين الحضور هو والامير الانكليزي . يظهر لي ان احمد تغير كثيراً في هذين الشهرين فصار قليل الكلام كثير التفكير

فقالت الاميرة سلمى الم تسمعي ما قال ابي انهم يطبخون لنا طبخة ويدبرون مهلكاً

فقالت امها ان احمد اعقل من ان يغترّ بنفسهِ فان بلاد كسران كلها قائمة قاعدة وفرنسا معنا والانكليز لا يساعدونهم ولو تظاهروا بمساعدتهم · ان كل احد يقول الآن ان هذا الاميرالانكليزي جاء مع احمد لانهُ حليف لهُ مع انهُ جاء لكي يشاهد العرس والميدان لا غير كما قال لي احمد نفسهُ وقد اوصيت اخويكِ ان لا يفارقاها خوفاً من امر يحدث . ان احمد من اعقل الشبان وهو يحبك جدًّا وقد قال لي بالامس انكِ ما عدت تلتفتين اليهِ

فصمتت الاميرة سلمى ولم تقل شيئاً وانتهى الحديث على هذه الصورة · ولكن لما خلعت ثيابها لتنام فكّرت طويلاً في امر يشغل بالها وذرفت دمعتين سخينتين ثم القت رأسها على وسادتها وسلمت نفسها لسلطان الكرى وهي لا تعلم شيئاً مما جرى لابنة عمها

وعاد السر هنري الى بيروت تلك الليلة وجلس بعد العشاء يكتب لامهِ فوصف لها ما رآهُ في يومهِ . وصف الميدان ولعب الجريد وتهادي الجياد العربية بما عليها من الحلى · وملابس الامراء المقصبة . واشار الى الفتى الذي فقئت عينهُ وعجب من رضوخ الناس للذل واعتقادهم القضاء والقدر . ثم وصف ما رآهُ في بيت العروس واسهب في وصف المآكل وجلوس الامراء حول السماط على المساند وانتقل الى وصف الاميرات وملابسهنَّ وحلاهنَّ . وكان قد رأى الاميرة سلمى واقفة الى جانب ابنة عمها الاميرة صفا كأنهما بدران او لؤلؤتان فلما شرع في وصفهما ارتجف القلم في يدهِ وأرتج عليهِ فكتب يقول اخاف ان اصف لكِ جمال هاتين الاميرتين فتطّلع افلين على كتابي وتقول اني نسيتها حتى صرت ارى غيرها جميلاً مثلها . الجمال الشرقي غير الجمال الغربي . الجمال الشرقي مسلّح والجمال الغربي اعزل · تنظر الفتاة الشرقية اليكِ بعينيها فتشعرين كأنها راشت سهامها ورشقتكِ بها اما الفتاة الغربيّة فترين في زرقة عينيها كاساً سائغة تودين ارتشافها . ثم قال

لم اهتدِ حتى الآن الى المغارة ولكن بلغني اليوم انهم عثروا على مغارة قرب الشويفات فيها اسلحة قديمة وسامضي الى هناك في هذين اليومين · اذا وجدتُ رفات جدي والوثيقة فسأُسمّي نفسي امير لبنان وآتي بافلين الى هنا فتكون اميرة لبنان · هذه احلام اهدس بها احياناً ولكن قلبي يحدثني ان افلين نسيتني انساها اياي اللورد كارو الذي كتبت لي عنهُ . اخبريني عن كل ما قالهُ لها بالتفصيل وعن مقام هذا اللورد بين قومهِ فانني لا اعرفهُ

ثم ذكر لها اموراً اخرى عن احوال الجبل وثورة الافكار فيهِ وختم الكتاب وهو يود الرجوع الى وصف الاميرة سلمى وقلمهُ لا يطاوعهُ كأنهُ يرى حرَماً حُظر عليهِ الدنوُّ منهُ

الفصل العاشر

المجمع البطريركي

شمالي لبنان مقر المردة ومعقل رجال الدين ۰عصى قياصرة الروم ولم يخضع لخلفاء المسلمين بل كان ينازعهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرائهِ السيادة المطلقة من اورشليم الى انطاكية يحاربون بني امية كما يحارب الاكفاء بعضهم بعضاً . واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين اراخنة القسطنطينية فعاون الروم العربَ عليهم وتوالت السنون وهم لا يزيدون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً فضعف شأنهم رويداً رويداً الى ان انقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لانهم يتجددون بالانتخاب فبنوا اديرتهم على كل معقل واستأثروا بجانب كبير من املاك البلاد

في دير من هذه الاديرة فوق زوق ميكائيل شمالي الطريق الى بزمّار دير بكركي لرهبنة انشأتها فتاة حلبيّة اسمها هندية جاءت كسروان واشترت اولاً دير ماعبدا المشمّر وانشأت فيهِ الرهبنة ثم استحسنت موقع بكركي وطلبت من رهبانهِ المقايضة فاعطتهم ديرها واخذت ديرهم وبنت فيهِ بناءً كبيرًا انفقت عليهِ اربعين الف ريال وكانت عازمة ان تزيدهُ فخامةً واتساعاً لجاءتهُ بثلاثين الف حجر منحوت وباعمدة عظيمة من الرخام ، ولكن قام عليها مبغضوها وشانئوها ونسبوا اليها السحر والضلال فاضطرّ البطريرك يوسف التيان الى الاستعفاء لانهُ كان من ناصريها وحرمتها الكنيسة وحرمت اعمالها وحلّت رهبنتها وبات الدير قفرًا لا يأوي اليهِ غير البوم ويقال ان احد المطارنة احرق الثلاثين الف حجرًا كلساً زاعماً ان الحرم تناولها

وكان بطاركة الموارنة يقيمون في دير قنوبين في شمالي لبنان فاختاروا الاقامة في كسروان في الايام الاخيرة لانها مقر وجهاء الموارنة فكانوا ينزلون في الدير الذي يختارونهُ الى ان تنصّب البطريرك يوسف اسطفان فعقد المطارنة مجمعاً في دير مار يوسف الحصن في غسطا حضرهُ القاصد الرسولي وقرروا في جملة ما قرروهُ ان يكون الكرسي البطريركي في بكركي ثم تكرّر هذا القرار في مجمع آخر ولكن لم يعمل بهِ . فلما تنصّب البطريرك يوسف حبيش عمل بهِ واقام في بكركي وخلفهُ البطريرك يوسف الخازن فزاد البناء . وامام الدير ميدان صغير في آخرهِ شجرة ميس قديمة العهد وكثيرًا ما يمشي البطريرك والمطارنة فيهِ يتلون فروض الصلاة

وفي تاريخ الدويهي ان بكركي كانت بلدة كبيرة في اوائل القرن الخامس عشر والمنظر منها جميل جدًا يطلُّ على كل بلاد الساحل من جبيل الى بيروت وما وراءها جنوباً

ان حوادث الجبل المشار اليها في الفصول السابقة جعلت بطريرك الموارنة يدعو المطارنة ووجوه الطائفة للاجتماع والمذاكرة في ما يجب عمله اذا قام الدروز لمحاربة النصارى . فاجتمع لديهِ جماعة منتقاة لا تتجاوز اثني عشر نفساً وهم مطران بيروت ومطران صور وصيداء ومطران عكاء ومطران قبرص ومطران الشام والخوري نعمة الله الدحداح كاتب السر والخوري يوحنا الحاج قاضي النصارى . ومن الوجوه الامير امين منصور ابو اللمع ويوسف بك كرم والشيخ كنعان الخازن والشيخ صالح الخازن وترجمان قنصلاتو فرنسا في بيروت

المجلس رهيب البطريرك في صدرهِ والمطارنة على جانبيهِ واكثرهم شيوخ عركوا الدهر وبعضهم درس في رومية واطّلع على اخبار الامم الغابرة والحاضرة وعرف تاريخ لبنان وما تعاقب عليهِ من ايام النعيم والبؤس. فدارت المذاكرة على احوال الجبل من حين تولاه عمر باشا النمسوي فانهُ تولى امارتهُ واتخذ بتدين داراً للولاية واتخذ له مديرين الشيخ خطار العماد والشيخ منصور الدحداح الاول درزي والثاني ماروني وولى الشيخ فرنسيس ابا نادر الخازن على كسروان والشيخ ظاهر منصور الدحداح على الفتوح . وولى على بلاد جبيل والبترون والكورة ثلاثة من المشايخ الحمادية فنفرت الخوازنة من انضمام ولا يأتهم الثلاث الى واحد منهم ونفرت نصارى جبيل والبترون والكورة لان الحمادية مرفوعة ولا يتهم عنهم منذ نحو ستين سنة . نعم ان عمر باشا اتخذ النصارى احلافهُ ليرضوا بولاية الدولة وجند منهم الجنود وجعل الشنتيري وابا سمرا قائدين عليهم وكتب مصطفى باشا والي بيروت الى البطريرك يثني على غيرتهِ في خدمة الدولة وارسل اليهِ هدية نفيسة ظرف فنجان مجوهراً ولكن الافعال التي فعلها منيب باشا بالدحادحة والدسائس التي دُسّت للدروز لينتقضوا على عمر باشا ويحاربوه ثم قسمة البلاد الى قائمقاميتين متناظرتين ثم الى ولايتين وتجدُّد الفتن واستمرارها — كل ذلك مكّن الضغائن والاحقاد في قلوب النصارى والدروز

هذا من حيث اهالي لبنان ونسبتهم بعضهم الى بعض وكان الحروب الاهلية التي استمرت مئات من السنين لم تكفِ لزعزعة اركان الجبل والتنكيل باهلهِ فتسلّط عليهِ عاملان آخران يرميان بسهم واحد الى غرضين مختلفين الواحد يريد التنكيل بالنصارى لكي يتحزّب لهم اهل ملتهم من الدول الاوربيَّة ويسعوا في تغيير الحالة الحاضرة والثاني يريد التنكيل بهم لكي يجد سبيلاً لحمايتهم واحتلال البلاد

وكان مدار الكلام في المجمع البطريركي على شؤون الجبل وما يجب عملهُ في تلك الاحوال وكان كثيرون من الحضور غير عارفين الغاية المقصودة فلما شُرحت لهم بهتوا

وخاف بعضهم عواقبها وكثر الجدال بينهم ولا سيما بين مطران بيروت ومطران عكاء واخيرًا تكلم مطران دمشق وكان مسموع الكلمة لتقواهُ وقال ان نحن جرينا على الخطة التي فصَّلها لنا حضرة الترجمان فقد لا يكون الضرر جسيمًا في نواحي لبنان ولكن المدن البعيدة كدمشق لا تسلم من الافراط ونحن هناك شرذمة صغيرة فلا تبقى منا بقية وما فائدتنا من اصطلاح الاحوال بعد ان نمسي من الغابرين. فقال لهُ الترجمان لقد اوصينا بكم اميرًا مقدامًا عندكم وهو تكفل بمنع كل افراط ولا نظن انهُ يصاب اكثر من اثنين او ثلاثة وقد لا يصاب احد بل يكتفى بنهب بعض البيوت وان كانت حادثة البادري توما اقامت اوربا واقعدتها والقاتل مجهول فكيف اذا حدثت ثورة عامة وبدا اعتداء مقصود

وبعد جدال طويل واخذ وعطاء اجمعوا علي ارسال جانب من الرجال المسلحين الى ساحل بيروت وجانب آخر الى جهات زحلة ثم يعود الفريقان من حيث اتيا

الفصل الحادي عشر

المشكل الجديد

ركب الامير احمد وركب معهُ ثلاثة من رجالهِ وهم بالسلاح الكامل لان النزول الى بيروت لم يعد مأمون العاقبة تمامًا . ولما وصلوا الى الغدير اضطروا ان يصعدوا الى مخاضتهِ لان الماء كان غزيرًا فيهِ على اثر الامطار الكثيرة التي وقعت في الشهر الماضي . ووصلوا الى بيت الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحًا. ودخل الامير احمد الى مكتب الكولونل واما رجالهُ فدخلوا غرفة في الدار الخارجيَّة وكان الكولونل في انتظارهِ ومعهُ السر هنري بدمونت فرحَّبا بهِ وكان البرد شديدًا مع ان الجو كان صافيًا والشمس مشرقة وقد اوقد الكولونل نارًا كبيرة في موقد حديدي دفئت بها الغرفة . ولما استقرَّ المقام بالامير قال لهُ الكولونل بلغني ان ابناء عمك وجمهور المشايخ عازمون على مقاومة القوة بالقوة وهم على تمام الاستعداد وان دروز وادي التيم مجفزون مثلكم وقد كاتبتم دروز حوران وعربها وكلهم قلب واحد معكم

فقال الامير لا يمكننا ان نخفي استعدادنا ولكن غرضنا محصور في الدفاع فاذا اعتدوا علينا اضطررنا ان ندافع عن انفسنا

الكولونل — ان كلمة الاعتداء كلمة مبهمة غير محدودة فغدًا يتهارش كلبان او يتخاصم رجلان او يُقتَل زيات في احد الخانات فتقوم القيامة ويدَّعي كلُّ فريق انهُ اعتدي عليهِ. وما دامت القلوب ملآنة فلا بدَّ من افراغها وقد كنت اظن ان كلامي لك في السنة

الماضية اقنعك بالعدول عن هذه الخطة وجعلك تقنع ابناء عمك بالعدول عنها فلا ارى حتى الآن الاَّ تفاقم الشر والتحفز للقتال وتوالي الاجتماعات في كل خلوة والانصياع لمشورة الوالي فقل لابناء عمك ان مساعدتنا لم تصل الى حد محدود ودفاعنا عنهم لا يجدي نفعاً الاَّ اذا كان الحق في جانبهم فان الحق هو الذي يقوينا على الدفاع

الامير — كن على ثقة يا سعادة القنصل اننا لا نكون البادئين . وانا معكم في ان كلمة الاعتداء غير محدودة المعنى ولكني اؤكد لسعادتكم اننا غير عازمين ان نلجأ الى القوَّة الاَّ اذا طفح الكيل فاذا قتلوا منا واحداً هنا وواحداً هناك واعتدوا علينا في جهات مختلفة فمهما توقى خاصتنا وبذلوا من الجهد في تسكين العامَّة فالعامة لا تستكنُّ ولا تسكت ومحال على احد الفريقين ان يمنع الشرَّ اذا ارادهُ الفريق الآخر لان الفريق الذي يريدهُ يتذرَّع اليهِ بكل وسيلة فلماذا لا يجتمع القناصل كلهم ويوجبون على النصارى ان يكفُّوا عن الابتداء بالشر

فتنهَّد الكولونل ونظر الى صورة معلَّقة امامهُ على الحائط تمثل ملكة الانكليز والامبراطور نبوليون الثالث واقف امامها يقبّل يدها فقال في نفسهِ ما ابعد الظواهر عن البواطن وكيف يركب اهل السياسة كل مركب خشن في سبيل الوصول الى مقاصدهم . وكان قد بلغهُ اجتماع المطارنة والمشايخ في دار البطريرك فان قواس القنصلاتو سمع الترجمان يتكلم مع المطران وهما راجعان على الخطَّة التي قرَّ القرار عليها وكان قواس قنصلاتو انكلترا نسيباً لهُ فاخبرهُ بما سمع وهذا اخبر الترجمان واتَّصل الخبر بالقنصل فرآهُ معقولاً ومنطبقاً على ما اتاهُ الخبر بهِ من وزارة الخارجية بناء على ما وصلها من السفارة في باريس فاستدعى الامير احمد لكي يحذرهُ وكان يعلم ان الوالي يحرّض الدروز . واذا سمعتَ كلام الفريقين لا تجد عليهما ممسكاً ولا تقطع بان الشر ينتج عنهُ . واي لوم على مَن يقول لك كن على حذر واعلم اني لا اتركك اذا رأيتُ عدوك اعتدى عليك او يقول لك استعد لخصمك ولكنك اذا رأيتهُ اعتدى عليك فلا تقابل القوة بالقوة فتضعف حجتك وتمنع صديقك من مساعدتك بل استمتْ لخصمك قليلاً فيأتي الصديق لمعونتك وتكون الغلبة اتم . القولان سياسيَّان محكمان واغراض اهل السياسة لا تنال باقل منها

هذه الخواطر خطرت كلها على بال الكولونل في تلك اللحظة التي كان ينظر فيها الى الصورة فان الافكار اسرع مَن الكهربائية في حركتها وهي مثل صورة كبيرة تمثل معركة من معارك القتال او حادثة من حوادث التاريخ تلمحها لمحة واحدة فتتجلى لك تلك الواقعة او الحادثة بملابساتها الكثيرة في لحظة من الزمان

ثم التفت الى الامير وقال لهُ ان الذي اراهُ وتدل الدلائل كلها عليهِ هو انكم اذا

تهيأتم للحروب فالحرب حادثة لا محالة واذا لم تتهيأوا لها لم تحدث واذا حدثت فلا بدّ ما تدور الدائرة على النصارى وحينئذٍ تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم وربما لا تمضي بضعة اشهر حتى تروا بوارجها في مرفإِ بيروت وجنودها على ربى لبنان وانتم ادرى بما نصير حالكم اليهِ حينئذٍ. وقد تقول لي كيف يمكن ان نصل الى هذه النتيجة والوالي يحرضنا على القتال فاقول لك ان الوالي قصير النظر في العواقب وهو واضرابهُ في القسطنطينية يرمون الى غرض آخر وربما تحقق امنيتهم ولكنهم لا يعبأُون بكم لان السلطنة واسعة فلا يحسبون حساب بقعة صغيرة مثل لبنان ولكن لو علموا ان العاقبة تكون كما تقدّر الدول الاوربيَّة لعدلوا عن هذا التحريض

فادرك الامير غرض الكولونل تماماً ولكنهُ كان يرى يدهُ مغلولة عن العمل لا سيما وان امرًا آخر شغل بالهُ منذ شهرين من الزمان فان امهُ كانت تحبب اليهِ الاقتران بالاميرة سلمى ابنة خالتهِ وهذا كان غرض خالتهِ ايضاً وكانت الاميرة سلمى تنظر اليهِ كما تنظر الى اخويها واذا كلمتها خالتها في ذلك تلميحاً غيّرت الموضوع ولم تبدِ الرفض التام فلما دنا زفاف الاميرة صفا طلبت منها خالتها جواباً صريحاً فاجابتها انت ترين اضطراب الاحوال ياخالتي والشهابيون عن بكرة ابيهم لا يحتملون ذكر الارسلانيين فما هذا وقت النظر في هذه الامور

فعادت خالتها واخبرت ابنها بذلك فزاد انشغال بالهِ وكان قد رأَى اضطراب الاميرة سلمى واحمرار وجهها لما شاهدت السر هنري بدمونت فاوجس شرًّا حتى لم يعُد يدعوهُ الى الشويفات وكان وهو يكلم الكولونل روز في هذه النوبة ينظر الى السر هنري من وقت الى آخر وهو يحسب انهُ يرى امامهُ خصماً عنيدًا حتى اذا فرغ من الحديث السيامي التفت اليهِ السر هنري باسماً وقال لهُ عسى ان تطمئن القلوب فنعود الى التفتيش عن المغارة

فلم يسعهُ الاَّ العود الى المجاملة فقال لهُ لا ارى الآن ما يمنعنا من التفتيش فتعال شرفنا وقتما تريد. فشكرهُ السرهنري ووعدهُ بان يزورهُ بعد ايام قليلة ثم قال لهُ ولكن ما هذا الخبر الذي سمعناهُ وهو ان العروس التي حضرنا عرسها خُطفت من بيت عريسها

فقال الامير احمد نعم وقد اشاعوا ان الجن خطفتها خرافات العجائز والحقيقة مجهولة حتى الآن فمن قائل ان واحدًا من الفلاحين اي من غير الامراء كانت تحبهُ وقد اتفقت معهُ على الهرب ومن قائل انها كانت تريد ان تترهب فمنعها ابوها من ذلك لكنها اتفقت مع بعض الراهبات فخرجت الى بيت في جوار بيت عريسها ولبست هناك لبس الراهبات وهربت معهنّ ومن قائل غير ذلك وابوها غير مهتم بها والفتاة التي لا امّ لها ليس لها من يهتم بامرها.

فقال السر هنري بلغتنا هذه الاخبار ثم لم نعد نسمع عنها شيئاً فظننا انكم اهتديتم اليها

فقال الامير كلاَّ وانا قلما اسمع شيئاً من اخبار الشهابيين الآن غير ما يتعلَّق بالقلاقل التي في الجبل ولو لم تكن خالتي امرأة عمها ما كنت سمعت عنها شيئاً

ثم قام وودَّع القنصل والسر هنري وطلب القنصل منهُ ان يبقى عندهُ للغداء فاعتذر بانهُ مدعو للغداء عند احد اقاربهِ . ومرَّ في طريقهِ على بيت ابي نخر وهو لا يلتفت يمنةً ولا يسرة مخافة ان يرى ذلك الرجل فيضطر ان يكلمهُ لكن ابا نخر كان جالساً امام الباب فلما رآهُ قادماً قام لاستقبالهِ ودعاهُ لينزل و يشرب فنجان قهوة فاعتذر بقرب اذان الظهر وبان عمهُ في انتظارهِ فجادلهُ ابو نخر وكانت السماء قد غامت وابتدأ وقوع المطر فلم يرَ لهُ بدًّا من التخلص منهُ باية واسطة كانت فودَّعهُ واعمل المهماز في شاكلة جوادهِ وكان لعمهِ دار في بيروت يشتي فيها فسار اليهِ مع رجالهِ الثلاثة وهم يعدون عدوًا وكان في الطريق صبية يلعبون تحت المطر فلما رأوا الخيل عادية قاموا ليهربوا من وجهها فهرب واحد منهم اليها فداسهُ فرس احد اتباع الامير وخرجت امهُ في تلك اللحظة لترى سبب عدو الخيل فرأَت ابنها يتخبط بين قوائم الفرس فجعلت تزعق وتصيح واجتمع النساء على صياحها وعلت الضوضاء وترجل الامير ليرى ما حلَّ بالولد فترجل رجالهُ معهُ وكان في قهوة مجاورة كثيرون من اهل العطلة فالتفُّوا عليهم وكان الولد حيًّا ولكن كسرت ذراعهُ وشدخ رأسهُ ونزف الدم الكثير منهُ واتفق مرور ضابط في ذلك الطريق ومعهُ بعض الجند فزاد صياح النساء وعرف الضابط الامير فطلب منهُ ان يذهب معهُ الى الوالي وحمل الجند الولد لكي يمضوا بهِ الى حيث يقيم طبيب العسكر واعطى الامير احمد ام الولد كل ما معهُ من النقود فرمتهُ بها وهي تقول قتلت ابني وانت تبرطلني بغرشين وحاولت ان تلحق بهِ فردها العسكر عنهُ فجعلت تتناول الحجارة وترشقهُ بها ووقع حجر منها على فرسهِ فرفس وجمح وكاد يتفاقم الخطب وبينما هم على هذه الحال مرَّ بهم الوالي ذاهباً الى الجامع لاجل صلاة الجمعة فترجل الامير ورجالهُ حالاً ودعاهُ الوالي للذهاب معهُ فوقع في حيرة لا هو يريد ان يخالف امر الوالي ولا هو يستطيع ان يجيبهُ اليهِ وان اجابهُ فقد لا يُسمَح لهُ بدخول الجامع . واذا جاءت المشاكل ضاقت حلقاتها حتى يضيق المرء بها ذرعاً مهما كان رحب الصدر واسع الحيلة . هنا ولد مضرج بالدماء وامهُ تصيح وتستغيث واهالي بيروت يستخفون باهالي الجبل كلهم و يعدونهم فلاحين ولو كانوا امراء ومن نسل الملوك . والوالي الذي يفضل الامير احمد ان يخسر اية خسارة كانت ولا يراهُ في ذلك الوقت امرهُ بالذهاب معهُ والدخول الى الجامع والصلاة فيهِ وهذه مشكلة اخرى لم يكن ينتظرها نعم

ان بعض اعمامهِ تظاهر بالاسلام ولكن ذلك لم يكن من مذهبهِ فوقع في حيرة ولا حيرة الضب

الفصل الثاني عشر

بوادر الحب

بُذلت الوسائل كلها في التفتيش عن الاميرة صفا لا من قبَل ابيها لانهُ كان قليل الاهتمام بها بل من قبل عريسها وذويهِ فانهم حسبوا اختفاءها عارًا لايمحى وزادهم قلقاً تلبُّس الامر عليهم فبعثوا بالرسل الى كل ناحية وصوب بعد ان فتشوا بيوت القرية كلها فلم يقفوا لها على اثر وكان يأْتيهم كل يوم رجل بخبر جديد فيبحثون و يفتشون فلا يجدون لخبرهِ صحة وجاءهم رجل ذات يوم وقال انهُ كان ذاهباً الى جهة بسكنتا فامسى عليهِ المساء وغامت السماء فخاف من المطر والليل حالك الظلام والطريق وعر لا يسلك ولا سيما بعد ان مرَّ فيهِ السيل وخرَّبهُ فقصد ديرًا من اديرة الراهبات قريباً من الطريق وطلب من البواب ان يسمح لهُ بالنوم عندهُ فامتنع البواب اولاً عن اجابة طلبهِ ثم رأى اشتداد الريح فخاف ان يموت بردًا اذا لم يسمح لهُ بالمبيت عندهُ. ونحو نصف الليل قرع الباب فقام البواب وفتح واذا امام الباب رجلان معهما امرأة في زي راهبة وهم راكبون خيولاً فدخلا بها ووقف الثلاثة في الصحن الخارجي ودخل البواب وقرع الباب الداخلي فجاءت راهبة ففتحتهُ وادخلت المرأة واقفلت الباب وعاد الرجلان من حيث اتيا

فلما سمع الامير ذلك قام في نفسهِ ان هذه المرأة هي عروسهُ نفسها لانهُ شاع وذاع انها كانت عازمة على الترهب فقام من ساعتهِ ونزل الى بيروت واخبر المطران بما سمعهُ من هذا الرجل فاكد لهُ المطران ان الخبر كاذب لان الراهبات لا يقبلنَ فتاة عندهنَّ ما لم يأتِ بها اهلها ولاسيما بعد ما حدث من القيل والقال في مسألة الراهبة هندية اما الامير فلم يكتفِ بهذا النفي بل طلب من المطران ان يرسل ويحقق لهُ الامر فقال ان هذا خاص بسيدنا البطرك وسارسل الآن اخبرهُ بما وقع وانتظر اوامرهُ. وكان مع الامير كيس فيهِ عشرون ذهباً فقدمها الى المطران اجرة قداديس فامتنع المطران عن اخذها اولاً ثم اخذها وقال للامير كنت اظن انك تسمح لنا بنصف المطحنة كما سمحت امك بالنصف الآخر حتى تصير كلها للكرسي. فعبس الامير لان ايجار المطحنة السنوي ثلاثة آلاف غرش ولو اراد ان يبيعها لبيعت بثلاثين الفاً او اكثر ولكنهُ عاد فرأى حرج موقفهِ فقال للمطران الذي تقولهُ سيادتك يصير. واتفقا على ان يكتب لهُ حجة بالنصف الثاني من المطحنة فتصير كلها للكرسي

وكانت الاميرة سلمى اكثر الشهابيات اهتماماً بفقد ابنة عمها لانها عشيرة صباها وقد ربيتا معاً وحالما بلغها الخبر عرفت حقيقتهُ ولكنها كانت تحسب ان ابنة عمها عدلت عن عزمها ورضيت بما قُسم لها فان صفا كانت قد اخبرتها بما عزمت عليهِ منذ اكثر من نظاك سنة ثم لما لحَّ الامير قاسم في طلبها ولم ترَ لها مناصاً من قبولهِ ولا سيما بعد ما رأت من اضطهاد زوجة ابيها لها ورأت ان سلمى لا تشجعها على عزمها وغاية ما في الامر انها طلبت منها ان تترك بيت ابيها وتأتي وتسكن معها — لما رأت منها ذلك تظاهرت بالقبول ولم تعُدْ تبوح لها بشيءٍ وكانت كبيرة النفس قليلة الكلام فدبَّرت امرها على مهل وكانت تعلم خطر السبيل الذي سارت فيهِ ولكن لسان حالها كان يقول

اذا لم يكن الاَّ الاسنة مركبٌ فلا يسع المضطر الاَّ ركوبها

وكانت الاميرة هند كثيرة الاوهام تصدق ما يقال عن الجن والعفاريت فقام في نفسها ان الجن خطفت ابنة سلفها لكنها رأت الامر فادحاً رهيباً حتى لم تجسر على التفكير فيهِ بل خافت ان تذاكر ابنتها بهِ وسرَّت الاميرة سلمى باعتقاد امها ذلك لكي لا تضطر ان تكذب عليها اذا سألتها عمَّا تعلمهُ من امر ابنة عمها لكنها بقيت مضطربة البال عليها ولم يعد يهنأ لها عيش ومرت الايام وهي لا تزيد الاَّ قلقاً . وكثيرًا ما كان يخطر ببالها السر هنري بدمونت فتسرُّ بالخاطر وتجاريهِ او تنفيهِ من ذهنها وتتسلى عنهُ بعمل تعملهُ او كتاب تقرأهُ . ثم كثر تردُّدهُ في بالها ولم يعد يفارقها بسهولة فقلقت اولاً من جراء ذلك ثم رأت انها مدفوعة الى محبتهِ رضيت او كرهت فلم تعد تحاول المحال بمحو صورتهِ من ذهنها وصارت تودُّ ان تراهُ او ترى منهُ اقل علامة تدلها على ان في قلبهِ مثل ما في قلبها . ولما مضت ايام كثيرة ولم ترَهُ ولا سمعت عنهُ شيئاً صارت تقيم في رواق يشرف على طريق الشويفات وكلما رأت فارساً احدقت بنظرها اليهِ . ولم تنقطع عن لوم نفسها وكثيرًا ما قامت الحرب بين عقلها وقلبها — يقول عقلها هذا شاب اجنبي رأيتهِ مرتين لا غير والمرجح بل المؤكد انهُ نسيكِ الآن ولم تعودي تخطرين ببالهِ فما هذا الغرور بل هذا الجنون . فيجيبهُ قلبها لو لم يكن في قلبهِ عاطفة اليَّ ما كان فيَّ هذه العاطفة اليهِ والاَّ فما معنى قولهم ان القلوب شواهد والحب متبادل ناهيك عن انهُ في المرتين اللتين رأيتهُ فيهما نظر اليَّ نظرًا غير عادي وفي المرتين كان الحياءُ يصبغ جبينهُ وكان يسترق اللحظ واذا نظرت اليهِ غضَّ طرفهُ ولم ارَ شيئاً مثل ذلك في كل الشبان الذين عرفتهم ولا في احمد . ثم يخفق فؤادها وتشعر كأن حجرًا ثقيلاً وضع على صدرها وهي تحاول كتمان ما بها عن كل احد

الفصل الثالث عشر

حل مشكلة

وقف الامير احمد امام باب الجامع وهو يضرب اخماساً لاسداس فضاقت في وجهه المذاهب وتصبّب جبينهُ عرقاً بارداً ورأى الوالي حيرتهُ فتظاهر بانهُ لم يرَ شيئاً ووقف معهُ يكلمهُ في الصحن والجماعة تصلي وراء الامام ثم دار معهُ ومشيا الى جهة الميضئة وكان يحسن التركية والوالي يسرُّ بحديثهِ وقد علم انهُ آتٍ من دار قنصل الانكليز لكنهُ لم يشر الى ذلك بل حصر الكلام في تغلب النصارى على الدروز في حادثة بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي وكيف انهم اثخنوا فيهم وحرقوا قراهم . قال وانت تعلم غيرتي عليكم وحسباني اياكم سيف الدولة ولكن الصدر الاعظم لم يكن يهتم بشكاويَّ حينئذٍ الاهتمام الواجب لانشغال الدولة بامور اخرى اهم من مسائل لبنان فلما تمهّدت تلك الامور اتجه الالتفات العالي الى الجبل وفي النية قصاص الذين سببوا هذه الفتنة . وها عمك وجميع المناصب والمشايخ موافقون على ذلك ويقيني انك انت معهم ايضاً

فقال الامير انا ابن الدولة وعبدها المطيع . وكان كلام الكولونل روز لا يزال يتردّد في ذهنهِ وهو انهُ اذا دارت الدائرة على النصارى تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم . وصمت قليلاً ثم قال ولكن هل تأذنون دولتكم لي في الكلام بحرية وصراحة . فقال الوالي قُلْ ما تشاء فقال هبْ ان الحرب الاهلية نشبت واننا انتصرنا على خصومنا بمعونة الله وبتأييد دولتكم لنا افلا تكون النتيجة ان دول اوربا ترسل مراكبها الحربيَّة وتحتل البلاد حالاً

فتبسم الوالي وقلب شفتيهِ وقال كن مطمئن البال من هذا القبيل فان دول اوربا متخاصمة متناظرة ولا يمكن لدولة منها ان تسمح لاخرى باحتلال هذه البلاد . واحبُّ ما علينا ان نقع المنافسة بينهم حتى نخلص من شرهم

الامير احمد . حلمك يا افندينا فانا قرأت في التاريخ ان دولة واحدة منهم تحسب حامية المسيحيين في الشرق والدول الباقيات يسلمن لها بهذا الحق

فقطّب الوالي وجه لكنهُ قال ان هذا الكلام حبر على ورق فدولة فرنسا تدعيهِ ودولة المسكوب تنازعها فيهِ . والحق للقوة أَلا ترى ان الفرنسويين ساعدوا محمد علي والانكليز قاوموهم وغلبوهم وانا واثق ان الانكليز معنا في هذه النوبة ايضاً ولذلك لا اومك لاجل ترددك على قنصلهم أَلا ترى انهُ معنا

والتفت الامير احمد حينئذٍ الى الجامع فرأى الناس قد اخذوا في الخروج فقال في نفسهِ انني اخلص من مشكل واقع في آخر لكنهُ كان قوي البداهة فاجاب الوالي قائلاً نعم اني ارى منهُ كل تشجيع لنا وغيرة على دولتنا ويظهر لي من كلامهِ ان الانكليز لا يزالون مخاصمين للفرنسويين ولا يهون عليهم ان تحتل فرنسا هذه البلاد

وكانت الجماعة قد خرجت من الجامع كما تقدم فسار الوالي والامير احمد معهُ وخرجا من الباب الخارجي كأنهما صليا مع الجماعة وخرجا معها وهو امر عادي للولاة والحكام يدخلون المعابد ويقفون في صحنها يتحدثون مع خواصهم في شؤون مختلفة وهم يحسبون انهم اتوا وعبدوا مثل غيرهم كأن الكبراء معفون من القيام بشعائر الدين . وسُرّي عن الامير احمد لانهُ كان يكره الرياء ولكنهُ لم يكد يسير في الشارع مع الوالي حتى رأى المرأة التي ديس ولدها واقفة لهُ في المرصاد وهي تصيح وتصخب فسأل الوالي عن قصتها فقيل لهُ ان جواداً من خيل الامير داس ابنها . فوقف وادار رأسهُ الى الامير وشمخ بانفهِ كأن لسان حالهِ يقول لهُ مسكتك وكيف تنجو من يدي . فقال الامير نعم ان ابنها وقع في الطريق فرفسهُ فرس رجل من اتباعي ولكن المسألة عرضية

فقال الوالي ألم يدسهُ فرسك . فقال الامير كلاّ بل فرس رجل من اتباعي وهو لهُ ليس لي ومع ذلك فالمسألة عرضية وقد نقل الى المستشفى

فاسف الوالي على ما بدر منهُ واراد ان يمحو تأثير كلامهِ من ذهن الامير احمد فدعاهُ لزيارتهِ حينما ينزل ثانية الى بيروت وقال لرئيس الضابطة وكان سائرًا وراءهُ خذ هذه المرأة من هنا ولا تدعني ارى وجهها . ثم ودع الامير احمد وسار في طريقهِ فوقف الامير الى ان ابعد عنهُ ثم ركب جوادهُ واسرع الى بيت عمهِ وهو لا يصدق بالنجاة من هذه المشاكل المتوالية

فلما وصل الى بيت عمهِ وجد عمهُ والبعض من مشايخ البلاد في انتظارهِ فهنأوهُ بالسلامة لان احد اتباعهِ كان قد سبقهُ الى هناك واخبرهم عن التقاء الوالي بهِ واخذهِ معهُ الى الجامع بعد ما جرى للولد ما جرى وكانوا يخافون ان يُمنع من دخول الجامع مع الوالي او يأخذهُ الوالي بجريرة الرجل الذي داس فرسهُ الولد فتفضي الحال الى ما لا تحمد عقباهُ فلما وصل قصّ عليهم ما جرى لهُ مع الوالي في صحن الجامع وكلام الوالي لهُ وكانوا كلهم من رأي الوالي ويظنون ان انكلترا تساعدهم نكايةً في فرنسا أما هو فاكّد لهم ان انكلترا لا تساعدهم بل تطلب منهم ان يلزموا السكينة ولو اعتُدي عليهم . فقالوا لهُ اذن تكون العاقبة

وخيمة علينا ولا نعود نستطيع السكن في البلاد بل نضطر ان نرحل منها واروهُ مكاتيب واردة اليهم من دروز حوران ووادي التيم فقرأها وتمعّن فيها مليًّا وجاراهم في الحديث . ثم جلسوا للطعام وغيّروا موضوع الكلام امام الخدم وجلسوا بعد ذلك ينظرون في تدبير المال اللازم لما يقصد من الاعمال لان الوالي وعد بكل مساعدة حتى بالرجال والسلاح ولكن خزينتهُ افرغ من جراب ام مومى . وكان الخواجه بخور قد انتقل الى بيروت بعد ما وقف على رأي الامير المغربي فزارهُ عم الامير احمد وطلب منهُ ان يقرضهُ الف كيس اي خمس مئة الف غرش وهو يرهن لهُ ما يملكهُ من الزيتون في صحراء الشويفات واختلفا على المدة ومعدل الربا فالامير طلب ان تكون المدة اربع سنوات ويكون الربا اثني عشر في المئة والخواجه بخور طلب ان تكون المدة سنتين فقط ويكون الربا عشرين في المئة وان الامير احمد يضمن الدين مع عمهِ ولذلك لم يتفقا

وجاء الخواجه بخور حينئذٍ لرد الزيارة ومشاهدة الامير احمد لانهُ كان يعرف اباهُ وكان بينهما صداقة قديمة . ولم تطل اقامتهُ حتى اتصل الكلام الى مسألة الدين . فقال الخواجه بخور لقد بلغت الديون التي استدانها منا جمهور المشايخ والبكوات حتى الآن اكثر من ثلاثين الف كيس وكلها بفائدة عشرين في المئة فلا يخلصنا ان نعطيكم باقل من هذه الفائدة لان النقود صارت عزيزة في هذه الايام ولا سيما بعد ما عقدت فرنسا قرضاً وعقدت سردينيا قرضاً آخر استغرقا كل الاموال التي في ايدينا وانتم تعلمون مقدار القلاقل المنتشرة في البلاد كلها ولولا علمي ان الفوز يكون لكم اخيرًا لان الدولة معكم ما كنت اخاطر بغرش واحد ولكن مع ذلك من يدري ماذا تكون العاقبة

فجعل الامير احمد يتوسّل اليهِ ليتساهل مع عمهِ ويجعل الربا خمسة عشر في المئة ويعفيهُ من الضمان لان عمهُ يستعيب ذلك . ومما قالهُ لهُ ان الاملاك التي سيرهنها عمي لك تساوي خمسة آلاف كيس على الاقل افلا ترهنها على الف كيس لقد زدتموها يا خواجه بخور وهذا ليس من العدل ولا من الانصاف ونحن اصدقاءك من زمان طويل

فقال الخواجا بخور ليس في اليد حيلة يا امير احمد وانت تعلم اني لست وحدي وان اولاد عمي لا يتنازلون عن غرش واحد

فاخبرهُ الامير احمد انهُ استدان من بيت طراد ولم يدفع سوى ١٢ في المئة نعم ان المبلغ الذي استدانهُ زهيد ولكنهُ لو طلب منهم الف كيس بهذه الفائدة لاعطوهُ

فاجابهُ الخواجه بخور ان هذا يكاد يكون ضربًا من المحال في هذه الايام وانهُ لو طلب

منهم اليوم ودفع لهمَ عشرين في المئة لرأى انهم يعتذرون عن اعطائهِ مئة كيس بهذه الفائدة
ولكن كلام الامير احمد عن بيت طراد حلَّ عزائم الخواجه بخور فقال في نفسهِ يجب ان نجمع كل اصحاب البنوك الذين يدينون ونتفق على معدل واحد حتى لا يضر بعضنا بعضاً.
وبعد جدال طويل اتفقوا على ان يكون معدل الربا ثمانية عشر في المئة وان تكون المدة ثلاث سنوات ويكتفي الخواجه بخور بالرهن ولا يطلب ضمان الامير احمد

ثم التفت الخواجه بخور الى الامير احمد وسألهُ عما اذا كانت الاملاك تساوي خمسة آلاف كيس حقيقةً فقال نعم وهذا لا يقبل الغلط فانها خمس مئة قنطار من اغراس الزيتون والقنطار يساوي خمسة آلاف غرش على الاقل

فقال الخواجة بخور اذاً يمكنهُ ان يستدين عليها الف كيس أُخرى فنحن تحت امرك وامر عمك

وعاد الخواجه بخور الى مكتبهِ فوجد انهُ اتاهُ تحويل على خزينة بيروت بثلاثة آلاف كيس لان شركاءهُ في لندن وفينا كانوا يدفعون الاموال في الاستانة ويأخذون بها تحاويل على خزائن الولايات فأُسقط في يدهِ لان اليوم كان الجمعة والخزينة مقفلة واليوم التالي السبت لا يستطيع ان يعمل فيهِ عملاً فيضيع عليهِ ربا يومين فجعل يشتم ربان السفينة التي لم توصل التحويل يوم الخميس وعدَّ ذلك من جملة النحوس التي توالت عليهِ تلك السنة وعاد الى بيتهِ منغص العيش كأنهُ خسر خسارة كبيرة لا تعوَّض

الفصل الرابع عشر

الاميرة صفا

مضى شهران على اختفاء الاميرة صفا ولم يعلم احد مقرها لكن زادت الاشاعات بانها ترهَّبت في احد الاديرة وكتب المطران الى البطريرك وبحث البطريرك في الدير الذي اشار اليهِ الامير قاسم فلم يجدها فيهِ ولا وجد ان راهبات الدير يعلمنَ شيئاً من امرها. وكان ابوها يظن انها هربت مع شاب من الفلاحين فحُرمت ميراثها من امها لان الشاب غني جداً وكان يحبها ويود الاقتران بها ولكن الشهابيين لا يزوجون الفلاحين ولو صاروا من افقر الناس وصار الفلاحون من اغناهم . وقد قال هذا الشاب لابيها انهُ يتنازل لهُ عن ميراثها من امها وكان وافراً جداً فان امها من نسل الامير بشير الكبير وقد ورثت منها جنائن وبساتين في الحدث والشياح ووطاء نهر الكلب وضياعاً ومزارع في بلاد جبيل وسهل البقاع فقال ابوها الى

تزويجهِ بها ولكن اخوتهُ وابناء عمهِ منعوهُ من ذلك وهي لم تكن تميل الى ذلك الشاب . واتفق انهُ كان غائباً وقت زواجها فاتهموهُ باختطافها ولكنهُ عاد من غيبتهِ واتّضح انهُ لم يكن عارفاً بما جرى لها لانهُ لما رأى اصرار اهلها على تزويجها بالامير قاسم سافر الى مصر لكي يسلوها . فلما رأى ابوها ذلك انشغل بالهُ وخاف ان يتحقق امر ترهُّبها فيُطلَب منهُ ان يسلمها كل ميراثها من امها وكان كذلك فانهُ بينما كان ذات يوم يفكر في هذا الامر جاءهُ رسول من دير العازرية في بيروت ومعهُ كتاب من ابنتهِ لهُ فلما فضّهُ وقرأهُ اظلم الضياء في عينيهِ وقام من ساعتهِ وجاء الى بيت اخيهِ الامير عباس ابي الاميرة سلمى لانهُ كان اكبر منهُ سنّاً واوسع خبرة واراهُ الكتاب فارغي هذا وازبد وشتم ولعن وقال لاخيهِ قلت لك لا تدع هؤُلاء الراهبات يدخلنَ بيتك وليس طمعهنَ بصفا بل بالجنائن والبساتين والضياع والمزارع. ما دمتم لا صقين بهذه الطغمة صيروكم على الارض. هذا قاسم الحمار وهب المطحنة كلها للمطران لكي يفتش لهُ عن صفا وانا احلق لحيتي ان كان المطران لا يعلم انها ذهبت مع الراهبات وان ذلك بعلمهِ وبدسيستهِ. هذا امر لا نحتملهُ ولا نطيقهُ لم يقع مثلهُ لبيت شهاب من اول مجيئهم الى هذه البلاد الى الآن . اسمع ماذا تقول لك في مكتوبها تقول انها فرحة جدًّا لانها تستطيع الآن ان تصلي لاجل خلاص نفسك واهتداء عمها . من كان يمنعها عن الصلاة وهي هنا ألا يسمع الله في لبنان كما يسمع في ايطاليا ولكن ليس العبرة هنا بل العبرة في قولها انها نذرت لله ان تساعد الفقراء والمساكين بكل ما تملكهُ اي بكل ما ورثتهُ تكفيراً عن نفس امها لان نفسها لا تزال في المطهر . قم قم لعبوا عليك واخذوا ابنتك ومرادهم ان يأخذوا اموالك . ثم اسمع ماذا تقول انها مسبوطة جدًّا ولكن البرد شديد في تلك البلاد وهي مصابة بزكام شديد. غداً يتحوَّل معها الى سل في تلك البلاد الباردة وتموت . مَن يذهب من هنا الى ايطاليا في فصل الشتاء غير المجانين

فلم يقل الامير فارس شيئاً بل جلس يفكر في الامر ويمصُّ المصَّة بعد المصَّة من الشبق الذي في يدهِ ويطلق دخانها في الجو حتى صار حولهُ سحابة من الدخان وهو يقطب حاجبيهِ تارةً ويرفعهما اخرى كأنهُ يفكر في مسألة ابنتهِ. والامير عباس يعيد تلاوة المكتوب وينظر في معانيهِ . واخيراً قال الامير فارس ليس لنا الاَّ قنصل فرنسا فهو محتاج الينا الآن فأذهب اليهِ انا وقاسم ونطلب منهُ ان يرجعها حالاً والاَّ نخرب طبخنهُ كلها

فقال الامير عباس وهذا لا يكفي بل يجب ان تتهددوا المطران بالرجوع الى الاسلام ان هو اصرَّ على عدم اجابة طلبكم فاني اخاف ان قنصل فرنسا لا يستطيع ان يفعل شيئاً من

هذا القبيل لان الامبراطورة في يد الاكليروس لا تخالف لهم امرًا ولا تتجاسر ان تطلب منهم شيئًا والامبراطور في يدها . وعلى كل حال لا ضرر من الذهاب الى الاثنين الى القنصل والى المطران

وكتبت الاميرة صفا الى الاميرة سلمى وارسلت الكتاب ضمن كتابها الى ابيها ليسلمهُ اليها وهو باللغة الفرنسوية وتقول فيهِ

اختي وشقيقة روحي

اطلب السماح منكِ يا حبيبتي ومن والدتكِ الحنونة لانني فارقتكما على هذه الصورة وقد كنت اعلم لما ودعتكِ وودعتها انني قد لا اعود اراكما في حياتي فتصوري مقدار كآبتي حينما خرجت من بيت ابي ووقع نظري آخر مرة على الوجوه التي احبها وعلى المناظر التي قضيت فيها زهرة عمري . على الاماكن التي كنا نلعب فيها معًا والاشجار التي كنا نجلس تحتها . كل ما كنت اتسلى بتربيتهِ من الطيور والرياحين والازهار كل شيء من ذلك لهُ مكان في قلبي ولكن المكان الاول فيهِ هو لكِ ولامكِ ولقبر المرحومة والدتي . آه يا سلمى كم اود ان اراكِ الآن واضمكِ الى صدري ونذهب معًا الى قبر والدتي فاضع خدي عليهِ واغسلهُ بدموعي . صدقيني يا سلمى اني تركتكم كلكم لاجلها لكي اخلص نفسها لا بدَّ من ان يكون الناس قالوا اقوالاً كثيرة واتهموني تهمًا لا اصل لها الله يسامحهم اما انا فكنت اشعر اني اخترت النصيب الصالح . ولا يحق لقاسم ان يلومني لانني اخبرتهُ صريحًا انهُ يستحيل عليَّ ان اقترن بهِ بعد ان كرست نفسي لخلاصي فاومهُ على نفسهِ وكذلك لا يحق لابي ان يلومني . ومع ذلك فاني اصلي لاجلهما دائمًا كما اصلي لاجل ابيكِ وامكِ ولا تظني يا حبيبتي اني صرت الآن اسعد مما كنت كلاً غير اني ارجو ان يغفر الله لي ولكل الذين احبهم . نوبي عني بتقبيل والدتكِ وتقديم الاحترام لوالدك

ولما قرأت الاميرة سلمى الكتاب وترجمتهُ لامها جلست الاثنتان تبكيان وشعرت الاميرة سلمى كأن بلاطة وقعت على صدرها فلم تعد تستطيع التنفس ومضت ساعة من الزمان وهي تعود الى البكاء كلما وقع نظرها على امها . وصفقت امها بيديها فاتوها بالنارجيلة والقهوة فجلست تتسلَّى بالتدخين وقالت لابنتها هل كنتِ تعلمين يا سلمى عزم صفا على الترهُّب . فقالت اخبرتني صفا بذلك مرارًا ولما رأت اني لم أُصوّب رأيها لم تعد تكلمني بهِ والظاهر انها لم تصمم الاَّ قبل العرس بيوم او يومين

فقالت امها لا تخافي الاَّ من النهر الهادىء من كان يظن ان صفا تقدر على هذه الحيلة

ولكن ماذا نقول وماذا نتكلم ابوكِ يشمت بنا وخالتك تشمت بنا وابن خالتك يشمت بنا فالصمت اولى . قال عمكِ انهُ سيذهب الى المطران وقنصل فرنسا هو وقاسم ولكن لا فائدة من ذلك وستكون عاقبة تشديدنا انهم لا يعودون يدعونها تأتي الى هذه البلاد . ما خلصنا من سيرة القديسة هندية حتى وقعنا في قصة ابنة عمكِ . غداً ترين تطويل ألسنة الفلاحين علينا الله يهونها

ومرّت ساعتان وهما في حديث مثل هذا ودخل الامير عباس وجلس الى جانب زوجتهِ واتاها احد الخدم بنقلة وقال الامير عباس اخذتِ مني عشرين غرشاً امس ولا بدَّ لي من استرجاعها فقالت لهُ ستخسر عشرين فوقها . ثم اخذا يلعبان لكن الاثنين كانا مشغولي البال وقبلما اتما الدق الاول قالت الاميرة هند هل تظن انهم ينجحون في ارجاعها . فقال لا اظن لانهم طامعون باملاكها فان املاكها تساوي اكثر من ستمائة الف غرش ولا بدَّ ما توقفها كلها للدير وانا خائف على صحتها لانها تقول في مكتوبها الى ابيها انها مصابة بزكام شديد

فتنهّدت زوجتهُ وقالت يجب ان ندير بالنا على سلمى فان اختي كلمتني عنها مرات كثيرة واحمد ميت حتى ياخذها ولكن هي لا تلتفت اليهِ ولا سيما بعد ان زارنا هذا الشاب الانكليزي

الاميرعباس — ماذا تقولين ماذا تقولين الشاب الانكليزي متى زارنا هذا الشاب

الاميرة هند — رأيناهُ مرةً ونحن عند النجمة كان مارًّا هو واحمد ثم دعاهُ احمد لحضور العرس ألم ترَهُ حينئذٍ

الاميرعباس — نعم رأيتهُ أهذا هو . نعم رأيتهُ ولكنني لم اسأل عنهُ

الاميرة هند — يقول احمد انهُ وكيل القنصل وانهُ من امراء الانكليز

الاميرعباس — من امراء الانكليز ويكون وكيلاً للقنصل لعلهُ افتقر مثل كثيرين من الشهابيين

الاميرة هند - يقول احمد انهُ من الامراء الاغنياء ولكن امراء الانكليز مهما كانوا اغنياء يخدمون في اصغر الوظائف السياسية وقد جاء الى بر الشام لكي يفتش عن قبر واحد من اجدادهِ قال انهُ قتل قرب بيروت ودفن في جهات الشويفات او كفرشيما . سلمى تعلم عنهُ اكثر مني فانها سمعت كل كلمة قالها احمد وسمعت اشياء اخرى عنهُ من الخدم فاذا كانت تتعلق بهِ فهناك المصيبة

الاميرعباس — لماذا تكون مصيبة ألم يتزوج عبدالله بابنة تشرشل بك الانكليزي فان كان هذا الامير كريم الاخلاق شهماً فلا مانع عندي ولكن ان كان افَّاقاً مثل كثيرين

من الافرنج الذين يأتون البلاد الشرقية للارتزاق والاكتساب فينبغي ان لا ندع لهُ سبيلاً الينا . ثم صفَّق بيديهِ فدخل الخادم فقال لهُ نادِ سلمى . فدخلت الاميرة سلمى وبيدها كتاب كانت تقرأ فيهِ وجلست الى جانب امها. فقال لها ابوها ما قصَّة هذا الامير الانكليزي

فاحمرَّت وجنتاها وخفق فؤادها وقد باغتها سؤَال ابيها مباغتةً فلم تدرِ بماذا تجيب لكنها كانت سريعة الخاطر تعلم ان سكوتها حينئذٍ ادلُّ عليها من كلامها واكشف لسترها فقالت لما رأيتهُ كنت مع امي ولم اسمع منهُ وعنهُ الاَّ ما سمعتهُ امي ولا بد من ان تكون قد اخبرتك بكل ما تعلمهُ من هذا القبيل

فجعل يتفرَّس في وجهها وهي مطرقة الى الارض محمرَّة الوجنتين فلم يخفَ عليهِ امرها ولم يشأْ ان يزيد ارتباكها . ثم قال لا بدَّ من ان يكون احمد عارفاً بهِ . والتفت الى زوجتهِ وقال اذا جاء احمد الى هنا فذكريني لكي اسأَلهُ عنهُ اما انتِ يا سلمى فانظري ما اصاب ابنة عمكِ ولا تدعي احداً يلعب بعقلكِ وعلى كل حال لا اسمح لكِ ان تفعلي شيئاً الاَّ بعلمي . هل تعدينني بذلك

فقالت نعم ولكن صفا معذورة لان عمي لم يكن يلتفت اليها كما يجب على الاب ان يلتفت الى ابنتهِ وخالتها على ما تعلم

فقال ان كانت صفا معذورة فانتِ غير معذورة فانكِ تعلمين معزتكِ عليَّ وعلى امكِ . وقد كانت امك تود ان تعطيك لابن اختها ولكن لما علمتُ انكِ لا تميلين اليهِ اعترضتها واوقفت الامر

فقالت الاميرة هند ولا ازال اود ان تغير فكرها لانهُ ليس في كل الشبان مثل احمد

اما سلمى فلم تتكلم بشيءٍ بل بقيت صامتة وعاد ابوها الى اللعب بالمنقلة وعادت هي الى القراءة في الكتاب الذي كانت تقرأ فيهِ

وفي اليوم التالي نزل الامير فارس ابو الاميرة صفا والامير قاسم عريسها الى بيروت وزارا المطران اولاً فوجداهُ عارفاً بما جرى للاميرة صفا وقال لهما انهُ لم يكن يعرف ذلك من قبلُ . فقال الامير فارس لقد عرفتَ الآن وانت وسيدنا البطرك قادران على ارجاعها حالاً

فقال المطران ان هذا لا يكن بعد ان نذرت العفَّة . فنظر اليهِ الامير قاسم نظرة الاستغراب وقال ان قانون الرهبان والراهبات واحد في كل الدنيا تقريباً فالذي يدخل الرهبنة يدخل اولاً تحت التجربة مدة سنة او سنتين ويحق لهُ ان يترك في هذه المدة

فقال المطران هذا قانون رهبنتنا ونحن لا نعلم قانونَ رهبنتهم وعلى كل حال انا لست

مسروراً بهذا العمل وقد كتبت الى سيدنا البطرك ليعترض عليهِ وانا اعترضت عليهِ بنفسي لاننا لا نسر بمداخلة الرهبنات اللاتينية في طائفتنا ومع ذلك لا اقدر ان اعدكم بنجاحنا

فقال الامير فارس نحن ذاهبان الى قنصل فرنسا فما رأي سيادتك في ذلك

فقال لا بأس اذهبا اليهِ وهو قادر على مساعدتنا اذا اراد

فقال الامير فارس ان لم يساعدنا فانا اعرف كيف افسد لهم الطبخة

فاضطرب المطران من هذا الكلام وقال ماذا تقول يا ابني لا تخلط شعبان برمضان هذه مسألة وهذه مسألة فمسألة ابنتك مسألة دينية عائلية ومسألة الجبل مسألة سياسية وهذه هي الفرصة الوحيدة لنا للتخلص من هذه الحالة التي لا تحتمل فارجو ان لا تحركوا ساكناً

فقال الامير فارس سياسية او غير سياسية فانا لا اسكت ما لم تردوا لي بنتي

فاطرق المطران وهو ماسك لحيتهُ بيدهِ يفكر في الامر ثم قال للاميرين انتظراني هنا حتى اذهب واقابل القنصل

ونادى قوّاسهُ ولبس جبتهُ وسار الى قنصلاتو فرنسا فقابلهُ القنصل بالترحاب وتذاكرا مليًّا ثم وعدهُ خيرًا

الفصل الخامس عشر

كشف الغامض

اثنان من العملة دخلا مغارة بين الشويفات وكفرشيما ظاهرها قبر بسيط باب في الصخر الكذان الابيض عرضهُ نحو ثلاث اقدام وعلوهُ نحو اربع وقد علاهُ الطحلب وعلت النباتات حولهُ حتى كادت تسدهُ من الاقحوان والشوكران وبخور مريم واينعت السراخس داخل المغارة من كل ما يكره الشمس ويحب الظل وكان مع العاملين ادوات الركس مرّان ومجرفتان وهما اخوان اتيا ليغرسا نصب التوت حيث كان التين مزروعاً لانهما رأيا الحرير اربح من التين وهما مالكان لتلك الارض مثل سائر ابناء لبنان لانهُ قلما يخلو احد منهم من ملك يعمل بهِ وكثيرًا ما ينقب البور ويفتت الصخر ويزرع في فتاتهِ تينة او كرمة او توتة او زيتونة

واستمرّ وقوع المطر ساعة من الزمان فاضطرّا ان يبقيا في المغارة كل تلك المدة وصارت عيونهما ترى ما لم تكن تراهُ اولاً لانها اعتادت الظلام فاتسعت حدقاتها وجمعت النور القليل المنعكس عن جدران المغارة فانتبها الى حفرة في داخلها كأنها باب مغارة أُخرى فقاما اليها وجعلا يحفران فازالا التراب واذا هما بباب آخر كالباب الاول ولكنهُ مسدود بحجر كبير.

فتعاونا عليهِ ونزعاهُ من مكانهِ ودخلا المغارة الثانية وهي اكبر من الاولى وكان الظلام حالكاً فيها الاَّ حيث يدخلها قليل من النور من الباب الذي فتحاهُ فمشيا فيها وعثرا بما ظناهُ عظاماً فاقشعرَّ بدناهما ووقفا حائرين ثم اعتمدا على ان يرجعا الحجر الى مكانهِ ويعودا بعد الظهر ومعهما شمعة . فعادا بعد الظهر ولم يكن احد يشك في انهما عائدان لزرع نصب التوت بعد انقطاع المطر لان الارض ارضهما وكانا يزرعان التوت فيها . ودخلا المغارة وفتحا الباب الداخلي ثانية واانارا الشمعة فدهشا مما رأَيا فيها فانهما رأَيا عظام عشرين او ثلاثين جثة وبعض تلك الجثث لم يكن بالياً بل كان جافًّا مسودًّا ومع بعضها اسلحة قديمة دروع وسيوف وفؤُوس وخوذ كأَن الذين وضعوا القتلى هناك من اصدقائهم لا من اعدائهم او كأَن الفرصة لم تسمح لهم لسلبهم فالقوهم في المغارة باسلحتهم

فاتفق الاخوان على ان يسدا الباب الداخلي كما كان ويعودا في الليل فيأْخذا الاسلحة شيئًا فشيئًا حتى لا يشعر بهما احد فسداهُ وخرجا وكانت السماء قد صحت فعادا الى غرس نصب التوت ووضعا الشمعة على حجر الى جانب باب المغارة

ومرَّ بهما الامير احمد حينئذٍ وكان قد خرج للصيد وحدهُ فوقفا للسلام عليهِ فحانت منهُ التفاتة الى باب المغارة لانهُ لم ينسَ غرَض السر هنري بدمونت فرأَى الشمعة موضوعة على الحجر فسأَلها عنها فارتبكا في الجواب . فوقف مشتبهًا بامرها وطلب منهما ان يصدقاهُ الخبر فجعل كلٌّ منهما ينظر الى اخيهِ وكانا كلاهما من حزبهِ يركنان اليهِ فلم يريا لهما بدًّا من اخبارهِ بما رأَيا في المغارة الداخلية فدخل معهما وازاحا الحجر واوقدا الشمعة فرأَى ما رأَياهُ وقال لا بدَّ وان تكون جثة جد السر هنري بين هذه الجثث لا سيما حينما رأَى الاسلحة قديمة . نعم ان الصدأ كان قد اكلها ولكن شكلها لا يزال ظاهرًا وهي من الاسلحة القديمة التي كانت تستعمل في عهد الصليبيين

فامرهما ان يسدا المغارة ولا يخبرا احدًا ابدًا ووعدهما ببشرى كل ما وجداهُ فيها وعاد الى دارهِ وهو حائر في امرهِ هل يخبر السر هنري بما رأَى فيكثر ترددهُ على كفرشيما والشويفات ويرى سلمى فيزيد ميلها اليهِ وحبها لهُ او يكتم الامر عن كل احد ويقنع السر هنري ان التفتيش عن جدهِ في تلك الجهات ضرب من العبث وعليهِ ان يفتش عنهُ في جهات اخرى . فقام في نفسهِ عاملان متنازعان عامل الشهامة وكرم الاخلاق يقول لهُ هذا رجل غريب وقد التجأَ اليك واستنجد بك وقد صار في طاقتك الى ترشدهُ الى ما استعان بك عليهِ فيجب ان تلبي طلبهُ وترسل تخبرهُ بما اكتشف هذان الرجلان وجزاؤُهما عليهِ والاَّ فانت

لئيم لا نجدة لك . وعامل الحب والاثرة يقول لهُ هذا مناظرك في حب ابنة خالتك ويجب عليك ان تبعدهُ عنها بكل طاقتك ولا تدع لهُ سبيلاً للتردد الى هذه الجهات فتنساهُ وتعود اليك . فتقول لهُ الشهامة ان كانت ابنة خالتك قد فضلت هذا الاجنبي عليك فلا خير فيها لك ويجب عليك ان تسلوها وتنساها . فيقول الحب هذا اغترار بالظواهر فقد اغترّت بهِ وقد لا تخطر على بالهِ ابدًا فاذا لم تعد تراهُ نسيتهُ ونجت من ورطة كان يمكن ان تقع فيها فيجب عليك ان تبذل كل واسطة لنجاتها منها

وبعد جدال طويل على هذا النمط تغلّب عامل الحب على عامل الشهامة فصمم على ان يحضر الاسلحة الى دارهِ ويخفيها فيها ويسد المغارة ويطمس معالمها . فاستدعى الرجلين وامرهما ان يأتياهُ بكل ما يمكنهما حملهُ من الاسلحة ثم يسدا المغارة ولا يخبرا احدًا واعطى كلاً منهما عشرة ريالات فقبّلا يدهُ وذهبا وجعلا ينقلان الاسلحة في حالك الظلام واكتفيا بنقل السيوف والخوذ واما الدروع فتركاها في مكانها وسدّا باب المغارة جيدًا وغرسا شجرة امام بابها تمنع الدخول اليها

وفي تلك الليلة جاء كتاب الى الامير احمد من الكولونل روز يدعوهُ فيهِ الى بيروت فودّ ان يطلع اولاد عمهِ عليهِ ولكنهُ خاف من غيرتهم لانهم كانوا يغارون منهُ لمكاتبة القنصل لهُ دونهم وكان يود ان يشركهم في المسؤُولية معهُ فوقع بين نارين ونام تلك الليلة وهو على احر من جمر الغضا لا يستطيع ان يخالف الوالي ولا ان يعادي القنصل ولا يريد ان يقابل السر هنري لئلا يسألهُ عما اذا كان قد عرف شيئًا عن المغارة او بلغهُ شيء عنها لانهُ كان قد وعدهُ بمداومة البحث والتنقيب . وكانت الشرور قد تفاقمت وعزم الناس عزمًا اكيدًا على ايقاد نار الفتنة وكانوا ينتظرون انقطاع المطر واهالي الساحل يودون ان ينتهوا من موسم الحرير قبلما يحدث شيء

وقام في الشويفات في ذلك الحين شاب من النصارى اسمهُ كامل جريء الفواد قوي الساعد لا يخطئ رصاصهُ من يسددهُ اليهِ . اجتمع عليهِ مرةً ستة وحصروهُ في مطحنة ففتك باثنين منهم ونجا من يدهم وانتقل الى المتن وجعل دأبهُ ربط الطرق وشن الغارات . وكان النصارى يحسبون ان الفوز سيكون لهم حتمًا لانهم فازوا فوزًا مبينًا في الحركة الاولى في بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي. واتت الرجال من كسروان وهي بالسلاح الكامل واقامت في بعبدا تشجيعًا لنصارى الساحل نخشي الامير احمد ان يذهب بطريق الحدث فيلتقي بكامل هذا او باحد من اتباعهِ فيحدث ما لا تحمد عقباهُ فاختار طريق البرج

ووصل الى دار الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحاً على جاري عادتهِ فرحب بهِ الكولونل واجلسهُ الى جانبهِ ورحب بهِ السرهنري ايضاً وكان الكولونل قد ارسل واستدعى اثنين آخرين من مشايخ الدروز الذين يثق بهم فوصلا بعد وصول الامير احمد بنحو ربع ساعة ولما استقرَّ بهم المجلس وشربوا القهوة قال لهم الكولونل لقد بلغني ان الوالي ابلغكم الاوامر التي وصلتهُ من الاستانة فانا اؤكد لكم ان هذه الاوامر غير صحيحة وان الذين بعثوا بها اليهِ غير مسؤولين عما يفعلون او هم جهلاء لا يعرفون مصلحتهم ومصلحة بلادهم لان الحركة التي امركم بها ستعود عليكم بالوبال وتجر الشر على رؤوسكم فاسمعوا مني واخبروا عقالكم لينصحوا جهالكم والاَّ فالخطب جلَل

فجعل الشيخان ينظر كلٌّ منهما الى الآخر اما الامير احمد فكان خالي الذهن لان الوالي لم يعد يأتمنهُ فلم يطلعهُ على تلك الاوامر مع انهُ ارسلها الى اولاد عمهِ لكن كبر عليهِ ان يتظاهر بجهلها امام الشيخين واستنتج ماهيتها من كلام الكولونل فقال لقد قلنا لسعادتكم قبلاً اننا نحن لا نكون البادئين ولكنهم اذا احرجونا اخرجونا فوافق الشيخان على كلامهِ

ولحظ القنصل ان الامير احمد يتكلم وهو غير عالم بفاد الاوامر ولكنهُ لم يشأ ان يظهر ذلك امام الشيخين فقال لهم اني انذرتكم وبينت لكم وخامة العاقبة حتى اذا تخلت عنكم دولة انكلترا لا يكون عليها لوم

وكان احد الشيخين كبير السن وقور المنظر فقال لهُ اسمع يا سعادة القنصل نحن نعلم ان دولة انكلترا تحبنا وتودنا وتدافع عن حقوقنا ولكن ذلك كلهُ يتوقف على رأي سفيرها في اسطانبول وقنصلها في بيروت والسفراء والقناصل يتغيرون كل سنة او كل بضع سنوات واما دولتنا فلا تتغير وسياستها معنا صارمة كما لا يخفى فاذا لم نطع اوامرها اوقعتنا في المهالك ودولتكم اقوى منا وكما منعت ابرهيم باشا المصري عن البقاء في هذه البلاد يمكنها ان تمنع رجال دولتنا عن القاء الفتن فيها . فاذا كنتم تريدون ان توقفوا هذه الحركة فلا اسهل عليكم من ان تأتوا بمركبين حربيين وتهددوا بهما بيروت وترسلوا فرقة من عساكرها الى الشام فيقف كل واحد عند حدهِ ولا يخفى على سعادتك ان الحركات التي تصير في لبنان اكثرها ليس منا بل من غيرنا فاذا اوصيتم كل اهالي الجبل حتى يلزموا السكينة لم يحدث فيهِ شيء . ونحن قد نزلنا الى بيروت خوفاً من القلاقل ونؤكد لسعادتك ان البلاد كلها منتظرة الشهر التالي ولا بدَّ من قومة عامة اذا كانت بقية القناصل لا توجب على النصارى ان يلزموا جانب السكون

فقال القنصل وما هي هذه الاوامر التي اطلعكم الوالي عليها

فقال احدهما يصعب علينا ان نجيب سعادتك على هذا السؤال ولكن لا بدّ ما يكون سفيركم في اسطانبول قد وقف عليها كلها

ولم يكن السفير عارفاً بها ولا مهتماً بالوقوف عليها واستحى الكولونل ان يخبرهم بذلك وكان واثقاً ان الامير احمد لا يعلم بها والشيخين لا يفشيان سرًّا أؤتمنا عليهِ فلم يلح عليهما لكنهُ فهم من مغزى كلامهما ان الاوامر ذات شأن خطير كما قيل لهُ . ورجا ان يأتيهُ من يخبرهُ بها حرفيًّا لانهُ كان يقول ان السياسة تقضي على المرء ان يعرف مقاصد خصمهِ بكل واسطة حتى يتلافى الضرر قبل الوقوع فيهِ الَّا انهُ ودَّ ان يعرفها ذلك اليوم ليكتب مع البريد يخبر وزارة الخارجية ورأي ان الشيخ مصيب في طلب مركبين حربيين وعزم ان يكتب بذلك الى حكومتهِ ولو وقف على الاوامر السرية التي بلغهُ خبرها لفعل ذلك حتماً

ولما انتهت المذاكرة نهض الامير احمد ونهض الشيخان لنهوضهِ فودعوا وركبوا خيولهم وساروا الامير احمد الى بيت عمهِ والشيخان الى بيتيهما لانهما كانا قد شتيا في بيروت تلك السنة هما وكثيرون من مشايخ الجبل على خلاف العادة . وكان لا بدَّ لهم من المرور تجاه بيت الشيخ درويش ابي نخر وكأنهُ كان جاسوساً عليهم يرقب حركاتهم وسكناتهم فوقف في باب بيتهِ وسلَّم عليهم وطلب منهم ان ينزلوا ويشربوا فنجان قهوة فاعتذروا اليهِ بضيق الوقت وبقرب آذان الظهر فمسك بلجام فرس الامير احمد وقال عليَّ الطلاق ان لم تنزلوا وتشربوا فنجان قهوة . فاضطروا ان ينزلوا فادخلهم بيتهُ واجلسهم حيث اجلس الامير ونادى بالقهوة وجعل يقص عليهم ما سمعهُ من الوالي من المدح والثناء على الامير احمد وذكائهِ قال وقلت لدولتهِ ان الامير احمد ابن ابيهِ وابوهُ كان صديقي والصداقة قديمة بيننا انتم الآن آتون من عند قنصل الانكليز لا بأس فان الانكليز اصدقاء لدولتنا العلية هم والفرنسوي حالفوها على حرب المسكوب ولكن يُرى لي ان السياسة انقلبت اليوم فان افندينا الوالي ما عاد يركن الى قنصل الانكليز . لم يقل لي ذلك صريحًا ولكنني فهمت منهُ . انا القطها طائرة . ونحن ما لنا وللقنصل ولكل الافرنج ما دام دولتنا في الوجود . ما هو رأي القنصل قل لي يا امير احمد الظاهر انك لا تستخلصني كما كان يستخلصني المرحوم والدك

فقال الامير احمد ليس الامر كذلك يا ابا نخر ولكنك انت عارف بكل شيء والذي لا تعلمهُ بالسمع تستنتجهُ بذكاء عقلك

فضحك ابو نخر وقال هكذا كان المرحوم ابوك يقول عني نحن احباب من زمان طويل وحضرة الشيخين معرفة مباركة ان شاء الله . تفضلوا خذوا القهوة . هذا بن حجازي يأتيني

هديَّة كل سنة لا مثيل لهُ في كل بيروت ولا في الشام وعندي جارية اشتريتها من جواري اسعد باشا كأنها مخلوقة لعمل القهوة فلا اطيب من قهوتها وهي تدق البن في هاون خشب ولا تدقهُ في هاون نحاس لئلا يفسد طعمهُ — كل شيء صنعه . يقال ان قهوة البدو اطيب من غيرها شربتها في السنة الماضية لما اتى عرب الفضل الى بلاد الحولة ذهبت الى هناك من قِبَل الوالي لبعض الاشغال وكنت اشرب من قهوتهم فلا اراها اطيب من قهوة الجارية التي عندي ، ماذا تقول يا حضرة الشيخ هل شربت قهوة اطيب من هذه القهوة والفناجين والظروف الامير احمد يعرف قصتها . زارني الوالي في رمضان لكي يشرب من هذه القهوة ولما رأى الفناجين ابتهج لها والى الآن يقول انهُ ما شرب مثل القهوة التي شربها في بيت الشيخ درويش

فقال احد الشيخين نعم القهوة كما وصفت يا حضرة الشيخ ونحن مسرورون بهذه المعرفة الجديدة والفضل فيها لسعادة الامير، وصادق الشيخ الآخر على كلامهِ ونهضوا وبعد اللتيَّا والتي تمكنوا من وداعهِ وركبوا وساروا في طريقهم والامير احمد يقول لا بدَّ لنا ان نجد طريقاً آخر نمر بهِ بعد الآن حتى نخلص من هذا الثقيل

وسار الامير احمد الى بيت عمهِ والشيخان الى بيتيهما وافترقوا على ان يجتمعوا في المساء في خلوة رأس بيروت. ويتداولوا في ما يجب عليهم عملهِ في الاحوال الحاضرة

الفصل السادس عشر

استفحال الخطب

اری خلل الرماد وميض جمرٍ ويوشك ان يكون لهُ ضرامُ
فانَّ النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها الكلامُ

وما الحرب الاَّ ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضرَ اذا ضرَّيتموها فتضرمِ
فتعرككم عركَ الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئمِ
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم كأحمرَ عادٍ ثم ترضع فتفطمِ
فتغلل لكم ما لا تغلُّ لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهمِ

ليقل محبو السلام ما شاؤوا في مذام الحرب وليطنب كتَّابهم في وصف ويلاتها فما دام

في الدنيا اناس يتَّجرون بالحروب ويكتسبون بها اسماً وجاهاً او مالاً ومقاماً فهم يوقدون نارها ويذكون اوارها فهي آلة الملوك والوزراء والقواد والرؤساء والمرابين والمورِّدين وصانعي الاسلحة والمهمات وكل المرتزقين من مال غيرهم . فما دام هؤلاء يجدون فيها مغنماً فلن تنطفىء نارها

وشر الحروب الحرب الاهلية وشر الناس موقدو سعيرها ولا سيما اذا لم يكن للمتحاربين مصلحة فيها

مضى الشتاء وجاء الربيع فانتعشت الطبيعة ولبست ابهى حللها وحلاها . تفجَّرت الينابيع واكتست الرياض والغياض اثواباً سندسيَّة مطرزة بالوشي المعلم وانحنت الادواح تحت حملها من تفاح فضي ومشمش عسجدي والطيور تتغنَّى في افنانها وعبق اريج الازهار يعطر الآفاق ويسلي النفوس عن اشجانها . استغفر الله . الطبيعة من نبات وحيوان جذلة طربة الاَّ ابن آدم انتظر انقطاع الامطار لكي يبدلها بوابل من رصاص بنادقهِ يخطف بها النفوس من الابدان قضاء للبانات افراد معدودين

وصلت الاخبار الى الكولونل روز ان الرزيئة وقعت والنار اشتعلت وقد طرح الصوت وأُطلق المدفع وانفضَّ رجال كسروان من الساحل اطاعة لامر الوالي والمطران وعادوا ادراجهم واجتمع الدروز حول مشايخهم وهجموا على قرى المتن فالتقاهم النصارى خائري العزائم لان الجنود في الحازمية وراءهم وقد خافوا ان يقعوا بين نارين لا سيما وانهُ كان قد شاع وذاع ان في يد الوالي اوامر سرّية باستئصال شأفتهم

وصعد السر هنري بدمونت الى سطح القنصلية والنظارة في يدهِ فرأى كأن ربى لبنان استحالت الى براكين كثيرة تقذف الدخان والنيران من افواهها وقام ابناؤُه زرافات زرافات مشاة وفرساناً وقد نشروا الاعلام وانتشروا حول القرى يهاجم بعضهم بعضاً ويترامون برصاص البنادق من وراء المتاريس ثم يستلون السيوف ويردون الحتوف الى ان يتغلب فريق على فريق فيدحرهُ ويضرب في اقفيتهِ ثم يضرم النار في مساكنهِ . والتفت الى كفرشيما حيث دار الاميرة سلمى فرأى الدخان مسردقاً فوقها فوقعت النظَّارة من يدهِ وجلس على كرسيٍ وسند رأسهُ وقد مرَّ في ذهنهِ صور الحروب القديمة التي كانت تنشب في تلك البلاد وتنتهي بحرق البيوت وسبي النساء والذراري فقال في نفسهِ ترى ما حلَّ بتلك الاميرة واي فارس اردفها وراءهُ الآن وهي تنادي وتستغيث ولا سامع ولامغيث هل يفعل ما كان يفعلهُ الفرسان في القرون الوسطى فيتقلد سلاحهُ ويركب جوادهُ ويبادر لانقاذها يهجم على الفارس الذي خطفها ويطعنهُ طعنة تكون القاضية . ولكن انَّى لهُ ذلك الآن وهو غريب في بلاد غريبة وقد

قضي الامر وكادت جموع الفارين تصل ابواب بيروت. وهل بقي الامير عباس واهل بيتهِ في كفرشيما الى ان هاجمها الاعداء او غادرها في الليل الغابر وهل ركب مع اتباعهِ وقاوم الاعداء فدارت الدائرة عليهِ او رأى ان المقاومة ضرب من المحال فاركن الى الفرار

وكان الكولونل روز مصاباً بزكام شديد وحمى وهو طريح الفراش فنزل السرهنري واخبرهُ بما رأى فتململ في سريرهِ وتحفز للقيام ولكن اصابتهُ نوبة سعال صرفتهُ عن عزمهِ فقال نالوا بغيتهم اتوا بالرجال من كسروان لتشديد العزائم ثم صرفوهم لحلها وارسلوا الجنود الى الحازمية لتسكين الخواطر وهم يعلمون مع من ضلعها. واولئك الحمقى من امراء ومشايخ مغترُّون بالمواعيد ولا يعلمون ان الدائرة ستدور عليهم اخيرًا ولو كان النصر لهم وقد اخلصتُ لهم النصح فما انتصحوا

ثم عاودتهُ نوبة السعال فعجز عن الكلام . وحضر الترجمان حينئذٍ وقال للسر هنري ان الفارين من قرى الساحل قد وصلوا الى بيروت وهم في حالة يرثى لها وكلهم نساءٌ واولاد مع بعض العجائز ولا طعام لهم ولا شراب ولا يعلمون الى اين يذهبون فاتجه فريق منهم الى دار مطران الموارنة وفريق الى دار بطركخانة الروم وانتشر كثيرون منهم في بساتين التوت في حي المصيطبة وبير النبع ولا بدَّ لنا من مساعدتهم بما يفرج كربتهم وان كنا لا نحمّل الوالي تبعة كل ما يحدث في المدينة فلا امان عليهم ولا علينا . كيف حال القنصل الآن

السرهنري — القنصل على حالهِ وانتَ ادرى مني بالخطَّة التي يجب ان نجري عليها في هذه الحال فاخبرني بما ترتئيهِ وانا استشير القنصل بهِ . الم يأتِ الرجال مع الهاربين

الترجمان — لم ارَ الاَّ قليلين منهم والباقون لا يزالون يناوشون خصومهم ويدافعون عن حريمهم ولا بدَّ ان يبلغ عدد القتلى والجرحى مبلغاً كبيرًا لان القلوب ملآنة والناس لا يعرفون نظام الحروب

وودَّ السرهنري ان يذهب ويختلط بجموع الهاربين ليفتش عن الاميرة سلمى ولكنهُ كان يجهل كل طرق الاستدلال عليها وخاف ان يسأل الترجمان كما يخاف من يحاول منكرًا ويرى العيون رقيبة عليهِ. ثم لام نفسهُ لانهُ فكَّر بامرخاص وقتما يجب عليهِ ان لا يهتم الاَّ بالامر العام وبالبليَّة الكبرى التي تشمل الوفا مثل الاميرة سلمى وقد تكون هي اسعد حالاً منهم كلهم فجلس مشرَّد الافكار ينظر الى السقف مرةً والى الارض اخرى

وسار الترجمان الى الدار التي يجتمع فيها المرسلون الاميركيون ليستشيرهم في الامر وهو عازم ان يذهب بعد ذلك ويرى قنصل فرنسا وقنصل روسيا ثم يعود ويخبر السرهنري بما وقف عليهِ

الفصل السابع عشر

واقعة الساحل

لما كان السرهنري واقفاً على سطح القنصلية يرى الدخان يتصاعد عن سفح لبنان من قراه المنتشرة كالحبب على وجه الماء او كالدراري في كبد السماء كان رجال الساحل قد احيوا الليل بالاستعداد لمقابلة الاعداء وانقسموا فريقين فريقاً تولّى حماية النساء والاولاد والذهاب بهم الى مدينة بيروت مع ما خفّ حمله وغلا ثمنهُ من الامتعة وفريقاً تسلّح وودّع اهلهُ واقاربهُ وداعاً قد لا يعقبهُ لقاء . فكنت ترى هنا طفلاً متعلّقاً بثياب ابيهِ وهو يقول لهُ كيف تتركنا يا ابتِ ومن يبقى مع امي واخواتي وابوهُ يرفعهُ بيديهِ ويقبلهُ ثم يسلمهُ الى أُمهِ ويوصيها بهِ . وهناك امرأة تربط زنار الفشك (الخرطوش) على وسط زوجها وتناولهُ بندقيتهُ ويطقانهُ وهي تنظر الى وجههِ تارةً والى اطفالها اخرى وترفع قلبها الى الله وقدّيسيهِ ليردوا لها زوجها سالماً . وهنالك رجلاً يودّع ابن عمهِ ويقول لهُ أُودعك يا اخي المرأة والاولاد فيجيبهُ ذاك بامان الله كن مستريح البال فهم مثل اولادي واعز . واكثر الاولاد نيام يوقظهم امهاتهم فيفركون عيونهم ثم ينامون . والنساء الجبارات يحملن جرار الماء ليجرين وراء الرجال . والجمال باركة تهدر والناس يحملون عليها امتعتهم وهم يتآمرون في ما يجب اخذهُ وما يجب تركهُ . والمكارون يسبّون ويشتمون وقد علت الجلبة واختلط الحابل بالنابل ووقف العجائز بعضهنّ يشير بما يجب عملهُ وينبي بحسن المصير وبعضهنّ يضرع الى السيدة ومار الياس ومار انطونيوس وكانت ليلة صفا اديمها واغنت دراريها عن بدرها فاشرقت تقابل بين توحش الناس وانس الوحوش

ولما طلع الفجر ركب الامراء وهم بالعدة الكاملة مع كل واحد منهم سيف وقربينة وطبنجتان ومشى الرجال معهم ومع كلٍّ منهم بندقية ويطقان او بالة وطبنجتان او فردان . وسار حملة البيارق في مقدمة الجمع وهم ينشدون الاناشيد الحماسية ومشوا فرقاً فرقاً الى ظهور الوادي وبعبدا ومترسوا هناك واشرقت الشمس حينئذٍ وصبت اشعتها عليهم فكادت تعمي ابصارهم وقبل ان يتموا اقامة المتاريس اقبل الدروز عليهم براياتهم البيضاء واصلوهم ناراً حامية ومرّت ساعتان والحرب سجال بين الفريقين لكن الدروز كانوا اكثر عدداً واحكم انتظاماً واطوع لقوادهم فاقام فريق منهم يناوش النصارى ودار فريق من ورائهم وكاد يقطع خط الرجعة عليهم ويئس النصارى من الفوز فجعلوا يرتدون القهقرى وكلما وصلوا الى مكان تسهل المترسة فيهِ وقفوا واطلقوا بنادقهم على اعدائهم حتى اذا لم يستطيعوا قهرهم

اخروهم عن بلوغ قراهم الى ان تخرج عيالهم منها وتصل الى بيروت

ودار الحديث التالي بين اثنين من الدروز

حامد — من هذا الخيّال الذي ينخّي رجالهُ والسيف مسلول بيدهِ

محمود — اتعني راكب الحصان الازرق او راكب الحصان الاشقر

حامد — راكب الحصان الازرق فاني اراهُ لا يخاف الموت

محمود — هذا الامير عبدالله وهذا حصانهُ الابجر وهو مثل الابجر حصان عنتر بن شداد لا مثيل لهُ بين خيول الشهابيين

حامد — ان بندقيتك نظامية فلماذا لا تطلقها عليهِ

محمود — نيشنت عليهِ مرتين وانا ارمي العصفور الطائر ولكنني لم اصبهُ لان المجال بعيد والرصاص لا يصل اليهِ

حامد — لماذا لا يهجم عليهِ الشيخ حمدان وما هو نفع كحيلان ان كان لا يلحق الابجر

محمود — اخ

حامد — مالك قم نتبعهم فقد قاموا من امامنا

محمود — الكاتبه ربك يصير سلّم على ام قاسم وقل لها ربي ابنك حتى يأخذ بثار ابيهِ — يا حمزه يا سيد عبدالله — وارتمى على الصعيد فجرهُ حامد الى وراء صخر ودنا من الشيخ حمدان واخبرهُ ان راكب الحصان الازرق هو الامير عبد الله عقيد النصارى . فقال لهُ ومن اين تعرفهُ . فقال من حصانهِ . فلما سمع الشيخ حمدان ذلك اغمد سيفهُ وصلى قربينتهُ واغار على الامير عبد الله وهو يقول في نفسهِ كسرنا القوم وقتلنا عميدهم حتى اذا دنا من الامير قال لهُ خذها ولا تقل اني غدرتك واطلق القربينة عليهِ وكان الامير عبد الله قد تنحّى من وجههِ فلم يصبهُ شيءٌ من حواشيها ثم ارتدّ اليهِ والسيف في يدهِ واطبق عليهِ وكاد يوقع بهِ ولكن رآهُ اربعة من اتباعهِ وهجموا عليهِ بالاتهم فارتدّ عنهُ وهو يقول لهُ ان كنت راعي كحيلان فابرز اليّ وحدك فارساً لفارس

وكان بعض الدروز قد داروا من وراء النصارى واضرموا النار في بيوت الوادي وبعبدا وسبنيه والتفت النصارى فرأوا الدخان يتصاعد من بيوتهم فايقنوا ان الجنود المعسكرة في الحازمية لن تدفع عنهم مكروهاً خلافاً لمواعيد الوالي ان لم تكن ممالئة لعدوهم عليهم فارتدوا الى بعض الدور وتحصنوا فيها

والتفت ميخائيل الى منصور وقال لهُ لقد دخل الامير دارهُ وتحصن فيها و يظهر لي اننا

لا نستطيع ان نصبر اكثر من ساعة وربما تتعذر علينا النجاة بعد ذلك فما لنا ولقلة العقل

منصور — أيليق بنا ان نترك الامير وحده في هذه الساعة لا انا لا اذهب من هنا الأ رجلي ورجله

ميخائيل — هو فارس وانت راجل فاذا حميت الحديدة تركك وهرب

منصور — هو وشأنهُ اما انا فقد حلفت لامهِ اني لا اتركه

ميخائيل — اخ

منصور — مالك مالك يامسكين الذي تأتي ورقته يذهب غصباً عن رقبته . في رأسك. رصاصهم عالي . هذه الرصاصة من صاحب اللفة البيضاء خذها يا ملعون. وسدد اليهِ بندقيتهُ ورماه فلم يصبهُ ثم التفت فرأى الامير خارجاً من باب دارهِ ومعهُ صندوق صغير فتناوله منهُ وجرى وراءهُ

وكانت الشمس قد تكبدت السماء ورأى النصارى ان الدروز تكاثروا عليهم وكادوا يحيطون بهم من كل جهة فاركنوا الى الفرار وتبعهم الدروز الى قرب الشياح وقتلوا منهم زهاء ثلاثين نفساً وفي جملتهم الامير بشير قاسم الملقب بابي طحين

ووصلت العيال الى بيروت في الصباح بعد شروق الشمس بساعة او ساعتين وتفرقت في احياء المدينة واضطر الاولاد الصغار من ابن ست سنوات فصاعداً ان يسيروا هذه المسافة كلها مشياً على اقدامهم والرجال الذين ساروا معهم لحمايتهم لقيهم الخفر عند فرن الشباك والميدان واخذوا ما معهم من الاسلحة بامر والي بيروت فلم يعودوا يستطيعون الرجوع لنصرة اخوانهم

الفصل الثامن عشر

التفتيش عن الاميرة سلمى

عاد الترجمان من مقابلة المرسلين والقناصل واجتمع بالسرهنري وتذاكرا مع القنصل ملياً ثم خرج السرهنري مع الترجمان يتعهدان احوال النصارى الذين وصلوا الى بيروت ذلك الصباح فارين من وجه الدروز وكان الرجال الذين اصلوا نار الحرب وناوشوا الدروز الى ان تكاثرت جموعهم واضطروا ان ينهزموا من وجههم قد وصلوا الى بيروت وجعلوا يفتشون عن عيالهم فكانت المرأة التي ترى ان زوجها او ابنها او اخاها لم يعد مع الذين عادوا توقن انهُ بين القتلى فترفع صوتها بالبكاء والعويل وتجلس تضرب صدرها وتنوح نوحاً يفتت الاكباد

واجتمع كثيرات من النساء زرافات زرافات وقد اسدلن الشعور وجعلن يلحن بالمناديل و يندبن و يبكين وسمع اولادهم صوت البكاء والنواح فعلا بكاؤهم وعويلهم وقام الرجال ينتهرونهم لكي يسكتوا او يشاركونهم في البكاء واجتمع عليهم نساء بيروت واولادها يأتونهم بالخبز والماء و يرثون لبلواهم . وكان لاكابر الساحل اصدقاء واقارب نزلوا عليهم فوسَّع هؤلاء لهم في منازلهم واحلوهم على الرحب والسعة

وسار السر هنري والترجمان من محلَّة الى اخرى يرون الرجال و يستقصون الاخبار والسر هنري يكتب في مذكرتهِ كل ما يراهُ ويسمعهُ وكان يعلم اسم الاميرة سلمى ويعلم انها شهابية ولكنهُ نسي اسم ابيها ولم يكن يدري كيف يسأل عنها فقضى من العصر الى قرب الغروب ينتقل من محلة الى أُخرى ومن حي الى آخر فلم تقع عينهُ عليها ولا على امها ولا على ابيها فزاد انشغال بالهِ وكاد يبوح بما في نفسهِ للترجمان لعلهُ يساعدهُ على التفتيش عنها . و بينما هو في حيرة ولا حيرة الضب حانت منهُ التفاتة فرأَى القزم الذي رآهُ في كفرشيما لما التقي بالاميرة سلمى وامها على عين الماء بين كفرشيما والشويفات ورآهُ القزم فعرفهُ وجعل يناديهِ قائلاً يا خواجه يا قنصل فهش لهُ السر هنري واخذ بيدهِ وكادت الدموع تهطل من عينيهِ لمَّا قابل الحالة التي رآهُ فيها اولاً وهو يكاد يكون في مجالس انس الملوك والحالة الحاضرة والناس مرتمون على الارض كالانعام واطفالهم يبكون و يتخاطفون كسر الخبز وكأَنهُ كان يرى الف رقيب عليهِ فطلب من الترجمان ان يقول للقزم ليأتي معهُ الى دار القنصلية ويقص عليهِ ما حدث لهم . فقال لهُ الترجمان ان القنصل يدعوك للذهاب معهُ الى دار القنصلية فقال حباً وكرامة . وكان القواسة قد احضروا لهُ فرساً وللترجمان فرساً آخر فركبا وعادا الى دار القنصلية وعاد القواسة بالقزم اليها

وجعل الترجمان يسألهُ عن الامراء واحداً واحداً الى ان وصل الى اسم الامير عباس فقال ان الامير عباساً تخاصم مع الوالي فان الوالي طلب منهُ ان يوافق الدروز ويكون معهم لانهُ مسلم فرفض ذلك وذهب بزوجتهِ واولادهِ الى ابناء عمهِ امراء حاصبيا منذ اربعة ايام . ثم التفت الى السر هنري وقال لهُ والاميرة سلمى معهم . ففهم السر هنري اسم سلمى واستفهم من الترجمان عما قال فترجمهُ لهُ فاظلم الضياء في عينيهِ ولم ينتبه الترجمان لذلك ولكن القزم انتبه لهُ وقال اني رأيت الاميرة سلمى يوم ارتحلوا وكانت تشير على ابيها ان ينزلوا الى بيروت وتؤكد لهُ ان قنصل الانكليز يحميهم وهو مصرٌّ على الذهاب الى حاصبيا ووادي التيم ولما فرغت حيلتها جعلت تبكي وتتوسل الى امها لكي تقنع اباها بالنزول الى

بيروت او بالذهاب الى الشويفات الى بيت خالتها لان الامير احمد ارسل يدعوهم اليهِ ولكن الامير عباساً رجل عنيد لا يسمع رأي احد

ثم قال القزم للترجمان قل للقنصل ان الاميرة سلمى تحيةُ وكانت تريد ان تنزل الى بيروت لاجلهِ . فأبى الترجمان ان يترجم هذا الكلام للسر هنري لكن السرهنري طلب منهُ ان يترجمهُ لهُ فترجمهُ لهُ فتضاحك وقال قل لهُ من اين عرفت ذلك . فقال اجبهُ ان العصفورة اخبرتني وانا وان كنت صغير الجسم لكن عمري اربعون سنة وانا أضحك الناس واضحك عليهم لانني اعرف ضمائرهم واقرأ افكارهم في وجوههم وحركاتهم فاننا لما كنا على النجمة ورأيتهُ واقفاً امامها قرأت في عينيها وعينيهِ رسائل الحب بينهما . وقل لهُ ان الاميرة سلمى في حاصبيا الآن ولا امان عليها هناك لان امراء حاصبيا مع النصارى ولا بدّ ما تدور الدائرة عليهم وليس لهم هناك مدينة يلجأُون اليها مثل بيروت فان كان يحبها حقيقة فليبذل جهدهُ في انقاذها. ثم نظر الى السرهنري وجعل يكلمهُ بالاشارات ففهم السرهنري بعض مرادهِ وزاد انشغال بالهِ وقال في نفسهِ ان هذا الرجل المشوَّه الخلقة اذكى فؤَادًا من اكثر الذين رأيتهم في حياتي فطيب خاطرهُ واخرج من جيبهِ قبضة من النقود الفضية واعطاهُ اياها وعرض عليهِ ان يبقى في القنصلية وينام مع الخدَم اذا اراد فقبل ذلك شاكرًا وصار دأبهُ التردُّد على النازحين الى بيروت والمجيءَ باخبارهم فكان من افضل المخبرين واذكاهم فؤَادًا واكثرهم تدقيقاً واصوبهم رأياً

وكان السر هنري يسمع ما يأْتي بهِ من الاخبار وهو يفكّر في الاميرة سلمى وما يحتمل ان يصيبها في حاصبيا اذا وقع بها ما يخشى وقوعهُ او اذا لجأ بها ابوها الى عرب البادية فتاهوا في القفار وغزا بعضهم بعضاً وأُخذت سبية وقد يراها امير من امرائهم فيتزوج بها رغماً عنها. وراجع ما كتبهُ قنصل صيداء عمّا بلغهُ من اخبار حاصبيا فوجد ان الفتنة ابتدأَت فيها ولا امان على الامراء الشهابيين الذين هناك ولو كانوا مسلمين ولكن الحول والطول في تلك الجهات للست نائفة اخت الشيخ سعيد جنبلاط فعزم ان يكتب اليها لكي تحمي الامير عبّاساً وعائلتهُ ولكنهُ عاد وتذكر ما قالهُ لهُ القزم وهو ان الامير عبّاساً عنيد ولا يرضى ان يحتمي باحد من الدروز فرأى ان لا فائدة من الكتابة

ولا اشد على المرء من ان يرى نفسهُ مغلول اليدين لدى امر يسهل عليهِ عملهُ ولكن لا سبيل لهُ اليهِ . فلوجاء الامير عباس الى بيروت لكانت حمايتهُ وحماية كل الذين يلوذون بهِ من اسهل الامور على السر هنري ولو كان الوالي ضدهُ ولكنهُ اختار الذهاب الى مكان

في داخلية البلاد دون الوصول اليهِ خرط القتاد

وكانت هذه الافكار تتردد في بال السر هنري وهو يتناول عشاءهُ ولحظ الكولونل اضطرابهُ فظن ان ذلك ناشئ عما شاهدهُ ذلك اليوم مما ينفجع لهُ المرء فلم يشأ ان يسألهُ عنهُ ثم استطرد الحديث الى احوال اللاجئين الى بيروت فتكلم السر هنري كلاماً مجملاً دل على انهُ كان مشغول البال بامر آخر

الفصل التاسع عشر

النار ولا العار

ومَن يخشى اطراف الرماح فاننا لبسنَ لهنَّ السابغات من الصبرِ
وان كريهَ الموت حلوٌ مذاقهُ اذا ما مزجناهُ بطيب من الذكرِ
وما رزق الانسان مثل منية اراحت من الدنيا ولم تخزِ في القبرِ

أَلا ربما كان التصبر ذلةً وادنى الى الحال التي هي اسمجُ
وقد يركَب الخطب الذي هو قاتلٌ اذا لم يكن الاَّ عليهِ معرَّجُ

لا اثقل على نفس الحر من الصنيعة يسديها اليهِ مَن ليس اهلها . ولا من الانقياد لرأي ترى من نفسك بطلانهُ . هكذا كان شأن الامير عباس حينما بعث اليهِ الامير احمد يدعوهُ الى الشويفات ليقيم في حماهُ فانهُ لما اخبرتهُ زوجتهُ الاميرة هند بكلام الرسول هزَّ رأسهُ وقال الله الله صار ابن شهاب يحتمي بابن ارسلان لا وتربة اجدادي . ثم نادى بغلمانهِ وقال استعدوا للسفر فاننا ذاهبون الى حاصبيا . وقال لزوجتهِ لا يمكنني الذهاب الى الشويفات والالتجاء الى بيت ارسلان ولا النزول الى بيروت لان الوالي على ما تعلمين وقد سفَّهت رأيهُ وحذَّرتهُ عواقبهُ لحقد عليَّ . ولا البقاء هنا لانهُ لا بدَّ للدروز من مهاجمة الساحل ولا يستطيع النصارى ان يثبتوا في وجههم بعد ان كفل الوالي لهم الفوز فقولي للاولاد ان يكونوا على استعداد فنذهب الى اولاد عمنا في حاصبيا ووادي التيم فانهم بعثوا يلحون علينا بالذهاب اليهم وربما ذهبنا من هناك ونزلنا على عرب الفضل فان الامير عمر الفاعور ارسل اليَّ مرتين لنذهب اليهِ ونحن باختيارنا منازل البدو على غيرهم نكون قد عدنا الى اصلنا او كما يقول المثل اكلنا الفول وعدنا الى الاصول

وكان الشهابيون في كفرشيما والحدث وبعبدا مرتابين في امرهِ هل ينتصر الدروز او

ينتصر للنصارى ولكنهم لم يكلموهُ في هذا الموضوع وهو كان يعلم ان الحرب الاهلية تأول الى اضعاف اهالي لبنان كلهم فيتمكن ولاة الدولة من اذلالهم وكان يسفه رأي القائلين بها والحاثين عليها وافضى الجدال بينهُ وبين والي بيروت الى المغاضبة لكنهُ طلع بسواد الوجه مع الفريقين فلا هو ارضى الدروز ولا هو ارضى النصارى وارتاب كلاهما في اخلاصهِ . واقام يرقب تغير الاحوال وتفاقم الخطوب وكلما حانت لهُ فرصة وبخ القائمين بهذه الفتنة وسفَّه رأيهم وهو لا يوقر كبيرًا ولا يحترم ذا مقام حتى مطران الموارنة صديقهُ الحميم اغتاظ منهُ وكفَّ عن زيارتهِ . وبقي يحسب ان الوالي يرى وخامة العاقبة فيأمر الفريقين بالتزام جانب السكينة او يكون على المعتدي مع المعتدى عليهِ الى ان جاء الرسول من عند الامير احمد يطلب منهُ ان يلجأ الى دارهِ ليحتمي فيها . وكان يعلم ان الامير احمد رجل جدّ لا يقول الَّا ما يعني ولا يتكلم الَّا بالوقار التام فثبت لهُ حينئذٍ ان الشرَّ واقع لا محالة وان الدروز واثقون بالفوز في هذه النوبة وهم لا يثقون هذه الثقة الَّا وقد اكَّد لهم الوالي انهُ ينصرهم بالجنود وترجَّح لهُ حينئذٍ ما كان قد سمعهُ ولم يصدقهُ وهو ان الوالي اشترى رؤساء الدروز بالاموال الطائلة واستأجرهم لهذا العمل استئجارًا ولما رآهم ممتنعين عن اجابة طلبهِ برأي بعض عقالهم حذَّرهم سوء العاقبة وقال لهم ان الاموال التي عرضتها عليكم اعطيها لخصومكم واساعدهم عليكم ان انتم اصررتم على رفض طلبي . لان غرضهُ كان اثارة الفتنة على كل حال عملاً بمشورة الحزب الناقم على الحكومة في الاستانة . وقد عمل بعض الدروز برأيهِ مكرهين لانهم رأوا انفسهم بين نارين فاختاروا اخف الشرين وما هذه اول مرة استحلَّ فيها رجال السياسة اثارة الحروب والفتن لاجل اغراضهم السياسية

فقال الامير عباس حينئذٍ لقد قضي الامر واتفق الدروز مع الوالي ووافقهم الامير احمد وما كان اغناهُ عن امر يجرُّ عليهِ البلاء . فقوي الميل في نفسهِ الى نصرة ابناء عمهِ لانهُ الفريق المعتدى عليهِ ولكن ابناء عمهِ في لبنان لا يأتمنونهُ فقال لا بدَّ من الرحيل الى حاصبيا لان امراء حاصبيا لا يزالون على الاسلام مثلهُ وهم من حزب النصارى

وشاع في كفر شيما ان الامير عباسًا عازم على الارتحال الى حاصبيا فلم يعبأ اهلها بارتحالهِ لانهم كانوا غير عارفين الى اي حزب ينتمي وكانوا يحسبون ان الفوز سيكون لهم اذا اتقدت نار الحرب لان رجال كسروان كانوا في بعبدا وهم ابطال مشهود لهم والدروز يخشون بأسهم ووراءهم بلاد كسروان كلها

ولم يخطر على بال الاميرة سلمى انا اباها يفضل الذهاب الى حاصبيا على البقاء في كفر شيما

او النزول الى بيروت . وكانت تتبع حوادث الجبل وتعلم ان اهاليهُ يستعدون لحروب اهلية وكثيرًا ما سمعت اباها يتكلم عن رعونة القائمين بهذه الحركة وانها ستعود عليهم بالضعف غالبين كانوا او مغلوبين مستشهدًا بالحروب الاهلية الماضية ونتائجها الوخيمة . وحسبت كل حساب الأ حساب الذهاب الى حاصبيا والابتعاد عن بيروت فانهُ لم يخطر لها ببال . فلما جاءتها امها تقول لها ان اباك عازم على الذهاب بنا الى حاصبيا ووادي التيم نظرت الى امها نظر المستفهم المرتاب وقالت حاصبيا أالى هناك ثم صمتت وكانت آخذة في كتابة كتاب الى ابنة عمها الاميرة صفا فوقف القلم في يدها ولم يعد يجري . وقالت لها امها ان احمد ارسل يدعونا لنذهب الى دارهِ فرفض ابوك ذلك واغتاظ من دعوتهِ لنا . فقالت سلمى اذا قال ابي قولاً لا يرجع عنهُ وانت تعلمين طبعهُ فليس لنا الاَّ التسليم لارادتهِ

قالت ذلك لانها رأت اضطراب امها فارادت ان تخفف عنها اما هي فكانت كارهة لهذا السفر نافرة منهُ اشد النفور ثم مضت الى غرفة ابيها وكلمتهُ على انفراد مبينة لهُ ان قنصل الانكليز يحميهم اذا نزلوا الى بيروت . ولما قال لها من اين تعلمين ذلك اسقط في يدها ولكن بداهتها كانت قوية فقالت لهُ اني اشعر بهذا الامر من نفسي وقد سمعت احمد يقول غير مرة ان قنصل الانكليز مضاد للوالي فاذا عرف ما بينك وبين الوالي فلا بدَّ من ان يحميك منهُ

فقال ابوها هذا قد يكون وقد لا يكون والمسألة مسألة حياة وموت وعار وشماتة فلا القي بيدي الى التهلكة وكانت تعلم انهُ اذا قال كلمة لا يعود عنها فتركتهُ . وعادت الى الكتاب الذي كانت تكتبهُ لابنة عمها وهي تقول في نفسها لعلَّ صفا احكم مني ولو ذهبت وترهبت مثلها لخلصت من كل هذه الهموم وتجلت امام عينيها حينئذٍ صورة السر هنري بدمونت وكانت قد مضت ايام كثيرة لم ترهُ فيها ولا سمعت عنهُ شيئًا ولا سمعت اسمهُ بلسان احد فجالت الدموع في عينيها وهي تقول ما اشقى المرأة تحب فتضطر الى الكتمان وتميت قلبها وعواطفها لكي تحافظ على عادات قومها . ولقد طالما عللت نفسي باني اسلوهُ فمضت الايام وانا لا ازيد الاَّ شوقًا اليهِ فماذا يصيبني اذا ابعدت عنهُ ولم يبقَ لي اقل امل ان اراهُ . ورآها القزم وهي على تلك الحال ورأى آثار الدموع في عينيها فلم يخفَ عليهِ امرها

ومضى النهار وهي سكرى لا تدري ماذا تفعل وكان الخدم يهيئون ما يلزم اخذهُ من الامتعة ونهضوا في الصباح وركب الامير عباس وزوجتهُ واولادهُ خيولهم وحملوا الامتعة على ستة بغال ركب عليها بعض الخدم ايضاً وام يوسف معهم اخذتها معها الاميرة هند لتسليتهم حتى اذا بلغوا نهر الدامور وجدوا الماء فيهِ غزيرًا الى بطون الدواب وكاد يحمل

واحداً من المكارين فعلا صياح الجواري واضطر الامير عباس ان يعود اليهن ويتهددهن بالضرب ان لم يصمتن. اما الاميرة هند والاميرة سلمى فكانتا معتادتين ركوب الخيل فخاض فرساها الماء بهما من غير ان توجسا شرًا . وتغدوا في النبي يونس ووصلوا صيداء بعيد الظهر فباتوا فيها في بيت قاضيها وهو من اصدقاء الامير عباس ومن اهل التقى وقاموا منها قبل الفجر قاصدين حاصبيا فوصلوها عند الغروب وخرج الامراء الشهابيون للقائهم ومعهم جماعة من اهالي حاصبيا فرحبوا بهم وانزلوهم على الرحب والسعة . وانست الاميرة سلمى بمن رأت هناك من بنات اعامها لا سيما وان بعضهن كنّ متعلمات في المدارس الانكليزية واباؤهن على واسع علم وحسن محاضرة . ورأت عندهم كثيرًا من كتب الادب فاخذت تطالع فيها لتسلي نفسها وتنسى ما مرّ بها في الشتاء الماضي مما شغل بالها ولا يرجى تحققهُ في زمن من الازمان ولكن لم يكد يستقر بهم المقام حتى وردت الاخبار ان الدروز هاجموا ساحل بيروت وحرقوا قراهُ وقتلوا كثيرين من سكانهِ فعلا البكاء والنواح في دار الخدم وقامت ام يوسف تطالب الاميرة هند بزوجها وتطلب منها ان ترجعها الى كفرشيما وهي تقول خرجنا يوم الجمعة وهو يوم نحس ما اقلّ عقلي . وقلق الامراء لانهم رأوا ان الفتنة اوقظت ولا بدّ ما ينتشر سعيرها في البلاد كلها

الفصل العشرون

شكوى الحب

قام السرهنري عن العشاء واتم التقرير الذي شرع في كتابتهِ للسفير وارسل صورتهُ الى نظارة الخارجية بعدما قرأها للقنصل . ثم دخل غرفتهُ واخذ قلماً وقرطاساً وجعل يكتب لامهِ وكان كلام القزم لا يزال يرنُّ في اذنيهِ ولا سيما قولهُ ان الاميرة سلمى تحبهُ كما يحبها فاخذ يصف لامهِ ما شاهدهُ من احتراق قرى لبنان وما رآهُ من احوال سكانهِ الفارين منهُ وما سمعهُ عن الحرب التي نشبت ذلك اليوم ومما قالهُ لها مهما اطنبت في جمال هذه البلاد لا اوفيها حقها من الوصف فقد طفت اسكتلندا في اجمل فصول السنة ورأيت بحيراتها وجداولها وجبالها ووهادها ومررت على سويسرا في فصل الصيف واقمت فيها نحو شهرين ولكنني لم ارَ اجمل من ربى لبنان وساحل بيروت في فصل الربيع . والناس هنا اهل جد ونشاط الرجال يحرثون الارض ويغرسون الاشجار والنساء يغزلن ويحكن وكلهم يربون دود القز ويستخرجون

منهُ الحرير وامراؤهم ليسوا على ثروة طائلة مثل امرائنا ولا قصورهم فخيمة مثل قصورنا ولكنهم متمتعون بشيءٍ من ابهّة السيادة والاستقلال وعندهم الخدم والحشم من العبيد والجواري والخيل والبغال ويركب الامير منهم ومعهُ خدمهُ بالسلاح الكامل . ويظهر لي ان البلاد غنية على ما فيها من سوء الادارة ولكن مهما بالغتُ في قولي سوء الادارة فلا تفهمين مرادي لانكِ لا تستطيعين ان تتصوري ان حكومة تقسم شعبها قسمين وتحرّض القسم الواحد على الآخر لكي يفتك بهِ ويخرب دياره . هذا هو الامر الواقع الآن وقد بذل الكولونل جهده لكي يمنعهُ فما استطاع لان المغرين بالشر اقوى منا . ومما يسؤُني ذكره ان جيراننا عبر البحر مساعدون على هذا التحريض لكي يحتلوا البلاد . وقد ذهبت نصائحنا سدًى وكان اليوم يوماً مشهوداً رأيت فيهِ الدخان صاعداً من منازل السكان الى عنان السماء وشاهدت بالنظارة البحرية التي عندنا جماهير الاهالي باثوابهم البيضاء والزرقاء واعلامهم الحمراء والبيضاء ومعهم قليلون من الفرسان وهم امراؤهم ومشايخهم يجتمعون ويفترقون ويترامون بالرصاص ويتضاربون بالسيوف ثم يهجم بعضهم على بعض وينفحر بعضهم من امام بعض وجنود الحكومة معسكرة في الطريق تصدُّ الفارين عن الفرار وضلعها مع احد الفريقين على الآخر وهي لو ارادت لاطفأَت هذه الحرب بكلمة يقولها قائدها اومدفع يرمي بهِ المعتدين

ونزلت بعد الظهر الى شوارع المدينة واحيائها فرأيت ما تتفتت له الاكباد رأيت النساء جالسات تحت اشجار التوت او في عرصات البيوت يندبن وينحبنَ واولادهنَّ يبكون طالبين ما يسد الرمق . ورأيت بعض الرجال واقفين حيارى لا يدرون ما يفعلون ولا كيف يعولون عيالهم وعيال الذين قتلوا من اخوانهم وقد نهبت امتعتهم وحرقت منازلهم . ورأيت امرأة بديعة الجمال ومعها ولدان كأنهما بدران وهي تندب ندباً ابكى الترجمان فترجم لي كلامها فاذا هي تقول " انها ذهبت الى القبر تطالبهُ بحبيبها فاجابها ان حبيبها ملقى على الطريق تأكلهُ طيور السماء وتنهشهُ وحوش البرية "

نحن باذلون جهدنا الآن لنجمع من المال ما يخفف بعض الكرب عن هؤلاء المساكين ولو بتقديم الخبز لهم . فابذلي جهدكِ لتجمعي لنا ما يمكن جمعهُ من احسان المحسنين وقولي لاهلين ان هذا يومها فارسلوا لنا نقوداً وثياباً ان امكن والنقود احسن لان ارسالها اسهل بتحاويل على الصيارفة ولا بدَّ ما تزيد الحاجة لانهُ بلغنا ان الاوامر صدرت بقتل كثيرين في انحاء سورية او حيثما يمكن الايقاع بهم ويصعب علينا ان نصدق هذا الخبر لغرابتهِ ولكن ما حدث اليوم يدل على صحتهِ وسنرى ما تفعله حكومتنا في هذه الحال

اخبرتك في تحرير سابق عن الاميرة سلمى التي رأيتها في بلدة قرب بيروت وقد رأيت اليوم النار مضطرمة في دار ابيها ثم بلغني ان اباها ارتحل بها الى بلدة تبعد نحو يومين عن بيروت ولا اظن انها في مأمن هناك . ولا اخفي عليك يا اماه ان لهذه الفتاة في نفسي منزلة لا اراها لغيرها نعم اني لم انسَ اڤلين وجمالها ولكنني كنت اشعر دائمًا انها لا تنظر اليَّ كما انظر اليها وقلبي يحدثني انها نسيتني الآن او انها كانت تحبني محبة الصداقة او محبة الاقرباء بعضهم لبعض . وهذه الاميرة لم تكلمني كلمة تدلُّ على الحب ولا انا ذاكرتها في هذا الموضوع لا صريحًا ولا تلميحًا ومع ذلك كنت اشعر من قلبي اني وقعت في نفسها كما وقعت في نفسي وبقي هذا الاعتقاد فيَّ مبنيًا على التصوُّر لا غير الى اليوم فسمعت اليوم ما حقق لي ظني وذلك انني عثرت على القزم المهرج الذي رأيتهُ في دارهم فاخبرني بامور وفي جملتها انهُ عارف عن ثقة ان هذه الاميرة تحبني وان ابن خالتها طلب الاقتران بها فرفضتهُ وهو الامير احمد الذي اخبرتك عنهُ قبلاً . فهذا الخبر وذهابها مع اهلها الى حاصبيا في هذه الاوقات بلبلا افكاري ولا اعلم ما يأتي بهِ الغد . لا داعي لاخبار اڤلين بشيء من هذا القبيل بل يكفي ان تخبريها بحاجة الناس هنا الى مساعدتها وكرمها ولقد اعطاها الله ثروة وافرة لتساعد بها المحتاجين فلحّي عليها لتتصدق بكل ما يمكنها التصدُّق بهِ وانا اراقب توزيعهُ على مستحقيهِ بنفسي. ثم التفت الى امور اخرى خصوصية من حيث املاكهم وريعها وراتبهُ وطلب في الختام رأيها في امر الاميرة السورية

الفصل الحادي والعشرون

الشهابيون في بيروت

وصل الامراء الشهابيون الى مدينة بيروت بخدمهم وحشمهم واستأجروا بيوتًا نزلوا فيها فرأوا ان نفقاتهم اليومية زادت عما كانت وهم في دورهم لان اكثر مواد الطعام لهم والعلف لخيلهم ودوابهم كانت تأتي من املاكهم فلا يدفعون ثمنها اما الآن فاضطروا ان يشتروا الحنطة واللحم والسمن والزيت والزيتون والحبوب على انواعها والشعير والتبن . وكان لا يزال عندهم قليل من النقود من ثمن الحرير الذي باعوهُ او انزلوهُ معهم الى بيروت فانفقوهُ في ايام قلائل وجعلوا يستدينون ممَّن اعتادوا الاستدانة منهم من تجّار بيروت وصيارفتها فاعتدل الدائنون اولاً في معدَّل الربا ثم زادوا رويدًا رويدًا يومًا بعد يوم

والتقى اثنان من التجار ودار بينهما الحديث التالي

نقولا — هذه فرصة نادرة يا مارون اذا لم نستغنمها سبقنا اليها بخور

مارون — وما هي هذه الفرصة النادرة عسى ان لا تكون مثل فرصة الصوف التي خسرنا بها عشرة آلاف ليرة

نقولا — من كان يعلم ان استراليا تمتلئ غنمًا في سنة واحدة وتملأ الدنيا صوفًا ومع ذلك فالتورُّط الى هذا الحد في المشترى والتخزين كان رأيك ورأي عمك وجهد ما هنالك انني ارشدتكم الى الصنف وقلت انهُ ينتظر الصعود في ثمنهِ بناء على ما كنت اقرأهُ في الجرائد التجارية وبناء على ما كتب بهِ اليَّ عميلي من بلاد الانكليز

مارون — ما علينا من مسألة الصوف فما هي هذه الفرصة النادرة

نقولا — الشهابيون في بيروت وقد صاروا على الارض فقد باعوا كل حريرهم وصرفوا ثمنهُ ولا امل لهم بشيء من مواسم الغلال وهم يستدينون المئة الآن بعشرين وثلاثين وبخور ورفاقهُ عازمون ان يسلخوا جلدهم اما انا فلا رأي لي ان ندينهم لاني لا استحلُّ ان ندين بعشرين وثلاثين بل ان نشتري منهم املاكهم في سقي بيروت ووطإ نهر الكلب فان كل بساتين التوت هناك لهم ويمكننا ان نشتريها منهم الآن بارخص ثمن

مارون — أتعرف كم ايراد الملك الآن

نقولا — اظن ان الايراد قليل لا يزيد على اربعة اوخمسة في المئة ولكن اسعار الحاصلات ستزيد فيزيد معها ثمن الملك

مارون — كيف عرفت ان اسعار الحاصلات ستزيد وما ادرانا انها لا تنقص

نقولا— اني اعرف ذلك لسببين السبب الواحد يمكنني ان اخبرك بهِ وهو ان دود الحرير مضروب في فرنسا وايطاليا وقد اجتهد الفرنسويون كثيرًا في علاج الضربة فلم يجدوا لها علاجًا ولا بدَّ ما يرتفع ثمن الحرير فيرتفع ثمن بساتين التوت هذا هو الامر الاول . والامر الثاني اخبرك بهِ على شرط ان تعدني انهُ يبقى الآن في سرك

نقولا — اذا كان الامر يحتاج الى كتمان فاعدك بكتمانهِ

مارون — لو ما كان يحتاج الى الكتمان ما كنت اطلب منك كتمانهُ

نقولا — قل لي ما هو وانا اعدك بكتمانهِ

مارون — اني اعلم عن ثقة ان عساكر فرنسا ستحتل سوريا والمرجح انهُ لا يمضي شهران حتى يكونوا هنا

فلما سمع نقولا هذا الكلام ابرقت اسرَّتهُ وقال اذا كان الامر كذلك فستتضاعف قيمة

الاملاك حتماً فما العمل ومَن يطلبها لنا من الشهابيين

مارون — ليس لنا الَّا السمسار غنطوس فهو يدخل فيهم مثل النعس ويلبص عليهم مثل الباطلينوس

ثم استدعياهُ وسأَلاهُ عن الشهابيين وتدرَّجا معهُ في الحديث الى مشترى الاملاك اي الاراضي المزروعة توتاً وجنائن في ساحل بيروت ووطاءِ نهر الكلب فوجداهُ على تمام الخبرة باحوال الشهابيين واتفقا معهُ على السمسرة وعلى ان يذهب و يعاين الاملاك و يأْتيهما بوصفها

وقام من ساعتهِ لهذا الغرض فاجتمع برجل اسمهُ عبد الله كان مستلماً اشغال امير من اغنى الامراء واكثرهم اسرافاً . ويحكى عن هذا الرجل انهُ تورَّط في اختلاس اموال مولاهُ حتى اغتنى واقتنى املاكاً و بنى دوراً فاشتكى منهُ اولاد مولاهُ لابيهم وقالوا لهُ ان عبد الله نهبك والناس كلهم يلوموننا لاننا ابقيناهُ عندنا كل هذه المدة فقال لهم ان هذا الرجل كان جائعاً فشبع الآن فاذا عزلناهُ واتينا بانسان آخر يكون جائعاً فيضطر ان ينهب لكي يشبع فخير لنا ان نبقي الشبعان من ان نستخدم رجلاً جوعان

وكان عبد الله هذا على ما يُطلَب من اتساع الذمة فسارَّهُ غنطوس واتفق معهُ على قسمة السمسرة مناصفةً . وكان الامير قد فوَّض اليهِ عقد سلفة بالفي ليرة فجاءهُ في المساء بعد العشاء وجعل يشكو من ارتفاع الفائدة وان المداينين ماسكون السكين ليذبحوا ذبحاً فلا يعطون المئة باقل من خمسة وعشرين في السنة وبعد كل جهد انزلهم الى اثنين وعشرين

وكان الامير اكولاً يأْكل دجاجةً او دجاجتين على عشائهِ ومتى شبع اتكأَ على مسند الى ان ينام فيقلَب الى فراشهِ قلباً و ينزل دمهُ الى معدتهِ فلا يبقى منهُ في رأْسهِ ما يكفي لتوليد الافكار او لتشغيل العقل فقال لعبد الله وما رأْيك ولا اظن ان احداً يدينا باقل من ذلك في هذه الضيقة . فقال عبد الله انني اهتديت الى طريقة أُخرى لاخذ المال المطلوب من غير ان نخسر خسارة تذكر وهي ان الاملاك التي تحت قناطر زبيدة لا يبلغ ايرادها مئة ليرة في السنة ويمكننا ان نبيعها بالفي ليرة وفائدة الالفي ليرة ٤٤٠ ليرة على الاقل فاذا بعناها نكون قد وفرنا ٣٤٠ ليرة في السنة وعندي سمسار يمكنهُ ان يبيعها لنا بهذا الثمن اذا اعطيناهُ سمسرتهُ

ففتح الامير عينيهِ وقال لهُ اعد لي ما قلتهُ ثانية . فكرَّر لهُ الكلام الاول بالتأَني . فقال فهمت فهمت نبيع العلقة التي تحت القناطر بالفي ليرة هي والمطحنة طيب بعت اكتب الحجة حتى امضيها لك

وفي اقل من خمسة ايام اشترى غنطوس للخواجه نقولا والخواجه مارون املاكاً بنحو عشرة آلاف ليرة وهي تساوي عشرين او ثلاثين الف ليرة . ودرى غيرهما من التجار بذلك فجعلوا يتسابقون الى مشترى الاملاك وهي من جنى الشهابيين لانهم هم استخدموا الفلاحين لنقب الارض وحرثها وغرسها ولكن الذين تعبوا على انشائها ماتوا واورثوها اناساً لم يتعبوا بها فسهل عليهم بيعها وهكذا انتقل جانب كبير من املاكهم الى تجار بيروت . ولقد احسنوا في ما فعلوا من بيع الاملاك بدل استدانة الاموال ورهنها لانهم لو استدانوا ورهنوا املاكهم لتضاعف الدين في ثلاث سنوات فالذين اشاروا عليهم بالبيع لم يضروهم ولكن جاءهم الضرر من جهة اخرى وهي ان كثيرين منهم رأوا نجاح التجار ومكاسبهم الكثيرة فسوّلت لهم النفس ان يبيعوا املاكهم و يتجروا بثمنها وفاتهم ان التاجر يمارس التجارة ولداً ويربى فيها من صغرهِ حتى يتمرّن عليها و يعرف اساليبها واسرارها و بغير ذلك تكون التجارة خاسرة فلم يمضِ عليهم وقت طويل حتى خسروا كل الاموال التي وضعوها في التجارة وهذا شأن كل من يستسهل الاعمال ويتعاطاها قبلما يتمرّن عليها

الفصل الثاني والعشرون

المذاكرات السياسية

اجتمع مجلس الوزراء في بلاد الانكليز للنظر في ما سيطرح على البارلمنت من المسائل ومنها مسألة عن جبل لبنان والفتنة التي اتقدت نارها فيهِ . فقال وزير المستعمرات هذا هو الامر الذي كنت اخشاهُ من حين شرعت الشركة الفرنسوية في انشاء سكة المركبات من بيروت الى دمشق فقد اخذت الآن تقول ان لها مصالح مالية في سورية لايمكننا الاغضاء عنها وانهُ لابد لها من ارسال جنودها لحماية مصالحها هناك

فقال وزير المالية الى اين وصلوا في انشاء ذلك الطريق . قال ذلك موجهاً خطابهُ الى ناظر الخارجية

فاجابهُ وزير الخارجية لايمكنني ان اقول بالتأكيد الى اين وصلوا لانهم ابتدأوا من اماكن مختلفة في وقت واحد على ما كتب بهِ اليَّ قنصلنا في بيروت لان البلاد جبلية وفيها كثير من الآكام والاودية والغدران ولا بدَّ من بناء جسور كثيرة في اماكن مختلفة فبنوا هذه الجسور ومهدوا الطرق بين جانب كبير منها على ميول معتدلة . ولا يسعنا ان ننكر انهُ

صار لهم مصلحة مالية ثابتة في البلاد ولنا نحن ايضاً مصلحة مالية بسبب تجارتنا الواسعة وهي اوسع من تجارة فرنسا بل مثل تجارة اوربا كلها ولكن ليس لنا رأس مال موضوع في البلاد مثل فرنسا الأ اذا اشترينا الشركة الفرنسوية . وقد خابرت بعض الماليين في مشتراها فلم ارَ منهم رغبة في ذلك لانهم يظنون ان ترعة السويس ستبطل طريق التجارية البرية بين بيروت وبلدان المشرق وليس الاعتماد على تجارة دمشق نفسها بل على البلدان الشرقية التي تصل تجارتها الى دمشق

فقال وزير الحربية وهل تظن ان الفتنة خمدت واكتفى الفريقان بما حدث

فاجابهُ وزير الخارجية كلا بل يظهر من تقارير قناصلنا ان النار لا تزال مخبوءة تحت الرماد وانهُ لابدَّ من امتداد الفتنة الى المدن الكبيرة في داخلية البلاد ودمشق نفسها ليست بمأمن من ذلك . والقناصل باذلون جهدهم لاخماد الفتنة وحماية النصارى ولكن الامر ليس في يدهم لانهُ يظهر ان اوامر سرية وردت من الاستانة الى رجال العسكرية لايقاد نار الفتنة وليس المراد بها الفتك بالنصارى دون الدروز بل مساعدة فريق على فريق فيصح ان يساعدوا الدروز على النصارى ويصح ان يساعدوا النصارى على الدروز والمراد اثارة الفتنة على كل حال وتضحية بعض النفوس لغرض سياسي وهو تحريك اوربا لالقاء المسؤولية على الحكومة الحالية . هذا هو الغرض الذي يرمون اليهِ على ما اتصل بنا واخواننا عبر الخليج يرمون الى غرض آخر ولكنهم يتوسلون اليهِ بالطريقة نفسها اي بايقاد نار الفتنة في البلاد ونحن نكاد نكون مغلولي الايدي وقد كتب الينا قنصلنا في بيروت انهُ باذل قصارى جهدهِ لايقاف الفتنة عن هذا الحد واطفاء نارها ويساعدهُ على ذلك صديق قديم لنا من مشايخ الدروز لهُ اكبر سلطة على جماعتهِ فاذا نجح في سعيهِ ووقفت الفتنة عند هذا الحد فلا اظن ان جيراننا يصرُّون على ارسال جنودهم الى هناك واذا لم تقف عند هذا الحد بل شملت البلاد كما يخشى فلا بدَّ لنا حينئذٍ من تدبير آخر

فقال وزير الحربية اننا نطلب حينئذٍ ان يكون الاحتلال مشتركاً ونرسل فرقة من جنودنا

فقال وزير المالية وهل في الامكان ارسال جيش الآن مع ما نحن فيهِ من الضيق المالي ولا ارى ان الميزانية تساعدنا على ذلك

ونظروا الى رئيس الوزراء كأنهم يطلبون رأيهُ فقال ليس من الحكمة ان نرسل جنودنا مع جنود فرنسا لانهُ قد يتولَّد من وجود الجيشين مشاكل ليست في الحسبان وفوق ذلك فان جيراننا يستسهلون ان يرسلوا عشرة الآن مقاتل الى هناك ونحن لا نستطيع ان نرسل هذا

العدد ولا يليق بكرامتنا ان يكون عدد جنودنا اقل من عدد جنودهم فيضعف نفوذنا حيث نريد ان يقوى ولكنني ارى انهُ يسهل علينا ان نقنع فرنسا بان يكون ارسال جنودها باسم اوربا كلها وحينئذٍ يسهل علينا ايضاً ان نطلب منها ارجاعهم باسم اوربا حينما يتيسَّر الاستغناء عنهم

فاستصوب الجميع هذا الراي وطلبوا من ناظر الخارجية ان يكلم سفير روسيا بهِ وسفير بروسيا قبلما يكلم سفير فرنسا

واجتمع البارلمنت في المساء فقال احد الاعضاء قرأنا في جرائد الصباح ان حرباً اهلية نشبت في سورية وان لبعض الدول الاوربية يداً في ذلك فما هي الاخبار التي عند الحكومة وما هي التدابير التي عزمت على اتخاذها لاخماد الفتنة

فاجابهُ رئيس المجلس ان ما قرأهُ حضرة العضو المحترم صحيح بوجه الاجمال والحكومة تنظر الآن في التدابير التي يجب اتخاذها ومتى اقرَّت عليها لا تتأخر عن اخبار المجلس بها

فقال عضو آخر ان لنا مصالح مالية كبيرة في مدينة بيروت فهل يخشى على تلك المدينة وما هي التدابير التي اتخذتها الحكومة لوقاية مصالحنا هناك

فاجابهُ الرئيس ان الاخبار التي وردت الينا حتى الآن لا يظهر منها انهُ يخشى على مدينة بيروت وعلى ذلك فقد امرت نظارة البحرية بارجة من اسطول البحر المتوسط بالذهاب من مالطة الى سواحل بيروت وسواحل سورية

وقال عضو ثالث ان جماعة من المبشرين الانكليز منتشرون في مدن سورية فهل أُخذت الاحتياطات اللازمة لوقايتهم

فقال الرئيس يظهر ان قناصلنا لم يغفلوا عن ذلك ولا عن حماية المرسلين الاميركيين والمرجح ان المحاربين يحترمون الراية الانكليزية مهما كانوا لان اعمال بحريتنا الجيدة في سورية ولا سيما في بيروت وعكاء لم تنسَ من تلك البلاد حتى الآن

ثم دارت المناقشة في مواضيع اخرى داخلية وخارجية

اما في فرنسا فلم تدخل المسألة مجلس النواب بل اكتفت الوزارة بالمداولة فيها وبيَّن ناظر الحربية ان الجنود مستعدة للسفر عند اول اشارة وان معارضات انكلترا على ما جاءهم في التقارير السرية لا يعبأُ بها لان انكلترا لا تستطيع ان ترسل جيشاً مثل جيش فرنسا ولا تستطيع ان تمنع ارسال الجيش من فرنسا بعد ان يتفاقم الخطب في سوريَّة ويتحفَّز نصارى كسروان للاخذ بثار اخوانهم

الفصل الثالث والعشرون

استفحال الفتنة

سُرَّ الدروز بالفوز المبين الذي فازوهُ في ساحل بيروت وودُّوا الاكتفاء بهِ حاسبين انهم قهروا الشهابيين وهم عمدة النصارى الأان والي بيروت لم يكن من رأيهم فجمع بعض امرائهم الى الحازمية خارج بيروت وقال لهم انكم لم تفعلوا شيئًا حتى الآن ولم يزل النصارى اقوى منكم كثيرًا ولا بدَّ لهم ان يأخذوا بالثار ولا سبيل لاضعافهم حتى تامنوا شرهم الَّا بتخريب مدنهم الكبيرة زحلة ودير القمر وجزين وحاصبيا وراشيا فازحفوا عليها والفوز لكم

فدبَّت النخوة في رؤوس البعض منهم وقالوا لهُ سمعًا وطاعة وخاف البعض الآخر سوء العاقبة ولا سيما لانهم كانوا يعلمون ان دول اوربا لا يمكن ان تسكت عن ذلك فقالوا لهُ اننا في المتن والشوف والعرقوب ووادي التيم كثار ولا يعسر علينا التغلب عليهم ولكن لا يخفى على دولتكم ان نصارى كسروان اكثر منا كثيرًا فاذا جاءوا لنصرة اخوانهم فلا طاقة لنا بهم

فقال لهم اننا احتطنا لذلك ونصارى كسروان لا يحركون ساكنًا ولو تظاهروا بمساعدة اخوانهم ألم تروا كيف انفضَّ جمعهم من بعبدا حالما امرناهم بذلك . ثم انصرفوا من لدنهُ واكثرهم واثق انهُ يفعل ما وعدهم بهِ

ووصل الى دمشق في تلك الاثناء رجل اسمهُ صادق افندي وجعل يجتمع بمشايخ الدروز من حوران وبعض مشايخ لبنان حتى اذا اتمَّ عملهُ الذي حضر لاجلهِ أُمر بالعودة الى الاستانة بعد ان اسرَّ الى الوالي بما جاء لاجلهِ . ويقول اهالي دمشق ان سلوك الوالي تغير معهم بعد سفر صادق افندي

ثم اجتمع الدروز وحاربوا اهالي جزين وبكاسين وحرقوها وقتلوا كثيرين من سكانهما وزحفوا بعد ذلك على زحلة وكان كثيرون من نصارى العرقوب قد قاموا لمعاونة اهاليها فالتقوا بالدروز عند ظهر البيدر وكادت الدائرة تدور على الدروز وقتل هناك ابن عقيدهم علي ابن خطار العماد. وكان الشيخ اسمعيل الاطرش قد جمع دروز حوران وعربها عملاً بامر والي دمشق وقام بهم لنجدة دروز لبنان حتى اذا دخل وادي العجم وجد فيهِ بعض النصارى من اقليم البلان فقتلهم وهم ١٣٥ نفسًا وسار برجالهِ الى ان وصل الى زحلة وفي اثناء ذلك وصلت اليها فرقة من الجنود العثمانية وعسكرت امامها وحينئذٍ هجم الدروز عليها من الجنوب والغرب فصد اهاليها هجماتهم وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية وظلت الحرب سجالاً الى ان قدم عليها

رجال من الدروز من الجهة الشمالية وكان الاهالي ينتظرون نجدة من يوسف بك كرم فظنوهم النجدة المنتظرة ولكنهم ما لبثوا ان وصلوا حتى اخذوا يطلقون النار على الحامية فانهزمت من امامهم ورأى اهالي زحلة ان الدروز دخلوا مدينتهم من ورائهم فارتدوا رويداً رويداً وظلوا يناوشون مَن امامهم الى ان خرج اكثر الذين في زحلة وساروا الى جهة بسكنتا . والظاهر ان الخوف من العرب وجنود الدولة كان مالئاً القلوب ولولا ذلك لتعذَّر اخذ تلك المدينة

وكان في زحلة رجل من اهالي دير القمر رأى ما جرى وتدبَّره فعلم ان الحركة مدبَّرة وان لا بدَّ من الزحف على دير القمر فكتب الى ترجمان قنصل الانكليز في بيروت يخبره بما جرى في زحلة وبما يوجس منهُ وتوسل اليهِ لكي يبذل كل ما في وسعهِ لحمل القناصل على الذهاب الى دير القمر بانفسهم لانهُ اذا احاط الدروز بها لم يبقَ لاهلها مهرب منهم

فسعى الترجمان مع غيرهِ من وجوهِ دير القمر المتوطنين بيروت لدى قناصل الدول فلبوا طلبهم واتفق قنصل انكلترا مع قنصل فرنسا على الذهاب الى دير القمر ولو ذهبا ماحدث شيءٌ مما حدث فيها ومما حدث في غيرها بعدها ولكن والي بيروت اقنع قنصل فرنسا بان لا داعي لذهابهِ وانهُ هو اي الوالي يرسل قومندان مركز الولاية لوقايتها وقال مثل ذلك لقنصل الانكليز واقنعهُ بان لا داعي لذهابهِ. ثم ارسل القومندان فذهب واجتمع بمشايخ الدروز وحرضهم على الفتك بالنصارى . قيل ولما رأى سعيد بك جانبلاط منهُ ذلك بعث اثنين من خواصهِ الى اهالي دير القمر يطلب منهم ان ينزحوا اليهِ الى المختارة اذا فارقها القومندان فصدَّق بعضهم كلامهُ وساروا اليهِ فحماهم واما الباقون فجمع اميرالاي العساكر العثمانية سلاحهم بعد ان تهددهم بان لا امان لهم ان لم يعطوهُ السلاح وكانوا قد افنوا كل ما عندهم من البارود والرصاص فسلموهُ اسلحتهم فادخل الدروز الى مدينتهم فنهبوها ثم ذبحوا كل الذين التجأوا من الاهالي الى سراي الحكومة . قيل وكان متسلم دير القمر مخالفاً للاميرالاي في هذا العمل الوحشي وحمى كل الذين التجأوا الى دارهِ من الاهالي لكن الاميرالاي امر الجنود والدروز ان يدخلوا دار المتسلم عنوةً ويقتلوا كل من لجأ اليها ففعلوا ثم ان المتسلم نفسهُ جُرّع غصص المنون بعد ان عاد الى بيروت

هذا بالاختصار التام اما التفصيل فتقشعرُّ منهُ الابدان وتذوب لهُ النفوس اسىً فانهم كانوا يذبحون الولد على ركبة والدتهِ وينزعون الطفل من يد امهِ ويضربونهُ بالسيف فيشطرونهُ شطرين ويردونهُ اليها قائلين خذيهِ فقد اسكتناهُ لكِ ويقطعون اوصال الرجل

قبل ان يذبحوهُ ولم يبقوا على احد من الذكور وقد جنّ بعض النساء مما رأينَ من الفظائع

ما اشد توحُّش الانسان اذا اطلق العنان لشهوة الغضب وما اقبح التعصب الديني اذا حمل اصحابهُ على الانتقام من الذين يخالفونهم ديناً . واقبح من هذا وذاك تدبير المذابح وتنظيمها لغرض في النفوس كما فعل ذلك الوالي وزبانيتهُ وتلك الفئة الطاغية في الاستانة فانهُ كان يجب عليهم ان يعرفوا ما ستؤول اليهِ الحال ولكنهم اغمضوا عيونهم لكي لا يروا وصموا آذانهم لكي لا يسمعوا

ووصل تفصيل هذه الحوادث الى الكولونل روز قنصل الانكليز الجنرال في بيروت ووصلهُ ايضاً تفصيل ما جرى في حاصبيا وراشيا وخلاصتهُ ان الامير سعد الدين كان في دمشق وقد استعفى من الولاية على بلاد حاصبيا فاعطيت لابنهِ الامير احمد وكان احمد باشا والي دمشق يتودَّد اليهِ فطلب منهُ ان يعود الى حاصبيا مع فرقة من الجنود العثمانية لتحصيل الاموال الاميريَّة من دروزها . واستشار الامير سعد الدين صديقاً لهُ من النصارى فاشار عليهِ ان لا يذهب لئلاَّ يغتاظ الدروز من مطالبتهم بالاموال في ذلك الوقت ويثوروا عليهِ فاستعفى من الذهاب لكن الوالي لم يعفهِ بل اضطرَّهُ اضطراراً وارسل معهُ فرقةً من الجند حتى اذا وصل الى حاصبيا وطالب الدروز بالاموال الاميرية ثاروا عليهِ واجتمعوا على حاصبيا من كل الجهات المجاورة لها . فخرج النصارى منها لمناوشتهم ثم تقهقروا وتحصنوا في السراي فهجم الدروز على بيوتهم وسلبوها ثم حرقوها وقال امير الاي العسكر للنصارى انهُ لا يستطيع ان يحميهم ما لم يسلموهُ اسلحتهم فسلموهُ اياها فبعث بها الى الدروز وسدَّ منافذ السراي ليمنعهم من الهرب منها . وبلغ القناصل في دمشق ما حدث فطلبوا من الوالي ان يرسل ضابطاً كردياً من دمشق ليأتي بنصارى حاصبيا اليها وقرَّ القرار على ارسال احمد بك اجليقين فطلب ان يؤْذن لهُ بضرب الدروز ان هم منعوهُ من جلب النصارى فلم يأذن لهُ الوالي في ذلك فرفض الذهاب على هذه الصورة فاستدعى الوالي الشيخ كنج العماد وارسل معهُ ياوراً الى حاصبيا ومعهُ الاوامر اللازمة لامير الاي الجنود العثمانية التي هناك وبعد وصولها بيوم واحد أُدخل الدروز الى السراي التي فيها النصارى فقتلوهم عن بكرة ابيهم ذبحوهم ذبح الغنم ومثلوا بهم تمثيلاً ثم صعدوا الى دار الامير سعد الدين في اعلى السراي فقتلوهُ وقتلوا صهرهُ الامير جهجاه واربعة آخرين من الامراء الشهابيين ظنّاً منهم انهم من النصارى . وهجم دروز حوران على راشيا فادخلهم الجنود الى سراي الحكومة وقتلوا كل من التجأَ اليها من النصارى وبلغ قتلى حاصبيا نحو ٧٠٠ نفس

وقتلى راشيا ٥٠٠ وقتلى دير القمر وما جاورها نحو ١٥٠٠ نفس قُتلوا كلهم في الدم البارد بعد ان سلموا اسلحتهم لرجال حكومتهم

ولا تحسبنَّ الدروز كلهم اشتركوا في هذا العمل الفظيع خاصتهم وعامتهم . كلاَّ فان بعض العامة وكثيرين من الخاصة كانوا اشد الناس مودة للنصارى فدافعوا عنهم وحموهم في بيوتهم من كل اعتداء ولولاهم ما نجا احد

ولما اطَّلع السر هنري بدمونت على ما حلَّ بحاصبيا حيث كانت الاميرة سلمى ووالداها رجفت شفتاهُ واصطكَّت ركبتاهُ وكاد يغمي عليهِ ثم غلى الدم الاسكتسي في عروقهِ فاحمرَّت وجنتاهُ ونهض وجعل يمشي في غرفتهِ ذهاباً واياباً بل يركض فيها ركضاً كمن يطاردهُ عدو ودخل الكولونل روز عليهِ وهو على تلك الحالة وكان قد قرع الباب مرارًا ولم يسمع مجيباً ففتحهُ خائفاً ان يكون السر هنري مريضاً فلما وقعت عينهُ عليهِ قال لهُ السر هنري قرأت تواريخ البشر الحاضرين والغابرين فلم ارَ ولم اسمع ان دولةً تقتل رعاياها لغير اثم ولا حرج قضاءً لمآرب شخصية كيف صبرنا على هذا الجور وكيف نصبر عليهِ . اذا رأينا رجلاً يعذب نعجة او عصفورًا بغير سبب ألا نتعرض لهُ فهب ان هؤلاء المساكين نعاج او عصافير افلا تقضي الشفقة علينا ان نتعرض لمن يمسك الرجل منهم ويقطع اذنيهِ ويديهِ ثم يذبحهُ ذبحًا . ألا نتعرض لمن يلقي راس الولد على ركبة امهِ ويذبحهُ عليها ألا نتعرض لمن يأخذ الطفل الرضيع من يدي والدتهِ ويطعنهُ بخنجر ثم يردهُ اليها والدم يسيل من صدرهِ . ما هذا التوحش وما هذا الجمود الذي نحن فيهِ . اين الشهامة اين المروءة ثم ما حال اولئك الارامل الثاكلات النائحات النادبات وما حال بناتهنَّ اذا كنَّ قد تُركن لهنَّ واين مقرهنَّ الآن . وفي تلك اللحظة عينها خطرت ببالهِ صورة سلمى ممزقة الاذيال تجري بين الصخور والادغال ووراءها وغد يجدُّ في اثرها فجمد الدم في عروقهِ ثم انتفض كما انتفض العصفور بللهُ القطر وقال للكولونل روز ألا تظن انني استطيع ان اقوم ببعض ما يجب علينا اذا ذهبت الى صيداء واستصحبت قنصلنا او بعض القواسة ومضينا الى جهات حاصبيا ووادي التيم نفتش عن الذين سلموا من القتل والموت فنغيثهم ونأتي بهم الى بيروت

وقبل ان يجيبهُ الكولونل على ذلك شعر انهُ اخطأ في ما قال لان غرضهُ الاكبر من هذا الذهاب شخصي وقد عبَّر عنهُ على اسلوب يفهم منهُ انهُ مجرد عن كل غاية شخصية فلام نفسهُ على ما فرط منهُ واستدرك قائلاً ولي في ذلك مأرب شخصي لا اخفيهِ عن الكولونل . ثم قصَّ عليهِ قصتهُ مع الاميرة سلمى من اولها الى آخرها

وكان الكولونل يعرف الامير عباساً ويوده لاخلاصهِ ويعلم انهُ على خلاف مع الوالي وانهُ غير راضٍ بما حدث من الفتن ولكنهُ لم يكن يعرف شيئاً عن ابنتهِ ولا عن علاقة السر هنري بها فتحركت في نفسهِ عوامل الشهامة وشعر بسلطة الحب شعور من نسي صديقاً عزيزاً ثم التقى بهِ فرثى لحال السر هنري وقال لهُ قم ولا تتأخر ساعة واني لا استغرب سكوتك عن ذلك الى الآن نعم انك غير واثق بحب هذهِ الاميرة لك ولكن مهما كان شأنها فليس من الشهامة وعزّة النفس ان تتركها في هذا الوقت وانت قادر على مساعدتها . لو كنت مكانك لذهبت الآن ولم اتاخر ساعة

فشكرهُ السر هنري على ذلك وقال لهُ يشقُّ عليَّ جدًّا ان اتركك في هذا الوقت مع تراكم الاشغال عليك واشتداد هذا الحر الذي يكاد يزهق النفوس ولكن ما دام الذهاب فرضاً عليَّ فانا ذاهب

وقام من ساعتهِ وامر احد القواسة ان يعد ما يلزم لذهابهم الى صيداء وجهات مرجعيون وغيابهم شهرًا من الزمان وكتب الى امهِ بخلاصة ما بلغهم من اخبار المذابح وطلب منها ان تبذل كل ما في وسعها لجمع الصدقات من اهل البر والاحسان وقال لها ان ما ترسلونهُ من نقود واحرمة واقمشة تشكرون عليهِ اعظم شكر لان علينا ان نطعم الوفًا من النساء والاطفال ونكسوهم . وختم الكتاب بالسلام لاقلين وبالالتجاء الى كرمها وحنانها

الفصل الرابع والعشرون

حادثة دمشق

لا اعدى من الحس الديني ولا اشدّ منهُ خطرًا على البلاد لاسيما وانهُ سلاح الرعاع الذين اذا ثار ثائرهم امسوا وحوشاً ضاربة لا تأخذهم شفقة ولا رحمة . ويا ويح بلاد يطلق العنان لرعاعها ويحرّضون على الانتقام من مخالفيهم مذهباً فان التاريخ يشهد انهم كانوا يفتكون بالالوف ولا يملون ويرتكبون اقبح الموبقات مع اسيادهم الذين هم غرس نعمتهم. واي عمل اقبح من ان تربي ولداً مسكيناً في بيتك وتأتمنهُ على اولادك واموالك ثم تراهُ وقت الشدّة مقبلاً اليك كالوحش الضاري والخنجر في يدهِ يغمدهُ في صدرك وصدور اولادك لكي يغتنم اموالك . الوحوش الضارية لا تصل الى هذه الشراسة ولكن ابن آدم يقدم عليها عفوًا اذا ثار في صدرهِ ثائر الحس الديني . كذا فعل اليهود بالنصارى والنصارى باليهود واهل الشيعة باهل السنة واهل السنة باهل الشيعة ولا تزال امثال هذه الفظائع تجري في بلدان

المشرق وان زالت الآن من بلدان المغرب حتى لقد يقف المرء حائرًا بين فوائد الاديان ومضارها وايها اكثر لنوع الانسان وان شئت فقل المتنطعين في الاديان لان الدين بريءٌ مما يفعلهُ المتنطعون فيهِ باسمهِ

اهالي دمشق من مسلمين ونصارى من الين الناس عريكة واكثرهم وداعةً وقد عاشوا السنين الطوال متآلفين متحابين والنصارى قلال العدد جدًّا وكأَنهم عائشون في حمى المسلمين وهؤُلاء اهل تقًى ومسالمة ولا سيما الكبراء منهم ولكن لما اراد ذوو الشأن ان يوقعوا الجفاء بينهم وبين المسيحيين لاغراضهم لم يتعذَّر عليهم ان يجدوا من يجيب نداءهم من العامَّة فحرَّضوهم واطلقوهم فانطلقوا كالنار في الهشيم يذبحون ويفتكون الى ان جرت الدماء انهارًا وحلَّ بالمسيحيين هناك ما لم يحلَّ بهم مثلهُ من زمن الفتح الى الآن . ولولا بعض الصلاَّح ذوي الشهامة والنجدة لما ابقى الاشرار على احد. كلُّ ذلك والوالي متسلح بالاوامر السرية التي في يدهِ وغير خائف ان يطالَب بشيءٍ مما فعل

ووصلت اخبار هذهِ المذابح الى بيروت وهاجر اليها من بقي حيًّا من نصارى دمشق وسائر مدن الشام التي اصابها ما اصاب دمشق فازدحمت بهم منازلها وشوارعها وبساتينها حتى كنت ترى عائلتين او ثلاثًا في غرفة واحدة بل اخرجوا الدواب من مزاربها وسكنوها. والاولاد المعتادون رفاهة العيش كانوا يفتشون عن اوكار النمل ليأكلوا ما فيها من الحبوب واذا اصاب احدهم رغيفًا اجتمع حولهُ عشرون من امثالهِ يقاسمونهُ اياهُ

وبادر اهل البر والاحسان في اوربا الى معونة اولئك المنكوبين بسخاء حاتمي فارسلوا اليهم اكياس الدقيق واثواب القطن والصوف وكثيرًا من النقود واقيمت اللجان في بيروت لتوزيع الاحسان ولولا ذلك لمات كثيرون جوعًا

وظلَّ المنكوبون في بيروت يتقلَّبون على مثل جمر الغضا ويبحث بعض النساءِ عن ازواجهنَّ واولادهنَّ وهنَّ لا يعلمن أفي عداد من قُتل هم او لم يزالوا في قيد الحياة وكل يوم يصل جريح لم يجهز الاعداءُ عليهِ فبقي مغطًى بالقتلى مغمًى عليهِ من كثرة ما نزف من دمهِ الى ان افاق ودفعتهُ بقية الحياة الكامنة فيهِ الى الهرب فجعل يسري ليلاً ويختبيءُ نهارًا وهو يسدُّ رمقهُ باعشاب الارض الى ان بعُد عن مواقع الخطر. والاطفال الذين ارضعتهم امهاتهم لبن الحزن يموت الواحد منهم بعد الآخر. وقناصل الدول يكتبون الى دولهم يشرحون لها وقائع الحال وهم يجمعون على استقباح ما جرى واستفظاعهِ . ورجال الدولة متربصون ليروا ماذا تكون العاقبة وهم يكذِّبون تارة ويشمخون اخرى قائلين ان لا شان للدول الاجنبية حتى

تطالبهم بما يجري بينهم وبين رعاياهم · ووحوش البر وطيور السماء قزت نفوسها من اكل لحوم القتلى فجاست امامها يدفعها الطبع اليها وبعدها الشبع عنها وهو شعور جديد لم تعرفهُ من قبل · والشمس تشرق على منازل اكلتها النار والنجوم تتطلّع عليها فلا ترى فيها غير الضباع وبنات اوى· وقد ندم الله على خلق الانسان كما ندم في عهد نوح وودّ ملائكتهُ ان تصاب الارض بطوفان آخر يطهرها من الاشرار

العجب احد بعد هذا ان كانت ارض الموعد جنة الله في خلقهِ الارض التي كانت تفيض لبناً وعسلاً الارض التي نشأت فيها دمشق وصور وصيداء واورشليم وبيروت وعكاء وعسقلان ارض حكمة اليهود وصناعة الفينيقيين التي طمع فيها الفاتحون من كل الاقطار لكثرة خيراتها وتوسط موقعها . بلاد الضيافة والشهامة وعزة النفس· هذه البلاد اوصلها سوء السياسة الى ان صار ابناؤُها يحرَّش بينهم ليفترس بعضهم بعضاً

قدّورا — من اين يا ابا نخر والى اين

ابو نخر — صليت الجمعة وانا راجع الى البيت والله ما عاد لي نفس اجلس في القهوة

قدّورا — ولماذا . ماذا جرى

ابو نخر — اما سمعت ؟ قال ان السفرا والقناصل طلبوا مسك كل مشايخ الدروز وشنقهم· الصبح كنت عند الوالي لا نقل هو خبرني انا القطها طائره من هنا كلمة ومن هنا كلمة . والله العظيم لو سلّح رجال الباشوره لطلعوا مقابل كل الافرنج

قدّورا — ولكن انا سمعت ان فرنسا عازمة ان ترسل عسكرًا كبيرًا الي هنا

ابو نخر — هل هذا صحيح من قال لك ذلك· فرنسا كانت مع مولانا السلطان وقت حرب المسكوب هي والانكليز ولكن الكلام بسرك زادوها قال قتلوا كل النصارى في الشام . هذا حرام · الله وصّانا بالذمي وبالجار. الله يساعدنا قل آخر زمان قرب وقت المهدي . ما سمعت ولا كلمة عن بيت رسلان · الامير احمد انا ربيتهُ وبالي مشغول عليهِ سألت الوالي عنهُ قال سمع انهُ ترك البلاد وقصد حوران . الله يهونها آخر زمان آخر زمان

وبينما كان ابو نخر يتذاكر مع قدّورا افندي على ما تقدّم كان الخواجه يخور والخواجه شمعون يتذاكران في الاخبار التي بلغتهما من دمشق وفي ما يخشى منهُ على بيروت

فقال يخور كانت المذبحة هائلة وقد انتقمنا منهم على ما جرى لنا في مسألة البادري توما واشترى يوسف كل الصيني الذي كان في بيت الخوري وكل شيلان الكشمير

فقال شمعون وما ادرانا انهم لا يرتدون الينا بعد ما يخلصون منهم

بخور — كان بالي مشغولاً من هذا القبيل في اول الامر اما الآن فقد اطمأن فان اصحابنا دبروها في اسطانبول واتت مكاتيب توصية للوالي بنا في الشام وفي بيروت حتى اخواننا الذين في دير القمر ما اصابهم شيء الله يهونها على البرطيل فهو يحل شاشة القاضي

شمعون — والصيني الذي اشتروهُ هل هو شيء يحرز

بخور — شيء لا مثيل لهُ في قصور الملوك فانهم كانوا يتوارثونهُ ابا عن جد صحون وزبادي وقوارير كبيرة وصغيرة من كل الاشكال وبعضهُ قديم جداً عمرهُ اكثر من الف سنة وكان الناهبون عازمين على تكسيرهِ ولكن ربك الحميد وصل يوسف اليهم قبلما كسروا شيئاً منهُ واشتراهُ كلهُ بليرتين واذا كان هو كل الصيني الذي اعرفهُ فيساوي خمسة آلاف ليرة واشترى ايضاً من شيلان الكشمير ما يساوي الفي ليرة على قولهِ ولم يدفع ثمنهُ الا نحو عشرين ليره . اما الفضيات والنحاس فلا تسأل عنها لانها كثيرة جداً وتسابق الناس الى مشتراها

شمعون — اذاً سنة مباركة وهل تظن انهُ يحدث شيء هنا

بخور — لا يبعد فاني كنت عند الوالي امس فكلمني بالتلميح ولم يصرح اما انا فاخاف من المراكب الحربية لانهُ اذا جاء مركب واحد حربي لا يعود احد يجسر على شيء

شمعون — والاخبار من لندرا

بخور — الدنيا قائمة قاعدة هناك الاعضاء في مجلس النواب يسألون الوزارة مئة سؤال كل يوم . والقسوس يعظون في الكنائس ويحرضون الناس على الدولة . والنتيجة طيبة على كل حال لانهم يجمعون الاموال ويرسلونها الى هنا .هذه خلاصة آخر مكتوب وصلني اليوم

يوسف — الله يصرفها على سلامة اقول لك مال الدنيا يبقى في الدنيا وانا قلبي رقيق فاني حينما ارى هؤلاء الارامل والاطفال يتفتت قلبي واتذكر الايام التي كان يصير فيها بنا مثل ذلك واخاف ان ينقلب الدهر والدهر دولاب فيصيبنا كما اصابهم ٠ اله اسرائيل حي لا يموت الله ينجينا من اولاد الحرام

بخور — الحق معك مال الدنيا يبقى في الدنيا هذا سلمون مات وماذا أخذ معهُ ولكن الله أوصانا ان نجمع مال الامم ٠ ألا تتذكر ماذا قال لنا لما أمرنا بالخروج من مصر . والمال قوة كما يقول الانكليز

ودخل ثالث فانقطع الكلام في هذا الموضوع

الفصل الخامس والعشرون

توقُّع القضاء

كانت البيوت في حي مارمتر احد احياء بيروت قليلة صغيرة متفرقة بين بساتين التوت وقد لجأ اليها كثيرون من النصارى الذين سلموا من المذابح فكنت ترى البيت الذي فيهِ اربع غرف تسكنهُ اربع عيال . ولم يكد يستقرُّ بهم المقام حتى اخذ الرجال منهم يفتشون عن اعمال يعملونها وشارك النساء نساء الحي في تسليك الحرير وكبّهِ فاكتسبن ما ساعدن بهِ رجالهنَّ على نفقات بيوتهم . ولم يترك الاولاد يلعبون في الشوارع بل أُرسلوا الى المدارس لان اهالي سورية يحسبون تعليم اولادهم من الضروريات التي لا بدَّ منها فترى الرجل يقتصد في نفقاتهِ لاجل تعليم اولادهِ والمرأة تبيع حلاها وتعلم اولادها ولا يكتفون بتعليم الصبيان بل يعلمون البنات ايضاً

في مدرسة من هذه المدارس وهي غرفة واحدة على دائرها مقاعد من الخشب والاولاد جلوس عليها مرصوصين رصّاً والمعلم جالس على كرسي الى جانب الباب وامامهُ مائدة صغيرة عليها جرس ودواة وفي يدهِ قضيب من الرمان — وقف ثلاثة اولاد امام المعلم وجعلوا يقرأُون في كتاب طُبع حديثاً في المطبعة الاميركية وبينما هم يقرأُون والمعلم يصلح اغلاطهم ويأمر المجتهد بشد اذن الكسلان دخل رجل طويل القامة اسمر اللون عابس الجبين لابس دامراً مرخي الاكمام . دخل يتهادى في مشيهِ لطول قامتهِ فنهض المعلم واقفاً اكراماً لهُ ووقف التلامذة كلهم لوقوفهِ . فامسك بيد المعلم واسرَّ في اذنهِ كلمتين ثم خرجا من المدرسة ووقفا امام الباب يتحادثان وبعد هنيهة عاد الرجل من حيث اتى ودخل المعلم وقرع الجرس وقال للتلامذة اذهبوا كل واحد الى بيتهِ لا تحيدوا يمنة ولا يسرة ولا تتأخروا في الطريق وقولوا لاهاليكم ان المعلم صرفنا وستقفل المدرسة بضعة ايام وخذوا كتبكم معكم

فقام التلامذة وتأبط كلٌّ كتابهُ او كراستهُ وتكتفوا وخرجوا في صف واحد ثم تفرقوا وسار كلٌّ منهم في طريقهِ ولم يكادوا يصلون الى بيوتهم حتى وجدوا فيها حركة غير عادية وبعضهم التقوا بآبائهم ذاهبين للمجيء بهم وقابلهم امهاتهم بلهفة وادخلنهم حالاً الى داخل البيوت وكنَّ قد اخذنَ يجمعن القليل من ثيابهم ويرزمنها

فدُهش الاولاد من ذلك وسأَل الكبار منهم اباءهم وامهاتهم عن سبب هذا الاضطراب واقبلت حنَّة واصبعها على فمها وهي تقول لاخيها " هس قتِل مسلم وبدهم يقتلونا كلنا "

فامسكت امها بكتفها وهزّتها وقالت لها اسكتي يا مضروبة

ما ارهب تلك الساعة وما اثقلها على النفوس . الوفٌ مؤلفة من الارامل والايتام الذين نجوا من المذابح وقصدوا بيروت للاحتماء بها . الوف من النساء اللواتي ذُبح رجالهنّ واولادهنّ امام عيونهنّ . الوف من الصبيان والبنات الذين نجوا مع امهاتهم وساروا يوماً بعد يوم مشياً على اقدامهم الى ان بلغوا بلاد الامان . مئات من الرجال الذين ساعدتهم التقادير على النجاة وعلى كلٍّ منهم ان يعولِ عائلتين او ثلاثاً من عيال اخوتهِ الذين ذهبوا شهداء السياسة والطمع — كل هؤلاء التجأوا الى مدينة بيروت وهم يحسبون انهم نجوا من كل خطر وفي ساعة واحدة رأوا سيف النقمة مسولاً فوق رؤوسهم فتصوروا المشاهد الفظيعة التي مرّت بهم منذ شهر او شهرين ورأوا فيها اشلاء القتلى لم تزل تتحرك والدم يفور من جراحها وايقنوا ان نجاتهم كانت حلماً مرَّ وانقضى وان السيف تابعهم لا محالة ولم يبقَ لهم مهرب ولا نصير . الجبل وراءهم محروق القرى والبحر امامهم يرغي و يزبد

مضى العصر ومالت الشمس الى المغيب وطالت ظلال البيوت والاشجار واكدَرَّ ماء البحر بعد صفائهِ وبدت تباشير الشفق فوق جبال لبنان وامتدّت اصابعهُ من الشرق الى الغرب . الطبيعة ساكنة جامدة ولكن النفوس جائشة مضطربة

ماذا نعمل يارجل والى اين نذهبُ بهولاء الاولاد اولادنا واولاد اخيك واولاد صهرك

ليس لنا مهرب الآ الى بيت ابرهيم فانهُ واسع ولهُ بوابة كبيرة متينة ولا بدَّ ما يجتمع فيهِ كثيرون من اهالينا واقاربنا فنندافع عن انفسنا الى ان يفرجها ربنا

وبعد قليل جمعوا ثيابهم وساروا هي وزوجها وسلفتها وابنة حميها واولادهم الى ان وصلوا الى بيت الخواجه ابرهيم وهو من وجوه بلدهم وكان قد نجا مع الذين نجوا احتمى ببيت الست نائفة ثم هرب بعد المذبحة ورحل الى بيروت واستأجر بيتاً كبيرًا فيها لانهُ كان على شيء من الثروة . ولما اتت اموال الاحسان جُعل وكيلاً على توزيعها نخصّ نفسهُ بجانب كبير منها . اما الآن فهرب من بيتهِ الى بيت رجل من وجهاء بيروت لهُ بوابتان الواحدة داخل الاخرى وهو احصن من بيتهِ وكان صاحبهُ مشهورًا بشجاعتهِ وبانهُ من امهر الرجال بلعب السيف ولكنهُ كان قد هرب من بيتهِ والتجأ الى دار وجيه كبير من اكبر اغنياء بيروت فلما وصلها وجدها مملوءَة بالناس الذين التجأوا اليها من النازحين ومن اهالي بيروت انفسهم والدار كبيرة ساحتها مرصوفة بالحصى الملونة ولها سور عالٍ على دائرها وفي وسطها حديقة غناء فيها من انواع الازهار والرياحين وفسقية كبيرة يتدفق الماء منها وعلى جانبي الحديقة بناءان فخيمان

كلٌّ منهما طبقتان فيهما الغرف الكبيرة الدالة على غنًى وافر ولا عجب فان صاحبها جمع ثروة طائلة من مصر وبر الاناطول من التجارة والمرابحة لكنهُ شعر الآن بالخطر كما شعر غيرهُ فاخذ زوجتهُ واولادهُ وامواله ونزل الى سفينة بحارية كانت راسية في المرفإ ووافاهُ اليها اولاد عمهِ وكثيرون من اغنى اغنياء المدينة وعزموا على السفر تلك الليلة تاركين الدار تنعى من بناها

وغابت الشمس وخيّم الليل والرجال يعدون ما وجدوهُ من الاسلحة ليدافعوا بها الدفاع الاخير والنساء يضرعن الى الله والى السيدة والاولاد سهروا مع والديهم الى ان غلبهم سلطان الكرى فانطرحوا في اماكنهم وجالت نفوسهم في فردوس الاحلام يحلمون بالعابهم تارة وبدروسهم اخرى ولم تغمض في تلك الليلة الاَّ عيونهم

وجلس اثنان من الشيوخ يحدث احدهما الآخر عن حركة الامير بشير الاولى والثانية وعن خروج ابرهيم باشا ويقول مرّت بنا التباريح ولكن لم يحلَّ بنا مثل هذا الضيق ايذبحوننا ذبح الغنم برجل واحد ولا احد يشفع ولا احد يدفع وقد تخلَّى الله عن شعبهِ واسلمنا الى يد الاعداء

فقال الآخر هذه آخر الايام كما انبأنا الجفر ولكن لا بد ما يأتي المسكوب من اقصى الشمال كما قال النبي دانيال

فقال الاول يأتي ولكن بعد خراب البصرة وما نفعُ مجيئهِ الآن وقد اجتمعت طوائف الدروز وقبائل العرب في حرش بيروت

فاجابهُ الثاني ولكن لماذا لا ينزل رجال كسروان لخلاصنا اين يوسف كرم واين البطرك لم نرَ منهما الاَّ المواعيد

فقال الاول — سمعت ان يوسف كرم مخاوذ معهم ولكنني لا احظ بذمتي وعلى كل حال آخر زمان يا ابا نهرا

الثاني آه على ايام الصبا رزق الله على تلك الايام ولكن ما العمل والسن لهُ حق انظر كيف ترتجف يدي فلا استطيع رفع البندقية ولا يزال الرصاص في فخذي من ايام ابرهيم باشا · هذا الذي كتبهُ الله علينا ولكن لا بد ما يجيء المسكوب قلبي يقول لي ان مراكبهُ الآن في البحر ولا بد ما نراها غداً

والتقى نقولا بمارون هناك وقال لهُ اين عساكر فرنسا التي وعدتنا بمجيئها فاننا لم نسمع عنها كلمة والامر كما ترى وكنت عازماً على النزول في البحر مع الذين نزلوا ولكننا لم نكتب حتى الآن حجج الاملاك التي اشتريناها اخيرًا من الشهابيين واخاف ان يصيبهم شيء وينكر اولادهم المشترى

مارون — الحق بيدك ولكن اذا اصابهم شيء وكنا باقين معهم اصابنا كما يصيبهم فماذا تنفع الحجج

نقولا — صحيح ولكن المال اعز من الروح وانا تأخرت في المخزن حتى صفيت اشغالي وما وصلت الى البيت الأمنذ ساعة ولولا ذلك لالزمتني ام متري ان ننزل الى البحر مع الذين نزلوا

مارون — هل تظن ان فرنسا عدلت عن ارسال عساكرها

نقولا — كلاّ ما عدلت ولكن الانكليز وضعوا لها الف عرقولة لانهم لا يريدون ان تأتي وتأخذ البلاد وحدها

مارون — الله ينجينا من مناظراتهم و يصرفها على سلام

نقولا — اظن انها تنصرف. فان القناصل اجتمعوا كلهم وذهبوا الى الوالي ودرَّكوهُ بالمسؤولية واجتمع عقلاء المسلمين ونبهوا على الجهلاء في الجوامع ان لا يفعلوا شيئاً وقد سمعت الآن وانا داخل انهم قبضوا على القاتل وقتلوهُ ولكن الاشرار كثار ويقال أن العسكر معهم وهذا الذي يخوفنا . وارسل القناصل يطلبون مراكب حربية فاذا وصل ولو مركب واحد لزم الاشرار حدهم

مارون — الله كريم وكيف حال بجور وشمعون واخوانهم

نقولا — ما على قلبهم فان الوالي طمنهم بنفسهِ

مضى الليل بتباريحهِ واشرقت الغزالة وانعكست اشعتها عن وجوه صفراء لم تغمض لها عين وعيون غائرة لم يغمض لها جفن واطفال يبكون وينتحبون طالبين كسرة خبز او شربة ماء ولم يكن الأ القليل حتى اهتزت تلك النفوس طرباً كأنهُ بسلك كهربائي. وجعل الالوف يستشرفون البحر او يصعدون على السطوح ليتمكنوا من رؤيتهِ وهم يقولون اتى اتى الله ينصرهُ الله ينصرهُ

في اقصى الشمال بارجة تشق سطح الماء وقد رفعت شراعها للنسيم واستعانت بما فيها من البخار يقودها الامل ويسوقها الواجب وكأن اله السلام اوحى الى ربانها ان قمْ على عجل واقصد مدينة بيروت فهناك مئة الف نسمة حياتهم معلقة بخيط من العنكبوت . فقام لا يلوي على احد واستعان بالرياح والبخار حتى اذا اشرف على المدينة جعل يطلق اكبر ما عندهُ من المدافع فاهتزت المنازل وتكسَّر زجاج الشبابيك واخذت الدهشة قوماً والفرح آخرين . اخذت الدهشة رعاع القوم الذين يتوقعون الفتن والثورات لكي يطلقوا لنفوسهم المنحطة عنانها

ويأتوا من الشر ما فطروا عليهِ واخذ الفرح العقلاء والفضلاء الذين يعلمون ان الفتن تفضي الى خراب البلاد وتضييع مصالحها

والتقى احمد بمصطفى بعد ساعة من الزمان وقال لهُ الحمد لله على انفراج الازمة. فقال مصطفى الحمد لله على كل حال فقد اويت في بيتي ثلاثين عائلة من هؤلاء المساكين وكنت حائرًا كيف ادافع عنهم وادفع عنهم الاشرار. انا لا افهم هذه السياسة سياسة والينا وستأتي كلها على رأسهِ. باي شرع وفي اي سنة تحرض الرعية بعضها على بعض — الله ينجينا من القوم الظالمين. ليأخذوا الآن على ايديهم فقد جاء المسكوب وسبع دول ما وقفت في وجههِ اسمعتَ صوت مدافعهِ كسَّر نصف الزجاج في شبابيك بيتي

فقال احمد نعم فبق كبير لم ارَ مثلهُ في حياتي مع اني سافرت الى قبرص والى الاسكندرية. ولكن ماذا فعلوا بالقاتل

مصطفى — مسكوا واحدًا وقتلوهُ

احمد — هل هو القاتل

مصطفى — لا اظن ولكنهُ لم ينكر انهُ هو القاتل — على كل حال انقضى الاشكال ولما كنا في المجلس عند الوالي سفهت رأيهُ ووافقني اكثر اخواننا ولكن هذا الثرثارة ابا نخر كان حاضرًا ولا اعلم باي صفة يحضرهُ الوالي في مجلسهِ وقال ان عندهُ كتابات من كل مشايخ الدروز وانهم كلهم مستعدون لاول اشارة حتى ينزلوا على بيروت فقلت للوالي سلمنا انهم نزلوا وانهُ تمَّ كل شيء على حسب رغبتك فمن ينجينا بعد ذلك من الفرنسوي والانكليز والمسكوب والله نحن غير قادرين على الاروام. فقال لي حلمك يا حاج مصطفى حلمك اما دوَل اوربا فانا عالم انها لا تحرك ساكنًا نعم ان اهاليها ترسل الصدقات ولكن رجال الحكومة لا يفعلون شيئًا ومهما جرى فالحالة الحاضرة لا بدَّ من تغييرها. وقد انصرفنا من عندهِ واكثرنا غير موافق لهُ على رأيهِ ونبهنا في الجوامع حتى لا يصير شيء وقد أتت هذه الفرقاطة فحلت عزائمهُ وستراهُ الآن يحاسن ويجامل ويقول انهُ كان باذلاً غاية جهدهِ في حفظ الامن وسينزل الآن للتسليم على الاميرال

احمد — هل ردت القشلة السلام للفرقاطة

مصطفى — نعم ردَّت ولكن كان صوت مدافعنا مثل صوت الفقاعة

احمد — اتظن اذًا انهُ انقضى الاشكال

مصطفى — انقضى وقتيًّا ولكن الله يسترنا من عواقبها

وانفرجت قلوب الالوف من سكان بيروت واللاجئين اليها على اثر مجيء البارجة الروسية وجعلوا يعانق بعضهم بعضاً ويهنئ بعضهم بعضاً بالسلامة وعاد كلٌّ الى منزلهِ

الفصل السادس والعشرون

الذهاب الى العرب

وصل الامير عبّاس وزوجتهُ واولادهُ الى حاصبيّا كما تقدم وخرج الامراء الشهابيون ورجالهم للقائهم الى سوق الخان ولم يقابلوهم باطلاق البنادق على جاري العادة لان الامير عبّاساً ارسل ينهاهم عن ذلك وامراء حاصبيّا انفسهم كانوا يخافون ايقاظ الفتنة باية وسيلة كانت لكن حذرهم لم يجدهم نفعاً . ولما وصل الامير سعد الدين الى حاصبيّا مرسلاً من قبَل والي دمشق ليجمع الاموال الاميرية من الدروز قصّ على الامير عبّاس ما اشار عليهِ بهِ احد اصدقائهِ في دمشق وكان الامير عبّاس يعرف هذا الرجل ويعرف انهُ واسع الخبرة شديد الفراسة فقال للامير سعد الدين لا رأي لي بالاقامة بينكم بعد الآن ولا اظن انهم يضمرون لكم الاَّ الشر. وقد دعاني الامير عمر الفاعور امير عرب الفضل اليهِ فارى في تلبية دعوتهِ السلامة . ثم اخبر زوجتهُ واولادهُ بما عزم عليهِ فوقع الخبر على زوجتهِ وقع الصاعقة لانها كانت ترى البدو الذين يشتون في ساحل بيروت وهم في حالة من القذر تشمئز منها النفوس فظنت ان كل البدو مثلهم اما الاميرة سلمى فطربت اولاً لهذا الخبر لانها كانت تودُّ ان تقف على حال البدو في قفارهم وترى معيشة نسائهم وبناتهم وتحقق بالخُبْر ما قرأتهُ عنهم بالخَبَر . وكانت تحب ركوب الخيل فتصورت نفسها راكبة مع اميرات العرب يجبن القفار وينشدن الاشعار فطربت نفسها لذلك ثم تذكرت انها تبعد عن السرهنري وقد لا تعود تراهُ فخفق فؤادها وصعد الدم الى وجهها ثم تقلّص عنهُ فاصفرّت وجنتاها وارتجفت شفتاها وجالت الدموع في عينيها فالقت جبينها على يدها وحاولت ان تنسى كل شيء حتى وجودها

وسرَّ اخواها بهذا السفر لانهما كانا يحبان ركوب الخيل ايضاً ولم يغتظ منهُ الاَّ امها وام يوسف وكادت ام يوسف تعدل عن الذهاب معهم وودت ان ترجع الى كفرشيما او بيروت ولكنها لم تجد من يوصلها اليهما فعادت تندب زوجها واولادها وسلمت بالذهاب مع الاميرة هند مكرهةً وهي لا تنشف لها دمعة

وكان الامير عبّاس على وفاق مع الست نائفة اخت سعيد بك جنبلاط فارسلت معهُ اثنين من رجالها ليوصلاهُ الى عرب الفضل ويخبرا الدروز الذين يلتقي بهم في الطريق انهُ

من اصدقائهم . ولم يكن السير شاقاً كما ظنت الاميرة هند ونزلوا في الطريق على مشايخ الدروز والعرب الى ان وصلوا المزار في جبل عجلون فالتقاهم الامير عمر بخمس مئة فارس راح على بعد ساعتين من مضاربهِ وكانت عيونهُ مبثوثة في البلاد فاوصلت اليهِ اخبارهم قبل وصولهم بيومين. ولما دنا من الامير عباس ترجل الاميران وتصافحا فترجل الفرسان كلهم في اقل من طرفة عين وعلا صهيل الجياد. ثم دنا الامير عمر من الاميرة هند وقبل يدها وعاد الى الاميرة سلمى فطارحها السلام مصافحة وقبَّل يدهُ بعد ان صافح بها يدها وكانت مسفرة عن وجه يخجل البدر فوقهُ عينان تفتنان الظبي وقد تورَّدت وجنتاها من هواء الصحراء ومما جاش في صدرها من الفخار لما رأَت الجياد تتدفق كالسيل المنهمر كأَن الاخلاق التي غُرِست في نفوس اسلافها وهم في بطحاء مكة وجبل كامل لم تزل من خلفائهم بل بقيت آثارها فيهم تظهر كلما حانت لها الفرص ونبهتها العوامل

وكان الامير عمر شاباً في نحو الخامسة والعشرين طويل القامة ابيض الوجه اسود العينين ولم يطلق العنان لعارضيهِ على جاري عادة العرب ولا جدل شعر رأْسهِ كما يفعلون لان اباهُ احضر لهُ معلمين من دمشق فعلموهُ مبادىء العلوم وزار دمشق غير مرة وتزيا بزي اهلها وكان لابساً قفطاناً من الاطلس الاحمر فوقهُ رداء من الجوخ الرصاصي وعلى رأْسهِ كوفية وعقال من الحرير والقصب وتدلُّ ثيابهُ ورائحتهُ على انهُ عائش في نعمة ونعيم فسرَّت الاميرة سلمى بمنظرهِ وطلاقة وجههِ

ثم ركب الاميران وركب الفرسان لركوبهما وانشقوا شطرين فسار الامير عباس والاميرة هند في المقدمة والامير عمر والاميرة سلمى وراءهما واخواها وراءهما ثم سائر الخدم والحشم الى ان بلغوا مقدمة الفرسان وكان السهل قد لثم الجبل فصعدوا فيهِ بين المناهل والغدران وواصلوا السير على هذا النمط الى ان وصلوا الى مضارب الامير عمر فلقوا مئات من النساء بالمزاهر والدفوف قد خرجنَ للقائهم وهنَّ ينشدن نشيد الترحيب ويقلن

هَلاَ بالضيف هلا بالضيف امير شهاب عزيز ومهابْ
وآل الفضل ضيوف الفضلْ وكل الفضل لآل شهابْ

وكانت واحدة منهنَّ تقول الدور والباقيات يرددن عليها على نقر الدفوف والمزاهر فطربت الاميرة هند والاميرة سلمى ووقفتا هنيهة تسلمان عليهنَّ وتقولان مرحباً بالزينات مرحباً بزينات الدار ربات الفخار حتى اذا دخلتا الحلة وجدتا الاميرة عاتكة ام الامير عمر واقفة في باب خدرها فسلمت على الاميرة هند مصافحةً واعتنقت الاميرة سلمى وقبلتها في

وجنتيها. وجلس الامراء وحدهم في مضرب كبير والاميرات وحدهن وقدمت لهم كلهم القهوة الجديدة وكؤوس الشراب ثم مدت اسمطة الطعام وعليها الخرفان المحمرة وكان عند الاميرة عاتكة جارية تحسن الطبخ التركي فطبخت للاميرات الواناً من الطعام والحلوى لم يأكلن اطيب منها

ولم يكن الامير عباس ضعيف البنية ولكن الترفُّه الكثير والانقطاع للمطالعة اضعفا جسمهُ فصار لا يقوى على عوادي الادواء وكأنهُ اكل طعاماً غير صالح او شرب ماء تطرق اليهِ الفساد وهو آتٍ في الطريق او اثرت فيهِ حرارة الشمس او اصابهُ امرٌ آخر فلم يكد يتم عشاءهُ حتى اصابهُ صداع شديد وكانوا قد اعدُّوا لهُ مضرباً خاصاً فقام اليهِ وجاشت نفسهُ فتقيأ ما اكلهُ وحُمَّ واصابهُ شيء من الهذيان . واخبرت زوجتهُ واولادهُ فاتوا مضربهُ وقد تولاهم القلق ولما رأت ام يوسف التي قالت ان سيدي مسموم قالت ذلك همساً في اذني الاميرة هند وخرجت تدعو الخدم ليأتوها بكثير من اللبن حتى تسقيهُ وفهم الامير عمر مرادها فاسودت الدنيا في عينيهِ وقال لها اننا اكلنا معاً من خروف واحد وعن سماط واحد وشربنا القهوة من غلاية واحدة وانا شربت قبلهُ . فاخذت تعتذر عن نفسها وقالت ربما يكون سيدي قد شرب شيئاً او اكل شيئاً في الطريق واتوها بكثير من اللبن لكن الامير ابى ان يشربهُ

وأرسل الامير عمر اربعة فرسان الى دمشق يستدعي طبيباً من امهر اطبائها

واشتدت الحرارة على الامير عباس الى درجة لا تطاق حتى كاد يشتعل ثم انحطت سريعاً وجعل يشكو من ضيق النفس والعطش الشديد وجعل جلدهُ يجف ثم يتندى بالعرق دواليك ونبضهُ يسرع ثم يبطئ وازرق وجههُ وعنقهُ وانقبضت حدقتاهُ ثم اتسعتا واصابتهُ تشنجات صرعية وعقب ذلك سبات عميق

وكان في القبيلة شيخ كبير مارس صناعة التطبيب من غير معلم ومن غير كتاب ناقلاً ما يعرفهُ عن ابيهِ وجدهِ ومضيفاً اليهِ ما عرفهُ بالاختبار فاستدعاهُ الامير عمر حالاً فامر بصب الماء الكثير على رأس الامير عباس قائلاً ان ما اصابهُ ضربة شمس . ورأت الاميرة هند ان ما قالهُ الرجل صواب لان الشمس كانت حارة وكان نورها ساطعاً جداً حتى اضطرت ان تسدل نقابها على وجهها اكثر الطريق . ولم تخف حرارتها بعد غيابها فاذنت لهم في صب الماء على رأسهِ وخالفتها ام يوسف في ذلك وهي تقول — سموهُ يا ستي سموهُ اسمعي مني واسقوهُ اللبن وزلال البيض لكن الاميرة هند لم تصغ اليها بل امرت بصب الماء وكان ماؤهم بارداً لان الارض جبليَّة فانتعش الامير عباس قليلاً ثم عاودتهُ الحمى واسلم الروح

الفصل السابع والعشرون

المأتم

تمرُّ الرزايا بالمرء فيراها عن بُعد ويستعظمها قبلما تصل اليهِ ويظن انها اذا وقعت بهِ ضاق بها ذرعاً لاسيما وانهُ يعظّم امرها في غيرهِ ويعجبُ من صبرهم عليها ثم اذا حلّت بهِ فالغالب انهُ يصبر عليها ويجري معها كأَنها امرٌ عاديٌّ وقع لهُ لان الامل بالنجاة منها يخفف وطأَتها ويحلي مرارتها. ولكن اذا جاء المصاب الاكبر ونفذ سهم القضاء وانقطع الامل من البقاء وخطف الموت عزيزاً ورأَى المرء امامهُ رزيئة لا يمكن دفعها ولا منعها نفد صبرهُ وغاض ينبوع املهِ وضاقت بهِ الحيل وارتدَّ دمهُ الى قلبهِ فلم يعد يغذي دماغهُ لتذكيرهِ بالمواعظ والحكم. فيسمع منك اقوال التعازي ويقول سمعتُ وفهمتُ ويكون قد سمع وفهم ولكنهُ لم يعِ شيئاً — حالة لا يتصورها الَّا من وقع فيها ورُزِئ بفقد عزيز ولاسيما اذا كان سندهُ الوحيد ومدبر امرهِ

هذا ما اصاب الاميرة هند واولادها وهي غريبة نزيلة على قوم من البدو في بلاد لم تطأْها قدماها من قبل وبين اقوام لا تعرف احداً منهم

كان زوجها يعرف الامير عمر ويعرف اباهُ وقد حارب معهُ كتفاً لكتف في عهد ابرهيم باشا لكن ذلك كان قبل ان اقترنت بهِ. وكان الامير عمر يواصلهم بالهدايا ولكنها لم ترَ صورتهُ الَّا ذلك اليوم فلم تكد تأْنس بهِ وبامهِ حتى وقعت بها هذه الضربة الاليمة

وقد عاشت مع زوجها نحو عشرين سنة على تمام الهناء والصفاء وكانت تهتم بهِ اكثر مما يهتم النساء بازواجهنَّ عادةً لان معرّفيها غرسوا في ذهنها انهُ هالك ولا بدَّ لها من ان تجاهد جهاداً مستمرّاً في الصلاة لاجلهِ. فاكثرت من الصلوات والنذور في السنة الاولى والثانية ثم رأَت ان زوجها افضل سيرةً وسريرةً من كل الذين تعرفهم حتى من رجال الدين وسمعت مرةً واحداً يتلو آيةً من التوراة مفادها ان كلَّ من يعمل البر فهو مقبول لدى الله مهما كانت امتهُ فانجلى لها وجه الصواب وقالت ان الله لا يأْخذ بالوجوه بل الناس لديهِ حسب اعمالهم ونياتهم. وكانت لا ترى من زوجها الَّا العمل الطيب والنية الصالحة على ما فيهِ من الرزانة والوقار ومجادلة الناس بالحسنى حتى ان المطران كان يسرُّ بحديثهِ ولا يُسمعهُ كلمة تغيظهُ فزالت الشكوك من نفسها ومنعت القسوس عن الكلام معها في امر زوجها. ثم لما كبر اولادها اتجهَ همها كلهُ الى تعليمهم وتهذيبهم فلم تعد تهتم بالخلاف الديني الذي بينها

وبينهُ ولم يخطر لها ببال انهُ يمكن ان يموت قبلها لانهُ لم يمرض قط مدة اقترانها بهِ فلما رأتهُ الآن مطروحاً على فراشهِ لاحراك بهِ لم تصدق انهُ ميت بل اخذت يدهُ وجعلت تناديهِ وتكنّيهِ ثم غلبتها عواطفها واسودّت الدنيا في عينيها فاعولت بالبكاء

وغلب الحزن الاميرة سلمى وجفّف دموعها فوقفت شاخصةً ولكنها لم تكد تسمع بكاء امها حتى وقعت على الارض وطرحت رأسها على صدر ابيها وهي تبكي وتقول يا ابي يا ابي. وفاضت الدموع من عيون اخويها وجعلا يبكيان وينتحبان وقد قام كلٌّ منهما في زاوية من المضرب

ووقف الامير عمر حائرًا في امرهِ رأى هذا المشهد وسمع نواحاً يفتت الاكباد فاغرورقت عيناهُ بالدموع ولكنهُ لم ينسَ هول الموقف وما يُطلَب منهُ ويطالَب بهِ فوقف يفكّر في امرهِ وجلست ام يوسف على الارض وقد غلبها الحزن فلم تحاول الندب على جاري عادتها فانها كانت من النادبات الشهيرات ولكن الحزن الشديد يبكم الالسنة

وعلا البدر فقصرت ظلال المضارب واشتد حلكها بالنسبة الى النور الذي حولها ونبحتهُ الكلاب من كل ناحية فانقطع عواء الذئاب خوفًا ورهبةً . وبركت الجمال وربضت الثيران والاغنام تجترّ وتلوك جرتها على مهل ووقفت الصافنات الجياد تغمض جفونها ثم تفتحها كلما مرّ خفّاش من امامها . وخمدت النيران امام المضارب وعلا نقيق الضفادع من جوانب الغدران حيث تظللها اغصان الصفصاف والبان فامتزج بهِ خرير الماء امتزاج الحسيني بالعشيران. واجتمعت الخفافيش على اشجار الاجاص والزعرور تختصم وتصيح ولكنها لا تنتقل من الحجاج الشجاج لانها تكتفي بالكفاف من الطعام ولا تفعل فعل ابن آدم الذي لا يكفيهِ شيءٌ يلهمهُ فيطمع بما في يد غيرهِ ويجور على ابناء نوعهِ

ودخل الامير عمر مشورَهُ وجمع رؤساء عشيرتهِ الادنين وقصّ عليهم ما حدث بالاختصار فقال ان اباهُ كان متآخياً مع الامير عباس من عهد ابرهيم باشا إخاء الدم(١) وقد اوصاهُ ابوهُ قبل وفاتهِ ان يحسب الامير عباساً عمًّا لهُ ويبرَّ بهِ بر الاب بابنهِ وانهُ استدعاهُ اليهِ الى جبل عجلون لما علم ان في النيّة قتل امراء حاصبيا واللاجئين اليهم ولكن يظهر انهُ كان مريضاً فاثّرت فيهِ الشمس وقتلتهُ والطبيب يقول انهُ مات من ضربة الشمس ولا بدّ من ان يطالبهُ الشهابيون والحكومة بدمهِ قبلما تنجلي لهم الحقيقة ولكنهُ واثق ان الاميرة هند وابنتها الاميرة سلمى تقرران الحقيقة وهي انهُ وصل المضارب متعباً ثم اكل من الطعام الذي اكل منهُ ولداهُ واصحاب المنزل واصيب بعد ذلك بصداع شديد وحمّى وقضى نحبهُ قبل ان يشرب دواء. قال

(١) ان يجرح كلٌّ منهما يدهُ ويمصّ كلٌّ واحد من دم الآخر

وقد احضرتكم الآن لاستشيركم في امرين الاول ان الامير عباساً كان مسلماً فهل ندع الامام يغسلهُ وندفنهُ مسلماً والثاني هل ندعو رؤساء العشائر كلهم ونقيم لهُ مأْتماً يليق بهِ . قال ذلك واومأَ الى شيخ كبير السن شيبت الايام رأْسهُ ولكنها لم تحنِ ظهرهُ كأَنهُ يطلب منهُ الجواب على سؤالهِ

فقال هذا الشيخ اما عن الامر الاول فالرأْي عندي ان نستشير زوجة الامير ونعمل بقولها ولاسيما اذا وافقها عليهِ اولادها . واما الامر الثاني فواجب الضيافة وعهد الاخوة بين الامير المتوفى وبين المرحوم ابيك يقضي علينا ان نحتفل بمأْتمهِ كما احتفلنا بمأْتم ابيك

ووافقهُ سائر الرؤساء والمشايخ على ذلك وللحال نادى الامير عمر بالسعاة وبعث معهم الى كل احياء قبيلتهِ وعيَّن وقت الدفن عصر اليوم التالي واعطى الطبيب حُجرًا من عطر الورد حتى يصبهُ في الماء الذي يغسل الميت بهِ فيمنع فسادهُ . واوصى مدبر بيتهِ ان ينحر مئة خروف وعشرة جمال ويطبخها كلها غداء للجموع التي تحضر المأْتم وان يطبخ معها عشرين قفّة من الارز ويخبز ما يكفي ثلاثة آلاف نفس ويفعل كما فعل في مأْتم ابيهِ بحيث تكون مضارب طبخ الطعام مفصولة عن المضارب التي يقام فيها المأْتم ولو لم تكن الارض سهلاً كما كانت حينئذٍ

واتمَّ هذه المهام كلها بما لا مزيد عليهِ من السرعة وعاد الى المضرب الذي فيهِ الميت وكانت امهُ قد جلست الى جانب الاميرة هند تشاركها في البكاء والنوح ووقف خدم الامير خارجاً يبكونهُ ويندبونهُ ولا سيما مربي اولادهِ وكان رفيقاً لهُ في صباهُ وشبابهِ وشهد معهُ المواقع التي حضرها وقضى عمرهُ عزباً منقطعاً لخدمتهِ وخدمة اولادهِ فشعر الآن كأَنهُ فقد ركنهُ الوحيد في الدنيا وجلس عند باب الخيمة يبكي سيدهُ ويعددهُ ويلوم الموت لانهُ لم يأْخذهُ بدلاً منهُ . وجلست ام يوسف الى جانب الاميرة سلمى وهي تندب مرةً وتنوح أُخرى وبات الجميع على هذه الصورة الى ان ثقل سلطان الكرى على الاجفان ولجَّ الامير عمر على الاميرة هند واولادها لينهضوا ويناموا في مضاربهم مؤكداً لهم انهُ يتولى حراسة الميت بنفسهِ

وقد يُظن لاول وهلة ان مضارب البدو خالية من كل وسائل الراحة والرفاهة ولكن ليس الامر كذلك لان امراءهم على ثروة واسعة وهم يترددون على المدن القريبة منهم ويقتبسون ما فيها من الكماليات لا سيما وانهُ يزورهم رجال الحكومة احياناً وينزل بعض السياح عليهم ضيوفاً فيضطرون الى اقتناء الامتعة الفاخرة مما يلزم لراحتهم ولذلك تجد عندهم الفرش الوثيرة مهيأَة للضيوف ويقتنون الجواري المعتادات على خدمة اهل الرفاهة فنامت الاميرة هند وابنتها في مضرب مبطن بالحرير على فرش وثيرة تغطيها دثر من الحرير والكتان ونام ولداها في

مضرب آخر متصل بهِ والمضربان الى جانب مضرب ام الامير

واصبح الصباح وسوّمت الانعام واجتمع الخيامون فخاطوا مضرباً كبيراً من مضارب كثيرة لفقوها معاً وسمكوهُ على عمد عالية وشدوا اطنابهُ فكان منهُ قبة واسعة كقبة نجران ووضعوا الميت في نعش كبير مجلل بشالات الكشمير ونصبوا لهُ دكة في وسط القبة وسرجوا اربعة من الخيول المطهمة ووقف السياس بها امام المضرب

ولم يمضِ ساعتان او ثلاث من النهار حتى انتظم عقد النائحات حول النعش وهنّ مسدولات الشعور وقص بعضهنّ شعورهنّ وطرحنها عليهِ اكراماً للميت وجعلت ام يوسف وامرأَة من البدو تتباريان في انشاد ابيات الندب والرثاء والنادبات يرددن اقوالهما والاميرة هند والاميرة سلمى لا تكفان عن البكاء حتى تقرّحت اماقهما

واعدوا نعشاً آخر يمثل نعش الميت وجعلوا فيهِ حجارة كبيرة وجللوهُ بشيلان الكشمير وجعلوا يحملونهُ ويرفعونهُ فوق رؤُوسهم ويطوفون بهِ حول قبة المأتم والجياد الاربعة ماشية امامهُ وعلى جانبي كل جواد رجلان معهما سيفان مسلولان فوق ظهر الجواد ورجل ثالث يقودهُ ووراء النعش شاعر يعددهُ وباقي الرجال يرددون ما يقول ومن ذلك قولهم

يا سيدي ويا سنجق كل القول لك يلبق
لما شاعت أخبارك الشركا لبست الازرق

وقولهم يا سيدي ويا ابن دلال يا رمح انشكل بالمال
قال السيف خبوني لغير سيدي لا تعطوني
اين الكان ينقلني ويرخي بنودي عالشروال

وكلما اقبل فريق من قبائل العرب وقف في اول الميدان هنيهة ونادى بصوت جهوري معدداً مناقب الميت ثم تناول النعش من حامليهِ وطاف بهِ حول القبة على ما تقدّم واستمرّ على ذلك الى ان يصل فريق آخر ويتناول النعش منهُ ودام الحال على هذا المنوال الى ان تكبّدت الشمس السماء

وكان رؤَساء القبائل جلوساً مع ولدي الامير في مضرب كبير تجاه قبة النعش يدخّنون التبغ ويشربون القهوة فلما بلغت الشمس الهاجرة جاء الخدم واخبروا الامير عمر ان الاسمطة مدّت للطعام في مضارب الرجال وجاءت الجواري فاخبرنَ امهُ بمدها في مضارب النساء فنهض الامير ودعا رؤَساء القبائل وسار امامهم فجلس نحو مئتي نفس من الرؤَساء دفعةً واحدةً ولما شبعوا جلس مئتان غيرهم وهلمّ جرّاً الى ان بلغ عدد الآكلين اكثر من الفي نفس

واكل النساء في مضربهنَّ اما الاميرة هند والاميرة سلمى فاكلتا مع ام الامير عمر في مكان منفرد ومن طعام خاص ولم يكدنَ يذقن طعامًا

حُمل النعش بعيد العصر وسير بهِ الى مدفن عائلة الامير عمر في سفح ذلك الجبل ودفن فيهِ ونحرت على القبر النياق والقيت عليهِ الحجارة الكبيرة وودعت الجماهير الامير عمر وابني الفقيد وعادت الى احيائها وصعد هو مع رجالهِ الى مضاربهِ مضيَّع الرشد لا يعلم ماذا يفعل

ودام المأتم ثلاثة ايام والعرب يفدون افواجًا افواجًا كل يوم يعزون ولدي الامير لكنهم يقتصرون على المجيء نهارًا ولا يبقون الى الليل ولما انقضت الثلاثة الايام وثلاثة بعدها جلست الاميرة هند وابنتها وابناها واستدعت صبيَّ(١) اولادها وجعلوا ينظرون في ما يحسن بهم عملهُ في تلك الاحوال هل يعودون الى بلادهم بخفارة الامير عمر ورجالهِ او يبقون عندهم الى ان تنجلي تلك الغياهب وتطمئن الخواطر . فقالت الاميرة سلمى وكان لها الرأي المعلَّى ان الفتنة لا تزال قائمة في بلادنا فلا نكون بأمن فيها ولا يليق بنا ان نكلّف الامير عمر الذهاب اليها في هذه الاوقات ورأيي يا اماهُ ان نبقى هنا الى اواخر فصل الخريف وحينئذٍ يرحل الامير عمر من هذا الجبل الى بلاد الساحل فنطلب منهُ ان يوصلنا الى دمشق . وقلبي يحدثني ان قنصل الانكليز في بيروت سيبحث عنا ويعرف مقرنا ويُرسل الينا من يردنا الى بيروت ان لم يأتِ هو بنفسهِ الينا والعرب على تمام الوفاق مع الانكليز لانهم ينقلون لهم البريد بطريق البر الى خليج العجم وقد سمعتُ تشرشل بك يتكلم مع ابي في هذا الموضوع لما زارنا آخر مرة

فقالت الاميرة هند فهمت مرادكِ فانتِ تعنين السرهنري الذي زارنا مع ابن خالتك لا قنصل الانكليز نفسهُ . لماذا تظنين انهُ يبحث عنا وكيف يستطيع ان يهتدي الينا اذا كانت حاصبيا قد احترقت الآن كما يظن . ولنسمع ما يقولهُ اخواكِ وصبيهما

فقال الاخوان انهما يفضلان البقاء عند الامير عمر الى ان يفرجها ربنا . واما صبيهما فارتأى ان يُرسل رسول من العرب لاخبار الامير احمد وهو يدبر طريقة لحمايتهم وكادت الاميرة هند توافق على هذا الرأي ولكن الاميرة سلمى رفضتهُ ووافقها اخواها لانهما كانا يكرهان ابن خالتهما ويقولان انهُ متكبر مدَّعٍ

واشتد الجدال بين الاميرة هند وامها وبين الاخوين وصبيهما واخيرًا قالت الاميرة سلمى ما ضرنا يا اماه لو انتظرنا شهرًا من الزمان الى ان يفرجها الله فاننا لم نرَ من الامير عمر وامهِ واهل قبيلتهِ كلهم الأكل اكرام ولا اظن انهم يسمحون لنا بالرحيل عنهم الآن ما

(١) الصبي في اصطلاح الشهابيين الذي يربي اولادهم ويذهب بهم الى المدرسة

دامت القلاقل قائمة في جبل لبنان وكل البلاد المجاورة لهُ

ودنا اخواها من امهما واخذا يديها يقبلانهما و يقولان نعم يا اماه مثل ما تقول سلمى نبقى هنا ونحرس تربة والدنا الى فصل الشتاء ثم نرحل مع الامير. ففاضت الدموع من عيني الاميرة هند لما قال ولداها ذلك وصمتت هنيهة ثم قالت مثلما يريد الله · ولم يقل صبيهما شيئاً بل عزم ان يرسل رسولاً يخبر الامير احمد كيفما كانت الحال وكان الامير احمد يكرمهُ و يواصلهُ بالهدايا واعطاهُ مرةً خنجرًا محلًّى بالذهب وملقطاً من الفضة لمسك السيكارة قصد استمالته اليهِ حتى يمدحهُ امام الاميرة سلمى كلما ذكر اسمهُ · ولما رآها الآن تشير الى السرهنري اوجس شرًّا وكانت الظنون قد خامرت نفسهُ قبل الآن واطلع الامير احمد عليها لكنهُ خاف ان يطلب من الامير عمر ارسال الرسول لئلا يرفض ذلك و يعاتب الاميرة هند فعزم ان يتصاحب مع غيرهِ من الامراء و يرسل رسولاً من رجالهم

وأَلفت الاميرة سلمى الاميرة عاتكة ام الامير عمر وجعلت تجلس في مضربها ساعة بعد ساعة تسمع منها اخبار العرب وقصصهم عن الجن والغيلان والحروب والغزوات واخذ اخواها يخرجان مع الامير عمر للصيد والقنص وطابت لهما الاقامة هناك اما الاميرة هند فاستوحشت كثيرًا لبعد كل اقاربها عنها

الفصل الثامن والعشرون

خطر غير منتظر

مضى على قبائل العرب اكثر من اربعة آلاف سنة من حين ورد ذكرهم في التاريخ المكتوب والمنقوش وهم رُحَّل يعيشون بالغزو والنهب وتربية المواشي وحمل بضائع التجار ولم تتغيَّر حالهم

قامت ممالك اشور وبابل وصور وصيداء ومصر والنوبة واينعت ثم انحطت وانقرضت وقام اليونان والرومان ودوَّخوا المعمور ثم زالت دولهم · وخرج من العرب اناس بلغوا في فتوحهم قلب الهند والصين شرقاً واطراف اوربا وافريقية غرباً ولكن ابناء البادية المقيمين فيها بقوا على بداوتهم لهذا العهد يعيشون في الخيام و يضربون في انتجاع الرزق ويغزو بعضهم بعضاً كما كانوا يفعلون منذ الف سنة والفي سنة · وقد يظن ان بداوتهم هذه على تأَصُّلها فيهم وتمكنها من عروقهم تفارقهم اذا خالطوا اهل الحضارة ورأَوا فيها من الرفاهة ما ليس في البداوة لكنهم لم يروا في البلاد التي حولهم لهذا العهد ما يرغبهم في الحضارة فبقوا بعيدين عنها ما امكن

ولما لم يكن لقبائل العرب وازع عام يقضي بينهم تراهم يلجأون دواماً الى اخذ ثارهم بيدهم وهذا هو السبب الاكبر لما يقع بينهم من العدوان

وكان بين عرب الفضل وعرب بني صخر ثارات قديمة واتفق ان عرب بني صخر انسوا الضعف من عرب الفضل او حرَّضهم محرض على غزوهم لكي يضعف الفريقان معاً فشنوا الغارة عليهم وبلغ الامير عمر ان بني صخر زاحفون عليهِ فجمع رجالهُ في سفح جبل عجلون وكان هناك سهل فسيح يبتدئ بوادٍ عند اسفل الجبل ثم ينبتشر شمالاً وجنوباً وشرقاً وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وترك النساء والاولاد في الجبل ومعهم نحو الفين من الرجال لحمايتهم واراد ابنا الامير عباس ان يخرجا معهُ للقتال فمنعهما واوصى امهما ان لا تدعهما يخرجان من مضربها واكد لها وللاميرة سلمى انهُ يعود فائزاً مساء ذلك اليوم لان رجال بني صخر لا يقاسون برجالهِ

وخرج هو في مقدمة جيشهِ وكان رجالهُ مسلحين بالسيوف والرماح ومعهم نحو مئتي بندقية من البنادق القديمة ذات الزناد فلما توسطوا السهل رأوهُ يموج بفرسان العدو فتقدم فارس منهم براية بيضاء ومعهُ رسالة الى الامير عمر مفادها ان يسلم للامير حسَّان امير بني صخر الرجلين اللذين قتلا ابن خالتهِ ويردَّ لهُ احمال البن التي نهبها رجالهُ من قافلة كان فيها عشرون جملاً لبني صخر على كل جمل منها نصف قنطار من البن ويسلم لهُ الامير عباساً واهلهُ ليحميهم عندهُ لان بني صخر اولى بحمايتهم من عرب الفضل

فقرأ الامير عمر الرسالة وقال للرسول قل لمولاك ان الرجلين اللذين قتلا ابن خالتهِ انما قتلاهُ بثار قديم لهما عندهُ وان العرب الذين نهبوا القافلة لم يكونوا كلهم من عرب الفضل ولا هم فعلوا ذلك بامرهِ ولا رأى البن الذي يقال انهم نهبوهُ وان الامير عباساً رحمة الله عليهِ لجأ الى حماهُ واوصاهُ بزوجتهِ واولادهِ قبل وفاتهِ وهو وحدهُ حامي الذمار في تلك الديار وعرب صخر معتدون عليها واوطانهم بعيدة في البلقاء وهو يطلب منهم ان ينكصوا على اعقابهم ويعودوا اليها فيعود عنهم والّا اشبع غربان الجو ووحوش البر من لحومهم

فرجع الرسول واخبر مولاهُ بما سمع فالتفت الى الذين حولهُ واخبرهم بمفاد الجواب فاشرعوا رماحهم وقالوا لهُ مُرنا بالهجوم عليهم فقال هلموا يا شجعان العرب واستلَّ سيفهُ وهمَّ بالهجوم معهم فمنعهُ رجالهُ واقسموا عليهِ ان لا يهجم ما لم يبرز لهُ الامير عمر لكن رجالهُ قوَّموا الاسنَّة واطلقوا الاعنَّة فالتقى الجيشان كانهما جبلان ودار الطعن والضرب وكانت الشمس قد علت عن الافق وارسلت اشعتها في وجوه عرب الفضل فكادت تعمي ابصارهم ·

وانفصلت كتيبة من بني صخر ودارت وراء عرب الفضل وربطت عليهم المضيق المؤدي الى جبلهم . واحترّ القتال واشتدّت حمارّة الصيف وتعثرت الجياد بجثث القتلى وبرز الامير عمر للامير حسان فتنازلا ساعة زمانية على ميمنة الجيش حتى تكسّر رمحاهما وثلم سيفاهما وكاد فرساهما يسقطان تحتهما ثم افترقا للم شعث رجالهما وكان بنو صخر قد فازوا على عرب الفضل واثخنوا فيهم لا لانهم اشد منهم بأساً وامهر في الكر والفر والضرب والطعن بل لان اشعة الشمس كادت تعمي ابصار عرب الفضل فسقط منهم مئات من القتلى ولما حاولوا الفرار رأوا فرسان بني صخر تفصل بينهم وبين جبلهم فانتشروا في عرض البر وبنو صخر يجدون وراءهم ويضربون في اقفيتهم وصعد فريق منهم الى الجبل وهجموا على خيام الامير عمر فنهبوها وسبوا مَن فيها وفي جملتهم امهُ والاميرة هند واولادها واحتملوهم وعادوا بهم يجدون السير الى جهة البلقاء

ولما بلغوا السهل التف حولهم فرسان بني صخر يخفرونهم وكان الامير عمر قد سعى وراء رجالهِ يلمّ شعثهم ويحثهم ليعاودوا الكرة فجمع نحو الف منهم وعادوا الى السهل وبلغهُ حينئذٍ اسر امهِ والاميرة هند واولادها فصار الضياء في عينيهِ ظلاماً والتفت الى رجالهِ وقال لهم هذا يومكم يا عرب الفضل النار ولا العار من منكم اخو اختهِ يرضى بهذه المذلّة افتضحنا والله بين العرب الى آخر الدهر وقد مالت الشمس الآن ولم يبقَ لنا عذر فهلموا يا ابطال الحرب والطعان . ثم اشار بيديهِ الى الاعداء وهجم عليهم هجمة منكرة واخذ يجندل الابطال يمنة ويسرة حتى دنا من الفرَس الذي عليهِ امهُ وكاد يخطفها من سرجها ولكن عثر جوادهُ حينئذٍ فسقط واجتمع رجالهُ حولهُ يدافعون عنهُ فاسرع الفارسان اللذان معهما الاميرة سلمى وامها وابعدا عنهُ . ولم يكن الا دقائق قليلة حتى عاد الى صهوة جوادهِ واقتحم فرسان العدو بصدرهِ وكانوا قد اطبقوا عليهِ من كل ناحية وسدوا في وجههِ منافس الفضاء . ومضت ساعة من الزمان بيعت فيها الارواح بيع السماح وفعل الامير عمر فعالاً تشيب الاطفال وكان معهُ فارس اسود يحمي ظهرهُ لكنهُ لم يستطع استرجاع الاسرى مع كل ما بذلهُ من الجهد ورأى رجالهُ استبسالهُ فزادت نخوتهم واستقتلوا كلهم ولكن اجتمع عليهم نحو الفين من الفرسان الاشداء ومضت ساعة لم ترَ تلك البطاح مثلها من عهد الصليبيين واخيراً رأى الامير عمر ان الكثرة غلبت الشجاعة وان شمل رجالهِ قد تمزق فعزم ان يرجع ويجمعهم ثانية ويبيّت بني صخر بهم تلك الليلة

الفصل التاسع والعشرون

خيبة الامل

وصل السرهنري الى صيداء وبات عند قنصل الانكليز واخبرهُ انهُ ذاهب الى حاصبيا فقال لهُ القنصل ان حاصبيا والقرى المجاورة لها امست رماداً وقتل اكثر رجالها ووصل الفارون من النساء والعجائز الى هنا وهم في حالة يرثى لها. فطلب منهُ السرهنري ان يريهُ بعضهم فارسل القنصل قواساً من قواسته فجاءهُ بشيخ طاعن في السن فقص عليهِ ما جرى من اول الفتنة الى ان جُمع الرجال في السراي وذُبحوا ذبح الغنم . فسألهُ السرهنري عن الامراء الشهابيين فقال لهُ انهم قتلوا ايضاً فسألهُ عن الامير عباس فقال لهُ انهُ رحل الى عرب الفضل في جبل عجلون منذ عشرين يوماً او اكثر

وطلب السرهنري من القنصل ان يسير بهِ الى حيث يقيم المهاجرون من اهالي حاصبيا والقرى المجاورة لها لكي يراهم فسار بهِ الى الخانات التي كانوا مقيمين فيها فقابلهُ النساء بالبكاء والعويل ورأى مناظر تفتت الاكباد فتداول مع القنصل في امرهم ثم مضى وقابل المتسلم واسمعهُ من الكلام امرَّهُ واستأجر سفينة كبيرة ليُرسل بها المهاجرون الى بيروت وارسل معهم القوَّاس الذي اتى معهُ وكتب الى الكولونل روز يخبرهُ بما سمع ويستأذنهُ في السفر الى جبل عجلون وارسل الكتاب مع رسول وقام يطوف في صيداء ليرى مبانيها القديمة فرأى خان الافرنج وقلعة البحر وصعد الى قلعة الملك لويس ورأى ابراجها وما فيها من المدافع المصرية الباقية فيها من عهد ابرهيم باشا فاعجبهُ منظرها وخرج الى خارج المدينة من عند الميناء القديم ورأى اكمة الحلازين البحرية التي كان الصيدونيون يستخرجون الارجوان منها. وركب في اليوم التالي وذهب الى ضواحي المدينة وزار بيت لادي استيرستانهوب واستقصى اخبارها من بعض الذين يعرفونها وعاد عند الظهر الى المدينة فوجد الجواب من الكولونل روز ينصح لهُ فيهِ ان لا يوغل في البلاد ما دامت الفتنة قائمة قاعدة ويؤكد لهُ ان الامير عباساً فعل عين الصواب برحيلهِ الى عرب الفضل ولابدَّ ما ينزل هناك على الرحب والسعة لان الامير عمر اميرهم من اكرم امراء العرب ووسائل الراحة والرفاهة متوفرة لديهِ . قال الكولونل وقد زرتهُ منذ سنتين واقمت عندهُ ثلاثة ايام فرحَّب بي واكرمني غاية الاكرام ووجدت عندهُ كل وسائل الراحة التي يمكن ان توجد خارج المدن ولو كنت اعلم ان الوصول اليهِ سهل لاشرت عليك بالذهاب اليهِ من غير تردُّد اما والاحوال كما ترى فليس من الحكمة ان تخاطر بنفسك لاسيما وان خصومنا قد

ينسبون ذهابك لغاية سياسيَّة ولا يخفى عليَّ انشغال بالك ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ . والصبر مرٌّ ولكن ثمرتهُ حلوة كما يقول المثل الفرنسوي . وما دام الاميرة سلمى واهلها في حمى عرب الفضل فلا خوف عليهم . وبعد شهر او شهرين نرى كيف تتصرف هذه الامور لان دوام الحال من المحال . ولقد اسفت جدًّا لما اصاب هؤُلاء المساكين على ما وصفت لي ولا بدَّ من ان تصل السفينة التي ارسلتهم بها اليوم او غدًا فيجدوا هنا بعض الراحة وكل مساعدة ممكنة

لما قرأ السر هنري هذا الكتاب رأى ان رجوعهُ الى بيروت اجدر بهِ في الاحوال الحاضرة فاستدعى الشيخ الذي رآهُ قبلاً وكان لا يزال باقيًا في صيداء عند اقاربهِ وسألهُ عن عرب الفضل ومنازلهم وعدد رجالهم واوصاف اميرهم فقص عليهِ الشيخ ما يعلمهُ من امرهم وقال انهم بطون كثيرة تنزل جبل عجلون والسهول المجاورة لهُ فتقيم في الجبل صيفًا وفي السهول شتاء وهم نحو ستة الاف بيت . واذا خرج اميرهم الامير عمر الفاعور للغزو خرج معهُ اربعة الآف فارس وقد حاولت الدولة ادخالهم في طاعتها مرارًا فاخفقت لكنهم لا يضمرون العداء لها على ما يظهر بل يكرمون رجالها ويهادون الولاة بالهدايا ويقصدهم التجار ويشترون منهم السمن والصوف والغنم والجمال والخيل اذا لم تكن كريمة وقد يبيعون الفرس الكريم بالف ريال او اكثر ويشترون من التجار الاقمشة المختلفة والتبغ والرز والبن والسكر والطيوب والآنية النحاسية والحلى والاسلحة ويقيم الى جنوبيهم بنو صخر وهم لا يقلون عنهم عددًا وعُدَدًا وقد ذهبت اليهم في تجارة منذ عشر سنوات وكان معي ولداي

ولما نطق بهذه الكلمة اغرورقت عيناهُ بالدموع والقى رأسهُ على عصاهُ وجعل يبكي كالطفل الصغير ثم كفكف دموعهُ وعاد الى الحديث فقال نعم ذهبت مع ولديَّ وكانت الحرب ناشبة بين عرب الفضل وبني صخر لكن العدول من الطرفين اجتمعوا يوم وصولنا ووقعوا شروط الصلح فاستبشر العرب بنا واشتروا كل ما معنا من البضائع واعطونا غنمًا بدلاً منها فرجعنا راكبين على دوابنا ومعنا قطعان كبيرة من الغنم رزق الله على تلك الايام ياليتني متُّ فيها

فسألهُ السر هنري عن حال المعيشة في بيت امير عرب الفضل . فقال الشيخ العرب عرب اينما كانوا وقد ضافنا امير عرب الفضل في بيتهِ فاكلنا وشربنا مع رجالهِ وهو وبعض الامراء يأكلون وحدهم وطعامهم الرقاق والرز المفلفل والخرفان والامير متأنق في طعامهِ فيصطادون لهُ الحجال ويطبخون لهُ احيانًا مآكل تركية لان عندهُ الجواري السود المعتادات على طبخ المآكل التركية وعمل الحلويات وهم يكثرون من اكل الحلوى وعندهم العسل البري يشتارونهُ من الجبل ويكون في شقوق الصخور العالية . وقد اكلت منهُ وهو اطيب من العسل الشبعاوي

فقال لهُ السر هنري وكيف ينامون هل عندهم فرش مثلنا

فقال نعم عندهم فرش كبيرة محشوَّة بالصوف الناعم وكثيرًا ما يزورهم كبار رجال الحكومة وينامون عندهم والهواء هناك طيب منعش فينام الانسان ساعتين كأنهُ نام الليل كلهُ فان كنت عازمًا على الذهاب الى هناك فاذهب ولا تخف فان كثيرين من السياح قد ذهبوا الى هناك وانا ذهبت مع جماعة من الانكليز الى مصر بطريق البر ومررنا على عرب الفضل وعلى كل العربان الذين في الطريق من هنا الى عريش مصر • نعم ان السياح كانوا ينامون في خيامهم ولكن امراء العرب كانوا يدعونهم للاكل عندهم فيجدون ما يسرهم

فاطمأَن بال السر هنري من هذا الحديث وسلَّم امرهُ لله وصرف الشيخ بعد ان ناولهُ صرةً من النقود وقام في اليوم التالي وعاد راجعًا الى بيروت

الفصل الثلاثون

البحث والتحقيق

لم يكد السر هنري يصل الى بيروت حتى وصل اليها فؤَاد باشا الصدر الاعظم جاء ليصلح الحال من اقرب الطرق خوفًا من مداخلة اوربا وقد فُوّض اليهِ ان يفعل ما يرى فعلهُ لازمًا لاطمئنان الخواطر وارجاع الامن الى البلاد فقبض على والي بيروت والقاهُ في السجن وسجن معهُ بعض رجال الحكومة لكنهُ لم يفعل ذلك الَّا بعد ان جاءهُ كتاب قوي اللهجة من اميرال الاسطول الانكليزي الذي كان راسيًا تجاه بيروت وصف لهُ فيهِ الفظائع التي جرت وابان لهُ ان الامم الاوربيَّة لا تستطيع السكوت عنها وانهُ اذا لم تبادر الدولة الى الاقتصاص من المرتكبين فالدول الاوربية متفقة على ان تتولَّى هي بنفسها الاقتصاص منهم وارجاع الامن الى نصابهِ • واشار في هذا الكتاب الى ان اللوم الاكبر واقع على كبار رجال الحكومة الذين امروا بهذه الفظائع وتولَّوا اجراءها

فوقع هذا الكتاب وقعًا شديدًا في نفس الوزير وصعد الى دمشق وقبض على واليها وامر بقتلهِ وقتل معهُ المأمور الذي كان في حاصبيًا وثلاثة من ضباطهِ ومئة وسبعة عشر جنديًا ونحو خمسين او ستين من الاهالي • وكان الذين قُتلوا من دمشق وضواحيها نحو ستة آلاف نفس

وسُئِل احد وجوه دمشق ليكتب محضرًا يصف فيهِ ما جرى لهُ وكان قد نجا من المذبحة فكتب ما خلاصتهُ

لما فشت الفتنة في لبنان والبلاد المجاورة لهُ اضطربت الافكار في دمشق حتى اذا ورد الخبر بالاستيلاء على زحلة كان فرح عظيم وزُيّنت الاسواق بالانوار فزاد الخوف وهرب كثيرون الى دمشق من البلاد المجاورة لها فامتلأت بهم الكنائس والازقّة. وكانت الآمال معقودة بان الامير عبد القادر الجزائري يستطيع منع الفتنة وقد بذل جهدهُ في هذا السبيل فاطمأنت الخواطر وعاد الناس الى اعمالهم في السابع والثامن من شهر يوليو. وفي التاسع منهُ استبيحت الارواح ودخل الاشقياء البيوت والاديرة والكنائس وقتلوا من فيها حتى العاجز والاعمى من السكان ومن اللاجئين اليهم بل قتلوا المجذومين الذين يقصدون دمشق للتداوي فيها وحرقوا مكانهم

وكما فعل هؤلاء الاشقياء المنكرات فعل الفضلاء الصالحات فالامير عبد القادر والشريف اسعد حمزة والشيخ سليم العطار والشيخ عمر العابد وامثالهم طافوا احياء المدينة برجالهم ينقذون الناس ويمنعون الاعتداء عليهم فخمدت الفتنة في اليوم الثاني ثم اشتدّت في اليوم الثالث ودامت الشدّة الى ان وصل الى دمشق والٍ جديد وأمّن من بقي حيًّا

وانا كنت نائمًا في بيتي فايقظوني صباح الاثنين في ٩ يوليو واخبروني ان الفتنة فشت في المدينة فخرجت الى باب داري لاتحقق الخبر فرأيت الناس يتراكضون فاقفلت بابي منتظرًا قدوم قواس من قنصلاتو الانكليز لاني تابع لها وبعد قليل حضر قوّاس فارسلتهُ الى الامير عبد القادر اطلب منهُ رجالاً يوصلونني اليهِ فرجع القوّاس وحدهُ بعد برهة قائلاً ان الامير اعطاهُ ستة رجال ولكن لم يمكنهم الوصول اليَّ لشدّة الازدحام ولانهم غير مسلحين. فانتظرت آملاً ان يتسلحوا ويعودوا اليَّ وبينما انا جالس في انتظارهم هجم جماعة على باب داري وكسروهُ بالبلطات ودخلوا الدار الخارجيّة وجعلوا يطلقون الرصاص على غرف البيت فخرجت من باب صغير خارجي ومعي ابني وعمرهُ تسع سنوات وابنتي وعمرها ست سنوات والقوّاس واخذت معي مبلغًا من النقود لاستعين بهِ بدل السلاح وكنت كلما التقيت بجمهور من الثائرين ورأيتهم هاجمين عليَّ ارميهم بقبضة من النقود فيلتهون بها عني الى ان وصلت الى زقاق ضيق ظننت اني لا اجد فيهِ احدًا فاصل منهُ الى دار الامير عبد القادر ولكن خاب ظني وهجم عليَّ رجالهُ ليقتلوني وضرب واحد منهم ابنتي ببلطة على رأسها فاسال دمها واطلق آخر عليَّ الرصاص مرتين فاخطأني وبادرني واحد ببلطة على رأسي فشق جبيني وأُصبت بضربات كثيرة في جنبي الايمن ولم يعد الذين حولي يستطيعون اطلاق الرصاص عليَّ لئلاَّ يصيب بعضهم بعضًا فقلت لهم اني ذاهب لاقابل حضرة البك محافظ المحلة في شغل لهُ فيهِ

مصلحة كبيرة . فقال بعضهم هلمَّ نأخذهُ الى البك فاخذوني اليهِ بعد ما سلبوا مني ساعتي وكل ما معي من النقود . وبينما نحن سائرون لحقنا درويش بعمامة خضراء وشعر مسدول وبيدهِ عصا طويلة في رأسها منجل كبيرة وكان يمدها من فوق رؤوس الرجال ليحز بها رأسي . حتى اذا وصلتُ الى بيت المحافظ اخذني بيدهِ وصرف الناس عني ووضعني في بيت احد اتباعهِ مع القواس وكان قد صار العصر وليس في البيت الاَّ امرأة عجوز والتفتُّ فلم ارَ ولديَّ ولا كنت اعلم ماذا جرى لزوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها وكنت قد فارقتهم في البيت اما ولداي الكبيران فكان اولهما عند قنصل الانكليز والثاني في مدرسة الروم البطريركية ولم اكن أعلم ايضاً ماذا جرى لهما. واصعدوني الى غرفة عالية (قصر) تطلُّ على الشارع فرأيت منها المحافظ آتياً الى بيتهِ باناس كثيرين وعيالهم فاستغربت كيف يحمي هؤلاء في بيتهِ ولا يحميني انا فيهِ بل يضعني في بيت احد اتباعهِ وترجح عندي انهُ يقصد الايقاع بي ليلاً ولا يريد ان يقتلني في بيتهِ امام الجمهور فاخبرت القوَّاس بذلك وقلت لهُ الاجدر بك ان تنجو بنفسك . فقال وانت ماذا تفعل فقلت لهُ اني انتظر حتى يخيم الليل وادخل بيت المحافظ فلا اظن انهُ يتجاسر على قتلي في بيتهِ وبيتهُ مملوءٌ بالناس . فقال هذا هو الصواب ولكني لا افارقك الاَّ بعد ان تصل الى بيت المحافظ وحينئذٍ اذهب واخبر الامير عبد القادر. فاستحسنت رأيهُ وانتظرنا الى ان خيم الظلام وحينئذٍ رأينا سبعة رجال جاؤُوا وقرعوا الباب بعنف ففتحت لهم العجوز فسألوها هل فلان هنا فقالت نعم هو في القصر (الغرفة العليا) . فقلتُ دنت الساعة واشرت الى القوَّاس لينجو بنفسهِ ويخبر عما حلَّ بي . وبينما انا اكلمهُ بذلك صرخ واحد من الرجال قائلاً انزل يا فلان فانا صديقك السيد محمد السوطري جئت برجال الامير عبد القادر لكي انقذك فلا تخشَ بأساً فنزلت اليهِ والبسوني برنساً كالمغاربة ومشيت بينهم وسرنا ندوس على القتلى في الازقَّة حتى وصلنا الى بيت الامير وكان مزدحماً باللاجئين اليهِ لان الامير بقي ثمانية ايام متسلحاً يطوف في الشوارع وينقذ الناس من القتل . ولما رأى السيد محمد السوطري ان بيت الامير مزدحم الى هذا الحد طلب منهُ ان يسمح لهُ باخذي الى بيتهِ وهو قريب من بيت الامير فسمح لهُ ومضى بي الى بيتهِ وسألني عن عائلتي فقلت لهُ ان ابني الكبير في قنصلاتو الانكليز والثاني في مدرسة الروم وكان معي ولدان ففرَّقوا بيني وبينهما ولا اعلم ماذا جرى لهما وقد تركت زوجتي وطفلها في البيت. فقال اما ابنك الكبير فلا خوف عليهِ لانهُ لم يدنُ احد من قنصلاتو الانكليز واما الباقون فانا امضي الآن افتش عنهم وهم لا يعرفونني فقد يمتنعون عن المجيء معي فدع القواس يذهب برفقتي لاطمئنانهم

ومضى هو والقواس فوجدوا زوجتي واولادي كلهم ما عدا الثاني الذي كان في المدرسة وسألت السيد محمدًا كيف عرف اني في البيت الذي كنت فيهِ فقال انهُ لما بلغهُ ما حصل بباب البريد ظن ان الامر طفيف وان الحكومة تتلافاهُ حالاً فاقفلوا الباب الواصل الى حارة النصارى لمنع اولاد محلتهم من الاشتراك مع الثائرين فاتى جمهور من اكراد الصالحية وخلعوا الباب فخاف حينئذٍ على بيتي واتاهُ واحد فاخبرهُ بما اصابني وبوصولي الى بيت محافظ الحارة فتوجه اليهِ وطلبني منهُ فانكرني فرجع واخبر الامير عبد القادر فاعطاهُ ستة من المغاربة المتسلحين ليطلبوني من المحافظ فذهب معهم وطلبوني منهُ وشددوا عليهِ فاضطرَّ ان يرسل ابن اخيهِ معهم ليدلهم على مكاني

وفي تلك الليلة زارني المستر برانت قنصل الانكليز وطمنني عن ولدي الاكبر. اما ولدي الثاني فمضي ثلاثة ايام ولم اقف لهُ على خبر ولا وجد بين القتلى المطروحة في الازقة

ثم اتى رجل تركي الى قنصل الانكليز واخبرهُ انهُ متزوج ابنة علي آغا كاتب الخزينة (وكنت قد اسكنت المستر روبنصن المرسل الانكليزي في بيتهِ) فلقيت زوجتهُ ابني المفقود واخفتهُ في بيتها. فللحال ارسل القنصل رجالاً من المغاربة فاحضروهُ اليهِ

وبقيت شهرًا في بيت السيد محمد السوطري حتى شفيت من جراحي ثم دعاني الشريف محمود افندي حمزة الى دارهِ فانتقلت اليها لان الاشقياء خرَّبوا بيتي ونزعوا خشبهُ وبلاطهُ وبقيت في بيت محمود افندي الى ان حضر فؤاد باشا

وعادني السيد محمد الامين الشاعر المشهور مفتي بلاد بشارة وقال لي ماذا اصابكم فقلت الذي تراهُ. فقال سفكت دماؤكم وسبيت نساؤكم وهدمت بيوتكم ولكن عليكم ان تتأسوا بمصاب غيركم فان اهالي دمشق الذين فعلوا بكم هذه الفعال قتلوا اولاد نبيهم وسبوا نساءهم وهدموا الكعبة المشرَّفة

الفصل الحادي والثلاثون

مؤتمر باريس

ما هذا الحر الذي يزهق النفوس حقًّا ان باريس لا تطاق في شهر اغسطس

المتكلم مندوب روسيا والمخاطب مندوب انكلترا

فقال مندوب انكلترا — والحرُّ عندنا شديد ايضًا على خلاف المعتاد وقد بلغت درجة الحرارة التسعين امس

مندوب روسيا — التسعين ما هذا وكيف تحسبون درجات الحرارة

مندوب انكلترا — نسيت انكم لا تحسبون الدرجات مثلنا · ان التسعين بميزان فارنهيت تقابل نحو ٣٢ بميزان سنتغراد ولكنني اشعر برطوبة هنا لا نشعر بها عندنا وعلى كل حال الحر شديد هنا ولا اظنهُ شديدًا في بطرس برج

كلاً ولكنهُ يشتد احيانًا كثيرة في فصل الصيف · الظاهر ان فرنسا تريد ان تفتح المسألة الشرقية من جديد

مندوب انكلترا — هل انتم من رأيها

مندوب روسيا — انتم تعلمون انهُ لا يمكن ان نكون من رأيها · ومولاي الامبراطور مستاءٌ جدًا مما حدث في سورية ولكنهُ يقول انهُ ان كان الحق في المداخلة لدولة واحدة فذلك الحق هو لروسيا لا لغيرها وقد وصلت بارجة من بوارجنا الى مدينة بيروت في الوقت اللازم فمنعت حدوث مذبحة فيها

مندوب انكلترا — نعم بلغنا ذلك ومولاتي الملكة شكرت لسفيركم لما بلغها الخبر لانها مستاءة جدًا من هذه الحوادث وانتم مصيبون في قولكم انهُ لا يحسن بدولة واحدة ان تنفرد بالمداخلة اي بارسال جنودها الى تلك البلاد ولكن هل ترون من الحكمة ان ترسل كل دولة من الدول المتحابة فرقة من جنودها

ففكَّر المندوب الروسي هنيهة ونظر في وجه المندوب الانكليزي لعلهُ يقرأُ فيهِ ما يضمر ثم قال لهُ كلاً ولكن لماذا نفضل فرنسا على غيرها اذا فضلنا ان تنفرد دولة واحدة بارسال جنودها

فقال المندوب الانكليزي نحن لا فرق عندنا فاذا اردتم فنحن نرسل جنودنا او انتم ترسلون جنودكم او ترسل جنود نمسوية

فلم يجب المندوب الروسي على هذا الكلام بل بقي صامتًا يفكّر في ارسال الجنود الروسية اذا امكن ولكنهُ يحسب ذلك ضربًا من المحال

وتكامل الاعضاء حينئذٍ ودارت المذاكرة بعد ان تليت عليهم تقارير القناصل كلهم وكان حاضرًا في ذلك المؤتمر معتمد بريطانيا ومعتمد روسيا ومعتمد تركيا ومعتمد فرنسا ومعتمد النمسا ومعتمد بروسيا ولم يسع مندوب تركيا ان ينفي شيئًا مما ذكرهُ القناصل

وبعد بحث طويل اقرَّت الاكثرية على انهُ لا بدَّ من ارسال جنود اوربية لارجاع الامن الى البلاد وتبرَّعت فرنسا بارسال ستة آلاف من جنودها وكانوا مستعدين للسفر عند اول اشارة فشكرها المندوبون على هذه المروءة · وقال مندوب انكلترا يجب ان تقرر ايضًا

ان هذه الجنود ذاهبة باسم اوربا كلها لا باسم فرنسا وحدها. فبُهت المندوب الروسي والبروسي من هذه السياسة الرشيدة وقالا نعم هذا هو الصواب ووافقهما المندوب النمسوي فلم يسع المندوب الفرنسوي الاَّ القبول بذلك وقال هذا هو غرض مولاي الامبراطور فان الذي دفعهُ الى ارسال جنوده انما هو الشفقة والحنان وليس لهُ اقل مأرب سياسي فباسم اوربا كلها نرسل جنودنا الى سورية

فقال المندوب الانكليزي والمفهوم ايضاً ان هذه الجنود ذاهبة لغرض مخصوص وهو توطيد الامن فمتى توطد تعود مشكورة كما ذهبت مشكورة. فابرقت اسرَّة مندوب الدولة العلية حينئذٍ وكان قد اوجس شرًّا لما طلب مندوب انكلترا ان يكون ارسال الجنود باسم اوربا كلها قائلاً في نفسهِ ان هذا يدل على اتفاق اوربا كلها علينا فلما سمع القول الثاني وهو ان الجنود تخرج من سورية حالما يتوطد الامن فيها سُرّي عنهُ ووافق على ذلك ووافق سائر المندوبين ولم يقل مندوب فرنسا شيئًا لان كلمة توطيد الامن واسعة المعنى تحتمل التعليل الكثير والمطل الطويل

وتذاكر اعضاء المؤتمر في امور شتَّى تتعلق بهذا الموضوع وعادوا الى معاهدة باريس التي عقدت بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦ والحوا على مندوب الباب العالي بوجوب العمل بها من حيث المساواة بين كل اصناف الرعية فقال لهم ان الباب العالي قد بذل اقصى جهدهِ للقيام بتلك المعاهدة وسيبقى باذلاً اقصى الجهد للقيام بها

وختم المؤتمر وكان ابتداء اجتماعهِ في الثالث من اغسطس سنة ١٨٦٠ ووصلت الجنود الفرنسويَّة الى بيروت في السادس عشر منهُ اي بعد وصول فؤاد باشا بشهر كامل وعسكرت في حرش بيروت نصبت خيامها هناك وانتظرت الاوامر. وحالما وصلت سادت السكينة في كل مكان واطمأنت القلوب وراجت الاعمال لاسيما وان اموال المحسنين من اوربا واميركا كانت تتدفق لاعانة المنكوبين. وجعل كثيرون منهم يتعيشون من بيع الاطعمة للجنود. وتصرَّف الجنود تصرُّف الكرام فكانوا يدفعون كل ما يطلب منهم ويعطون الباعة شيئًا من طعامهم حتى ان الفقراء الذين كانوا لا يأكلون الاَّ الخبز الحاف ولا تصل يدهم الى شيء من الادام صاروا يأكلون اللحم الغريض مما يعطيهم اياهُ الجنود واكتسى كثيرون من الثياب القديمة التي اعطوهم اياها وظهر كأن البلاد انتعشت بعد ما خيم عليها ظل الموت

الفصل الثاني والثلاثون

الخيبة والفشل

رجع الامير عمر الى مضاربهِ كاسف البال يكاد يشتعل غيظاً وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب فترجَّل عن جوادهِ واجتمع حولهُ شيوخ قبيلتهِ وكان قد اصيب بجرح في ذراعهِ اليسرى فاتى المتطبب وغسل الجرح بالماء وحمي اداة من الحديد وكواهُ بها كأنهُ يميت ميكروبات الفساد ورش على الجرح رماد خرقة محروقة وربطهُ والامير رابط الجاش لا يتألم ولا يتكلم . ثم سأل الذين حولهُ عن عدد القتلى فقالوا لهُ زهاء مئتين وقد ابلينا بلاءً حسناً فقتلنا اكثر من ذلك . فامر ان يرسل من يهتم بحمل الجرحى ودفن القتلى وان يستريح الرجال ساعتين من الزمان ثم ينهضوا ويلحقوا بالعدو حيث يبيت تلك الليلة

فقال لهُ رجل شيخ من رجالهِ ليس تبييتهم من صواب الرأي لان الليل حالك الظلام وقد نصيب احدًا من اولاد الامير عباس . والرأي عندي ان نرسل نستنجد عرب عنزه فانهم استنجدونا مرتين في حياة المرحوم والدك فانجدناهم ونضرب موعداً نهجم فيهِ على بني صخر من جهتين مختلفتين فإما ان يثوبوا الى رشدهم ويردوا الأسرى ويصالحونا واما ان نخرب ديارهم ونمحو آثارهم

فقال رجل آخر وهذا ليس من صواب الرأي لان عرب عنزه ارتحلوا الى جهات الجزيرة او هم على اهبة الارتحال ورأيي ان نرسل الى بني صخر نعرض عليهم افتداء الاسرى ثم نترقب الفرص للاخذ بالثار . وقال ثالث ان الامير حساناً ان قبل بافتداء اسرانا لا يقبل بتسليمنا الاميرة هند واولادها ولا بدَّ ما يكون قد كتب كتابهُ الآن على الاميرة سلمى على جاري عادتهِ

ولما سمع الامير عمر هذا الكلام صار الضياء في عينيهِ ظلاماً فنهض واقفاً وقال من منكم اخو اختهِ يسير ورائي ويحمي ظهري وعليَّ انا وحدي ببني صخر كلهم

ولكنهُ كان خائر القوى لكثرة ما نزف من دمهِ فارتجفت ركبتاهُ وكاد يغمى عليهِ فقال لهُ الطبيب تناول الآن شيئاً من الطعام حتى تسترد قوتك وبعد ذلك تنظر في الامر . وشعر هو بخوران قوتهِ فاتكأ على عمود الخيمة واطرق وهو يكاد يتميز غيظاً من نفسهِ ومن سوء طالعهِ لانهُ لو لم يعثر جوادهُ لردَّ الاسرى وقهر الاعداء ولولا اشعة الشمس التي اعمت ابصار رجالهِ لما دارت الدائرة عليهم فكأنَّ التقادير كلها كانت معاندة لهُ . فالتفت الى الذين حولهُ وكادت دموع الغيظ تنفجر من عينيهِ وقال لهم لا بدَّ لنا من الراحة على كل حال فعلقوا خيلكم واستريحوا قليلاً

ثم امر خدمهُ ان يقدموا لهم ما حضر من الطعام ودخل خباءهُ وانطرح على بساط وحاول جمع افكارهِ المتشتتة فلم يستطع وشعر كان رأْسهُ يكاد يشتعل فنزع كوفيتهُ وعقالهُ واتكأَ على مسند وجعل يغمض عينيهِ ليزول من امامهِ شبح امهِ وشبح الاميرة هند واولادها فزادت تلك الاشباح تجسماً وكأنهُ كان يسمع اصواتهم ترنّ في اذنيهِ وتناديهِ ليسرع الى نجاتهم. وخُيِّل لهُ انهُ سمع الاميرة سلمى تناديهِ وتقول لهُ نزلنا عليك ضيوفًا لتسلمنا الى هذا الوغد الزنيم ما كذا تفعل العرب الكرام. وسمع الامير حسَّانًا يعرض عليها الزواج بهِ ويهددها بقتل اخويها ان ابت. فارتعدت فرائصهُ وحاول النهوض ولكنهُ لم يستطع لان الحمى كانت قد تمكنت منهُ وجعلت الاخيلة تتراءى امام عينيهِ وخُيِّل لهُ انهُ عاد الى ميدان القتال فجعل يخي رجالهُ ويحرضهم على الهجوم. وكان صوتهُ يرتفع احيانًا حتى يسمعهُ فيستيقظ وفي اقل من لحظة يعاودهُ الهجران

وسمع خدمهُ هذيانهُ فخافوا ونادوا الطبيب فدخل وجسّ نبضهُ وغلى بعض الاعشاب وسقاهُ غلايتها ونزع جزمتهُ من رجليهِ وغطاهُ فعرق عرقًا غزيرًا ثم نهض وخلع ثيابهُ وشرب قليلاً من اللبن فانتعشت قواهُ ولكنهُ لم يستطع ان يصرف عن ذهنهِ التفكير بامهِ والاميرة هند واولادها لا لانهُ كان يخشى عليهم شرًّا لان العرب لا يسيئون الى اسراهم ولا سيما اذا كانوا من كرام القوم بل يحتفظون بهم ليأْخذوا فكاكهم ولكن لان الكلام الذي سمعهُ عن الامير حسَّان كان اوقع في نفسهِ من ضرب الحسام فجعل يضرب اخماسًا لاسداس ويوازن بين الاساليب التي يمكن ان يسترد الاسرى بها ويقهر عدوهُ من غير ان يقع بهم ضرر فلم يرَ اسلم عاقبة من افتكاكهم ولو بكل ما يمتلكهُ. وقال في نفسهِ ان حسانًا وان كان زير نساءٍ الَّا انهُ يفضل المال على كل شيءٍ فان انا اعطيتهُ مئة جمل او مئتي جمل او خمس مئة جمل فعل ما اريد فاشتري شرفي الآن بالمال القليل ومتى انفرجت هذه الازمة يدبرها الله. ثم استدعى رجالهُ وقال لهم ما قولكم لو عرضنا الفداء على الامير حسان واجزلنا لهُ العطاء. فاجمعوا على انهُ ممن يشترى بالمال ولكنهم خافوا ان يصرَّ على بقاء الاميرة هند واولادها عندهُ إما رغبةً في الاميرة سلمى واما طمعًا بان بني شهاب يفتدونها بالاموال الطائلة

وبينما هم في الحديث دخلت ام يوسف وهي تصيح وتقول اين شهامة العرب يا امير عمر اتترك ستي واولادها في السبي ارسلني الى بيروت حتى خبّر قنصل الانكليز فان الست سلمى مخطوبة لامير انكليزي واذا عرف ما اصابها اتاكم بالف عسكري انكليزي

فكان لكلامها وقع عظيم في نفوسهم فاجلسوها وسكنوا روعها وسأَلوها عن قصة الامير

الانكليزي فأكدت لهم ان في دار قنصل الانكليز في بيروت اميرًا انكليزيًا من اولاد عم ملكة الانكليز وهو خطيب الاميرة سلمى وقد سافر ابوها بها على غير علمهِ وانهُ لا بد وان يكون آتيًا الآن بالعساكر للتفتيش عنها . فطيبوا خاطرها وجعلوا يتداولون في ايصال هذا الخبر الى الامير حسان

اما الامير عمر فصمت ولم يعد يتكلم لانهُ رأى انهُ ان كان ذلك ينجيهِ من خصم يكرههُ هو وتكرههُ الاميرة سلمى ايضًا فهو يوقعهُ في خصم آخر تحبهُ الاميرة سلمى ولا يمكن نجاتها منهُ فرأى ان الآمال التي احياها في فؤادهِ اماني فارغة واضغاث احلام فلم يعرف كيف يتقي النبال . فشلٌ وخذلان واسر وذل . ثم هو مضطر ان يحمل العار لينقذ فتاةً تكون لغيرهِ ولا يعود يراها في حياتهِ . فوجم ولم يعد يتكلم وظن رجالهُ انهُ كان يفكر في طريقة لانقاذ الاسرى من غير فكاك فصمتوا هم ايضًا ثم نظروا اليهِ يستوضحونهُ رأيهُ فقال وهو لا يدري ما يقول ارسلوا اعرضوا عليهِ الفكاك وخذوا من مالي خمس مئة جمل او اكثر حسب دواعي الحال واخبروهُ ان الاميرة سلمى مخطوبة لامير انكليزي وانهُ لا بد وان يكون آتيًا الآن بعساكر الانكليز ومدافعهم وهو يعلم ما حلَّ بهِ وبرجالهِ يوم خربوا عكاء . وان فسَّح الله لي في الاجل اخذت ثاري بيدي والاَّ تركت ثاري لكم لتأخذوهُ بعدي وقد عاودتني الحمى الآن ولا ادري ماذا اقول. ثم اتكأَ على ذراعهِ واسند رأسهُ الى كتفهِ. وقام رجالهُ وتشاوروا ساعة من الزمان ثم ارسلوا ثلاثة منهم ومعهم رايات بيضاء ليعرضوا الفكاك على الامير حسان ويخبروهُ بقصة الامير الانكليزي

وكان قد وصل الى القبيلة شاعر دمشقي فنظم ابياتًا في واقعة الحال وانشدها الامير عمر يعزيهِ بها عما حلَّ بهِ ومنها قولهُ

تعزَّ فان الصبر بالحر اجملُ ... وليس على ريب الزمان معوَّلُ
فلو كان يغني ان يُرى المرء جازعًا ... لحادثة او كان يغني التذللُ
اذًا فالتعزي عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر اولى واجملُ
فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامهُ ... وما لامرءٍ عمَّا قضى الله مرحلُ
فان تكن الايام فينا تبدلت ... بؤوسًا بنعمى والحوادث تفعلُ
فما لينت منا قناةً صليبة ... ولا ذللتنا للذي ليس يجملُ
ولكن رحلناها نفوسًا كريمة ... تُحمَّل ما لا تستطيع فتحملُ

فشكرهُ الامير وامر لهُ بصلة سنية وفرس كريم

الفصل الثالث والثلاثون

البطر بعد الظفر

عاد الامير حسَّان ورجالهُ وهم لا يصدقون بما نالوهُ من الفوز المبين فان غاية ما رجوهُ ان يأخذوا بثار رجالهم من عرب الفضل ويكشفوا عنهم العار ويستردوا ما نُهب من قافلتهم ففازوا باكثر مما أَملوهُ قتلوا مئتي رجل او اكثر واسروا ام الامير عمر وضيوفهُ واستاقوا قطيعاً كبيرًا من الماشية وجدوهُ في طريقهم وانتظروا الفكاك الكبير للاسرى فواصلوا السير بالسري الى ان ابعدوا مرحلة كبيرة عن منازل عرب الفضل ونزلوا في آخر الليل واستراحوا قايلاً ثم قاموا في الصباح وساروا وئيدًا ثلاثة ايام الى ان وصلوا الى محلتهم في البلقاء والامير حسان لا يصدق ما يرى بل يحسب انهُ في حلم وكانت اخبارهم قد بلغت من بقي في الحلّة فخرجت النساء للقائهم بالدفوف والمزاهر والاناشيد الحماسية . وذبحت الذبائح في اليوم التالي واولمت الولائم وادبرت الخمور وأَنزل الامير حسان الاميرة هند والاميرة سلمى وام الامير عمر في مضرب كبير قرب مضرب زوجتهِ واقام جاريتين على خدمتهنَّ وانزل ولدي الاميرة هند في مضرب آخر . وكان في بني صخر شاعر من متاولة جبل عامل فنظم لهُ قصيدة يمدحهُ بها ويذكر مناقبهُ الحسان وبلاءهُ بالاعداء ويحذرهُ من التمادي في عدائهم ومما قالهُ فيها

تجافَ عن الاعداء بقيًا فربما كُفيتَ ولم تجرَح بناب ولا ظفرِ
ولا تبرِ منهم كل عود تخافهُ فان الاعادي ينبتون مع الدهرِ
اذا انت افنيتَ النبيه من العدى رمتك الليالي عن يد الخامل الذكرِ
وهبك اتَّقيت السهم من حيث تتقي فكيف بمن يرميك من حيث لا تدري

ففطن الامير حسان الى مرادهِ وظن بهِ السوء فلم يصلهُ بشيءٍ بل امر احد اعوانهِ ان يأخذهُ الى خيمتهِ ويحتفظ بهِ الى ان ينظر في امرهِ . وشرب من معتقة الدنان الى ان امتلأ رأسهُ ببخارها فذهبت بعقلهِ وقام قاصدًا مضرب الاميرة هند فالتقت بهِ زوجتهُ ولم يخفَ عليها امرهُ فقالت لهُ الى اين يا سيءَ الفعال اتريد ان تتركنا عارًا بين قبائل العرب . وامسكت بهِ وردتهُ من حيث اتى وكان يخشى صولتها وقد طلَّق نساءً كثيرات قبلها اما هي فملكتهُ وكان يجلس امامها كالعبد الذليل فعاد الى مضربهِ سكران بخمرتين خمرة الظفر وخمرة العنب فخيِّل لهُ انهُ راكب على جوادهِ والفرسان تتسابق بين يديهِ فجعل يضرب يمنةً ويسرةً كأَنهُ يجندل الاقران ويصيح مرةً بعد اخرى ثم يضحك حتى يستلقي على ظهرهِ ويقوم ويسير مهرولاً

طالبًا الخروج من المضرب فيمسك بهِ عبدهُ ويردهُ الى مكانهِ واذا اكثر من الجلبة والعربدة اتت زوجتهُ اليهِ وتهددتهُ فيضحك لها اولاً ويحاول القبض عليها ثم يقول لها انا الفارس المغوار انا قاهر عرب الفضل هه هه من انتِ حتى تقفي في طريقي تعالي يا حبيبتي هه هه هه ألا تأتين اذهبي عني يا لكاع اغربي من وجهي لا بدَّ ما اطلقك وآخذ الاميرة هند لا لا بل الاميرة سلمى هه هه هه اين الاميرة سلمى اذهب يا لعين وائتني بها اذهب والاَّ قطعت رأسك بهذا السيف . ثم يلوح بيدهِ كمن يستلُّ سيفًا من غمدهِ

ولم يهتم الخدم بسكرهِ لانهم كانوا معتادين ان يروهُ سكران اما زوجتهُ فخافت ان يسمع احد من الاميرات الاسيرات صوتهُ وحاولت وضعهُ في فراشهِ فدفعها عنهُ واراد الخروج لكن السكر كان قد اضعفهُ فتغلبت عليهِ هي والعبد واجلساهُ على فراشهِ ولم يعد يستطيع القيام لكنهُ بقي يعربد ويهذي ساعةً من الزمان ثم جاشت نفسهُ فاستفرغ بعض ما في معدتهِ وانطرح في فراشهِ كالميت الى ان اصبح الصباح

الفصل الرابع والثلاثون

التزلف والنفور

الاميرة هند وابنتها وولداها في خيمة سوداء من الشعر مرفوعة العماد مبطَّنة بشقق الحرير الدمشقي المخطط بالاصفر والازرق وهي جالسة على اريكة متكئة على مسند عابسة الوجه مقطبة الجبين والسيكارة في يدها والامير حسَّان واقف امامها يكلمها بصوت منخفض ويسترق اللحظ الى الاميرة سلمى وهي جالسة الى جانب امها مستندة الى مسند آخر لكنها صامتة لا تتكلم وحاول الامير حسَّان جهدهُ لكي يصلح منطقهُ حتى يكون بلغة مفهومة لدى الاميرة هند فقال لقد ابنت لحضرتك اننا لم نقصدك انتِ واولادك بسوء على الاطلاق ولم يكن لنا غرض ألاَّ عرب الفضل لاخذ الثار وكشف العار وانتم آل شهاب من العرب الكرام الذين يعرفون عادات القبائل ولا يرضون لنا بمذلة اذا امكننا ان نرفعها عنا

الاميرة هند — انا لا اجادلك في ذلك ولا اقول لك ان لا تأخذ بثارك من اعدائك ولكن كان في امكانك ان تخبرنا حتى نرحل عن عرب الفضل او ان تخبر رجالك لكي لا يمسونا بمكروه ولا يحملوا اليك بنات شهاب سبايا كما حملونا ما هذا ظني بك يا امير ولا تستطيع ان تعتذر بانك لم تكن تعلم اننا نازلون على الامير عمر لانني ارى انكم تعلمون كل شيء في هذه البلاد

فقال لا انكر عليك انني كنت عالمًا بنزولكم على عرب الفضل وكنت احسدهم على هذا

الشرف ولكن لم يخطر ببالي اننا نفوز عليهم هذا الفوز المبين وغاية ما كنت اتوقعهُ ان نأخذ بثارنا منهم ونستاق بعض ماشيتهم غنيمة اما الوصول الى مضاربهم وسبي من فيها فلم تكن لنطمع بهِ والظاهر ان وجودك في مضاربهم غلّ ايديهم وافسد تدابيرهم ولولا ذلك لناوشونا الى ان نبعد عن حماهم · واميرهم بطل مجرَّب ولكن خانتهُ الاقدار هذه النوبة لانهُ ظلمنا هو وقومهُ والله لا ينصر القوم الظالمين

الاميرة هند — والآن على اي شيء عوّلت

الامير حسان — على الذي تريدينهُ فان شئتِ ان تبقوا عندنا فعلى الرحب والسعة ونحن ندافع عنكِ وعن اولادك بسيوفنا ورماحنا ونبذل جهدنا في مرضاتكم ومسرتكم وان شئتم ان نرحل بكم الى مكان آخر رحلنا واينما ذهبنا فكلنا في خدمتك وخدمة اولادك وغاية ما نتمناهُ رضاؤُك ورضاء الاميرة سلمى . قال ذلك ونظر اليها

وكان واقفاً ويدهُ اليسرى على مقبض سيفهِ ويدهُ اليمنى مطلقة يشير بها حينما يتكلم وهو كهل في نحو الاربعين من العمر قصير القامة اسود الشعر اسمر الوجه برّاق العينين خفيف اللحية عصبي المزاج

فقالت الاميرة هند لماذا تكلمنا وانت واقف مع اننا اسراك ولماذا لا تجلس وتستريح

فرفع يدهُ الى رأسهِ وقال العفو يامولاتي بل انا اسيركم ولكن ما دمتِ قد امرتني بالجلوس فانا اجلس اطاعة للامر

ثم جلس مكانهُ متربعاً ووضع سيفهُ على حضنهِ ونادى خادمهُ فاتاهُ بشبق قصير فمهُ من الكهرباء وماسورتهُ من الكرز فمصّ منهُ مصتين واتاهم خادم آخر بالقهوة فقدمها للاميرة هند اولاً ثم للاميرة سلمى واخويها فتناولتها الاميرة هند منهُ واما الاميرة سلمى فاعتذرت عن شربها وكذلك اعتذر اخواها

ولما شربت الاميرة هند بعض فنجانها قالت لهُ يا حبذا لو كنت توصلنا الى الشام (دمشق)

فنظر اليها مستغربًا وقال الم يبلغكم ما حدث في الشام فقد حدث فيها اكثر مما حدث في حاصبيا

فلما سمعت هذا الكلام صرخت قائلة ماذا تقول اقتلوا نصارى الشام ايضاً. وارتجفت يدها ووقع الفنجان منها وضربت بيدها على المسند وقالت قلت لاحمد ان هذا العمل كلهُ بدسيسة والغرض منهُ قتل كل النصارى فلم يصدقني

ثم القت رأسها على يدها وقالت الله يجازيهم الله يجازي الذي كان السبب ما هذه

المصيبة ما هذه البليَّة اين اهلي الآن اين اخوتي واخواتي واولاد عمي واولاد خالي

وقالت لهُ الاميرة سلمى هل انتم على يقين من صحة هذا الخبر

فقال نعم وقد سمعتهُ من اكثر من واحد من الذين كانوا هناك وقد ارسل الينا والي دمشق لنزحف مع دروز حوران على جبل لبنان فلم اشأ ان افعل ذلك لان الدروز اعداؤنا ولا اركن اليهم. ولم افهم ما هو غرض الوالي من ذلك ولا كيف استحلَّ قتل الآمنين في دار الولاية نفسها. ونحن نشكر الله لاننا في هذا القفر مستغنون عن الشام وعن النزول اليها. وبلادنا الآن قاحلة لاننا في فصل الخريف ولكن متى جاء الربيع تجدينها من جنان الخلد وسترينها في ذلك الفصل ان شاء الله

قال ذلك موجهاً كلامهُ الى الاميرة سلمى

فقالت لهُ انبقى هنا الى الربيع لا سمح الله . ثم كيف تقيمون في هذه الخيام وقت المطر

فقال ان المطر لا يخرق الخيام ولا سيما اذا كانت محكمة النسج مثل هذه الخيمة . وفصل الشتاء عندنا من ابدع الفصول وسترينهُ ان شاء الله وقد سمعت انكِ تحبين ركوب الخيل فخيلي كلها تحت امركِ وامر اخويكِ وعندي مهرة بيضاء تتجلى كالعروس

ثم صفَّق بيديهِ فدخل عبد اسود فقال لهُ هات غزالة ياشيبوب لتراها الاميرة سلمى. فذهب وبعد دقائق قليلة عاد يقود مهرةً كالريم وقال لها هذه المهرة لا يعلو ظهرها احد غيركِ وهي وديعة كالحمل وسريعة كالنعامة

فشكرتهُ وقالت في نفسها لعل لهُ ابنة من عمري اركب معها . وكانت قد رأت نساء كثيرات في المضارب وعرفت ان واحدةً منهنَّ زوجتهُ ولكنها لم ترَ لهُ اولاداً وحقيقة امرهِ انهُ كان قد تزوج بابنة عمهِ وولد لهُ منها ولدان ماتا بالجدري ولم يرزق غيرهما ثم طلقها وتزوج كثيرات غيرها وكان كلما سمع بابنة حسناء يخطبها الى ابيها ثم لا يلبث ان يكرهها ويطلقها وعُرف بهذا الخلق حتى كان العرب يخفون بناتهم عنهُ . فلما وقعت الاميرة سلمى في اسرهِ لم يشكَّ احد في انهُ يتزوج بها حالاً رضيت بذلك او لم ترضَ. اما هو فهابها في اول الامر وخشي ان ينظر اليها كما ينظر الى غيرها من بنات قبيلتهِ ولكنهُ لما جالسها وسمع حديثها سوَّلت لهُ نفسهُ ان يخطبها الى امها وابت عليهِ عادات قومهِ ان يخاطبها في ذلك قبل ان يريها ضروب الكرم . وكان لهُ نديم ربي معهُ وشاركهُ في كل طرق الفساد فاطلعهُ على مرامهِ فسهلهُ لهُ قائلاً انها اسيرتك وليس لها ملجأ غيرك ويستحيل عليها ان ترفض طلبك

وجاء الرسل من قبل الامير عمر الفضل طالبين فك الاسرى واخبروا الامير حساناً ان

الاميرة سلمى مخطوبة لامير انكليزي . فهاله الخبر لكنهُ لم يصدقهُ وسأل الاميرة هند عن حقيقتهِ فاستغربت ذلك ولم تسألهُ عمّن اخبرهُ بهِ بل قالت لهُ انها غير مخطوبة لاحد . فسرّي عنهُ واستدعى الرسل وقال لهم انهُ يرد ام الامير عمر اليهِ ان هو افتداها بمئة ناقة ومئتي جمل واما الاميرة هند واولادها فليسوا اسرى بل هم ضيوف عليهِ وقد انزلهم على الرحب والسعة وهو اولى منهُ بحمايتهم وسيبقون في حماهُ الى ان يسكن الاضطراب في جبل لبنان ثم يردهم الى بلادهم آمنين . وكان معهُ رجال من شيوخ قبيلتهِ فاشاروا عليهِ ان يرد ام الامير عمر اليهِ حالاً حسمًا لاسباب النزاع وان ما غنموهُ من الماشية يكفي بدل ما فقدهُ تجارهم فاستصوب رأيهم ونادى الرسل وقال لهم " هوذا ام الامير عمر نخذوها لا فداء ولا فكاك لكي تعلموا اننا اكرم منكم وان ليس غرضنا العداء وانما الاخذ بالثار ورد ما سلبتموهُ من رجالنا " ثم امر لها بهودج وارسل معها جارية لخدمتها . فرأوا ان لا سبيل لهم للاعتراض ولا للادعاء بان الاميرة سلمى مخطوبة لانها هي كذّبت الخبر فعادوا من حيث اتوا

ومرّت الايام والامير حسّان يزيد تودداً الى الاميرة سلمى وهي تزيد منهُ نفوراً . وقد ظلم الحبّ من سمّى مثل هذا حبًّا لانهُ ميل شهواني دنس . وضعفت سلطة زوجتهِ عليهِ بازدياد شغفهِ بالاميرة سلمى فصار يتهددها بالطلاق كما لامتهُ . واسقط في يد الاميرة هند ولم تعلم كيف تنجو من هذه البليّة اما ولداها فاخذتهما الغيرة والانفة وعزما على الفتك بهِ ان لم يرعوِ عن غيهِ . ولازمت الاميرة سلمى خيمة امها ولم تعد تخرج منها وقلّ اكلها فنحلت وذبلت ومرّت الايام والشهور وهي تزيد سقمًا ونحولاً وذلك الطاغية يزيد جرأة وقحة واخيراً اتفق مع نديمهِ على ان يبعد الاميرة سلمى عن امها وينقلها الى خيمة بعيدة ويحضر الشيخ ويكتب كتابهُ عليها غصبًا . فاحتال النديم عليها ذات يوم واحتملها هو وغلمانهُ وساروا بها خلسة الى تلك الخيمة فركضت امها حافية حاسرة الى خيمة ولديها وهي تلطم وتنوح فاختطف احدهما سيفًا والآخر هراوة واسرعا وراء اختهما فلاقاهما الامير حسان ورجالهُ وقبضوا عليهما واعتقلوهما وجاء الشيخ ليكتب كتاب الاميرة سلمى فسأل من وليّ امرها ففطنت الى قولهِ وقالت انا ولية امر نفسي ولا اريد الاقتران بهذا الرجل مطلقًا قالت ذلك وهي لا تدري كيف اتتها القوة لتنطق بهذا القول لشدّة ما حلّ بها من الجزع ولكن النفوس الكبيرة يظهر مضاؤُها في المكاره . فقال الشيخ اذن لا استطيع ان اكتب كتابها . والظاهر ان الامير حسانًا لم يكن يتوقع هذا السؤال فوقف مبهوتًا لا يدري ماذا يفعل فاشار اليهِ نديمهُ وانفرد بهِ وقال لهُ ليس لك الاّ ان تذلها هي وامها حتى تصغر نفساهما وتضطر ان تفتدي امها

بنفسها فقال اصبتَ . وامر ان تخرجا من خيمتها وتنقلا الى خيمة صغيرة وتقدّم لها لوازم الطعام فقط وتجبرا على اعداده بايديهما من عجن وخبز وطبخ واقام عليهما الجواسيس وابقى الولدين بعيدين عنهما

الفصل الخامس والثلاثون

الاحتفال في الحرش

اشرقت الغزالة وانتشرت اشعتها على ساحل بيروت فتململ ندى الليل من حرها وتجمعت نقطهُ على اوراق القلقاس كالدر وانبسطت على اوراق التوت كاغشية الحرير ثم ركبت متن الهواء وطارت الى اعالي الفضاء فغطى الضباب تلك الهضاب ساعة من الزمان ثم تقشع عنها وصفا اديم الارض ووجه السماء وجفت الرمال الا حيث وقع عليها ظل الصنوبر ثم امتدّ الجفاف اليها كلها وعلا صرير الصراصير

ما هذه النصُب العالية وما هذا الشعاع الذي يزري بشمس الضحى . دكة تعلوها قبة فوقها نصب يناطح السحاب وفي وجههِ سيوف منظومة بعضها مع بعض كالشعاع المنتشر من كوكب دريّ حولهُ اكاليل الازهار وشعار الامة الفرنسوية واعلامها منتشرة ومجموعة على اشكال شتى تأخذ بالابصار رونقًا وبهاء

وما هذه الاطناب النازلة من اعلى القبة كاعمدة الصيح وقد التفّت عليها اكاليل الازهار والرياحين وامتدت كالهواجر الى ابعاد شاسعة

الميدان واسع بين الصنوبر والبساتين في ضاحية بيروت تستعرض فيهِ الوف الجنود من عهد ابرهيم باشا ومن قبل عهدهِ وهو الآن مزدحم مكتظ ترمي فيهِ الرمل فيقع على رؤُوس الناس الا في دائرة كبيرة حول الدكة والنصب تركت فراغًا للولاة والقواد ورؤساء خدمة الدين واعيان المدينة وامامها مركبات المدافع والخيول مقرونة بها والجنود وضباطهم بافخر الملابس والحلل

بُمْ بُمْ بُمْ شهُب تلمع ورعد يصقع والناس يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت

بُمْ بُمْ بُمْ ارتفعت اعمدة الدخان وسردقت فوق تلك الجماهير فحجبت عنها اشعة الهاجرة . ثم صمت كل صوت وسكن كل متحرك وتقشع الدخان وظهر على الدكة تحت القبة حبر جليل القدر بحلتهِ الحبرية حولهُ لفيف من الكهنة يسبح الله بالحان شجيَّة وتحتهُ رؤساء الانام بملابسهم الرسمية ثياب مقصبة ونياشين تتألق في الصدور . وربات الجمال بالحلي والحلل

خصور كالخواتم ووجوه كالبدور وقد افرطنَ في توسيع اردانهنَ واذيالهنّ فوقفن كالابراج المستديرة تبتدئ بدائرة لا يقل قطرها عن الباع ثم تستدق رويداً رويداً الى ان تنتهي بخصر يصح فيهِ قول من قال

تكاد لهضم الكشح تجعل عقدها نطاقاً كما يستبدلُ المثل بالمثلِ

وحولهم الجنود من الفرسان والمشاة ستة آلاف من رجال فرنسا ونخبة شبانها ووراءهم جمهور لا يحصى عدده من الرجال والنساء والاولاد يموج كالبحر الزاخر

خشعت الابصار واشرأبّت الاعناق الى ان انتهى الكهنة من الصلاة والترتيل فعزفت الموسيقى بالسلام السلطاني ثم بالسلام الامبراطوري وعادت المدافع الى الدوي وتلتها الحركات الحربيّة . فسار المشاة صفوفاً وانتظموا قلعة كبيرة المدافع والمهمات في وسطها والفرسان وراءها وصدرت الاوامر من القوّاد فاطلقت البنادق طلقات متوالية يتخللها اطلاق المدافع وسردق الدخان ثانية فحجب الشمس واستظلت الجماهير بظلهِ

دام الاحتفال ثلاث ساعات كانها ثلاث دقائق والموسيقى تعزف والجنود تهتف والمدافع تقصف واهالي بيروت ينظرون مدهوشين يزحم بعضهم بعضاً ولا يتنفسون الهواء الاَّ من فوق رؤوسهم

ثلاث ساعات دام الاحتفال سبقتها ثلاث ساعات ازدحمت فيها الجماهير وتلتها ثلاث ساعات حتى انحل عقدهم وانفضّ جمعهم . النهار كلهُ من الضحى الى الاصيل والناس مزدحمون لا طعام ولا شراب بل بعضهم جاء قبل الشمس ولم يستطع ان يعود الاَّ بعد مغيبها ولولا باعة الكعك وسقاة السوس لضاقت النفوس من الجوع والعطش اما كبراء القوم فقدم لهم افخر انواع الطعام والشراب

ولكن هل كان الوالي اطيب نفساً من ساقي السوس وهل كانت زوجة الجنرال اطلق وجهاً من بيّاعة اللبن . هل كان احد من المجتمعين في الدائرة الوسطى من الحكام والقواد والاحبار والتجار والشرفاء والاغنياء الذين اكلوا حلواء باريس وشربوا خمر شمبانيا هل كان احد منهم انعم بالاً من المزدحمين حول تلك الدائرة من اهالي بيروت والقرى المجاورة . قال احد الفضلاء إن في كل متر مربع من اكواخ الفقراء فرحاً وسروراً اضعاف اضعاف ما في كل متر مربع من قصور الاغنياء . ايطاليا افقر ممالك اوربا ولكنك لا تجد غناء وطرباً في مملكة اخرى كما تجد فيها . واسبانيا تتلوها في الفقر ولكن سكانها يرقصون ويطربون اكثر من سكان انكلترا وفرنسا

والذين شاهدوا ذلك الاحتفال من اهالي بيروت وضواحيها حسبوا ان الجنود الفرنسوية احتلَّت سورية ولن تخرج منها فتمت امنيَّة فرنسا التي تمنتها من زمن حروب الصليب وامنية فريق كبير من سكان سورية . ومضت الشهور والجنود تزيد تودُّداً الى الاهالي والاهالي لا يجدون سبباً للشكوى بل لم يجدوا الاَّ كل ما يستحق الشكر اذ كثرت الاموال وراجت الاعمال وشيدت المباني الفخيمة في بيروت وساعدت العساكر اهالي لبنان في بناء بيوتهم المحروقة

كان مارون ونقولا التاجران قد اشتريا بساتين كثيرة في سقي بيروت واراضي فسيحة في المدينة فربحا ربحاً وافراً بارتفاع اثمانها وبغلاء سعر الحرير ولم يكن نصيب غنطوس السمسار وعبد الله الوكيل قليلاً . ورأى الخواجه بخور والخواجه شمعون ان ابتياع الاملاك اربح من تدبين النقود فعضا اصابعهما ندامةً على فوات الفرص وبادرا الى مشترى ما يمكن مشتراهُ من الاراضي التي قرب ساحة السمك اذ بلغهما ان المدينة ستمتد من تلك الجهة

واجتمع جماعة من الوجوه في بيت كبير من كبراء بيروت وكان الشيخ درويش ابو نخر معهم اتى من غير دعوة شأن كل فضولي . ودار البحث على الاحوال الحاضرة بعد ما قتل فؤاد باشا والي دمشق وكثيرين من المأمورين والضباط واعتقل والي بيروت . فقال واحد من الحضور ان الافرنج رشوا الوزير حتى فعل هذا الفعل المنكر وقال آخر بل انهُ فعل ذلك باوامر من اسطنبول لكي يسكت دول اوربا . وكان بين الحضور رجل دمشقي اتى حديثاً من دمشق وشهد ما حدث فيها فقال لهم ان الوزير لم يفعل عشر معشار ما يطلب منهُ فانا قد شاهدت كل ما حدث في الشام ولولا لطف المولى وشهامة الامير عبد القادر ما ابقوا احداً والعملية مدبَّرة من اسطنبول اعترفنا بذلك او لم نعترف ولا اقول ان القصد قتل هذا المقدار من الاهالي بل ايقاظ الفتنة لكي تتداخل دول اوربا على ما قال لي احد العارفين بدخائل الامر والظاهر ان اصحابنا لا يهمهم خربت الدنيا او عمرت اذا كان لهم غرض سياسي

فقال لهُ آخر وما هو هذا الغرض السياسي هل يريدون ان يسلموا البلاد للافرنج قبَّحهم الله وقبح سياستهم فانها كلها نفاق بنفاق

وقال الشيخ درويش الحق في يد الشيخ مصطفى فاني انا سمعت الوالي يقول لمشايخ الدروز انهُ يساعدهم ويحميهم . ولما زارني في رمضان الماضي قال لي يا ابا نخر يجب ان تجتهد وتستميل الامير احمد رسلان . فعملت كل واسطة معهُ والمسأَله مدبرة كما قال الشيخ مصطفى ولكن ما عمرهُ خطر ببالي انها تطلع في الآخر من راس الوالي ويلقى كل اللوم عليهِ

فقال الشيخ مصطفى حبسوهُ يومين على عيون الناس وبعدها يفرج عنهُ

فقال الشيخ درويش ولكن والي الشام قتلوهُ

فقال الشيخ مصطفى قتلوهُ لانهُ كان عندهُ اوراق فيها اوامر سرية وتهددهم بها فقتلوهُ حتى يخفوا الخبر انا لا احط بذمتي ولكن الاشاعة مالئة الدنيا ويقول البعض انهم رأَوا الاوامر بعيونهم

فقال آخر ما قولكم الآن هل تبقى العساكر الفرنسوية هنا

فاجابهُ ابو فخر لا احد يخرجها الاَّ الانكليز مثل ما اخرجوا بونابارته من عكا . وقواس قنصل الانكليز صاحبي وهو يمر يشرب عندي قهوة كل يوم وقال لي من يومين ان العسكر الفرنسوي دخل على هذا الشرط انهُ يبقى حتى تصطلح الاحوال ثم يخرج وهو سمع هذا الكلام من الترجمان والترجمان صاحبي ايضاً من زمان طويل ولو سأَلتهُ لكان خبرني

الشيخ مصطفى — الله لا يحكّم الافرنج فينا ولكن الحق اولى ان يقال من حين ما اتوا الى هنا راجت الاشغال واصطلحت احوال الحكومة واذا فرضنا بقاء الفرنسوية هنا وعفونا من العسكرية كما تعفي الدولة النصارى كان ذلك افضل لنا

فاجابهُ الشيخ درويش ان الفرنسويين لا يعفون احداً اما رأَيت عساكر المغاربة وانا قد تصادقت مع كثيرين منهم وزاروني في بيتي فعرفت منهم ان الفرنسوية تأْخذ العساكر من الجميع

وبعد اخذ وعطاء على هذا النمط قرَّ قرارهم على ان لا يحركوا ساكناً وعلى ان يوصوا الجميع بالتزام السكينة الى ان يروا ما يحدث في الاستانة لان بعضهم كانوا يتوقعون حدوث امر ذي بال فيها

الفصل الخامس والثلاثون

مؤْتمر بيروت

اجتمع معتمدو الدول الست الموقعات على عهدة باريس اجتمعوا في مدينة بيروت للنظر في حوادث لبنان وغرضهم البحث عن الجانين وعقابهم والتعويض على المجني عليهم وانشاء حكومة للجبل يؤمن معها حدوث ما حدث . ورأَى المؤْتمر ان يقدم الاهم على المهم فنظر اولاً في مسأَلة التعويض لان الشتاء كان على الابواب واراد ان يُعطي اولئك المساكين ما يسدون بهِ جوعهم ويكسو عريهم ويساعدهم على بناء بيوتهم اذا ارادوا العودة اليها . وانتقل بهيئتهِ الى دمشق ورأَى ما حلَّ بها من الدمار وقدَّر الخسائر بثلاثة ملايين من الجنيهات وبعد بحث طويل واهتمام الوزير بتقليل التعويض المطلوب الى اقل ما يمكن الوصول اليهِ عيّن مقدارهُ وقيل انهُ قيمة المسلوبات او ما يراد ردهُ منها وكتبت القوائم في ذلك ولكنها

كانت مأْكلاً لاهل الطمع ولم يصل الى الفقير منها الَّا شيءٌ لا يذكر. وقد طُبِع الناس على الظلم حتى وهم متساوون فيهِ وراسفون في قيودهِ يظلم بعضهم بعضاً. خُلُق في الانسان موروث من الحيوان لا يفلت منهُ الَّا قليلون. وكم من مرة وقفت ارملة مسكينة وطفلها على ذراعها امام بيت رجل كبير من اهالي بلدها تطلب منهُ ان يحنَّ عليها بجزءٍ مما سُمِح بهِ لها من مسلوباتها وهو ينتهرها ويقول لها لم اقبض شيئاً او هذا كل ما سمحوا لك بهِ ويعطيها ربع ما اخذ. ومما زاد الطين بلة ان المسلوبات قُسِّطت اقساطاً وأُعطيت بها سندات فجعل الصرَّافون يشترونها من اصحابها باقل من قيمتها فقلَّ ما نال اصحابها منها

ولما انقضى البحث في مسأَلة التعويض انتقل اعضاء المؤْتمر الى البحث في المسأَلة الاولى اي عقاب المجرمين فطلب فؤَاد باشا من رؤَساء النصارى ان يكتبوا اسماء كل الذين يعلمون انهم ارتكبوا الجرائم. فارتكبوا الشطط حتى صار اعضاء المؤْتمر عليهم بعد ان كانوا معهم فاضطروا ان يعدّلوا طلبهم وما زالوا يعدلون واعضاء المؤْتمر يطلبون المزيد في التعديل الى ان انحصر الطلب في نفر قليل من اعيان الدروز فقبض عليهم واودعوا السجن وفي جملتهم الامير احمد ارسلان

وعاد المؤْتمر الى النظر في الامر الثالث وهو انشاء حكومة منظمة في جبل لبنان يؤْمن بها العودة الى مثل ما حدث فيهِ فبحث في هذا الموضوع طويلاً وقرَّر اعضاؤُهُ بعد النظر والروية ان يتولَّى ادارة الجبل متصرف مسيحي تختارهُ الدولة العلية بالاتفاق مع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا ويساعدهُ مجلس ادارة ينتخب اعضاءهُ سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية وقرروا سنَّ دستور لادارة الجبل على غاية الدقَّة وفرضت المساواة التامة بين جميع سكانهِ وانتهت جلسات المؤْتمر في اوائل شهر مارس

الفصل السابع والثلاثون

النجاة من السجن

هذا يومك يا مسرور سيدك في السجن واخاف ان يقتلوهُ لا لانهُ مجرم مثل غيرهِ بل لانهُ كان يتردَّد على قنصل الانكليز فلا بد لك من تخليصهِ وقد عرضنا الامر للقنصل فوعدنا خيرًا وهو صادق في وعدهِ ولست خائفة منهُ بل من اولاد الحرام ان يغدروا باحمد فخذ ما شئت . هذه عشرة آلاف غرش خذها وبرطل بها السجان او برطل من تريد واذا ما كفت فخذ غيرها لحد مئة الف غرش وانا اعتمادي عليك بعد الله ولا تخبر احدًا على

الاطلاق بل دبّر كل شيء وحدك ولكن لا بد من العجلة لاني خائفة جداً ان تضيع الفرصة علينا . آه يا ربي ما هذه المصيبة من اين اتتنا هذه البليّة . قلت لهُ الف مرة مالك ولهذه الاجتماعات قلت لهُ انزل بنا الى بيروت وخلصنا من اولاد عمك ومن مشايخ العقل قلت لهُ امشِ مع قنصل الانكليز مثل ما مشى المرحوم والدك فما سمع مني . الله يجازي الذين كانوا السبب الله يخرب بيوتهم مثل ما خربوا بيوت الناس . قم يا مسرور وخذ ما شئت ولا تدعني ارى وجهك الاّ واحمد معك (قالت ام الامير احمد هذا القول والدمع ملء عينيها)

فقام مسرور ووضع نصف النقود في كمهِ ونصفها في كيسهِ وهي مئة ليرة فرنسوية وركب الى بيت الدين حيث كان امراء الدروز ومشايخهم مسجونين وجعل يتردَّد على السجان ويشرب معهُ الدخان ولما استوثق منهُ اعطاهُ عشرين ليرة فجحظت عينا الرجل لانهُ لم يرَ في حياتهِ نصف هذا المبلغ في يدهِ واتفقا على ان يسكرا الخفراء لانهُ خاف ان يرشوهم فلا يكتموا السر كلهم واشترى مبرداً كبيرًا من بيطار واحضرهُ الى السجان فاوصلهُ الى الامير احمد لكي يقطع بهِ القيود من رجليهِ وانتظروا الى ان كانت ليلة مظلمة من ليالي المحاق تلبدت الغيوم في سمائها وحجبت نجومها فدخل السجان واخرج الامير احمد وسار بهِ الهوينا الى ان وصلا الى الباب الخارجي فوجدا الخفراء قد استيقظوا واوقدوا نارًا اضاءت ما حولهم فعاد بهِ من حيث اتى وجاء مسرور في الصباح فاخبرهُ السجان بما جرى . ووصل الى مأمور السجن في ذلك اليوم كتاب من غير امضاء يقال فيهِ ان احد الامراء المسجونين عازم على الفرار فتعهّد ابواب السجن واقفلها بنفسهِ وضاعف عدد الخفراء

واجتمع مسرور بالسجان فاخبرهُ السجان بما حدث فعزم ان يذهب الى المأمور ويرشوهُ ولكنهُ لم يجد اليهِ سبيلاً فعاد يفكر في الامر فلم يجد اسلم من ان يقيم مقام الامير احمد فرجع الى الشويفات واحضر عبداً آخر من عبيد مولاهُ وصباغاً اسود واتى بهِ الى السجان ليعطيهُ للامير احمد حتى يصبغ بهِ وجههُ ويديهِ

فتمت الحيلة ووضع مسرور القيود في يديهِ ورجليهِ بدل مولاهُ وخرج الامير احمد من السجن وسار مع عبدهِ الآخر وجعلا يسريان ليلاً ويختفيان نهارًا الى ان وصلا بلاد بشارة واختفيا عند الشيخ نصار احد مشايخها ومرّت ثلاثة ايام ومسرور يدَّعي انهُ مريض في سجنهِ لا يخرج منهُ واخيرًا دخل المأمور يفتقد المسجونين فرأى العبد مسرورًا بدل الامير احمد وشاع الخبر حالاً في بيت الدين وقامت لهُ البلاد وقعدت وقبض على السجان واودع السجن وتحدث مؤتمر المعتمدين بهذا الامر واصرَّ معتمد فرنسا على معاقبة العبد والسجان والتفتيش عن

الامير احمد ومعاقبتهِ ايضاً وكان فؤاد باشا مؤيداً لهُ وخالفهما لورد دفرن معتمد انكلترا لأن الكولونل روزكان يعتقد براءة الامير احمد ولو لم تكن لديهِ الادلة الكافية على ذلك وقد اعجب بشهامة العبد مسرور كما اعجب بها كل من سمع عنها . وأُرسل الرجال للتفتيش عن الامير احمد في كل انحاء الجبل وجهات الولاية ووصل ثلاثة منهم الى قرية الشيخ نصّار الذي كان الامير احمد مختفياً فيها وكانوا متنكرين فلما وصلوا الى العين التي يستقي منها نساء القرية جلسوا واخرجوا زادهم وجعلوا يأكلون وطلبوا الماء من النساء ليشربوا فامتنعنَ لانهنَّ يتنجسنَ من كل من يشرب من آنيتهنَّ من غير المتاولة واخيراً اتت امرأة من نساء النصارى بجرتها وسقتهم ووقفت تتحدَّث معهم ووقف غيرها من النساء معها واجتمع بعض الاولاد . فاشارت عليهم احدى النساء ان ينزلوا في المنزول في دار الشيخ نصار فقالت اخرى ان عند الشيخ نصار ضيوفاً فقالت الاولى هؤُلاء ليسوا ضيوفاً بل هم امير من امراء جبل لبنان وعبدهُ فاسكتتها الثانية قائلة ان هذا الكلام لا اصل لهُ والتفتت اليها وعضت على شفتها فادرك الرجال حالاً ان ضالتهم المنشودة في بيت الشيخ نصار شيخ تلك القرية لكنهم تجاهلوا ذلك وبقوا في مكانهم الى ان انصرف النساء عنهم وقرَّ قرارهم على ان يعود واحد منهم الى بيروت يخبر بما سمعوا ويبقى اثنان منهم في القرية او ينزلا ضيفين على الشيخ نصار ليراقبا حركات الامير احمد وسكناتهِ

فعاد احدهم وسار الاثنان الباقيان الى دار الشيخ نصار ونزلا في المنزول الذي ينزل فيهِ الضيوف وهو غرفة كبيرة فيها فرش كثيرة يزورها الشيخ كل يوم ليري النزول فيها ويسألهم عن راحتهم . ويقدّم لهم الطعام في اوقاتهِ الثلاثة من غير ان يُسأَلوا عن غرضهم لكن الشيخ اوجس خيفةً لما رآهما فرحَّب بهما على جاري عادتهِ واخبر الامير احمد بذلك واخرجهُ في ظلمة الليل من باب سري وارسل معهُ اثنين من خدمهِ ليوصلاهُ الى حدود بلاد حوران فيصير في بلاد الامان لان حوران ملجأُ الدروز وليس للدولة كلمة نافذة فيها

فسار الامير احمد معهما ماشياً على قدميهِ بزي فلاَّح من فلاحي تلك البلاد الذين يذهبون الى حوران للتعيش فيها ولم يأخذ عبدهُ معهُ لئلاَّ يعرف بهِ بل امرهُ بالعودة الى الشويفات ليخبر امهُ بسلامتهِ وبانهُ صار في بلاد الامان . وقد كان معتاداً المشي مسافات طويلة يخرج الى الصيد في الصباح فلا يعود الاَّ بعد الظهر وقد يقضي النهار كلهُ ماشياً على قدميهِ يصعد في التلال وينزل الى الاودية ولا يشكو تعباً لا لانهُ لا يتعب من المشي بل لان خفة روحهِ كانت تنسيهِ التعب اما الآن فكان الهمُّ قد انهك قواهُ واشتدَّ لومهُ لنفسهِ

لانهُ ما فعل حسب مشورة امهِ وانتقل الى بيروت وانقطع عن مجاراة قومهِ لا سيما وانهُ كان يعتقد انهم مخطئون في عملهم وكانت صورة ابنة خالتهِ الاميرة سلمى لا تزال امام عينيهِ وقد انقطعت اخبارها عنهُ بعد ان رحل بها ابوها عن حاصبيا ووصلهُ نعيهُ ولكنهُ لم يصلهُ من مصدر يوثق بهِ ولا كتبت اليهِ خالتهُ في هذا الشان ورأى المستقبل كلهُ مظلمًا امام عينيهِ فجلس على عين ماء في ظل صخر وغسل يديهِ ووجههُ وكان التعب قد اخذ منهُ كل مأخذ فاتكأَ على الصخر وران سلطان الكرى على جفنيهِ وحلم انهُ وصل الى بلاد حوران فاحلهُ شيخها على الرحب والسعة وصار يركب مع قومهِ ويغزو العرب المجاورين لهم فوقع في ايديهم اسيرًا ووضعوا القيود في يديهِ ورجليهِ وضيقوا خناقهُ ورأى الاميرة سلمى وهو على تلك الحالة فاذا هي مع الجواري تحلب البقر وعليها ثياب اسمال وسيدتها تشتمها وتضربها فهبَّ لكي ينقذها منها ونسي قيودهُ وسلاسلهُ فوقع واصاب جبينهُ الصخر فشدخهُ فنهض من نومهِ والدم ينزف من جبهتهِ فقال هو حلم ولكن ما اقبحهُ وعاد يغسل جبينهُ الى ان انقطع الدم

شمعون — قللوا التعويضات حتى لم يبقَ منها شيء يذكر · قدَّروا تعويضات الشام بثلاثمئة الف كيس وانزلوها الى مئة وخمسين الفًا والآن مراد الوزير ان ينزلها الى خمسة وسبعين الفًا فما عادت تحرز

بخور — ان الدولة لا تدفع نقودًا بل تعطي سندات عليها بالمبالغ التي يلزم دفعها ويمكننا ان نشتري هذه السندات باقل من ثمنها الاصلي عشرين او ثلاثين في المئة وهذا باب واسع للربح يجب ان لا نتغاضى عنهُ

شمعون — كلاَّ وليس لنا مناظر الآن فيهِ ولكن بلغني ان مرادهم ان يفتشوا عن المسلوبات كلها ويستردوها فماذا فعل يوسف بالصيني الذي اشتراهُ وبسائر الامتعة المنهوبة

بخور — صرَّف بعضها وارسل البعض الآخر الى مصر وهي مطلوبة هناك

شمعون — لقد احسن في ما فعل لانهُ بلغني ان القناصل والمعتمدين يشددون لاسترجاع كل المنهوبات · وهل تظن ان العساكر الفرنسوية تبقى هنا

بخور — لا اظن ويظهر من المكاتيب التي اتتني اول امس انهم يرحلون في اوائل الصيف وكانت فرنسا طلبت ان يعين والي الجبل من بيت شهاب ولكن انكلترا اعترضت على ذلك والدولة معها ولا يبعد ان يعين الوالي من الخارج وعلى كل حال اله آبائنا معنا وهو يدبر كل الامور لخيرنا

الفصل الثامن والثلاثون

السلطان عبد العزيز

" ما هذه المدافع يا امي فقد عددتُ منها اكثر من تسعين مدفعاً ولم ابتدئ من الاول" هذا ما قالتهُ فتاة جالسة امام منصبين من الطين فيهما قصب قائم عليهِ قفل من الحرير حسب اتساع الدواليب البلدية التي كان الحرير يحلُّ ويلف عليها و بيدها كوفية تكبهُ عليها حتى يصير اقفالاً صغيرةً . وهي في نحو العاشرة من عمرها وليس في الغرفة التي كانت فيها غير صندوق عليهِ فرش ولحف مطوية وبعض آنية الطبخ من كانون وقدور وصحاف — غرفة حقيرة ولكنها نظيفة لا ترى فيها ذرة غبار ولا رائحة خبيثة بل بالضد من ذلك ترى امامها خميلة فيها الرياحين العطرية والازهار الجميلة الالوان من الريحان والافسنتين والقرنفل والفل والياسمين وقد تضوع ارجها في الغرفة وامتزج بهوائها امتزاج الراح بالماء . وهناك ورد جوري ولكن ازرارهُ تقطف قبلما تفتح لكي يخرج منها ماء الورد فان صاحب البيت بنّاء واجرتهُ كافية لمعيشة بيتهِ ولا سيما في ذلك الوقت اذ ارتفعت الاجور لكثرة المباني التي كانت تبنى بمال الاحسان تشغيلاً للناس ولكنهُ كان يتقاضاها يوم السبت ويسكر بها يوم الاحد ويقضي يوم الاثنين نائماً من اثر السكر وهذا دأبهُ فتضطر زوجتهُ ان تسلك الحرير وتخرج ماء الورد لمعيشة بيتها وكانت تكتسب هي وابنتها ما يكفيهم

فقالت لها امها سمعت المدافع وانا آتية وسمعت الناس يقولون انهُ مات السلطان عبد المجيد . والتقيت بالخوري عند مدخل البستان فبست يدهُ وسألتهُ عن الخبر فقال انهُ صحيح وقد سمعهُ في البطركخانة ولكنهُ طمن بالي

فنظرت الابنة الى امها مدهوشة وقالت " مات السلطان "وحاولت ان تدرك معنى هذا الكلام فلم تدركهُ فانها تذكرت ايام الخوف الماضية حينما قُتل رجل واحد وكيف انها هربت مع امها واخوتها الى بيت خالها وتأخر ابوها عن الرجوع الى نصف الليل فقلقوا عليهِ . لكنها فهمت من قول امها ان الخوري طمنها وقال لها انهُ ليس هناك ما يخشى منهُ . وهو رجل صالح وكل الناس يقبلون يدهُ ويحترمونهُ لكبر سنهِ ولصلاحهِ فصمتت ولم تقل شيئاً ولكنها بقيت تنظر الى امها من وقت الى آخر لترى ما اذا كانت مطمئنة او مضطربة

وسمع كل اهالي بيروت صوت اطلاق المدافع وكان جرجس يكيل ثوباً من القماش لامرأة اشترت منهُ عشر اذرع وهو جالس متربعاً في دكانهِ بسوق البزركان والدكان مرتفعة

عن ارض السوق قدر متر وبابهُ غلقان احدهما يرفع الى اعلى ويسند بعصوين فيصير مثل مظلة فوق الدكان تقي الواقفين امامهُ من الشمس والمطر والآخر ينزل الى اسفل فلا يكاد يصل الى الارض وارتفاع الدكان عن ارض السوق مترًا يقيهِ من السيل الذي يجري في اسواق بيروت كلما اشتد وقوع المطر فيها. فلما سمع اصوات المدافع ارتجفت يداهُ وابطل الكيل ورد الثوب الى مكانهِ وخافت المرأة فسدلت منديلها على وجهها وسارت في طريقها مسرعة واتفق ان مرَّ رجل من التجار الكبار في تلك اللحظة وكان جرجس يعرفهُ فاستوقفهُ وسألهُ عن سبب اطلاق المدافع فاسرَّ في اذنهِ قائلاً مات السلطان عبد المجيد ونصبوا السلطان عبد العزيز. فسألهُ جرجس هل من خوف علينا فرفع التاجر راحتيهِ واشار بشفتيهِ اشارة من يقول لا اعلم ولكن الامر لايخلو من الخطر . وكانت اعناق اصحاب الدكاكين المجاورة قد تطالت كلها ليسمعوا ما يقولهُ التاجر ولم يكد جرجس يرى اشارتهُ حتى نزل من دكانهِ ونزع الدروندين وانزل الغلق الاعلى ورفع الاسفل واقفل الباب فاقتدى بهِ اكثر اصحاب الدكاكين ولم تكن الاَّ دقائق قليلة حتى لم تعد ترى دكانًا مفتوحًا في تلك السوق واقفل كثيرون دكاكينهم في سائر الاسواق واسرعوا الى بيوتهم وجعل الناس يتكلمون همسًا ولا يجترئُ احد ان يرفع صوتهُ كأن آثار الجور والظلم رسخت في نفوسهم رسوخ الطبائع وتوارثوها خلفًا عن سلف فلا يحدث حادث حتى تراهم يذعرون ويهربون الى بيوتهم كأنهُ بفعل عصبي منعكس لا دخل للادارة فيهِ ولا لقوة اخرى من قوى العقل

وكان نساءٌ مسلمات ومسيحيات في مار الياس يفين بنذورهنَّ فذعرن لما سمعنَ اصوات المدافع وجعلنَ يضرعن الى مار الياس او الخضر ليلطف بهنَّ ويقي عيالهنَّ وهنَّ في ذلك سواءٌ كأنهنَّ من مذهب واحد لا فارق بينهنَّ

وخرج ابو نخر من بيتهِ ليسأل عن سبب اطلاق المدافع فالتقى بالشيخ مصطفى صاعدًا من المدينة فاخبرهُ بموت السلطان عبد المجيد وتنصيب السلطان عبد العزيز فقال الحمد لله فقد نجانا الله من احتلال الفرنسوية لبلادنا واعطانا سلطانًا لايفضل الافرنج علينا

فقال لهُ الشيخ مصطفى ومن قال ان السلطان عبد المجيد كان يفضل الافرنج علينا. فاجابهُ الظاهر انك غائب عن البلد ألا تعلم ان كل هذه الحركات والقلاقل مسببة عن ذلك ولكن هذا سر لايعرفهُ غيري اطلعني عليهِ الوالي لما زارني في رمضان الماضي

والتقى مارون بنقولا وقال لهُ لم نستفد فائدة تذكر من مجيء الفرنسوية ولم نكد نفرح بمجيئهم حتى خرجوا عن آخرهم واخاف ان تهبط اسعار العقارات التي اشتريناها

فقال نقولا من كان يظن ان سياسة الانكليز تغلب سياسة الفرنسويين

فأجابهُ مارون لو عرفت من الاول ان الانكليز غير راضين عن مجيء العساكر الفرنسوية ما كنت خاطرت بقرش واحد لان سياسة الانكليز دائماً غالبة ألا تتذكر ما فعلوهُ بابرهيم باشا فان فرنسا كانت معهُ ولكنهم قوّموا اوربا كلها عليهِ حتى ألزموهُ ان يخرج من البلاد ويرجع الى مصر

فقال نقولا ومع ذلك لا أرى ان الاسعار هبطت ولا هي مائلة الى الهبوط واسعار الحرير لا تزال في ارتفاع ولا بدَّ ما تصطلح الاحوال في ايام السلطان الجديد

وتذاكر بخور وشمعون في الاحوال الحاضرة فقال شمعون كتب اليَّ ابن خالتي من استانبول ان السلطان الجديد سيستدين اموالاً كثيرة فتروج الاشغال وتكثر المكاسب في زمانهِ . فقال لهُ بخور متى كتب لك ذلك والسلطان لم يجلس الَّا امس . فاجابهُ شمعون انهُ كتب لي مع البوسطة الماضية . ولكن ابن خالتي وكل اصحابنا في فينا وباريس ولندرا كانوا عارفين اميال السلطان عبد العزيز من قبل ان يتولَّى وامور مثل هذه لا تخفى عليهم

واجتمع وكلاء الدولة والعلماء في دار رشيد افندي وهنَّأ بعضهم بعضاً بانفراج الازمة فقد تمَّ كل شيء على ما تمنوا وخرجت الجنود الفرنسوية من بلاد الشام وجلس السلطان عبد العزيز على كرسي السلطنة بعد ان وعدهم المواعيد الوثيقة انهُ يكف ايدي اوربا ولم يتسع نطاق الفتن اكثر مما قدَّروا . واعترض احد العلماء على ذلك بان الجنود اسرفت في ما فعلت فأُجيب انهُ لم يكن في الامكان ان يفعلوا غير ذلك . واجمعوا على تقديم الشكر لفؤاد باشا لنجاحهِ التام في العمل الذي انتدب لهُ

وتلي خطاب الملكة في البارلمنت الانكليزي فاشارت الى وفاة السلطان عبد المجيد وتنصيب السلطان عبد العزيز وذكرت الاول بفضائلهِ واشارت الى اسف الامة الانكليزية عليهِ وذكرت الثاني بما يرجى من النفع منهُ لبلادهِ وشكرت فرنسا على ما أبدتهُ من الغيرة بارسال جنودها الى سورية والى حفظها لوعودها واخراج جنودها منها حالما استتبَّ الامن فيها لئلاَّ تزيد المسألة الشرقية تعقيداً

وأُشير الى سورية في مجلس النواب بفرنسا فاعترض زعيم الراديكاليين على خروج الجنود من سورية بهذه السرعة ولمح الى ارتشاء قائدهم فانتهرهُ رئيس المجلس واشتدَّ الجدال حتى كاد يفضي الى الخصام واخيراً طلب الرئيس الاقتراع على الثقة بالوزارة فكانت الاغلبية لها . واشير الى هذه المسألة في مجلس الشيوخ فلم تلقَ من الاهتمام ما لقيتهُ في مجلس النواب

الفصل التاسع والثلاثون

زيارة الوالي

جلس الكولونل روز في مكتبتهِ وتطلّع من الشباك الشرقي المطل على حديقة المنزل فوقع نظرهُ على اشجار التفاح والخوخ (الدراقن) والرمان وقد كادت اغصانها تتكسر من ثقل حملها ورأى البستاني يجول بينها يتفقد ما يقع منها ويلتقطهُ ورفع نظرهُ الى الجبل فرأى الظلال تمرُّ عليهِ مرَّ السحاب فتذكر العام الماضي حينما كان الدخان مسردقاً عليهِ من احتراق بيوتهِ وشكر الله على انقضاء ايام الشدَّة

وكان فؤَاد باشا قد ارسل اليهِ في الصباح يقول انهُ قادم لزيارتهِ عصر ذلك النهار اذا كان مستعدًّا لاستقبالهِ حينئذٍ فجلس الآن في انتظارهِ وبعد هنيهة دخل السر هنري وقال حان الوقت فالتفت الكولونل الى ساعة كبيرة دقاقة قائمة في زاوية الغرفة وقال لم يصل بعد عشر دقائق وهو يمتاز على غيرهِ من ولاة الاتراك بشدة تدقيقهِ في الوقت . ثم التفت الى السر هنري وقال على ماذا اجمع رأيك

فقال السر هنري لا بدَّ لي من الذهاب بنفسي فقد اتاني كتاب من الامير احمد ارسلان انهُ قائم مع الشيخ اسمعيل الاطرش لمعاونة الامير عمر الفاعور على بني صخر ولا ادري على مَن تدور الدائرة فان الامير حساناً امير بني صخر فارس مغوار لا يصطلى لهُ بنار والاميرة سلمى في اسرهِ تتجرَّع مرارة الذل فاذا رأى ان لا قِبَلَ لهُ بمجارية العرب والدروز رحل بقومهِ جنوباً او شرقاً وزاد في اذلالها الى ان ترضى بهِ زوجاً لها او تموت حسرةً

فقال الكولونل وكيف تذهب بنفسك اذا كانت الحال على ما ذكرت واي فائدة من ذهابك

السر هنري — يا حبذا لو امكنني ان آخذ فرقةً من الجنود البحارة الذين في البارجة فاني اقدّر كل واحد منهم بمئة من البدو الذين اسلحتهم السيف والرمح او البنادق القديمة ذات الزناد

الكولونل روز — ان ذلك غير ميسور لانهُ لا يجوز لنا ان نرسل جنوداً في بلاد الدولة الَّا بقرار دولي خاص . ولا يزال البارلمنت مجتمعاً فاذا سمع الاحرار اننا اخرجنا جنودنا الى البر اقاموا الدنيا واقعدوها متخذين ذلك حجَّة ضد المحافظين لاسقاطهم من الوزارة . ولكن قد نستطيع ان نطلب من الوالي فيعطينا فرقةً من الجنود التركية

السر هنري . وما ادرانا انهم لا ينضمون الى بني صخر فنخرج من شر ونقع في شرين

الكولونل — هذا بعيد الاحتمال لانهم اميل الى الدروز منهم الى البدو وليس لهم مصلحة

خصوصية في الانضمام الى هذا الفريق او ذاك ولا بدَّ ما يفعلون بامر الوالي

فصمت السر هنري وفكّر في الامر هنيهة ثم قال اظن ان هذا هو الرأي الصواب فنطلب من الوالي مئتي فارس وانا اقوم بنفقاتهم

فقال الكولونل ولا اظن انهُ يمانع اذا ذهب معك عشرة من الجنود البحّارة لحمايتك

ووصل فؤاد باشا في الميعاد وكان راكبًا جوادًا مطهمًا وامامهُ ووراءَهُ كوكبة من الفرسان فلاقاهُ الكولونل الى باب المنزل وتصافحا وسلم على السر هنري مصافحةً لانهُ كان قد رآهُ مرارًا في المخابرات السابقة وجلس الثلاثة في غرفة الاستقبال يدخنون التبغ الجبيلي ويتجاذبون اطراف الحديث باللغة الفرنسوية فابان فؤاد باشا ان مهمتهُ قد انتهت ولا يبعد ان يعود من سورية قريبًا وشكر للكولونل روز وللسر هنري ما ابدياهُ من المساعدة لهُ ولحكومتها . واستطرد الكولونل روز الحديث الى احوال الدروز في جبل حوران واحوال البدو المجاورين لهم . فرآهُ عارفًا بما بينهم من الضغائن وبنشوب الحرب بين عرب الفضل وبني صخر وبانحياز الدروز الى عرب الفضل وحاسبًا ان هذه الحرب ستضعف الفريقين فيسهل كبح جماحهما والتسلّط عليهما فاخبرهُ الكولونل ان في امر بني صخر اناسًا يهمُّ السر هنري انقاذهم منهم ويودُّ ان يذهب اليهم بحامية من الجنود العثمانية

فاستحسن فؤاد باشا ذلك وعرض عليهِ خمس مئة فارس يرسلهم مع السر هنري فشكرهُ السر هنري على ذلك وانتقلوا الى الكلام على حكومة لبنان وغرض فرنسا من رد ولايتهِ الى الامراء الشهابيين واعتراض اللورد دفرن على ذلك فابان فؤاد باشا انهُ كان يفضل ان يقسم الجبل الى قسمين يضاف قسم منهما الى ولاية دمشق وقسم الى ولاية بيروت . فبيّن لهُ الكولونل ان الدول الاوربية لا توافق على ذلك فليس من الحكمة محاولتهُ اما البقاع فلا بأس بضمهِ الى ولاية دمشق لان اكثر سكانهِ من غير المسيحيين

ولما انتهت الزيارة قام فؤاد باشا فودّع بما قوبل بهِ من الاكرام

الفصل الاربعون

فصل الخطاب

مرَّ على الامير احمد ايام لم يرَ اشد منها الى ان خرج من حدود الشام ودخل بلاد حوران ولم يكد يصل الى تلك البلاد حتى التقى بجماعة من دروز لبنان فعرفوهُ وساروا بهِ الى الشيخ اسمعيل الاطرش فرحب بهِ واكرم وفادتهُ وانزلهُ في افخر بيوتهِ واقام جماعة من رجالهِ على

خدمته والتفَّ حوله كثيرون من دروز الجبل ومشايخهم الذين هربوا من لبنان وكانت عيون الشيخ اسمعيل تتسقط الاخبار وتأتيهِ بها من كل ناحية فلا يجري شيءٌ في دمشق ولا في لبنان ولا في بيروت ولا في بلاد الجولان كلها الّا ويأتيهِ خبرهُ وكان لهُ اصدقاء في بيروت يرسلون اليهِ بما يبلغهم من اخبار الاستانة واخبار البلدان الاوربية فيقف على اهم الاخبار السياسية. وقد بلغهُ كل ما حدث في مؤتمر بيروت وما قرَّ عليهِ قرار اعضائهِ من اختيار والٍ مسيحي للجبل من غير طوائفهِ فاخذ يتداول مع الامير احمد في طريقة لارجاع دروز الجبل الى بيوتهم فقرَّ رأيهما على ان الامير احمد يكتب الى قنصل الانكليز الجنرال في بيروت يطلب منهُ ان يتوسط امرهم عند ولاة الامور فكتب اليهِ واخبرهُ عن احوال بلاد حوران وما جاورها

ولما بلغ الامير احمد ما حلَّ بخالتهُ واولادها بعث رسلاً الى الامير حسان امير بني صخر يتودَّد اليهِ ويخبرهُ ان الاميرة هند خالتهُ ويطلب منهُ ان يطلق سبيلها وسبيل اولادها وارسل مع الرسل هدايا فاخرة من منسوجات دمشق واسلحتها. وكان الامير حسان غائباً في بعض مغازيهِ فانتظرهُ الرسل الى ان عاد وقدموا اليهِ الهدايا وسلموهُ كتاب الامير احمد فلم يحفل بهِ ولا قبل الهدايا لان الاميرة هند واولادها كانوا يسمعونهُ مر الكلام فاضطر الرسل ان يعودوا فارغين ثم اوعز الى بعض اعوانهِ فاقتفوا اثرهم وقتلوا واحداً منهم وسلبوا ما معهم فعادوا واخبروا بما جرى لهم فارغى الشيخ اسمعيل وازبد وكتب الى الامير عمر امير عرب الفضل انهُ ينجدهُ بخمس مئة من فرسان حوران اذا قام لمحاربة بني صخر ودارت المراسلة بينهما ثم اجتمع الاثنان واجتمع الامير احمد معهما وقرروا خطة الهجوم

وفي الوقت المعين خرج فرسان الدروز من حوران وواصلوا السير الى ان بلغوا جبل عجلون فالتقاهم الامير عمر وانزلهم على الرحب والسعة واولم لهم الولائم ثلاثة ايام حسب عادة الضيافة عند العرب وقاموا في اليوم الرابع وساروا اربعة آلاف فارس ومعهم الجمال تحمل الزاد والماء وقصدوا البلقاء وكانت اخبارهم قد وصلت الى الامير حسان فجمع رجالهُ واحلافهُ وخرج للقائهم في سهل فسيح يبعد عن الجبل الذي كان ممتنعاً فيهِ نصف مرحلة

ونام الفريقان تلك الليلة في السهل يفصل بينهما غدير صغير وخرائب مدينة قديمة . نام الخليون واما الشجيون فاحيوا الليل بين احلام مزعبة وهواجس مزعجة – الامير حسان متطير من تلك الواقعة لان غراباً مرَّ عن يسارهِ حالما خرج من مضربهِ وزجرهُ فلم يزدجر والشاعر الذي غنَّاهُ بالامس ابتدأ نشيدهُ بقولهِ " يا دار غيَّركِ البلى " واليوم الذي اضطرَّ ان يخرج فيهِ

يوم الثلاثاء وهو من نحوسهِ وقال في نفسهِ ان دارت الدائرة على رجالي عدت الى المضارب وقتلت سلمى وامها واخويها ولو عيرني العرب ابد الدهر لانهم سبب هذه البلية . ثم اغمض جفنيهِ وكانت يدهُ على مقبض سيفهِ فارتخت اصابعها ووقعت فحلم ان جوادهُ عثر بهِ في حومة الوغى فسقط عنهُ ونهض مذعوراً . ثم عادت بهِ الهواجس الى فيافي الخيال ففكَّر بالاميرة سلمى كما رآها آخر مرة تحلب النياق والدمع قد قرَّح جفنيها فادارت وجهها عنهُ خجلاً منهُ او غيظاً فشمت بها كما يفعل اللئام اذا رأَوا الضعيف ذليلاً بين ايديهم وفكَّر باخويها وقد صارت ثيابهما اخلاقاً فلم تأخذهُ شفقة عليها ولا رثى لحال امهما بل احتدم غيظاً على زوجتهِ لانهُ كان يعلم انها ترسل اليهم من طعامها

وبات الامير عمر لا يفكر الاَّ باخذ الثار وكشف العار وتخطر ببالهِ الاميرة سلمى فيردد في نفسهِ قول مَن قال

هي الشمس مسكنها في السماء فعزِّ الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع اليها صعوداً ولن تستطيع اليك نزولا

فان الطالبين لها اقرب منهُ اليها ابن خالتها وذلك الامير الانكليزي الذي اخبرتهُ عنهُ ام يوسف . وهو يلوم طالعهُ لانهُ اوقعهُ في حب فتاة لا يستطيع الوصول اليها وعزم ان يستدعي طبيب الجزيرة فيسقيهُ دواء السلوان(١)

وكاد فؤاد الامير احمد يطير فرحاً لان التقادير يسَّرت لهُ ان ينقذ خالتهُ واولادها من الاسر وقال في نفسهِ ان ذلك لا بدَّ وان يلين قلب سلمى ويزيل منهُ كل اثر من حب ذلك الرجل الانكليزي الذي تخلَّى عنها وقت الشدَّة مع انهُ من اقدر الناس على نجاتها كيف لا واساطيل الانكليز مالئة البحر وكلمة واحدة منهُ للوالي تقيم البلاد وتقعدها ولا بدَّ لي من ان ابيّن ذلك لسلمى ان كانت تجهلهُ

اما الشيخ اسمعيل فلم يكن يفكر الاَّ بتحالُف رجالهِ مع عرب الفضل حاسباً ان ذلك يعزز مقامهُ لدى الدولة ويمنعها من تشديد الوطأة في طلب المتأخر من الاموال الاميرية . وكان قد بلغهُ انها اكتفت بقصاص نفر قليل من رجال الجبل وعفت عن الباقين فلم يبقَ لهُ همٌّ الاَّ ان تعفيهُ من الاموال الاميرية وودَّ ان تنتهي هذه الواقعة باسرع ما يكون حتى يعود رجالهُ الى حصد زروعهم

(١) تزعم العرب انهُ دواءٌ يسقاهُ العاشق فيموت حبهُ

ولم يكد ذنب السرحان يعلو فوق الافق حتى ماج المعسكران وعلا صهيل الجياد وهدير الجمال واشتدت الضوضاء وجعل الفريقان يتأهبان للهجوم فانقسم كل فريق الى اقسام وكان كشّافة الامير عمر والشيخ اسمعيل قد طافوا في البقاع التي حولهم وعادوا فاخبروا بما رأوا فنقّح القائدان خطة الهجوم . اما الامير حسان فان رجاله كانوا يعرفون كل شعبة من تلك الشعب وكل بقعة ومنهل فاستدعى مشايخهم وكرّر عليهم بيان الخطة التي يقابلون بها عدوهم وموضع الكمين الذي اقامهُ لهم ولم تكد الشمس تبزغ من وراء الافق حتى اصطفّ الجيشان وابتدأ اطلاق البنادق واخذوا في الكر والفر والالتحام والانفصال وعلا العثير فسدّ منافس الفضاء وصاح الابطال واصطدم الشجعان وتثلمت البيض الصفاح وتكسرت عوالي الرماح وحلّقت العقبان والقشاعم ووقفت الضباع في اوجارها تستروح رائحة الملاحم وقام ملاك النقمة على رابية متهلل الجبين وهو يقول لا تطهر المآثم الا بالدماء ما دامت القلوب مباءة للشحناء . وعلت الشمس واشتدّ الهجير والحرب سجال والفريقان ككفتي ميزان تعبث بهما الرياح . وهربت الاصلال من وقع سنابك الخيل وتعذّر عليها الانسياب على الرمضاء فغارت في نوافق اليرابيع . وبينما الجياد تكاد تسبح في عرقها هبت ريح صرصر فجففت ابدانها ويبست جلودها ولم تكد الشمس تميل عن الهاجرة حتى ظهر الوهن في رجال الامير حسان فصاروا يتقدمون خطوةً ويتأخرون خطوتين كمد البحر اذا ابتدأ جزرهُ وعرب الفضل والحوارنة يضربون في وجوههم وفي اقفيتهم الى ان اوصلوهم الى محلتهم وابعدوهم عنها فعلت جلبة النساء والاولاد . وكان الامير احمد اسرع الجميع الى محلة بني صخر يحمي ظهرهُ مئة فارس من فرسان حوران فجعل يفتش عن خالتهِ واولادها حتى وصل الى المضرب الذي كانوا محروسين فيهِ ولم يكد يصل اليهم حتى علت الصيحات وراءهُ وهبّ رجال الامير حسان في وجههِ لان الكمين ثار من مكمنهِ في تلك اللحظة واندفع وراء عرب الفضل والحوارنة فصاروا بين جيشين جيش الامير حسان المتظاهر بالانكسار امامهم والكمين الذي كمن لهم فارتبكوا في امرهم ولم يروا الا الصبر في ذلك المأزق الحرج فانقسموا فريقين فريقًا وقف في وجه الكمين وفريقًا في وجه الامير حسان ورجالهِ . ويالها من ساعة تكسّرت فيها البيض الصفاح وبيعت الارواح بيع السماح وتطايرت الجماجم عن الابدان وانتشرت الجثث على الصحصحان وبينما القوم يجرّعون الموت الزؤام ويحسبون ان لامناص لهم من شرب كأس الحمام وقد زرّت الربى عليهم جيوبها وادارت المنون عليهم خطوبها علا الغبار من الشمال فظنوهُ اعصارًا وماج السهل بالفرسان فخالوهُ تيارًا . وقال كل لسان الدولة الدولة جنود النظام ببيارقها وفرسان

الحكومة ببنادقها لحار الفريقان في مَن المعنيُّ بهذه الغارة ورأوا فرصة للكف عن القتال فكفوا الى ان تنجلي واقعة الحال ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى وصلت الفرسان وقد عقد لواءها لسليم باشا من امراء الجيش العثماني ومعهُ السرهنري بدمونت ونفر من الجنود البحارة فوقعت مهابة الحكومة على الخصمين فانفصلا ووقفا منتظرين الاوامر ولما تم انفصالهما نادى سليم باشا الامير عمر والامير احمد والشيخ اسمعيل فاقتربوا منهُ وترجلوا في حضرتهِ فامرهم بالركوب ثانية ثم نادى الامير حسانًا فلم يكن مجيب واخذ رجالهُ يفتشون عنهُ فوجدوهُ ملقى بين صخرين جريحًا استدلوا عليهِ من جوادهِ الواقف امامهُ . فانهُ اصيب برصاصة في صدرهِ فصرعتهُ ولكنها لم تخطف انفاسهُ فحملوهُ الى امام سليم باشا مغمى عليهِ لكثرة ما نزف من دمهِ وبادر الطبيب الى قطع النزف ومواساة الجرح وعادوا بهِ الى مضربهِ فاسلم الروح وهم في الطريق واحضر سليم باشا ابن عم الامير عباس فنصبهُ اميرًا على قبيلتهِ

الخاتمة

ازدانت دار الامير عباس بالرياحين وازهار الخريف وانتظم فيها عقد جمهور منتخب من القناصل الجنرالية والامراء الشهابيين والارسلانيين ثم حضر والي بيروت ومتصرف لبنان والقاصد الرسولي وجماعة من قسوس اللاتين واقتصر الاحتفال على هؤُلاء بسبب الحداد وكانت الاميرة صفا قد جرَّبت معيشة الدير فلم تحتملها فعادت الى بيت ابيها وخرجت الاميرة سلمى من خدرها متكئة على ذراع عمها واتت امها وابنة عمها وراءها والدموع تتساقط من اعينهما وتقدَّم السرهنري ووضع يدهُ في يدها فكللهما القاصد الرسولي واهديت اليهما الهدايا وفي جملتها الاسلحة التي وجدها الامير احمد في المغارة

وكتب السرهنري الى امهِ تلك الليلة يصف لها حفلة اكليلهِ وقال انهُ وجد اسلحة جدهِ كونت بدمونت ووجد فيها الوثيقة وعليها ختم الملك ركاردس قلب الاسد فلا شبهة في لقبهِ وهو الوارث الوحيد لهُ وطلب اليها ان تعرض ذلك على جلالة الملكة وتطلب منها ان تلقبهُ بكونت لبنان او امير لبنان

رواية

اميرة انكلترة

ترجمت للمقتطف

من رواية اميرة انكلترة الانكليزية

بقلم

اسعد افندي داغر

طبعت في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٧

رواية
اميرة انكلترة

مقدمة

وضعت هذه القصة الكاتبة الفرنسوية مدام صوفيا كوتين وقد نسجت سداها من تاريخ البعثة الصليبية الثالثة التي جرَّدها اهل اوربا على السلطان صلاح الدين الايوبي في اواخر القرن الثاني عشر على اثر فتحهِ لبيت المقدس وجعلت لحمتها الغرامية حب الملك العادل اخي صلاح الدين للاميرة متيلدة شقيقة رتشرد ملك انكلترة وأدمجت حوادث الحبّ في عرض سرد المعارك الدموية التي اقتضتها هذه البعثة ومثّلت وقائع الحرب والغرام في مصر والشام تمثيلاً جمع بين حسن الوصف وبلاغة الرصف وسهولة الايراد وصحة الانتقاد فكان اصدق دليل على براعة المؤلفة وطول باعها في هذا الفن الجليل

وقد قرأت روايتها في اللغة الانكليزية ورأيت ان اترجمها الى اللغة العربية لقرَّاء المقتطف وانا واثقٌ انهم يرون رأيي فيها ويجدونها من افضل القصص التي تحسن مطالعتها في اوقات الفراغ

ولكنها لمَّا كانت موضوعة في مجلدين لم ارَ بدًّا من مخالفة الاصل في اماكن كثيرة منها تلخيصاً واختصارًا حتى تجيء الترجمة على قدر ما يحتمله المقام ولا تزيد عن الفراغ المعيَّن لها في المقتطف والسلام

المترجم

اميرة انكلترة

الفصل الاول

تأهُّب واستعـداد

بعد حصار طويل اسال الدماء بحوراً دخل صلاح الدين مدينة القدس ظافراً منصوراً فشق على اهل اوربا سماع هذا الخبر وشخص وليم رئيس اساقفة صور الى رومية واخبر البابا أُربان الثالث بما كان فانقضَّ عليهِ هذا النبأ انقضاض الصاعقة وخرَّ عند سماعهِ مائتاً وقضى بين ذراعي رئيس الاساقفة آسفاً ولا يردُّ الاسف فائتاً

وعلى الفور نشر خلفهُ غريغور يوس الثامن منشوراً يأمر بهِ باعداد بعثة صليبية جديدة وعهد باذاعة هذا المنشور الى رئيس الاساقفة فطاف بهِ اوربا محرضاً منشطاً يستفز الاقوام بقوة عارضة نادرة المثال وبلاغة منطق هي السحر الحلال ولم يزل يجهر في النداء ويلج في الدعوة وهو يوقظ العزائم المتناعسة وينهض الهمم المتقاعسة ويوطن النفوس ويؤلف القلوب على خوض غمرات القتال حتى بلغت كلماتهُ عروش الملوك والقياصرة فنهضوا بنفس واحدة وتحالفوا على الجهاد متعاهدينَ بانهم لا يتركون السلاح ولا يطوون رايات الحرب والكفاح حتى يدخلوا بيت المقدس ويسترجعوا المدينة التي عدوا سقوطها عاراً عليهم لا يحتمل ولا يزيلهُ عنهم الاَّ استردادها بالعجل

وكان في مقدمة الملوك المحالفين رتشرد الاول ملك انكلتره (الملقب بقلب الاسد) وفيليب اغسطس ملك فرنسا وقد عسكر كل منهما في سهل ينتظر تجمع جيشهِ الذي كان عددهُ يزداد يومياً تلبية لدعوة رئيس اساقفة صور

ثم افترق هذان الملكان بعد ما تواعدا ان يجتمعا في مسينا فاقلع فيليب من جنوى ورجع رتشرد الى لندن ليعهد بادارة الملك في غيابهِ الى اخيهِ يوحنا وسبقتهُ خطيبتهُ برنغاريا الى صقلية حيث ترتب انهُ يحتفل بالاقتران بها

وكانت خطيبتهُ هذه ابنة الدون سانكو دي ناڤر وكان لها نصيب وافرٌ من المجملات

الادبية التي استمالت بها قلب ذلك الملك العظيم فآثرها على كثيرات من الاميرات الحسان اللواتي كان يشار الى جمالهنَّ بالبنان وفضلها حتى على اليكس شقيقة فيليب اغسطس التي طالما حاولت اصطياد قلب الاسد بحبائل المحاسن ولم تظفر منهُ بطائل لانهُ رأى ان حسنها المنقطع النظير ينقصهُ من الآداب شيءٌ كثير . وهكذا تغلبت فتاة الادب والكمال على غادة الحسن والجمال وفازت باستمالة قلب رجل كان من اعاظم الرجال

وقبلما خرج رتشرد لطيتهِ البعيدة المحفوفة بالمصاعب والمخاطر رام الاشتراك في الاحتفال بترهُّب اختهِ الصغرى الاميرة متيلده التي لم يرَّها قط منذ طفوليتها وكان لا يرجو انهُ يراها بعد الآن . فاراد قبل ان يحجبها ثوب الرهبنة عن نظر العالم او يسقط هو صريعاً في ساحة الجهاد ان يتعرَّف بها و يودّعها الوداع الاخير

نخرج في بطانتهِ ومعهُ رئيس اساقفة صور (الذي كان مزمعاً ان يرئس الاحتفال بترهُّب اختهِ) الى ذلك الدير الذي وُضعت فيهِ بعد ولادتها باشهر قليلة وكانت عازمة ان تبقى فيهِ الى الابد

وكانت افكار هذه الاميرة لا تتعدَّى حدود الدير الذي قضت فيهِ ست عشرة سنة ولا تتجه نحو شيءٍ آخر سوى الطهارة المطبوعة عليها وعيشة التبتل التي دُعيت منذ نعومة اظفارها اليها . فلم تعلم شيئاً عن شرف اصلها ولا عن رائع جمالها . وقلما درت باحوال العالم الخارجي الذي لم تخترق اصواتهُ حجاب السكون السائد على الدير

ولما اقبل اخوها ومن معهُ اسرعت الى استقبالهِ وقد ورَّد السرور وجنتيها وشعرت اول مرةٍ في حياتها بفرحٍ غير متعلق بنذورها

و بعد ما استقبلت رئيسة الدير وراهباتهِ ضيفهنَّ العظيم ورحبن بهِ الترحيب اللائق بشأنهِ ذكر على مسامعهنَّ الغرض الذي لاجلهِ عزم على الزحف بجيوشهِ الى الارض المقدسة راكباً الاهوال ومقتحماً الاخطار حباً بشأن الدين والذود عن ذمارهِ وشرع يصف بفصاحتهِ المعهودة سقوط المدينة المقدسة والمشاقّ العظيمة القائمة في سبيل الناهضين للجهاد في استرجاعها والافراح المعدة لاولئك الذين نشطوا للأخذ في هذا العمل الخطير

فانشأ هذا الكلام ميلاً جديداً في قلب الاميرة متيلدة ولم تلبث أن أعلنت رغبتها في مرافقة اخيها الى الارض المقدسة قبل ان تحتجب عن العالم

ولم تجد لها معارضاً في ذلك لأن زيارة الارض المقدسة كانت تعدُّ في تلك الايام اعظم ضحية مقبولةٍ عند الله وخير استعدادٍ للتبتل

فتقدمت الرئيسة الى متيلدة وجعلت في عنقها ذخيرة علامة ايمانها الرمزية واخذتها الى الملك ووضعت يدها في يده وقالت : —

" لا تستطيع جلالتك ان تدرك قيمة هذه الوديعة التي استودعك اياها ولا ما يذخره فؤادها من الطهارة والتقوى . واني أتوسل الى العناية السرمدية ان تقي هذه النفس الشريفة وتحمي حياتها الطاهرة . "

ثم التفتت الى رئيس الاساقفة وقالت :—

" واما أنت ايها الاب المحترم فاني استودعك نفساً انقطعت منذ طفوليتها لعبادة الله وأرجو ان تبقيها اهلاً لهذا المقام السامي الخطير . وانتِ يا ابنتي العزيزة احرصي على قلبك حتى لا تبتلعهُ كبرياء حصولك على هذا الامتياز العظيم ولا تدعي حمامة الوداعة والتواضع تهجر حمى نفسك الطاهر واذكري على الدوام انهُ ما من مقام — مهما كان رفيعاً ولا من طبيعة — مهما كانت مقدسة — في أمنٍ من التجربة . فسدّي أذنيك دون الاصوات التي يُراد بها تجربتك واغراؤك واصغي على الدوام الى ما يُسرّهُ اليك الروح القدس فلا يعود لصوت العالم سبيل للبلوغ اليكِ "

فقال الملك :— " كوني مطمئنة ايتها الرئيسة المحترمة فبحول الله وقوة حسامي تكون أختي في معسكري كما كانت ضمن اسوار هذا الدير من حيث الأمن والاعتزال عما يكدّر صفاء طهارتها ونقاوة آدابها "

ثم اشار بالانصراف وخرج بعد ما ودّع الرئيسة والراهبات اللواتي ودّعن متيلده الوداع الاخير واستودعنها عناية القدير

ولما اخذت اسوار الدير تتوارى عن نظرها شيئاً فشيئاً ابتدأت تضطرب وتنزعج ولاسيما لما لاح لديها الافق عن بعد شاسع فسألت اخاها بحيرةٍ ولهفة عن المسافة التي تفصلهما عن الارض المقدسة فاجابها ضاحكاً من سذاجتها : —

" يجب ان نقضي يا عزيزتي اياماً بل شهوراً طوالاً قبل ان نصل الى المكان المقصود . ولكن ماذا يخيفك يا متيلدة اما قلتُ لكِ منذ هنيهة ان هذا الصارم البتّار يقيكِ جميع المخاوف والاخطار "

ولا حاجة الى وصف المؤثرات التي احاطت بنفس متيلدة في اثناء هذا السفر الطويل المحفوف بالمشاق والاهوال . فللقارىء ان يتصوّر ما تؤثرهُ انواء البحار وعصف الرياح وعجيج الامواج وصراخ البحارة واغاني العساكر في فؤاد فتاةٍ لم تعرف قبل الآن غير غرف الدير ولم

تسمع سوى اصوات الراهبات في إنشاد التسابيح

ولما بلغ رتشرد مسينا عرَّف اختهُ بخطيبتهِ وما ابطأَت هاتان الفتاتان ان تعارفتا وتآلفتا ووجدت كلٌّ منهما برفيقتها خير ما صبت اليهِ نفسها

الفصل الثاني

تاج واكليل

ان الاختلاف الذي نشأ بين رتشرد وفيليب اغسطس وكان منشأُهُ في الغالب تنكرد ملك صقلية المنافق حال دون احتفال ملك انكلترا باقترانهِ بخطيبتهِ في مسينا ولم يعد يتمكن من هذا الاحتفال الا بعد غلبتهِ على قبرس

فبعد ما قهر اسحق ملك قبرس واستأثر بعرشهِ زاد تاجاً آخر على رأس برنغاريا

ولما ذاعت انباء انتصارهِ اسرع اليهِ لوسيان ملك القدس وهو شابٌّ متغطرس متصلفٌ لم يتمكن من صيانة عرشهِ مع شدة بسالتهِ وشجاعتهِ . وكان في هذا الوقت مخلوعاً مطروداً وقد ضعف حقهُ في المطالبة بهِ لان كونراد مركيز مونفرات كان يعارضهُ فيهِ

على ان نفسهُ ظلَّت تحدّثهُ بامكان استرجاع تاجهِ من ايدي اعدائهِ ولهذا جاء يستعين برتشرد على مناظرهِ كونراد الذي اخذ فيليب اغسطس بناصرهِ وصرَّح حين جاء الى سورية بصدق دعواهُ وصحة طلبهِ . فقويت شوكة كونراد حاكم صور المدينة الوحيدة التي بقيت في حوزة الصليبيين في سورية واغلق ابواب عاصمتهِ في وجه لوسيان ورفع عليها راية التمرد والعصيان

وكان ريموند امير انطاكية وبوهيموند امير طرابلس ورينود امير صيداء وليونراد امير ارمينية وغيرهم من امراء الصليبيين قد صحبوا لوسيان الى قبرص يتظلمون الى رتشرد ويستعينون بهِ على ردّ حقوقهم المهضومة فوعدهم بانهُ لن يبرح بلاد الشام حتى يثبت كلاًّ منهم في امارتهِ لكنهُ ابى لعزة نفسهِ قبول ما عرضوهُ عليهِ وهو ان يكون ملكهم المطلق السيادة ويكونوا هم أُمراء تابعين لهُ يؤدون اليهِ الجزية . وطلب منهم ان يمكثوا عندهُ ويحضروا احتفال اقترانهِ ببرنغاريا فاجابوهُ الى ما طلب بمسرةٍ وارتياحٍ لا مزيد عليهما

وقد جرى ذلك الاحتفال على وجهٍ تجلَّت فيهِ الابهة والعظمة بابهى المجالي وابهر المظاهر وكان اول احتفال دنيوي حضرتهُ متيلدة وهي سادلة برقعها الطويل على محياها الجميل فاذهلها هذا المشهد العظيم وراع طهارة نفسها

وكان لوسيان جالساً بجانب اخيها الملك فاستشفَّ من خلال برقعها لمحات من حسنها البديع انشأَت فيهِ ميلاً شديدًا اليها . ولكنهُ ما أَبطأَ ان ذكر زوجتهُ سيبل ونذور متيلدة الدينية فتصوَّر الموانع التي تحول دون الجري في سبيل هذا الميل الجديد واضطر ان يطويهُ في صدرهِ على علاتهِ ولا يبوح بهِ في الوقت الحاضر الاَّ لذاتهِ

وبعد انقضاء احتفال الزواج نهض الملك رتشرد يتأَهَّب للاقلاع الى فلسطين . لكنهُ اذ علم من لوسيان ان بحر الروم مغشي بسفن العرب من شمال سورية الى مصر وان الملك العادل اخا صلاح الدين واعظم ابطال الشرق يروح ويجيء في عرض البحر ابى ان يسمح لزوجتهِ وشقيقتهِ بالذهاب معهُ والتعرض لاخطار الحرب التي تتهددهُ وحدثتهُ نفسهُ المطبوعة على ركوب الاهوال ومصادمة الابطال ان يلاقي خصمهُ في ساحة لاتعاق فيها ذراعهُ الشديدة عن الطعن والضرب بالدفاع عن اعز الناس عندهُ . فارتأَى ان يتركهما واعوانهما في قبرس وينطلق هو اولاً برجالهِ حتى اذا بلغ العرب خبر خروجهِ تجمعوا عليهِ من كل صوبٍ وتركوا البحر مفتوحاً . وبناءً عليهِ امر ان السفينة المعدة لزوجتهِ واختهِ وحرمهما لاتقلع من قبرس حتى يكون هو وجيشهُ قد دخلوا ميناء عكاء

فاذعنت متيلدة لمشيئة اخيها بلا توقف لانها متعودة على الطاعة الكاملة منذ ميطت عنها التمائم . اما برنغاريا فراعها خبر هذا الفراق الفجائي وجثت عند قدمي زوجها متوسلة اليهِ ان يسمح لها بان تقاسمهُ الاخطار المزمع ان يخوض غمراتها

وعلى رغم شدة تأَثرهِ من حزنها واكتئابها لبث مصرًّا على عزمهِ موضحاً لها ان حضورها معهُ يضعف شجاعتهُ التي لم يعترها ضعف حتى الآن ويحدث فيهِ قلقاً واضطراباً لم يشعر بهما من قبل وربما اضطرَّ ان يتنكب حرباً لابد لهُ من خوض غمارها واقتحام اخطارها

وكان من عزم الملكة ان تزيد في الحاج وتكثر من الالحاح ولكن الملك كان ذا عزيمة ماضية لم يُقدم احد قط على معارضتها فاشار الى الملكة ان تلوذ باطراف السكوت وتجيبهُ الى ما اراد بملء الطاعة والامتثال . وبناءً عليهِ سكتت خوفاً من غيظهِ ولم تُحرِ جواباً

ولما أُقلع من قبرس سار معهُ ملك القدس واعوانهُ الامراء وبقي مع الملكة دوق نورثمبرلند ودوق غلوستر وسيمون دي مونتفورت كونت ليستر وبعض اشراف فرنسا منهم البطل أَدم دي تورين كبير الحجاب وانجوران دي فاين وجوسلين دي مونمورانسي وهذا الاخير كان شاباً حسن المنظر جميل الطلعة شديد البأس ومع انهُ كان في مقتبل العمر وزهرة الصبوة فلقد طالما عمل اعمال صناديد الرجال وأَقدم إِقدام اعظم الابطال

واراد رتشرد ان يبقى رئيس اساقفة صور مع زوجتهِ وشقيقتهِ مخاطبهُ رامقاً الملكة بنظرٍ يشفُّ عن شيءٍ من التوبيخ اللطيف :—

" انهما مفتقرتان ايها الاب المحترم الى تعليمك اياهما ان تعبدا الله بالصبر والطاعة كما نعبدهُ نحن بالقوة والبسالة "

وبينما كان رتشرد واعوانهُ في عرض البحر طلع عليهم مركبان من مراكب العرب وفي كلٍّ منهما ثماني مئة رجل . وبعد قتال عنيف استظهر الصليبيون عليهما فاغرقوا احدهما واسروا الآخر واستأنفوا المسير بلا معارضٍ حتى رست سفنهم امام عكاء في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة ١١٩١

ولما دخل لوسيان المدينة بلغهُ خبر وفاة زوجتهِ سيبل فأزال هذا النبأ مانعاً كبيراً من طريق آمالهِ التي علل نفسهُ بها حين رأى متيلدة لكنهُ هددهُ في الوقت نفسهِ بخسارة فادحة من وجهٍ آخر لأن سيبل ابنة بودوين ووارثة عرش القدس الذي لم يتمكن من الجلوس عليهِ الاَّ بالاقتران بها . والآن بموتها يتحوَّل هذا الحق الى شقيقتها زوجة خصمهِ مركيز مونتفرات فترجح كفتهُ عليهِ . لكنهُ مع هذا كلهِ ظلَّ متقوياً برتشرد ولم ينفك يجاهر بحق انتقال الملك اليهِ . وكان من حزبهِ البيسانيون والفليون وامراء مار يوحنا . واما الهيكليون والجنويون والالمانيون المنقادون الى فيليب اغسطس فكانوا من حزب كونراد مركيز مونتفرات الذي تباهى بكونهِ حاكم صور وهزئ بمناظرهِ لوسيان الذي كان ملكاً بلا تاجٍ ولا شعبٍ

وفيما كانت هذه المظاهرات العدائية مستحكمة في معسكر الصليبيين كان السلطان صلاح الدين يعنى بتحصين بيت المقدس وتوفير اسباب مناعتهِ حتى لا يقوى اعداؤُهُ على استرجاعها في المستقبل

وكان معسكر رتشرد في جهة البحر بحيث يسهل عليهِ ان يرقب حركات المحاصَرين ويمنع عنهم النجدات برًّا وبحرًا

وفي شرق المدينة خفقت رايات فيليب اغسطس مقابل امنع ابراجها المدعو بالبرج " الملعون " . وفي قلب المعسكر نشرت اعلام النسر الالمانية . وكانت هذه الجيوش الثلثة تتميز بعضها عن بعض بلون الصليب المعلمة بهِ راياتها . فكان في راية فرنسا احمر قانياً وفي راية المانيا ابيض يققاً وفي راية انكلترا اخضر حانئاً

وكان ديوان رتشرد يفوق الدواوين الاخرى في مظاهر الابهة والعظمة وفاخر الاثاث والرياش . اما ديوان فيليب فكان بسيطاً جدًّا من هذا القبيل لكنهُ عامر بنخبة اشراف فرنسا وعظمائها

ولم يستحسن رتشرد ان يقضي الزمان باطلاً في ظلال الترف والتنعم فالحّ بوجوب تشديد الحصار على عكاء لأن الاسراع في فتحها يسهل عليهم استرداد القدس. لكن كونراد المتغطرس أبى ان يترك حصنهُ صور ويشدّ ازر الصليبيين ما لم يعدوهُ بتاج بيت المقدس . وظلّ فيليب ايضاً ملازماً جانب السكون غير مبدٍ في هذا الامر حراكاً لانهُ احبّ ان يؤيد كونراد في ما اراد ورام ان يخالف رتشرد في رأيهِ تشفياً منهُ او حسداً لهُ فلم يوافقهُ على تشديد الحصار ولا شاركهُ في الهجمات العامة بل اقتصر على مناوشات طفيفة ليست بذات شأن

ولما رأى العساكر ما بين اعاظم قادتهم من الشقاق وعدم الاتفاق جاهروا بالتذمر والشكوى وانكروا عليهم هذا الفعل المعيب الذي يخشون انهُ يحول دون بلوغ الغاية التي تجنَّدوا للجهاد في سبيلها ويريحوا اوطانهم حباً بتحصيلها

وكان لوسيان هذه المدة كلها ملازماً للملك رتشرد متصلاً بهِ غير منفصل عنهُ دقيقة واحدة — لانهُ منذ وفاة قرينتهِ سيبل أصبح يتوقع صحة ما حلم بهِ من جهة الاميرة متيلدة . وقد نشطهُ الى ذلك ما تمكَّن بينهُ وبين اخيها من علاقات الصداقة وصلات المحبة — فكان رتشرد مرجع نجاح لوسيان وتحقق امانيهِ في الامرين — متيلدة وعرش القدس

ولما كان رتشرد صادق العاطفة سليم النية انخدع بملث لوسيان وتملقهِ ولم يرتب في صدقهِ وإخلاصهِ فازداد تعلقاً بهِ حتى انهُ لم يعد قادراً على مفارقتهِ . فكانا من ذلك الحين ينامان في خيمة واحدة ويأكلان على مائدة واحدة ويحاربان في جهة واحدة . ويقتسمان الغنائم بنسبة واحدة حتى اوشكا ان يكونا شخصاً واحداً ونفساً واحدة

الفصل الثالث

أسر الملكة والاميرة

اما الملكة فكانت منذ فارقها الملك تقضي معظم وقتها في البكاء والصلاة ممثلة لعينيها ذهاب من تحبهُ نفسها فريسة في ايدي الاعداء وكثيراً ما رأتهُ في نومها مضرَّجاً بالدماء او رامفاً بقيود الاسر يقاسي صروف العناء . وقد حاول رئيس اساقفة صور تسكين اضطرابها وازالة قلقها فكان كمن يحاول ان يقبض الهواء او يكتب على صفحات الماء . على ان ما عجز عنهُ رئيس الاساقفة تمّ بما لا مزيد عليهِ من السهولة والسرعة عند وصول المرسلين من قبل الملك يدعونها اليهِ

ومع ان البسالة عُدَّت في هاتيك الايام من لوازم الامارة ومميزاتها وكان حرس الملكة

من اعظم اشراف اوربا وأُمرائها لم يكن واحدٌ منهم يجسر ان ينظر الى اقنوم متيلده الطاهر الاَّ بعين الخشية والوقار لأَنها مع ما ازدانت بهِ من رائع الحسن وفائق الجمال كانت ممتازة بمظهر طهارة وصلاح تسكن عندهُ كل حركة تنشأُ عن الميل العالمي . وذلك كان واقياً لها من جوامح الحبّ وطوائح الاهواء . وقلما كانت تظهر للرجال ولكنها اذا ظهرت كان الناظر اليها مطرقة متحجبة يتحوَّل عن الاعجاب بمنظرها الوسيم الى الخشية والوقار والتجلة والتكريم قائلاً في نفسهِ ما هذه بشرًا ان هي الاَّ ملك كريم

وكانت الملكة قد أَلفتها واحبتها حبًّا لا مزيد عليهِ . فشقَّ عليها ان تراها في هذه العيشة الخشنة المقضية بالتقشف وقمع الجسد وحبس النفس حتى انها حاولت غير مرة ان توقظ مطامعها بالاشارة ولو من طرف خفيٍّ الى الامراء والملوك الذين يودون ان يطرحوا تيجانهم عند قدميها متسابقين الى نيل نعمة في عينيها . وكثيرًا ما مثلت لها الافراح الناشئة عن الاتحاد بالزواج فلم تلقَ منها الاَّ اعراضاً وارتباكاً — لا خوفاً من التجربة بل انكارًا لاشارات كهذه تأباها نفسها الطاهرة ويمجها ذوقها الصالح

وبعد ما اقلعت السفينة التي استقلتها الملكة واعوانها من جزيرة قبرص جرت الرياح على ايثارها ووفق مشتهاها وسارت تشق عباب المياه حتى اقبلت على عكاء واستطاع الركب ان يتبينوا المدينة ولو على بعد شاسع . واذ ذاك هبت ريح عاصف بقوة لاتقاوم وخيبت كل مساعي البحارة في دفع السفينة الى البر

وظلت السفينة ساعات تترنح ترنح السكران وتضطرب اضطراباً ضاعت في تسكينهِ حيلة البحارة والربان حتى كانت اشبه بكرة تتقاذفها التيارات المتلاطمة والامواج العاجة . ثم مالت العاصفة في مهبها الى الجنوب الغربي ودفعت السفينة على تخوم دمياط الرملية . ولم يلبث العرب المرابطون هناك ان رأَوها من بعيد فاسرعوا الكرة عليها طامعين في اسرها وسبي من فيها

ولكن لم يكن حصولهم على ما طمعوا فيهِ بالامر السهل لان الرجال الذين يحاربون دفاعاً عن ملكتهم والامراء الذين كان من اكبر فروضهم تضحية نفوسهم في سبيل صون الجمال والدين لايسلمون للاعداء قبلما يصلونهم حرباً وعواناً . ولذلك برز في طليعة الامراء اصغرهم سنًّا واشدهم بأساً اعني بهِ جوسلين مونمرانسي فاستل حسامهُ وهجم هجمة الاسد الضرغام وصدم خصومهُ صدمة لم يستطيعوا عندها ثباتاً فاضطروا الى الاحجام . واذ ذاك اقبل من ميناء دمياط مركب آخر مشحون بالكماة فحول ميل كفة الانتصار في ذلك النهار . ولما ابصرهُ الذين كانوا في المركب الاول وشاهدوا في مقدمهِ رجلاً طويل القامة بادي الهيبة هتفوا من شدة

الفرح : — " الملك العادل ! الملك العادل ! الحمد لله الحمد لله "

ثم استأنفوا الهجوم وجدّدوا القتال . اما جوسلين فوطّن نفسهُ على ان يموت موت الابطال ويبيع حياتهُ بارواح من يقفون في طريقهِ من الرجال . وطفق يدور ويجول ويفتك ويصول حتى قطعت فتكاتهُ عزائم الشجعان واقام حولهُ سوراً من الهامات والابدان

وفيما كان رئيس الاساقفة في خيمة الملكة قائماً بحراسة الاميرتين سمع العرب يهتفون هتاف الانتصار فغشيتهُ سحب اليأس وقال لهما : —

" شاركاني يا ابنتيّ في التوسّل الى الله الذي عليهِ وحدهُ يجب ان نعتمد الآن لنجاتنا — هوذا الملك العادل هنا — الملك العادل الذي لا تستطيع قوة في الارض ان تقاومهُ "

وبعد ما جثتا معهُ للصلاة الى الله التماساً للخلاص من وهدة المخاطر التي انطبقت عليهم سألتهُ الملكة مضطربة : —

" من ذا العربيُّ الذي انذرتنا بقطع الامل من النجاة منهُ ؟ "

فاجابها : — " هو الملك العادل اخو السلطان صلاح الدين والدُّ اعدائنا وقد شاهدتهُ بعيني مادّاً مطار النار والدمار على مدننا واهرائنا . ولولاهُ لم تسقط القدس في ايدي المحاصرين مهما طال امد الحصار ولا دخلها صلاح الدين بموكب الظفر والانتصار "

وفيما هو يتكلم ارتفعت اصوات السلاسل والاغلال مؤذنة بانتهاء القتال فهرع الى الخارج مندفعاً بين اخوتهِ لعلهُ يستطيع تخفيف العذاب الذي أُعدّ لهم . وكان يعرف الملك العادل من وقتٍ طويلٍ ولا يجهل ما لهُ عندهُ من كرامة الشأن وحسن الرعاية

فتركت الاميرتان وحدهما تتوقعان ما سيحلُّ بهما واستسلمت الملكة لعوامل الحزن واليأس من جرّاء هذا الخطب المفاجيء الذي سوف يقضي بتطويل شقّة بعادها عن زوجها ورفعت يديها تدعوهُ مستغيثةً بهِ . وضغطت متيلدة الذخيرة التي في صدرها المهداة اليها من الرئيسة مستمدّةً غوثاً من ذلك الذي اتجهت كل افكارها اليهِ وأصبح معوّلها في النجاة عليهِ

ثم فُتح باب خيمتها بغتةً ودخل منهُ رجل ذو هيبةٍ ووقارٍ وسيادةٍ خُلقَ لها وخلقت لهُ هذا الرجل الجليل خاطب الملكة بلغتها قائلاً

" لاتخافي ايتها السيدة ان ملكة انكلترا وجميع من هم معها امرائي — لكنهم لن يكونوا ابداً عبيدي . ولسوف تنقلون الى قصري حيث يحفُّ بكم رجالي وتعاملون بما تستحقون من الإِكرام وتمكثون مقيّدين بوعدكم فقط حتى يتمكن اخي صلاح الدين من مفاوضة رتشرد في امركم "

فارتعدت فرائص متيلدة عند سماعها هذه الكلمات لانها حققت مخاوفها وهمّت ان تنسلّ من جانب الملكة وتحجب عن النظر ولكن الملكة ادركت ذلك فامسكت بيدها وقدّمتها الى الملك العادل قائلة : —

" ان هذه ايها الامير شقيقة رتشرد تقاسم زوجتهُ الاعتراف بحسن صنيعك فاعتمد كلامنا وثق بنا ولسوف تجدنا اهلاً لذلك "

فتقدم الملك العادل الى متيلدة ومدّ يدهُ ليصافحها فحنت رأسها ونكصت الى الوراء وزادت في التحجب والتستر

ولما جاء الملك العادل باسراهُ الى ظهر سفينتهِ اعانهُ النور على تحقق ملامح كلٍّ من الاميرتين اللتين وقعتا في قبضة يدهِ . وكانت الاميرة متيلدة قد حسرت قناعها ليسهل عليها النزول الى الزورق الذي أُعدّ لنقل الاسرى الى دمياط فراقهُ ما ابصرهُ في وجهها البديع من الحسن الفاتن والجمال النادر المثال ولم يكن يعلم شيئًا عن الحاجز الذي اقامهُ في وجههِ قانون الرهبنة فضلاً عن العوائد القومية . فترك الملكة واسرع الى جانب متيلدة واخذها بيديهِ وحملها نازلاً بها الى الزورق ووضعها على متكاٍ وجعل يتفرّس فيها بنظرٍ يتّقد شوقًا وحبًّا

وقد جرى هذا كلهُ بسرعة لا مزيد عليها حتى اخذت متيلدة دهشة وحيرة لم تقوَ معهما على ابداء اقلّ مقاومة ولبثت دقائق لا تبدي حراكاً كعصفور في قبضة الصياد . ثم وثبت على قدميها ورفعت نظرها الى وجههِ وهي تتوقع ان ترى فيهِ اقبح هيئةٍ لكنها دهشت اشدّ الدهش عند ما شاهدتهُ ذا صورة جليلةٍ وملامح جميلة ومظاهر خطيرة تشفّ عن عزّة نفسٍ خليقة بالاجلال وتدلّ على رفعة شأن يندر ان يكون لها نظير عند افضل الرجال

فألقت بنفسها عند قدمي رئيس الاساقفة الذي عطف عليها وهي تواري خدّيها المصبوغين بحمرة الخجل في مطاوي ردائهِ وتذرف دموعًا احرّ من الجمر

فأدرك رئيس الاساقفة ما نالها فأجلسها وبذل جهدهُ في مؤاساتها ثم التفت الى الملك العادل وقال لهُ

" اعلم ايها الملك ان هذه الفتاة ليست كباقي الفتيات بل هي من سلالة ملوك انكلترة تخلت عن مقامها العالي الرفيع ووقفت حياتها على خدمة الله . وأقل لمسٍ بثوبها من رجلٍ يعدّ تدنيسًا لتبتلها الطاهر المقدّس . فاسمح لها اذًا ايها الامير المعظم ان تبقى امينةً لنذورها آمنة في تزهدها حتى يقضي الله بتعيين الوقت لاتفاق صلاح الدين ورتشرد من جهة اطلاقها "

وكان الملك العادل لم يزل شاخصًا في تلك الفتاة الحسناء مسحورًا بجمالها البارع فأجابهُ

" يصعب عليَّ تصديق ما قلتهُ ان لم تشهد على صحتهِ الاميرة نفسها ." ثم التفت اليها وسألها :—

" أصحيح ما سمعتهُ الآن ايتها الاميرة انك منقطعة الى زهدٍ ابدي تخفين فيهِ محاسن لم تنظر عيون البشر اجمل منها ؟ "

فرفعت نظرها نحو السماء من غير ان تنظر اليهِ وقالت :—

" اللهمَّ انت تعلم ان اسمى غايات نفسي ان اخدمك خدمة انفصل فيها عن العالم كلَّ الانفصال "

فقال الملك العادل لرئيس الاساقفة

" ساعمل ايها الاب المحترم بمقتضى ارادة اميرة انكلترة فتعيش في قصري عيشة تنطبق على عوائدها واميالها "

ثمَّ ركب زورقهُ الخاصَّ وسبق الاسرى الى دمياط

ولما قربوا من الشاطئ وجدوا على الرصيف محفاتٍ معدة للاميرتين وحشمهما. والباقون من الاسري – ما عدا الجرحى – مشوا على اقدامهم . اما مونمرانسي فاذ كان مثخنًا بالجراح ومغشيًّا عليهِ من شدة النزيف وُضع على لوح من خشب وحمل الى قصر الملك العادل

وكان الملك العادل يقيم في دمياط بقصر الخلفاء القديم الباقية فيهِ آثار الزخارف شاهدة على عظمة اصحابهِ الاولين . فكانت ارضهُ مرصوفة بانفس الرخام والمرمر وجوانبهُ مزدانة باعمدة البرفير والحجر السماقي وجهاتهُ الاربع محاطة بالحدائق الغنَّاء والجنان البديعة واعاليهِ زاهرة بالمقاصير الانيقة والعلالي الرفيعة ومداخلهُ الخاصَّة مخفورة بالخصيان وابوابهُ العامة محروسة بنخبة الشجعان

وقد اعد منزلاً لائقًا باسراهُ الاشراف وعين قصرًا آخر للاميرتين ورئيس الاساقفة وامر اجابةً لالتماس الملكة ان يتولى خدمة الاسرى رجال مسيحيون واذن لرئيس الاساقفة ايضًا ان يمارس طقوس الكنيسة في غرفة داخل القصر وسمح لاعوان الملكة من الامراء والاشراف ان يتولوا خفارتها والقيام بخدمتها في ساعات معينة من النهار

وكان قصر الاميرتين مفروشًا باثمن البسط الفارسية ومضمخًا بانفس الاطياب الشرقية من بخورٍ وندٍّ وعودٍ ومرٍّ تفوح روائحها من المباخر الذهبية معطرة الارجاء . وكان صحنهُ مغشى بالفسيفساء وفي وسطهِ اربعة تماثيل من البرفير تندفق منها مجاري المياه المعطرة الى حوض من المرمر ثم تندفع من وسطهِ ناشبةً على اشكالٍ هرمية مبردة الهواء ومطربة المسامع بخرير

اعذب من توقيع الغناء · وحول تلك التماثيل متكآت فاخرة تبسم للجلوس عن ثغر الراحة والرخاء وعلى الشبابيك مجوف حريرية تلطف اشعة النور وتأذن لنسمات الهواء ولا تحول دون تمتع الناظر برؤية الورد وازهار الليمون والآس والرمان المائجة بين يدي النسيم والفائحة بارج طيب يشفي السقيم

وما أبطأ الملك العادل ان انفذ الى اسراه عبيداً حاملين سلالاً مملوءة من اشهى الثمار واجمل الازهار وانفس الحلويات واطيب الاشربة

وقد قضت الملكة ليلتها بالبكاء والنحيب واحيتها بالتنهد وذرف الدموع · اما متيلدة فمع شدة بكائها وجدت في فؤادها شيئاً من الصبر والتسليم لمشيئة الله

وفي الصباح زارها رئيس الاساقفة فسألته الملكة عن الملك العادل قائلة : —

" انك ايها الاب المحترم مستوطن اسيا وبطريرك صور منذ ثلثين سنة ومستشار ملوك القدس وسفير في بلاط صلاح الدين · فلا بد ان تكون اعلم من كثيرين غيرك بعوائد عدونا وصفاته ونقدر ان تخبرنا بالوسائل التي يمكننا اتخاذها لاطلاق سبيلنا "

فاجابها "اني اعلم الناس بنشأة صلاح الدين ومقدار قوته ولي اطلاع تام على جميع الفضائل التي تزين صفاته . واعلم ايضاً ما لاخيه الملك العادل عنده من نفوذ الكلمة ومضاء الامر · والله يعلم كم كنت انال من الامتيازات المفيدة النافعة لو اذن لي ان اسعى في تحصيلها بالحكمة والتعقل بواسطة هذا الامير المتفرد في اريحيته وكرامة نفسه · فيالت رجالنا اعاروا نصائحي جانب الاصغاء بل ليت لوزنيان واموري وثقا بما لي من الاختبار فكانت الارض المقدسة سليمة من الارزاء التي تعبث بها اليوم وتلعب وتأكل عليها وتشرب "

وهنا تنهد الحزين الآسف واطرق غارقاً في لجج التأملات · ثم ثاب اليه التجلد وعاد الى الجواب على سؤال الملكة قائلاً

الفصل الرابع

صلاح الدين والملك العادل

" نشأ صلاح الدين واخوهُ الملك العادل في بلاط اتابك نور الدين في دمشق . وكان ابوهما ايوب قد بذل جهدهُ في تهذيبهما وهو لا يتوقَّع شيئاً من العظمة المذخورة لهما في المستقبل . ولما كان شديد الاخلاص لمليكهِ الذي احبهُ محبةً لا توصف تجرَّد لإجراء كل ما يسرُّهُ من اعمال الفتح والتدويخ والإصلاح فكان افضل مثال لابنيهِ في الامانة والطاعة لسلطانهما . ولم يظهر على صلاح الدين في طفوليتهِ علامات عظمة مستقبلة ولا لوائح بسالة خارقة . اما الملك العادل فكان من نعومة اظفارهِ ميَّالاً الى كل ما يبدو فيهِ حبّ اكتساب المجد والشهرة .على انهما مع اختلافهما في الطباع والاميال كانا مرتبطين بمحبة اخوية شديدة الإحكام متينة الالتحام ومتحدين في الطاعة للشريعة الاسلامية بما لا غاية بعدهُ من الاجلال والاحترام

" وقد صحبا عمهما شيركوه الى مصر عند ما ارسلهُ اليها اتابك نور الدين ليستأصل منها الخلافة الفاطمية ويقيم الخلافة العباسية مكانها . ولم يلقَ شيركوه في هذه المهمة موانع تحول دون بلوغ ما اقدم عليهِ لأن مصر كانت حينئذٍ في غاية الضعف وقد جعل العاضد لدين الله مهامها في ايدي اناسٍ اضعف منهُ همةً واقلّ عزماً واقداماً . فلما بلغهُ خبر قدوم شيركوه في خيلهِ ورجلهِ نهض يروم الدفاع فلم يجد اليهِ سبيلاً فعمد الى الحيلة واستمال عدوهُ بالرشوة وعرض على شيركوه نصف ما في خزينتهِ من المال وانهُ يجعلهُ اكبر وزرائهِ

" فبهرت هذه الرشوة العظيمة عيني شيركوه فاقسم لصاحب مصر بتأييدهِ وعدل عن اتمام ما ارسلهُ اتابك نور الدين اليهِ -- ولما سمع الملك العادل بما عزم عمهُ عليهِ وبخهُ توبيخاً شديداً وتهدَّدهُ علناً بالشكوى الى نور الدين — فحمي غيظ شيركوه على ابن اخيهِ وكاد يوقع بهِ لولا توسط صلاح الدين بالصلح بينهما

" ولما ذهب شيركوه بابني اخيهِ الى الخليفة دهش صلاح الدين مما شاهدهُ من مجالي الابهة والعظمة ومظاهر الثروة والغنى وايقظ في فؤادهِ مطامع لم يشعر بها من قبل واغراهُ بالطموح الى الاستئثار بسلطة مطلقة لا يكون فيها لاحدٍ غيرهِ اقلّ دخل . ولم تلبث هذه الاماني ان تمكَّنت منهُ حتى وطَّن نفسهُ على الجري في تيارها واخذ يتوقع سنوح الفرصة لاخراجها من حيز القوة الى الفعل

" ولما توفي شيركوه استوزر خليفة مصر صلاح الدين فكان ذلك بشيرًا بصحة احلامهِ وتحقيق امانيهِ • ثم مات الخليفة واستأثر صلاح الدين بالسلطة والحكم ورأى ذلك الملك العادل فكبر عليهِ الامر واجتمع باخيهِ ولامهُ على ما فعل لانهُ يشين اسمهما وصيتهما فضلاً عن انهُ ينغص عيش ابيهما الشيخ ويغضّ من كرامتهِ • وذكَّر اخاهُ منن سيدهما نور الدين الذي مهَّد لهما سبيل الارتقاء الى هذا المقام السامي

" ولما رآهُ مصرًّا على عزمهِ وغير مبالٍ بنصائحهِ وتوسلاتهِ تركهُ وشأنهُ ووجه اهتمامهُ الى محاربة الصليبيين • ولا حاجة الى وصف ما ساقهُ الى ارض فلسطين وسكانها من الاجتياح والاكتساح اذ لم تصدهُ الحصون والقلاع ولا أرهبتهُ الجيوش والفيالق بل كان كما لقبهُ شعبهُ اسد النزال وصاعقة القتال • وفي تدمير الرملة وطبرية ودكّ طرابلس وبيت لحم وتدويخ عكاء وبيت المقدس ما ينبئ عن ذلك بمزيد الجلاء ويدلُّ على ما نحن فيهِ من البؤس والشقاء "

ثم انقضت عدة ايام لم يقدر فيها رئيس الاساقفة ان يزور الاميرتين الاَّ في ساعة الصلاة فانقطع عن تتمة حديثهِ لهما وكان في ما بقي من وقتهِ مشغولاً اما مع الملك العادل الذي سألهُ ان يطلعهُ بالتفصيل على عوائد اهل اوربا وشرائعهم واخلاق ملوكهم وعظمائهم او في عيادة المرضى والجرحى من الاسرى . وكان يقضي كل يوم ساعة او ساعتين عند مونمورانسي الذي كانت جراحهُ تنذر بالخطر على حياتهِ وهو صابر على آلامها صبر الكرام • على ان العناية الشديدة التي بذلت بهِ تغلبت اخيرًا على الخطر فأزالتهُ شيئًا فشيئًا واخذت تظهر عليهِ علامات البرء والشفاء • وقد سرَّ الملك العادل بهذا الخبر لانهُ كان قد رأى من مونمورانسي بطلاً مغوارًا فسرَّ ببشرى ابلالهِ ولو كان من اعدائهِ

ولما سنحت للملكة فرصة أُخرى سألت رئيس الاساقفة ان يطلعها على ما فعلهُ نور الدين سلطان دمشق بصلاح الدين جزاء خروجهِ عليهِ في مصر فقال :—

" بينما كان الملك العادل يوقع بنا صنوف الويل والخراب كان نور الدين يتأهب للزحف على مصر والاقتصاص من صلاح الدين . وبعد ما خرج لطيتهِ ادركتهُ المنية وحالت دون ادراكهِ لهذه الامنية وخلا الجوُّ لصلاح الدين من كلّ جهة • ثم تزوَّج ارملة نور الدين ونال بهذا الاقتران زيادة المنعة في ما أَخذهُ من السلطة والسيادة • وانقطع اخوهُ الملك العادل عن مجافاتهِ . ومن تلك الساعة ثبتت عرشهُ واصبح حائزًا لجميع دول المشرق المتحدة .

" وقد تكلَّل الصلح بين هذين الاخوين بغزوات عديدة وفتوحات مجيدة كالموصل ودمشق وحلب ولم يثبت على قدم الدفاع في وجهيهما سوى بيت المقدس . على ان المنازعات الاهلية التي ثارت بين سكانها اوجبت الخوف عليها لأن اموري كان قد مات ولم يقدَّر لبودوين المنكود الحظ ان يعيش بعدهُ طويلاً فمهَّدت شقيقتهُ الكبرى سيبل طريق الجلوس على عرش القدس لزوجها لوسيان لانها هي الوارثة الشرعية . ولكنَّ كثيرين من الامراء اصحاب المدن الخاضعة لمملكة بيت المقدس لم يبايعوهُ وقام منهم كونراد مركيز دي مونفرات وادَّعى حق الملك لنفسهِ وعضدهُ ريموند صاحب طرابلس واوشكا ان يزيلا لوسيان من موقفهِ لولا فطنتهُ وصلابة وجههِ وشدة دهائهِ . ولما خاب كونراد من الحصول على ما اراد تهدَّد الصليبيين بالانحياز الى صلاح الدين ان لم يكرهوا لوسيان على ترك عرش القدس

" وفي تلك الاثناء استدعاني لوسيان اليهِ وقصَّ عليَّ تفصيل الشقاق الحاصل والنزاع الواقع واشار الى ما نتج عن ذلك من ضعف العزائم وفتور الهمم وانذرني بسوء مصيرنا ان لم نسرع الى التلافي والتدارك وطلب مني ان اذهب الى بلاط صلاح الدين في دمشق واسعى بالحصول على هدنة بشروط موافقة

" وقد اجبتهُ الى ما طلب مع شدة احترازي من أن اتهم بالتحزُّب لهُ والانحياز اليهِ . لاني مع عدم احترامي لصفاتهِ لم يسعني الاَّ الاعتقاد بانهُ اقدر من سواهُ على ارجاع السلام الى هذه المملكة المتداعية

" وقد قوبلت في دمشق باحتفاء واكرام لا مزيد عليهما ودُعيت يوم وصولي الى المثول امام السلطان صلاح الدين في سرادقهِ الخالي من كل مظاهر الزخرفة والتأَنُّق والتنعُّم . وكان صلاح الدين نفسهُ ممتازًا عن رعاياهُ بشدة بساطة ملبسهِ . ولما رآني حياني مبتسمًا واكرم اخوهُ مثواي وقال لي : —

" ان مجيئك الينا ايها الاب المحترم دليل على ميلكم الى المساهلة والاخلاص بالوعد فاعرض مقترحاتك على اخي فينظر فيها وانا أُعقب عليها بما يبدو لي . واننا مسرورون جدًّا من المعاملة الحسنة التي تعاملون بها اسرانا . وان حنوَّك ومحبتك شاملان جميع من هم في حاجة اليهما . ولهذا سوف تلقى في بلاط اخي من حسن الرعاية وكرم الوفادة ما أنت خليق بهِ ومن يزرع خيرًا يحصد ثناء وشكرًا ومن يكن نظيرك يجب ان يكون لهُ اصدقاء كثيرون "

الفصل الخامس

نظرة الحبّ

ثم اعترض ثمّة حديث وليم مجيء خصيٍّ من عند الملك العادل الى الملكة يخبرها بأنَّ سيدهُ قادم اليها عماً قليل لامرٍ ذي شأن

فلما سمعت متيلده هذا الخبر نهضت من مجلسها ورمقت رئيس الاساقفة بعين الاستشارة وقد تورّد محيّاها تورّدًا فجائيًا

فاطرق وليم هنيهةً يفكر في الامر ثم اخذها بيدها واجلسها بينهُ وبين الملكة وقال :—

" أُشير عليكِ ياابنتي ان تبقي لانَّ اقلَّ ارتيابٍ نبديهِ من الامير يغيظهُ . وافضل الوسائط للتغلُّب على عظماء الرجال هي ان نثق بهم ونركن اليهم . وعندي أننا قد نلنا ثقة الامير العادل بنا مذ الآن ودليلي على ذلك رغبتهُ في المجيء الينا "

فامتثلت متيلده اشارتهُ واسدلت برقعها وعزمت على البقاء في مجلسها . اما الملكة فلشدة اهتمامها بزوجها الغائب عنها لم تشكّ في انَّ الغرض من مجيء الملك العادل انما هو البحث في ما يتعلق برنشرد

ولما دخل حيَّا الملكة بلطفهِ المعتاد ونظر الى متيلده نظرة اغنت عن السلام والكلام ثم التفت الى رئيس الاساقفة وقال :—

" ايها الاب المحترم ان معرفتنا احدنا للآخر ليست جديدة . واننا على اتفاق من حيث الاخلاق والمبادىء وان اختلفنا من حيث المذهب والدين . واملي وطيد انك عند ما تذكرني امام هاتين الاميرتين العظيمتين وباقي اسراي الاشراف لا تمثلني لهم سيدًا غشومًا وعدوًّا ظلومًا"

فاجابهُ :—

" ان الاميرتين قادرتان ان تشهدا بما يحقق لك هذا الامل "

فقالت برنغاريا :—

" ان رئيس الاساقفة كان منذ هنيهة يقصُّ علينا الانباء التي تذيع شهرتك في كل مكان ونسوق اليك الشكر من كل لسان . فلم نعد نجهل ان الملك العادل انموذج الشهامة والكرامة كما هو مثال البسالة والاقدام . وانهُ على توالي انتصاراتهِ في ساحة الحرب والطعان باقٍ مصدر الرفق والحنان ففي الحرب تقهر ذوي البأس الاشدّاء وفي السلم تدين لدموع

ذوي البؤس والشقاء . وامامك الآن ايها الامير ملكة آسفة حزينة لا تبكي عرشاً تلتمس منك ارجاعهُ بل انما هي تطلب زوجاً ليس احدٌ سواك بقدر ان يردَّهُ اليها »

فاجابها : —

« لو كان ذلك منوطاً بي وحدي لاطلقتُ سراحك في الحال وسأرسل غداً الى أخي استأذنهُ في ذلك وما اظنهُ يودُّ إطالة مدة اسركِ . فثقي بكرامتهِ وصدق وعدي »

ثم التفت الى متيلده وسألها : —

« هل تشارك شقيقة رتشرد زوجتهُ في هذا الرأي ؟ »

فرفعت نظرها اليهِ وقالت : —

« نعم ولكن بعض المشاركة لا كلها لأن ما ذاقهُ رجالنا على يدك من غصص النكال يحول لسوء الحظ دون بلوغ اعجابي بك مبلغ الكمال »

فدهش الامير من جسارتها وراعهُ الاحتشام الذي لاح على وجهها عند تصريحها بافكارها واوجست برنغاريا خوف غيظهِ فبادرت الى الاعتذار عما بدر من متيلدة قائلة : —

« ارجوك الصفح عما فرط من فتاة نشأت منقطعة عن العالم الانقطاع التام وعسى ان إخلاصها وسذاجتها يمهدان لها عندك عذراً مقبولاً »

فاجابها : —

« ليس في إمكان اميرة ان تثير غيظي عليها »

وقال رئيس الاساقفة مستدركاً ايضاً : —

« ان الاميرة متيلدة انساقت الى هذا القول بعامل العطف والحنو على بني شعبها والرثاء لعشرات الالوف من الرجال الذين سفكت دماؤهم واناخ البؤس والشقاء على نسائهم واولادهم »

فدنا الملك العادل من متيلده واخذ يدها وقال لها : —

« ان لم يبلغ إعجابك بي مبلغ الكمال للاسباب المتقدم ذكرها فاعجابي بما لكِ من حرية الضمير والجمال المنقطع النظير بالغٌ اشدَّهُ بل فائق حدَّهُ »

فجذبت يدها من يدهِ والتفتت الى رئيس الاساقفة وسألتهُ ان يأذن لها في الذهاب فأذن ولم يعارض الملك العادل في ذلك وبعد خروجها قال وليم : —

« نعم ايها الامير ان جمال هذه الفتاة منقطع النظير لانهُ ليس من هذه العالم بل هو مجلى نفسٍ طاهرة لم يشبهُ قطُّ عيبٌ ولا دنسٌ ولولا الطهارة المتجمل بها هذا الحسن الرائع لظهر كباقي مظاهر الحسن المبتذلة . »

فاعترضهُ الامير قائلاً : —

"كلاَّ . كلاَّ فالمحبة تزيدهُ جلاءً وبهاءً ويا سعدَ من يتمكن من امرها بقيد المحبة"

فلما طرقت هذه الجملة مسمع رئيس الاساقفة ارتعدت فرائصهُ وادرك ميل الامير الجديد وناجتهُ نفسهُ بالخطر الشديد على وديعتهِ. لكنهُ تغلب على انفعالهِ واخفى اشفاقهُ تحت طي الجلد وتظاهر بانهُ حمل ما سمعهُ على محمل المبالغة في الوصف . وقبلما استطاع ان يجيب الامير بما يوافق المقام سبقتهُ الملكة فقالت : —

" لا بدَّ انك ايها الامير تعلم شيئًا من معسكر الافرنج . فهل ابتدأ القتال ? وهل انخرط زوجي في سلكهِ ? "

فاجابها : —

" اذا صدقت الاخبار الاخيرة فلا بدَّ ان تكون الاختلافات المستفحلة بين قادة هذه البعثة اكبر داعٍ الى الاسراع في اخماد نار الحرب . ومن يوم وصول ملك انكلتره الى الآن لم تحدث معارك ذات شأن وانما جرت مناوشات طفيفة شهدت لزوجك الذي رجع منها سالمًا بشدة البأس والبسالة . ولعلي بعد رجوعي استطيع ان اطلع جلالتكِ على كل ما جدَّ بما ترومين من الايضاح والتفصيل "

" أذاهبٌ انت الى عكاء ? "

" أرسل اليَّ أخي يأمرني بان أذهب الى القاهرة لاعدَّ جيشًا جديدًا ثم ارجع الى هنا انتظر امرهُ بالذهاب اليهِ . ففي مدة غيابي تكونين مطلقة الامر والنهي في هذا القصر . ولكني بحسب عوائدنا التي توجب احتجاب النساء اتوقع انك لا تأذنين لاحد من رجالكِ في ان يكثر التردد اليك "

ثم التفت الى وليم واكمل كلامهُ :

وهذا على كل حال لا يتعلق بك ايها الاب المحترم لان فضائلك تقضي بان اقيمك وكيلاً عني على هاتين الاميرتين لانهما في حاجة شديدة الى تعزيتك وتسليتك لهما في معتزلهما . فلا تفارقهما ما استطعت وعسى الحرية التي امنحك اياها من جهة البقاء معهما ان تبرهن لك بكل وضوح نزاهة مقصدي وطهارة غايتي "

ثم كرَّر وعدهُ للملكة من جهة التوسط في امرها عند اخيهِ صلاح الدين وودعها وحيا وليم وانصرف

اما رئيسُ الاساقفة فلما خلا بالملكة اطلعها على مخاوفهِ من جهة متيلدة وميل الملك العادل فقالت له :—

" ان مخاوفك تعظّم الخطر اكثر مما هو في الحقيقة . وهل المحبة بنتُ يومٍ ؟ — بل بنت دقيقةٍ ؟ فباجهد يعرف الامير مثيلدة . نعم ان جاذب الجمال شديدٌ ولكنهُ غير قادر وحدهُ على إنشاء تعلقٍ راسخ القدم دائم الثبوت "

" ولكنّ الاختبار يدلنا على خلاف ما تظنّين وكثيرًا ما يعنو الرجل بنظرةٍ واحدة لعواطفهِ وينساق بأَميالهِ "

" اذًا تعتقد ان الامير اصبح مغرمًا بمتيلدة ؟ "

" نعم وان يكن هذا قد خفي على جلالتك فلم تستطيعي ملاحظتهُ "

" وهب ان ذلك كذلك فلا ارى فيهِ شيئًا من موجبات الخوف والحذر . اولا تعلم ان اميال متيلدة يصعب بل يستحيل التغلّب عليها ؟ . وان صحّ انها موضوع إعزاز الامير واكرامهِ فاقلُّ كلمة منها تكفي لإِطلاق سبيلنا وارجاعنا الى معسكر شعبنا "

" ان طبيعتي ودعوتي عصمتا نفسي فلم تتعلل قطُّ بمثل هذه الاضغاث التي يسميها العالم محبة . على انّ طول الاختبار اعلنها لي فعلمتُ يقينًا انها لا تسمح لمن يؤْخذ باشراكها ان يُراعي شيئًا من واجباتهِ او مواعيدهِ حتى انهُ ليسهلُ عليهِ ان يضحي اعزّ شيءٍ عندهُ سوى المحبة نفسها . فالملك العادل لا يمسك عن متيلدة شيئًا سوى ما يراهُ يحول دون حصولهِ على ما يتمنّاهُ . فان بقيت عندهُ فقد يسمح باطلاقنا ولكن أَترضين بهذا ؟ هل يطاوعكِ قلبكِ ان نغادرها وحدها وهي في اشدّ حاجة الينا ؟ "

" وماذا تستفيدهُ متيلدة من وجودي معها ؟ أَليس خيرًا لها أَن أُطلق واذهب الى أَخيها رتشرد واحضَّهُ على الاسراع الى انقاذها ؟ وهل انت مرتابٌ في عفتها ؟ بل هل يداخلك ريبٌ في شرف نفس الملك العادل حتى توجس اقلّ خوف على بقائها عندهُ ؟ "

" لا ارتاب في طهارة متيلدة وعفتها ولكن تعريضها لمحاسن الملك العادل الجاذبة وصفاتهِ الساحرة الخالبة تجربة عظيمة ومخاطرة جسيمة . ولا اكتم جلالتكِ ان شمائلهُ الغراء وما أُوتيهُ من قوّة الذكاء الفائقة والمحاسن الشائقة والبسالة الخارقة — هذه كلها وامثالها — يتعذر وجودها في فيليب اغسطس بل في رتشرد نفسهِ . ولكن عوائدهُ القومية مخالفة لعوائدنا وفيها ما يوسع لنا مجال النظر والانتقاد وهي نفسها كانت علة شقاء فتاةٍ وُلِدت قريبة من عرش القدس حيث ملكَ ابوها اعني بها اغنس بنت اموري وابنة ماري اخت امبراطور القسطنطينيّة — اغنس

التي طبّقت شهرة جمالها وشجاعتها الخافقين – اغنس التي اقتحمت غمار الوغى وحسامها بيدها غير مشهيبة شرب كأس الردى وقد تركت عوائد جنسها حبًّا بنيل المجد وعرّضت نفسها لشرّ نتائج جهلها . ازدرت بفضائل اترابها واحتقرت التزامهنّ الصيانة اللائقة بهنّ وافتخرت باميالها الحربيّة وزيّنت لها نفسها إمكان امتلاك قلبٍ لم يمل اليها ولا تحرّك باقلّ شفقة عليها"

فصاحت الملكة مضطربة :–

" زدني ايضاحًا ! ماذا تعني بهذا ؟ "

اعني امرًا مخيفًا ولكنهُ حقيقي ثابت – امرًا لا يزال ذكرهُ يجرح فؤادي ويذهب برشادي . لكنّي سأُرجئُ تفصيلهُ الى حين أتفرّغ لتتمة حديثي عن صلاح الدين وحينئذٍ تدركين ما يجب علينا ان نحاذرهُ وما يحقّ لنا ان نرجوهُ من الملك العادل "

وبعد ايام ارسلت الملكة الى رئيس الاساقفة تخبرهُ بأنها هي ومتيلدة تنتظرانهِ في حديقة القصر حيث تسمعان منهُ باقي الكلام على مؤسس الدولة الايوبيّة في الشرق

ثم أخذت بذراع متيلدة ونزلتا الى الحديقة سادلتي القناع . ولما بلغتا خميلة البرتقال حيث عينتا مكان اجتماعهما بوليم طرق مسمعهما وقع اقدام من وراء تعريشة دوالٍ كثيفة ثم انفرجت التعريشة على مدخلٍ صغير في الحائط المحاذي . وقد وقفت فيهِ فتاة بلباس شرقي تنظر اليهما بعين الحيرة والارتباك . وما أبطأت أن أسرعت الى الملكة وألقت بنفسها عند قدميها خائفة مرتعدة . فخفت متيلدة اليها وحاولت ان تنهضها بلطفها المعتاد . فأخذت هذه بهدب ثوب الاميرة وقبلتهُ ثم استسلمت لعوامل الحزن واخذت في سجم العبرات وترديد الزفرات . واذ حاولت متيلدة مرة ثانية ان تنهضها وتسكن روعها خاطبتها بما يلي :–

" آه يا سيدتي ! لا استحق لمس يديك الطاهرتين . اني بائسة شقية ومنغمسة بحمأة الاثم والخطيئة . انكرت اهلي وهجرت موطني وتبعت سيدتي الاثيمة الى هنا – سيدتي التي ضحت على مذبح ميلها الفاسد كلّ عزيز غالٍ معللةً نفسها بانها تسود الى الابد على قلب الملك العادل وتقاسمهُ عظمة صلاح الدين . ولكن ما كان أسرع خيبة آمالها واخفاق مساعيها ! لأن الملك العادل أثقل كاهلها امتهانًا وتحقيرًا وأوسعها تنقيصًا وتعييرًا وعامل ابنة اموري التي بذلت نفسها لهُ معاملة امةٍ تشرى وتباع . وكثيرًا ما ناجتها نفسها بترك هذا المرتع الوخيم والتخلص مما فيهِ من العار والهوان اللذين لا يقيم عليهما الاذلاّن . ولكن حبها الشديد لمن يحتقرها وخوفها من الاهانة التي لا بدّ ان تلقاها في معسكر مواطنيها كانا يحولان دون اتمام قصدها هذا . وقد اشرعت رمحها غير مرة ودعت من تحبهُ الى النزال فاشاح عنها

بقولهِ انهُ لا ينازل امرأة ولا يقدر ان يحب من تخرَّجت كالرجال في فنون القتال وتدعوهُ يوماً بعد يوم الى الحرب والنزال

" ولما بلغنا خبر وجودكما في دمياط وانكما مع كونكما اسيرتين معاملتان بما يطلبهُ مقامكما الرفيع توسلتُ الى سيدتي ان تأذن لي في الاجتماع بكما أملاً بأن ننال من لدنكما بعض المساعدة . وكان من عزمي ان اجتمع بكما في قصركما ولكن لم اتمكن من ذلك في حينهِ . ثم اجتهدت في ايجاد هذا المدخل السرّي في الحائط الفاصل بين قصركما وسراي الامير . ومن هذا المدخل المجهول حتى عند الملك العادل نفسهِ سوف تمرُّ مولاتي متنكرة بثيابي لتجثو امامكما متضرعة اليكما ان تنقذاها من الامتهان الذي في عزم الامير ان يعرضها لهُ بعد رجوعهِ من القاهرة وهو اما الزواج بأحد رجال بلاطهِ او السجن المؤبد "

ولما فرغت من كلامها حنت رأسها الى التراب تنتظر جواب الاميرتين فأجابتها برنغاريا :—

" اننا لسنا هنا سوى اسيرتين ومع ذلك فان خابت مساعينا في حمل الملك العادل على اطلاق اغنس المنكودة الحظ بذلنا غاية جهدنا في تسهيل سبيل فرارنا . ولكن بشرط ان اميرة القدس تعد بقبول ما اخبرها بهِ وهو ان اثمها هذا يوصد في وجهها ابواب الهيئة الاجتماعية ولا يبقى لها مفتوحاً سوى باب احد الاديرة الذي تدخلهُ وتنقطع فيهِ للصلاة الى الله لاجل مغفرة خطاياها "

فأجابتها الخادمة :—

" بالصواب تتكلمين ففي معتزلٍ كهذا اقدر انا وسيدتي على الانقطاع الى اخفاء عيبنا ومواصلة ذرف الدموع اسفاً على ما قدَّمت ايدينا "

فقالت الملكة :—

" ان كان هذا عزمكما بالحق فاني اعدكما وعداً صادقاً باني لا أُهملكما . ولكن قولي لي ما الذي حمل الامير على هذا العزم الجديد ؟ "

" يقال سرًّا ان حباً جديداً — نشأ فجأةً في فؤاد الامير — حباً طاهراً حارًّا اشبه بحب امرائنا وخليقاً بمن أُوحتهُ اليهِ — هذا الحب اوصد قلب الملك العادل دون كل ميلٍ آخر "

" وهل يُعرَف اسم السيدة التي احدثت هذا التغيير العجيب ؟ "

" نعم ولكن لا يمكنني التصريح بهِ امام من يمنعني احترامها عن النطق بهِ في حضرتها "

فأدركت برنغاريا في الحال مراد هذه الفتاة واما متيلدة فلم تبالِ بهِ كما ينبغي . وكانت قد أَصغت الى الحديث عن ابنة اموري برعب ورعدة لا مزيد عليهما غير مدركة كنه

جرائم فظيعة كهذه حديثة العهد عند نفسها الطاهرة. ثم صاحت الخادمة مذعورة: —
" من هذا القادم يامولاتي؟ اما هو رئيس اساقفة صور؟ فلا اقدر. كلا لا اقدر ان احتمل وقع نظرهِ. ومن توبيخهِ على الخصوص تنكص سيدتي عن الذهاب الى مواطنيها "
فاجابت متيلدة: —
" ولكن كلامهُ يفيدها تعزية وتنشيطًا — "
فاعترضت الخادمة: —
" يفيد من هي مثلكِ طاهرة نقيّة ولكن مخيف جدًّا حضور رجل الله امام خاطئة نظيري! "
وما لبثت ان نكصت راجعة من ذلك الممرّ وكان وليم قد وصل فقصّت عليهِ برنغاريا كل ماحدث فتعجّب جدًّا وسرّهُ ان قلب اميرة اورشليم تنبّه اخيرًا فشعرت بخطيئتها وقال: —
" لا ينبغي لها ان تجافني بهذا المقدار. واذا كانت توبتها صادقة فلسوف ابذل جهدي في مساعدتها. "
ثم التفت الى متيلدة وقال: —
" اما انت يا ابنتي التي تنجست اذناها بسماع هذه القصة فاعلمي انهُ لم يؤذن لكِ في سماع اشياء كهذه الاّ لكي تستفيدي منها في مستقبل الايام فان تجرّبتِ بما لا تقوى طهارتكِ وحدها على نجاتكِ منهُ كان لكِ هذا التعليم الجديد معينًا على الخروج من مضايق ما يلقيهِ ابليس في طريقك. "
" والآن لنعد الى تتمة الكلام عن صلاح الدين وفيهِ تقفان على نكد طالع اخوتكما وعلى العقاب الذي نالهم بسبب خطاياهم "

الفصل السادس

تتمة الحديث

" بعد ما قضيت نحو شهر في بلاط صلاح الدين بدمشق تمكنت بواسطة الملك العادل من عقد هدنة ثلث سنوات بشروط موافقة جدًّا لمصلحة لوسيان. ولشدة ثقة الملك العادل بي اقنع اخاهُ بالاعتماد على كلامي من غير ان يطلب اقل ضمان. ولما أُمضيت المعاهدة واصدر السلطان امرهُ بتوقيف تحصين الرملة مدة سني الهدنة بلغ مركيز مونفرات اخبار هذه

المعاهدة الموافقة لمصلحة خصمهِ لوسيان فشقَّ عليهِ ذلك وأعماهُ الغرور عن رؤية ما فيها من الموافقة لمصلحة الافرنج كلهم فعقد عزمهُ على افساد ما أصلحتهُ بخيانتهِ حتى انهُ عند توقيع المعاهدة وتصديقها خرج في طليعة جيشهِ وغزا قافلة حاملة هدايا مرسلة من صلاح الدين الى مكة .

" ولما ذاعت انباء هذه الفعلة الشنعاء في دمشق كنتُ لا ازال مقيماً فيها نخمي غضب صلاح الدين ولم يمكن اقناعهُ بما بين لوسيان وكونراد من الشقاق والنزاع وبان الواحد منهما غير مسؤول شرعاً عما يأتيهِ الآخر بل عدَّ جميع الافرنج شركاء هذه الخيانة وهم جميعهم مستوجبون اشدَّ العقاب . وامر في الحال بان يُشدَّ وثاقي وأُطرَح في السجن . فعارضهُ الملك العادل في ذلك مع انهُ كان مثلهُ مغتاظاً اشدَّ الغيظ — بل كان احقَّ منهُ بالاستياء من الافرنج لانهُ ضمن لهُ امانتهم وإخلاصهم واوضح لهُ براءة ساحة ملك القدس من هذا التعدي الاثيم وطهارة ذيلهِ مندوبهِ وصرَّح لهُ بانهُ مستعدٌّ للذود عن حياتي وحريتي ما دام حيًّا — فسكن حينئذٍ غيظ صلاح الدين واجاب ملتمس اخيهِ بالعفو عني وسمح لهُ ان يركب معي الى بيت المقدس . فوعدهُ الملك العادل بانهُ بعد رجوعهِ ينتقم لهُ وللمعاهدة التي يتجافى اعرق الامم في التوحش عن الاقدام على نقضها . فقال لهُ السلطان : —

" وعما قليل احاصر بيت المقدس فليكن هذا السيف الذي امنحك اياهُ الآن اول بارقٍ على اسوارها . "

" فقبَّل الملك العادل الهلال المرصَّع على مقبضهِ وأقسم لاخيهِ بأنهُ سيتمُّ كل ماطلبهُ منهُ

" وبعد ما اوصلني الى شعبي براحةٍ وسلام حمل على عسكر كونراد الراجعين الى صور باسلاب القافلة فكسرهم شرَّ كسرةٍ وأسر منهم عدداً ليس بقليل ومنهم ريموند صاحب طرابلس ورينو دي شاتيليون . ثم بلغهُ خبر الموقعة العتيدة ان تحدث في ظاهر طبرية فاسرع الكرة الى هناك . ولسوء الحظ لم يعمل لوسيان بمشورتي وعوضاً عن تحصين جانبهِ داخل اسوار القدس كما نصحت لهُ فتح ابواب تلك المدينة وزحف بجيشهِ لملاقاة العدوّ

واظنكما لا تجهلان شرَّ نتائج ذلك اليوم المشؤوم الذي تزعزعت فيهِ اركان قوة الافرنج في الشرق فكان تقطَّع اوصال الفرسان الهيكليين وقتل اعظم القواد واسر لوسيان مقدمة رزايا تالية افدح من هذه واعظم . وعبثاً حاولت سيبل ان تنشط حامية المدينة وباطلاً حرَّضت السكان على تفضيل الموت على التسليم اذ لم تبق من فائدة من دفاع النساء والاولاد والشيوخ امام جيش كرار مكلَّل بالغلبة والانتصار

" ولما اشتدّ الضيق واستفحل الجوع واخذت النساء والاولاد تزحم بعضها بعضاً في الازقة متسابقة الى التبلغ بابخس اللحوم واسخف البقول ولم يعد يسمع في المدينة الاّ صراخ المخوّرين وعويل المنكوبين وانين النازعين اضطررنا الى التسليم مكرهين مرغمين ففتحنا ابواب القدس للغالبين ورفع الملك العادل على اسوارها راية النصر والظفر

" ومن الواجب عليّ ان اعترف بفضل هذا الملك الذي تسامح معنا في الشروط فأذن لنا في الذهاب الى انطاكية بنسائنا واولادنا وكل مالنا . واطلق اسرى طبرية كلهم وافتدى بماله جميع الاسرى الذين لم يكونوا في حوزتهِ · واحسن الى الارامل اللواتي فقدن ازواجهنّ في الحرب وأمر ان يُعنى بالجرحى و يداووا على نفقتهِ . وبكلمة اقول انهُ ابدى من الاريحيّة والانسانية ما يصعب تصديقهُ ويعزّ نظيرهُ . وفيما كانت شعلة هذا الاذلال تتقد في قلوبنا استعر لهب تلك الحادثة التي أودت بشرف ابنة اموري

" هذه الاميرة كانت مع لوسيان في معركة طبرية فلقيت الملك العادل وفوّمت سنان رمحها واخذت تطاعنهُ ببأسٍ شديد وعزم يفلّ الحديد . ولكنها عنت اخيرًا لذراعٍ لم يستطع احدٌ قطّ ان يقاومها · وبعد ما نزع سلاحها دهش اشدّ الدهش إذ علم انها امرأة · وتبعتهُ في ساحة القتال الى سرادقهِ .

" ومن ذلك اليوم انشقت اغنس عن الافرنج وانكرتهم واستعبدت لمن أذلها في ساحة القتال — وحملتها الحماقة المعيبة — التي تدعى سفهاً محبة — على الافتخار بابتذال شأنها · نخدعتها نفسها الامّارة بالسوء وزفّت اليها الشهرة القبيحة بصورة الصيت الحسن الكاذب . فلم تلقَ ممن طاشت في حبهِ وعللت نفسها بالاخذ بمجامع قلبهِ سوى الصدّ والإعراض والانزواء والانقباض ·

" اما الآن وقد بلغتنا انباء ندامتها على ما قدّمت يداها فلنضرب صفحاً عن تذكّر ذنوبها وخطاياها ولنبادر الى استقبالها بالشفقة والحنان ولنتخذ حادثتها عبرة لنا وذكرى · ولنعد الى تتمة الحديث

" لما خرجت الملكة سيبل ببقية شعبها صغيرة القلب ذليلة النفس تجرّ وراءها ذيول القنوط واليأس رآها صلاح الدين واسرع الى ملاقاتها وعرض عليها ان تطلب منهُ ما أرادت واعداً اياها بالاجابة · فطلبت على الفور اطلاق زوجها ومع توقع السلطان هذا الطلب تظاهر بالدهشة وقال انهُ سيجيبها برّاً بوعدهِ فقط والواقع انهُ كان راغباً كل الرغبة في اطلاق سراح لوسيان لعلمهِ ان ابقاءهُ اسيرًا عندهُ يشدّ اعتصاب الافرنج كلهم عليهِ فما

أبطأ ان فك قيود لوسيان وأطلقهُ زعيماً لحل عرى اتحاد الافرنج واتفاقهم وداعياً الى نزاعهم وشقاقهم . وهكذا كان فان ملك القدس ما لبث بعد ان انحلت ربطةُ أن جاهر بحقوقهِ في عرشهِ وأثار ساكن الاحقاد في صدر كونراد حتى أوصد دونهُ ابواب صور وتحكم الاختلاف في معسكر الافرنج كما اراد صلاح الدين . وذلك كلهُ كان على عرش خسروهُ ولم يعرفوا بعد كيف يستطيعون ان يستردوهُ

" وعلى هذه الحال تركتُ ارض فلسطين حين شخصت الى اوربا منادياً بالويل والثبور ومحرّضاً ملوكها على مدّ ايدي المساعدة والمبادرة الى استرجاع بيت المقدس بنفسٍ واحدة . وقد نجحت مساعيَّ ولبى الملوك ندائي كما تعلمان . "

ثم استحوذ عليهِ سكوت عميق غاص بهِ في لجج التأملات ودلت ظواهر وجههِ وشخوص نظرهِ على انقطاعهِ الى الصلاة . وساد عليهِ وعلى الاميرتين سكون اخترق حجابهُ صوت حركةٍ اشبه بحفيف رداء امرأة في اوراق الاغصان فالتفت رئيس الاساقفة والاميرتان واذا بامرأة في لباس أمةٍ خارجة من ذلك المدخل السريّ ومتقدمة اليهم بقدمة مضطربة وهيئة ذلٍ وخشوع لا مزيد عليهما . فسالها وليم ناهضاً لاستقبالها : —

" من انتِ ؟ "

فانطرحت عند قدميهِ باكية ولم تستطع الجواب . فصاح بها قائلاً : —

" الستِ اغنس المنكودة الحظ ؟ "

" رحماك ايها الاب الصالح رحماك — تحنّن عليَّ ولا تسحقني بالقسوة والجفاء والاحتقار والازدراء . ارفق بي واجعل للصفح عني سبيلاً فاني ان لم امت الآن لم اعش طويلاً ! "

فاسرعت متيلدة اليها وخاطبتهُ متشفعة : —

" لا ترفضها ايها الاب الصالح لانهُ في استطاعتك حتى الآن ان تردها الى طريق الهدى والصواب

فصاحت اغنس مذعورة : —

" من هذه التي تتشفع فيَّ ؟ اميرة انكلترة ؟ هي نعم هي وقد عرفتها من لباسها الديني — من جمال صوتها الفتّان ! أفالى هذه لدرجة من الهون بلغتُ حتى اكون مديونة لمن اساءت اليَّ وبغت عليَّ ؟

فسألتها الراهبة متعجبة : —

" على مَ توبخينني انا الغريبة في دمياط — الاسيرة في هذا القصر — ولم اعلم شيئاً عن اسمك ووجودك الاَّ في هذه الساعة ؟ "

" يكفي انكِ اغتصبتني حبًّا بذلتُ فيهِ اعزَّ مالي في هذه الحياة · فانتِ علةُ شقائي ومبعث عنائي . . . ! "

فاعترضها رئيس الاساقفة ساخطاً : —

" صه يا أغنس: ان شقاءك نتيجة خطيئتكِ · واذا كنتِ لا تزالين مصرَّةً على غروركِ فلماذا جئتِ الى هنا ؟ بل ماذا دعاك الى تخديش الآذان بهذه الالفاظ القبيحة ؟ "

"جئتُ اطلب حماية من جور كنودٍ يبغي إذلالي· جئتُ اطلب اسلحةً آخذ بها بثاري· ردّ اليَّ سيفي ورمحي فتعرف ذراعي كيف تخلّص اميرة القدس من هذا الذلّ العظيم · "

" اذهبي ايها المرأة الشقيَّة ارجعي ادراجكِ الى مقام عاركِ إبقي على الامتهان الجدير بكِ "

فقبضت متيلدة على يدهِ وخاطبتهُ بصوت الاستشفاع : —

" رفقاً بها يا ابي — ارثِ لضعفها واعضدها · انها خاطئة — اشفق عليها وتغلّب على عواطفها بقوَّة صلاحك وتقواك · "

وقالت الملكة : —

" نعم يا ابي جرِّب اولاً علاج اللطف والحنوّ ولا تعاملها بالعنف مادمت ترى الى الرفق سبيلاً "

واذ ذاك جاءت الأمة التي تقدم الكلام على اجتماعها بالملكة ومتيلدة وكلّمت سيدتها اغنس بنفسٍ متقطع قائلةً : —

" لقد شعروا بغيابكِ وهم الآن يفتشون عنكِ وقد انتهزت فرصة الاضطراب الناتج عن هربكِ واسرعتُ في المجيء اليكِ · ونحن هنا في أمنٍ لان هذا المدخل السريّ غير معروف عندهم . وقصر ملكة انكلترة معدودٌ بأمر الملك العادل حرماً لا يجوز تفتيشهُ · "

فقالت الملكة :—

" تعالي يا اغنس تعالي الى منزلنا وعند رجوع الملك العادل من القاهرة أسألهُ ان يأذن لكِ في الانطلاق . . . "

فاعترضتها اغنس : —

" لاتسأليهِ شيئاً لاجلي لاني لا أريد ان اكون مديونة لهُ بحريتي ولا بحياتي · وعليَّ الاهتمام لنفسي · لاني سألتمس لي في عرض البيداء مسكناً انزلهُ مدججة بسلاحي ومتوقعةً نهاية امري فان خُتمت بالخير فذلك من جودكِ وشجاعتي "

فاقنعها رئيس الاساقفة بتعذر ما تبتغيهِ الآن ووجوب الإذعان الى الاقامة مع الملكة حتى تسنح لها الفرصة المناسبة للهرب • وحينئذٍ استندت الى ذراع امتها وسارت تصحب الاميرتين الى القصر حيث اخلت لها متيلدة مقصورتها واعتزلت الى غرفةٍ أُخرى صغيرة بجانبها تراجع جميع ماعرض لها من هذهِ الحوادث العجيبة الغريبة • وفي الختام تغلَّبت طهارة ست عشرة سنة على انباء بضع ساعات • فقدمت صلاتها المعتادة ولم يبقَ في ذهنها من آثار ذلك المشهد سوى الاسف على شقاء اغنس المجهولة عندها اسبابهُ ودواعيهِ

الفصل السابع

متيلدة والملك العادل

وكانت اميرة التدس قد عدمت من زمان طويل السلام المخيم في فؤاد متيلدة واغلق عذاب ضميرها باب الندامة الحقيقية في وجهها وحال غيظها الشديد وحبها للانتقام دون الاسف على خطاياها فتحكم فيها البغض لحبيبها الذي هجرها وللملكة التي اجارتها ولمتيلدة البريئة من كل اثم ومظنة

ولماخلت بنفسها في حجرتها اخذت تراجع حوادث حياتها الماضية ولمَّا تمثل لها فكر افتراقها الابدي عن الملك العادل انتفضت كعصفور بلَّلهُ القطر وصرخت بصوتٍ عالٍ وهي غارقة في بحر الذهول والشرود فأفاقت متيلدة مذعورة

ولما طلع الفجر وكان جميع من في القصر باقين نياماً طرق اذن اميرة انكلترة اصوات زفرات وتنهدات خارجة من مصدر ذلك الصراخ الذي ايقظها في الليل فاسرعت الى مقصورة اغنس فرأتها تروح وتجيءُ بخطى متسارعة وعينين جامدتين اثخنهما السهاد والحزن ولم تبردهما قطُّ دمعة • فلما رأت متيلدةَ قادمةً اليها صاحت : —

" ماذا تريدين مني ! وهل جئتِ بوجهكِ المطبوعة عليهِ صورة الملائكة لتسخري بالارواح الشريرة العابثة بي ؟ "

فاجابتها الراهبة بدعةٍ ورقة : —

" ايقظني عويلك يا أَغنس فجئت لعلي اقدر ان اخدمك بشيءٍ "

" تخدميني ؟ نعم ! أَبحقٍ تقولين هذا ؟ اتريدين ان تخففي عني وطأة حزني ؟ اذاً أَرجعي اليَّ القلب الذي سلبتنيهِ ! رديّ اليَّ حبيبي الملك العادل ! "

" اشكر الله يا اغنس على ان قلب هذا الرجل ليس عندي ! "

فاخذت اغنس بيدها وصاحت : ·

" آه يا ليت قولك هذا يكون صحيحاً ! ليتني اقدر ان أُصدّقكِ ! اسمعي لي · اذا عرض عليكِ هذا القلبَ الذي هو ملكي — وقوام سعادتي في هذا العالم وفي العالم الآتي — فارفضيهِ لئلاَّ تصيري مثلي ! "

" ألا تروميِن ان تعيشي مذ الآن عيشةً جديدة وتحيي حياة سعيدة . ألا تستطيعين ترك مبعث شقائك الى الأبد ؟ "

" ان اتركهُ ! ان اترك الملك العادل ! هذا مستحيل : لا اقدر ان احرم نفسي لذة محبتهِ — آه لو تعلمين ايّ سعادة في تركي بين يديهِ بلادي — أهلي — نفسي — واعزّ شيءٍ عندي. بل لم تعلمي مبلغ الاثم الذي بلغتهُ باستسلامي الى ميلي الوحشي · فقد تمنيت من صميم فؤادي لو انقرض الافرنج كلهم عن وجه الارض حتى لا يبقى عائقٌ في سبيل مجد حبيبي . وجل ما اشتهتهُ مطامع كبريائي ان ارى الملك العادل ملك الملوك وسلطان السلاطين · ولهذا ارى الانفصال الابدي عنهُ اشدّ هولاً من الدينونة الابديّة · فاتركيني اذاً واذهبي اخبري رئيسك اني ارفض حتى الهةُ ان كان يأبى عليّ محبة الملك العادل ! "

وإذ ذاك سمعت متيلدة وقع اقدام امائها فاوصتهنّ بالعناية باغنس وخرجت تتعثر باذيال الذعر والرعب مما سمعت وعاينت وارسلت على الفور تدعو رئيس الاساقفة فلما حضر قالت لهُ :

" ان اميرة القدس مصابة بحمّى شديدة ذاهبة بصوابها حتى انها تهذي هذياناً مخيفاً وتنطق بتجاديف لا تطيق الاذن سماعها "

فقال لها : —

" اذهبي الى الملكة واقتصري على العناية بما أنتِ منقطعة اليهِ من التعبُّد ولا ترجعي من غير ان تريني اولاً . "

فامتثلت متيلدة اشارتهُ وذهبت تفتش عن الملكة فوجدتها في القاعة ولما نظرتها برنغاريا مقبلةً نهضت لملاقاتها وقالت : —

" رجع الامير وعما قليل يأتي ليقصّ علينا انباء شعبنا . فتعالي اجلسي بجانبي · "

فاطاعت متيلدة وجلست بقلبٍ مضطرب ووجنتين محمرتين · واخذت الاماء اللواتي كنّ قد جئنَ الى الملكة بسلال الفواكه والثمار واطباق الرياحين والازهار يرقصنَ على نغمات الصنوج والدفوف رقصاً لم تنبسط لهُ الملكة وفرّت عنهُ نفس متيلدة فانصرفت الى شرفة اطلّت منها على زرقة الجوّ وخضرة الاشجار واستنشقت نسيم الصباح معطراً بارج الازهار ورأت من

جمال الطبيعة حولها داعياً يدعوها الى الاعتزال للتامل باقدس الخواطر واطهر الافكار فلبّت هذا الداعي ونزلت الى الحديقة تلتمس التمشي على انفراد وسارت تجاري مجرًى انيقًا صافياً يترقرق بلورهُ على عقيقٍ وهو يقبّل الاذيال المتدلاَّة من اغصان الليمون وافنان الورد والياسمين . وظلت عاملة على المسير ذاهلةً عن تحوُّل تطوافها من بين الرياحين والازهار الى ما بين الادغال والعلّيق . ولم تنتبه الى ما صارت اليهِ الارض هنالك من تشعُّب المسالك الاَّ بعد ما ضلّت سواء السبيل ورأَت نفسها داخلة في تيهٍ يتعذَّر عليها الخروج منهُ

ولكنَّ استئناسها بالازهار البريَّة والمناظر الغريبة التي لم تأْلفها قبلاً شغلها عن الخوف والقلق حتى طالت عليها شقة المسير على هذه الحالة وشعرت بالتعب فوقفت تستريح قليلاً تحت شجرة ياسمين باسقة الاغصان وارفة الظلال

وكان الملك العادل قد جاء الى القصر واذ لم يجدها فيهِ تعجَّب فارسلت برنغاريا بعض الاماء للتفتيش عنها فلم يجدنها وبلغ رئيس الاساقفة غيابها فاضطرب . وحينئذٍ تذكرت الملكة انها شاهدتها في الشرفة المطلة على الحديقة فأَسرعت نازلة الى جنة القصر لتفتش عنها

وادرك الملك العادل قصدها وعلَّل نفسهُ بامكان اجتماعهِ بمتيلدة على انفرادٍ فعدا طائرًا على جناح الامل والحبّ وسار يتأَثرها في جهة يعرف مداخلها ومخارجها جيدًا حتى ابصر ثوبها الابيض من خلال الاغصان فانطلق اليها مبطئًا في مسيرهِ كأَنهُ يمتع نفسهِ بلذة مشاهدتها قبل حصولها .

فسمعت متيلدة وقع خطواتهِ ولما رأَتهُ وعرفتهُ وثبت بقوة الخوف وولّت هاربة . ولكنَّ الحمامة التي قضت ايامها محصورة في القفص لاتستطيع الافلات من يدي الباز الذي يطاردها مطلق الجناحين فما ابطأَ ان ادركها واخذ بثوبها وهمَّ ان يطوّقها بذراعيهِ ولكنَّهُ امسك عن ذلك خشيةً واجلالاً . وخاطبها قائلاً : —

" ايتها الفتاة الحسناء ! يا ابنة السماء التي فاقت تصورات احلامي — التي صلتني نارًا لا اجسر ان المسها — لقد ملكتِ قياد انسان لم يذعن بعد قطّ لسلطة انسان . فمن اين لكِ هذه القوة ؟ بل ماذا يبعثكِ على هذا النفار ؟ وعلى مَ ترمقينني بعين الذعر والارتعاد ؟ انظري اليَّ بعين الثقة والاطمئنان واعلمي ان انكلترة لن تشاهدك بعد الآن . "

فانتزعت يدها من قبضتهِ وخبأَتها في طي كمّها وسدلت النقاب على وجهها وقالت : —

" عزمت على ان اقضي حياتي راهبة متبتلة . وقد جئت قاصدة زيارة الارض المقدسة استعدادًا لهذا الامر الخطير فاسمح لي اذًا ان انضمَّ الى شعبي ولا تحاول باطلاً ان تثنيني عن عزمي "

فرأى من شدة اصرارها انها ثابتة على عزمها وان استمالة قلبها تتطلب اولاً اكتساب ثقتها بهِ واحترامها لهُ فقال لها : —

" ايتها الطهارة المتجسدة افعلي ماشئتِ فلا اعوقكِ بعد الآن عن اتمام ما تريدين "

واذ سألتهُ ان يرجع بها الى الملكة سار امامها في اقرب طريق الى القصر ومشت هي في اثرهِ

ولما اقتربا من القصر شاهدا الملكة ورئيس الاساقفة مسرعين للاقاتهما فتقدمت متيلدة تصغي بمزيد الارتباك الى اسئلة الملكة وتصبر على وقع نظر الرئيس

ولما استراحت افكار برنغاريا من جهة متيلدة سألت الملك العادل عما يعلمهُ عن زوجها وقبلما شرع في الجواب رفع نظرهُ فرأى بارونًا مقبلاً نحوهم فسأل الملكة مقطبًا : —

" من هذا الذي اقدم في مثل هذه الساعة على المجيء الى هنا من غير اذن ؟ "

فعرف رئيس الاساقفة ان البارون القادم جوسلين دي مونمورانسي فذكرهُ باسمهِ للملك فقال : —

" كثيرًا ما سمعت بهذا الاسم الطائر الشهرة ولكنهُ مع هذا كلهِ لا يحق لصاحبهِ التهوُّر والاعتساف . "

ثم قام يلاقي جوسلين ولما دنا منهُ قال لهُ : —

" هل نسيتَ انهُ لا يجوز لاحد الدخول الى هنا بلا اذنٍ صريح من ملكة انكلترة ؟ "

" اننا حينما استودعنا رتشرد زوجتهُ وشقيقتهُ حلفنا لهُ بالذود عن حياتهما حتى تستنزف شفار السيوف آخر نقطة من دمائنا . والآن لمَّا جئت القصر سمعت بغياب الاميرة متيلدة غيابًا يؤذن بالخطر الذي . . . . "

فاعترضهُ الملك العادل بقولهِ : — " ايُّ خطرٍ يمكن ان يلمّ بها هنا ؟ "

" لم يهمني ان اعرف هذا بل كان ما سمعتهُ كافيًا لايجاس الخوف عليها ولهذا جئتُ لاحامي عنها بما تصل اليهِ قوتي "

فأعجب الملك العادل بعزة نفسهِ وصافحهُ قائلاً : —

" اي مونمورانسي الباسل لا توجس بعد الآن خوفًا على اميرة انكلترة لاني سأتولى حراستها بنفسي . "

ثم حدثتهُ نفسهُ بامكان تقرُّب مونمورانسي من الاميرة ومناظرتهِ لهُ في حبها فسوَّلت لهُ الايقاع بهِ واكتساحهُ من طريقهِ . لكنهُ ما ابطأ ان تثبَّت في الامر واستردَّ لنفسهِ رصانتها المعهودة وقال مخاطبًا البارون : —

" اني اعلم يا مونمورانسي ان نفساً ابيّة كالتي في صدر شهم انوفٍ نظيرك تأبى الاقامة على ذلّ الاسار وهون الانحباس . فأنا أُطلق قيادك وافك اسرك · فانطلق الى رفقائك حرًّا وقل لهم اني لا ارهب جانبهم بعد ما اقدمتُ على اطلاقك اليهم . "

فتعجب جوسلين ولم يستطع إقناع نفسهِ بقبول هذه المنة . وإذ كان قد حلف لرنشرد بالبقاء مع الاميرتين وطّن نفسهُ على ان يبرّ بيمينهِ او يصدرها عن مشارف الاسر بورود حينهِ

وكانت الملكة تودّ انطلاق مونمورانسي ليحمل الى رنشرد اخبارها فصرّحت برغبتها في ذلك ولم يبقَ للبارون سوى تعلةٍ واحدة فتقدم الى الاميرة متوسلاً اليها ان تسمح لهُ بالبقاء ولا توافق على انطلاقهِ — وحينئذٍ تقدّم الملك العادل الى متيلدة وقال لها : —

اعلمي ايها الاميرة اني واقف لكِ احتراماً خالصاً طاهرًا وخدمةً صادقةً بلا منٍّ ولا سأمٍ . فتأملي في ما ينجم عن هذا كلهِ من الفوائد لشعبكِ واصدقائكِ واخيكِ "

فعبثت بها الحيرة والاضطراب ولم تستطع الاختيار وقد فارقها العزم وخانها الجلد . فلاذت بحكمة رئيس الاساقفة وقالت لهُ : —

" ارشدني يا ابي · قل لي ماذا يجب ان اختار "

فاجابها : —

" اعلمي يا ابنتي اننا في حاجة شديدة الى حسام مونمورانسي في ضواحي عكاء وليس من الحزم أن تبقيهِ هنا مغفلاً في غمدهِ وتحولي دون تجريدهِ في ساحة الوغى · ولكن اذا قضت عليكِ هذه الاعتبارات الجوهريّة بان تطلقيهِ خلولاً من قسمهِ فهي ايضاً تضطركِ الى رفض خدمة الملك العادل على عظمة شأنهِ وشدة كرم اخلاقهِ لما بيننا وبينهُ من الاختلاف السياسي هذا فضلاً عن انكِ في غنى عن مساعدة الناس "

فقالت : —

" ان جوابك يا ابي غاية في الحكمة والصواب · فعليهِ اعتمد وبهِ أعمل "

ثم التفتت الى جوسلين وقالت : —

" اي بارون مونمورانسي ان سبيل المجد مفتوح امامك فلا احول دون تأهبك للسير فيهِ . فانطلق الى المعسكر الخافقة عليهِ اعلامنا واسفك دمك الكريم في ما هو اعظم شأناً من خدمتك لنا · ولا تنسَ ان تخبر اخي بكرامة اخلاق من نحن في اسرهِ · وانهُ ليسهل عليك تفصيل ما تفضل بهِ علينا لأنّ نطق بارون مثلك بفضل المعروف والشهامة عبارة عن نطقهِ بلغة وطنهِ ولسانهِ الطبيعي "

فأثر كلامها هذا تأثيرًا شديدًا في مونمورامي فقبّل هدب ثوبها وانحنى امام الملكة وحيّا الامير ورئيس الاساقفة وخرج

وبعد انطلاقهِ دنا الرئيس من الملك العادل وقصَّ عليهِ قصة ابنة اموري— اخبرهُ برغبة اغنس في التكفير عن جرائمها بالانقطاع الى دير تقضي فيهِ غابر حياتها والتمس منهُ ان يأذن لها في ذلك فقال لهُ :—

" انت تعلم جيدًا ايها الاب المحترم اني لم أغرِ اغنس بارتكاب ما ارتكبتهُ بل هي التي عرضت عليَّ حبًّا لم يمكني جمالها الرائع من رفضهِ لكني لم اجد من صفاتها ما بعثني على مقابلة حبها بمثلهِ . والمرأة التي لقيتها في غمرة الكفاح وساحة الطعان حيث كانت تباع الارواح بابخس الاثمان ولم يؤثر شيئًا في صلابة قلبها ما شاهدتهُ من الفتكِ باعزّاء قومها والسفك من دماء شعبها . لم تقوَ قط على امتلاك ذرةٍ من حبي . ولا على الأخذ بشيء من مجامع قلبي. وانما للجمال الوديع المجمَّل بالخفر والاحتشام. وللذات المزدانة بالطهر المستوجب الاحترام .يحنُّ فؤادي بمزيد الهيام كما يحنُّ الى . . . . "

فاسرع الرئيس الى اعتراض النطق بالكلمة التي كادت تنمُّ بها شفتا الملك العادل وقال لهُ :—

" مولاي على مَ عزمتَ من جهة ابنة اموري ؟ "

" جعلت امرها في يدي الملكة فلتعنَ بها وتحنُ عليها لانهُ لم يبقَ لها غيرها من واقٍ بعدما فقدت شقيقتها من عهدٍ قريبٍ — سيبل ماتت . . . " فصاح رئيس الاساقفة :—

"ماتت سيبل ؟ فماذا يصيب لوسيان ؟ وبمَ يتعلَّل بعد الآن وقد ماتت من كان يتذرَّع بها الى طلب تاج بيت المقدس ؟ "

ثم افاض الملك العادل في شرح حالة الافرنج الراهنة واخبرهم بانَّ موت سيبل لم يغيِّر شيئًا من طيش لوسيان ورعونتهِ فلا يزال مصرًّا على الادعاء بحقهِ في الملك وقصَّ عليهم ما بين الملك رتشرد وفيليب اغسطس من الشقاق الذي آل الى انقسام الافرنج بعضهم على بعض

فزفر رئيس الاساقفة زفرة الحزن والاسف على سوء مصير شعبهِ وكانت الملكة متعطشة الى ابلاغ زوجها لواعج شوقها اليهِ فاستأذنت الامير في الانفراد وهو على الفور حيّاها مودِّعًا وشيَّع متيلدة بنظر الوجد والحنين وذهب لشأنهِ

نخفَّت برنغاريا الى مخدعها واغلقت على نفسها واكبَّت على الكتابة وسارت متيلدة تصحب رئيس الاساقفة الى المصلَّى قاصدة ان تعترف لهُ بذنوبها التي وبخَّت نفسها عليها فلما بلغا المكان المقصود جثت على ركبتيها امامهُ صارخة :—

" ما اشدَّ حماقتي التي حملتني على هجر معتزلي الامين والمجيء الى هنا للوقوف على امور عبثت بسلامي السابق وذهبت براحتي الغابرة

" ماذا عسى ان يكون قد اعتراكِ وكدَّر صفاء طهارتك ؟ "

" ان الامير فاجأني في البستان واخبرني بانهُ يحبني "

فأخذ يحدّثها في ما من شأنهِ ان ينشّطها ويزيل تأثير هذه الحادثة من افكارها . ولما رجعت الى مخدعها لم تجد اغنس هناك لأنَّ الملك العادل كان قد امرها بالانتقال الى مخدع آخر قريب من برنغاريا وشدَّد عليها التنبيه بأن لا تبرح مخدعها هذا الآحين تكون مع الملكة

الفصل الثامن

ابعاد رئيس الاساقفة عن دمياط

شغل حبُّ اميرة انكلترة قلبَ الملك العادل فلم يعد يكترث لشيءٍ آخر سواهُ . وكرَّت عليهِ الايام فلم يزدهُ كرورها الاَّ قلقاً واضطراباً وبات من جراء هذا الحبّ الجديد عرضة للآمال والمخاوف فكان اذا نام يحوم الحبُّ على وسادتهِ ويبغتهُ بالهواجس والاحلام . واذا جلس للاستشارة او خرج لاستعراض الجيوش انساهُ موضوع حبهِ كلَّ شيءٍ آخر وغادرهُ مبصرًا لا يبصر وسامعاً لا يسمع . وكان كلما زاد حبهُ يقلُّ صبرهُ وتضعف ارادتهُ . ولم يخفَ عليهِ ان ما تعاملهُ بهِ الاميرة من الصدود والاعراض كان يزيدهُ بها هياماً ويزيدها في عينيهِ جمالاً

وعبثاً كان يذهب كل يومٍ الى قصر الملكة معللاً نفسهُ بان يرى الاميرة هناك وكثيرًا ما كان يسأل عن سبب غيابها فيسمع جواباً واحدًا وهو : — انها بمقتضى مطاليب نذورها لا تستطيع الحضور امام الرجال

ولما لم يعد في إمكانهِ الصبر على هذه الحال جاء ذات يوم الى الملكة واطلعها طلع امرهِ وانذرها بانهُ لم يعد يستطيع احتمال هذه المعاملة وانهُ اذا دامت متيلدة محجوبة عنهُ لم يكن مسؤولاً عما يأتيهِ من الاعمال التي يتحوَّل فيها عن الرفق واللطف الى القسوة والعنف . الى ان قال : —

" تعلمين ما في اطلاقكم جميعاً بلا اذن صلاح الدين من الخطر . ومع ذلك فلو طلبت مني متيلدة الإقدام عليهِ لما تأخرت عنهُ "

فتأثرت برنغاريا من كلامهِ وسرَّها الافتكار بامكان رجوعها الى زوجها لكنها لم تجسر ان تعلّل الملك الكامل بمثل هذا الامل واقتصرت على مقاسمتهِ الاسف على خيبة أملهِ وصرَّحت لهُ بانها لا تستطيع اكراه متيلدة على هذا الطلب مع انها تتوقعهُ بفروغ صبرٍ . فاكتفى بهذا التصريح ولم يستزدها شيئًا

ثم ذهبت الملكة الى متيلدة فوجدت رئيس الاساقفة عندها وقصَّت عليهما كل ما سمعتهُ من الملك وانهُ مستعدٌ ان يطلقهم جميعًا بكلمة يسمعها من متيلدة لانهُ يحبها محبة تفوق الوصف

فاضطربت الفتاة من سماع هذا الكلام وتوردت وجنتها البيضاء بحمرة فاقعة واطرقت اطراق الاتضاع واسرفت في لوم نفسها على إضرامها نار الحبّ في فؤاد هذا الامير

فقالت لها الملكة : —

„ ماذا عليكِ لو نزعتِ عن الغلظ والعنف وسالت الامير ان يُطلق سراحنا . اسمحي لهُ ان يراكِ مرة واحدة فقط . فقد اقسم انهُ ليعطينَّكِ مهما طلبتِ ! "

فاعترضها رئيس الاساقفة بقولهِ : —

„ لا اكتم عن جلالتكِ ان الاميرة بعدما اذعنت الى نصحي وارشادي لا تبقى دقيقة واحدة في حضرة رجلٍ اقدم على رفع نظرهِ الى محياها الطاهر

وفي الصباح التالي زار الملك العادل الملكة فبلَّغتهُ خلاصة ما كان من اجتماعها برئيس الاساقفة ومتيلدة فقال لها : —

„ بما انهما رفضا مقابلتي والاصغاء الى ما عندي من الاقتراحات فلسوف الزم الصمت المطلق وادع غيري يحصد نتيجة هذا السعي الذميم "

فاجابتهُ برنغاريا باكيةً : —

„ أوَّاه ! إذًا اين عدلك الذي هو موضوع افتخارك ؟ أتؤاخذني بذنب غيري ؟ ألا تعلم انهُ لا يمكن تحقيق شيءٍ مما ترجوهُ ما دام رئيس الاساقفة بجانب الاميرة "

„ إذًا رئيس الاساقفة حائلٌ دون ادراك مرامي ؟ "

„ انهُ كما لا ازيدك علمًا رجلٌ ذو حكمةٍ واختبار وتقوى . وهو عالم ان متيلدة زهدت في العالم ونذرت ان تقضي حياتها في التبتُّل لله منقطعة عن كل ما يعبث بطهارة نفسها "

فلما سمع الملك العادل هذا الكلام عزم في الحال على اخراج رئيس الاساقفة من دمياط ولكن الى اين ؟ الى احدى المدائن منفيًا مأسورًا ام الى معسكر الافرنج ؟ . وهنا تنازعتهُ الفطنة وكرامة الاخلاق . ولكن في مثل فؤاد الملك العادل تكون الغلبة على الدوام للعاطفة

الثانية وعليهِ لم يلبث ان سدَّ أُذنيهِ دون استماع صوت الفطنة وعلى الفور استدعى اليهِ رئيس الاساقفة ولما حضر قال لهُ : —

" ارسل اليَّ صلاح الدين يقول انهُ لا يسمح باطلاق ملكة انكلترة حتى يرفع الافرنج الحصار عن عكاء . ولا اعلم هل يتغلَّب ميل رتشرد الى انقاذ زوجتهِ من الاسر على مطامع نفسهِ الحربيَّة ويفيدهُ جدًّا في مثل هذا الوقت ان يكون معضودًا باصالة رأيك ونصائح حكمتك وبناءً عليهِ اطلق لك حريتك لتذهب اليهِ مع مونمورانسي وتطلعهُ على ما يعرضهُ صلاح الدين فاذا قبلهُ واقنع باقي الملوك الذين معهُ — وذلك في استطاعتهِ — كفينا البلاد والعباد غوائل الحرب وعشنا في صلحٍ وسلام . ولكن ان اصرَّ على عزمهِ وآثر عكاء على زوجتهِ فقل لهُ اني متأهب للاقائهِ "

فلم يصعب على رئيس الاساقفة معرفة السبب الحقيقي لرغبة الملك العادل في ابعادهِ عن دمياط . لكنهُ قال في نفسهِ : — " لماذا يطلق لي حريتي ؟ لماذا يأذن لي في الرجوع الى شعبي ؟ الم يكن في استطاعتهِ ان يرسلني سجينًا الى مكان آخر ؟ او من الضروري ان تكون الشهامة الممتاز بها الملك العادل ظاهرة حتى في مساوئهِ ؟ "

ومجمل القول ان الحبَّ الذي اطاش الملك العادل راع رئيس الاساقفة وزادهُ تمسكاً بوجوب البقاء مع متيلدة ليقيها شرَّ المخاطر المعرَّضة لها . فقال للامير : —

" لا يظننَّ سيدي الامير ان حُبَّ رتشرد لمليكتهِ يغريهِ بقبول هذا الاقتراح المهين فمع انهُ لا يبخل حتى بسفك دمهِ في سبيل انقاذ الملكة من يدك ما كان قطُّ ليحجم عن تضحية برنغاريا حبًّا بمصلحة بلادهِ وقومهِ . وقس عليهِ باقي ملوكنا وامرائنا . ولا اكتمك اني لو آنست فيهم اقلَّ هشاشة الى قبول هذا الاقتراح لبذلت جهدي في صرفهم عنهُ بكلامٍ يصبغ وجوههم بحمرة الخجل والاستحياء من ركوب مثل هذه الدناءة . وحاشا لكاهن مثلي ان يقبل وهو رسول السلام سفارة كهذه ليس فيها سوى استثارة العداء وحب الانتقام "

" ومع ذلك فاياك انتدبتُ الى ابلاغها . وفي مساء هذا اليوم تنطلق مع القافلة التي تصحب مونمورانسي الى معسكر الافرنج محفوفًا بما كان لك عندي هنا من الرعاية والاكرام . لكني لا اسمح لك بالبقاء يومًا واحدًا في دمياط . وما اظنك تقدم على مخالفتي في هذا الامر "

وعلى الفور بادر رئيس الاساقفة الى الاجتماع باميرة انكلترة وقال لها : —

" لا ابقى عندك سوى دقائق معدودة . فالاله الصالح يحرسك ويحفظك . اتكلي عليهِ وحدهُ . ان الملك العادل صمم على ابعادي عنكِ لكي يأمن مراقبتي ورعايتي ويضمن لنفسهِ

الاقتراب منك " فصاحت متيلدة مرتعدة :

" ماذا . أتتركني يا ابي ! "

" ان يوم الضيق قد جاء يا ابنتي فعلينا ان نستقبلهُ بعزم وثباتٍ. وليست هذه الامتحانات التي تتعرضين لها سوى عنوان محبتهِ تعالى . واذا مسّت الحاجة فايّاكِ ان تتأخري عن تضحية حياتكِ في سبيل ما هو اثمن منها وهو شرفكِ "

فسألتهُ باكيةً :—

" أوّاهُ يا ابي اني لم ادرك مرادك بهذا الانذار فأتوسل اليك ان تزيدني ايضاحاً "

" ان الامير يتمخض بميلٍ عالي اليكِ ويروم ان يجعلكِ في عداد زوجاتهِ — انتِ ابنة الملوك وعذراء الطهارة والقداسة ! انكِ ترتعدين من سماع هذا الكلام وتشعرين بان مجرّد الافتكار بهِ يشين قداستكِ ! فتشجعي ووطني نفسك على الموت ان مسّت الحاجة لان الله يكون قريباً منكِ والسماء تنفتح لقبول نفسكِ المفدية

" رحماك يا ابي لا تتركني ! "

" اني مكرهٌ على ذلك كما اخبرتكِ . وفي مصارعتكِ التجارب وحدكِ زيادة مجدٍ لك واذا شعرتِ من نفسكِ بالضعف وعدم استطاعة الثبات فالتمسي من الامير ان يأذن لكِ في الذهاب الى البادية حيث تجدين اطلال دير للقديس يوحنا يقيم فيها ناسكٌ تقيٌّ عرف قبلاً بالحكمة والاقتدار على حلّ المعضلات وكشف اسرار الارض والسماوات . ثم زهد في الدنيا واقام في اطلال هذا الدير منقطعاً للصوم والصلاة واضافة الغرباء فاياهُ اعتمدي في المساعدة والتمسي صلواتهِ فانها تعرف اقرب طريق الى السماء "

وبلغ برنغاريا خبر انطلاق رئيس الاساقفة فجاءت تروم الوقوف على السبب. فلما اطلعها على مقترح الامير لاجل ابعادهِ عن دمياط صاحت :—

" ويلاهُ ! ايطلب صلاح الدين لاجل فديتي ما يكون فيهِ العار والخجل لزوجي ؟ فان صحّ ان هذا مرادهُ فاني موتاً اموت ولن ارى رتشرد المحبوب ! ولكن ليعلم رتشرد اني لا اموت وحدي بل يموت معي في احشائي وارث اسمهِ وعرشهِ ! "

" خلي عنك الجزع فالعناية الالهية حافظة لك وسوف تعودين الى انكلترة ومعك سليل هنري الثامن العظيم . والآن استودعك متيلدة فاشمليها بعنايتك وقبل انطلاقي ساجتهد في اقناع اغنس بالذهاب معي إذ لا سبيل الى خلاصها الاّ بابعادها عن دمياط . الوداع ايتها الاميرتان المنكودتا الحظ "

وبعد ما رفع يديهِ فوق رأسيهما وباركهما انطلق وعيناهُ غارقتان في الدموع وفؤادهُ مملوءٌ حزنًا واكتئابًا

الفصل التاسع

الوصول الى عكاء

وذهب رئيس الاساقفة الى اغنس وعرض عليها الذهاب معهُ قائلاً لها : —" إذا لم يسهل عليك الذهاب الى المعسكر ففي دير القديسة هيلانة على جبل الكرمل تلقين قبولاً وترحيبًا من قديسات عائشات عيشة التقوى والطهارة والاتضاع وقمع النفس والجسد فلا يحسبن انفسهنَّ افضل منكِ ولا يذكرنَ آثامك الاَّ حينما يلتمسن لك الصفح والغفران . وفي هذا المنقطع تستطيعين يا ابنة اموري ان تكفّري في المسوح والرماد وترضّين اباك السماوي . واحذري من ان تقسّي قلبك لانَّ اثم التمرُّد والعصيان شرٌّ من اثم الخطيئة "

فصاحت اغنس مضطربةً : —

" اتركني يا ابي . اتوسّل اليك ان تتركني . فما انا بقادرةٍ — كلا لست بقادرةٍ ان اتوب . ليس في فؤادي مكان الاَّ لشيءٍ واحدٍ وهو حبُّ الانتقام ! "

" اذا كان الامر كذلك فاصحبيني الى المعسكر وهناك اقرني ضراوتك بغيرة جيشنا وحمية عساكرنا "

" ليس الآن . سانوقع ذلك هنا . ولا اذهب معك "

"خلي عنكِ العناد ولا تضيعي هذه الفرصة "

" قلت لك لا اذهب فلا تتعب ولا تعتب "

وحينئذٍ تركها وخرج ولما بلغ الباب التفت اليها لعلهُ يرى في وجهها علامة — كلمة او دمعة او زفرة تشير الى ندامتها فرآها لا تزال مصرّةً على عزمها ولم تبدِ اقلَّ علامةٍ تدلُّ على تحوُّلها عنهُ . فذهب خائب الامل يطلب القافلة خارج بوابة دمياط الشرقية وهناك رأى مع مونمورانسي عددًا من الامرى الذين دفعوا فدية نفوسهم وأُذن لهم ان يصحبوا هذا البارون ويتطوعوا لخدمتهِ . وانضمَّ اليهم فريقٌ من الرهبان الزوَّار الذين ارادوا الشخوص الى اوربا عن طريق صور . وارسل معهم الملك العادل فصيلة من الجنود لحمايتهم على الطريق

وسار الرَّكبُ على شاطيء البحر المتوسط ليتّقوا بنسمات البحر لذع الحرارة المنبعثة من رمال الشاطيء المحرقة . وكانت جميع المدن التي اجتازوها قد اصبحت في حوزة صلاح الدين

ولم يكن منها واحدة خالية من رسوم عظمة الافرنج القديمة وآثار صولتهم الغابرة

وبعد ما اجتازوا غزة ويافا وقيصرية وعسقلان وجبل الكرمل اقبلوا على عكاء وأبصروا من بعيد اعلام الافرنج خافقة فوق معسكرهم فأُفعم فؤاد رئيس الاساقفة فرحاً وسروراً وجد المسير اليهم يتبعهُ مونمورانسي وظلَّ الباقون سائرين على مهل

ولما رأى حرَّاس معسكر الافرنج فصيلة من جند العرب قادمة اليهم من بعيدٍ ومعها كاهن يتفحصان المعسكر عن قربٍ ظنوها خدعة حربية واوجسوا خوف المباغتة فاعلنوا الحذر بابواقهم فنهض الافرنج على الفور الى اسلحتهم واندفعوا الى المقدَّم حتى اذا بلغوا الحصون رأَوا رئيس اساقفة صور وقد اخذ منهُ التعب كل مأْخذٍ وكان لوسيان اوَّل من عرفهُ فاسرع الى استقبالهِ ولا حاجة الى وصف الترحيب والسرور اللذين لقيهما وليم ومونمورانسي من ملوك الافرنج وامرائهم فانهما كانا عاملين شاملين يعجز القلم عن وصفهما ·

ولما سأَلهما رتشرد عن زوجتهِ وشقيقتهِ قال لهُ الرئيس :—

" لا يمكن ان تنالا حتى في قصرهما ما تنالانهِ عند الملك العادل من الاكرام والاحترام وسأُرجئُ تفصيل ما يتعلق بهما ومجيئي الى هنا . اما الآن فارجو قبل كل شيءٍ ان تحسنوا ما استطعتم معاملة الجنود الذين رافقوني · واسمحوا لهم بالذهاب الى عكاء لاني وعدتهم بذلك جزاء حسن معاملتهم لنا في الطريق "

فأُجيب ملتمسهُ باستحسانٍ عام ورغب كثيرون من عساكر الافرنج في مرافقتهم الى بوابة عكاء وقد بالغوا في هذه المسافة القصيرة في معاملتهم لهم كاخوةٍ لا كاعداء ·

وطلب رئيس الاساقفة الى رتشرد ان يأمر في الغد بانعقاد مجلس شوري عام واخذ يستعد لهُ بايقاظ افكار الجموع وإعدادهم لاستماع ما كان مزمعاً ان يخاطبهم بهِ . واطلع على اسباب الشقاق الطارئ وخاطب رتشرد في شأْنهِ ووبخ لوسيان على تصلبهِ المنذر بشرّ العواقب وعنف فيليب اغسطس قائلاً لهُ انهُ لم يأْت الى الشرق لاجل تتويج ملك القدس بل لاسترجاع بيت المقدس . وخلا بدوق بافاريا الذي تولى قيادة الالمان بعد وفاة الامبراطور فردريك واستمال اليهِ الهوسبيتاليين وامراء جنوى والهيكليين وفرسان مار يوحنا

الفصل العاشر

فتح عكاء

وما تورّدت وجنة الشرق بضياء الفجر حتى نهض رئيس الاساقفة من مضجعهِ وسار الى مجلس الشورى حيث نصبت ثلثة عروش احدها لرتشرد والثاني لفيليب اغسطس والثالث بقي فارغاً لانهُ نصب لامبراطور المانيا المتوفى فاستوى نائبهُ دوق بافاريا على كرسيٍ تحتهُ . وجلس بعدهُ منتخبو المملكة وامراء فرنسا وبارونات انكلترة واشراف الكنيسة كلٌّ في رتبتهِ وقام في الجهة الرابعة اشراف المشرق وامراء انطاكية والجليل ويافا وطرابلس والقبر المقدس يتقدمهم كلهم لوسيان وكونراد المتناظران والمتنازعان لعرش جلس عليهِ رجل آخر غيرهما

ولما انتظم عقد الجلوس وحفَّ المجلس باولئك العظماء والكبراء نهض رئيس اساقفة صور مكشوف الرأس متوقد العينين وطفق يتدفق كالسيل بفصاحة سالبة وبلاغة خالبة وحجج دامغة وبراهين بالغة منذرًا بسوء المغبة ووخامة المنقلب متوعدًا اولئك الجانحين الى زرع الإحن والفتن بحصاد شر البلايا والمحن . جارحًا كبرياءهم باسنة الملام ناصحًا لهم بالعدول عن النزاع والخصام . ومما قالهُ لهم : —

"طالما سمعت رجال صلاح الدين يقولون بعضهم لبعض : لماذا زحف اولئك الملوك العظماء الينا ؟ أليخيموا في ارضنا ويتمنعوا في حصونهم وراء متاريسهم وهم لا يجسرون ان ينازلونا في ساحة الوغى ؟ ." وليس هذا منتهى العجب وغاية المصاب الاكبر أن صلاح الدين غير واقف امامكم موقف المشاهد اللاهي بمنازعاتكم بل ترونهُ منصرف العناية الى تجييش الجيوش وحشد الكتائب وتعبئة الفرض البحرية بالسفن الحربية حتى اذا تمَّ لهُ المراد من كمال التأهب والاستعداد صلاكم نارًا لاتستطيعون عليها صبرًا وكسركم كسرة لاترون لها جبرًا

"وهو فوق ذلك كلهِ متوقع مضافرة حليف لهُ اشد من جيوشهِ بطشاً وفتكاً فكلُّ يومٍ يمرُّ بكم في هذه الانحاء يحمل بين يديهِ عطشاً وجوعاً ووباءً حتى اذا بلغت الشمس السرطان واخذت ايام الدبّ تمطركم بصيّب النيران ونضبت العيون والحياض ويبست الحقول والرياض وتفشى بينكم الوباء قائماً على قدم الاجتياح والاكتساح ومغادرًا الذين نجوا منكم من فتكاتهِ اسرى الضنى لا قبل لهم على حمل السلاح حينئذٍ ينقضُّ عليكم صلاح الدين انقضاض النيازك ويوردكم موارد البوائق والمهالك . حينئذٍ يباغتكم ضرغام المعامع والمعارك الملك العادل الباطش الفاتك فيمكّن سنانهُ في الصدور وحسامهُ في الرقاب ويجرفكم جرف السيول للتراب

ويسدُّ امامكم للنجاة كل باب ولا يبقي من هؤلاء الامراء المجردين سيوفهم للجهاد سوي رسوم بوارٍ ودمار وآثار خزي وعارٍ لا تمحى مدى الادهار!"

فأخذ الجميع ببلاغة بيانهِ ومجر لسانهِ واستولى عليهم سكوت الاقرار بصحة كلامهِ وصدق انذارهِ وبدت على محيا لوسيان علامات التأثر والاسف واما مركيز صور المتجرف فلم يبدُ عليهِ اقلُّ تأثر مما سمعهُ بل ظلَّ معجباً بنفسهِ مباهياً بانهُ صاحب المدينة الوحيدة الباقية في حوزة الافرنج

ثم اراد رئيس الاساقفة ان يوطّد بينهم اساس المصالحة فاسترعي الاسماع الى ما يأتي :—

" اري امامي اميرين يدّعيان حقّ الاستواء علي عرش القدس وكلٌّ منهما معضودٌ بقوّة تشدُّ ازرهُ وتذود عن حقوقهِ وغير خافٍ عليَّ ان تاج القدس كان لسيبل وبعد موتها اصبح ميراثاً لاختها ايزابلا زوجة كونراد فيكون مركيز صور الوارث الشرعي لعرش بودوين. على ان لوسيان الذي تُوّج ملكاً على القدس باجماع الامة لا يزال حيًّا · فليس من العدل ان يغتصب هذا المنصب السامي بغير الموت · وليس بينكم من يهون عليهِ ان يضام لوسيان ويبخس حقهُ · ولكي لا يحرم كونراد ايضاً التمتع بالحق الذي اوجبهُ لهُ اقترانهُ بايزابلا أحكم هكذا : ليبقَ لوسيان معدوداً ملك القدس ما دام حيًّا وبعد وفاتهِ سواء تزوّج مرّة ثانية ورزق نسلاً او لا ينتقل حق الملك الى كونراد ونسلهِ من بعدهِ"

فاستصوبوا كلهم هذا الحكم واجمعوا علي قبولهِ ثم نهضوا الى مائدة عليها الكتاب المقدس فوضعوا ايديهم عليهِ وتحالفوا على وجوب تنفيذ ماحكم بهِ رئيس اساقفة صور. وبعد ماحلفوا هذه اليمين صاح رتشرد :—

" غداً نهاجم عكاء!"

فاجابهُ فيليب اغسطس :— " نعم غداً نهاجمها!"

وقبلما انفرط عقد المجلس التمس مونمورانسي الاصغاء وقال :—

" لدينا امرٌ آخر يستدعي النظر والاهتمام وهو وجود ملكة انكلترا في ربقة الامر واقدام الملك العادل على طلب فديتها على وجهٍ مهينٍ لنا جميعاً وهو رفع الحصار عن عكاء! وفوق هذا فمن منّا لا يحتدم غيظاً ويحرق اسنانهُ حنقاً حين يعلم ان الملك العادل شغف بحب الاميرة متيلدة وهو على الدوام يطارحها احاديث الغرام والهيام · او اذا كان الى الآن يرى لديهِ اسباباً تدعوهُ الى احترام سليلة الملوك فما ادرانا انهُ لا يتغلب يوماً ما على هذه الاسباب؟ اراكم تنتفضون من هول هذا الفكر واراك (مخاطباً رتشرد) تشاركني في طلب

الشخوص على جناح السرعة الى دمياط . ولكنني لا اطلب ان يذهب الجيش كله بل ان يرافقني الامراء الذين نذروا نفوسهم وقفاً على صون حرمة الجمال . "

فصاح فيليب اغسطس

" ليس فينا من يتخلف عن الذهاب . لان الشرف والجمال موضوع حماية الجميع — حتى الملوك "

وقال لوسيان : —

" وانا سأحتفل باسترداد عرش القدس بفاتحة انقاذ هاتين الاميرتين "

و بعد المداولة في هذا الشان اتفقوا على انهم بعد افتتاح عكاء يعدُّون تجريدة و يرسلونها الى دمياط بقيادة رتشرد ومونمورانسي

ثم رتبوا الهجوم في الغد بان يكون رتشرد في مقدَّمة الانكليز وعلى جناحيه الموسبيتاليون والفليون مقابل البرج الغربي وفيليب اغسطس مقابل برج الناصرة من الجنوب . وعهد الى لوسيان بالعناية بآلات الهدم وابراج الرمي المعدَّة من وقت طويل لهذه الغاية لكي يحمل بها على الجهات الضعيفة من الاسوار ووعد كرنراد وعد المضطر المرغوم ان يساعده

وعند اول الفجر خرج مونمورانسي بكتيبة من الجيش لحفر اسراب تحت الاسوار الخارجية واقام لوسيان برجاً مشحوناً من معدَّات الرمي مقابل الثغرات التي لم يحكم ترميها . وزحف الصوريون بالمجانيق والقذائف وسائر آلات الثغر والهدم

وهذه التاهبات كلها جرت وسكان عكاء لا يزالون غارقين في النوم مغترّين بما كان مستولياً على الافرنج من الشقاق الذي حصرهم في معسكرهم الى الآن ولم يدروا ان رسول الموت قادم اليهم ومخيم بظلاله عليهم

وما تبلج الصباح الّا ايقظهم صليل الاسلحة ورنين الابواق ووقع الحوافر فخفوا الى الاسوار ورأوا من اعاليها الألوف العاملين على النقب والتسريب فحاولوا صدَّهم بان رموهم بالرضف ومذوَّب الرصاص فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً لان المحاصرين امطروهم بصبيب السهام والمزاريق والقذائف والمجانيق واضطروهم الى النكوص فاخذوا يدافعون بقيادة الباسل الامير سيف الدين عليّ بن احمد المشطوب الذي اعمله صلاح الدين على عكاء وعهد اليه بحمايتها . وكانت اكثر ابراجهم قد فرغت من معدَّات الدفاع وثغرت الاسوار من جهات مختلفة ومع ذلك كله ظلوا على ما يعهد فيهم من رباطة الجأش ولم يبدُ عليهم شيء من خوار العزم والميل الى التسليم

وحينئذٍ حمل رتشرد برجالهِ على البرج الغربي فزلزلهُ ودكهُ والقى بنفسهِ في الثغرة وامتلك الاسوار الخارجية بعد قتال عنيف اكره فيهِ العرب على التقهقر الى الحصون الداخلية واستولى فيليب اغسطس على برج الناصرة ولقي رتشرد وعقدا النية على مواصلة الهجوم حتى يمتلكا السور الداخلي

واذ ذاك بلغهما ان مونمورانسي اخذ الميناء واستولى على حصونهِ بواسطة جسور مدَّها من الاسوار الخارجية الى الداخلية . فلم يشرعا في ثغر السور الداخلي حتى وجدا مونمورانسي بينهما في المقدَّمة وقد القى بيديهِ سلّمًا على السور واقتحم الغارة وكان لوسيان يتبعهُ من ورائهِ

وكان مونمورانسي اول من وضع يده على القلعة فصافحها بكف الظاهر الظافر غير مبالٍ بالاخطار التي تهدَّدتهُ . ثم اختطف الراية من احد اصحابهِ ورفعها على السور اعلانًا للنصر والظفر . واذ ذاك انطبق عليهِ العرب انطباق القضاء المبرم واخذ يجول بينهم ويصول ويقوم دون تمكنهم منهُ ويحول . وفيما هو يفلّ عن يمينهِ الصفوف ويغمد حسامهُ في صدور الالوف ويورد من اقتحمهُ من تلك الجهة موارد الحتوف فاجأهُ واحدٌ عن يسارهِ بضربة بلطةٍ فلقت خوذتهُ شطرين وغادرت رأسهُ مكشوفًا للطعن والضرب . الاَّ ان القضاء قدَّر لهُ قدوم معين ونصير وفتح لهُ منفرجًا من ذلك الضيق العسير وحقق لهُ القول "وبينما العسر اذ دارت مياسير" وذلك ان لوسيان تمكن اخيرًا من اغاثتهِ مصحوبًا برجالهِ فانتشلوهُ من وهدة المخاطر التي كان ساقطًا فيها

وكان احمد المشطوب قد احتدم غيظًا من نجاة فريستهِ من يدهِ فحوّل تيار غضبهِ نحو لوسيان وصوَّب رمحهُ اليهِ وطعنهُ طعنة لم تترك لملاك القدس مجالاً للفرار منها فاصابت صدرهُ وغادرتهُ مجندلاً بدمائهِ

ثم وقف المشطوب يفكر في ما افضت اليهِ هذه المعركة . فان الحصون اخذت جميعها واصبح جيش الاعداء يجوس خلال المدينة . واذ ذاك وثب رتشرد لاغاثة لوسيان فانقذهُ وثار على المشطوب فظفر بهِ وامر فشد وثاقهُ

ولما راى اهل عكاء قائدهم اسيرًا سلموا وقبلوا شروط فيليب اغسطس كلها

الفصل الحادي عشر

احمد المشطوب وصلاح الدين ·

وكان السلطان صلاح الدين قد انطلق بشطر من جيشهِ الى الموصل ليصد عنها هجمات عماد الدين صاحبها الاول . وبعد ما واقعهُ بضعة ايام وهزمهُ شر هزيمة اقفل يتهادى براح الغلبة على ضفاف العاصي . ولما بلغ سفح جبل الجليل لقيهُ احمد المشطوب مرسلاً اليهِ في طلب فدية اسرى عكاء مكشوف الرأس حليف الكآبة واليأس ولما مثل امامهُ انطرح عند قدميهِ صارخاً :—

" مولاي خذ حياتي ! فان الاعداء اخذوني على غرة وافتتحوا المدينة التي ائتمنتني عليها واكرهوني ان آتي اليك لاجل توقيع معاهدة الصلح "

فانقضَّ هذا النبأ على صلاح الدين انقضاض الصاعقة ووقف واجماً منعقد اللسان وقد استحال عليهِ ان يصدق ان بلاغة رجل واحد تمكنت من التغلب على الشقاق الذي كان ضارباً اطنابهُ في معسكر المسيحيين فوحدت كلمتهم وألفت قلوبهم ومهدت لهم في يوم واحد سبيلاً الى فتح اعظم معاقل فلسطين بعد القدس . فسأل المشطوب :—

" ومن عسى ان يكون ذلك الرجل الذي استطاع تنفيذ سلطتهِ على افكار ملوك كثيرين ذهبت بهم المصالح الذاتية كل مذهب . واي يد تمكنت من ثغر الاسوار المثلثة التي حصنت عكاء بها ؟ "

" اما ذلك الرجل فهو اسقف صور المشهور . واما فتح عكاء فقد اشترك فيهِ رتشرد وفيليب اغسطس ولكنهما لم يكونا ليجدا الى الظفر من سبيل لو لا سيف مونمورانسي الماضي الصقيل "

" اما ان يكون ما اسمعهُ منك في حلم او تكون كاذباً لان اسقف صور ومونمورانسي هما الآن اسيران في دمياط "

" نعم كانا هناك ايها السلطان الاعظم لكن الملك العادل اطلق سراحهما وارسلهما الى معسكر الافرنج فبلغاهُ في السادس عشر من رجب . وفي السابع عشر منهُ عقد اسقف صور مجلس المصالحة بينهم وفي اليوم الثامن عشر شنوا علينا غارة شعواء ورفعوا اعلام انتصارهم على اسوار عكاء

" انعلم ايها العبد الزنيم الى اي غرضٍ وخيم ترمي بكلامك الاثيم ؟ ألا تدري انك تحاول بهذا حملي على اساءة الظن في اخلاص اخي ؟ "

" ان الملك العادل يا مولاي لايحاكيهِ احدٌ في امانتهِ للسلطان الاعظم . ولكن ماقلتهُ لجلالتك يصدقهُ ويشهد بصحتهِ الرجال الذين اتوا بالاسيرين من دمياط . ولولا تهيبي غيظ السلطان العادل وتنصت الذين حولنا لاطلعت جلالتك على اكثر من هذا "

" تعال اذاً كلمني على انفراد ٍ ولكن توخَّ الصدق جهدك واحذر الكذب اذا كانت حياتك ثمينة عندك "

ثم امر السلطان فضرب سرادقهُ وخلا بالمشطوب الذي جثا عند قدميهِ وقال : —

" انَّ اخاك يا مولاي دان على عزّتهِ لهوًى خانهُ عليهِ الصبر وأُخذ بقوة هي فوق ما يفعلهُ السحر . فان فتاةً ذات جمال فتّان تيمت قلبهُ وسبت لبهُ فتغير منذ علق بها من حال الى حال ورمى كبد الامور المعهودة اليهِ بسهام الإِهمال وجعل مصالح العباد والبلاد ضحيةً لتلك الفتاة البارعة الحسن والجمال "

" ما اسم هذه الفتاة ؟ "

" هي الاميرة متيلدة شقيقة الملك رتشرد هذه التي لاجلها هجر الملك العادل قصرهُ ونثر عقد نسائهِ واطلق سراح اسقف صور ومونمورانسي ولو أمرتهُ لجاء بها ايضاً الى معسكر الافرنج لانهُ اقسم ان يطيعها في كل ما تأمرهُ بهِ "

" كفى بهذا دليلاً على كذبك لأن الملك العادل لم يقسم قط قسماً كهذا والاَّ كانت قد أمرتهُ ان ينضمَّ الى الافرنج ويسلمهم كل ما أُوتمن عليهِ . فهل فعل شيئاً من هذا ؟ "

" لم يفعل بعد . ولكن اذا هاجها لاعج الوجد وتسامحت بشيءٍ من كبريائها واقترحت عليهِ ان يضحي في سبيل حبها وطنه و . . . "

" لا يتردد الملك العادل طرفة عين في إِيثار الواجب على دواعي حبهِ ! ويستحيل عليهِ ان يغدر بي كما يستحيل عليَّ ان ارتاب في شرفهِ . فقد يمكن ان يكون عاشقاً وقد يتسنى لهذه الاميرة ان تحملهُ على تضحية حياتهِ في سبيلها . اما تضحية شرفهِ فذلك رابع المستحيلات . ولو لم تكن قد خاطرت بنفسك لاجلي في معارك كثيرة لأمرت بقتلك جزاء اجترائك على اتهام اخي بمثل هذه التهم الباطلة . ولكن لا تخف . فلسوف اطلب لك العفو ممن اسأتَ اليهِ . انطلق عاجلاً الى دمياط وامثل امام الملك العادل واعترف بجريمتك والتمس عفوهُ وسلمهُ الاوامر التي القيها اليك وانظر بعينيك امانتهُ في اجرائها واتمامها "

فانصرف المشطوب امتثالاً لامر السلطان . وفي المساء استدعاهُ صلاح الدين وقال لهُ بعدما اعطاهُ الاوامر مختومة بخاتمهِ السلطاني :—

" هذه تطلع الملك العادل على رغائبي. ينبغي ان يرسل ملكة انكلترة الى القاهرة حيث يحتفظ بها بكل ضبط فاضطرّ رتشرد الى قبول ما اقترحهُ عليهِ قبل اطلاقها وهو تسليم عكاء. ومعلوم ان الملوك الذين شاركوهُ في الفتح لهم مثلهُ حق تملكها وهم اقلّ منهُ اهتماماً بالمساهلة فيرفضون طلبي ورفضهم هذا يحدث بينهم منازعات جديدة — منازعات شديدة تقصّر بلاغة اسقف صور عن حسمها وفصلها وتمكنني من سحقهم وتمزيق شملهم . وفي اثناء ذلك يجمع الملك العادل جيوشهُ ويضمُّها الى الجنود التي في دمياط والقاهرة ويوافيني بها الى حيث انتظرهُ . وقبل انطلاقهِ يُرسل الاميرة الانكليزية الى اخيها . يُعدُّ لها سفينةً في دمياط . واذا عفا عنك فانت تصحبها الى معسكر الافرنج . فاذهب الآن وانظر هل يجعل الملك العادل فتاةً تحول بينهُ وبين اخيهِ ؟ "

وكانت متيلدة قد عملت بعد انطلاق اسقف صور بموجب وعدها لهُ . فاغلقت على نفسها في مقصورتها واصرّت بعزيمة شديدة على مقاومة اغراءات الملكة وتسويلات نفسها حتى ملّت الملكة من خيبة مساعيها في استمالة متيلدة الى الملك العادل وساءها جداً تمادي اسرها وانفصالها عن زوجها حتى أُصيبت بمرضٍ انحلها وخيف منهُ على حياتها — واسرعت متيلدة الى عيادتها ولبثت عندها لا تفارقها . وفيما كانت ذات ليلة جالسة بجانب فراشها قالت لها برنغاريا :—

" لا يسعني ان اشكر لكِ معروفكِ في سهرك عليّ وعنايتكِ بي . ومع ذلك كان في امكانك ان تعيديني الى الحياة بكلمةٍ واحدة للملك العادل ان يردني الى رتشرد . علليني بأمل اللقاء برتشرد فاتعافى وانشط من عقال الضعف والسقم "

" سأجيب طلبكِ عند سنوح اول فرصة "

وفي ظهيرة اليوم التالي شعرت الملكة بنشاطٍ نشأ عن تجدُّد آمالها وراحة افكارها فغادرت فراشها وحملت الى متكإٍ مقابل الشبّاك حيث استنشقت النسيم العليل وسرحت نظرها في سهل الدلتا الريّان الجميل وجلست متيلدة بجانبها تطربها بانشاد بعض الترانيم بلحن رخيم وصوت يشفي السقيم . واذا بعبد دخل يقول ان الملك العادل في القصر يسأل عن صحة الملكة فرمقت برنغاريا متيلدة بنظرة التماسٍ اعربت عمّا لا يستطيعهُ ابلغ الكلام فنهضت متيلدة على الفور لتنجز ما وعدت

فلما رآها الملك العادل قادمة اليهِ اوغل في الدهشة ووقف لا يبدي حراكاً كمن رأى في حلمهِ رؤيا جميلة وخاف ان يتحرك فيطلع فجر التعقل ويلاشي ليل الوهم . اما متيلدة فانحنت امامهُ باحتشام وقالت :—

" قد جئت يا مولاي باسم ملكةٍ منكودة الحظّ التمس رحمتك . انها لا تزال مريضة جدًّا . والحزن والغمّ هما سبب مرضها . وحياتها الثمينة متوقفة على زوال هذا السبب فوعدك اياها بارجاعها الى زوجها ينقذها من مخالب الموت "

" لا اعلم ماذا تكون نتيجة هذا الامر . لكن مشيئتكِ منشأُ حرية الملكة . فهي حرةٌ مذ الآن . هل تريدين ارجاعها الى زوجها ؟ فليكن كذلك "

" لله كرم اخلاقك وطيب اعراقك ! فلقد طوّقتني منة اذكرها ما حييت بالحمد والشكر وجعلتَ اسرتي مديونة لك ابد الدهر ! "

ثم خرجت من لدنهُ الى حيث كانت الملكة وقالت لها :

" منحكِ الملك العادل حريتكِ ولسوف تسافرين عندما تمكنكِ صحتكِ من ذلك—"

فقالت لها الملكة :—

" بايّ لسانٍ استطيع ان أُوفيكِ حقكِ من الشكر ؟ ومتى ارى الملك العادل فأُوفيهُ حقهُ من الثناء على هذه اليد البيضاء ؟ "

واذ كان الليل قريباً حملت الملكة الى مضجعها حيث حفتها فيهِ احلام مفرحة لذيذة —

اما متيلدة فعبثاً حاولت الرقاد لأن هجير النهار وحرّ الليل ارّقاها وسلبا راحتها فالتمست لنفسها ترويحاً في حجرةٍ ملاصقة لمخدع الملكة تشرق من نوافذها على حديقة القصر . وجلست بجانب النافذة وفتحت كتاب الصلوات وحاولت القراءة لكنّ افكارها حالت دون ذلك واخذت عيناها تنطبقان على رغمها ورأسها يميل متدلياً على يدها . وبينما كانت نسمات الليل تعبث بصفحات كتابها كانت افكارها تحوم حول كل ما عرض لها في اجتماعها بالملك العادل حتى قضت ليلها بين قراءة متقطعة قصيرة وذهول متوالٍ طويل . وعند الفجر انطرحت على سريرها معييةً من تلك المعارك الذهنية التي شهدتها لكنها لم تنم الاّ قليلاً جدًّا فان احدى الجواري جاءت تقول لها ان الملكة تريد ان تراها . فخفت مسرعة اليها وبعد ما جلست بجانبها سألتها بعد سكوتٍ طويل :—

" عندما سألتِ الاميرامس ان يسمح باطلاقي هل سألتهِ من جهتكِ انتِ ؟ "

" وما الداعي الى ذلك ؟ هل يخطر ببالهِ ان يفرّقنا ؟ هل يرتكب الاميرائم حبسي هنا ؟ "

" انكِ عندما تقيسين اعمال الناس باعمالكِ ولاترينها جارية على مبادىء العدل وقواعد الفضيلة لا تخطر ببالكِ المحبة مع انها محدقة بكِ من كل جهةٍ وقد تمثلت لكِ بصورها المختلفة في هوى اغنس العنيف الاثيم وغرام الملك العادل الشديد وتعلقي انا برنشرد هذه المظاهر كلها عرضت لكِ وانتِ عنها غافلة ذاهلة "

" اما وعدت اني لا اعرف محبة لرجل مدى حياتي ؟ ايصحّ ان انبذ النذور التي جئت لانذرها ؟ "

فقالت الملكة : —

" على كلٍّ اري ان الملك العادل لن يسمح بانطلاقكِ "

" اذًا انا شقيةٌ الى الغاية . وحالتي مخيفة جدًّا ! "

" لا اظنُّ ان قلبهُ المغرم بك يسمح لهُ بمفارقتك "

" اذًا ساراهُ ثانية والتمس ذلك منهُ "

" فوّضي الامر اليَّ لعلي اتمكن من اقناع الامير بالعدول عن افكارهِ من جهتك لعدم امكان التغلب على ما يحول بينكِ وبينهُ . وان اخفق مسعاي عندهُ رفضتُ الحرية التي منحها ومتُّ هنا "

" لا يجوز ان تذهبي ضحيَّة ما قضى الله بهِ عليَّ "

" بل الواجب يفرض عليَّ البقاء معكِ في دمياط "

" بل يأمركِ بالانطلاق الى زوجكِ متى امكنكِ ذلك . اما انا فلا تخافي عليَّ . الله ملجإي وقوتي . اذهبي يا اختاهُ اذهبي "

الفصل الثاني عشر

حيرة الملك العادل

وفي ذلك اليوم أُخبرت الملكة بقدوم الملك العادل فاستقبلتهُ في غرفتها ومتيلدة جالسة بجانبها حسب العادة . وبعد ما هنأها بمعافاتها وشكرت هي لهُ جميلهُ ومعروفهُ لسماحهِ لها بالانطلاق الى زوجها قالت لهُ : —

" وهذه الحرية التي انعمت بها ليست لي فقط بل لشقيقة زوجي . . . . "

فاعترضها بقولهِ : —

" ان شقيقة زوجكِ لم تسأَلني من جهة نفسها "

" لم ترَ من ضرورة لذلك . او لم تعدنا باننا لا نفترق ؟ "

فالتفت الى متيلدة وسالها مجتهداً في اخفاء انفعالهِ : —

" هل ترومين الذهاب ؟ هل تريدين ان تبرحي دمياط ؟ "

" نعم يا مولاي . ان عينيَّ تحنّان شوقاً الى رؤية ارض ميلادي "

فامتقع الامير وذعر وانقطع عن الكلام وغاص في لجج التأملات . ثم افاق من ذهولهِ واخبر الملكة بانهُ عندما نتأهب للسفر ينظر في امر شقيقتها . ثم قال لمتيلدة : —

" وفي هذه الاثناء اذا اصغيتِ اليَّ اطلعتك على الاسباب التي تحول دون الاسراع في حكمي من جهة سفركِ الى ذلك الحين فان اصررتِ بعد ذلك على عزمكِ وأنتِ عالمة انكِ تذهبين بحياتي وسعادتي فحينئذٍ لا امنعك بل يكون طلبك علامة انطلاقكِ وتضحية حياتي "

وعلى رغم بسالتهِ المشهورة وعزة نفسهِ المعهودة سحّت اجفانهُ بعبرات سالت على خديهِ وقبلما تمكن من مسحها رأتها متيلدة وسالت عيناها بمثلها واغزر منها . فلما ابصر دموعها ازداد اضطراباً على اضطراب ولم يعد في طاقتهِ الصبر على هذا المشهد فخرج على الاثر . ولما خلت الملكة بمتيلدة قالت لها : —

" لا تيأسي فان موانع انطلاقكِ ستكون اقل مما ظننتِ "

فسألتها متيلدة : —

" وهل تظنين ان سفري يفضي الى موتهِ ؟ "

" اذا اصررتِ على مقابلتهِ بالصدِ والاعراض فقد يقودهُ اليأس الى مثل هذه النتيجة "

فاوجست متيلدة خوف حصول هذه النتيجة ووعدت الملكة بالكف عن مجافاة الامير ومهدت لنفسها اعذاراً ومسوغات لمخالفة نصائح اسقف صور اهمها تغير الاحوال والعمل بمقتضى الضرورات . وعندما كانت تلجأ الى الصلوات الانفرادية والتأملات الروحية كانت صورة الملك العادل تخترق حجاب انفرادها وتمثل امامها على اسلوب لا يحول ولا يزول

ولم تلبث برنغاريا ان لاحظت تأثير هذه الاضطرابات في وجه متيلدة . لكن شوقها الشديد الى الاجتماع برتشرد حال دون تمكنها من الوقوف على سرّ هذا التغيير العابث باخت زوجها فنسبتهُ الى خوفها من البقاء وحدها في دمياط .

وظل فؤاد الاميرة متيلدة عرضة نزاع بين الواجب وداعي المحبة يوماً بعد يومٍ حتى خارت قواها واصفرت وجنتاها

ولما اكملت الملكة استعدادها للسفر رأت من الضروري ان تكلم الملك العادل عن متيلدة لعلها تتمكن من اخذها معها . ففي احد الامساء بينما كانت جالسة مع متيلدة دخل الملك العادل على الفور وجلس قريباً من متيلدة . فاستكدت الملكة ذهنها لعلها تظفر بمقدمة لكلامها فلم يفتح عليها بشيءٍ وفيما هي تضرب اخماساً لاسداس كانت متيلدة تتململ من هذا السكوت المخيم على مجلسهم ولم يسعها ان تنظر الى عيني الملك العادل· واذ لم يعد في امكانها الصبر على هذه الحالة نهضت تريد الخروج ·واذ ذاك نشطت الملكة من عقال حيرتها وانطلق لسانها بالكلام فقالت : —

" مولاي قد حان وقت تعيين سفري فساموت ان لم اذهب لكنني لا اقدر ان اذهب بلا متيلدة "

فاجابها : —

" اذا كانت هذه مشيئة متيلدة فلن تراني بعد اليوم لكنني اطلب ان اكلمها على انفراد فاذا الحت بعد ذلك على الذهاب معك لم اعارضها وتعيين يوم السفر متوقف عليكما "

فنهضت الملكة وقالت لمتيلدة : —

" سمعت ما قالهُ الامير · فانطلاقك متوقف عليكِ "

وبعد خروج برنغاريا جلس الملك العادل مكانها وساد عليهما سكوت طويل خشي ان يخترق حجابهُ وخافت متيلدة الاقدام على ذلك فدنا منها ولمس يدها بيدهِ فانقدت جبهتها بحمرة نارية ولم تعد تستطيع التنفس واخذ المنديل المسدول على صدرها يعلو ويهبط بحركة قلبها المضطرب فلما رآها في هذه الحالة جلس امامها معرباً عن عزة نفس وطهارة حب وصدق اخلاص يندر وجودها في قلب غيره · ولكنها ابت على رغم مواعيده وتوسلاتهِ ان تصغي اليهِ وحاولت الخروج فبسط ذراعيهِ وطلب ان تصغي اليهِ فقالت لهُ

" لا اصغي الى شيءٍ سوى الامر بانطلاقي "

" وهل هذا شرط عفوك ؟ "

" اذا منحتني حريتي وعدتك باني لا اذكر سوى حسناتك "

فلما رآها عازمة على الانصراف ولم يستطع احتمال فراقها ناداها قائلا : —

" قفي قليلاً فسيكون لكِ ما تريدين "

فصاحت وقد انساها فرحها ثقل الالم الذي اناخت بهِ على فؤاد محبها : —

" يا لشوقي الى ارض ميلادي ! الى اترابي ! الى ديري "

فانقض عليها الامير مغتاظاً وامسكها بيدها على رغم مقاومتها وقال لها : —

" يا لكِ من فتاةٍ عادمة الشكر قاسية الفؤاد ! تسرّين بما فيهِ عذابي غير آسفةٍ على ما بي ولا سامحةٍ بدمعة حزناً على مصابي ! فلستِ بذاهبة قبل ان تسمعي ما اقولهُ لكِ "

وبعدما اضطرها الى الجلوس اخذ كلتا يديها في يدهِ الواحدة واسند يدهُ الاخرى على ظهر كرسيها وتفرّس في وجهها وقال : —

" لا استطيع فراقكِ لا اقدر ان أُبعدك عن نظري — فان رُمتِ الرجوع الى اوربا ذهبت معكِ . وان اردت البقاء هنا كملكة فذلك لكِ "

" ايها الامير الكريم . اما لك جلد ان تتحمَّل كرجل شجاعٍ ما قضي بهِ القدر من الموانع التي بيني وبينك ؟ "

" استعدي من الآن للانطلاق فلستُ بمعارضٍ لك على الاطلاق "

وبعد خروجها دخل عبدٌ ووقف يتوقع الاستئذان — فلما طال عليهِ الوقوف تكلم فتفرّس فيهِ الملك العادل صامتاً ثم اعرض عنهُ ودخل الى مخدعهِ

وكانت انباء سقوط عكاء قد انتشرت في دمياط ولم يبقَ من يجهلها سوى الملك العادل الذي اغلق على نفسهِ ولم يجسر احدٌ ان يدنو منهُ غير مدعوٍّ

وكان احمد المشطوب قد ارسل العبد ليبلغهُ خبر قدومهِ فلما اعياهُ الانتظار الحّ بوجوب دخولهِ اليهِ حالاً واظهر اوامر السلطان مختومة بخاتمهِ الملكي . فانفتحت لهُ الابواب وانزاح من طريقهِ الحرّاس ولم يجسروا على معارضتهِ . فلما مثل بين يديهِ سلمهُ كتاب صلاح الدين واخبرهُ بسقوط عكاء . فدهش الملك العادل لسماع هذا الخبر ولم يستطع تصديقهُ . فقال لهُ المشطوب : —

" اتعجب جدًّا من دهشتك مع انك انت ايها الامير علة مكابدتنا لهذه الخسارة العظيمة "

" ماذا تقول ايها العبد المهان ؟ "

" اقول ان فصاحة اسقف صور وبسالة مونمورانسي مكنتا الافرنج من فتح عكاء . فعليك اذًا تبعة انكسارنا "

" لا انكر عليك اني ارتكبتُ خطأً فادحاً لكنني سأُكفر عنهُ باسترجاع عكاء "

" ولكن كيف تعيد ايها الملك نفوس اولئك الامناء الذين قضوا في سبيل الدفاع عن عكاء ؟ "

" ساخذ بثار اولئك الشهداء الذين كنتُ سبباً لسفك دمائهم الزكية "

" يعزّ عليّ ان اري ملكاً مثلك يدين لهوى نفسهِ الامارة بالسوء ويذهب وظنهُ ضحية فتاةٍ صخّابة ... "

فزجرهُ الملك العادل قائلاً : —

" اخرس ايها العبد الزنيم . واحذر من النطق بكلمة اخرى تمتهن بها اميرة انكلترة ! اغرب عن نظري ! "

فاطاع المشطوب وصية سيدهِ الاخيرة لا الاولى وخرج يجاهر بين الشعب في ذمّ الملك العادل والاميرة الانكليزيّة التي كانت سبب هذه البليّة

وبعد ما اطلع الملك العادل على كتاب اخيهِ تنازعتهُ الافكار المتناقضة والاميال المتخالفة فحار في امرهِ لا يدري ماذا يفعل ايطيع داعي هواهُ ويعصي اخاهُ أم يطيع امر السلطان ويخالف داعي اميال قلبهِ وعواطف نفسهِ — وبعد جهاد عنيف قضاهُ في التأمل والافتكار عزم على اجراء ما يأتي : —

في الصباح يصدر امرهُ باعداد سفينةٍ تحمل متيلدة الى عكاء . وفي فجر اليوم التالي ينبغي ان تسير الى طيتها — وهو نفسهُ يذهب بالملكة الى القاهرة . ويسرع الكرة الى صلاح الدين ويطلب منهُ تصديق وعدهِ لها بالاطلاق

وفي الصباح ذهب الى الميناء ليعد السفينة المزمعة ان تنقل الاميرة متيلده فاصدر الاوامر المشددة بخصوص استكمالها معدات راحتها وسلامتها . وفي طريقهِ لقي المشطوب فقال لهُ بلسان الابهة والسيادة : —

" غداً ايها العبد ترافقك الاميرة فاحتفظ بها بما لا مزيد عليهِ من العناية اذا كانت حياتك الاثيمة كريمة في عينيك "

ثم دفع اليهِ كتاباً الى الملكة يخبرها فيهِ بانهُ اضطر بناءً على اوامر السلطان ان يؤجل اتمام وعدهِ لها وبعد يومين يصحبها الى القاهرة واعداً اياها بانهُ لا يلبث بعد ذلك ان يبعث اليها بكوكبة من الفرسان تذهب بها الى معسكر الافرنج

وبرح دمياط يجمع العساكر ويدربهم على فنون الحرب استعداداً للانطلاق بهم الى صلاح الدين

الفصل الثالث عشر

سفر الملكة

وتذكرت برنغاريا وعدها لاغنس اميرة القدس فخفت اليها لتخبرها بانها اصبحت قادرةً على انجاز وعدها بارجاعها الى شعبها

وكانت اغنس قد صممت على عدم مفارقة موضوع حبها فبثت عليهِ العيون والارصاد استطلاعاً لحركاتهِ وسكناتهِ . ولما علمت بمجيء المشطوب قابلتهُ سرًّا ووقفت منهُ على الاوامر القادم بها من لدن صلاح الدين . واطلعتهُ على هيام الملك العادل بالاميرة الانكليزيَّة وتضحيتهِ مصالح الامة والوطن في سبيل شغفهِ بها . فلما جاءت اليها الملكة ودعتها الى الذهاب معها قالت لها : —

« الم يبلغك نقض الامر المؤذن بانطلاقكِ ؟ »

« ماذا تقولين ؟ فقد وعد الملك العادل امس بانطلاقنا »

« وبعيد وعدهِ جاء احمد المشطوب من عند السلطان يأمر بارجاع الاميرة متيلدة حالاً الى معسكر الافرنج وحبس جلالتكِ في القاهرة حتى يرضى رتشرد برد عكاء »

فخان الملكة الصبر والجلد عند وقوفها على هذا القضاء المخيف وسقطت مغشيًّا عليها . ولمَّا افاقت رأَت متيلدة جاثية بجانبها فقالت لها : —

« رحماكِ يا متيلدة خذيني من هنا — فلا ارى هذه المرأَة القاسية التي سرَّها مصابي واضحكها انتحابي »

ثم حملت الملكة الى مقصورتها حيث انطرحت على سريرها باكية بكاء مرًّا وقد اطلعت متيلدة على ما سمعتهُ من اغنس واهابت بدوق لنكستر وامرتهُ ان يذهب في الحال الى الملك العادل ويسأَلهُ عن صحة الخبر . فقال لها الدوق : —

« لقد برح الملك دمياط وعهد الى المشطوب بتنفيذ اوامر السلطان في غيابهِ . وغداً تقلع السفينة بسموّ الاميرة الى عكاء »

« فصاحت الملكة اوَّاه يا اختاهُ . ان تركتني قضي عليَّ في الحال ! اسرعي اليهِ التمسي رحمتهُ » فنهضت متيلدة وقالت لدوق لنكستر : —

« سر بي ايها الدوق الى قصر الملك »

وعلى الفور ذهبت الى القصر ودخلت تخترق صفوف العساكر غير مبالية بسوى السعي في اطلاق الملكة . ولما طلبت الدخول الى مقام الملك اوقفها الحرّاس واخبروها انهُ برح دمياط منذ بضع ساعات

ثم خرج اليها المشطوب واخبرها ان رجاءها باطل وانها ينبغي ان تذهب غدًا الى اخيها والملكة تؤخذ الى القاهرة حيث تبقى الى حين ردّ عكاء الى المسلمين . ومما قالهُ لها : —

" ماذا تسألين الستّ تعلمين ان اوامر السلطان مقدسة عند رعاياه ؟ فلو طلبَ حياتك لاغمدتُ على الفور هذا الخنجر في صدركِ . ولو طلب رأسي لحملتهُ اليهِ بيدي . فلا ترومي ما لا ينال ولا تعللي نفسكِ بالمحال . اذهبي استعدي للانطلاق معي غدًا صباحًا وخذي معكِ لزوجة رتشرد هذا الكتاب من الملك العادل "

فرجعت متيلدة مسرعة بالكتاب وقد احيا فيها شيئًا من الرجاء قائلة في نفسها لعلّ الملك رثى اخيرًا لحالة الملكة . ولما دخلت دفعتهُ اليها ففضّت ختامهُ ولم ترَ فيهِ لسوء حظها سوى القضاء عليها بالاسر في عاصمة مصر. فاستولى عليها اليأس واستحوذ واخذ منها الغمُّ كلَّ مأخذ وقالت لمتيلدة التي كانت قد اوغلت في النوح والبكاء : —

" خلي عنكِ البكاء يا متيلدة واتركيهِ لزوجةٍ قضي عليها ان تموت متجرّعةً غصص البؤس والشقاء . " ثم رفعت عينيها الى متيلدة فرأت في وجهها بارقة املٍ لاحت كنورٍ اضاء في الدجى . فصرفت اماءها بحجة التماسها الراحة وقالت لمتيلدة بلهفةٍ : —

" ماذا بدالكِ ؟ قولي . رحماك قولي ! "

" بدا لي ان تنطلقي غدًا عوضًا عني لابسة ثيابي وسادلةً على وجهكِ برقعي الطويل . وانا ابقى هنا مكانكِ واتحمل تبعة ذلك ايًّا كانت . لا محلّ للرفض والوقت اقصرُ من ان نقضيهُ بالاخذ والردّ . لا يسعنا ان نذهب كلتانا . فلا بدّ من ذهاب واحدة منّا انتِ او انا . ولكن يجب ان تذهبي انتِ الى زوجكِ وشعبكِ الذين بكِ تتعلق آمالهم من جهة توقع خلف لرتشرد "

" ليكن كما تريدين . ساذهب واُخبر العالم بإنكارك لنفسكِ "

وقبيل الفجر نهضت متيلدة وصرفت عنها جواريها بحجة اشتغالها بوداع الملكة . ثم خلعت ثيابها والبستها لبرنغاريا ولبست هي ثياب الملكة . وبعد ما فرغتا من تنكرهما دخل دوق لنكستر ونساء الاميرة وبعض الحرّاس . فقال الدوق يخاطب الملكة القائمة بزي متيلدة : —

" ننتظر امر سموكِ في نشر الشُرُع للإقلاع "

فاومأت اليهِ برغبتها في المسير واطاع الدوق اشارتها وسار بها الى الميناء · فدخلت السفينة من غير ان تكشف برقعها· ولما جلست في الحجرة المعدَّة لها رجع حرَّاس الملك الى المدينة ورفع البحَّارة المرساة ونشروا الشُرُع واخذوا يشقُّون العباب بمجاذيفهم والسفينة تمخر بهم جارية وفق المشتهى

ولزمت الملكة حجرتها بحجة الدوار ولم تسمح بالدخول اليها لسوى دوق لنكستر وبعض حاشيتها الذين اطلعوا على سرّ تنكرها ونجاتها · ولم يهتم المشطوب بامر الدخول اليها · ولهذا لم يعلم بشيءٍ من امرها حتى بلغت عكاء ورآها مع زوجها تهزأُ بهِ وبوعيدهِ

الفصل الرابع عشر

تصريح الملك العادل

وبعد انطلاق برنغاريا اسرعت متيلدة الى مصلاَّها واقامت فيهِ عدة ساعات قضتها في الصلاة لاجل سلامة الملكة لاهيةً عن نفسها بالاهتمام بغيرها · ثم دعت اليها هرميون كونتة لستر واطاعتها على امرها وسفر الملكة وقالت لها : —

" اكتمي هذا السر جهدكِ واذيعي ان الملكة مريضة · وغداً اذا رجع الملك وطلب مقابلة الملكة فلا بأس لان برنغاريا تكون حينئذٍ قد بلغت حيث يتعذَّر ارجاعها "

وفي اليوم الثالث اصدت جوانب المدينة بصليل الاسلحة وهتاف المبوقين إيذاناً برجوع الملك العادل بالجيوش التي حشدها · وما لبث بعد وصولهِ ان امر باعداد سفينة ليسير بها في الغد الى القاهرة · ثم ارسل يطلب مقابلة الملكة

نخفّت هرميون الى متيلدة واخبرتها بقدوم الملك العادل فراعها هذا الخبر المفاجئ لكنها تجلَّدت واسرعت الى مصلَّى الملكة وجلست تنتظرهُ هناك

فلما دخل ورآها في مجلسها لم يخامرهُ ريبٌ في انها برنغاريا · فحيَّاها من بعيد وجلس مقابلها واخذ يفكر في حزنها الذي عدَّ نفسهُ سبب حدوثهِ ومبعث صدورهِ وقال : —

" لا بدَّ انهُ بلغ جلالتكِ اني انقدتُ على رغمي الى تخييب املك واخلاف وعدي لكِ على ان ذلك لا يطول امرهُ فلسوف تكون شقة حزنكِ قصيرة العهد · فغداً اذهب بكِ الى القاهرة حيث تقيمين في قصر الخلفاءِ حرَّةً مختارةً كما انتِ هنا · وبعد ما اجمع جيوشي

انطلق بهم الى السلطان واستأذنهُ في اطلاق سبيلكِ فتذهبين الى قرينكِ وترين التي احجبت رؤيتها عن عينيَّ الى الابد · فهل تذكريني عندها ؟ هل يلذُّ لها الاصغاء الى حديثكِ عني ؟ قولي لها انها ذهبت بسعادتي ورجائي ومطمعي في الحياة· اخبريها اني سأخرج الى الحرب عازماً على التخلص من وجودٍ لم يعد لهُ بعدها من قيمة في عينيَّ ! "

فتحرَّكت الاميرة بعامل شفقة لم تستطع التغلب عليهِ ونهضت وقد ازاحت عنها برقعها وقالت لهُ : —

" عبثاً احاول ان اخدعك يا مولاي . . . "

فصاح الملك العادل بصوت الدهشة والفرح وانتصب على قدميهِ وهو يكذّب عينيهِ واذنيهِ بما رأى وسمع . اما هي فتغلّبت على اضطرابها وقالت : —

" رأيت الملكة مشرفة على الموت · ففديتها · البستها ثوبي واطلقتها عوضاً عني · فافتح لي باب السجن ودعني ادخل المعتزل الذي اخترتهُ لنفسي "

فاجابها : —

" قضى القدر ان تبقي على رغمك ورغم الاوامر التي صدرت بوجوب انطلاقك وفي هذا ما فيهِ من الدليل على وجوب بقائنا معاً متحدين اتحاداً لا يفصلنا عنهُ سوى الموت ! "

فاقشعرَّ جسم الاميرة عند سماعها هذا الكلام وصاحت : —

" صن لسانك ايها الامير عن مثل هذا القول المنكر "

" اسمعي يا متيلدة · ان حبي لك يفوق الوصف ويعجز ابلغ الكلام عن ايضاحهِ . فجيوش شعبكِ واخوكِ ورجالهُ حتى اخي ايضاً — · هؤلاء كلهم ليسوا بقادرين ان يفصلوا احدنا عن الآخر· يجب ان تكوني لي على رغم كل قوة تحول دون ذلك · واني احترم عادات قومكِ وشعائر مذهبك فلا اتعرَّض لكِ في شيء من هذا القبيل · لا اطلب منكِ سوى ان تمنحيني محبتكِ "

" مولاي ان صحَّ ان لارادتي سلطةً عليك فارجوك ان تتركني الآن · وغداً اكون مستعدةً للذهاب معك الى القاهرة "

فلبَّى طلبها على الفور وحيَّاها وخرج

اسكندر حموي

A. G. HAMWAY

———

الفصل الخامس عشر

اطلاع اغنس على سرّ بقاء متيلدة

خرج الملك العادل من عند متيلدة يفكّر في الاسباب التي حملتها على البقاء في دمياط وارسال الملكة عوضاً عنها . فلم يمكنهُ ان يصدق ان بقاءها نشأ عن مجرّد محبتها للملكة ورغبتها في اجتماعها بزوجها . بل حكم بان ميل متيلدة اليهِ سهّل عليها انكار نفسها وايثار الملكة عليها . وبناء على اعتقادهِ هذا عزم ان يسعى جهدهُ في تقوية هذا الميل حتى ينمو ويستحيل الى محبة شديدة تشغل قلب متيلدة وتستأثر بعواطفها واميالها وتتغلب على ارادتها وتزيل ما بينها وبينهُ من الحواجز والموانع

هذه الاعتبارات كلها عرضت لهُ في اثناء تأملاتهِ فهشّ لها وبشّ وعلل نفسهُ بادراك ما تصبو اليهِ وتتمنى الحصول عليهِ . ولم يبطئ ان ملّك المحبة قيادهُ وجعلها الآمرة الناهية في جميع شؤونهِ واحوالهِ

ولكنهُ مع خضوعهِ المطلق لسلطة المحبة لم ينسَ العلاقة الاخوية التي تربطهُ بصلاح الدين . ولم يفتهُ ان اخاهُ هذا يتوقع قدومهُ بذاهب الصبر وان مصير سلطنتهِ متوقف على وصولهِ اليهِ في الوقت المعين . فعليهِ اذًا ان يبذل جهدهُ في الاسراع اليهِ . ولكن ماذا يفعل باميرة انكلترة ؟ ايأخذها معهُ ويعرّضها لخطر قربها من معسكر شعبها ام يبقيها في مصر ويكابد لوعة فراقها ؟

وبعد تأمل طويل في هذا الامر عزم ان ينطلق في الغد بمتيلدة الى القاهرة فيبقيها هناك في قصر الخلفاء محفوفة بما تستحقهُ من الاعزاز والاكرام ويذهب الى ملاقاة اخيهِ في المكان المعين . وعلى الفور اصدر امرهُ الى احد قادتهِ بالمسير بالجيش الى حيث يوافيهِ بعد بضعة ايام . وكانت اغنس في هذه الاثناء قد بثت الرقباء والجواسيس للوقوف على حركات الملك العادل وسكناتهِ . فعلمت انهُ بعد رجوعهِ الى دمياط دخل قصر الملكة عابساً مقطباً وخرج من عندها طلق المحيّا باسم الثغر وانهُ عزم على المسير في الغد الى القاهرة وان برنغاريا ذاهبة معهُ . وان عندهُ اموراً مهمة يجب ابلاغها لاخيهِ قبل ذهابهِ اليهِ ولذلك سيرسلها اليهِ الليلة مع رسول مخصوص

فرابها هذا الامر واخطرت الغيرة على بالها ما اخطرت المروءة على بال متيلدة وعزمت ان تحقق الامر بنفسها بما يمكنها من السرعة . ولم تلبث ان اسرعت الى حيث تقيم الملكة

وطلبت ان تراها. فلم تجبها هرميون كونتة لستر الى ذلك بحجة ان الملكة مريضة جدًّا لا تستطيع مقابلة احدٍ ايًّا كان . فاعترضت اغنس على هذه الحجة بان الملكة قد قابلت الملك العادل وانها عازمة على الانطلاق غدًا الى القاهرة فهي اذًا ليست مريضةً وتستطيع ان تقابلها اذا شاءت . لكنَّ هرميون ظلت على عزمها ولم يثنها عنهُ اعتراض اغنس والحاحها . فعادت من حيث اتت وقد زادت اقتناعاً بصحة ما رابها من امر الملكة . وعمدت الى السعي في الوقوف على جلية الامر من وجهٍ آخر . وذلك بان اجتمعت بالرسول الذاهب برسالة الملك العادل الى اخيهِ ورشتهُ بجميع الحلى والجواهر التي كان الملك العادل قد اعطاها اياها فدفع اليها الرسالة وفيها ما خلاصتهُ : —

" وددت ان اطيع اوامرك يا أخي ولكنَّ القدر حال دون ذلك . وكأن الله ابى ان أخلف وعدي لملكة انكلترة . ففي غيابي خُدع المشطوب الذي فوضتُ اليهِ تنفيذ امرك من جهة سفر الملكة على انهُ براء مما حصل وكذلك انا . وسأبرهن لك ذلك عمَّا قليل باسترجاع عكاء ووضع مفاتيح جوهرة الشرق عند قدميك "

فلما اطلعت اغنس على مضمون الرسالة صاحت بصوت الغيظ والغضب : —

" اذًا صدقت هواجسي وظنوني ولم اكن مخدوعة باوهامي ! "

ثم التمس منها العبد ان تعيد الرسالة اليهِ فصاحت بهِ : —

" لن تراها في يدك ابد الدهر . اذهب الى شمال سورية والتمس لنفسك ملجأً حيث تقصر يد الملك العادل عن الوصول اليك "

فما ابطأ العبد ان عمل باشارتها وفرَّ آبقاً حين كان الملك العادل يظنهُ ذاهباً في طريقهِ الى اخيهِ صلاح الدين

اما اغنس فسعت بعد هذا الى الحصول من بعض حرَّاس القصر على خوذة وترسٍ ورمحٍ وعزمت على إنفاذ ما سوَّلتهُ لها نفسها الاثيمة من اغتيال من عدَّتها مناظرة لها في حب الملك العادل

الفصل السادس عشر

محاولة اغتيال متيلدة

وكانت متيلدة الى الآن تجهل ما عزم عليهِ الملك العادل . فلم تعلم أيبقى معها في القاهرة ام يضطرها الى تصحبهُ الى سوريَّة . وكان كلا الامرين مكروهاً عندها فلا يرضيها غير الانفصال عن الملك العادل ولو بالزجّ في غيابات السجن

وفي صباح اليوم التالي زارها الملك العادل واطلعها على ما عزم عليهِ من جهتها وقال لها :—
" سامضي بكِ الى قصر الخلفاء في القاهرة حيث تقيمين على ما تشائين من السعة والرحب والاعزاز والاكرام واذهب على الفور الى ساحة القتال حيث اقوم بما يفرضهُ عليَّ وطني وصلاح الدين " فصاحت متيلدة :—
" يا لشقاء الافرنج ! اواه يا اخي رتشرد . اسفي عليك يا شقيقي . انك واردٌ حتفك لا محالة بيد خصمٍ لا تستطيع مقاومتهُ ! "
فاجابها الملك العادل :—
" ثقي يا متيلدة اني اضحي نفسي في سبيل دفع كل مكروهٍ يقضي بذرف دمعةٍ واحدة من عينيكِ . ولن يصابَ اخوكِ باذًى استطيع دفعهُ عنهُ بنفسي . ولكن اذا بذلت حياتي في سبيلهِ فهل لكِ حينئذٍ ان تذرفي على دمي الزكي دمع رأفةٍ قصرت محبتي عن اكتسابها منكِ ؟ "
وفيما هو يتوقَّع منها جواباً على سؤالهِ هذا وهي تحاول إخفاء دموعها التي تبوح لحبها بسرّ ضعفها وتطلعهُ على شيء مما في قلبها ارتفع صراخ مخيفٌ في الغرفة المجاورة ودخل على الفور رجلٌ مدجج بالاسلحة وبيدهِ سيف مسلولٌ وهجم على متيلدة— واذ لم يكن مع الملك العادل سلاح يحميها بهِ عزم ان يقيها بنفسهِ فحال بينها وبين الذي هجم عليها ولكنَّ اليد التي اعدَّت السيف لاختراق قلب متيلدة قصَّرت عن ان تبلغ بهِ فؤاد الملك العادل فلم تصبهُ بسوى جرح خفيف اسال دمهُ غزيراً . فلما رأَت متيلدة الدم صابغاً حلتها البيضاء توهمت ان الضربة قاضية فاضاعت رشدها وخانها عزمها وهمت بالسقوط على وجهها لو لم تسندها يد هرميون التي اسرعت بالمجيء اليها على اثر دخول اغنس
اما الملك العادل فترك متيلدة مغشياً عليها بين يدي كونتة لستر وخرج يتأَثَّر الجاني . فادرك اغنس خارج المصلَّى واذا بها قد تنحَّت الى جانبٍ وقالت لهُ والسيف مسلول في يدها :—
" احذر فلن تؤانس من يدي ضعفاً ولا رحمةً "
" تبًّا لكِ ! "
" نعم تبًّا لي لاني لم اتمكَّن من الانتقام كما اردت ولكن اذا اخفق مسعاي الآن فلن يخفق فيما بعد "
قالت هذا واسرعت في الخروج . فاوصى الملك العادل هرميون بحراسة سيدتها وخرج يتأَثَّر اغنس ليحول دون إنفاذ مسعاها

ولما افاقت متيلدة من اغمائها سأَلت هرميون بلهفةٍ شديدة

" اباقٍ الملك العادل حيًّا ؟ "

" لم يُصَبْ بسوى جرح خفيف وقد خرج لاطفاء الفتنة التي شبَّت اغنس نارها فانها وشت بالملك العادل الى الجيش والشعب وقالت لهم انهُ استهان باوامر صلاح الدين فأَطلق الملكة وابتاكِ انتِ وانهُ مفتون بحبكِ . فهاجوا كلهم وماجوا وتبعوها الى ابواب القصر طالبين حياتكِ . ولو اصابتكِ الطعنة التي وجَّهتها تلك الاثيمة اليكِ لقضت عليك حالاً ولكن محبتها للامير حالت دون اصابتها مقتلاً منهُ ومن هذا يتَّضح لكِ انهُ عرَّض نفسهُ للقتل حبًّا بوقايتكِ منهُ "

وفي المساء جاء دوق نورفولك واخبر متيلدة بان الملك العادل تمكن من اخماد الفتنة وان اغنس لاذت بالفرار وقد فتشوا عنها في المدينة كلها فلم يقفوا لها على اثر

وكانت هذه الحادثة قد حملت الملك العادل على تغيير ما رتبهُ من جهة متيلدة فعدل عن ابقائها في القاهرة وعزم ان يأْخذها معهُ . وكتب الى صلاح الدين رسالة أُخرى اخبرهُ فيها بما كان من امر الفتنة التي اثارتها اغنس في دمياط وارسلها اليهِ مع احد رجالهِ الامناء

اما اغنس فلما رأَت خيبة مساعيها الشريرة تدججت بالسلاح الكامل وامتطت جوادًا يسابق الرياح فسار بها ينهب الارض على طريق سورية . وفيما هي سائرة في طريقها ابصرت رجلاً يجري وراءها على ظهر ناقةٍ فعلمت على الفور انهُ رسول من قبل الملك العادل فاستوقفتهُ فلم يحفل بها فحملت عليهِ وقومت سنان رمحها نحوهُ ففعل مثلها ولكنها عاجلتهُ بضربةٍ القتهُ على الارض وغادرتهُ ضحية امانتهِ لسيدهِ . وما ابطأَت ان عمدت اليهِ وانتزعت الرسالة من صدرهِ واستأْنفت مسيرها

ولما اطلع الملك العادل متيلدة على عزمهِ ان يأْخذها معهُ الى حيث ينتظرهُ اخوهُ توسلت اليهِ ان يسمح لها بالذهاب الى اطلال دير على شاطئ البحر . فدهش اشدَّ الدهش من طلبٍ كهذا واخبرها بما في طريقها الى الدير المذكور من المخاطر والصعوبات التي يتعذر على من كان مثلها ان يتغلب عليها . فلم تثنِ عن عزمها بل الحت عليهِ واكثرت من التوسل والالتماس قائلةً ان اتكالها على معونة من انقطعت لعبادتهِ يسهل عليها كل صعب ويقيها كل خطر

ولما رأَى انها مصرةٌ على عزمها هذا اصرارًا يصعب عليهِ ان يحوّلها عنهُ وعدها انهُ ينظر في الامر بعد وصولهِ الى القاهرة

وخرج من عندها متعجباً جدًّا من ثبات جاشها وشدة عزيمتها وغير مصدقٍ ان فتاةً مثلها تقدم على تعريض نفسها لتحمل اخطار واتعاب مثل هذه

الفصل السابع عشر

السفر الى القاهرة

وفي صباح اليوم التالي خرجت اميرة انكلترة يصحبها دوق غلوستر وهرميون كونتةلستر وبعض الضباط الانكليز الى شاطىء النيل حيث كانت سفينة معدَّة لاخذهم الى القاهرة . فتقدمهم الملك العادل وصعد بمتيلدة الى سرادق من نسيج الذهب مفروش باثمن البسط الفارسيَّة وعليهِ انفس النمارق فاجلس الاميرة وجلس بجانبها

ونشر البحارة الشُرُع واعانوا الريح بمجاذيفهم فدفعت السفينة من موقفها فسارت تشق بهم لجج النيل الى القاهرة . وكانت مظاهر الطبيعة على جانبي النهر مما يسرُّ النواظر ويبهج الخواطر ولكن متيلدة حرمت نفسها لذة التمتع بهذه المشاهد الجميلة وارخت برقعها الطويل واحتجبت في مطاويهِ واخفت يديها في ثنايا كميها . واخذت افكارها تجول حول موضوع ذهابها الى الدير على شاطىء البحر الاحمر وانفصالها الابدي عمن احبها محبة لا توصف وخاطر بنفسهِ في سبيل نجاتها من يد اغنس . فتمثلت لها مرارة اليأس التي يتجرعها بفراقها وشق عليها ان تقابل معروفهُ العظيم بمثل هذا الصدّ والاعراض . فرثى لهُ قلبها وحدَّثها بوجوب العدول عن عزمها وكادت تصغي الى هذا الصوت الجديد لولا ان ضميرها وبخها على ما بدا من ضعفها وذكَّرها نذورها وما عليها من الواجبات لله

وكان الملك العادل في هذه الاثناء يتفرَّس في جمالها المنقطع النظير ويزداد بها شغفاً وهياماً . واذ لم يعد يسعهُ الصبر على الانقطاع عن محادثتها مدَّ يدهُ ليمسك بيدها فانتزعتها منهُ وقالت وهي في ذهول عميق اشبه بسباتٍ : —

" اللهمَّ عفوك وغفرانك ! انك شاهدٌ يا الهي على جهادي العنيف في مقاومة هذا الحب اصفح عن ضعفي وعجزي وهب لي قوَّة تمكنني من التغلُّب على اميال قلبي "

ثم التفتت الى الملك العادل وقالت لهُ وقد افاقت من ذهولها : —

" رحماك ايها الامير حوّل عينيك عن شقائي ودعني اذرف دموع الندامة بعيدة عمَّن كان سبب انسكابها . واجعل من هذه الدقيقة فاصلاً ابديًّا بيني وبينك "

فحرك كلامها عاطفة الاحترام في قلب الملك العادل ولم يعد يجسر ان يرفع نظرهُ الى

وجهها . وبعد ما لاذ هنيهة باطراف الصمت قال لها : —

"عيشي بسلام ايتها الفتاة الشريفة فلن اكلمك بعد الآن عن المحبة التي يغيظك سماعها"

ولما وصلوا الى القاهرة لزمت متيلدة عزلة انقطعت فيها عن مقابلة الزائرين ما عدا بعض الجالية الذين لما سمعوا بقدومها اسرعوا اليها للسلام عليها فسألتهم عن المخاطر التي يلقاها المسافر الى ساحل البحر الاحمر ثم اطلعتهم على قصدها بقولها : —

" نذرتُ نذرًا لا تستطيع قوّةٌ علي الارض ان تثني عزمي عن اتمامهِ وهو ان اجتاز المفاوز المحرقة لالتمس مشورة الناسك المتعبد المقيم علي ساحل البحر الاحمر . فمن منكم ياأصدقائي يروم ان يصحبني في هذا السفر ؟ "

فاجابوا بصوتٍ واحد : —

"كلنا "

" اذًا اكتموا هذا الامر ولا تبوحوا بهِ لاحدٍ . واعدُّوا كل ما نحتاج اليهِ سرًّا . وعما قليل أُخبركم بزمان اجتماعنا ومكانهِ "

وبعد خروجهم دخل دوق غلوسستر وقال لها : —

" هو ذا الملك العادل يستعرض الجيوش التي جمعها استعدادًا للزحف بها الى اخيهِ وسيقضي اليوم وغدًا في حشد الجيوش واستعراض الكتائب وبعد غدٍ يذهب بها وبسموكِ . وقد ارسل هذا الكتاب الى سموكِ واظنهُ يذكر فيهِ تفصيل ما عزم عليهِ "

فتناولت الكتاب من الدوق وتلت فيهِ ما خلاصتهُ : —

" بعد يومين انطلق بكِ الى بلاط صلاح الدين وأَعدكِ اني أُطيعكِ في كل ما تطلبين ما عدا إرجاعكِ الى معسكر الافرنج ولا اعارضكِ في شيء ما خلا ذهابكِ الى ساحل البحر الاحمر "

ولكنَّ معارضة الملك العادل لم تكن لتثنيها عن عزمها . ولما كانت واثقةً باخلاص دوق غلوسستر وامانتهِ أَطلعتهُ على قصدها فأُعجب بشدة عزمها وثباتها والتمس منها ان تأذن لهُ في ان يصحبها في زيارتها . فاجابتهُ الى ذلك واخبرتهُ بالمكان الذي عيّنتهُ للتأهب والاستعداد وقالت لهُ : —

" اذهب الى حيث قلت لك وقل للذين وعدوا ان يصحبوني ان يبذلوا جهدهم في اعداد كل ما يلزم باسرع ما يمكن . وعند ما يرخي الليل سدولهُ ويبرح الملك العادل القاهرة الى منف اذهب اليكم ونخرج معًا لطيتنا "

الفصل الثامن عشر

زيارة الناسك

برح الملك العادل القاهرة الى منف لتعبئة ما بقي من الجيش من غيرأن يداخلهُ اقل ريب في ما عزمت متيلدة عليهِ . والاً لم يفارقها ساعة واحدة ولكنهُ كان يعلّل نفسهُ بأنها مثّلت لعينيها اهوال المخاطر التي تتهددها في هذا السفر فعدلت عنهُ .

ولما اقبل الليل جاء دوق غلوسستر الى متيلدة وخرج بها بحجة الذهاب لزيارة عين في المطرية يقال ان العذراء استراحت عليها عند مجيئها الى مصر وغسلت المسيح بمائها . فلما بلغتها وجدت الذين وعدوا ان يصحبوها في انتظارها ومعهم ثلثة ادلاء وقد اعدُّوا جملين وبعض الثمار اليابسة ومقدارًا من الماء

وكان سيرهم في اليوم الاول سهلاً لم يعانوا فيهِ شيئًا من الصعوبة ولكنهم في اليوم الثاني اقبلوا على اطراف البادية واخذوا يسيرون في رمضاء محرقة لا ماء فيها يروي الظماء ولا اشجار يلطّف ظلها حرارة الشمس . ولكنّ متيلدة ظلّت على رغم هذه المشاقّ والمصاعب متجلّدة متجملة فلم يبدُ عليها اقلُّ علامةٍ لخوار العزم ولا بدرت منها كلمة بالتذمُّر والشكوى. على انها رثت من صميم فؤادها لما عاناهُ رفقاؤُها من ألم الجوع والعطش والحرّ والتعب وبذلت في مؤاساتهم جهدها وكثيرًا ما آثرتهم على نفسها واروت عطشهم بجرعات من قطرات الماء المعينة لها

ولا نشغل القارئ بتفصيل ما عانوهُ من المشاق والمتاعب التي يعجز القلم عن وصفها بل نكتفي بالقول انها كانت اعظم ما يستطيع الانسان تحمُّلهُ . وبعد ما كابدوا في اجتيازالبادية جهد البلاء اقبلوا على عين ماء على شاطئ البحر فوردوها بلهفةٍ وشوقٍ لا مزيد عليهما

وبعد ما ارووا غليلهم واستوفت اجسادهم قسطها من الراحة استأنفوا المسير على شاطئ البحر وقضوا يومًا في التفتيش عن اطلال الدير فلم يقفوا لها على اثر . اخيرًا ابصرت متيلدة من بعيدٍ صخرة كبيرة يتكسر موج البحر على قاعدتها وفي قمتها شيء مستدقّ اشبه بالحربة اوالسهم فحدثتها نفسها بان هذا هو المكان المقصود واهابت برفقائها فخفوا اليهِ مسرعين . ولما دنت منهُ اتّضح لها ان تلك العلامة في قمتهِ انما هي صليب مرفوع فوق صومعة الناسك. ولما بلغت اطلال الدير جاست خلالها حتى انتهت الى باب مصلّى او كنيسةٍ صغيرةٍ فدخلتها غير هيَّابةٍ ولا وجلةٍ

وقد اعانها ضياء القمر على رؤْية الناسك جاثيًا في صدرها يقيم صلاتهُ المسائيَّة . فاقتربت اليهِ وقالت لهُ : — "السلام عليك ايها القديس المحترم من الناس والمبارك من الله !"

فاجفل الناسك من سماع صوتٍ بشريّ لم يسمعهُ منذ ثلثين سنة سوى مرة واحدة وزاد عجبًا واستغرابًا لما رأى صاحب الصوت فتاةً بارعة الجمال وقد اقدمت على ما تخور دونهُ عزائم الرجال . فاستأنفت الاميرة كلامها وقالت لهُ : —

" جئتك ملتمسة منك عونًا ومساعدةً وقد عانيت ما عانيتهُ من المخاطر والاتعاب حبًا بالحصول على نصائح وارشادات من حكمتك وتقواك وصلاحك فهب لي ما املّت ولا تخيب رجائي "

فعطف الناسك عليها وانهضها من مجثاها وقال لها : —

" طيبي ايها الفتاة نفسًا فسيكون لكِ ما تطلبين . ولكن من المحقق عندي انكِ لم تجيئي وحدكِ فاين هم رفقاؤكِ ؟ "

" لقد سبقتهم اليك وها هم قادمون ورائي . واني اسمع الآن وقع اقدامهم خارجًا "

فخرج الناسك لملاقاتهم مرحبًا بهم وقد سرّ جدًّا بمشاهدة بني جنسهِ بعد انقطاعهِ عنهم سنين هذا عددها . وبعد ما حياهم التحية المعتادة واكرم مثواهم ودعا لهم وباركهم سألهم عن بلادهم وشعبهم فقال لهُ دوق غلوسستر : —

" نحن الضباط من اوربا وهولاء الملكيون من مصر وسورية وهذه الفتاة هي الاميرة متيلدة اخت الملك رتشرد الملقَّب بقلب الاسد "

وبعد ما استراحوا قليلاً دعاهم الى الجلوس حول حجرٍ كبير منبسط امام مخدعهِ ودخل فاخرج اليهم كل ما عندهُ من الطعام غير مهتم للغد وكان مقصورًا على كعك وتمر وشهد العسل فوضعهُ امامهم على الحجر وطلب اليهم ان يتناولوهُ و يعذروا قصورهُ عن تقديم شيء اخر منهُ قائلاً لهم : — "هذه اول مرة شعرت فيها بفقري مدة الثلثين سنة التي قضيتها في هذا المكان"

فاجابهُ احد الضباط : — " ان كرم الضيافة في كوخك الحقير اعظم جدًّا مما يراهُ الانسان في بلاط الملوك وقصور العظماء "

فقال الناسك : —

" كان بلاط فرنسا مشهورًا بكرم الضيافة فهل خالف ملكها الحالي ما كان عليهِ سلفاؤُه "

فقال لهُ احد السوريين : — " ان ملكها فيليب اوغسطس في سورية مع ملك انكلترة يحاولان استرجاع بيت المقدس من السلطان صلاح الدين "

ثم قصّوا على الناسك ما لصلاح الدين واخيهِ الملك العادل من الهيبة والسطوة في مصر وسوريةّ وسائر المشرق . وما يلقاهُ ملوك الافرنج من المصاعب في سبيل التغلب عليهما واسترجاع بيت المقدس منهما

الفصل التاسع عشر

انقاذ متيلدة من ايدي اللصوص

وبعدما تناولوا الطعام الذي اعدَّهُ لهم الناسك طلبوا في ظلال النوم راحةً كانوا جميعهم في اشد الاحتياج اليها

وفيما هم نيام ذهب الناسك الى شاطىء البحر يجمع ما يستطيعهُ من المحار وبيض السلاحف ليطعم ضيوفهُ في الصباح . ونهضت متيلدة في اول الفجر تطلب الناسك ولما بلغت الشاطىء وقفت على صخر عالٍ تستنشق نسيم الصبا وتستقبل مليكة الانوار شمس النهار فشاقها المنظر وهاج بها تذكار ما مرَّ بها في ايامها الاخيرة من الحوادث واخجلها جدًّا ان هذا المنظر الطبيعي البديع الذي تجلى لها بملء جلالهِ وجمالهِ لم يكن كافيًا لتحويل افكارها عن الحب الذي اصبى قلبها وسبى لبها بل كان في عيني نفسها اقلَّ اعتبارًا من موضوع ذلك الحب

وحينئذٍ تنهدت تنهدًا عميقًا واخرجت من اعماق صدرها زفرةً سمعها الناسك الذي لم يكن بعيدًا عنها فخفَّ اليها ودنا منها وقال لها : —

" قولي لي يا ابنتي ماذا عسى ان يكون هذا الحزن الذي يكاد يمزّق احشاءكِ ? وايَّةُ خطيئة سريَّة تذهب براحة ضميركِ وتكدر صفاء سلامك ? وهل يمكن ان ظاهركِ المشرق بنور الطهارة والبراءة يخفي داخلهُ نفسًا ملطخة بالآثام ? "

" نعم فان خطيئتي عظيمة وحمل نفسي ثقيل . وسألقيهِ امامك ملتمسةً منك عونًا على إزالتهِ عني "

" اتضعي يا ابنتي امام الله وتوبي اليهِ توبةً صادقةً فيمنحك الغلبة على الافكار الباطلة التي تزعج نفسك وتكدر صفاء راحتكِ "

ثم عاد بها الى اطلال الدير حيث كان رفقاؤُها قد افاقوا من نومهم ودعاهم الى مصلاهُ لحضور صلاة الصباح . وبعد انقضائها رجع بهم الى صومعتهِ وجاءهم بالطعام الذي اعدهُ لهم . وفيما هم يتناولونهُ اخذ يسألهم عن رئيس اساقفة صور وقال لهم : —

" لما انقطعتُ عن العالم كان وليم بعد في حداثتهِ . ولكنَّ ما لاح عليهِ حينئذٍ من ملامح الحكمة والتعقل انبأ بما سيكون لهُ من الشأن العظيم والمقام الرفيع "

فطفقوا يحدثونهُ عن رئيس الاساقفة ويخبرونهُ بفضائلهِ الرائعة وشهرة حكمتهِ الدائعة وسلطتهِ الدينيَّة الفائقة وغير ذلك مما امتاز بهِ من المواهب السامية والسجايا الحسنة

وقضوا سحابة يومهم يتحدثون تارةً عن الدير و بانيهِ وما بقي من اطلالهِ وتارةً عن بعثات الافرنج واسبابها ونتائجها . حتى اذا توارت الشمس بالحجاب واقبل الليل طلب الزائرون الراحة حيث وجدوها في الليلة الماضية وذكَّرت متيلدة الناسك وعده لها بان يسمع اعترافها ويعينها على ازالة حمل همومها وخطاياها فسار بها الى قرب البحر وجلس بجانبها واخذ يستدرجها في الاسئلة و ينشطها بسرد الآيات الكتابيَّة حتى باحت لهُ بسر محبتها للملك العادل بين سجم العبرات وتصعيد الزفرات وقصت عليهِ بالتفصيل قصة شخوصها من بلاد الانكليز مع اخيها الملك رتشرد الى الشرق والغرض الذي من اجلهِ غادرت الدير وحادثة اسرها مع الملكة في دمياط وما تلا ذلك من الحوادث التي يذكرها القارىء

فدهش الناسك من سماع هذه القصة العجيبة دهشًا ممزوجًا بالحزن والاسف وقال لمتيلدة

" ما العذر الذي تحلتهِ لجواز التمتع بمثل هذه المحبة الاثيمة ؟ "

" لا ادري سوى اني رأيت الملك العادل فاحببتهُ "

" هل أُخذت بسحر جمالهِ ؟ "

" بالجهد شعرت بشيء من ذلك "

" هل أُغريت بتوقع الحصول على امجادٍ عالميَّة والتمتع بملاذَّ دنيويَّة ؟ "

" لم يدر ذلك قطُّ في خلدي ولا خطر ببالي "

" بمَ كنت تشعرين عندما كان يجلس بجانبكِ ؟ "

" بأني أُحبهُ "

" أَلم تفتكري حينئذٍ بالامور التي تحرم عليكِ محبةً كهذه ؟ "

" لم اكف قطُّ عن تذكرها "

" هل نسيتِ ان هذا الرجل خصم الافرنج العنيد ؟ "

" لم انسَ ذلك قطُّ "

" وبعد ذلك ؟ "

" سرتُ في طريق الحب مواصلة النوح والبكاء غير جاهلةٍ بانهُ ينتهي بي الى البؤس والشقاء "

" خلي عنكِ يا ابنتي الاستسلام لضعفكِ . تمسكي بما كان لكِ من العزم وارجعي الى حمى الفضيلة والطهارة "

" يصعب عليَّ يا ابتِ ان اصف لك حقيقة حالتي . أَرى نفسي منقادةً على رغمي الى

ما ترتعد فرائصي من تصور هول الوقوع فيهِ. ارى امامي هوة عميقة لا قرار لها ولستُ مستطيعة التغلب على ميلي الى الهبوط فيها. اكابد تباريح اشدّ من آلام الموتِ وقعاً ويلذّ لي تجرُّع آلامها. وقد عرضتُ نفسي لاخطار قطع البادية التي يحجم عنها اشد الرجال إقداماً لالتمس منك عوناً على محو صورة الملك العادل من قلبي ومع ذلك اخاف كل الخوف انك تمنحني سؤلي هذا . وفي هذه الدقيقة الرهيبة — حين ارى سيف الانتقام العادل مسلولاً فوق رأسي وصوتك المهيب معدًّا للنطق بالقضاء المخيف عليَّ — يحدثني قلبي العاصي بالحب ويسمو بي الى ما فوق هذه المخاوف كلها"

"صه ايتها الفتاة المنكودة الحظ ؟"

ولكنَّ متيلدة لم تعد تستطيع سماع شيء من كلام الناسك لانَّ جلدها خانها وقواها خارت من فرط الاعياء وطول الصوم وشدة الجهاد والنزاع المتواصل بين عواطف قلبها وعوامل عقلها فسقطت مغشياً عليها

فاضطرب الناسك لاغمائها واوجس خوف دنو أجلها وعدا الى ينبوع ماء قريب منهُ وجاءها بقليل من مائهِ ورش بهِ وجهها فافاقت من اغمائها وفتحت عينيها الزرقاوين والتفتت حولها فرأَت اشعة القمر الفضية تنير ظلام الليل والناسك حانياً عليها حنو المرضعات على الفطيم . ثم نبهت ذاكرتها واسترجعت ما فارقها من الإدراك فاحاطت علماً بما هي عليهِ الآن فاقشعرَّت من شدة الذعر وانتفضت كالعصفور بللهُ القطر. وهمَّ الناسك بان يكلمها في ما يبدد سحب يأسها ويعيد لها بعض العزم والثبات واذا باصوات صليل اسلحة وصياح خوف وذعر اخترقت فجأَة حجاب السكوت السائد على تلك الاطراف ولما طرقت أُذني الناسك صرخ :

" اخاف ان يكون البدو قد اكتشفوا آثار الزائرين في البادية وأتوا يفاجئونهم وهم نيام. اني ذاهبٌ لتضحية نفسي في سبيل الدفاع عن اخوتي. اما انتِ يا ابنتي فادخلي هذا الكهف ولا تعرضي جمالك لعيون لصوص البادية ...."

قال ذلك وادخلها كهفاً هناك واعترض تتمة حديثهِ ظهور اشباح حجبت ضياء القمر فنظرا واذا برجال ليس عليهم من الثياب الاَّ ما يستر عورتهم وقفوا في مدخل الكهف وسيوفهم المسلولة ملطخة بالدم وعيونهم تخترق داخل الكهف لترى ما فيهِ. ولما ابصروا عذراء ذات جمال منقطع النظير هجموا عليها يريدون اختطافها. فالقى الناسك نفسهُ امامهم ورمقهم بناظر يتطاير منهُ شرر الغضب والحنق ورفع يديهِ نحو السماء وزعق بهم : —

" تنحوا يا ابناء المعصية : ارجعوا من حيث جئتم والاَّ استنزلت من السماء ناراً آكلة

على كل يدٍ اثيمة تمتد الى مس هذه الفتاة بسوء "

فراعهم سمع هذا القضاء الرهيب الذي أنذرهم بهِ واحجموا بعض الاحجام لكنَّ زعيمهم ما لبث ان زمجر كالاسد المفترس وازاح يد الناسك من طريقهِ وهجم على متيلدة

وباسرع من انقضاض الصاعقة التي انذرهم الناسك بانحدارها نشب بينهم شابٌ يتطاير الشرر من عينيهِ و ينقض الموت من حدّ حسامهِ المسلول وقد حكّمهُ في كل من قام في سبيلهِ واخترق بهِ منفذًا الى متيلدة . فلما وصل اليها اخذها بين ذراعيهِ على اسلوب استخف بكل خطر حتى بالموت نفسهِ وخرج بها من الكهف قبلما يترك للناسك مجالاً للاعتراض

اما الناسك فلما استرجع رشدهُ الذي ضعضعهُ هذا الحادث الفجائي خرج يعدو في اثر الخاطف فلم يرَ في طريقهِ سوى من بقي من اللصوص الذين مزق شملهم الرعب وشتتهم الذعر وقد اطلقوا سوقهم للريح مرددين باعلى اصواتهم اسم من كان علة ذعرهم واضطرابهم وسبب نكوصهم على اعقابهم : — " الملك العادل ! الملك العادل ! "

وكان الملك العادل في اثناء ذلك قد بذل ما ينتهي اليهِ جهدهُ في الاسراع بحملهِ الثمين فلم تثنهِ انات النازعين ولا اهوال الموت نفسهِ عن مواصلة العدو والاسراع غير مبالٍ بسوى المخاطر التي انتشل متيلدة من مخالبها ولا يزال معرضاً لكرة تعيدها عليهِ بقوة تنبو ذراعهُ الشديدة عن رد تيارها حتى بلغ حيث كان جوادهُ في انتظارهِ فاعتلى صهوتهُ ومتيلدة باقية بين يديهِ واطلق لهُ العنان فانطلق بهِ في عرض البادية يسابق الرياح ووراءهُ فصيلة من جنودهِ يجدون السير في اثرهِ

اما متيلدة فامسكت بذراعي من احبتهُ وانقطعت كمن في حلم عن التحرك والتنفس مخافة ان تستيقظ وتقف على ما هي فيهِ من الخطر الشديد

الفصل العشرون

عهد الخطبة

ولما بلغ الملك العادل سفح القلزم ترجل عن جوادهِ ليمكن متيلدة من الحصول على شيء من الراحة . وكان بالقرب منهُ ربوة تظللها اشجار الجميز والطرفاء فصعد بمتيلدة اليها واعدَّ لها في ظلالها مجلساً تستريح فيهِ قليلاً وتركها تتمتع بصفاء هذه الراحة وحدها

ولما خلت متيلدة بنفسها راجعت الحوادث التي عرضت لها فلم تستطع ان تدرك سر ظهور الملك العادل امامها عند تعرضها لاشد خطرٍ طرأ عليها في حياتها ليدفعهُ عنها ويخلصها منهُ

حين كانت تظنهُ ذاهباً في طريقهِ ليوافي اخاهُ صلاح الدين. ثم تحولت افكارها نحو الناسك واصدقائها الذين صحبوها في هذه الزيارة ولا سيما دوق غلوسستر فاضطربت اضطراباً شديداً لاجلهم واوجست ان يكونوا كلهم قد ذهبوا ضحايا تطوعهم في خدمتها

واذ ذاك جاءها الملك العادل بقليل من الماء البارد لتروي بهِ غليلها فنظرت اليهِ نظرة تعجب ممزوج بالشكر والحيرة وصاحت : —

" لله من هول هذه الحوادث الاخيرة ! فماذا اصاب الناسك ؟ وماذا ناب اصدقائي الامناء وماذا خبأهُ لي القدر من الكوارث ؟ "

فقال لها الملك العادل : —

" اشربي هذا الماء البارد وسكني روعك قليلاً . فاننا سنبقى هنا حتى يهب من البحر نسيم بليل يلطف حرارة الهواء ويمكننا من استئناف المسير وسانتهز هذه الفرصة في توبيخك ولو قليلاً على ما بدر منكِ من الطيش وقلة الحكمة . ولو اقتصر عملك هذا على تعريض نفسي وحدها لخطر الموت لسكت ولم افهُ قط بشيءٍ من التذمر والاعتراض . . . "

" لم اجهل الخطر الذي عرضتُ نفسي لهُ ولكني لم اتوقع قط بلوغهُ اليك لاني كنتُ واثقة انهُ لا شيءَ على وجه الارض يحول دون انطلاقك الى اخيك الذي كان ينتظر قدومك اليهِ بذاهب الصبر "

" ولكن هل ظننتِ اني بعدما رجعتُ الى القاهرة وسمعتُ بانطلاقك وتوقعتُ تعرضك للخطر الذي وجدتكِ فيهِ اتأخر عن المبادرة الى إنقاذك لسبب من الاسباب ؟ اني على الفور عزمتُ على اتباعكِ واقتفاء اثرك غير مكترث لما اعترضني من الموانع . فلو اطعتني منذ البداءة لأمنت التعرض لهذه الاخطار وكفيتني الاتهام بالتمرد والعصيان "

ثم قصَّ عليها تفصيل ما عاناهُ من المشاق قبل وصولهِ الى اطلال الدير واخبرها بانهُ عند دخولهِ اليها كان اللصوص قد فتكوا باصدقائها وكان دوق غلوسستر في حالة النزع فنظر اليهِ وعرفهُ وتكلف النهوض قليلاً وقال مشيرًا الى الكهف حيث كانت متيلدة والناسك "خلص متيلدة " واسلم الروح

فصاحت متيلدة وقد اجهشت في البكاء : —

" اسفي عليك يا دوق غلوسستر الشريف العظيم صديق اخي الامين لقد ذهبت ضحيةَ اهتمامك بي وكنتُ انا سبب فقد حياتك الثمينة ! — وهل قتل معهُ جميع اصدقائي ؟ "

" تركتُ معظم رجالي عندهم ليدفنوا من مات منهم ويعنوا بالجرحى . ولم يمكني ان ابقى

بنفسي لانَّ همي الوحيد كان منصرفاً نحو تخليص حياتك "

ثم نهض بها نازلاً الى حيث كان رجالهُ ينتظرونهُ وكان الحر في معظم اشتدادهِ وريح السموم تلفح باحر من اللهب والخيل لا تزال تلهث لهثاً متواصلاً عاقها عن استئناف المسير والرجال يتشاءمون متطيرين وينذرون بعضهم بعضاً بسوء المصير — فارتأى الملك العادل ان يسير بالجمال ويترك الخيل . ولكي يسهل على رجالهِ اطاعة اوامرهِ استعان بالقدوة والتمثيل وانطلق امامهم ماشياً على قدميهِ بجانب الجمل الذي امتطتهُ متيلدة وسار رجالهُ وراءهُ على رغمهم وفي وسطهم ما بقي من الجمال محملة قرب الماء والزاد والخيمة

وانقضت بقية ذلك اليوم بلا حادث يستحق الذكر وكان من رأي الرجال ان يقضوا الليل كلهُ في السرى تخلصاً من حر النهار . لكنَّ الاعياء كان قد بلغ من متيلدة مبلغاً كاد يذهب بحياتها . فلم يرَ الملك العادل بدًّا من الوقوف على رغم تذمر رجالهِ وتبرمهم . وما ابطأ ان نصب الخيمة وانزل متيلدة فيها طالباً اليها ان تلتمس الراحة بالنوم ولو بضع دقائق

وانطرح الرجال على الرمال وما ابطأوا ان استغرقوا في نوم عميق من شدة التعب . وظل الملك العادل وحدهُ ساهرًا على حراسة الخيمة لا سمير لهُ في تلك المفازة المقفرة الموحشة سوى القمر والنجوم

ولم تغمض اجفان متيلدة سوى دقائق معدودة حتى افاقت وطلبت الى الملك العادل ان يستأنف المسير فاجاب طلبها في الحال وايقظ رجالهُ وسارت هذه القافلة الصغيرة تجدُّ السير في ما بقي من ساعات الليل

ولما طلع النهار وبزغت اشعة الشمس رأوا عن بعدٍ اعمدة رمالٍ كثيفة منعقدة في الجو وهي مقبلة عليهم تارةً تسرع اسراع الرياح الهوجاء وطورًا تتثاقل وتسير الهوينا فلم يبقَ عندهم اقل ريبٍ في تعرضهم لريح جنوب تشويهم شياً

وحينئذٍ بدت علامات التمرد على رجال الملك العادل وجاهروا بان ما أصابهم هو نتيجة وجود متيلدة معهم وانهم اذا سمحوا ببقائها كانت البادية قبورًا لهم لا محالة . ولكنَّ الملك العادل تمكن ولو في الظاهر من قمع عصيانهم واكرههم على مواظبة المسير حتى انتصف النهار واخذت الشمس تمطرهم بعارض من نار شوى اجسادهم . وحينئذٍ اصابت شظيةٌ من الصوان المحدد رجل الجمل الحامل متيلدة فعطلتها واقعدتهُ عن المسير . فامر الملك العادل في الحال باعداد جمل آخر عوضاً عنهُ . ولكنَّ رجالهُ عدوا هذه الحادثة دليلاً على صدق ما اعتقدوهُ فجاهروا بالامتناع عن اطاعة امر اميرهم واجمعوا على وجوب تضحية من كانت سبباً لتعرضهم

لهذه المخاطر ونقدم اشدهم جسارةً وتمرداً ليقبض على متيلدة فانقضّ الملك العادل الى جانبها وبسط احدى يديهِ عليها لحمايتها فهاج الجنود هياجاً تعدّى كل حد وصاحوا بصوت اصدت لهُ جوانب البادية وهجموا على الامير بنفس واحدة ليختطفوا فريستهم من يدهِ

ولم يكن قيام عشرين جندياً على الملك العادل يحول دون تمكنهِ من البطش بهم لولا وجود متيلدة معهُ. ولذلك عمد على الفور الى الاستعانة عليهم بالحيلة . فنكص بمتيلدة الى الوراء وصوّب سيفهُ الى صدرها وقال :—

" اذا كان لا بدَّ من تضحية هذه الفتاة فانا الذي يفعل ذلك ولكن بعد ما انتزع نصل حسامي من صدرها اغمده في صدري فاموت واطلب الى الله ونبيهِ ان ينتقما لي منكم ويطالباكم بدمي . ولسوف يطاردكم صلاح الدين الى اقاصي الارض ويأخذ منكم بثار اخيهِ

" اننا نطلب دم هذه الفتاة لا غير . دعنا نبطش بها وافعل بنا بعد ذلك ما تشاء

" ان تقدمتم خطوة واحدة مزجت دمي بدمها وتركت السماء والارض تتعجبان من شدة هول الانتقام الذي يحلُّ على رؤوسكم الاثيمة ! "

فاحجموا عند سماع قولهِ هذا وتنحوا جانباً يتشاورون في ما يفعلونهُ واخيراً عزموا على ان يتركوهُ هو ومتيلدة لما يقضي بهِ عليهما القدر ويكونون هم براء من تبعتهِ . فابقوا لهُ الجمل الجريح والخيمة وثلث قرب ماء وقليلاً من الثمار المقددة وانطلقوا

وكانت متيلدة في اثناء هذا المشهد الرهيب في اغماء اشبه بالموت فلم تفق منهُ حتى غابت الشمس ولطّف نسيم المساء شيئاً من حرّ النهار الخانق ففتحت عينيها وهي في الخيمة التي ضربها الملك العادل فوقها بعد ما هجرهُ رجالهُ . ولما اخبرها بانصرافهم وقصَّ عليها ما جرى لهُ معهم رفعت يديها الى السماء وقالت والدموع ملء عينيها :—

" انظر يا ابي السماوي ! انهُ باذلٌ حياتهُ لاجلي ومع ذلك يمنعونني عن محبتهِ "

" اسمعي يا متيلدة . اننا الآن وحدنا في هذه البادية الواسعة الاطراف كما كان ابوانا الاولان . وربما كان الغد موعد انطلاقنا من هذا العالم . فماذا يمنع انطلاقنا معاً متحدين كاننا شخص واحد ؟ "

" اعلم ايها الملك العادل اني احبك . واعترافي هذا الذي أُبديهِ امام الله لم تكن قطُّ لتظفر بسمع كلمة منهُ لولا دنوُّ الاجل ورؤيتي الموت مخيماً بظلالهِ علينا . اني احبك . ولولا الاختلاف الذي بيني وبينك لفضّلتُ البقاء معك في هذه البادية على جميع الامجاد التي يختصني بها ملوك الارض . ولو كنت موافقاً لي في معتقدي لربطت نفسي بك بعهودٍ امام الله

وحده . ولكني مع ذلك كله ما تحوّلت عن الحرص على واجباتي وشرفي . فقد تكون حياتي قصيرة جداً ولكن يجب ان تبقى على طهارتها ونقاوتها . حتى اذا دُعيتُ غداً لتسليمها وجب عليَّ ان اردّها الى الله بلا عيبٍ ولا دنسٍ كما اعطانيها . قل لي ايها الملك العادل هل تعتقد اعتقادي ؟ "

" لا احاول الحصول على محبتكِ بالغشّ والخداع كما اني لا أُنكر عليكِ ما أجده فيكِ من الفضائل التي اعجب بها كل الاعجاب . ولكنني لا أُقيد نفسي بالخضوع لقوانين معتقد أجهل قواعده وفرائضه فاذا امرتني بالغدر بأخي وحمل السلاح ضدّ وطني عصيتها كل العصيان . على اني لا اظنّ ان الدين الذي يجملكِ بهذه الفضائل يفرض عليَّ ارتكاب خيانةٍ كهذهِ ! فاقبليني كما انا فاكون لكِ والله وحده يتولّى رشادي وهدايتي ان كنتُ في حاجةٍ الى ذلك "

فجثت متيلدة على ركبتيها ودعت الملك العادل فخرّ على ركبتيهِ بجانبها ثم اخذت يديهِ بيديها ورفعتها الى السماء وقالت : —

" اسمح لي ايها الاب السماوي ان اتي بهِ اليكَ "

ثم قالت : —

" انهض الآن فقد اصبحتَ اهلاً لما تطلبهُ مني . اني اعدك بانهُ لن يكون لاحدٍ سواك حقٌّ بان يدعوني زوجة لهُ . اقول هذا واقسم بهِ امام الله الذي يملأ وجودهُ المطلق هذه البادية الواسعة ويخيم على فؤادك "

الفصل الحادي والعشرون

الرجوع الى مصر

وعند الفجر نهض الملك العادل يستعدّ لاستئناف المسير فقدّم الى متيلدة قليلاً من الماء والتمر وقال لها : —

" هذا كل ما استطيع تقديمهُ لك يا حبيبتي في وليمة خطبتنا "

" ان المحبة تجعلهُ افخر وليمةٍ في عينيّ "

ولما عزما على المسير حاولت متيلدة ان تمشي لكنّ الملك العادل ثناها عن عزمها هذا مخافة ان تدمي الحصى قدميها فحملها بذراعيهِ ينشطهُ الامل الجديد الذي احياهُ فيهِ المشهد الاخير . فأسندت رأسها الى صدرهِ واغمضت عينيها وكان التعب والحرّ قد أخذا منها كل

مأخذٍ فأخذت تراوح بين الحلم واليقظة . ثم تغلب عليها الضعف تدريجاً فلم تعد تذكر شيئاً مما حولها ولا رأت ريح الجنوب القائمة على قدم الثوران ولا الشمس الصابة على اطراف البادية احمى النيران — هذه كلها مع تباريحها وآلامها وتوبيخ ضميرها ووطنها وآلها — غابت عن ذاكرتها فلم تعد تذكر شيئاً سوى محبتها وذلك الذي تطوقها ذراعاهُ

ولكنها بعد مضي عدة ساعات شعرت باضطرابٍ عابثٍ بخطوات حاملها فأعادها هذا الشعور الى الصحو التام وفتحت عينيها فراعها أن رأت علامات الاعياء الشديد على وجههِ وزادها رعباً على رعبٍ حين شاهدتهُ ملطخاً بالدم . فافلتت على رغمهِ من بين ذراعيهِ وصاحت :—

"حبيبي الملك العادل ! مالك ؟ ماذا اصابك ؟" "خلي عنك الجزع . لم يصبني شيء"

وكان العرق البارد مكللاً وجههُ وقد اقعدهُ الاعياء عن الوقوف ولا يزال الدم يقطر من فيهِ من شدة التعب والحرّ ومع هذا كلهِ حاول اخفاء ما بهِ عنها وقال لها :—

" اني الآن احسن كثيراً . فلنستأنف المسير لان جبل الخليل لم يعد بعيداً عنا "

" لا بل دعنا نموت هنا . وليس في موتنا معاً من بأْسٍ ! لاننا اذا عشنا فقد يعرض لنا ما يقضي بافتراقنا احدنا عن الآخر وحينئذٍ نأسف اشد الاسف على فوات اليوم الذي وعدنا فيهِ الموت باتحادٍ ابدي "

فلذّت هذه التأملات للملك العادل . ثم استعان بمتيلدة على النهوض واطلق لنظرهِ عنان الاستشراف فلاحت لهُ قمة جبل على بعد شاسع . فرفع صوتهُ واخذ ينادي باعلى ما يستطيعهُ من اصوات الاستغاثة فلم يكن من سامع ولا من مجيب . فعاد الى متيلدة يتعثر باذيال الخيبة وانطرح على الرمل بجانبها يتوقع الموت الذي لم تكن فيهِ قوة على ردهِ . فادركت متيلدة ما هو عليهِ من شدة اليأْس واخذت يدها بيدهِ وقالت :—

" انّ هذه الساعة التي اتمكن فيها من محبتك بلا خوفٍ ولا خطيئة لهي اثمن ساعات حياتي كلها . فليتني اتحقق اننا حتى في العالم الآتي نجتمع معاً ولا نفترق " . "حيثما ذهبت اذهب"

" اذاً الى الابد ؟ " . "الى الابد "

وفي هدوء الليل حمل النسيم على جناحيهِ من نحو الشرق صوتاً ضعيفاً اشبه بالهمس فدبّ الرجاء في صدر الملك العادل ونهض يصغي والصوت يزداد قوةً ووضوحاً حتى سمع اقدام جمل ثم صهيل جواد ثم اصواتاً بشرية . فصاح من شدة الفرح :—

" هذه قافلة قادمة ! لقد نجونا ! "

وكانت هذه القافلة عبارة عن رجالهِ الذين تركهم في اطلال الدير . فلما ابصروهُ هو

ومتيلدة في حالة النزع من شدة الاعياء والجوع والعطش هبوا باسرع من لمح البصر اليهما واغاثوهما بقليل من الماء والطعام لارواء الظمإ وسد الرمق ثم اركبوهما واسرعوا بهما الى جبل الخليل حيث انزلوهما كهفاً تمكنا فيهِ ان ينالا حاجتهما من النوم الطويل العميق

وفي اليوم التالي استأنف الركب سيرهم الى القاهرة ولم يعرض لهم في الطريق شيء يستحق الذكر سوى ان متيلدة أخذت تمثل لعينيها الموانع العظيمة التي تعرض لها وتقضي بانفصالها عن حبيبها فتذكرت الحرب الحامي وطيسها بين العرب والافرنج وموقف الملك العادل الحرج فيها . فلم ترجُ منهُ الانحياز الى جانب الافرنج ولا ارادت ذلك واذا ظلَّ امينًا لوطنهِ أبى اخوها وملكها الذي لهُ السيادة المطلقة عليها ان يعطيها لاخي صلاح الدين وساعدهِ الايمن

وهذا الاضطراب الذي عبث بافكار متيلدة أخذ ايضاً مأخذاً عظيماً من افكار الملك العادل فتذكر ان الشرف والمحبة الاخوية فرضا عليهِ واجباتٍ عظيمة جدًّا وان حبهُ لمتيلدة عاقهُ عن اتمام هذه الواجبات. كان يجب عليهِ ان يكون منذ وقتٍ طويل بجانب اخيهِ يطرح اكاليل الانتصار عند قدميهِ ولكن الحب انساهُ الواجب والشرف وحملهُ على ترك جيشهِ عندما وجب عليهِ ان يزحف بهِ . ولما دخل القاهرة استقبلهُ الشعب والجيش بالاكرام والاحترام ولكنهم كلهم نظروا الى متيلدة شذرًا واعرضوا عنها بوجوهٍ باسرة لانهم عدوها علة سقوط عكاء وتأخر الملك العادل عن موافاة اخيهِ

الفصل الثاني والعشرون

" اياها طالب "

وفي اليوم التالي وقف ببوابة القصر فارسٌ متقنعٌ ممتطٍ جوادًا اسود فاحماً وطلب الاجتماع بالملك العادل . فادخلهُ احد الحجاب الى غرفة محاذية لمجلس الامير ودخل يخبرهُ بقدومهِ فامرهُ ان يدخل بهِ عاجلاً . فلما دخل ورجع الحاجب ادراجهُ قال لهُ الملك العادل : —

" اكشف ايها الفارس قناعك . وقل ما تريد مني . فلا اظن ان وجود الاميرة متيلدة يثنيك عن اظهار نفسك وطلب ما جئت لاجلهِ "

فازاح الفارس لثامهُ واسفر عن محيًّا موغورانسي الجميل الجليل ولما رآهُ الملك العادل ومتيلدة دهشا دهشاً لا مزيد عليهِ وكادا يكذبان اعينهما

وكان على ترس مونمورانسي منطقة البروج وفي مركزها سهم موجهٌ نحو رسم العذراء (برج السنبلة) وحولهُ نقشت عبارة ترجمتها " اياها طالب " فلما وقع نظر الملك العادل على

هذا الشعار ادرك حالاً ان متيلدة هي ضالة مونمورانسي التي ينشدها في القاهرة فقال لهُ

" اي بطل عكاء لا ادري اي طيش اغراك بالمجيء الى حيث يكفي ذكر اسمك لان يقضي عليك بموت عاجلٍ لا قبل لي بانقاذك من مخالبهِ ؟ "

فاجابهُ مونمورانسي بعد ما ادى التحية الواجبة الاميرة انكلترة :—

" اعلم ايها الملك العادل ان احمد المشطوب لما بلغ معسكر الافرنج وانكشف لهُ حقيقة الخدعة التي جازت عليهِ وانهُ قد جاء بالملكة لا بالاميرة غضب غضباً لا يوصف واتهمك بالغدر والخيانة واشاع عنك بان هيامك باميرة انكلترة على شدتهِ كان دون رغبتك في الاستقلال عن صلاح الدين ومحالفة الافرنج ليعينوك على الاستئثار بعرش مصر . وقد ذاع هذا الخبر في معسكر الافرنج وكان الملك رتشرد في مقدمة المصدقين لهُ وتوقع انك تشترط لمحالفتك لنا قبولهُ بان تكون اختهُ زوجة لك. فلم يسرّهُ هذا الامر لانّ لوسيان منذ شاهد الاميرة متيلدة في قبرس شغف بجمالها وبعد وفاة زوجتهِ سيبل التمس من رتشرد ان يسمح لهُ بها . ونظراً لما بينهما من الصداقة المحكمة العرى اقسم لهُ ان متيلدة اذا رفضت نذر الترهب ورضيت ان تتزوج لا تستطيع ان تقترن برجل سواهُ ... "

فقال الملك العادل حانقاً :—

"ما اسخف هذا الوعد المبني على الطيش والرعونة ! وما اشبههُ بوعدهِ ان يعيد اليهِ التاج الذي اضاعهُ ! وان عرش القدس وقلب متيلدة كليهما ليسا تحت سلطة رتشرد ؟ "

فصبغت حمرة الخجل وجنتي متيلدة واستانف مونمورانسي كلامهُ :—

" اما فيليب اغسطس وباقي ملوك الافرنج فخالفوا رتشرد في تحزبهِ للوسيان وقضوا بوجوب اعطاء الاميرة متيلدة لك اذا وعدت بالانضمام الينا . فناقضهم عدة امراء في ذلك. وقالوا ان حق الاختيار يجب ان يكون لمتيلدة نفسها . اما انا فلم اكن من رأيهم فقط بل عرضتُ ايضاً ان اخرج بالف من القرسان الامراء طالباً الاميرة لاسمع من شفتيها ما تختارهُ واسفك آخر قطرة من دمي في سبيل تنفيذ إرادتها

" ما اظنك اقدمت على دخول المدينة بفرسانك "

" دخلتها وحدي. وتركتُ فرساني متوارين في ظاهرها ولا يظهرون الاَّ اذا مست حاجة اليهم وابيتَ ان تطلق الاميرة متيلدة "

" لستَ بقادر على اخذ الاميرة اتكالاً على ما لديك من القوة. فان لي في المدينة جيشاً كبيراً يحول دون قصدك هذا "

"ضاعفهم اذا شئت فلا ارهب جانبهم. ولكن اجبني على سؤالي — هل تقبل بما نشترطهُ عليك ؟ وانتِ ايها الاميرة هل ترومين الانطلاق ؟ " فاجابهُ الملك العادل : —

" لا اقبل بشروطكم . ان شرفي اعظم من ان يسمح لي بان اخون اخي واغدر بوطني اما الاميرة فلعلها لم تبقَ حرة لتختار ما يعرضهُ عليها ملوكها وامراؤُها "

فاخذت مونمورانسي دهشة عظيمة يعجز القلم عن وصفها. ثم سمع الملك العادل وقع خطى قادم في الغرفة المجاورة نخف لاستقبالهِ ليعترض دخولهُ ويحول دون مشاهدتهِ لمونمورانسي ولما انتهى الى الباب حياهُ ضابط يدعى خالداً كان من اشد رجالهِ امانةً واخلاصاً واشجع ضابط في جيش صلاح الدين والتمس منهُ على الفور ان يخلو بهِ على انفراد لامرٍ ذي شأن واذ لم يسعهُ انتظار جوابهِ دنا منهُ واسرَّ اليهِ وقال

احذر ايها الملك العادل ولا تضع دقيقة واحدة في سبيل التخلص مما انت فيهِ الآن . فالمدينة كلها في هياج واضطراب . وفي اجتيازي اليك سمعت القوم يهمسون بعضهم الى بعض ان في القصر فارساً من فرسان الافرنج . وقد تدفعهم شدة الهياج الى الهجوم على القصر . ثم ان هياج الشعب اصغر الاخطار التي تتهددك . فان اخاك قد قضى عليك بالموت : "

فاغلق الملك العادل الباب وادخل خالداً الى حيث كانت متيلدة ومونمورانسي وقال لهُ :

اعد يا صديقي حديثك بلا خوف امام اميرة انكلترة وهذا الامير المخلص الشجاع "

فحسر مونمورانسي لثامهُ وقال : — لا خوف عليَّ ممن يدعوهُ الملك العادل صديقهُ "

فتأثر الملك العادل من شدة ثقتهِ بهِ واكد لهُ انها لم توضع في غير موضعها ثم طلب الى خالد ان يطلعهُ على سبب قضاء صلاح الدين عليهِ بالموت فاجابهُ : —

" كيف تسألني عن السبب وانت عالمٌ بهِ ؟ اما أعدتَ ملكةَ انكلترة الى زوجها ؟ اما ابقيت اختهُ عندك ؟ وهذا العصيان المزدوج ارتكبتَ اثمهُ في شر الاوقات — حين كان عفو صلاح الدين عن ذنبك في سقوط عكاء باقياً حديث الالسنة والشفاه ! "

" الم تبلغهُ رسائلي التي اوضحت لهُ فيها ما سألتني عنهُ الآن ؟ "

" لا اعلم . ولكني علمتُ ان ابنة اموري (اغنس) ذهبت اليهِ واكدت لهُ خيانتك فابى ان يصدقها وظلَّ واثقاً بامانتك حتى جاءهُ المشطوب معفر الوجه ممزق الثياب وشكا اليهِ انك خدعتهُ وخنت سلطانك . فاقشعرت ابدان الحاضرين من شدة هول هذه التهمة الفظيعة ولا تسل عن غيظ صلاح الدين فانهُ كان مما يفوق وصفهُ ويتعذر التعبير عنهُ . ثم قصَّ عليهِ المشطوب تفصيل خيانتك مبتدئاً من ذكر ازدرائك باوامرهِ اذ ارسلت الملكةَ وابقيت

الاميرة . وانطلقت بها الى القاهرة لتجعلها ملكة مصر مستعيناً بالافرنج على تأييدك في مملكتك الجديدة . وحينئذٍ عقد صلاح الدين مجلس شورى وطلب من اعضائهِ الحكم عليك بما يستحقهُ عصيانك . ولما احجموا عن النطق بالحكم وعلم انك لا تهاب الموت لو حكم بهِ عليك أهاب بالمشطوب وامرهُ ان يركب في اثني عشر الفاً من العساكر الى القاهرة ويقبض عليك باية وسيلة كانت ويقودك مكبلاً بالسلاسل الى ساحة المدينة وقبلما يذيقك الموت الاليم يسلم اميرة انكلترة امام عينيك لايدي الطغام الرعاع ليفعلوا بها ما يحسن في عيونهم ! ولما سمعتُ قضاء السلطان الرهيب نسيت اثمك ولم اعد اهتم بسوى نجاتك فخرجت من المجلس وامتطيت فرسي التي تسابق الرياح فبلغت جبل الطور في يومين ومن قمتهِ شاهدت جيش المشطوب يجدّ المسير فضاعفت سرعة عدوي حتى بلغت القاهرة الآن ولكني لا أضمن تأخر المشطوب عن الوصول الى ما بعد شروق شمس الغد "

فاخذ الملك العادل يضرب اخماساً لا سداس توصلاً الى طريقة ينقذ بها متيلدة من الخطر المحدق بها من غير ان يضطر الى ابعادها عنهُ . فلم يرَ في الحالة الحاضرة منفذاً لما اراد ولا مخرجاً مما احاط بها من الضيق الخانق بسوى تسليمها الى مونمورانسي . فاخذها بيدها وقادها اليهِ وقال لهُ : — "خذها يا مونمورانسي الى معسكر الافرنج . واني لاخلاصك وشجاعتك وشرفك مستودع خطيبة الملك العادل

فصعق مونمورانسي بهذا البلاغ الغريب لان مخاوفهُ التي أوجسها من جهة متيلدة لم تبلغ هذا الحد . وهمّ بالاعتراض والاستيضاح . فسبقتهُ متيلدة الى التصريح بما اغناهُ عن ذلك واخبرتهُ بما عاهدت الملك العادل عليهِ في البادية

وحينئذٍ خرج الملك العادل ينظر في إعداد ما يلزم لانطلاقها

الفصل الثالث والعشرون

سفر متيلدة الى عكاء

فجمع كل النصارى الذين في القاهرة وامر بتوزيع الاسلحة عليهم واوعز اليهم ان يخرجوا افراداً الى ظاهر المدينة قرب المطرية حيث يوافيهم باميرة انكلترة واميراً آخر لم يبح لهم باسمهِ ثم عاد الى متيلدة وقال لها : —

"كل شيء معد . ان نساءك ومحفتك في انتظارك وستنطلقين من احد ابواب القصر السرية مصحوبة بخالد "

" اني مفارقة لك فراقاً قد يكون ابدياً . افلا تخبرني بالخطر الذي يتهددك والوسائل التي عزمتَ على اتخاذها لصرف غضب صلاح الدين عنك ؟ "

" لا اعلم . ولست مبالياً الآن بغير الاهتمام بسلامتكِ ونجاتكِ من الخطر . فلا تسأليني شيئاً وانصري يا حبيبتي حتى عن الكلام معي . واذهبي حرصاً على حياتك الثمينة — اذهبي قبلما يخونني جلَدي واعدل عن التسليم بسفرك . تعال يا مونمورانسي . انك في اشد خطرٍ فلا يصح ان اتركك وحدك . اتبعني لنوافي الاميرة في آخر القناة قرب سفح جبل المقطم "

ولما خرجا وجدا عند بوابة القصر جمهوراً غفيراً يروم اعتراض مسيرهما . وكان مونمورانسي قد سدل قناعهُ على وجههِ بخلاف الملك العادل فانهُ سار حاسر اللثام واشار الى الجمع بالتنحي فاطاعوهُ مأخوذين بهيبة جلالهِ واخلوا لهُ الطريق فانطلق هو ورفيقهُ آمنين

وكان الملك العادل ينظر الى مونمورانسي في اثناء مسيرهما من طرفٍ خفي فرأى رباطة جأشٍ نقية لا يشوبها شيءٌ من الخوف . فاعجب بشجاعتهِ اشد الاعجاب واطلعهُ على ذلك بعد ما اجتازا الجموع وقال لهُ : —

" اعترف لك باني لو رأيت للخوف اقل اثر عليك — بل لو ان يدك التي قبضتها ضغطت يدي اقل ضغط يصورهُ القلق والاضطراب عند اجتيازنا في وسط ذلك الجمهور الحانق الغاضب لما عددتك اهلاً لحفظ الوديعة التي ائتمنتك عليها ولا توقعت لمتيلدة اماناً معك لان الرجل الضعيف في حضرة الموت يكون اضعف في مقاومة عواطفهِ واميالهِ "

فاجابهُ بلهجة الترفع والاباء : —

" مهما يكن من عواطفي واميالي فثق بانك — بعدما استودعتني سر العلاقة التي بينك وبين اميرة انكلترة — قد اقمتَ بيني وبينها حاجزاً حصيناً لن تجسر آمالي على محاولة تعديهِ واذا كان سوء الحظ قد قضى عليَّ بان ادفن حبي العقيم في اعماق صدري فاعلم اني سأُعنى عناية لا مزيد عليها بشدة كتمانهِ حتى يتعذر على متيلدة اختراق استارهِ والوقوف على آثارهِ "

وبعد قليل جاء خالد بالاميرة متيلدة ونسائها فساروا كلهم الى ظاهر المطرية حيث كان النصارى ينتظرونهم فعرفهم الملك العادل بمونمورانسي فرحبوا بهِ واكرموا استقبالهُ وولوهُ قيادتهم

ولم يبعدوا قليلاً حتى وصلوا حيث كان الفرسان الامراء ينتظرون مونمورانسي فخفوا الى استقبال اميرة انكلترة واحاطوا بمحفتها وحيوها تحية التجلة والتعظيم ثم ادوا التحية نفسها للملك العادل بعدما عرفهم بهِ قائدهم مونمورانسي

و بعدما استدل مونمورانسي من خالد على الطريق التي يجب ان يسيروا فيها ليجتنبوا ملاقاة المشطوب وجيشهِ اشارت متيلدة بالمسير والحزن يقيمها و يقعدها ورجع الملك العادل وخالد الى القاهرة وفي فؤادهِ نار جوى احرُّ نار الجحيم ابردها

الفصل الرابع والعشرون

خيبة المشطوب

ولما دخل الملك العادل المدينة امر بجمع جيشهِ المتفرق فاطاعوا الامر باسرع من لمح البصر وفي ساعات معدودة أُقيمت الحصون والمتاريس والخنادق حول المدينة احتياطاً لصد هجمات المشطوب اذا حدثتهُ نفسهُ بذلك بعد وصولهِ الى ضواحيها

وفي اليوم التالي اعلن الحراس القائمون في ابراج القاهرة للاستطلاع والاستكشاف انهم رأوا على بعد جيشاً كبيرًا يزحف على المدينة فجمع الملك العادل الجنود والاهالي في الساحة الكبرى وقال لهم: — " لقد اوغر صدر صلاح الدين عليَّ ووشى بي اليهِ فعدني خائناً وارسل المشطوب لقتلي فهل تسلمون بذلك ؟ "

فصاحوا جميعهم صيحة استنكار دوت لها جوانب القاهرة واقسموا بصوت واحد انهم يفدونهُ بنفوسهم ولا يسلمونهُ الى المشطوب الاَّ بعدما تسفك دماؤُهم في سبيل الدفاع عنهُ حتى تأَثر الملك العادل من شدة محبتهم لهُ وقوة سلطتهِ على قلوبهم

فانفذ على الفور رسلاً الى المشطوب يدعوهُ اليهِ للنظر في ما هو آتٍ لاجلهِ بطريقة سلمية اجتناباً للعداء وحقناً للدماء . فلبي المشطوب الدعوة ودخل القاهرة مصحوباً ببعض اعوانهِ وزار الملك العادل في قصرهِ . وبعد ما حيَّا وجلس قال لهُ الامير : —

" بلغني ما انت قادم لإنفاذه من قبل صلاح الدين فاعلم انك لست بقادر على تنفيذ واحد من الامرين . لان الاميرة متيلدة اصبحت على مقربة من معسكر اخيها ورأسي الذي تروم قطعهُ بيد رجالي الذين بكلمة من فمي يكتسحونك انت وجيشك من عالم الوجود قبل مغيب الشمس . فنصيحتي لك ان ترجع الى اخي وتخبرهُ بما رأيت وسمعت . وقل لهُ اني عالم بان الافرنج عازمون على مهاجمة قيصرية . فليوافني اليها وهناك يرى هل اصاب ظنهُ في ما اتهمني بهِ وهل استحق العار الذي قضى بهِ عليَّ ؟ "

" لا انكر ان قيصرية لاتسقط اذا نصرتها ولكني لا استطيع الرجوع الى اخيك ما لم آخذك اسيرًا "

" تأخذني انا اسيرًا ! و بكلمة واحد تفعل ما عجزت عنهُ جيوش الافرنج كلها ! ان شرف اسر الملك العادل اكبر جدًّا مما يستحقهُ رجل نظيرك ! واليد التي تقيد يديَّ بالسلاسل لم تخلق بعد. واذا لم يرضك ما قلتهُ لك فارجع حالاً الى معسكرك واستعد للقتال وسترى قبل مغيب الشمس من منا يكون اسير الآخر

فنهض المشطوب وأعلن استعدادهُ للقتال ومضى

وبعد مضيهِ اسرع الملك العادل الى رجالهِ ودربهم على الاحاطة بالعدو في الدقيقة المعينة. وما كاد جنود المشطوب يتحركون حتى رأوا انفسهم محاطين من كل جانب بجيش الملك العادل وباسرع من وميض البرق نشب اخو صلاح الدين في وسطهم شاهرًا حسامهُ وحاسرًا لثامهُ. وناداهم بصوت طالما اطربهم سماعهُ في ساحات الوغى وبث فيهم روح البسالة والاقدام في حومة الصدام وقال: —

" اعلموا يا رفقائي في الكفاح والجلاد واخوتي في المذهب والاعتقاد انهم يطلبون منكم قتلي فهل تجيبون هذا الطلب وترضون ان يورد الملك العادل موارد العطب ؟

فلما سمعوا صوتهُ الذي طالما حنوا الى ترديد صداهُ وشاهدوا جمال طلعتهِ وجلال محياه عبث التشويش بصفوفهم ولم تنجح للمشطوب حيلة في اصلاح اختلالهم وحفظ نظامهم لانهم لم يعودوا يطيعون لهُ امرًا ولا يسمعون كلمة بل بعضهم القوا اسلحتهم الى الارض والبعض فروا هاربين ومعظمهم انحازوا الى صفوف قائدهم القديم. ولما رأى المشطوب انهُ بقي وحدهُ قائدًا بلا جيش دعا اليهِ بعض ضباطهِ الذين اخذتهم شفقة عليهِ وسار بهم راجعًا من حيث اتى

وبعدما اراح الملك العادل رجالهُ يومًا واحدًا خرج بهم قاصدًا قيصريَّة ليدفع عنها غارات الافرنج. ولما وصلها بعد سفر طويل شرع في الحال يتفقد حصونها واسوارها وامر ببناء ما كانت في احتياج اليهِ من معدات الدفاع

ثم اهاب بخالد صديقهِ الحميم وطلب اليهِ ان يذهب حالاً الى معسكر الافرنج ويتجسس انباء متيلدة وينظر هل وصلت بسلام. فلبى اشارتهُ على الفور ووعدهُ ان يقوم بهذه المهمة حق القيام

وفيما كان المشطوب راجعًا الى صلاح الدين لقي اغنس في مقدمة فرقة من العرب قادمة لاعانتهِ على الملك العادل. فابلغها ما حل بهِ وقال لها ان متيلدة برحت القاهرة الى عكاء فلعلها تدركها على الطريق قبل وصولها اليها. فلبت اشارتهُ على الفور وسارت وراءها واستأنف المشطوب مسيرهُ الى صلاح الدين واخبرهُ بما حصل فقام يستعدُّ للزحف على قيصرية ليوقع باخيهِ اشد العقاب

الفصل الخامس والعشرون

في سبيل انقاذها

عرض لأميرة انكلترة منذ مال قلبها الى الملك العادل صُوَر مختلفة من مشاهد الحب وتقلبت عليها في دمياط والقاهرة والبادية اطوارٌ متعدّدة واحوالٌ متنوعة علّمتها ان للمحبين طرقاً كثيرة يشرحون بها غرامهم فينطقون بلا لسان و يبلغون القلوب شكواهم من غير حاجة الى آذان . لذلك لم يخف عليها ما كان في فؤاد مونمورانسي مع شدة حرصهِ على كتمانهِ واعجبها جدًّا انهُ تغلب على عواطفهِ وكبح جماح اميالهِ فلم تتعدَّ حدود التأدب والاحترام . وسار بجانب محفتها ساكتاً لايتكلم الاَّ اذا كلّمتهُ . واذا سألتهُ عن شيءٍ أجابها بما لامزيد عليهِ من الاختصار

وما اجتاز الركب عسقلان والرملة حتى رأوا على بعد فصيلة كبيرة من جنود العرب مقبلة وكأنها استقلت عدد الحامية السائرة في حراسة اميرة انكلترة فشنت الغارة عليها

وتوقف مونمورانسي هنيهة يفكر في ما يجب عليهِ لانهُ لم يتعوَّد قطُّ غير الهجوم في جميع المعارك التي خاض غمارها . اما الآن فوجود الاميرة التي اؤْتمن على حراستها وحمايتها قضى عليهِ ان يلزم خطة الدفاع مكرهاً لا مختاراً وحذا بقية الامراء حذوهُ واصطفُّوا حول محفتها

ورأى العرب ذلك فتعجبوا لانهُ كان على خلاف ما عهدوهُ من فرسان الافرنج فطمعوا بهم وعدُّوا وقوفهم موقف الدفاع دليل خوفهم وضعفهم فزادوا جرأة واقداماً واشتد عزمهم على مهاجمتهم . لكنهم بالجهد تمكنوا من الدنو اليهم حتى فتك حسام مونمورانسي بطليعتهم فتكاً ذريعاً وفرقها شذر مذر . ولما علموا ان خصمهم بطل عكاء تذكروا كيف كان ينقض على اسوارها انقضاض الصواعق وهو يفلُّ الصفوف ويورد الالوف موارد الحتوف فنكصوا على اعقابهم واركنوا الى الفرار ما عدا فارساً ظلَّ واقفاً لا يبدي هجوماً ولا يحاول عن نفسهِ دفاعاً وهو يرمق المحفة التي فيها الاميرة بعين الغيظ والحنق . ثم دنا منها وباسرع من لمح البصر سدَّد مزراقهُ نحوها ورماهُ فاخترق استارها واصاب طرفهُ ذراع مثيلدة فجرحها جرحاً خفيفاً . فخف مونمورانسي اليها ورأى اطراف ثوبها مطلخة بالدماء وكان الفارس قد لوى عنان جوادهِ وبذل المهماز في شاكلتهِ فعدا بهِ يسابق البرق

فاعترى مونمورانسي غيظٌ شديدٌ أخرجهُ عن رشدهِ وصوابهِ وأغراهُ بمطاردة ذلك الفارس غير حاسب للامور حساباً . اما الفارس فظلَّ يجتذبهُ وراءهُ وهو يروغ في النكوص

قدامهُ حتى صار على مقربةٍ من رفقائهِ الذين سبقوهُ الى الفرار · واذ ذاك ادركهُ مونمورانسي وابتدرهُ بضربةِ القنةُ الى الارض وما أبطأَ ان ترجلَّ عن جوادهِ واستلَّ سيفهُ ليوردهُ حتفهُ فصاح بهِ الفارس : —

" اطعن يامونمورانسي اطعن واغمد حسامك في صدر امرأة بلا معين ولا نصير ! "

فازاح مونمورانسي اللثام عن محيا عدوهِ واذا بهِ اغنس نفسها · فشقَّ عليهِ ذلك وأبى ان يفارقها قبلما يعينها على النهوض مع انهُ رأى فرسان العرب يقتربون اليهِ و يستعدّون لاعادة الكرة عليهِ · وما استوت اغنس على قدميها حتى اخذت رمحها وترسها وحملت عليهِ · اما هو فاقتصر على ردّ حملاتها من غير ان يتعمد الايقاع بها · واذ ذاك كان فرسان العرب قد لموا شعثهم وجمعوا اطرافهم ودنوا منها فصاحت بهم اغنس : —

" النجدة يارجال صلاح الدين على عدوكم مونمورانسي ! "

ولما احاطوا بهِ من كل جانبٍ تركتهم اغنس وعدت الى الجهة التي كانت فيها متبلدة · فادرك مونمورانسي مرادها واخترق بقوة حسامهِ منفذًا بين الصفوف المحدقة بهِ وجرى وراء اغنس فادركها فحملت عليهِ حملة صادقة . لكنهُ مع تحققهِ ان فتكهُ بها يمكنهُ من الانضمام الى رفاقهِ قبل وصول فرسان العرب اليهِ فضَّل الموت على حياة يشوبها عار البطش بامرأة · فظلَّ يتقي ضربها على شدتهِ وعنفهِ مترفعًا عن الحمل عليها حتى انضمّ اليها رفقاؤها واخذوا يهاجمونهُ من كل جانبٍ وهو يجول بينهم و يصول وقد قطع الامل من النجاة لكنهُ ارتاح الى بذل حياتهِ في سبيل من وعد بسفك آخر قطرةٍ من دمهِ في الدفاع عنها · وأعجبت اغنس ورجالها ببسالتهِ التي لم يروا لها شبيهًا وكادوا يعدلون عن الحمل عليهِ ابقاءً على حياتهِ الشريفة لو لم يروا في الهرب من امامهِ عارًا لا يستطيعون احتمالهُ

ولما استبطأ الفرسان الامراء رجوع قائدهم تفرّقوا يفتشون عنهُ حتى اتوا حيث وجدوهُ جاثيًا على ركبتهِ يردُّ هجمات الحاملين عليهِ بقطعةٍ من سيفهِ وقد أُثخن بالجراح وامتزج دمهُ بدماء الذين ارداهم واقام جثثهم حولهُ متراسًا · فاندفعوا بنفسٍ واحدةٍ لانقاذهِ ولم يرَ رجال العرب مندوحة عن الفرار فاركنوا اليهِ واغنس في طليعتهم

وكانت قوى مونمورانسي قد انحلت من شدَّة آلام الجراح ونزف الدماء فحملوهُ الى حيث كانت بقيتهم تحرس خفة الاميرة ونزعوا عنهُ عدة الحرب فشاهدوا بملء الرعب والاسف قطعة رمح ناشبة في صدرهِ · ولما فحص جرَّاحهُ جروحهُ كلها قال انهُ يرجو شفاءهُ اذا تمكن من نزع قطعة الرمح من صدرهِ ولما حاول ذلك انشأَ في مونمورانسي المًا اعاد اليهِ رشادهُ ففتح

عينيهِ ونظر نظرة بحث وتفتيشٍ عمن لم تفه شفتاهُ بذكر اسمها وفاء بوعدهِ لخطيبها . فدنت منهُ ووجهها غارق بالدموع ووضعت يدها على يدهِ فاخذها وادناها من شفتيهِ وقبلها قبلة احترام لا ينكرها عليهِ الملك العادل نفسهُ . فقالت لهُ متيلدة : —

" ان اخي وجميع ملوك الافرنج سيلومونني اشدَّ اللوم على تضحية حياتك الشريفة ! "

" لا بل سيفرحون . واني لاستحلي موتًا تقودني يدكِ الى بابهِ . قولي للملك العادل اني ساطلب هدايتهُ امام عرش الرحمة الالهية حيث اقف عما قليل لانَّ سعادتكما آخر شيءٍ اتمناهُ على الارض . وارجو ان مبادئ الشرف والاحترام التي عشتُ عليها تبقيني حيًا في قلوب مواطنيَّ وفي قلبكِ ايتها الاميرة ؟ "

" الى الابد ! "

" اذًا اموتُ سعيدًا "

ثم استحلف رفقاءهُ الامراء ان يأخذوا جثتهُ معهم ويدفنوها على ربوةٍ امام عكاء وقال لجرَّاحهِ ان يحاول نزع قطعة الرمح من صدرهِ فأحجم من شدَّة إشفاقهِ فمدَّ مونمورانسي يدهُ اليها وانتزعها وأسلم الروح

وبعدما وفَّاهُ الامراء حقهُ من الندب والرثاء أعدُّوا لهُ نعشًا وضعوهُ عليهِ وغطوهُ بالرايات والاسلحة التي غنمها في ساحات النزال وساروا قاصدين عكاء

وقبلما دخلوها تقدمهم احد الامراء وقصَّ على الملوك خبر وفاة مونمورانسي فخرجوا كلهم لاستقبال متيلدة وجثة فاديها وكاد حزنهم على موتهِ يساوي سرورهم بسلامتها ان لم يزد عليهِ وبعدما صلوا عليهِ وابَّنهُ رئيس اساقفة صور تأبينًا كأنهُ لاعظم الملوك والامراء دفنوهُ في المكان الذي عيَّنهُ قبل وفاتهِ

الفصل السادس والعشرون

هواجس لوميان

ولما خلت الملكة بمتيلدة سألتها ان تطلعها على ما جرى في غيابها بين الملك العادل وبينها فقالت لها : —

" لم يكفَّ الملك العادل منذ برحت دمياط عن اقامة الادلة الصادقة على شدة تعلقهِ بي فلم يعد في وسعي الاستمرار على التصلب وعدم التأثر . على انهُ يجب عليَّ ان استشير رئيس الاساقفة في امري قبلما اطلعكِ على حقيقة ما اشعر بهِ من جهة الملك العادل "

وما لبثت متيلدة بعد رجوعها الى المعسكر أن صارت قبلة انظار جميع مَن فيهِ من الملوك والامراء ولا سيما ملك القدس فكانوا يتسابقون الى اكتساب رضاها ونيل نعمة في عينيها . اما هي فلم تبدِ لاحدهم اقل ميلٍ يشعر بالايثار والتفضيل بل عاملتهم كلهم معاملة واحدة ولكنها كانت ترتاح الى سماع حديث اميرٍ جليل القدر متقدم في العمر وهو الكونت هوغ امير طبرية

هذا الامير اقام عدة سنين أسيرًا بالاسم في بلاط صلاح الدين فعرف الملك العادل معرفة تامة وأُعجب كل الإعجاب بشجاعتهِ ومروَّتهِ وشرف نفسهِ وعلى يدهِ أُطلق سراحهُ واعيد الى امرتهِ وقد استرجع كل ما كان لهُ من الاموال والمقتنيات . فكان حديث هذا الامير الشيخ اطراء شمائل الملك العادل والثناء عليهِ وكانت متيلدة تصغي الى هذا الحديث المشتهى اصغاء الجليس الى الوتر

وكان رجال العرب في اثناء الهدنة كثيرًا ما يدنون من معسكر الافرنج ويشتركون معهم في العابهم العسكرية على اختلاف انواعها وازداد الفريقان في الاختلاط والتمازج والتآلف حتى صار عساكر الافرنج يرقصون على نغمات موسيقى العرب ورجال العرب ينشدون اغاني الافرنج

وفي ذات يوم دخل ساحة الالعاب في معسكر الافرنج فارس عربيٌّ ممتطٍ جوادًا كريمًا وطلب ان يكون من جملة اللاعبين وقال انهُ مستعدٌّ لمطاعنة فارسين من فرسان الافرنج بشرط ان تكون جائزة الغلبة السماح بان يحيي اميرة انكلترة ويذهب من غير ان يميط لثامهُ

فقبلوا شرطهُ وطلبوا الى متيلدة ان تختار فارسين وعلى الفور حدثتها نفسها بوجوب اختيار من يكونان اقلَّ الفرسان دربةً واختيارًا فدعت اميرَي الجليل ويافا فبرزا للفارس العربي وبعد جولات معدودة انتصر عليهما وسار على ظهر جوادهِ الى جهة الرواق الذي اقامت فيهِ متيلدة . وكان لوسيان واقفًا بجانبها فحسد الاعرابي على هذا الظفر وطلب ان يبارزهُ فاعترضتهُ متيلدة وقالت : —

" ان شروط الكفاح تمت والشرف لا يسمح بمخالفتها "

وحينئذٍ ترجل الفارس عن جوادهِ وصعد الى حيث كانت الاميرة فانحنى امامها وقبَّل طرف ثوبها ثم نهض واسرَّ اليها : —

" هزم الملك العادل جيش صلاح الدين في القاهرة وهو الآن في قيصرية . وقد ارسلني اليكِ ليطمئنَّ قلبهُ بالوقوف على انباء سلامتكِ . اني انا خالد "

ففشي محيًّا متيلدة حمرة خجل لم تخفَ على جميع العيون التي كانت ناظرة اليها · فضغطت الملكة يدها وزاد رئيس اساقفة صور اضطرابها بان رمقها بعين التفحص · وبعد انطلاق خالد سألها اخوها : —

" هل تعرفين هذا الفارس ؟ "

" لكنَّ شروط الكفاح لا تبيح لي اعلانهُ ولو كنت اعرفهُ "

" يحقُّ لي كاخيكِ وملكاكِ ان اطلب ذلك منكِ "

فقال فيليب اغسطس : —

" لكنك كاشرف امير على الارض تأبى فعل ذلك · وماذا يضرُّ سيدة ذات جمال منقطع النظير ان يتسابق الرجال الى اكرامها من كل صوب ؟ "

واذ ذاك اعلنت الملكة رغبتها في الانصراف فنهضت وتبعتها متيلدة على الاثر · واستأذن لوسيان ملك القدس في ان يصحب الاميرتين الى محفتيهما فقال لمتيلدة لما دنا منها : —

" ان حسدي لهذا الفارس على انتصارهِ اقلُّ مما على الارتياح الذي ابديتِهِ اليهِ "

ان اخي نفسهُ لم يتهمني بابداء ارتياح الى هذا الفارس · واذا كانت نفسك تحدثك بنزاله فليس لي حقٌّ ان احول دون ذلك "

" سأنازلهُ واغلبهُ ولو كان الملك العادل نفسهُ "

فنظرت اليهِ متيلدة بعين الشك والارتياب في إمكان ما يملل نفسهُ بهِ وادرك لوسيان ذلك فقال لها : —

" اتظنين انهُ لا يمكن التغلب عليهِ ؟ "

" يظهر لي ان هذا هو الشيء الوحيد الذي يراهُ الافرنج في الملك العادل "

واذ ذاك بلغت محفتها فحنت رأسها للوسيان اشارة الوداع ودخلت المحفة من غير ان تمكنهُ من الجواب

ورجع لوسيان ادراجهُ مغتاظاً من الاسلوب الذي اشارت بهِ متيلدة الى الملك العادل ورأى ان موت مونمورانسي لم يرحهُ من عناء اكبر مناظر لهُ · وكان الحبُّ والطمع بالشهرة قد اغرياهُ بالسعي في الحصول على شقيقة ملك انكلترة ولم يرَ من رنشرد الأكل ما زادهُ اقتناعاً بامكان نجاح مساعيهِ . ولكنَّ خوفهُ من مناظرة الملك العادل لهُ كدَّر صفاءهُ وأضعف رجاءهُ ثم تذكر ان متيلدة قضت وقتاً طويلاً في الاسر عند الملك العادل وليس بعيداً انها تكون قد مالت اليهِ واذا نجحت في حملهِ على اعتناق مذهبها لم يبقَ لرنشرد باب لعدم قبولهِ

زوجًا لشقيقتهِ لانَّ محالفتهُ تفيد الافرنج فائدة لا تقدر

وعند تصوُّرهِ امكان حصول هذا الامر اشتدَّ اضطرابهُ وازداد قلقًا على قلقٍ وعزم على مقاومة كل سعي في هذا السبيل

وكان اول شيء فعلهُ على الفور انهُ خلا برنشرد وبعد ما افرغ جهدهُ في تملقهِ واستعطافهِ عرَّض امامهُ بذكر متيلدة ورغبتهِ في خطبتها فوعدهُ رنشرد انهُ سوف يجعل هذه الخطبة ختمًا لما بينهما من الصداقة وقال لهُ في الختام : —

" اذا كان قلب شقيقتي باقيًا فارغًا شغلتهُ بك كما أُريد والاَّ فسترى ماذا افعل ! "

الفصل السابع والعشرون

الاعتراف

ثم ذهب الملك رنشرد الى مخدع شقيقتهِ فوجدها جالسة مع الملكة ورئيس اساقفة صور وبعد ما حياهم وتمكن من الجلوس قال لها : —

" اراكِ يا متيلدة لا تزالين لابسة ثياب الحداد على مونمورانسي الشريف المأسوف عليهِ ولا بدَّ من القول ان استمرار هذا الحداد يفسح مجالاً للظن بانكِ تقومين بهِ لداعٍ اعظم من الأسف على فقد منقذكِ "

" اذًا سأخلعها منذ الان واعود الى ثوب الترهُّب "

" لكنني رأيتكِ في الايام الاخيرة اقلَّ اهتمامًا بالامور الدينيَّة فقلتُ لعلكِ عزمتِ على العدول عن اتمام نذوركِ . ولا اقول هذا لقلة احترامي لما كنتِ مصممةً ان تقفي نفسك عليهِ بل لاني ارى انكِ ولدت لأَن تكوني ملكةً لا راهبة . ولديك كثيرون من الامراء الذين يتمنون شرف الحصول عليك وافضلهم ملك بيت المقدس . لكنني لا اراكِ تجدين في صفاتهِ الشخصية ولا في صداقتهِ لي ما يحملكِ على الاحتفال بهِ فانت غير مكترثةٍ لهُ ولا لغيرهِ وقد بلغني من رئيس الاساقفة والملكة انكِ كنتِ كذلك في دمياط فلم تبالي بالملك العادل على رغم ما امتاز بهِ من الفضائل الرائعة . فهل باقٍ قلبكِ فارغًا من هذه العواطف؟ وهل في عزمكِ ان تبقي الى الابد غير دائنةٍ لسلطة الحب البشري ؟ "

" لا اعلم ماذا يخبأُهُ لي القدر في كنانتهِ ولكن اذا خطر الزواج ببالي فما من فوقٍ على الارض تكرهني على العدول عمن اختارهُ وارضاهُ "

" قولي لي أليس بين الامراء الذين حولكِ مَن تحدثك نفسكِ برفض نذوركِ لاجلهِ؟ "

" ولا واحد "

" اذًا انتِ عازمة على اتمام نذوركِ ؟ "

فلم تجبهُ على هذا السؤال الصريح بسوى السكوت وذرف الدموع فقال لها : —

" لا بدَّ من شاغلٍ سريٍّ عابثٍ بافكاركِ وسأنوط استجلاءهُ برئيس الاساقفة فهو يطلع عليهِ باعترافكِ لهُ ويخبرني بهِ "

ثم خرج الملك والملكة وبقيت متيلدة ورئيس الاساقفة . فدنت منهُ على قدم الوجل والاضطراب وجثت على ركبتيها قدامهُ وقالت بين ذرف العبرات وتصعيد الزفرات : —

" اسمع يا ابي اعترافي . واطلع على سرّي المحزن . واعلم انَّ عهدًا — رباطًا سريًا — يربطني بالملك العادل ! "

" بالملك العادل مع ما بينك وبينهُ من الاختلاف في المعتقد والعادات ؟ "

" لا يخفى عليك انهُ كان منقذي الوحيد من مخالب الموت في البادية وقد آثر ان يضحّي حياتهُ في سبيلي على ان يتركني اموت وحدي . فبينما كان ظلُّ الموت مخيماً علينا — وامام الله الذي ظننا انهُ يدعونا عما قليل لنعطي حسابًا عما فعلناهُ — أحببتُ ووعدت ولكنهُ هو ايضاً ارتضى ان يكون مثلي ولا يخالفني في شيء "

" اللهمَّ لك الحمد والشكر ! — افتحي يا ابنتي قلبك لله بلا خجلٍ ولا استحياء واشكري لهُ رفقهُ بك وانقاذهُ حياتكِ . وأعيدي على مسمعي ذكر هذه الحوادث العجيبة . وكيف قبل الملك العادل ان يجاريكِ "

" قبل ذلك عند ما رأى نفسهُ مشرفًا على الموت "

" وهل عدل عن عزمهِ هذا بعد ما نجا من مخالب الموت ؟ "

" لم يكن من السهل اقناعهُ الى النهاية على يد فتاةٍ ضعيفةٍ مثلي . ولا يظنُّ — كما لا اظنُّ انا ايضاً — ان معتقدي يوجب عليهِ ان يخون بلادهُ ويغدر باخيهِ . "

" اذا تمكنتُ من اقناعهِ بما أُريد لم يبق لي حاجةٌ في هذه الدنيا سوى ان ابارك اقترانكما واموت "

" واذا صار الملك العادل كما انا فهل تأذن لي يا أَبي ان أُحبهُ ؟ "

" نعم بلا ريب وسأبذل السلطة الممنوحة لي في الحصول على رضى اخيكِ "

" وأَي حاجة تبقى حينئذٍ للحصول على رضى اخي ؟ "

" لانهُ وعد غير الملك العادل بك . . . . "

" ليس لاحدٍ غيري حق التسلط على قلبي . وحياتي انما تكرّس لله او تعطى للملك العادل . واذا أبى الله عليّ هذه المحبة اطعتهُ لانهُ هو وحدهُ قادرٌ ان يفصلني عمن انا مديونة لهُ بحياتي "

" اخاف ان اصرارك على ما يخالف رضى اخيك يكلفك عناءً شديداً اذا حاول الملك العادل عدم مجاراتك في ما ترومين . على انك اذا كنت واثقةً بصحة موافقته لك من هذا القبيل فلا تخافي لاني سابذل جهدي في تذليل الصعاب والتغلب على جميع الموانع التي تعترض نجاح مسعاك "

" لما فارقتهُ في القاهرة كان اخوهُ صلاح الدين قد أرسل يتوعدهُ فلم يحفل بوعيده وقد بلغني انهُ استظهر على مندوب اخيهِ وهو الآن في قيصرية . "

" اذاً يجب عليَّ ان اسرع في اطلاع ملوكنا على هذا النبإِ المهم . فقد طالما استفاد العرب من انشقاقنا وانقسامنا فيحقُّ لنا الآن ان نستفيد من انقسامهم "

" وهل انت عازمٌ ايضاً ان تطلع اخي على سرّي ؟ "

" نعم ساقصُّ عليهِ بالتفصيل كل ما جرى لكِ من الحوادث منذ كنتِ مع الناسك على شاطئ البحر الاحمر حتى رجوعكِ الى القاهرة وحينئذٍ يعلم علم اليقين بانك في محبتك للملك العادل لم تزيغي عما يجب عليك "

الفصل الثامن والعشرون

وليم ولوسيان

ولما دخل رئيس الاساقفة مجلس الملك رتشرد وجد عندهُ ملك القدس ودوق برجندي يتشاورون في امرٍ ذي بال وهو انَّ فيليب اغسطس ملك فرنسا رجع الى اوربا ووكل قيادة جيشهِ الى دوق برجندي . وكان رئيس الاساقفة يعلم ذلك لانَّ ملوك الافرنج كانوا يستشيرونهُ في كل امر ارادوهُ . اما رتشرد فاقلقهُ سفر مناظرهِ بغتةً وارتاب منهُ موجساً خوف انتهازهِ فرصة غيابهِ عن انكلترة وشنهِ الغارة عليها

فسكن رئيس الاساقفة اضطرابهُ وازال ارتيابهُ واقنعهُ بوجوب الاتكال على شرف ملك فرنسا وعزَّة نفسهِ اللذين يحولان دون إقدامهِ على عمل معيب كهذا . ومما قالهُ لهُ :—

" دعهُ يذهب الى بلاده ويتولَّ بنفسهِ تسكين القلاقل التي هبت رياحها في غيابهِ وعوض ارتيابك منهُ تأسف على حرمانهِ مشاهدة بيت المقدس واعلم ان العناية الالهية قدَّرت لنا معيناً غير منتظر يسير امامنا ويمهد لنا سبيل استرجاع هذه المدينة المقدسة . انَّ الاسدين الذين يحميانها يقتتلان وصلاح الدين والملك العادل في شقاق ونزاع وقد التقى جيشاهما في القاهرة فاستظهر الملك العادل على جيش اخيهِ وهو الآن في قيصرية . واذا لم تخدعنا الظواهر كان زحفهُ عليها تمهيداً لسبيل دخولنا اليها "

فدهش السامعون لهذا الخبر المفاجيء وعرض دوق برجندي ان يرسلوا وفداً الى الملك العادل لابلاغهِ قبولهم بشروط محالفتهِ

فعارض لوسيان في ذلك معارضة شديدة وقال ان اول شرطٍ يطلبهُ يكون خطبة الاميرة متيلدة فهل بلغ من قيمة محالفتهِ ان نضحي اثمن كنزٍ عندنا في سبيلها ؟

فردَّ عليهِ رئيس الاساقفة : —

" ولكني لا اعلم هل توافق متيلدة على رأيك هذا ؟ "

فاجابهِ رتشرد بشيء من الغيظ : —

" اتريد بقولك هذا ان شقيقتي تحبُّ الملك العادل ؟ "

" أريد ان شقيقتك وعدَتهُ ان تكون خطيبةً لهُ . . . . "

" لا تقدر شقيقتي ان تعد وعداً كهذا . لانها تعلم ان حق خطبتها منوط بي وحدي وقد تصرَّفتُ فيهِ منذ الآن . فلوسيان خطيبها ولن يكون لها خطيب سواهُ "

فاعترضهُ دوق برجندي بقولهِ ان مجلس امراء الافرنج وجميع رجال هذه البعثة بل جماهير المسيحيين قاطبة يطلبون موافقتهُ على محالفة الملك العادل اذا اشترط خطبة شقيقتهِ

فانبرى لهُ لوسيان وقال بلسان الواجد الحانق : —

"وماذا عسى ان يدعو الى وجوب عقد هذه المحالفة ؟ اليس بين ملوك الافرنج وامرائهم من يضاهي الملك العادل بل يفوقهُ اهليَّة وكفاءة ؟ "

فاجابهُ رئيس الاساقفة بشدة وسخط : —

" اني لاعجب منك يا لوسيان كيف لم ترَ بفقد ملكك واعظاً ومؤدِّباً يكسرُ من حدة غلوائك وكبرائك ويعلمك شيئاً من اللين والتواضع . الم يكفنا ما جرَّهُ علينا صلفك من اضرار الشقاق والانقسام التي كادت تذهب بنا كل مذهب وتفرّق شملنا المجموع تحت كل كوكب ؟ او ما كفاك اعترافنا بحقك في عرشٍ لم تمكنك اهليتك وكفاءتك من الاحتفاظ

بهِ ؟ فارَبأ على ظلعك وقف عند هذا الحدّ من الجرأة والقحة ولا تحاول تقييد رنشرد بوعدٍ ليس الوفاء بهِ من مصلحتنا "

فردّ عليهِ رنشرد وهو بالجهد يستطيع ان يملك غيظهُ : —

" قل لي ايها الاب المحترم الست متعدّياً حدود حقوقك الدينيَّة وسلطتك الكهنوتيَّة وهل من حقوقك ان تقضي بيني وبين ملك القدس ؟ "

فاجابهُ " نعم من حقوقي وواجباتي ان اذود عن مصلحة الدين كل من يحاول العبث بها وان أُعين الضعيف وأُنجد المظلوم واذا كنت لم اذخر وسعاً في احترام ذوي السيادة والسلطة علناً امام الناس فالواجب عليّ ان اكلمهم على انفراد كاناسٍ غير ممتازين عن غيرهم بما ينزههم عن الخطإ و يعصمهم من الغلط . فلك يا رنشرد اقول علناً انك اذا استخدمت سلطتك كاخٍ وملكٍ في الجور على شقيقتك اميرة انكلترة تضطرني الى استخدام سلطتي المقدسة في الدفاع عنها . وانت يا لوسيان اذا اعمتك محبة الذات وحاولت حمل رنشرد على الوفاء بوعدٍ ليس فيهِ صلاحنا فاعلم اني اصرّح علناً بسقوط حقك في العرش الذي اتفقنا على سفك آخر قطرةٍ من دمائنا في سبيل استرجاعهِ . فاذكر وعيدي هذا واحذرهُ ولا تنسَ اني لم اتوعد قط ظلماً او باطلاً "

ثم حنا رأسهُ امام الملوك بهيبة ووقار وخرج من لدنهم . فقال لوسيان لرنشرد : —

" ماذا يهمني وعيدهُ ما دمتُ واثقاً بصدق وفائك "

" ثقتك في محلها . ولننظر الآن في ما سمعناهُ عن الشقاق بين صلاح الدين واخيهِ حتى اذا كان هذا الخبر صحيحاً اغتنمنا سنوح هذه الفرصة واسرعنا في احراز النصر والظفر "

وعلى الفور عقد رنشرد مجلساً حربياً اطلع فيهِ الامراء على ما سمعهُ من رئيس الاساقفة عن الشقاق المستحكم بين صلاح الدين واخيهِ وقال لهم ان الانباء ترجح انضمام الملك العادل اليهم فسرّوا جميعهم بهذا الخبر واعلن الاساقفة كلهم ونائب البابا معهم ان قبول الملك العادل الانضمام اليهم اعظم شأناً من اكبر انتصارٍ يحوزونهُ في ساحة القتال وان كل من يسعى برفض الشروط التي يطلبها لعقد هذه المحالفة يعدّ مجرماً في عيني الله والناس

فاستشاط لوسيان غيظاً وقام في المجلس يسفه هذا الرأي ويشير الى العار الذي يلحق بالافرنج باعتمادهم في محاولة استرجاع بيت المقدس على مساعدة رجلٍ غريب عنهم في المعتقد والعادات واخذ يدعو كلاً من الامراء باسمهِ مستنجداً مستغيثاً للعدول عن هذا الرأي الوخيم فمالوا كلهم اليهِ ولاسيما الذين كانوا مثلهُ يعللون انفسهم بامكانٍ خطبة متيلدة واعلنوا

استعدادهم لمقاومة هذه المحالفة اذا كانت خطبة الملك العادل لمتيلدة من شروطها

واذ ذاك نهض رئيس اساقفة صور وبدّد بحذقهِ المشهور سحب الاوهام التي ادخلها لوسيان عليهم وقال لهم ان مصلحة الدين اهم شيء تعنى بهِ متيلدة المعروفة بصلاحها وتقواها فهي احرص من غيرها على حفظ حقوق هذه المصلحة وصيانتها من العبث . وانهُ هو نفسهُ اول القائلين بان خطبة الملك العادل لها يجب ان نتوقف على رضاها وحدها

فوافقوا كلهم على كلامهِ هذا واتفقوا ان يرسلوا فرقةً كبيرة من جيشهم بقيادة رنشرد الى قيصرية للاستطلاع والوقوف على افكار الملك العادل من هذا القبيل . وخرج رنشرد يستعدُّ للسفر ولم يبطئ ان جمع الذين انتخبهم من الضباط والعساكر واطلعهم على قصدهِ وابان لهم ما يرجوهُ من مساعدة الملك العادل لهم . فضجوا جميعهم بهتاف الفرح والسرور واعلنوا ثقتهم بالظفر اذا كان الملك العادل معهم وليس عليهم

فدهش رنشرد من بلوغ شهرة الملك العادل الى هذا الحدّ واحفظهُ جدًّا ان يرى رجالهُ المنتخبين يضعون في الملك العادل ثقةً اعظم من ثقتهم بهِ . وكان قد عادى فيليب اغسطس ملك فرنسا لانهُ حاول ان ينازعهُ هذه الشهرة فكيف يسمح للملك العادل بها ؟ هذه الهواجس هاجت غيرتهُ وحسدهُ ومكّنت فيهِ العزم على الوفاء بوعدهِ للوسيان نكاية بالملك العادل

وذهب الى مخدع اختهِ متيلدة وكانت تصلي فدخل متهجماً بلا استئذان ولا اعتذار وقال لها والغيظ آخذٌ منهُ كل مأخذ :—

" اني ذاهب عما قليل الى قيصرية وسأحمل عليها بغتة وافتتحها عنوة وقد بلغني ان الامير الذي يحميها يميل الى الانضمام الينا . ولعلّ هذا الخبر بلغ رئيس الاساقفة منكِ كخبر عصيان الملك العادل على اخيهِ ولا يهمني الآن ان ابحث في هذا الموضوع بل يهمني ان استرجع بيت المقدس قياماً بما تركتُ بلادي لاجلهِ . وقد وعدت لوسيان انك تكونين زوجة لهُ وسأفي بوعدي هذا من غير ان اعلم او اطلب ان اعلم افكاركِ من هذا القبيل لأن بنات الملوك متقيّدات بالطاعة للملوك وعمل ما فيهِ مصلحة بلادهنّ "

" لعلك نسيت نذوري "

" لا دخل لها في الموضوع " قال هذا وخرج على الفور

الفصل التاسع والعشرون

اصطلاح الاخوين

كانت عيون اهل الشرق قاطبة متجهة الآن نحو قيصرية التي كان الملك رتشرد زاحفاً عليها من الساحل وقد بلغ غابةً قريبة منها تطل عليها وصلاح الدين قادماً من جهة مقابلةوقد وصل تحت اسوارها . وبلغ الملك العادل قدوم اخيهِ فاستعدَّ للاقاته

ولح الافرنج جيش السلطان صلاح الدين منتشراً في السهل فلجأُوا الى الغابة يرقبون مجرى الحوادث بعين القلق والاهتمام لكنَّ بعد المسافة حال دون تمكنهم من مشاهدة كل شيء بالتدقيق فلم يستطيعوا ان يروا السلطان زاحفاً نحو بوابة المدينة وعيناهُ تقدحان شرر الغيظ والحنق ولا رأَوا الملك العادل خارجاً لاستقبالهِ بخضوع اوجبهُ جلال السن والقدر

على انَّ صلاح الدين لم يحفل بهذه الطاعة من عاصي القاهرة بل عدَّها رهبة وخوفاً وقال لحرسهِ : —

" اقبضوا على العاصي ولا تبطئوا ان ترووا سيوفكم بدمهِ "

فتردَّد الحرس في اطاعة امرهِ وخفَّ رجال الملك العادل اليهِ واحدقوا بهِ من كل جانب واستعدوا لافتدائهِ بارواحهم . وحينئذٍ استلَّ السلطان حسامهُ واهاب بعساكرهِ ان يتبعوهُ وحمل على رجال الملك العادل الذين مع قلة عددهم اقدموا على صدّ هجمات السلطان وهجموا مدفوعين بقوة حب الذود عن حياة اعظم رجل يكرمونهُ على الارض وحملوا على عساكر السلطان المدفوعين بارادة صلاح الدين لا بارادتهم فاوقعوا فيهم التشويش والاضطراب واضطروا السلطان نفسهُ الى التقهقر

ولما رأَى الافرنج ذلك تحققوا عصيان الملك العادل على اخيهِ وهبُّوا لانتهاز هذه الفرصة السانحة وانقضوا على ساقة جيش صلاح الدين فمزَّقوها تمزيقاً واسروا منها عدداً كبيراً وعلى الفور اهاب الملك رتشرد بامير تارنتو واوعز اليهِ ان يركب في خمسة عشر الف مقاتل ويأْخذ الاسرى الى عكاء ويبشر الافرنج بفاتحة النظر والظفر ويبلغهم ان الملك العادل يحارب معهم وان راياتهم ستخفق في المساء على ابراج قيصرية . فاطاع امير تارنتو الامر وذهب بالاسرى مقيدين الى عكاء

وكان الملك العادل قد رجع الى المدينة ووقف على اسوارها فشاهد اعلام الافرنج خافقة في السهول ورأَى جيش اخيهِ مولياً الادبار . فناداهُ صوت الوطن والأَخاء نداءً لم يستطع

ان يسدّ أذنيهِ عن سماعهِ وخرج باسرع من لمح البصر يخترق الصفوف المتقطعة الاوصال حتى بلغ حيث كان اخوهُ يجتهد عبثًا وباطلاً في لمّ شعث رجالهِ تارة بالوعيد والتهديد وطورًا بالرجاء والتوسُّل وتارة بالقدوة والمثال وقال لهُ :—

" اي صلاح الدين دعنا نتحالف الآن حتى نستظهر على عدوّنا و بعد ذلك افعل بي ما يحسن في عينيك "

وانطلق — من غير ان ينتظر منهُ جوابًا — يجول بين العساكر ويدعوها الى التجمع والانتظام ويحضها على الاتحاد والانضمام وباقلّ من بضع دقائق احيا فيهم ما اماتهُ الخوف واعاد ما اذهبهُ الفشل

فتعجب صلاح الدين مما رأى وسار وراء اخيهِ يسأل نفسهُ أهذا هو الملك العادل الذي وشوا بهِ اليّ وعظموا جرم خيانتهِ في عينيّ ؟

وكان الملك العادل في اثناء ذلك قد صدم ميمنة جيش الافرنج صدمة ازاحتها عن موقفها واضطرتها الى النكوص . اما الميسرة فكانت قد حملت على الجيش الذي يقودهُ صلاح الدين ورأى رتشرد صلاح الدين فهجم عليهِ ودعاهُ الى التسليم ومدّ يدهُ ليأخذ بعنان جوادهِ فابتدرهُ صلاح الدين بضربة من سيفهِ فلقت ترسهُ شطرين فالقى بهما رتشرد الى الارض واخذ بعنان جواد خصمهِ وقال لهُ : —

" لا فائدة من المقاومة سلم للملك انكلترة الذي اصبحت اسيرهُ "

" لا اسلم حتى جثتي فان اخي يستردها منكم "

" اخوك معنا " . " سترى ! "

ثم صفر السلطان صفرةً مخصوصة كان متفقًا عليها هو واخوهُ . وما سمعها الملك العادل حتى عدا كالطائر الى حيث كان السلطان فأنقذهُ من يد مضايقهِ وهجم على خصمهِ هجمة لم يرَ قط اشد منها وانتشب بين هذين البطلين عراك شديد ادرك فيهِ كلٌّ منهما ان خصمهُ عنيد وعزمهُ يفلّ الحديد

وكان الملك العادل قد وجّه الى خصمهِ ضربة قاضية فخلا منها برشقاتهِ المعهودة واصابت جوادهُ فقتلتهُ على الفور فوثب رتشرد عنهُ الى الارض واستأنف الطعان على رجليهِ ثم عاجلهُ الملك العادل بضربة ثانية اطارت خوذتهُ عن رأسهِ وعرّضت ملامحهُ لعينيهِ فرأى فيها على الفور ما ذكرهُ حبيبتهُ فارتدّ حسامهُ الى جنبهِ ولم تعد يدهُ تطيعهُ على الضرب بهِ . فقال لخصمهِ : —

" ما اسمك ايها الامير الشجاع ؟ ان نفسي تحدثني وملامحك تشهد بصحة حديثها بانك قريبٌ اليَّ وعزيزٌ عليَّ "

" اني عدوّك . عدوّك الحنق الحاقد . فقد استظهرتُ على اخيك لكنك انتزعتَ انتصاري من يدي وغلبتني وابقيت عليّ . فلا يمكنك فعل شيء ينسيني مرارة هذه الاساءة "

" عرفتك الآن من انت . رتشرد المتعجرف ! واذا ساءك اخلاصي لوطني فمالي حيلة في ارضائك . على اني لا انفك أُكرم بك اعظم ملوك الافرنج وأُحب اخا تلك التي بذلت نفسي في سبيل انقاذها من مخالب الموت . "

ثم أبصر فرقة من جيش العرب قادمةً اليهِ فترجل عن جوادهِ واعطاهُ لرتشرد وقال لهُ :—

" انجُ بنفسك عاجلاً ما استطعت . اسلم لزوجتك ولشقيقتك لا تدفع نفسك الى التهلكة بلا اقلّ فائدة "

فاضطرَّ رتشرد على رغم أنفهِ ان يعمل بنصيحة الملك العادل وامتطى الجواد وفرَّ هارباً ودموع الغيظ تسيل من عينيهِ ونار الغضب تتقد في صدرهِ

وفي مساء ذلك اليوم دعا الملك العادل قواد جيشهِ وضباطهُ اليهِ وقال لهم :—

" هل تحلفون لي على القرآن الشريف انكم تعملون بما اقولهُ لكم ؟ " . " نعم نحلف "

" اذًا اقتدوا بي وارضوا بكل عقابٍ يقضي بهِ السلطان علينا "

ثم ذهب بهم الى حضرة السلطان وجثا امامهُ منكساً سيفهُ وقال :—

" الآن افعل بي يا صلاح الدين ما تشاء وأَطفئ لهب غيظك بسفك دمي . ولكن اذا كان ما فعلتهُ اليوم يخوّلني حق التماس شيء منك فلتمسي ان تعفو عن هؤلاء الرجال الشجعان لانهم قصروا في الحرص على طاعتهم لك في سبيل دفاعهم عن حياتي . ولكنها زلة بدرت منهم واني اضمن انهم لن يعودوا الى ارتكاب مثلها في المستقبل

ففعل هذا الكلام في فؤاد السلطان فعلاً عجيباً وناجاهُ صوت الحب الاخوي في داخلهِ فانساهُ كبرياءهُ وعظمة مقامهِ وفتح ذراعيهِ الى اخيهِ وضمهُ الى صدره ودموع الحنوّ تنهل من اجفانهِ. ثم خلا بهِ على انفراد فقصّ عليهِ الملك العادل بالتفصيل كل ما حدث في دمياط والقاهرة واوضح لهُ ان سفر الملكة الى عكاء باسم متيلدة كان حيلة او خدعة لم يعلم بها قبل حدوثها

ولما اخبرهُ بانهُ بعث اليهِ بتفصيل ذلك في حينهِ مع رسولين تعجّب السلطان وقال لهُ انهُ لم يأتهِ قطُّ رسولٌ منهُ وان انقطاعهُ عن مكاتبتهِ كما ظهر لهُ زادهُ ارتياباً منهُ وتصديقاً لشكوى المشطوب عليهِ

ثم اطلعهُ الملك العادل على ما بينهُ وبين متيلدة من الحب المتبادل وما قاساهُ في سبيل انقاذها من مخاطر البادية وقال في ختام ذلك : —

" ولكن اذا كانت طهارة هذه الفتاة النادرة وفضائلها الرائعة الباهرة انشأت فيَّ ميلاً الى مجاراتها في ما تطلبهُ مني فلم تستطع قط ولن تستطيع ابدًا أن تضعف امانتي لوطني واخلاصي لك . واني اعترف لك انَّ الحبَّ ساد بقوة عظيمة على قلبي ولكنك رايتَ اليوم انهُ لم يقدر ان يثني ذراعي عن تلبية الشرف "

فاجابهُ السلطان : —

" يلذُّ لي جدًّا ان أصفح واعفو ولكني لا أرى لك بعد الآن شبه ذنبٍ تحتاج الى عفوي عنهُ بل بعكس ذلك رأيتك قد انقذت جيشي وخلَّصت حياتي في ساعة صدور امري بقتلك . وذلك دين كبير لك عليَّ لا أرى لهُ وفاء الأ بهذه الطريقة : — إقبل مني عرش القدس ولتكن اميرة انكلترة شريكةً لك فيهِ ودعها تأتيك بعكاء مهرًا لها ويكفي هؤلاء الافرنج ان يروا ملكةً منهم جالسةً على عرش القدس فيرجعوا من حيث اتوا ويتركونا نعيش بسلام

الفصل الثلاثون

رجوع رتشرد

وبينما كان صلاح الدين يستعد لإرسال وفدٍ من قبلهِ يعرض على الافرنج صلحًا بشروطٍ مبنيَّة على ما عرضهُ على اخيهِ بلغ معسكر الافرنج نبأٌ مهتسرٌ — سابق لاوانهِ — فحواهُ ان رتشرد افتتح قيصرية

وكانت متيلدة وحدها في مصلاَّها عند ما دخل امير تارنتو عكاء يقود أسرى العرب وجوانب المدينة ترتجُّ مرددةً صدى هتاف النصر والظفر من جميع انحاء المعسكر . وما ابطأت ان رأت رئيس اساقفة صور داخلاً اليها يقول لها : —

" ابشري يا ابنتي فلقد انتصر اخوكِ على صلاح الدين . ولما برح امير تارنتو قيصرية كان جيش صلاح الدين لا يزال فاصلاً بين جيشنا وجيش الملك العادل ولكنَّ النصر كان حليف رجالنا فلا بدَّ ان يكونوا الآن قد اكملوا تمزيق شمل جيش السلطان وانضموا الى الملك العادل ودخلوا قيصرية ظافرين منتصرين فتعالي الى الملكة حيث ترين امير تارنتو وتقفين منهُ على تفصيل هذه الغلبة المجيدة "

فنهضت متيلدة على الفور وذهبت مع رئيس الاساقفة الى حيث كانت الملكة جالسة يحفُّ بها الملوك والامراء والعظماء وامير تارنتو يقصُّ عليهم تفصيل ما جرى ويطنب ببسالة رجالهم وحسن ابلائهم ويطريُ قوة رتشرد وصولتهُ وتدابيرهُ الحربية وحذاقتهُ العسكرية وينسب معظم الفضل في هذه النصرة المجيدة الى مخالفة الملك العادل لهم وانحيازهِ اليهم واذا باصوات يأسٍ ارتفعت من جوانب المعسكر وما كادوا يميلون اذانهم الى استماعها حتى رأَوا رتشرد داخلاً عليهم بعدتهِ الحربية والغبار يوشك ان يحجب رؤْيتهُ عن الابصار ومحيَّاهُ مغشيٌّ بظلام غضب شديد . فسأَلهُ رئيس الاساقفة عن هذا الرجوع المغاير لما سمعوهُ من انباء الانتصار وهل تعذَّر عليهِ الانضمام الى جيش الملك العادل فاجابهُ : —

" لا تذكرنَّ هذا الاسم في مسمعي بعد الآن – فهو علة فشلنا وخيبة املنا — لاني بعد ما هزمت جيش السلطان شرَّ هزيمة وضمنت لنفسي امر صلاح الدين انقضَّ الملك العادل علينا انقضاض النيازك فانتزع اخاهُ من يدي واضطرَّ رتشرد و ياللعار ان يركن اول مرة في حياتهِ الى الفرار ! وقد اذلني بل زاد في إذلالي بان عفا عني وأَسقط باحسانهِ اليَّ حقَّ قلع العينين اللتين شاهدتا عار هربي وذلَّ انكساري "

فاجابهُ لوسيان : —

" وكأَني بك غير واثقٍ بما عندي — انا اخاك في الجهاد — من الكفاءة والاستعداد لأَنْ اضحي نفسي في سبيل الذود عن شرفك ؟ الستَ محاطاً باصدقاء اوفياء يحلفون معي انهم لا يغمدون سيوفهم حتى يرغموا الموت على أَن يطهر الارض من وجود الرجل الذي تحدثهُ نفسهُ الاثيمة بالتباهي باكراه رتشرد ملك انكلترة على الفرار ؟ "

وكان هذا التملق أَشبهَ بوقيدٍ أُلقي على نار غضب رتشرد فزادها احتداماً واضطراماً . فقبض على يد لوسيان وضغطها من شدة هياجهِ ضغطة أَلمتهُ وقال : —

" في يديك ايها الصديق الباسل استودع شرفي — شرف رتشرد انكلترة — واني لأُعطينَّ شقيقتي لقاهر الملك العادل "

فنهض الملوك والامراء الذين طمحت نفوسهم الى متيلدة ورفعوا سيوفهم وحلفوا على ان كلاً منهم سيجعل قهر الملك العادل نصب عينيهِ

اما متيلدة فعند ما سمعت وشاهدت كل ما تقدم ايرادهُ خانها الصبر والجلد وفارقها الرشاد والصواب فسقطت مغشياً عليها . فأَمر اخوها ان تحمل الى غرفتها واوصى رئيس الاساقفة بان ينذرها بعد إفاقتها بوجوب اطاعتها لاوامرهِ اطاعة كاملة

الفصل الحادي والثلاثون

متيلدة ورتشرد

اذا فوجئَ القلب برزيئةٍ اصابهُ منها في باديء الامر جمودٌ يفقدهُ الشعور بألمها ولكنهُ لا يلبث ان يعقبهُ ردُّ فعلٍ شديد ينصب عليهِ انصباب السيل ولا يعود يرى لهُ وسيلة للتخلص منهُ بسوى الموت

هكذا كانت حالة متيلدة المنكودة الحظ حين افاقت من اغمائها ومثّلت لعينيها ذلك المشهد المخيف الذي رأت فيهِ الملوك والامراء يتحالفون ويغلظون الايمان على قتل حبيبها فانها عانت من هولهِ جهد بلاء لا ينقذها منهُ سوى راحة القبر . لكنَّ اليمين التي أقسموها على الفتك بالملك العادل قضت عليها باختيار البقاء في هذه الحياة حتى تسعى جهدها في دفع الاذى عنهُ او تخفف عليهِ مرارة تجرّعهِ بالاشتراك فيهِ

وقد توسّلت الى الملكة والى رئيس الاساقفة ان يأذنا لها في الاجتماع بأخيها لكي تلتمس منهُ ان يحلَّ الامراء من اليمين التي حلفوها فلم يستصوبا رأيها هذا واوصوها بالصبر والتأني وانتهاز فرصة اخرى لأن اخاها باقٍ في معظم هياجهِ واضطرابهِ فلا يقع استشفاعها عندهُ موقع الرضى والقبول وقال لها رئيس الاساقفة : —

" اقبلي نصحي واعملي بمشورتي ولا تقدمي على شيء بالطيش والرعونة فلن يضيع سعيٌ مع التأني المقرون بالحكمة والفطنة . اصبري حتى اكلّم اخاكِ بل انتظري حتى ارى الملك العادل نفسهُ "

" انتَ يا ابي ؟ "

" نعم انا . فانَّ تصرُّف الملك العادل في قيصريَّة احزنني لكنهُ لم يقطع املي منهُ . فسأذهب حالاً الى قيصرية واجتمع بهِ واقف منهُ على حقيقة ما ينويهِ بخصوصك "

واذ ذاك دخل حاجب من قبل رتشرد يدعو الملكة اليهِ فذهب رئيس الاساقفة معها ولما وقعت عين الملك عليهِ ابتدرهُ بالسؤال : —

" هل حضضت اختي على طاعتي ؟ هل هي مستعدة الآن ان تخضع كل الخضوع لارادتي ؟ "

" لقد نهيتها نهياً مطلقاً عن ابداء شيء قبل رجوعي "

" الى اين انت ذاهب ؟ "

" الى حيث يقدّر لي الله "

وفي مساء ذلك اليوم ارتدى رئيس الاساقفة ثوب كاهنٍ بسيط وانطلق في طريق قيصرية

وكانت متيلدة كثيرًا ما تذهب في المساء الى شاطئ البحر مصحوبةً بنسائها لتستنشق الروائح العطرية المحمولة على اجنحة النسيم. وفي غالب الاحيان كانت تذهب الى قبر مونمورانسي حيث تنفّس كربها وتمزج حزنها بذكرى ملؤها الاكرام والاحترام لصاحب ذلك المقام وتسجم عبرات سخينةً تجفّف بها اضطرام نار احزانها . وبعض الاوقات كانت تقف على الربوة المدفون ذلك الامير الكريم في سفحها وتطلق عنان نظرها الى البحر فيسبح بها على عبابهِ ويخترق مداهُ الواسع و يبلغ بها الى الدير الذي استبدلت بسلامهِ وراحتهِ وامنهِ اضطرابات العالم ومخاوفهُ وتجاربهُ ومع ذلك لم تأسف على هذه المقايضة ولا رأت فيها شيئًا من الغبن والبخس . ففي الدير كانت ايامها اشبه بلآلئ سقطت من يدها من غير ان تشعر بها كما ينبغي اما هنا فادركت قيمتها تمامًا . لان الحزن يرقّي فينا عواطف القلب و يشحذ قوى العقل لكن الفرح يقضي على هذه بالكلال وعلى تلك بالخمول والانحطاط

و بعد انطلاق رئيس اساقفة صور تجنّبت متيلدة فرص الاجتماع باخيها ولم يبالِ هو ايضًا بان يراها بل كانت كل افكارهِ موجّهة الى التأهب والاستعداد وانتظار الوقت المعيّن لمحاصرة قيصرية بذاهب الصبر . وكان من يوم الى آخر يُغير بفرقةٍ من رجالهِ على اطراف معسكر السلطان ويرجع محمّلاً بالاسلاب والغنائم

وكان لوسيان يصحبهُ في هذه الغزوات ولا يفارقهُ دقيقةً وكانا كلاهما بقلبٍ واحد ورأيٍ واحدٍ يتجلّان في الاستعداد لمدّ مطار الحصار على قيصريّةً

وفي مساء اليوم المعيّن لهذه المعركة كانت الملكة ومتيلدة جالستين ساكتتين تمثّلان اهوال الغد بدموع الحزن والاكتئاب فدخل الملك عليهما ورآهما تبكيان فقال لهما موبخًا :—

" ماذا يبكيكما ونحن نتوقع بفروغ صبر طلوع شمس الغد حين اقتحم غمار الوغى وبدماء خصمي اغسل العار الذي لطخ بهِ اسمي "

فانطرحت متيلدة عند قدميهِ وقالت : —

" آه يا اخي أليس بين سجاياك الحسان موضع لذكر الفضل والاعتراف بالاحسان "

" لا تنسي ان الأمل انقطع من الملك العادل منذ سفك دماء رجالنا امام قيصريّةً "

" واني من ذلك اليوم مؤرّخةٌ شكري للملك العادل لإبقاءهِ على حياة اخي ! "

واذ ذاك دخل لوسيان ومعهُ عدة امراء والتمس من رنشرد ان يأذن للابطال الواقفين خارجاً في تأدية واجب الاحترام لأَسد انكلترة

فرجعت متيلدة الى مخدعها مثقلة بالهموم والاحزان وقضت ليلتها بهواجس حكّم فيها السهاد ومنع عنها الرقاد فلم تنم الاَّ دقائق متقطعة أفزعتها فيها الرؤى وازعجتها الاحلام . فلامت نفسها أَشدَّ اللوم على تقصيرها في اطلاع اخيها على العهد الذي بينها وبين الملك العادل . وما تصرَّمت انفاس الليل وبدت تباشير الصباح الاَّ كانت قد عزمت عزماً باتاً على الاجتماع بأخيها قبل زحفهِ على قيصرية وابلاغهِ حقيقة الامر فدخلت خيمتهُ وهو يستعدُّ للانطلاق وانطرحت عند قدميهِ وكان عندهُ ملك القدس ودوق بافاريا ودوق برجندي فاجفلوا من فعلها هذا وخفُّوا اليها يرومان إنهاضها فتشبثت بركبتي اخيها وقالت :—

" حنانيك يا اخي اسمعني . رحماك اصغ اليَّ . فقد عرض لي حلم مخيف أَيقظني من نومي ثلث مرات . ظهر لي الملك العادل موبخاً ايَّاي على تقاعدي عن السعي في إنقاذهِ من مخالب الموت حين كان ذلك في امكاني . وقد وعدتَ قاتلهُ بأن يكون خطيباً لي وانا — انا قد نذرتُ اني الى الابد اكره ذلك الذي يمدُّ يدهُ لاغتيال الملك العادل الشريف ! "

" متيلدة ! ما هذا الذي تجسرين على ذكرهِ الآن في مسمعي ؟ "

" لم يعد لي طاقة على السكوت . سأبوح بسرّي لخلاص حياة من أُحبُّهُ . فقد بذل الملك العادل حياتهُ في البادية لينقذ حياتي . واشرفنا كلانا على الموت . وفي تلك الدقيقة الرهيبة كان الله وحدهُ مرشدي ومعيني . ولما وعدني الملك العادل بان ينضمَّ اليَّ وعدتهُ انا بان اكون لهُ واشهدت الله عليَّ بان لا اكون زوجة لغيرهِ . والآن قل لي يا أَخي هل يسمح لك عدلك ان تعد بأني اكون خطيبةً لقاتل خطيبي ! "

فلم يحرِ الملك جواباً بل انطرح على كرسيٍ وواری وجههُ بيديهِ . فدنا لوسيان من متيلدة وقال لها :—

" لقد جرحت قلبي جرحاً لا التئام لهُ . ولكن اذا كان حزني لا يهمُّك أَفلا تبالين بالحزن الذي ادخلتِهِ على قلب اخيك الشريف بقسمٍ باطلٍ يحلُّهِ البابا منهُ بسهولة "

فصاح رنشرد ناهضاً من مجلسهِ :—

" أَصبت أَصبت . ان ضعفها تغلَّب فأَقسمَتْ هذا القسم الباطل ووعدت الملك العادل وعداً سداهُ الجهل ولحمتهُ الطيش وانا المسؤول عن السعي في حلّها منهُ اذا كان عملها هذا لم يحطّ من قدرها في عينيك يا صديقي لوسيان وكنت مستعدًّا ..... "

وحال دون تتمة حديثهِ دخول دوق نورفوك قائد حرسهِ يقول : —

" خرج حرس طليعة الجيش حسب امر جلالتك بقيادة آدم دي تورين وما ابعدوا قليلاً حتى ابصروا جيشاً من العرب مقبلاً عليهم ثم تقدم منهُ رسولٌ واعلن قدوم وفدٍ عظيم من لدن صلاح الدين لعرض شروط الصلح وهذا الوفد مرسل على الخصوص الى جلالتك "

فنظر رتشرد الى ملك القدس ودوق برجندي ودوق بافاريا نظرة استفهام عن غرض صلاح الدين في إرسال هذا الوفد فصاح لوسيان بغيظٍ هاجه عروض هذا المانع الجديد في سبيل آمالهِ وامانيهِ وقال : —

" مهما يكن من فائدة الشروط التي يعرضها فاني ارفضها اذا كانت مشفوعة بطلب الاميرة متيلدة لاخيهِ "

فاجابهُ دوق برجندي مقطباً : —

" ولكن لا يخفى على جلالتك ان ارادة ملك القدس ليست شريعة لنا . وان اعتبار مصالح الدين أولى بالمراعاة من اهوائك واميالك . وبكلمة اقول ان حق النظر في مقترحات صلاح الدين والجواب عليها انما هو لمجلس الامراء المتحالفين لا لسواه "

وفيما كان ملك القدس يستعد للجواب على هذا الاعتراض بأخشن منهُ واغلظ توسّط دوق بافاريا وقال : —

" من الخطإِ الفاضح ان ننساق الى الانقسام والانشقاق قبل الوقوف على ما يروم صلاح الدين ان يعرضهُ علينا ! فلننتظر ريثما نقف على هذه الشروط وبعد ذلك نحكم فيها بما يوافق مصالحنا "

فأرضى كلامهُ الفريقين وامر رتشرد دوق نورفوك ان يدعو نخبة الامراء والضباط للاستعداد لاستقبال وفد صلاح الدين واخذ اختهُ بذراعها واخرجها من خيمتهِ

الفصل الثاني والثلثون

شروط صلاح الدين

وكانت متيلدة في شوقٍ لا مزيد عليهِ الى الوقوف على الشروط التي يعرضها صلاح الدين وكان الخوف والرجاء يتنازعانها فتارةً تخشى ان يكون السلطان قد غيّر افكار اخيهِ وثناهُ عن الوفاء بوعدهِ لها وطوراً ترجو ان يكون من جملة هذه الشروط تصريحهُ باستعداد اخيهِ للوفاء بوعدهِ لاميرة انكلترة

وفيما هي غارقة في بحار التأملات دخلت عليها هرميون كونتس ليستر وقالت لها انها رأت بين رجال الوفد واحداً من اشد اتباع الملك العادل إخلاصاً لهُ ولم تستطع ان تكلمهُ لانَّ الملك رتشرد منع كل اتصال بين الافرنج ورجال الوفد قبل نظر مجلس الامراء في الشروط ثم استأنفت كلامها قائلةً :—

" ولكن على رغم التشديد في كتمان شروط السلطان عرف رجالنا بعضاً منها وقيل ان رئيس الوفد يطلب سموك خطيبةً لاخي السلطان الملك العادل وقد اجتمع بالمجلس منذ ساعتين لكنَّ الحقيقة لم تعلن بعد "

ثم خرجت هرميون ودخلت على اثرها برنغاريا ومالت على متيلدة تقبلها وتقول لها : —

" احييك باسم ملكة القدس ! "

" اني اكره هذا اللقب الاَّ من فمكِ . فما من قوة في الارض تستطيع ان تكرهني على مشاركة لوسيان في هذا العرش ! "

" ولا مع الملك العادل الذي يملك هذا العرش بحق الغلبة والفتح ؟ "

فغشيت صفرة الخوف محياها لأنها لم تصدّق ان الزمان يسعدها بتحقيق امنية كهذه . فطوّقتها الملكة بذراعيها وقالت لها : —

" لا يستحيل شيءٌ على المحبة لانها كالايمان تمنح صاحبها قوة عمل العجائب وصنع المعجزات . مالك ساكتة ؟ أيستحيل على العناية الالهية ان تغيّر قلوب الملوك وتمهّد سبيل اتحادك بمن يحبهُ نفسكِ ؟

" هل وفى الملك العادل بوعدهِ لي ؟ "

" لا أعلم بعدُ شيئاً عن هذا الامر . ولكن خلي عنكِ الآن اهتماماً كهذا وخذي اقرإي الشروط التي يعرضها صلاح الدين على ملوكنا "

ثم اعطتها رقاً مكتوباً عليهِ ما يأتي :—

" باسم الله الواحد الازلي نحن السلطان الاعظم حامي كلمة الحق وبيضة الايمان سلطان المسلمين وخادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة صلاح الدين ابن ايوب نعلن ونصرّح لامراء الافرنج المحالفين اننا انعمنا على اخينا الامير النبيل الملك العادل بمملكة القدس وكل يهوذا وعدة مدن كبيرة من بلاد الشام . ولما كانت هذه الاملاك كلها على عظمتها وسمو شأنها لا ترضيهِ ان لم تشاركهُ فيها اميرة انكلترة تقترح حصول هذه المشاركة رهناً او عربوناً للسلام المستديم بين الشرق والغرب . وقد رضينا ان تستوي ملكة من الافرنج على عرش القدس

فتحمي بوجودها ونفوذها اخوتها في المعتقد وتصون مصالحهم وتوطد دعائم الصداقة والمحبة بين المسلمين والنصارى · وقد سمحنا لها بكنيسة القيامة لتقيم فيها شعائر دينها وأذنّا لها ان تعيد بناء الاديرة الخربة وتمنح بني شعبها حريّة زيارة بيت المقدس

" ونطلب مقابل ذلك ان يكون مهر الاميرة متيلدة عكاء التي افتتحها الافرنج منّا . هذه شروطنا نقترحها بسلامة نية وحسن طوية فاذا لقيت قبولاً كانت اساساً لصلح وسلام دائمين وان عاد الينا الوفد بالرفض والاباء لقيناكم في ساحة الوغى والله نصير الحق . فماذا تريدون أسلماً ام حرباً ؟ وها نحن ننتظر جوابكم وفي يدنا الواحدة السلام اذا وافقتمونا عليهِ وفي الأخرى الحسام اذا احوجتمونا اليهِ "

وبعد ما قرأتها تكراراً سألت الملكة : —

" هل علمتِ ماذا كان جواب المجلس على هذه الشروط ؟

" لقد انشأت بينهم اضطراباً وهياجاً لا مزيد عليهما · ومعظم الامراء استحسنوها لكن لوسيان رفضها رفضاً مطلقاً وايَّدهُ رتشرد في ذلك فعلا الضجيج وساد الشغب ومسَّت الحاجة الى حضور رئيس اساقفة صور · وفي اثناء الاجتماع دنا لوسيان من رتشرد وكلَّمهُ على انفراد ثم استرعى السمع وقال : —

" " يُطلب مني الآن ايها الامراء ان اتخلَّى للملك العادل عن مملكتي وعن الاميرة التي وعد بها اخوها ملك انكلترة واني مستعدٌ لهذا التخلّي اذا كانت مصلحة الدين تقتضيهِ ولذلك اطلب عقد مجلس اساقفة برئاسة نائب البابا للنظر في شروط صلاح الدين فاذا حكم هذا المجلس بوجوب ترك القدس للملك العادل واعطائهِ اميرة انكلترة فوقها لم يبقَ لي سبيل للاعتراض "

" وقد تكلَّف لوسيان الاعتدال جهدهُ حتى حمل الاكثرين على قبول اقتراحهِ هذا وعزموا ان يعرضوا مطاليب السلطان على مجلس الاساقفة ويسألوا السلطان صلاح الدين قبول هدنةٍ ريثما يجتمع المجلس وينظر في الشروط "

فسألتها متيلدة : —

" هل تظنين ان إرسال هذا الوفد قد نشأ عن وجود رئيس الاساقفة في قيصرية ؟ "

" لم يذكروا شيئاً عنهُ ويظهر انَّ الوفد برح قيصرية قبل وصولهِ اليها "

ثم دخل رتشرد ووقف أمام أُختهِ وقال لها : —

" إعلمي يا متيلدة اني لم أُغادر عرشي في اوربا وأَجيء الى هنا الّا لكي استرجع القبر

المقدس من ايدي العرب . ولما وصلت الى جزيرة قبرس عرفت لوسيان ورثيت لنكد طالعهِ وحلفت لهُ أن اردَّ عرشهُ اليهِ وهذه اليمين زادها رسوخاً وتوطيداً ما جدَّ بيني وبينهُ من الصداقة المحكمة العرى والاتحاد على هذا الجهاد . فماذا يطلبون مني اليوم ؟ ان احنث بقسمي واهجر صديقي في ساعة ضيقهِ وأرضى بأن يُسلَب حقهُ ويعطى لغيرهِ غنيمةً باردة وفوق هذا كلهِ ان نعيد لهم عكاء التي افتتحناها بدمائنا وعلاوة على ذلك ان تصير أُختي — أميرة من دم البلانتاجنتيين الملوكي — زوجةً لأمير عربي فهل يمكنني ان انظر الى هذه الشروط من غير ان أرى ما فيها من الغضِّ بكرامتي وشرفي ! أيصحُّ ان يذاع في اطراف اوربا ان رتشرد منتهى آمال الافرنج ومبعث ذعر الشرق دان صاغراً لاول شرط اشترطهُ عليهِ العرب !

" على انَّ لوسيان رضي امراً ما كنت قطُّ لأرضاهُ لولاهُ وهو أن تُعرَضَ هذه الشروط على مجمع الاساقفة ومرادي بهذا ان تظهر فضائل صديقي ظهور الشمس في رائعة النهار ويعلم الجميع ما هو عليهِ من عزة النفس وكرمها وسعة الصدر ووفرة الحلم وإنكار الذات . أرأيتِ كيف استعدَّ لانكار حقوقهِ وتضحيتها في سبيل مصالح الدين اذا وافق الاساقفة على ذلك؟ ألا يُعلِّمكِ هذا انَّ رفض نذوركِ في سبيل الصداقة والشرف افضل جدًّا من رفضها لداعي حبِّ انشأهُ الطيش ؟ ولا تنسي اني الى الآن لم استخدم مالي عليكِ من السلطة في حملكِ على إطاعة امري "

وانقطع رتشرد عن الكلام منتظراً من أُختهِ جواباً لكنها لاذت بأطراف الصمت ولم ترَ من الحكمة ان تصرّح بافكارها في مثل هذا الوقت ولاحظت الملكة ان رتشرد يتألم من هذا السكوت فاخترقت حجابهُ وسألتهُ هل يعقد الاساقفة مجمعهم قبل رجوع رئيس اساقفة صور فاجابها بشيء من التهكم : —

" انكما اعلم بالوقت الذي تقتضيهِ رسالتهُ ولكننا عزمنا أن ننتظرهُ ثمانية ايام فقط حتى اذا لم يجيءْ في غضونها انعقد المجمع في غيابهِ "

ثم التفت الى اختهِ وقال : —

لقد ارتكبتِ خطأً عظيماً بوعدكِ للملك العادل . على أنَّ محبتي لكِ تقضي بأن اصفح عنكِ هذه المرة على رجاء انك لا تعودين الى ارتكاب مثلهِ مرة اخرى فلا يبقى محل للصفح والمغفرة . ولي رجاء انكِ تحضرين حفلة استقبال الملكة في هذه الليلة "

فوعدتهُ بذلك فخرج وخرجت الملكة على اثرهِ

وكان بين المجتمعين عند الملكة أُناسٌ أُعجبوا بالملك العادل وأُميرة انكلترة فأظهروا في حديثهم علامات الرضى والاستحسان لحصول هذا الاقتران وآخرون حملهم حبُّ الاستطلاع على محاولة معرفة افكار متيلدة من هذا القبيل . والنساء نظرت اليها بعين الغيرة والحسد ورتشرد بشيء من الاستنكار والاستخفاف وبرنغاريا بعين الحنو والشفقة والامراء الذين علّلوا نفوسهم بامكان الحصول عليها بعين الغيظ والحنق . اما الاساقفة فسكتوا سكوت الوقار وأبوا ان يصرحوا برأيهم وأبدوا على وجوههم علامات التحفظ والكتمان التي جعلوها على شفاههم

اما لوسيان فاستند الى ذراع الكرسي الذي جلست عليهِ متيلدة ولاحت عليهِ لوائح الكآبة والحزن لكنهُ في الحقيقة كان مسرورًا بحصول النتيجة التي ارادها من التظاهر بالكآبة وتكلُّف العفة والاعتدال اذ رأى انَّ الجميع مؤاسون لهُ وعاطفون عليهِ

وحقًّا انهُ لم يكن قطُّ من رجل اقلّ من لوسيان اتصافًا بعظمة النفس الفطرية كما انهُ لم يكن انسان ادرى منهُ بفائدة تكلف هذه العظمة او استخدام صورتها في بعض الاوقات ولم تكن هذه اول مرّةٍ تكلف فيها إنكار النفس تذرُّعًا لنيل الكثير مما ادَّعى انهُ ضحَّاهُ كلَّهُ

فقد رأى في مجلس الامراء انَّ اكثرهم ضدَّهُ وانَّهُ اذا أصرَّ على رفض شروط صلاح الدين يزيد عدد مضادّيهِ ويصبح رتشرد وحدهُ غير قادر على مخالفتهم كلهم . فعمد الى الحيلة وهي أمضى سلاح يتقلدهُ عند مسيس الحاجة واوهم الامراء انهُ مضحٍّ مصالحهُ الخصوصية في سبيل المصلحة العامة وقد علم يقينًا ان اقتراح عقد اجتماع مجمع ديني يقتضي تأخير المسألة وهذا التأخير من مصلحتهِ لانهُ يمكّنهُ من كيد المكايد ودسّ الدسائس

على انَّ للقلب النقي الطاهر خاصَّة التمييز بين الصدق وصورتهِ فان متيلدة ظلَّت على رغم تملق لوسيان لها تشعر بعامل سريّ ينفّرها منهُ ويبعد قلبها عنهُ حتى انهُ لما كان جالسًا بقربها اراد استعطافها بقولهِ :—

" لو ان الملك العادل طلب مني عرشي فقط وعلمت ان محبتي لكِ تقع موقع القبول لديكِ لمنحتهُ سؤْلهُ فرحًا مسرورًا وتنازلت لهُ حتى عن حقي فيكِ "

فاجابتهُ :—" كيف يطلب منك عرشًا يملكهُ هو وقلبًا باقيًا في قبضة يدي ؟ "

الفصل الثالث والثلاثون

زيارة الملك العادل لمتيلدة

وفيما كانت متيلدة جالسة في مصلأَها تراجع في ذهنها حوادث حفلة قبول الملكة دخلت كونتس ليسستر وقالت لها :—

" في الباب عربيٌ يلتمس المثول لديكِ لانهُ حامل اليكِ رسائل من الملك العادل "

" ادخليهِ حالاً لانهُ قد امسي المساء وبعد بضع دقائق تقفل ابواب عكاء ويحكم بالقتل على كل عربيّ يوجد داخلها بعد الساعة المعينة "

فخرجت هرميون وعادت على الفور بجنديّ عربيّ متنكرٍ تنكرًا يدعو الى الاشتباه والارتياب ثم اومأت متيلدة الى هرميون فخرجت واذ ذاك اماط الغريب لثامهُ عن محياهُ وقال :—

" هوذا انا يا حبيبتي ! "

" أفي حلم انا ؟ الملك العادل ؟ هل هذا ممكن ؟ "

ثم اخذتها دهشة كادت تذهب بصوابها لانها لم تتوقع حتى في الحلم أن تراهُ في ساعة كهذه . وبعد ما تغلبت على دهشتها وامتلكت قوة النطق سألتهُ :—

" قل لي بالعجل ماذا جاء بك الى هنا ؟ هل رأَيت رئيس اساقفة صور ؟ هل نجحت رسالتهُ واستجاب الله صلاتي ؟ "

" لم افهم مرادك ولا رأَيتُ رئيس الاساقفة فهو ليس في قيصريَّة . والحبُّ وحدهُ قادني اليكِ . فلا يعلم احدٌ غيركِ بوجودي لان اخي ما كان قطُّ ليسمح بمجيئي الى هنا ، لكنهُ لم يعد في إمكاني ان اصبر على فراقكِ فعزمت ان اراكِ على رغم المخاطر التي تتهدَّدني فجئت متنكرًا بزيّ جنديّ بسيط وصحبتُ الوفد على غير علم حتى من رئيسهِ وفي ظنّ اخي اني الآن في عسقلان ويافا أتعهد حصونهما "

" هل سمعت بجواب الامراء لوفد السلطان ؟ "

" عرفت ان لوسيان الذي يعلّل نفسهُ بالحصول عليك ارتأى عرض الشروط على مجمعٍ دينيّ وان رتشرد مؤيد لهُ في ذلك وربما تمكّن من حمل الاساقفة على الحكم بما يوافق غرض لوسيان فهل تسلمين بذلك ؟ "

فاخذت يدهُ بيدها وما كادت تفوهُ بما يفيد تجديد عهدها لهُ وتسمع منهُ تكرير وعدهِ لها حتى دخلت هرميون بسرعة لا مزيد عليها وقالت : —

" لقد أُغلقت ابواب المدينة الآن ويقول ملاك القدس انهُ بينما كان يجول مفتشاً حول الاسوار التي يشرف عليها مصلاكِ سمع صوت غريبٍ عندكِ وقال لهُ الحرّاس القيمون خارجاً ان جندياً عربياً دخل الى هنا ولم يخرج بعد . وقد جاء لوسيان لينظر في الامر وهو يطلب الدخول ليرى هذا العربي الذي تجاسر على مخالفة القوانين والبقاء في عكاء بعد الوقت المعيَّن "

فقالت متيلدة للملك العادل : —

" اخرج مع هرميون واذا لقيك لوسيان فقل لهُ انك تجهل القانون الذي يمنع وجود العرب في المدينة ليلاً واسألهُ العفو باسمي واحذر كل الحذر فلا تدعهُ يعرفك من انت . واذا حمي غضبهُ عليك وغاظك بوعيد وتهديد فتحمَّل ذلك كلهُ لاجلي ولذ باطراف الصمت والسكوت وساجعل سكوتك مقياس محبتك لي "

فوعدها ذلك وخرج مع هرميون . وعند الباب الخارجي لقيهُ لوسيان ومعهُ شرذمة من الجند وصاح بهِ : —

" كيف تجاسرت على البقاء في عكاء — في غرفة اميرة انكلترة — الى هذه الساعة ؟ الا تعلم ان عقوبة جرم كهذا الموت ؟ "

" اني جاهل للقوانين وقد جئت من قبل الملك العادل برسائل الى الاميرة متيلدة "

" ولاجل الملك العادل فقط ساوقع بك هذه العقوبة وأُريهِ شدة كرهي لهُ ! "

" لا أُشير عليك بذلك مخافة ان شجاعتهُ التي لا تعرف الخوف تجيء بهِ الى هنا فيريك وانتَ بين اصدقائك واعوانك كيف يعامل الذين يغيظونهُ بمثل هذا الكلام القبيح والادعاء الفارغ "

" وهل زعمتَ ايها العبد الزنيم اني أصبر على وقاحة وغدٍ نظيرك ؟ اقبضوا عليهِ ايها الحرّاس وخذوهُ مكبلاً بالقيود وزجُّوهُ في غيابة السجن حتى يجيء سيدهُ الذي يهدّدنا بهِ ! "

" اذا كنتَ مرتاحاً الى امتشاق الحسام ولا يهولك شرب كأس الحمام فاني مستعدٌّ لمنازلتك تعالَ ان الظلام لن يحجبك عني ولا يعوق حسامي عن ان يجد منفذاً الى فؤادك ! "

" وهل تظنُّ ان شرفي الملوكي يسمح لي بمنازلة رجل دنيء نظيرك ؟ خذوهُ ! اذهبوا بهِ ! "

فدنا الملك العادل من لوسيان وكلّمهُ سرّاً : —

" اني انا الملك العادل وقد اطلعتك على ذلك حرصاً على كرامة التي تحالفنا على احترامها والامانة لها. وما اظنك تبخل بكتمان سرٍّ استودعهُ شرفك وسأرى من احتفاظك بهِ مبلغ استحقاقك لرتبة الامارة واحترام خصمك الذي لا يكرهك اقلّ من كرهك له ! "

ان ثقتك بي جرّدتني من سلاحي واحترام اميرة انكلترة ضمن لك سلامتك ولكن لا يخطرنّ ببالك انك تنجو من عقابي فيما بعد

" لا أُطيل شقة انتظارك . لاقني غداً عند المغيب في غيضة الجميز قرب الشاطئ مقابل بوابة الناصرة "

فالتفت لوسيان الى الحراس وقال لهم ان هذا الجندي اوضح الاسباب الكافية التي اضطرتهُ الى مخالفة القوانين وامرهم ان يخرجوا بهِ خارج بوابة المدينة ويطلقوا سبيلهُ

وكانت هرميون بمرأى ومسمع من كل ما جرى فذهبت واخبرت متيلدة بذلك فلم يخفَ عليها السرّ الذي استودعهُ الملك العادل لوسيان ولاجلهِ سمح لهُ بالذهاب وتوقعت حدوث نزال بينهما أوجست فيهِ خوفاً شديداً على حياة حبيبها وقضت ليلتها تتقلّب على سريرها مفكرة في طريقة تتخذها لدفع هذا الخطر عنهُ

وعند طلوع الفجر ارسلت الى اخيها تلتمس منهُ ان يأذن لها في ان تجعل ذلك اليوم عيداً تحتفل بهِ بالهدنة التي أُعلنت بين جيوش العرب والافرنج وان يشرّف الاحتفال بحضورهِ في مقدمة ملوك الافرنج وامرائهم وعظمائهم

فأجابها الى ذلك وأوصى بأن يكون الاحتفال مزداناً بجميع مظاهر الأُبهة ومجالي العظمة ووعدها بأنهُ سيكون اكبر معين لها على اكرام المدعوين

وفي الساعة المعينة اخذ المدعوون يدخلون السرادقات النفيسة التي امر رتشرد بضربها وفق مشتهى اختهِ على شاطئ البحر . وقبل نهوضهم عن المائدة الفاخرة التي أُعدت لهم وقفت متيلدة وقالت والخجل مورّد وجنتيها :—

" باذن اخي الملك التمس من جميع الامراء الذين على هذه المائدة ان يمنحوني طلبة "

فأجابوها بصوت واحد انهم مستعدون لاطاعة امرها بلا شرط ولا قيد . فقالت لهم

" التمس من جلالة الملك اخي ومن جميع الامراء البواسل الذين وعدوا باجابة ملتمسي ان جميع اسلحة القتال على اختلاف انواعها توضع جانباً مدة الهدنة المعقودة بيننا وبين صلاح الدين وان جميع الالعاب الحربيّة والتسالي العسكريّة تجري من غير استعمال اسلحة قاطعة وانهُ لا يؤْذن لواحد منكم بأيّة علة كانت ان يتعدى حدود الهدنة بمعناها الحقيقي ويدعو غيرهُ

— او يقبل من غيره دعوة — الى نزال مميت سواءٌ كان ذلك بين الافرنج بعضهم مع بعضهم او بين الافرنج والعرب "

فنكس الامراء سيوفهم وحكموا بالجبن والخيانة على كل من تحدّثهُ نفسهُ بتعدّي هذا الامر من غير اذن الاميرة . وكان لوسيان آخر من دنا منها وقال لها سرًّا : —

"كم يؤلمني ان أُطيعكِ اليوم ! "

فشعرت متيلدة بصعوبة هذا الامر عليهِ وقالت لهُ : —

" ثق اني شاكرة لك "

الفصل الرابع والثلثون

قدوم صلاح الدين الى عكَّاء

وعند ما توارت شمس ذلك اليوم بالحجاب كان الملك العادل في غيضة الجميز ينتظر مجيء لوسيان فجاءهُ ممتطيًا جوادهُ ولكنهُ اعزل من غير سلاح لا يحمل شيئًا من عدة الحرب سوى ترسٍ ورمحٍ من غير سنان فدهش الملك العادل من مجيئهِ على هذا الاسلوب وسألهُ عن السبب فقال ان متيلدة فاجأَتهُ على حين غفلةٍ ونالت منهُ وعدًا بالكف عن القتال مدة الهدنة . لم يقل لهُ انَّ الامراء كلهم وعدوها هذا الوعد ايضًا بل أَوهمهُ انها فعلت ذلك لشدة حرصها على سلامتهِ . فقال لهُ الملك العادل : —

" اعلم يا لوسيان اني اكرهك لكني لن ارهب جانبك . فارجع الى اميرة انكلترة وابذل جهدك في تملقها وترضيها واني اعلم منك بها وبعدم اكتراثها لك "

ثم لكز جوادهُ فعدا بهِ يسابق وميض البرق . ولما بلغ قيصريَّة اخبرهُ اخوهُ برجوع الوفد وطلب الافرنج هدنة تمكنهم من عرض الشروط على مجمع الاساقفة وان اكثر الامراء مالوا الى قبولها وزاد على ذلك قولهُ : —

" ان الملك رنشرد يروم ان يقيم العابًا وتسالي ايامًا متوالية احتفالاً بهذه الهدنة ويدعونا الى حضورها . فسأذهب انا لمجرَّد المشاهدة واما انت فلك ان تشترك فيها وتظهر ما امتزت بهِ من الفروسيَّة والقوة والمهارة والبراعة في جميع الالعاب الحربيَّة "

وبرح السلطان قيصرية شاخصًا الى عكاء يصحبهُ اخوهُ الملك العادل ويتقدمهُ خمسون جنديًّا من المشاة ويسير في حراستهِ مئة فارس من نخبة فرسانهِ خمسون قدامهُ وخمسون وراءهُ

ومعهُ جمال بعضها محمّلٌ مضاربهُ وامتعتهُ واثقالهُ وبعضها هداياهُ الى اميرة انكلترة التي ينتظر ان تكون ملكة اورشليم

وبعد مسيرة ثلثة ايام اقبلوا على عكاء وبلغوا سفح ربوةٍ تظللها الاشجار وينحدر منها مجرى ماء اعذب من الشهد واصفى من البلور. فأمر السلطان بان تضرب لهُ الخيام هناك للاستراحة ثم اوفد رسولاً الى امراء الافرنج يخبرهم بقدومهِ للاشتراك في اعيادهم وبان اخاهُ مستعدٌ للدخول معهم في الالعاب العسكرية والمكافحات السلمية

فسرَّ الامراء بسماع خبر قدومهِ ما عدا لوسيان فانهُ اضطرب واوجس خوفاً من فوز الملك العادل عليهِ في ميدان الصراع والكفاح وانتزاعهِ منهُ شرف الغلبة الذي كان يعلل نفسهُ بهِ الى هذه الساعة لكنهُ كظم غيظهُ وتجلد وقاسم رتشرد الاعجاب برفعة شأن السلطان وبلوغهِ من الثقة بهم مبلغاً حملهُ على زيارتهم بلا شرط ولا تحذر ناسياً كلَّ ما بينهُ وبينهم من الجفاء والعداء . هذه الزيارة على هذا الاسلوب شاقت رتشرد ووقعت أحسن وقع لديهِ وبعثتهُ في الحال على ان يقابل الثقة بمثلها ويزور السلطان واخاهُ بنفسهِ

فسار اليهِ وحدهُ لا يصحبهُ احدٌ من اعوانهِ ولا من حرَّاسهِ وخف السلطان الى استقبالهِ معجباً ايضاً بحسن ثقتهِ بهِ وصافحهُ مرحباً بهِ من كل قلبهِ وقال لهُ : —

" ايها الملك العظيم. لما التقينا بالامس في ساحة القتال ادركت خطر معاداتك واليوم أُدرك بملء السرور قيمة صداقتك "

وقال لهُ الملك العادل وقد آنس فيهِ شبهاً واضحاً لموضوع حبهِ واعزازهِ : —

" الا نعلل نفوسنا بامكان الحصول على صداقتك مشفوعة بمحالفة أخٍ ؟ "

ولما وقعت عين رتشرد على الملك العادل نشبت ذكرى انهزامهِ من امامهِ نشوب السهم في قلبهِ فجرحت كبرياءهُ وقال : —

" ان رتشرد لم يعرف قط للهرب معنىً قبلما لقيتك ايها الباسل امام قيصرية . أفتريد منهُ الآن ان يعطيك اختهُ جزاء ما اوقعتهُ بهِ من ذلّ الهرب وعار الانهزام ؟ "

" ولكن انكسارك كان بالحقيقة اشرف من الانتصار لانك أُكرهتَ عليهِ بقوة كثرة العدد بعد ما تركتَ في صفوفنا آثار بطشك وبسالتك "

فسرَّ رتشرد بما رآهُ على محيَّا الملك العادل في اثناء كلامهِ من علامات البساطة والإخلاص. وقال للسلطان انهُ كان يودُّ من صميم فؤادهِ ان يقبل شروط المحالفة التي عرضها عليهم ويرى شقيقتهُ عربون سلام دائم بينهُ وبينهم لولا انهُ سبق ووعد لوسيان بها ولذلك

سيأسف أشدَّ الاسف اذا حكم مجمع الاساقفة بقبول هذه الشروط وقضى عليهِ باخلاف وعدهِ للوسيان . فقال لهُ الملك العادل : —

" ان الاميرة متيلدة وعدتني بان تكون لي يوم اسعدني الحظ بان انقذت حياتها من المخاطر التي تهددتها في البادية "

" سمعتُ بهذا الوعد الذي اقدمت عليهِ أُختي اقتحاماً لكنَّ رئيس كنيستنا يستطيع ان يحلها من وعد كهذا "

اما انا فسأبقى متكلاً على وعدها هذا بملء الثقة حتى يحلها الموت منهُ . سأبقى متكلاً عليهِ كما اتكل على شرفي او شرفك ! "

وهمَّ رتشرد بان يجيبهُ على كلامهِ فتوسط السلطان وقال لهما : —

" لنترك هذا الموضوع جانباً وننتظر حكم مجلس الاساقفة فيهِ فاما ان نعود الى امتشاق الحسام او يسود بيننا الصلح والسلام . اما الآن فلنبرهن للعالم اننا ندرك قيمة الثاني كما نعرف واجبات الاول "

فوقع كلامهُ أحسن وقع عند رتشرد والملك العادل فتصافحا وتصالحا . وكانت ساعة الشروع في الالعاب قد دنت فطلب رتشرد من السلطان ان يشرف افتتاح الاحتفال بنفسهِ وقال للملك العادل : —

" وانت ايها الامير الباسل لا تبخل علينا بشرف دخولك معنا غداً في هذه الالعاب ولما كانت جائزة المنتصر ستعطى من يد أُختي فلا بدَّ انك تسعى جهدك للحصول عليها واننا ننتظر حضورك اليوم ولكن كمشاهدٍ فقط "

ثم ودَّعهما ورجع الى المعسكر واذا بالابواق تعلن قرب افتتاح الحفلة وابتداء الالعاب

الفصل الخامس والثلاثون

الالعاب الحربية

ولما دخل صلاح الدين واخوهُ معسكر الافرنج هرع رتشرد ونخبة الامراء لاستقبالهما بما يليق من التجلة والتعظيم وذهبوا بهما الى رواقٍ فخيم يشرف على ساحة الالعاب وقد نصبوا فيهِ عرشاً للسلطان موشى بمطرَّزات من الذهب والفضة ومجلساً أنيقاً بجانبهِ لاخيهِ

ثم فتحت ابواب الساحة واعلن صوت الطبل والبوق ابتداء الالعاب وجاءت ملكة انكلترا

ومتيلدة الى رواق مقابل رواق السلطان يصحبهما لوسيان

ولما ابصرت برنغاريا الملك العادل حنت رأسها له اشارة التحية والتسليم والترحيب ووقع نظر متيلدة على نظره فتورّد محياها وزاد جمالها جمالاً فضغط الملك العادل يد اخيهِ وقال له: —

" انظرها وقل لي رأيك فيها "

" انها اجمل فتاةٍ رأتها عيناي "

" اني مستعدٌ لان اموت في سبيلكَ ولكني غير قادر ان اعيش بدونها "

ثم ابتدأ الكفاح ودارت رحى الصراع على اختلاف انواعهِ وعُرضت على المشاهدين مقدرة المتكافحين وخبرتهم ورشاقة حركاتهم وشدة تضلعهم من فنون الحرب ومعرفة ابواب الطعن والضرب واساليب الكر والفرّ وكأنّ لوسيان أُوتي قوة خارقة وبراعة فائقة ففاق الاقران وجلّى على جميع الذين نازلوهُ في ساحة الميدان . ثم جال في عرضهِ على ظهر جوادهِ الأدهم واشرع رمحهُ (من غير سنان) وطلب مبارزة من شاء غير الذين استظهر عليهم فبرز له الامير دي كومي فاخذا يتجاولان ويتصادمان ويلتحمان ويفترقان حتى تكسرت بايديهما الرماح ونسيا من شدة هياجهما اليمين التي حلفاها للاميرة متيلدة فاستلاّ سيفيهما وحملا احدهما على الآخر لكنّ الحكمين حالوا بينهما وذكروهما اليمين واكرهوهما على اغماد السيوف واستئناف الكفاح بقطع الرماح المتكسرة وظلاّ على هذه الحالة من الكرّ والفرّ والنصر واقفٌ بينهما غير مائلٍ باقلّ رجحان الى احدٍ منهما حتى لاحت فرصة لدى كومي فقبض على خصمهِ وصرعهُ الى الارض والقى بنفسهِ فوقهُ وظنّ المشاهدون كلهم ان النصر تمّ له على لوسيان واذا بهذا انسلّ من تحت دي كومي برشاقة وخفة لا مزيد عليهما واستعاد موقفهُ وقبض على دي كومي بكلتا يديهِ وجندلهُ ولم يتنحّ عنهُ حتى اعترف لهُ بغلبتهِ عليهِ . فهتف المشاهدون : — " نعمًا لوسيان ! ليحيَ ملك القدس "

فساء السلطان واخاهُ ان تمما لوسيان يُلقَّب بلقب لم يبقَ لهُ اقلّ حق بهِ . وغاظ الملك العادل ان رأى خصمهُ مرّ بهِ وهو يترنح براح الظفر وذهب الى حيث كانت متيلدة وقبّل يدها فطوقت عنقهُ بسلسلة ذهبية ثمينة

ثم تلا هذه الألعاب مرقص أُقيم على شاطىء البحر ودُعي اليهِ السلطان واخوهُ لكنّ الأَول اعتذر عن قبول الدعوة بما لديهِ من الشواغل وعدم اكترائهِ لمشاهدة امور كهذه فرجع الى مضاربهِ وترك اخاهُ ينوب عنهُ في ذلك

وسار رتشرد بالملك العادل الى الملكة التي ابدت ما لا مزيد عليهِ من التحفظ في حضرة

زوجها خوفاً من استيائهِ واقتصرت على ذرف دموع اعربت للملك العادل عن ذكرها لجميلهِ وعدم نسيانها لمعروفهِ

ثم التفت ليحيي متيلدة التي كانت محتجبةً ببعض الاحتجاب وراء كرسي الملكة وكان بقربها لوسيان جالساً يعجب بنفسهِ ويسخر بناظرهِ ويتباهى بكونهِ حائلاً دون ما يروم تقديمهُ الى متيلدة من واجب التحية والتعظيم . فنظر اليها الملك العادل بعينٍ ملؤُها التوبيخ فارجعت يدها التي همت بمدّها اليهِ واغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع

واذ ذاك ضربت الموسيقى معلنةً قرب ابتداء الرقص وكان شرف افتتاحهِ منوطاً بلوسيان المنتصر ولهُ حقُّ اختيار اية سيدة ارادها لفتح المرقص . فوقف امام متيلدة وانحنى ومدَّ اليها ذراعهُ وسار بها على عيني مناظرهِ وجميع العيون شاخصة اليهِ

وما انتهت من الرقص معهُ ورجعت الى مجلسها بجانب الملكة حتى طلب المدعوون ان يروها ترقص مع طالبها الآخر اي الملك العادل . فأسرع هذا اليها وهو يكاد يطير من شدّة سرورهِ بسنوح هذه الفرصة ونهضت متيلدة والخجل عابث بوجنتيها ووضعت يدها في يد حبيبها . وحمي غضب لوسيان واندفع للاعتراض على ذلك . لكنهُ قبلما تمكن من الوصول اليهما وفصلهما احدهما عن الآخر ألقت متيلدة في يد الملك العادل ورقة صغيرة ومفتاحاً فقال لوسيان لها : —

" ان حقوقي كمنتصر تخوّلني ان اعلن نفسي اسيرك الوحيد في هذا اليوم "

ثم قال للملك العادل :

" وهبني كنتُ ميالاً الى المساهلة مع شخص آخر فهل تظنُّ اني ارضى بحصول هذا الشرف لك ؟ "

" كان الحق لك اليوم وسترى لمن يكون غداً وما بعد غدٍ ! "

قال هذا واشاح عنهُ وتنحى جانباً ليطلع على ما في تلك الورقة . ففضها واذا بمتيلدة تقول لهُ فيها : —

" غداً عند طلوع الفجر . هذا مفتاح قبر مونمورانسي . سأُوافيك اليهِ " " متيلدة "

وعند طلوع الشمس خرجت في مركبتها مع نسائها وحرّاسها حسب عادتها وكان اخوها يسمح لها بذلك . بشرط ان لا يدنو منها احد الطامحين اليها . ولما بلغت سفح الربوة التي عليها قبر مونمورانسي أمرت بالمركبة فوقفت فنزلت منها وتركت الحرّاس عندها وصعدت مع نسائها حتى وقفت امام باب القبر وصلّت في قلبها الى الله قائلة : —

" اللهمَّ اذا كانت محبة احد من البشر قد أضلّتني السبيل. اذا كان ميلي الى رؤية الملك العادل وسماع كلامهِ من جملة البواعث التي حملتني على المجيء الى هنا. فلا تدعني اجتاز هذه العتبة بل ارجعني من حيث اتيتُ واعصمني من مزج السعي في سبيلك بالسعي لمصلحة نفسي او لمصلحة غيري من الناس "

ثم لبثت دقيقة كأنها تتوقعُ إلهاماً يحقق لها استصواب خطتها وقالت لنسائها : —

" اتركنني هنا فانقطع لتأملاتي الانفراديَّة والصلاة لله"

فابتعدنَ عنها قليلاً وقد تعوَّدنَ ذلك منها فلم يرينَ فيهِ داعياً الى الاشتباه والارتياب.

ولم يكن لقبر مونمورانسي سوى مفتاحين احدهما مع متيلدة والآخر مع رئيس اساقفة صور. وقبلما خرج رئيس الاساقفة لطيتهِ اعطى مفتاحهُ لمتيلدة ولم يخطر قط بباله انها ستعطيهِ للملك العادل. لكنها كانت عالمة بسلامة نيتها وحسن قصدها فلم تخف معارضة ابيها الروحي في ذلك. على انها شعرت باضطراب لا مزيد عليهِ عندما دخلت القبر واخترقت الظلام السائد على المكان الذي يستريح فيهِ جسد ذلك البطل الفرنساوي

وكان في سقف القبة مصباح من فضة موقد على الدوام يرسل اشعة ضيئلة الى جوانبهِ وعلى نورها رأت الملك العادل وهو رآها ايضاً وتقدم لملاقاتها

ولما دنا منها قالت لهُ : —

" اعلم ايها الملك العادل اني لم اطلب الاجتماع بك في هذا المكان لمجرد الاصغاء الى عبارات الشوق والهيام ولا للعمل بما تطلبهُ عواطف قلبي. لانَّ هذا كلهُ لا يليق بنا اجراؤُهُ في هذا المقام. وكل ما ينطق بهِ من الكلام بجانب عظام مونمورانسي الطاهرة يجب ان يكون طاهرًا ايضاً. واعلم ايضاً ان مجمع الاساقفة سيلتئم غدًا ورئيس اساقفة صور لم يرجع بعد. وقد انطلق من عكاء وكاف نفسهُ معاناة مشاق الاسفار واخطارها حبًّا بالاجتماع بك والوقوف على افكارك من جهة وعدك لي. فالشرف والاعتراف بالفضل وعرفان الجميل ومصالحنا كلينا تقضي عليك بأن تتخلى عن المجد الذي تتوقع نيلهُ في العابنا وتذهب على الفور مفتشاً عن ذلك الشيخ المنكود الحظ الذي قد يكون في هذه الدقيقة راسفاً بالقيود والسلاسل او متجرعاً غصص العذاب لأجلك. ولا تنسَ ان شرف انقاذك لهُ من مخالب الموت يعلي مقامك في عيون الاساقفة اكثر جدًا من شرف انتصارك على لوسيان في ميدان الكفاح والطعان. واذا لم يكفك هذا كلهُ كفاك استصواب ضميرك واستحسان الله ومحبة متيلدة "

" اني مستعدٌّ لاجابة سؤْلك هذا مع ما فيهِ من صعوبة التغلب على اميالي شاكرًا لكِ

ثقتك العظيمة بي ومعجباً بصفاتك السامية التي أراها مثالاً حيًا لاطهر الفضائل واشرف المقاصد"

فجثت متيلدة امام تابوت مونمورانسي وقالت : —

" اي مونمورانسي الشريف لا تكفَّ عن مواصلة الصلاة التي وعدت بها في ساعة الموت لاجل الملك العادل ٠ دع روحك الناعمة الآن في ظلال المجد الابدي تكلمهُ كما تكلمت عنهُ عند ما وقف الموت بفتح لك ابواب السماء ! "

وجثا الملك العادل بجانبها وقال :

" ايها البطل العظيم الذي أعجبتُ كل الاعجاب بحياتهِ واكرم الآن رفاتهُ ٠ لاريب في انَّ قبضة التراب هذه ليست كل ما يجب ان يبقى من اشرف ما صنعهُ الخالق ٠ إذًا روحك باقية حيَّة مزدانة بالصفات التي سمت بها في هذه الحياة ٠ فلتكلم نفسك نفسي وتعلمني كيف يمكنني ان اوفق بين الشرف والواجب والحب " فقالت لهُ متيلدة : —

" انَّ الله جعل بحكمتهِ التي لا تدرك حاجزًا حصينًا بيننا وبين الذين سبقونا الى العالم الآتي ٠ فاذهب الى رئيس الاساقفة بالعجل لا تضع دقيقة واحدة ٠ ان المجمع الديني سيلتئم غدًا وربما لا تزيد مدة التئامهِ عن اسبوع ٠ وقبل انفراط عقدهِ يجب ان تكون قد رجعت برئيس الاساقفة ومكنتهُ من الدفاع عنا امام المجمع وكما لا يخفى عليك ليس بينهم من يجسر على مخالفة مشورتهِ "

" لا يسعني ان اخالفكِ ٠ لا بدَّ من ذهابي على كل حال "

" الوداع إذًا ٠ اذهب اطلب خادم الله الامين وائتني بعربون سعادتنا وهنائنا "

ثم مدَّت يدها لتوديعهِ واذا باصوات ارتفعت خارج الباب وملأت قلب متيلدة خوفًا ورعبًا ٠ وسمعت برنغاريا تقول لها : —

" قد جئت انا والملك نطلبك ٠ لاننا لا نريد ان تطيلي المكث في هذا المكان الموحش ٠ "

فصاحت متيلدة : —

" رتشرد خارجًا ! واذا دخل — اذا رآك — ذهبت حياتك ضحيَّة طيشي وتهوري — لكننا سنموت معًا على الاقل ! "

" لا تخافي — لن يعلم بوجودي هنا "

ثم انحنى الى جانب التابوت واختبأ تحت ثنايا سجفهِ الطويل المتدلاة اطرافهُ الى الارض — وفتحت متيلدة الباب لبرنغاريا فذعرت من رؤية صفرة الوجل التي لاحت على وجهها ولاحظ رتشرد ذلك ايضًا فقال لها : —

" لم أرَ قط في حياتي نظير هذا التغير العابث بوجهكِ "

ثم دخل الى القبر وقلب شقيقتهِ يكاد يخرج من فمها من شدة الخوف والاضطراب وبعد ما أدَّى واجب التعظيم لمقام بطل فرنسا خرج واغلق الباب وراءهُ واقفلهُ وقال لها :—

" لا يؤذن لكِ في الدخول الى هذا المكان بعد الآن "

فاشارت اليهِ اشارة الطاعة . وقلبها طافح فرحاً بنجاة محبها ونجاح مسعاها

الفصل السادس والثلثون

" هوذا اقوى منك "

وفي ضحى ذلك اليوم استؤنفت الالعاب وأُبيح الدخول فيها للعرب والافرنج على حدٍّ سواء وجاء صلاح الدين مبكرًا ليتمتَّع بمشاهدة انتصار اخيهِ وغلبتهِ لكنَّ الملك العادل لم يحضر وتأخرت الالعاب ساعة عن ميعادها اكرامًا لهُ ثم تكرَّر تأخرها ساعة بعد ساعة والجميع متوقعون مجيء اخي السلطان وعيونهم شاخصة الى متيلدة ليروا تأثير غيابهِ في وجهها فرأوها غير مبدية اقلَّ اكتراثٍ لذلك وهي في داخلها مفتخرة بغيابهِ اكثر مما بنيلهِ الغلبة على جميع اقرانهِ . اخيرًا دنا منها لوسيان وقال لها بشيء من التهكم :—

" ما ابطأ الملك العادل في اخراج تهديدهِ من القوة الى الفعل ! فما اظنهُ يهتمُّ اليوم باحراز النصر الذي علَّلَ نفسهُ بهِ امس "

" ان بسالة الملك العادل كشرفهِ منزهة عن كل وصمة ونقيَّة من شوائب الريب واذا قصر في القيام بواجب صغيرٍ فما ذلك الاَّ لانهُ يعنى بالقيام بواجب اهم واكبر "

ثم اعلنت الابواق انتهاء الوقت المعين لانتظار اخي السلطان وابتداء الالعاب وبرز الامراء والرجال المنتخبون من الافرنج والعرب وفاق خالد كثيرين من امراء الافرنج وانتصر عليهم لكنهُ دان اخيرًا للوسيان واقرَّ لهُ بالسبق والتفوُّق فمنحتهُ متيلدة جائزة النصر في ذلك اليوم وفي اليوم التالي وفي عدة ايام اخرى

فقلق صلاح الدين لغياب اخيهِ ولاسيما في وقت مثل هذا وارسل الرسل والسعاة يفتشون عنهُ في كل مكانٍ . واقترب اليوم الذي يختم فيهِ مجمع الاساقفة جلساتهِ ويبدي حكمهُ النهائي من جهة قبول شروط السلطان او رفضها . وكانت اعمال المجمع ومباحثهُ مخفاة تحت طي الكتمان فلم يتمكن احدٌ من معرفة شيء عنها . وكثيرًا ما حاول لوسيان اختراق حجب الكتمان

والاطلاع على افكار الاساقفة فلم يفلح في مسعاهُ . وعبثاً حاول ايضاً التفريق بينهم ودس الدسائس لاجتذاب بعضهم واستمالتهم اليهِ كما ظنَّ عند ما اقترح عرض شروط السلطان عليهم . لكنهم خيبوا آمالهُ من هذا القبيل وجعلوا كيدهُ في تضليل

اخيرًا جاء اليوم الذي يُعلَن فيهِ حكم مجمع الاساقفة وتنتهي الهدنة بصلح او بحرب . ففي اثنتي عشرة ساعة يُفصل الخطاب في مسألة متيلدة . والملك العادل ورئيس اساقفة صور بعد غائبانِ ولم يسمع احدٌ عنهما خبرًا . وقد أُعِدَّ للمنتصر في آخر يوم من ايام الالعاب اعظم جائزة تمنّاها الامراء وهي صورة الاميرة متيلدة

ولما دنا وقت ابتداء الالعاب في ذلك اليوم الاخير حملت متيلدة في محفتها الى الرواق المعد لها وللملكة وهي لابسة أفخر لباس ومزدانة باثمن الحلى والجواهر وبارزة بابهى جمال رائع وحسن باهر . لكنَّ محيّاها الجميل كان مغشيًّا بسحابة قلقٍ واضطرابٍ لم تخفَ على عيون الناظرين اليها . ولما استوت على كرسيها بجانب الملكة اعرضت عن ذلك المشهد الحافل واسندت كوعها الى عارضة الشرفة وامالت خدّها على يدها وشخصت بعينيها الى طريق قيصرية من حيث تتوقع راحةً من اضطرابها وتحقيقاً لرجائها

وكان صلاح الدين الى الآن مرتفعاً عن الاشتراك في هذه الالعاب لانهُ رآها دون قدرهِ وانَّ الانتصار فيها قليل الجدوى والانكسار مدعاة الذلّ والعار . ولكنهُ رأى ايضاً ان نخبة رجالهِ دانوا لصولة لوسيان الذي كان على مسمع منهُ ومرأى ينتحل لنفسهِ لقب ملك القدس وخاف انهُ كما استأثر بجوائز الانتصار في الايام السابقة يستأثر ايضاً بجائزة هذا اليوم — صورة متيلدة — التي ينبغي ان تكون لاخيهِ الملك العادل فقط فنهض مدفوعاً بقوة هياج لم يعد في امكانهِ امتلاكها وصاح بلوسيان متهددًا :—

"مهلاً يا لوسيان . لا تعلل نفسك بالحصول على جائزة أُخرى . ولعلَّ القدر يتيح لي اليوم ان انتزع منك الجائزة كما انتزعت منك عرشك الذي لا تنفكُّ تلقب نفسك بهِ باطلاً !"

"تعالَ ياصلاح الدين فان انكسارك سيضيف ورقة غار أُخرى الى اكليل انتصاري . أسرع فان صوت سقوطك سيكون رمزًا الى سقوط عرشك ونهاية مدة اغتصابك"

ثمَّ التقيا وقد هاجهما ما بينهما من العداء الشديد حتى كاد يحوّل كفاحهما الهزلي الى طعان جدّي . وكان الناظرون اليهما يراقبون حركاتهما بانتباه لا مزيد عليهِ فلم يسمع صوت في ذلك المشهد كلهِ لسوى صليل اسلحتهما — غير الجدّدة — او لشدة لهثهما . حتى ان متيلدة نفسها تحوّلت عن مراقبة طريق قيصريّة ووجهت نظرها الى مراقبة هذا العراك الهائل

وقد شقَّ عليها ان ترجو انتصار صلاح الدين على احد امراء امتها لكنَّ انكسار لوسيان كان من اكبر امانيها لانهُ لم يكن في استطاعتها ان تمحهُ صورتها

وكان لوسيان متعوّدًا هذه الالعاب خبيرًا باساليبها عارفًا بجميع طرقها وفنونها متدربًا على الاقتصاد في قواهُ بحيث لا ينفقها جزافًا بل يحفظها الى ساعة الضرورة بخلاف صلاح الدين فانهُ لم يتعوّد قط العابًا كهذه ولم يحضر قط ساحة النزال الا ليعرّض خصمهُ لضربات قاضيات وهذه كانت ممنوعة في قانون الالعاب ولهذا كانت جولاتهُ في هذا العراك الهزلي عبارة عن إجهاد قواهُ وانفاقها بالباطل

فانتهز لوسيان هذه الفرصة ودار حول السلطان بسرعة مدهشة يعنفهُ ويهيجهُ ويتقي ضرباتهِ ويشدد عليهِ حملاتهِ من غير ان يمكنهُ من حفظ التوازن او اتقاء الضرب فيأتيهُ عن شمالهِ حين يظنهُ حاملاً عليهِ عن يمينهِ وما برح ينقضُّ عليهِ انقضاض البواشق من هنا وهناك وهنالك حتى رفع السلطان ذراعهُ هامًّا بضربهِ فدار لوسيان من ورائهِ بأسرع من وميض البرق واخذهُ بوسطهِ والقاهُ على الارض صارخًا : —

" سقط المغتصب ! "

وسار على الفور نحو رواق الملكة طالبًا الجائزة وهو ثمل براح النصر والظفر واذا بتيلدة صاحت على الاثر : —

" هو ذا اقوى منك ! "

وما اتمت جملتها الا والملك العادل مقبل والغبار يغشاهُ والعرق يقطر من قوائم جوادهِ. فترجل عنهُ وانقضَّ كالصاعقة الى ساحة الالعاب فرأى أخاهُ يتعثر بذيل الذل والانكسار. فكظم لوسيان غيظهُ وخوفهُ من هذه المباغتة التي لم تكن في حسبانهِ وقال للملك العادل متهكمًا : —

" أبمثل هذا الابطاء ينجز الابطال مواعيدهم ! "

" لم يفت وقت انتزاع الجائزة منك — سآخذ بثارك يا اخي ! "

وانطبق على خصمهِ واخذ يعاجلهُ بالضرب دراكًا تباعًا ويشدد عليهِ في الملاصقة والمضايقة حتى ضعضع قواهُ وافنى صبرهُ واحتمالهُ وسدَّ عليهِ باب الافلات من يدهِ. فأمسك عن الحمل عليهِ وقال لهُ : —

" استرح قليلاً يا لوسيان واستجمع قواك وجدد نشاطك لانهُ لا يحسن بي ان انتهز فرصة اعيائك في طلب الانتصار عليك "

فأُعجِب الحاضرون بعزة نفس الملك العادل وهتفوا كلهم لهُ هتاف الاستحسان
ورأى لوسيان ان خصمهُ نال عليهِ انتصارًا ادبيًا سيتلوهُ عما قيل انتصار اعظم واكبر
فغشيهُ ظلام الغيظ واليأس واحفظهُ جدًا أن يضطرّ الى التخلي عن صورة متيلدة الى الملك
العادل وعزم ان لا يبقى حيًا بعد هذا الذل الفاضح وان يجعل موتهُ في ساحة الكفاح حائلاً
دون تمتع خصمهِ بلذّة الانتصار. فعقد نيتهُ على الموت وجدّد حملاتهِ على الملك العادل مستقتلاً
حتى كاد يزحزحهُ من موقفهِ لو لم يعاجلهُ هذا بصدمة صرعتهُ الى الارض. فقال لهُ لوسيان: —
" اجهز عليّ واسلبني حياتي كما سلبتني عرشي وقلب متيلدة "
فأجابهُ الملك العادل متلطفًا: —
" ان انكسارك مرة واحدة لا يمحو مجد نصراتك المتوالية. او لا تسمح لي بانتصار
نازعت صلاح الدين العظيم عليهِ واستظهرت بهِ على جميع الابطال الصناديد الذين نازلوك
في هذه الايام كلها؟ "
" وماذا تفيدني انتصاراتي السابقة؟ ألا تعدُّ متيلدة الفضل فيها كلها لغيابك وعدم
وجودك؟ وايُّ شيطان جاء بك اليوم لتختطف من يدي اعظم جائزة علّلت نفسي بالحصول
عليها — صورة عروسي! "
" صورة متيلدة التي لا يزيد حقك فيها عن حقك في عرش القدس! لم اتوقع حتى في
الحلم اني ساحصل على جائزة كهذه! "
قال هذا واسرع الى متيلدة لينال منها هذه الجائزة النفيسة. هذا وان القلم لعاجز عن
وصف ما خامر فؤادها في هذه الساعة من الافتخار والفرح والسرور حين انحنى حبيبها امامها
ومدت يديها وطوقت عنقهُ بالسلسلة الذهبية المعلقة صورتها بها امام عيون الملوك والامراء
والعظماء المجتمعين من كل امة تحت السماء!
وفيما هي تطوقهُ بالسلسلة قال لها سرًا: —
" غدًا يكون وليم هنا ولكن لي معك كلمة واحدة قبل وصولهِ في قبر مونمورانسي "
وكان اخوهُ صلاح الدين قد رجع الى مضاربهِ وارسل يستدعيهِ اليهِ فذهب على الفور
وغادر لوسيان يصلى نار حنق وحقد تشوي فؤادهُ ويتناول لذعها قلب رتشرد ايضًا لأن
انكسار صلاح الدين ذكرهُ انكسارهُ هو وجعل محالفة المنتصر عليهما مما لا تسمح بهِ
كبرياء نفسهِ.
وكان مجمع الاساقفة مزمعًا ان ينتهي في مساء ذلك اليوم فهمّ متيلدة جدًا ان تسعى في

تأخيرهِ يوماً واحداً ريثما يحضر رئيس الاساقفة ونقف على رأيهِ قبلما تعلم نتيجة حكم المجمع سواء كان لها او عليها فدعت اخاها اليها وقالت لهُ : —

"اعلم يا أخي ان رئيس الاساقفة يرجع غداً . ولا ريب في ان سمو رتبتهِ الدينية وشهرة حكمتهِ واصالة رأيهِ — هذه كلها — تقضي على المجمع بوجوب انتظارهِ يوماً واحداً"

"من اين عرفت ذلك ؟"

"من الملك العادل"

فاعترض لوسيان بقولهِ : —

"لا اظنُّ ان اخاك يروم المداخلة في شؤُون المجمع !"

وكان دوق برجندي ودوق النمسا ودوق بافاريا وغيرهم من الامراء قد حضروا وسمعوا حديث متيلدة مع أخيها فأجمعوا بصوت واحدٍ على وجوب ابلاغ الاساقفة خبر قدوم اخيهم. وحاول لوسيان الاعتراض ثانيةً فلم يكترث احد منهم لكلامهِ .

واستأذنت متيلدة أخاها في ارسال حاجبٍ الى نائب البابا لاطلاعهِ على نبإِ رجوع رئيس اساقفة صور ومالبث الاساقفة أن حضروا كلهم فقال لهم رتشرد : —

"اظنكم ايها الآباء المحترمون أخرتم صدور الحكم ؟"

فاجابهُ مطران الناصرة : —

"ان خبر رجوع رئيس اساقفة صور ورغبة الاميرة متيلدة سبب كافٍ لتأخير حكمنا يوماً واحداً"

الفصل السابع والثلثون

بين العقل والطبع

وفي تلك الليلة دخلت متيلدة مخدعها لتنام فكرت عليها جيوش الهواجس والافكار وانتزعت من اجفانها الرقاد وحكمت فيها الارق والسهاد . فقضت ليلها كلهُ تبحث في موضوع طلب الملك العادل منها ان توافيهُ في الصباح الى قبر مونمورانسي . فدققت النظر في جميع الاسباب التي تخوّل الملك العادل حق هذا الطلب وتوجب عليها العمل بموجبهِ — ذكرت كل مالهُ عليها من الفضل والمعروف من يوم عرفتهُ في دمياط والقاهرة والبادية ومالهُ على الملكة ورئيس الاساقفة حتى على اخيها رتشرد ايضاً في معركة قيصريَّة ولم تغفل اعتبار الغرض الذي

لاجلهِ يروم الملك العادل ان يجتمع بها وافترضت انهُ قد يحتمل ان يكون شريفاً سامياً كالغرض الذي اجتمعت بهِ من اجلهِ في المكان نفسهِ — هذه الامور كلها عرضتها على ذهنها بما استطاعت من البيان والتفصيل . ولما وفَّت هذا الوجه من الموضوع حقهُ من التأمل والبحث تركتهُ جانبًا وبحثت في الوجه الثاني منهُ — في الاسباب التي توجب عليها الامتناع عن اجابة طلبهِ وتوسلت الى الله بدموع حارة وانسحاق قلبٍ ان يلهمها الصواب في حكمها ولا يجعل لعواطف قلبها سبيلاً لمعارضة عقلها في تحرّي معرفة الحق واتباعهِ . وبعد عراكٍ شديد وصدام عنيف بين عقلها وطبعها واحتمالها منهُ اشدّ ما تحملهُ السفن من عراك الرياح والامواج رضخت لحكم العقل القاضي بوجوب إغفال طلب حبيبها على رغم ما يعانيهِ من صعوبة خيبة الامل ومرارة طول الانتظار باطلاً

وكان الليل حينئذٍ قد ولّى الادبار امام جيوش النهار وتمزّقت حجب الظلام باشعة الضياء المنبثقة من محيَّا الشمس مليكة الانوار فغادرت متيلدة مخدعها وخرجت تطلب الملكة لعلها تسمع منها خبرًا عن وصول رئيس الاساقفة . وكان الامر كما املّت فان الملكة بشرتها بانهُ دخل عكاء منذ ساعة وخلا على الفور بنائب البابا

ثم دخل حاجب يعلن قدوم الملك رتشرد ورئيس اساقفة صور . وكانت متيلدة قد همّت بالخروج فلقيتهما في الباب فحيتهما مطرقةً من غير ان تستطيع ان ترفع نظرها الى وجه رئيس الاساقفة لترى ما عليهِ من علامات تحقيق الرجاء او لوائح اليأس والقنوط وعادت الى مجلسها اما برنغاريا فرحبت بقدومهِ وهنأتهُ بسلامة الرجوع وسألتهُ عن اسباب عاقتهِ فقال : —

« قبض عليَّ العرب في يافا بامر المشطوب على رغم وجود الهدنة . وبعد ما شدُّوا وثاقي زجُّوني في السجن وبلغ من حقد المشطوب وحنقهِ انهُ عدَّني من الاسباب التي ادَّت الى سقوط عكَّاء وانتهز فرصة السلطة المطلقة المعطاة لهُ في يافا واصدر امرًا بقتلي بعد مضي ٢٤ ساعة . ولكن في نصف الليل فتح باب سجني وكنتُ اظنُّ ان اعدائي جاؤُوا يطلبون حياتي واذا بي ارى منقذًا واقفًا امامي يحول بيني وبين حمامي ! »

فسألهُ رتشرد : — « ومن كان هذا المنقذ العظيم ؟ »

« الملك العادل . لا اعلم باية معجزة الهيَّة جاء لانتشالي من وهدة الموت وقد سألتهُ بيان ذلك فابى ولم يبح لي بهذا السرّ »

« يصعب عليَّ ان ادرك كيف أُرسل الملك العادل اليك مع انك لم تخبر بجهة مسيرك سوى الملكة واختي »

" ان كان ثمّ سرٌّ فهو يوافق قول مخلصنا الآمر بأن لا نخبر يميننا بالخير الذي تصنعهُ شمالنا . انهُ سرُّ إحسانٍ عظيم يجب علينا اجتناب محاولة الاطلاع عليهِ "

" اراك ايها الأب المحترم منفرداً بالانحياز الى الملك العادل واستحسان كل ما يفعلهُ واخاف ان ميلك اليهِ يقدح في صحة رأيك ويؤثر في حكم المجمع المنتظر "

فأجابهُ رئيس الاساقفة :—

" لا احاول إنكار محبتي للملك العادل التي لا تقلُّ عن محبة الاب لابنهِ . واني معجب كل الاعجاب بصفاتهِ الشريفة التي ولدت فيَّ هذه المحبة لهُ . وسأذكر امام المجمع كل ما لهُ من الحسنات لأنَّ ديننا ينهانا عن التحامل على اعدائنا . ولا يُؤذَنُ لي ان اطلع جلالتك على افكاري ومقاصدي لكنني واثق انها كلها مما يجد نعمة في عيني العالم بكل شيء وسأذهب الآن الى المجمع قبلما التمس الراحة من عناء شديد آخذٍ مني كل مأخذ "

وبعد خروجهِ بقليل ارتفع ضجيج خصام ونزاع ودخل حاجب يقول مخاطباً الملك رتشرد :—

" ان الملك العادل وقف منذ دقيقة بباب الاميرة متيلدة طالباً الدخول اليها واتفق مرور ملك القدس فاعترضهُ واقسم بأنهُ لا يسمح لهُ الا بأمر صريح من جلالتكم . فاغتاظ الملك العادل واستلَّ سيفهُ وفعل لوسيان فعلهُ واذا لم تسرع جلالتكم في الخروج والتوسط بينهما كانت العاقبة وخيمة الى الغاية "

فنهض ونظر الى اختهِ واذا بخدّيها قد صبغا بحمرة كأَنها النار في معظم اتقادها بعد أن كانا منذ هنيهة في نحول واصفرار لا مزيد عليهما . ولمس يديها فشعر بأعلى درجة تبلغها حرارة الحمى . فقال للملكة :—

" خذيها من هنا فلا أُريد ان الآخرين يطلعون على ما هي فيهِ الآن "

وبعد خروج رتشرد قالت لها الملكة :—

" أُدخلي الى مصلاَّي حيث تجدين راحةً في انفراد لا يكدر صفاؤُهُ ومن وراء هذه الستائر تستطعين سماع كل مايقال هنا "

فدخلت الى حيث قالت لها الملكة واذا برتشرد راجع ومعهُ الملك العادل ولوسيان .

الفصل التاسع والثلثون

رفض شروط الصلح

وكانت الملكة قد سبقت وجعلت كرسيها ملاصقاً للستارة الفاصلة بين غرفة الجلوس ومصلاّها بحيث تكون قريبة من متيلدة الجالسة وراءها من الداخل

وكان الملك العادل اول من تقدَّم ليحيي الملكة فجلس بجانبها وهمس اليها متوسلاً ان تخبره هل اصاب متيلدة مكروهٌ لانهُ في قلق لا مزيد عليهِ من جهتها . فأجابتهُ بما ازال جانباً من قلقهِ واعاد اليهِ شيئاً من الاطمئنان. واذ ذاك قال لوسيان لرتشرد بتهكم مبطن بالتأدُّب:—

" لا بدَّ ان جلالتك تسلم بأن اكبر برهانٍ على صحة ما يؤثر عن لطف ملكة انكلترة وكرم اخلاقها انما هو صبرها على هذيان الملك العادل وهذرهِ اللذين لا نهاية لها "

لكنَّ رتشرد كان مشغولاً عن سماع كلام لوسيان البذيء بملاحظة الملك العادل نفسهِ اذ رآهُ جالساً حيث كانت اختهُ جالسة منذ هنيهة وعلى وجههِ ما كان على وجهها من النحول والاصفرار . فأثَّرت هذه المشابهة الشديدة في نفسهِ فصاح على غير قصدٍ ولا تعمُّدٍ :—

" لم أرَ قطُّ حباً كهذا ! "

فسألهُ لوسيان بشيء من الغيظ :—

" ماذا تعني جلالتكم بهذا ؟ "

" اعني انهُ لولاك لأثَّرت فيَّ هذه المسألة تأثيراً غريباً ! "

" اذاً لم يبقَ لي الآن ان ألقي كل اتكالي على عدالة المجمع "

" وكأنك لا تعبأ بعدالتي وصدق مواعيدي ؟ "

ثم اخذهُ رتشرد بيدهِ وسار بهِ الى شباكٍ ليكلمهُ على انفراد بعيداً عن مسمع الملكة والملك العادل

فانتهز الملك العادل فرصة ابتعادهما وقال للملكة :—

" اريد ان ارى متيلدة لاقول لها كلمة واحدة "

فاشارت الى الستارة وقالت لهُ :— " اني ذاهبة قل لها ما تشاء فتسمعك " .

فادرك مراد الملكة وعلم ان متيلدة وراء الستارة وقال لها :—

" انتظرتكِ هذا الصباح لاقول لكِ كلمة مهمة جداً . فاذا لم يمكنكِ ان تكلمي رئيس الاساقفة قضي علينا ! "

ثم اطلّ رتشرد من الشباك المشرف على محل اجتماع الاسافقة وقال : —

" انتهى اجتماعهم وهوذا وليم ونائب البابا وباقي الاسافقة آتون الينا ليطلعونا على نتيجة المؤتمر "

ثم دخل نائب البابا ورئيس اساقفة صور وقال الاول مخاطباً الملك رتشرد : —

" حكم المجمع امس باستصواب اعطاء الاميرة متيلدة للملك العادل . هكذا كان حكمنا لو لم نضطرّ الى تأخير النطق بهِ . اما اليوم فان حكمة رئيس اساقفة صور اقنعتنا بخطإِ حكمنا هذا وحكمنا برفض شروط صلاح الدين الاّ اذا كان الملك العادل يجيبنا صريحاً بعد ثلاثة ايام بانهُ مستعدٌ للانضمام الينا وممارسة الرسوم التي تبرهن صحة هذا الانضمام "

فاجابهُ الملك العادل : —

" لا حاجة الى انتظار ثلثة ايام فمن الآن اقول لك إني ارفض كل شرط يقضي عليّ بارتكاب الخيانة والغدر ! "

فأجابهُ رتشرد : —

" اذًا ترفض قبول اختي بموجب الشروط المعروضة عليك ؟ "

" أرفض ان أضيع ثقة صلاح الدين بي ! أرفض ان تكون شقيقتك وهي اشرف مخلوق على وجه الارض ثمن صفقة دنيئة كهذه ! أنا — الملك العادل — اقبل شرطاً مهيناً كهذا ! معاذ الله ! انّ امتزاج ماء هذا النهر بمياه البحر الاحمر أقرب من أن ارفع يدي على أخي وبلادي ! "

فالتفت لوسيان الى رئيس الاسافقة وقال : —

" حقًّا انك ايها الاب المحترم اسمى شأناً من جميع بني البشر . واننا لقاصرون جدًّا عن ادراك كنه صفاتك العجيبة ! فلك وحدك انا مديون بما هو اعزّ من وجودي واثمن من حياتي ! "

" لست مديونًا لي بشيءٍ على الاطلاق . لاني لم اخدم قطُّ انساناً ولا راعيت مصلحة بشر بل جعلت نصب عيني مصلحة الدين فقط "

ثم انتهز الملك العادل فرصة اشتغال رئيس الاسافقة ونائب البابا ورتشرد ولوسيان في هذا الموضوع ومال الى الستارة الفاصلة بينهُ وبين متيلدة وقال لها بصوت لم يسمعهُ أحد غيرها : —

" ينبغي ان توافيني غدًا الى قبر مونمورانسي . سأذهب الى هناك حالاً وأبقى حتى تأتي . فان لم تأتِ بقيت الى الابد . فهل تنكثين عهدك ؟ هل تتركينني اموت هناك ؟ "

" كلاّ "

وحينئذٍ وقف ودنا من رئيس اساقفة صور وقال لهُ : —

" لقد اصابني منك اليوم اعظم ضرر ومع ذلك فانت اعظم رجل يستحق احترامي واكرامي. ورجائي اننا نتمكن يوماً ما من الحصول على مصالحةٍ ترضينا كلينا قبلما نفارق هذا العالم "

ثم التفت الى رتشرد وخاطبهُ باباء وعزة نفس : —

" لا أخفي عن جلالتك شعوري بسوء حظّ مزدوج — بالحكم الذي صدر الآن والسرور الذي نالك منهُ . وقد كان يهون عليّ حمل ثقل هذا الحكم لو رأيتك آسفاً بعض الأسف على وقوعهِ . ولكن يظهر لي أنّ كل شيءٍ هنا موجه لمقاومتي . فعليّ ان اذهب الى اخي واطلعهُ على حكم مجمع الاساقفة وهو نذير باستئناف القتال وسفك الدماء الّا اذا مُدّت يد غير منظورة وحالت دون ذلك "

وانطلق على الفور الى خيمة اخيهِ صلاح الدين وخلا بهِ على انفراد وقال لهُ : —

" هل تعلم باي شروط رضي الافرنج ان يعطوني اخت رتشرد ؟ "

" بالشروط التي اقترحتها عليهم "

" لا . لم يقبلوا شروطك بل اشترطوا عليّ ان انضم اليهم واتخلى عنك قبلما يعطونني من يحبها قلبي "

" اذًا رفضتها ؟ "

" لا ارفضها الّا اذا اوقفت يد الموت حركة هذا القلب الذي ملكتها اياهُ ! "

" ماذا تقول؟ أمن الممكن أنّ حبّاً عقيماً كهذا يقودك الى ارتكاب الدناءة ؟ وهل ارى في اخي الدّ عدوٍ لي ؟ "

" لا تنجس شفتيك بذكر تهمةٍ لا يصدقها قلبك . اني اخوك يا صلاح الدين . فكيف يمكنني ان اكون عدوّك ايضاً ؟ اسمع . ان الوقت اقصر من ان يسمح لنا باطالة الكلام . انك منطلقٌ لا محالة . اما انا فلست بذاهب معك . اني باقٍ هنا . لا تخف عليّ . فقد وجدت مخبأً لا يعرفهُ احدٌ من الافرنج ويحتم عليّ ان اكتم سرّهُ حتى عنك . على اني لا اتأخر عنك كثيرًا . انتظرني في قيصريّة فاوافيك بعد ثلثة ايام ومعي متيلدة "

" اميرة انكلترة ؟ "

" نعم . ان قلبها لي . وقد أُعطيتهُ منذ وقت طويل . وهي اوفى من ان تخلف وعدها . خذ رجالك معك فلستُ في حاجةٍ الى سوى خالدٍ . اني عالم ببسالتهِ وواثق باخلاصهِ "

وبعد انطلاق السلطان ورجالهِ ذهب الملك العادل وخالد الى جهة الشاطيء حيث

وجدا كهفًا يسترهما عن العيون . وفيهِ ترتّب على خالد ان يبقى منتظرًا رجوع الملك العادل معدًّا لهُ جوادين من اكرم الجياد العربيّة

ثم سار الملك العادل الى قبر مونمورانسي ينتظر متيلدة

الفصل الاربعون

مهلة ثلثة ايام

وبعد انطلاق الملك العادل غادرت متيلدة مصلّى الملكة الى مخدعها القريب منهُ وجلست تنتظر رئيس الاساقفة وهي في حالة يرثى لها من شدة القلق والاضطراب والحزن والاكتئاب. ولما دخل ورآها على هذه الحالة كاد قلبهُ ينفطر حزنًا عليها واخذتهُ حيرة شديدة حبست لسانهُ عن الكلام . ثم تغلّب على انفعالهِ وقال لها :—

" هل انتِ مستعدّة يا ابنتي للاصغاء الى كلامي "

" تكلم يا أبتِ "

" يجب عليكِ ان تقبلي ما قسمهُ الله لكِ بملء الطاعة والتسليم بل بالحمد والشكر "

"ألا يجب علينا في هذه الحياة الدنيا شيءٌ آخر غير التسليم ؟ اما من حوادث او احوال تقتضي العمل ايضًا ؟ الا يمكن بعض الاحيان ان مشيئة الله تظهر غير موافقة لما يطلبهُ الضمير وحينئذٍ نرى النور الذي وهبهُ الله لنا لنميز بهِ الصحيح من الخطإِ ؟ "

واذ ذاك دخلت الملكة وقالت :—

" استأذنك يا أبي في استماع ما تروم ان تقولهُ لشقيقتي "

فساءهُ جدًّا دخولها وتضييعها عليهِ فرصة انفرادهِ بمتيلدة للوقوف على اعترافها لكنهُ تجلّد كعادتهِ وشرع في حديثهِ فقال :—

" لما برحتُ عكاء ذهبتُ رأسًا الى قيصرية فلقيني بعض الضباط وظنوني زائرًا وقالوا لي ان الملك العادل ذهب يتعهّد عسقلان ويافا . فسرت الى المدينة الاولى ولم ارهُ فيها فقصدت الثانية وعلمت انهُ لم يأتِها . واذ حاولت الوقوف على الخبر اليقين من جهتهِ ارتابوا مني وعرفني المشطوب جيدًا كما قلت في هذا الصباح وحكم عليَّ بالموت . وقلت ايضًا ان الملك العادل جاء اخيرًا كأنهُ بمعجزةٍ من السماء واطلقني في اليوم المعيّن لقتلي . وليست هذه اول مرةٍ اعاد لي فيها حياتي وحريتي . ففي دمشق — كما في يافا — كنتُ لولاهُ مزمعًا

ان اقضي حياتي في السجن او اموت من شدة العذاب وكأن هذا الامير الكريم يتبعني على الدوام لينقذني من الموت و يضاعف ديني لهُ ووجوب وقف حياتي على خلاصهِ . ولكن يظهر ان الساعة لم تأتِ بعد ولا يمكنكما يا ابنتيَّ ان تتصورا ما بذلتهُ من الجدّ والاجتهاد في اقناعهِ وما اظنُّ لساني يستطيع ان ينطلق بمثل البراهين المقنعة والادلة المفحمة التي اوردتها لهُ وبلغتُ من المساهلة معهُ ما تعدَّيتُ بهِ حدود السلطة المعطاة لي ورضيتُ بانهُ اذا قبل ما اعرضهُ عليهِ لم يُطلَب منهُ حمل السلاح ضدّ بلادهِ فأصرَّ على زعمهِ انَّ قبولهُ ما نطلبهُ منهُ يكون بمثابة معاداتهِ لصلاح الدين . واكَّد لي انكِ تُعطَين الحرية المطلقة في ممارسة شعائر دينك وربما جاراكِ في البعض منها . ولكني لم استطع الاعتماد على وعدٍ مثل هذا "

فقالت متبلدة : —

" لستُ مخالفةً لك في هذا "

" اذاً تقوّي يا ابنتي تقوّي . انشطي من عقال الضعف المستحوذ عليكِ ولا تستسلمي لخوار العزم "

وحقًّا كانت في خوار عزم لا مزيد عليهِ حتى انها وهو يكلّمها سقطت على كرسيها الى الوراء وأُغمي عليها من شدة الاعياء وظلت عدة ساعات تراوح بين الموت والحياة . وبعد غروب الشمس أفاقت وطلبت الرجوع الى مخدعها

ومع تصميمها على موافاة الملك العادل في الصباح صممت ايضاً أن تطلع رئيس الاساقفة على ذلك ووجود الملكة حال دون كلامها معهُ في هذا الموضوع وكان من الضروري ان تراهُ قبلما تنام فارسلت احد حجابها اليهِ وأمرت بأن تبقى ابوابها مفتوحة الليل كلهُ

وفيما هي تنتظر قدومهُ سمعت وقع اقدام خارجاً فنهضت لاستقبال زائرها واذا بهِ اخوها رتشرد وما عتم ان جلس وقال لها : —

" لا اكتم عنك سروري بتصرُّفك في هذا اليوم وحسن صبرك على التضحية العظيمة التي دعاكِ الواجب اليها . لكنهُ باقٍ عليك تضحية أخرى لا تقلُّ عنها شأناً وخطارةً ولاجلها جئت الآن لاتكلم معك . فلا يخفى عليك اننا سنعود عما قليل الى قتال العرب ولا بدَّ ان رفضنا لشروط صلاح الدين يغيظهُ جدًّا ويزيدهُ إقداماً علينا رغبة في التشفي والانتقام وسيبذل اخوهُ اشد قوة يستطيعها حتى يتمكن من اختطافك من ايدينا . هذا من جهة . ومن جهة أُخرى ترين عساكرنا ملُّوا القتال وأخذوا يتذمرون من كثرة مقاساة الاهوال وشدة معاناة الاخطار وطول زمان تغرُّبهم عن الاهل والاوطان في سبيل استرجاع عرش القدس

لملك افرنجي مستشرق (لوسيان) . فاذا تحققوا ان اميرة من دمي تشاركهُ في هذا العرش هان عليهم تجشم هذه المخاطر كلها وزادوا حماساً ونشاطاً وبسالة واقداماً. وقد ادركت مرادي من هذا كلهِ وعلمت ان الواجب عليك للدين والوطن والامة يقضي بقبولكِ لوسيان زوجاً لك على الفور بلا تردد ولا ابطاء لان الضرورة اشد مما تظنين والوقت لا يسمح بالتأخر. وبعد ثلثة ايام سنزحف على قيصرية وعسقلان ويافا ومن ثم نتقدم الى القدس . فلك ثلثة ايام تستعدين فيها للاحتفال باقترانك بهِ "

فاجابتهُ متيلدة برصانةٍ وتجلدٍ : —

" اشكرك لانك امهلتني ثلثة ايام. وهذه المدة يجب ان اقضيها بالعزلة والانفراد للتأمل والاستعداد حتى اتمكن من القيام بهذا الواجب العظيم . فما اظنك تبخل عليَّ بمفتاح قبر مونمورانسي هذه المرة فقط "

" هذا هو . خذيهِ ولا تنسي اني لن اسمح لكِ بعد الآن بدخول ذلك المكان "

وبعد خروج أخيها دعت اليها هرميون واوصتها بأن تقفل الابواب الليل كلهُ ولا تسمح بالدخول لاحد ولو كان رئيس اساقفة صور وان تكون مركبتها في الصباح معدة للذهاب بها الى قبر مونمورانسي

الفصل الحادي والاربعون

عبرة وذكرى

وفي الصباح دخلت هرميون الى متيلدة واخبرتها بان كل شيء معدٌّ لانطلاقها. فخرجت على الفور الى حيث كانت المركبة تنتظرها وسارت بها الى سفح الربوة فنزلت منها وصعدت الى القبر وفتحت بابهُ ودخلت ومن شدة اضطرابها وهياجها غفلت عن إغلاق الباب وراءها فظلَّ مفتوحاً الى نصفهِ وغفل الملك العادل ايضاً عن هذا الامر وخفَّ الى استقبالها فاشاحت عنهُ وقالت لهُ : —

" اتركني . اتركني "

ثم جثت امام تابوت مونمورانسي وصاحت بين التنهد والزفير : —

" هنا يا الهي كل شيء ناعم بظلال الراحة والسلام . فالسلام مخصوص بالمقابر . لكنَّ

قلبي قبر آمالي وسعادتي ولا راحة ولا سلام فيهِ : — لماذا دعوتني الى هنا ايها الملك العادل؟ ماذا تريد مني ؟ هل تروم ان تطلعني على مكروهٍ آخر ؟ ما وراءك من الكوارث التي خبأها لي القدر؟ تكلم . أعلن مقاصدك . لقد حان الوقت لنهاية كل شيء "

فهاله ُ ما رآه ُ عليها من علامات الاضطراب وقال لها : —

" سكّني روعكِ قليلاً واخبريني بما أوجب انزعاجك "

فاطلعتهُ على تفصيل ما قالهُ رئيس الاساقفة لها وأمرها اخوها بهِ فقال لها : —

" لم يبقَ لكِ سوى امرٍ واحدٍ وهو ان تهربي معي . يجب ان ارجع بكِ غداً الى بلاط صلاح الدين "

فتنحّت عنهُ وقالت : —

" غفر الله لك هذا العزم الباطل والرأي البعيد عن الحكمة والصواب ! "

فذكَّرها ما عاهدتهُ عليهِ في البادية ووعدها بانها تكون شريكة لهُ في الجلوس على عرش القدس ولها الحرية المطلقة في ممارسة عقائدها الدينيَّة وانهُ لا يتأخر حينئذٍ عن الانضمام اليها والاشتراك معها في ما تريدهُ . واطال الكلام في هذا الموضوع باذلاً جهدهُ في اقناعها وحملها على التسليم معهُ بالهرب وهي ساكنةٌ لا تحير جواباً ولا تبدي اعتراضاً . فعدَّ سكوتها قبولاً وتسليماً وقال لها : —

" ارجعي الى عكاء واحرصي على كتمان هذا الامر حتى عن الملكة ورئيس الاساقفة وغداً اخرجي حسب عادتكِ للتنزهِ واجعلي سائق المركبة يسير الى جهة جبل الكرمل فلا يبلغ الكهف الذي على الشاطىء حتى تكوني قد نجوتِ . واذا لم توافيني غداً دخلت عكاء طالباً حياة لوسيان وربما حياة ... "

واعترض ثمة حديثهِ وقوف رئيس اساقفة صور في العتبة . رآهما وعرفهما وصاح على رغمهِ صياح الكره والاشمئزاز

فلم تفكر متيلدة الاّ في الخطر المحدق بمن تحبهُ . ولهذا اندفعت الى رئيس الاساقفة وقالت لهُ بصوت اجشّ : —

" احذر يا ابتِ ! فانَّ كلمة واحدة تكفي للقضاء عليهِ ! تعالَ لنخرج من هنا مسرعين قبل أن يصل حرَّاسي الذين ذعرهم صراخك ويبغتوهُ — الوداع ايها الملك العادل ! "

وما خرجت برئيس الاساقفة واغلقت الباب وراءها الاّ وحرَّاسها قد اقبلوا ملبين نداء الاستغاثة الذي سمعوهُ فصرفتهم قائلةً لهم ان الصوت نشأ عن توهم خطر على حياتها

اما رئيس الاساقفة فعلى رغم شدة ثقتهِ بطهارة متيلدة وسمو شرف الملك العادل لم يستصوب اجتماعهما . وبعد التأمل والافتكار بدا لهُ أن يعدل عن الكلام في وعظ متيلدة وارشادها الى ما هو اوقع واشدُّ تأثيرًا فقال لها وهي على اهبة الدخول الى مركبتها : —

" اراكِ مسرعةً في الرجوع على خلاف عادتكِ . ان الوقت يسمح لكِ اذا اردت ان تصحبيني قليلاً الى احد الاكواخ وراء هذا الصخر الكبير الذي امامنا "

فاشارت اليهِ بالقبول وسارا معًا حتى بلغا كوخًا حقيرًا كان على بابهِ عجوز تغزل وبجانبها اربع بنات صغيرات يعملن سلالاً فاجتازاهُ الى كهفٍ وراءهُ واذا بصراخ حاد يمزق الآذان وامرأة مطروحة على بابهِ تقرع صدرها قرعًا عنيفًا وتوغل في العويل . فقبضت متيلدة بيديها على ذراع رئيس الاساقفة واسرَّت اليهِ والخوف آخذ منها كل مأخذٍ : —

" هذه اغنس ! "

" نعم . ففي عهد فضيلتها كانت مثلكِ جميلةً وبها افتخر شعبها وتباهى آلها . لكنها لما استسلمت لاميالها هوت من يفاع مجدها وحال لون جمالها وزال ظلُّ عظمتها ولم يبق من ابنة اموري الشهيرة سوى مظاهر جنون بادية لعينيك … "

وكان صوت الصراخ يعترض كلامهُ وهو آخذ في الاشتداد ومردّد لذكر الملك العادل . فتوسلت اليهِ متيلدة ان يعود بها لانهُ لم يعد في طاقتها الصبر على هذا المشهد المخيف . فرجع بها من حيث اتى ودعا اليهِ العجوز التي اقامها على حراسة اغنس وأوصاها بها واعطاها مبلغًا من من الدراهم وسار بمتيلدة الى حيث كانت المركبة في انتظارها فادخلها اليها وجلس بجانبها وقص عليها قصة اغنس فقال : — " انها بعد فرارها من المعركة التي انتهت بموت مونمورانسي حاولت مرارًا لا تحصى ان ترى الملك العادل فلم يسمح لها . ولما بلغها خبر قدوم الوفد الى عكاء لاجل خطبتكِ فارقها صوابها وجنّت . وقد لقيتها في قيصريَّة كما شاهدناها الآن فسعيت باحضارها الى هذا المكان واملي ضعيف جدًّا بشفائها "

الفصل الثاني والاربعون

الهرب الى الدير

وبالجهد تمكنت متيلدة من الحصول على شيءٍ من الراحة التي كانت في اشد الاحتياج اليها حتى ارسل اليها اخوها الملك رتشرد يقول انهُ قادم لزيارتها ومعهُ لوسيان. فقالت في نفسها : —

" ارى انهُ لا بدَّ لي من المواربة والمداجاة لانهما سلاح العاجز المظلوم في هذا العالم

الشرير ! اذًا سأداجي وأُداهن ولو على رغمي "

ثم جلست الى كتابة بعض اسطر لم تكد تفرغ منها حتى سمعت وقع اقدام اخيها ولوسيان فنهضت لاستقبالهما وعليها سمات الانفة والإباء. فاقبل لوسيان اليها وبعد ما حيَّاها بما لا مزيد عليهِ من التلطف قال لها : —

" أيحقُّ لي ان اعلّل نفسي بإمكان تنازلكِ لاجابة سؤلي ؟ "

" لولا ثقتك بذلك لما أقدمتَ يا سيدي على المجيء الى هنا "

ثم التفتت الى اخيها وقالت : —

" تذكَّر انك عينت لي يومين افضيهما في الاستعداد . وهذا حسبي فلا استزيدك شيئًا سوى ان افضي هذا الوقت الوجيز وحدي على انفراد "

وقبلما يتمكن رنشرد من الجواب سبقهُ لوسيان فقال : —

" ليكن لكِ ما طلبتِ وسأتحمَّل عناء فراقكِ في هذين اليومين بالصبر ولا أكدّر صفاء انفرادكِ . "

ثم حيَّاها وخرج . فالتفت اليها رنشرد بعين التبرُّم والاستياء وقال لها : —

" استعدّي لقبول ما اوجبتهُ عليكِ — الاقتران بلوسيان — في الوقت المعين — بعد يومين . واياكِ ان تحاولي تأخير ذلك دقيقة واحدة "

وخرج على الفور من غير ان يمهلها دقيقة للجواب . على انَّ تهديدهُ لم يكن لهُ اقلُّ تأثير فيها ولم يثنها عما عزمت عليهِ قبل مجيئهِ اليها

وفي الصباح التالي نهضت عند شروق الشمس وخرجت في مركبتها حسب عادتها وامرت السائق ان يسير في طريق البحر الى المكان الذي عينهُ لها الملك العادل . فلما بلغتهُ لقيها رجلان بالسلاح الكامل فاحاط بها حرَّاسها واستعدُّوا للدفاع عنها واماط الملك العادل اللثام عن وجههِ ودخل بينهم فلما رأوهُ وعرفوهُ وقفوا من شدة خوفهم جامدين لا يبدون حراكاً . فالتفتت اليهم متيلدة وقالت : —

" خلوا عن المقاومة فانها لن تجديكم نفعاً . واعلموا اني بارادتي واختياري سمحت للملك العادل ان ينقذني من سلطة جائرة كادت تكرهني على اقترانٍ يروعني مجرَّد افتكاري بهِ "

ثم التفتت الى الملك العادل وقالت : —

" وعدتك ايها الملك ان اوافيك الى هنا وقد وفيت بوعدي . ووعدتك ايضاً ان اهرب معك وها انا مستعدة لذلك. فلا تنس انت ايضاً ان تفي بوعدك لي وهو اني اعيش حيث انا

ذاهبة عيشة الزهد التام والانقطاع المطلق فلا ارى احدًا ايًّا كان ولا يمنعني احد من القيام بواجباتي الدينيَّة كما أُريد "

"سيكون لكِ كل ما طلبتِ "

" هل يؤذن لي ان اختار المكان الذي انقطع فيهِ ؟ "

" نعم "

فاشارت الى الدير الذي على قمة جبل الكرمل وقالت : —

" خذني الى هناك فانهُ المكان الوحيد الذي فيهِ استطيع ممارسة واجباتي الدينيَّة بعيدة عن كل انسانٍ "

" لقد خدعتني يا متيلدة "

" كلاَّ لم اخدعك . ولا يخفى عليك اني بذهابي الى الدير اعيش مكرَّمةً من الناس ومباركةً من الله اما انطلاقي معك الى بلاط صلاح الدين فيقضي عليَّ بالملامة وابقى مدى حياتي عرضة لتوبيخ الضمير . ولقد فوَّضت امري اليك فاختر لي ما يحسن في عينيك "

فصعد الملك العادل الى مركبتها وادارها في طريق الدير حتى اشرفوا عليهِ فقال لها :—

" لقد اطعتكِ ولست بنادم على ذلك على رغم ما احمّلهُ من العناء في سبيل مقاومة اميالي والتغلّب على عواطفي . على اني اخاف ان الذين انقذتكِ من ايديهم يتبعونكِ الى هنا ويرجعون بكِ الى عكاء ويكرهونكِ على الرضوخ الى حكمهم الظالم الفظيع "

" لا لا تخف . لا يجسرون ان يتعدوا باب هذا الحرم المقدس . انهُ بيت الله وما من احدٍ على الارض يقدم على انتهاك حرمتهِ المقدسة "

واذ ذاك بلغت المركبة مرتفعاً لم يمكنها اجتيازهُ فوقفت ونزلت متيلدة منها واوعزت الى حرَّاسها ان يصحبوها الى ابواب الدير وخيَّرت نساءها فاخترنَ البقاء معها على الرجوع الى عكاء ومدَّت يدها لوداع الملك العادل فابى الاَّ ان يوصلها الى بوَّابة الدير . فلما بلغتها حيَّتهُ تحيَّة الوداع ودخلت وعاد الملك العادل وخالد الى حيث تركا جواديهما فامتطياها و بعد بضع ساعاتٍ كانا في قيصريَّة

وكان صلاح الدين يتوقع رجوعهما بفروغ صبر فلما خلا باخيهِ قال لهُ : —

" ساترك السؤال عن الاسباب التي حالت دون مجيء متيلدة معك الى فرصة اخرى . اما الآن فاخبرك باني ذاهب لتحصين عسقلان وساترك قيصريَّة في يديك وقلبي مطمئنٌ من جهتها ما دام حسامك مسلولاً للذود عنها

الفصل الثالث والاربعون

"لستُ بصافحٍ عنها!"

ولما رجع حراس متيلدة الى عكاء وجدوا الاضطراب عابثاً بالمعسكر واليأس مخيماً على لوسيان والغيظ آخذاً كل مأخذٍ من رتشرد والحزن والجزع متمكنين من الملكة ورئيس الاساقفة وكانوا قد استبطأوا متيلدة ولم يعرفوا شيئاً عن غيابها حتى دخلت الملكة الى مخدعها ورأت على مكتبتها كتاباً معنوناً باسم اخيها رتشرد فاخذتهُ الى رئيس الاساقفة وطلبت اليهِ ان يوصلهُ الى الملك فسار بهِ الى رتشرد ورفعهُ اليهِ فتناولهُ بغضبٍ لامزيد عليهِ ومزّق غلافهُ بيد الحنق وقرأ فيهِ ما ترجمتهُ : —

" برحت عكاء لانجو من سلطةٍ جائرة تعدّت حدود العدل والتخلص من اقترانٍ لا اريدهُ ولا ارضاهُ . اني عالمة بتأثير فراري في اخي فلا اطمع بصفحهِ وغفرانهِ ولكنّ الله الذي يقرأ ما في ضميري ويعلم طهارة قلبي لا يبخل عليّ بصفحهِ وغفرانهِ "

ولما فرغ من تلاوتهِ صاح باعلى صوتهِ : —

"صدقتْ صدقتْ . فلست بغافر لها ولا صافح عنها!"

وظلّ رتشرد ولوسيان وباقي الملوك والامراء على ما ذكرنا من الهياج والاضطراب الى مغيب الشمس حين رجع حرّاس متيلدة واخبروا باجتماعها بالملك العادل وانقطاعها في دير الكرمل فأُعجب بعضهم بصدق عزمها واستحسنوا ترفعّها عن قبول عرشٍ محفوف بالخلاف الديني وكان بعضهم مستعدين لان يعذروها ويصوبوا عملها لو قبلت ما عرضهُ صلاح الدين ورفضهُ مجلس الاساقفة ونجت من اقترانٍ تكرههُ بالهرب مع من تحبهُ . لكن اصدقاء رتشرد ولوسيان عابوا تعلقها بالملك العادل ورفضها زواجاً اوجبتهُ مصالح الكنيسة . اما رتشرد فساءهُ جداً ان يرى هذا العصيان من شقيقتهِ واعلن عزمهُ على الذهاب في الغد الى الدير واخراجها منهُ واكراهها على الاقتران بلوسيان . فاعترضهُ رئيس الاساقفة بقولهِ : —

" لا يخفى على جلالتك ان قوة الله اسمى من قوتك . وبيتهُ حرم مقدس لا يحل لك ان تدخلهُ على هذا الوجه . وخيرٌ لنا ان ننسى اميرة انكلترة ونعدها كأنها لم تكن ونهتمّ بما فارقنا اوطاننا واجتمعنا هنا لاجلهِ . هوذا قيصرية امامكم! والملك العادل حاميها! فهلمّ بنا اليها "

وحينئذٍ رأى رتشرد ان يرسل الملكة الى الدير لتكون مدة غيابهِ في أمنٍ من غزوات العرب وغاراتهم فارسلها مع رئيس الاساقفة واوصاهُ ان يبذل جهدهُ في اقناع شقيقتهِ بالرجوع الى طاعتهِ

ولما بلغ رئيس الاساقفة الدير دعا الراهبات اليهِ واظلعهنَّ على سبب مجيء متيلدة والملكة اليهنَّ وبعدما اوصاهنَّ بالصلاة لاجل نجاح البعثة ونصرتها صرفهنَّ وخلا بمتيلدة وقال لها

" لو اطلعتني على قصدكِ وكلّفتني ان أُساعدكِ على إتمامهِ لدللتكِ على طريقةٍ اليق بكِ واضمن لحفظ شرفكِ فكنتُ اصحبكِ بنفسي الى هنا وأُخبر العالم باني مطَّلعٌ على مقاصدكِ وموافقٌ على مقاومتكِ لاخيكِ في ما طلبهُ منكِ . على انَّ إِصراركِ على طلب الاقتران بالملك العادل بعدما رفض شروطنا يعدُّ اثماً عظيماً وذنباً لا يغتفر . وبعبارةٍ اخرى اقول لك اني موافق على رفضكِ الاقتران بلوسيان اذا كنتِ لا تنوين الاقتران بالملك العادل "

" اني مرتبطة بوعد لا اعلم كيف اتخلّص منهُ . فاذا كنتَ تحلّني من هذا القيد فاني اودع كل ما في هذا العالم واقضي غابر حياتي ضمن هذه الاسوار منسية من جميع بني جنسي كاني في قبر وما لا تراهُ عيونهم يسهل على قلوبهم نسيانهُ "

ثم اطلعتهُ بالتفصيل على جميع الحوادث المهمة التي جرت منذ برح عكاء الى قيصريَّة واخبرتهُ بكل ما عرض لها من المصاعب والمقاومات . فشكرها من صميم فؤادهِ على شدة اهتمامها بسلامتهِ وارسالها الملك العادل للتفتيش عنهُ والسعي في انقاذهِ من مخالب الموت ولكنهُ لم يستطع السكوت عن لومها على استخدام الملك العادل في هذا السبيل واضطرارها الى وفاء دينهِ بما هو اعزُّ منهُ واغلى اذ حملها على ان تعدهُ بانها لا تستعيد نذر البتولية الاَّ برضاهُ وارادتهِ . ثم اوصاها بان تستودع الله نفسها وتخضع الخضوع التام لقوانين الدير وعاداتهِ وتجاري الراهبات في الملابس والمآكل وفروض الصلاة وطرق العبادة وغيرها

الفصل الرابع والاربعون

معركة قيصرية

وكانت قيصرية قد تمنعت بأَسوارها وحصونها وابراجها وخنادقها وعزَّت فوق هذا كلهِ بقائد حاميتها البطل المغوار الملك العادل فلم تعبأْ برؤْية جيش الافرنج كلهِ زاحفاً لمحاصرتها

وتوسَّل العرب غير مرةٍ الى الملك العادل ان يسمح لهم بالحمل على محاصريهم والايقاع بهم فأَبى لانَّ امانتهُ لاخيهِ قضت عليهِ بوجوب الدفاع عن قيصرية ولكنَّ حبهُ لمتيلدة اوجب عليهِ تجنب سفك دماء الافرنج — وهذا الاعتبار الاخير المكتوم في اعماق صدرهِ لاح تأْثيرهُ في اعمالهِ وتصرفاتهِ فظهر عليها شيءٌ من التحرز والتوقي وهذا فسرهُ الافرنج خوفاً

وجبناً فطمعوا بهِ وزادت جرأتهم عليهِ وواصلوا الحمل والهجوم على الاسوار ورتشرد ولوسيان في مقدمتهم حتى ثغروا جانباً من السور الشرقي واقتحموهُ غير هيابين· واذا بسورٍ من خشب مدهون بزيت النفط قد أُقيم وراءهُ وأُشعل فانقد انقاداً مخيفاً· وفيما هم يستعدون لاجتيازهِ ابصروا وراءهُ سوراً ثالثاً مؤلفاً من نخبة رجال العرب ومعهم قائدهم الباسل الملك العادل · فاخذتهم كلهم رعدة عظيمة وسرى خوفهُ من صف الى آخر حتى اركنوا جميعهم الى الفرار على رغم اجتهاد قوادهم وضباطهم في منعهم عنهُ · واذ رأى رتشرد ولوسيان انهما بقيا مع بعض رجالها الامناء عرضة لخطر الامر لم يجدا بُدًّا من التقهقر فرجعا الى المعسكر يواريان عار فشلها وينظران في تدبير آخر

وكأَنَّ رجال الافرنج شعروا بالعار الذي لحقهم من جراء انكسارهم فعزموا على الثبات بنفسٍ واحدة . وقضوا اياماً في التأهب والاستعداد لمعركة يحرزون فيها نصراً مجيداً ينسيهم عار انكسارهم· وفي اليوم المعين صوَّب رتشرد ولوسيان ودوق برجندي حملتهم على جهة معينة وقد اعانتهم الكباش والمجانيق وغيرها من معدات الدك والتدمير على هدم البرج الذي هاجموهُ وانصبت وراءهم كماة الافرنج يزحمون بعضهم بعضاً لاحتلالهِ ولكن العرب القوا فيهِ اكداساً من الهشيم واشعلوها وتصاعد عنها سحب دخان كثيف كادت تخنق المهاجمين ولما اضمحل الدخان انكشف وراءهُ سورٌ منيع مرصوص بالرماح والحراب والمزاريق وقد أُقيم على غاية ما يستطاع من الضبط والاحكام حتى ان الناظر اليهِ لا يستطيع ان يرى واحداً من الرجال الذين اقاموهُ. وقد حاول الافرنج عبثاً وباطلاً ان يتقدموا ويخترقوهُ فصدوا ولم يستطيعوا. وكان رتشرد قائماً بجانب لوسيان فقال لهُ : —

" ان هذا المانع الذي اعترضنا الآن لم يخطر قط ببالنا . لكن قيصرية لا بُدَّ من اخذها على كل حالٍ · فلنقتحم هذا السور امام رجالنا واذا لقينا حتفنا بهِ فقد نفيد الماجين وراءنا ونعدُّ لهم سبيل اختراقهِ "

فصاح لوسيان برجالهِ وقال : —

" ان اكاليل الاستشهاد وراء هذا السور واذا اردتم الحصول عليها فاتبعوني "

ثم حمل على السور وتبعهُ رجالهُ على الاثر ولكنهم اخذوا يسقطون في اسفلهِ صفاً بعد صفٍ حتى اضطر لوسيان الى النكوص وهكذا فعل دوق برجندي

اما رتشرد فكان قد نفذ من ثغرةٍ الى خندق وقام فيهِ وحدهُ مكافحاً مجالداً وقد انساه تحمسهُ انهُ اصبح وحدهُ · فلما رآهُ العرب عرفوهُ واخذوا ينادون بعضهم بعضاً : —

" هذا ملك انكلترة ! هذا قلب الأسد ! "

وقال واحدٌ وقد عرفهُ الملك جيداً : —

" هذا رتشرد ! رتشرد على الاقدام ! إئتوهُ بجوادٍ ! "

فاطاعوا امر قائدهم واتوا الملك بجواد كريم ورجعوا الى المدينة حيث كان الملك العادل مشغولاً بترميم الاسوار المتهدّمة · وعاد رتشرد الى المعسكر يتعثّر باذيال الخيبة والفشل وقد اذلهُ الانكسار وأحفظهُ تفضل عدوهِ عليهِ بمعروف جديد

ووقف لوسيان في خيمتهِ يغشاهُ الدم والغبار ويقلبهُ الغيظ على احرّ من النار واخذ يفكر في امرهِ فرأى ان شجاعتهُ كذبتهُ ولم تمكنهُ من نيل الظفر الذي علل نفسهُ بهِ وعزم ان يناله بوسائط اخرى يخفيها عن رتشرد لعلمهِ انهُ ينكرها عليهِ ولا يسمح بها اذا غايرت قوانين الشرف ولو آلت الى فتح القدس

ولكنهُ مع هذا كلهِ عزم على استخدام هذه الوسائط ولما دخل اليهِ ملك انكلترة لم يكلمهُ شيئاً بخصوصها بل قال لهُ : —

" لا فائدة من محاولة استئناف الهجوم · ومن الواجب علينا ان نطلب في مكانٍ آخر انتصاراً مهمّاً يشدّد عزائم رجالنا · وهذا يقضي بقسمة قواتنا وتحوُّل احدنا لمهاجمة صلاح الدين وبقاء الآخر هنا يرقب حركات الملك العادل ويحول دون خروجهِ لنجدة اخيهِ · فازحف بجيشك على صلاح الدين وانا القى الملك العادل "

فوافقهُ رتشرد على هذا الرأي واطلع بقية القواد عليهِ وانقسم الجيش الى قسمين قسم تولّى رتشرد قيادتهُ وخرج بهِ الى جهة عسقلان . والقسم الآخر جعلت قيادتهُ العامة بيد لوسيان

واقام الافرنج في معسكرهم منقطعين عن الهجوم وانتهز الملك العادل هذه الفرصة فأكبَّ على اصلاح ما تهدّم من الاسوار والحصون

وفي ذات يوم نزل بعض جنود العرب الى خندق للترميم فلقوا احد جنود الافرنج قائماً هناك يراقب حركاتهم فقبضوا عليهِ واتوا بهِ الى اميرهم · فلما رأى الملك العادل اضطرب جداً فظنّ الملك العادل ان اضطرابهُ ناشئٌ عن الخوف فاحتقرهُ وقال لهُ : —

" اليس في معسكر الافرنج جنديّ اربط منك جأشاً واشدُّ بسالةً وإقداماً فيرسل في هذه المهمة الخطيرة ؟ "

" ان اضطرابي لم ينشأ يا مولاي عن خوفي على حياتي التي لا قيمة لها بل عن توبيخ الضمير لخيانةٍ ذكرتها حين رأيتك ! "

" ايّة خيانةٍ تعني ؟ تكلم "

" يجب ان احدثك على انفراد "

فاومأ الملك العادل الى الحاجب الواقف امامهُ ان ينصرف وألقى العربيُّ نفسهُ عند قدميهِ وقال بلهجة ذل وانكسار يقطعها التنهد :--

" لا استحق الحياة بعدما شاهدت بعيني اذلال متيلدة . ولا بدَّ انها الآن تلومك اشد اللوم على تأخرك عن اغاثتها وانقاذها ! "

" اختصر وصرِّح ! "

" اخاف غضبك فلا اجسر ان اصرّح "

" منحتك عفوي . اسرع في الكلام واختصر "

" شكرًا لك يا مولاي . لعلهُ لم يفت وقت التدارك والتلافي "

" خلِّ عنك الاطالة والتفصيل واخبرني بالاختصار فقد فرغ صبري "

" لما رأى رتشرد انهُ لا فائدة من تكرار الحمل والهجوم على اسواركم زحف بنصف الجيش على عسقلان ليباغت السلطان ويمحو عار هربهِ من وجههِ . وظل لوسيان قائد الجيش العام في المعسكر

" وبعد انطلاق ملك انكلترة اخبر لوسيان قادة الجيش قائلاً " ان رتشرد سيعرّج في طريقهِ الى عسقلان على دير الكرمل حيث ينتظر مجيئي ويرئس احتفال اقتراني باختهِ الجميلة فننتقم كلانا من الملك العادل ونقضي على آمالهِ "

" وشخص لوسيان الى دير الكرمل مصحوبًا ببعض الحرّاس الذين كنت واحدًا منهم . وقد كذب على قادة الجيش وضباطهِ . وسعى بابعاد رتشرد ليتمكن من اتمام مقاصدهِ . وقد شاهدتهُ بعيني منتهكاً حرمة الدير ورأيت اميرة انكلترة واقفة بين يديهِ خاشعة ذليلة وهو سادٌّ اذنيهِ عن سماع توسلاتها . وقد أُمر ان تزين كنيسة الدير وتعدَّ للاحتفال بصلاة الاكليل في الغد

" ولما رأيت هذا كلهُ هاجت بي عاطفة المروَّة والشفقة على تلك المنكودة الحظ وقلت لعلي اتمكن من السعي في انقاذها مما يتهددها . ولهذا لم البث ان خرجت تحت جنح الظلام اجدُّ السير حتى بلغت اسوار قيصرية وطفقت اطوف حولها متوقعاً بفروغ صبر ان يقبض عليَّ احد رجالك ويحضرني اليك . واعظم جزاء اتوقعهُ منك هو ان تأذن لي في البقاء في قيصرية لكي انجو من عقاب لوسيان واتمكن فيما بعد من القيام بخدمة سمو الاميرة متيلدة "

فوعدهُ الملك العادل باجابة سؤلهِ وتلطَّف جدًّا في شكرهِ والثناء عليهِ ولما اقبل الليل دعا اليهِ خالدًا ومحمدًا اشدّ رجالهِ اخلاصًا وامانةً وقال مخاطبًا ثانيهما :—

" انَّ امرًا ذا شأن يستدعي غيابي عن قيصرية مدة يومين وسأقيمك على حراسة المدينة والدفاع عنها . وقد بلغني من مصدر يوثق بهِ ان رتشرد ولوسيان غائبان عن المعسكر وان الافرنج لا يجسرون على الهجوم مدة غيابهما . واما انت يا خالد فانتخب لي ثلثين رجلاً من افضل رجالي امانة وشجاعة واقدامًا واعدَّهم لعمل محفوف بالمخاطر لاني عازم على مهاجمة عدوّي اينما وجدتهُ ولو كان مخفورًا بالوف من الابطال الصناديد "

الفصل الخامس والاربعون

اختطاف متيلدة

وما ابطأ خالد ان اعدّ الثلثين فارسًا واتى بهم الى الملك العادل فركب في مقدمتهم وقام ينهب الارض قاصدًا جبل الكرمل . وعند طلوع الفجر اقبل على الدير وكان من شدة عدوهِ واسراعهِ سابقًا لخالد وبقية رجالهِ . فاخذ بعنان جوادهِ ريثما لحقهُ خالد فقال لهُ مشيرًا نحو الدير :—

" ان لوسيان هناك "

" اوَ لاجلهِ جئتَ الى هنا "

" جئت اطلبهُ لاعاقبهُ على كذبهِ وانقذ متيلدة من يدهِ "

" لو علمتُ هذا في قيصريَّة لما وافقتك ان تجيء الأعلى جثتي "

فلم يحفل الملك العادل بكلامهِ بل ظلَّ يعدو مسابقًا البرق ورجالهُ يجرون وراءهُ حتى بلغوا الدير واخترقوا حجاب السكوت السائد هناك بصليل اسلحتهم وخفق نعالهم وكانت بوابتهُ الكبيرة مقفلة فامر الملك العادل بفتحها ودخل يجوس خلالهُ مفتشًا لعلهُ يجد اثرًا لعدوهِ واخذ يصغي فلم يسمع سوى اصوات ترنيم الراهبات فسار في جهة الصوت حتى بلغ كنيسة الدير فدخلها فرآها مزدانة بالرياحين والازهار ومغشاة بدخان البخور ومنارة بالشموع . وكان رئيس اساقفة صور قائمًا بحلتهِ الاسقفية ويداهُ ممدودتان كانهُ يبارك الراهبات الجاثيات امامهُ بحلل سود وفي وسطهنَّ متيلدة قائمة بحلةٍ بيضاء

ولم يتعوَّد الملك العادل رؤْية مثل هذه الشعائر من قبل فظنها من شعائر الزواج الذي أُنذر بهِ . نعم انهُ لم يرَ لوسيان هناك لكنهُ ظنَّ ان ساعة حضورهِ في الاحتفال لم تأتِ بعد

بخانةُ الصبر ولم يعد يمكنهُ الاحتمال وزعق زعقة اصدت لها جوانب الدير واندفع الى الامام ورجالهُ وراءهُ وهو يصيح :—

" اني هنا يا لوسيان ! تعال خذها من يدي ان استطعت ! "

ثم تقدم دائساً او طارحاً كل ما اعترضهُ في طريقهِ حتى بلغ المذبح حيث التجأت متيلدة من شدة الخوف فحملها بين ذراعيهِ وصاح :—

" اخرج ايها الامير الكاذب والملك المنافق . اخرج من مخبإك فان الملك العادل في انتظارك : "

ووقف ينتظر مجيء عدوهِ وسيفهُ مسلول وشرر الغيظ يتطاير من عينيهِ لكن لوسيان لم يأتِ . فارتاب الملك العادل من امرهِ واوجس خوف مكيدةٍ . فرجع ادراجهُ بما استطاع من السرعة ورئيس الاساقفة واقف كأنهُ مصعوق لا يبدي ولا يعيد والراهبات تفرّقن في جوانب الدير شذر مذر من شدة الخوف والذعر

ولما بلغ سفح جبل الكرمل رأى ينبوع ماء باردٍ فانزل متيلدة عندهُ وغسل وجهها فأفاقت من اغمائها وفتحت عينيها بما لا مزيد عليهِ من الدهشة والاستغراب وبعد ما استرجعت شيئاً من رشدها وصوابها قالت للملك العادل :—

" ماذا فعلت ؟ "

" انقذتكِ مرة ثانية "

ثم جاءهُ خالد وحذرهُ عاقبة الاقامة في هذا المكان فنهض بالاميرة الى جوادهِ وامر رجالهُ بالمسير . فقالت لهُ متيلدة :—

" ما هو الخطر الذي تهددني وحملك على انتهاك حرمة هذا الدير ؟ "

" لوسيان العازم على اختطافك "

" لم ارَهُ قط منذ برحتُ عكاء واذا صحّ ما قالهُ رئيس الاساقفة فانّ اخي عدل عن اكراهي على زواج لا ارضاهُ وترك لي حريَّة وقف حياتي لخدمة الله "

" اذًا لا صحة لما قصهُ عليّ احد جنود الافرنج من جهة عزم لوسيان على تزوجك عنوة على رغمك ؟ "

" لا صحة لهُ على الاطلاق . وليست قصتهُ سوى مكيدة كادوها لك "

" وقاكِ الله شر طيشي ! لا بدَّ ان يكون اعدائي كامنين لنا في الغابة التي امامنا . واخاف ان اذهب بكِ الى قيصرية . ولا فائدة لنا من محاولة الرجوع من حيث اتينا لانهم لا بدَّ

ان يكونوا قد احدقوا بجبل الكرمل . هذا فضلاً عن انهُ لا يمكنني ان اطيل مدة غيابي عن قيصرية التي اودعني اياها اخي . فاين اذهب ! اين اواري خجلي ! "

ثم وقف ودعا اليهِ خالداً واستشارهُ في امرهِ لعلهُ يرى لهُ رأياً مفيداً وبعد التأمل والافتكار قال خالد :—

" اذا لم تخنِي ذاكرتي فلا خوف علينا . فاني اعرف مغارة كبيرة طويلة مقابل معسكر الافرنج عند طرف قيصرية الغربي. فاذا ذهبنا اليها دخلناها وبلغنا المدينة منها سالمين آمنين

" قال الملك العادل اذا لم يكن وسيلة اخرى للنجاة فلنسرع اليها جهدنا "

فتحولوا عن الطريق التي كانوا سائرين فيها واتجهوا جنوباً وساروا في غابة كثيفة بين الادغال والاشواك وقضوا ليلهم والنهار التالي في قطع السهول الشاسعة التي بين الرملة وقيصرية وقاسوا من المشاق والاتعاب ما لا يوصف حتى كاد يقضي عليهم جميعاً من شدة الاعياء وفرط الجوع والعطش. واخيراً بلغوا المغارة وهم على آخر رمق وبعد ما استراحوا فيها قليلاً اخترقوها وانتهوا الى منفذ منها يؤدي الى قيصرية فاشرفوا عليها من جهة بوابة عمر ورأوا اعلام العرب على الاسوار والجوامع والى الشمال معسكر الافرنج في هدوءٍ وسكون والقمر خالع على المدينة وضواحيها حلالهُ الفضية

ولما بلغوا بوابة عمر قرعوها باسم الملك العادل ففتحت لهم على الفور ولقيهم رجال مسلحون قائمون بحراستها وهم في زيّ العرب وشكلهم. فحيّاهم الملك العادل فرحاً مسروراً وقال لهم :—

" يسرني جداً ان اراكم سالمين آمنين وان يدي رتشرد ولوسيان لم تصبكا باذى "

وما كاد ينتهي من كلامهِ حتى اطبقوا عليهِ وعلى رجالهِ من كل جانب وجردوهم من اسلحتهم بسرعة لم تمكن احداً منهم من الدفاع عن نفسهِ بضربةٍ او طعنةٍ . فنظر الملك العادل حولهُ مأخوذاً بدهشة وحيرةٍ لا مزيد عليهما وقال :—

" اين انا ؟ "

فاجابهُ لوسيان من وسط رجالهِ المتنكرين :—

" انت في قبضة الافرنج — في يد لوسيان. وقيصرية ومتيلدة لي وانت اسيري "

فسقط الملك العادل في يده ورأى جميع الوجوه التي حوّل نظرهُ اليها مشرقةً بنور الانتصار والفرح بسقوطهِ فنكس رأسهُ واسلم يديهِ للقيود التي امر لوسيان رجالهُ ان يوثقوهُ بها —

الفصل السادس والاربعون

" ذنبُ مَن اعظم ؟ "

وفي صباح اليوم التالي جاست متيلدة في احدى غرف القصر الذي يسكنهُ لوسيان ملك القدس واذا بخادم يستأذنها في مجيء الملك اليها وقبلما تمكنت من ردّ الجواب بالرفض وعدم القبول جاء لوسيان على اثر خادمهِ ودخل الغرفة

فانتفضت الاميرة من شدة الكره والاشمئزاز وغشيت وجهها صفرة الغيظ والحنق ونهضت من كرسيها رامقة لوسيان بعين الاستفهام وقالت

" افانت يا ملك القدس سيد قيصريَّة وصاحبها ؟ حقًّا انني لما شاهدت يدي باسل صنديدٍ موثقتين بالسلاسل علمت يقينًا ان اخي غائب "

" ان الافرنج مديونون لي بهذا الانتصار الباهر واني لاعجب كيف ان الاميرة متيلدة لا تشاركهم في الفرح والابتهاج "

" كنت أُسرُّ جدًّا لو لم يكن شرفهم اعزّ اليّ من انتصارهم او لو لم يكن هذا الانتصار نتيجة الخيانة . . . . "

" بالجهد يستطيع اعداؤنا ان يشكونا شكوى امرٍ من هذه "

" نعم ولكنها لا تزيد عما كان يشكيهِ رتشرد لو كان هنا . فان نفسهُ الشريفة تقزُّ من خيانة كهذه . اوَ تظن انهُ لو كان قلب الاسد هنا كان يأذن ليديك ان توثقا يدي من احسن اليهِ وتفضَّل غير مرةٍ عليهِ ؟ "

" لعلكِ تجهلين ان سلطتك عليَّ محدودة والاَّ لم تجسري ان تعظِّمي في مسمعي عدوًّا اصبح مرجع امرهِ في الموت والحياة اليَّ "

لا ارهب جانبك في دفاعي عن الملك العادل . واراك تدعي ان سلطتي عليك سبب امتناعك عن ارتكاب عمل دنيءٍ وحشيٍّ . وفي هذا الادعاء ما فيهِ من حطة الشأن التي لا ارضاها لك لانَّ اميرًا مثلك يترفع حتى عن الافتكار بارتكاب جرم قبيح كهذا . وماذا يقول بقية امراء الافرنج ؟ الم يبقَ لهم حق ولا سلطة ولا رأي . هل يتركونك تتصرف في اعظم بطلٍ قام على الارض بما تشاء ؟ "

" انا وحدي سيد قيصرية واميرها وانا وحدي دبرت طريقة اسرهِ "

" ما دمتَ انت السرَّ في نجاح هذا المشروع الشريف فعليك اذًا يجب ان تلقى مسؤُولية

انتهاك حرمة الدير الذي كنت لاجئة اليهِ لانهُ اذا كان الفعل لغيرك فالفكر لك وذنب من اعظم ؟ الامير العربي الذي ارتكبهُ ام الامير المسيحي الذي دفعهُ اليهِ ؟

" اعلمي يا متيلدة اني احبكِ حبًّا لا يستطيع ابلغ الكلام ان يعبر عنهُ . وقد حصلت عليكِ الآن فلا افارقكِ الَّا بعد ما افارق روحي . ولا اكتمكِ اني بعد ما يئست من امتلاك محبتكِ واحترامكِ لم يبقَ لي ما اخشى خسرانهُ او ضياعهُ سوى شخصكِ . وقد اصبح هذا الآن في قبضة يدي فلا ادعهُ يفلت مني . واعلمي ان الملك العادل موتًا يموت اذا لم تصيري لي هذه الليلة " . ثم دنا منها وقال لها : —

" قولي لي الآن . هل تختاريني زوجًا لكِ ؟ "

فابعدتهُ عنها بيدها وقالت :—

" لن اكون مدى حياتي ! ان موت الملك العادل نفسهِ ايسر خطبًا من ان اكون زوجة لك . " فقال لها " سأُريكِ ما افعلهُ بهِ "

قال هذا واتجه نحو الباب وتمثل لها هول ما هو مزمع ان يفعلهُ فاسرعت اليهِ وانطرحت عند قدميهِ وقالت :—

" ايها الامير القاسي الظالم ! اذا لم تأْخذك شفقة على خصم اعزل ولم ترفق بمن تدعي انك تحبها فاشفق على نفسك . فهل تلطخ يديك بدم رجل اعزل ؟ هل تجور على من حلفت انك تذود عن جنسها ؟ "

" فقال لها اطلبي ما شئتِ . اطلبي حياتي . اطلبي كل ما امتلكهُ او ما ارجو ان امتلكهُ فيما بعد . اطلبي كل شيء ما عدا ابتعادي عنكِ ! "

واذ ذاك دخل احد ضباطهِ وقال لهُ :—

" لقد بلغ الامراء والضباط خبر اسر الملك العادل فاسرعوا الى هنا وهم يطلبون ان يروك . " فالقى على متيلدة نظرةً ملأَت قلبها خوفًا وخرج لملاقاة زائريهِ

الفصل السابع والاربعون

سجن الملك العادل

وكان الجندي الذي قبض عليهِ العرب واخذوهُ الى الملك العادل وقصَّ عليهِ تلك القصة الملفقة حامل سلاح لوسيان فلما نجحت حيلتهُ وانطلق الملك العادل من قيصرية ابلغ ملك القدس ذلك بسهم رماهُ الى مكان معين فجمع لوسيان جيوشهُ واخبرهم بعزمهِ على

استئناف الهجوم على قيصرية انتهازًا لفرصة غياب الملك العادل عنها . ثم انفذ رسولاً الى نائب الملك العادل يطلب مقابلتهُ ولما اجتمع بهِ قال لهُ : —

" اعلم يا محمد اني اتيتك بنفسي لأؤكد لك بانهُ لا بدَّ لك من تسليم المدينة اليَّ في الحال . واعلم ايضًا ان الملك العادل في قبضة يدي فقد لقيتهُ في الليل الماضي فجأة وهو خارج من المدينة واعتقلتهُ واني اطلب قيصرية في فدائهِ والاَّ قطعت رأسهُ . وقد امهلتك ساعة للتأمل والانتظار "

ثم انصرف وغادر نائب الملك العادل في حيرةٍ لا مزيد عليها . فجمع امراء المدينة وقصَّ عليهم الخبر فلم يروا بدًّا من تسليم المدينة افتداء لحياة اميرهم . ففتحوا ابواب المدينة للافرنج ودخلها لوسيان برجالهِ ثملين بخمرة الظفر . وكان اول شيء عني بهِ انهُ حصر نائب الملك العادل في مكان معين ومنعهُ عن الخروج والدخول ثم امر بان لا يحدث اقلُّ تغيير في حالة المدينة الخارجيَّة ومظاهر معسكر الافرنج وان اعلام العرب تبقى خافقة على الاسوار والجوامع وان الحراس الذين على الحصون والابواب يتنكرون بزيّ العرب ويظلُّ الهدوء والسكون سائدين شاملين

فراب امراء الافرنج هذا التحوُّط والتحرُّز واشتمَّ منهُ دوق برجندي رائحة الخيانة فاستوضح من لوسيان فأبى وانكر عليهِ حق الارتياب في اخلاصهِ وذكرهُ اليمين التي حلفها بانهُ يطيعهُ مدة غياب رنشرد فاقتنع الدوق من هذا القبيل لكنهُ ابى دخول قيصرية قبل ما يقف على كيفيَّة فتحها وامر الجيش الفرنسوي الذي تحت قيادتهِ بان لا يبرح معسكرهُ

ثم بلغهُ بعد ذلك ان الملك العادل خُدع بمظاهر المدينة فدخلها مطمئنًّا ووقع غنيمةً باردة في يدي لوسيان الذي اذلَّهُ وامر بان يشدَّ وثاقهُ كاحد كبار المجرمين وحينئذٍ لم يرَ بدًّا من دخول قيصرية والاجتماع بدوق بافاريا والبرت نائب النمسا وغيرهما من امراء الافرنج الذين حثَّهم على وجوب سؤال لوسيان عما يروم ان يفعلهُ بالملك العادل . وقد وجد منهم كلهم اذانًا صاغية لحديثهِ وقلوبًا مائلة لشد ازرهِ فذهبوا جميعهم الى قصر لوسيان وطلبوا ان يروهُ بعد اجتماعهِ باميرة انكلترة على ما مرَّ بنا

وقد افتتح دوق برجندي الحديث معهُ بلومهِ اياهُ على انتهازهِ فرصة تجرُّد الملك العادل من الاسلحة وبطشهِ بهِ . فاجابهُ لوسيان : —

" ليس لاحدٍ غير رنشرد حقٌّ ان يناقشني الحساب على ما فعلت "

" ولكن لا يخفى عليك اننا جميعنا ههنا واحدٌ والعمل المعيب الذي يشين واحدًا منا

يشين الآخرين ايضاً والشرف يقضي عليّ بالسؤال عما يدنس صحيفتنا البيضاء ولهذا أُلحُّ بوجوب الجواب على سؤالي من جهة ما تروم فعلهُ بالملك العادل "

" وماذا يكون حكمك عليهِ لو سلمت امرهُ اليك ؟ "

" ان يحل وثاقهُ ويطلق سراحهُ في الحال "

فوجه لوسيان حينئذٍ كلامهُ الى جميع الامراء وذكرهم مرارة الذل والانكسار والهرب التي تجرعوها مرةً بعد مرة في جميع المعارك التي خاضوا غمارها وكان الملك العادل يثير غبارها ويوقد نارها وانذرهم بما في اطلاقهِ من الخطر والضرر هذا فضلاً عن ان امر اطلاقهِ غير منوطٍ بهِ بل هو من حقوق رتشرد وقد ارسل يخبرهُ بذلك ليرى ما يأمرُ بهِ من جهتهِ . ثم عرض عليهم ان يرسل الملك العادل الى عكاء ليكون بعيداً عن ساحة الحرب حتى يصدر حكم الملك رتشرد في مسئلتهِ

وقد سبك كلامهُ هذا في قالب المداهنة والمواربة تخلب قلب سامعيهِ بسحر مكرهِ وخداعهِ حتى اجمعوا كلهم على قبول رأيهِ ولم يعودوا يرون وجهاً للمعارضة . وفي تلك الليلة أرسل الملك العادل مع فرقة من الجند الى عكاء

اما رئيس اساقفة صور فانهُ بعد ما تمكن من تسكين روع الراهبات وارجاع سلام الدير وراحتهِ الى نصابهما خرج يطلب الاميرة متيلدة ويسعى في انقاذها

وبعد ما سار مسافة ليست بقصيرة في طريق قيصرية لقي فصيلة من جند الافرنج يقيلون في غابة على جانب الطريق فمال اليهم وسألهم بعض مسائل لعلهُ يستفيد منهم شيئاً عن جهة مسير خاطفي متيلدة فاجابهُ قائدهم :—

" اعلم يا ابي ان قيصرية في يدنا . ولوسيان الآمر الناهي فيها واميرة انكلترة في قصرهِ ونحن الآن راجعون من عكاء بعد ما اودعنا الملك العادل غيابات سجونها "

ثم عرضوا عليهِ ان يذهب معهم الى قيصرية فأبى وشكرلهم معروفهم ودعا لهم بالسلامة فساروا وتركوه يرشف راحة المسرة بنبإ هذا الانتصار الجيد الذي حازهُ شعبهُ لكنهُ ساءهُ جدًّا سجن الملك العادل فذكر فضائلهُ ومحامدهُ وفضلهُ ومعروفهُ وتناسى زلاتهِ حتى جريمة انتهاكهِ حرمة دير الكرمل وعلى الفور أخذ عصاهُ بيدهِ وسار قاصداً عكاء

ولما بلغ ابوابها علم بهياج الشعب الشديد ومحاولتهم كسر ابواب السجن للفتك بالملك العادل وان هذا الهياج كان بايعاز سري من لوسيان

فاسرع الى السجن وطلب الى السجان ان يذهب بهِ الى حيث كان الملك العادل فهبط

بهِ اقصى درك معدٍّ لكبار الجناة المجرمين وادخلهُ حيث كان الملك العادل — وخرج فلما شعر الملك العادل بقدومهِ وتمكن من رؤيتهِ على رغم الظلام الدامس المخيم هناك قال لهُ :—

" اصحيح ان اسقف صور الصالح قادم اليَّ ليزورني في ضيقتي "

" اتكل على الله فهو ينقذك ويعيد لك حريتك "

" لا يقدر ان يعيد اليَّ شرفي الذي بفقدهِ وجدت انَّ على الارض ما هو شرٌّ من فقدان متيلدة " . " ثق يا ابني ان الله قادر ان يردَّ لك اضعاف ما فقدت "

" لا . لا . لم يبق لي في هذه الحياة سلام ولا رجاءٌ . فقد خنت اخي وتخليت عن المدينة التي استودعينها وأُخذتُ باشراك عدوّ خائن غدّار ثم القيت في اعماق هذا السجن مكبلاً بالقيود كادنى العبيد لأَموت موت الائمة الاشرار "

" لا لن تموت وقد سنحت لي فرصة لأُوفيك مالك عليَّ واعيد لك حريتك "

"ولكن هل تعلم اني اذا خرجت من السجن انضمُّ الى اخي صلاح الدين لانتقم لي ولهُ واسترجع قيصريَّة ؟ "

" لا حاجة لك ان تخبرني بهذا لاني لم اسأَلك عما تروم ان تفعلهُ "

فقبض الملك العادل على يديهِ قبضة حبٍّ واعزاز وقال لهُ :—

" اعلم يا ابي اني افضل ان اموت هنا على ان اخدعك . فهل انت باقٍ تروم اطلاقي بعد ما علمت اني عدوك ؟ "

" الست انت الذي انقذ حياتي في دمشق ويافا ؟ أَلست انت الذي حل وثقي في دمياط ؟ أَلست انت الذي ارجعني غير مرةٍ الى قومي الذين لم انفك عن حضهم وحثهم على القيام عليك وعلى شعبك ؟ فلماذا اكون دونك فضلاً واحساناً وكرم اخلاق وفي امكاني ان اكون مثلك ؟ والرحمة افيد لمصلحتنا من الغلبة والظفر "

ثم حلَّ وثاقهُ وسار بهِ في سربٍ طويلٍ ينتهي تحت سور المدينة ولهُ هناك باب سريٌّ قديمٌ مجهولٌ حتى عند رؤساء السجون وحفظتها . فلما انتهيا اليهِ استعان بقوة الملك العادل على فتح بابهِ الحجري ثم عطف عليهِ وعانقهُ وقال لهُ :— " اذهب بسلام "

فقال لهُ الملك العادل والدموع تنهلُّ من اجفانهِ :—

" اني اكرم المعتقد الذي ينشيء مثل هذه الشمائل الحرة والفضائل الطاهرة التي فيك وفي متيلدة — قل لي الا ارى متيلدة بعد الآن ؟ "

" لن تراها بعد . انها لله . خلِّ عنك الافتكار بها "

" اذاً حيّها عني وقل لها اني اردُّ لها الوعد الذي اخذتهُ منها فهي في حلٍّ منهُ . واني اطلب اليها ان تقف نفسها لله . وهي ستدرك معنى كلامي هذا . الوداع ايها الاب الصالح. اني عاجز عن شكر ما لك عليَّ من الفضل والمعروف . واذا لم نجتمع في هذا العالم فلي ثقة انك تزور قبري وتذرف عليَّ دموع الحزن والاسف "

ثم خرج وعين الاسقف ترعاهُ حتى توارى عن نظرهِ فرجع ادراجهُ الى السجن وجلس حيث كان الملك العادل واذا بضجيج وصياح وزحام خارج السجن ثم فُتح الباب ودخل جماعة من السوقة السفلة على رغم توسلات السجان واندفعوا الى حيث كان الملك العادل طالبين البطش بهِ فوجدوا رئيس الاساقفة جالساً بملء الرصانة والاطمئنان ولما دنوا منهُ قال لهم : —

" من تطلبون ؟ "

" فقالوا اخا صلاح الدين الذي ذبح نساءنا واخوتنا واولادنا والذي اختطف مدينة القدس منا "

" فقال ليس هو ههنا . وقد قمت مقامهُ . وجعلت نفسي مسؤولاً عنهُ . وها انا امامكم فافعلوا بي ما شئتم "

فتراجعوا عنهُ الى الوراء وابدوا شيئاً من الوقار والاحترام لكنَّ واحداً منهم تقدَّم وصاح : —

" من اطلق الملك العادل ؟ "

" فاجابهُ أطلقهُ من ارسلني لا عصب منكسري القلب لا نادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ! "

واذ كانوا يجهلون باب السجن السري الذي خرج الملك العادل منهُ بهتوا وتعجبوا ولم يشكّوا في مداخلة الله في هذا الامر ولاح رئيس الاساقفة لعيونهم ملاك انقاذ وخلاص مرسلاً من الله تعالى ليحول دون مقاصدهم الاثيمة فخشعوا واستكانوا وعادوا من حيث اتوا وكأنَّ على رؤوسهم الطير

الفصل الثامن والاربعون

" حقًا اني مجرم اثيم ! "

كأني بامراء الافرنج وكبرائهم استاؤوا جدًا من عمل لوسيان المهين المعيب فارادوا اخفاءهُ بما استطاعوا من المحامد والمكارم التي تسابقوا الى فعلها

وقد رأينا رئيس الاساقفة مخاطرًا بنفسهِ في سبيل انقاذ الملك العادل . ونزيد على ذلك ان رنشرد كتب الى لوسيان ملك القدس من معسكرهِ امام عسقلان يقول : —

" تترامى اليَّ اخبار سوء عنك فيصعب عليَّ تصديقها . على انهُ لا بُدَّ لي ان اسألك عما حملك على تكبيل البطل الذي عفا مرتين عن حياتي وحريتي ؟ وكيف يصحُّ ان يكون الملك العادل اسيرًا حيث لوسيان الآمر الناهي ؟ هذا لا استطيع تصديقهُ ولا بدَّ ان يكون الملك العادل الآن قد انضمَّ الى اخيهِ ولوسيان قادمٌ اليَّ ليساعدني على قهر خصمهِ في ساحة النزال "

وفي وسط الغابة التي اجتازها الملك العادل بعد ما خرج من السجن لقي فصيلة من جنود الافرنج وكان اعزل من غير سلاح فتوقع الهلاك لا محالة . ولكنهُ عرف قائدها دوق برجندي عندما دنا منهُ وقال لهُ : —

" ايها الملك اني اياك طالب . وقد أُرسلتُ سرًّا من قبل الاميرة متيلدة لاحرسك في السجن ولكني لم اجدك هناك ومن ذكر اسم رئيس الاساقفة علمت انهُ اتاك واطلق سبيلك فهنا جواد واسلحة فاركب واذهب استردَّ مقامك في جيش صلاح الدين . اما انا فساذهب اولاً الى الاميرة متيلدة لاخبرها باني اتممت امرها ثم اسرع الى ملاقاتك في ميدان الطعن والضرب في سهل عسقلان "

فلم يعجب الملك العادل من هذه الشهامة لانها كانت شيمة الفرسان حينئذٍ فركب الفرس وتقلَّد الاسلحة وسار حتى بلغ عسقلان فرأى السكوت والخمول سائدين عليها . ولما دخل قصر اخيهِ قال لهُ صلاح الدين : —

" لم اتوقع ان اراك هكذا بعدما استودعتك قيصرية "

" حقًا اني مجرم اثيم وقد دنست اسم الايوبيين ولستُ مستحقًا ان ادعي اخاك . لاني استهنت باقدس واجباتي "

" قل لي باية معجزة تمكن لوسيان من اخذ قيصرية منك ؟ "

فقصَّ عليهِ الملك العادل تفصيل كل ما حدث ولم يحاول ان يبرّر نفسهُ من تبعة خطاءِهِ

فقال لهُ اخوهُ : —

" ان محمدًا وخالدًا هنا وقد اخبراني بكل ما قلتهُ لكنهما لم يعظما لي خطأك كما عظمتهُ انت . والآن قل لي على اي شيء عزمتَ ? اي تعويض مزمع ان تعوض شعبك وبلادك ? "

" إجمع قواد جيشك ودع محمدًا يقصُّ عليهم تفصيل ما اصابنا ويطلعهم على اسباب ذلك . وانظر ما يحكمون بهِ عليَّ ولا نتأخر عن تنفيذهِ "

فجمع السلطان امراءهُ وقادة جيشهِ وامر محمدًا فقص عليهم تفصيل ما جرى في قيصرية بالحرف لم يخفِ عنهم شيئًا . ولما فرغ من حديثهِ التفت صلاح الدين الى الامراء والقادة وجميع نوَّاب الشعب الذين دعاهم الى حضور هذا الاجتماع وقال لهم : —

" اذا كان بينكم شخص واحد يرى الملك العادل غير اهل لاسترجاع مقامهِ ورتبتهِ في جيشنا فاني مستعدٌ للعمل بموجب رأيهِ "

ثم نظر فرأى جميع الوجوه شاخصةً اليهِ والدموع تنهلُّ من مياه الاجفان وسمع الشفاه تنطلق بالدعاء للملك العادل والجميع مبتهجون بتوقع رجوعهِ الى تولي قيادة الجيش العامة . ولاحظ الملك العادل نفسهُ هذا الامر فتأثر منهُ الى الغاية ونهض والدمع مالئٌ عينيهِ وقال :—

" ارجو ان اكون في المستقبل موضوع ثقتكم كلكم . فقد دفنت جميع آمالي في اكفان الماضي ووقفت نفسي منذ الآن على خدمة سلطاني وبلادي "

الفصل التاسع والاربعون

معركة عسقلان

ولما ذاع في قيصريةَ خبر نجاة الملك العادل لم يستطع احدٌ كشف طريقة نجاتهِ سوى لوسيان فانهُ حالاً عرف الرجل الذي يقدم على مخالفة اوامرهِ وعلم ان لاسقف صور وحدهُ حقٌ دخول السجون بلا معارض . وعرف ايضًا ان ذلك الاسقف لا يهتم بالتباهي بهذا العمل اكتسابًا لمدح الناس وشكرهم فحاول ذخر هذا الفخر لنفسهِ واشاع انهُ هو الذي ارسل رئيس الاساقفة لاطلاق الملك العادل

وتعجب الافرنج عند سماع هذه الاشاعة وكثيرون منهم شكّوا في صحتها . وبلغت رئيس الاساقفة عند دخولهِ قيصريةَ فلم يجب على الاسئلة التي وجهت اليهِ بخصوصها بسوى السكوت وسار توًّا الى قصر لوسيان

ولما خلا بهِ وبخهُ توبيخاً شديداً على عملهِ المعيب فاعترف بهِ ولم ينكر منهُ شيئاً وحاول ان يقنعهُ بان مصلحة البعثة تقضي باخفاء هذه المعايب وانهُ انما نسب اطلاق الملك العادل اليهِ ليسكن هياج الشعب وتذمرهم من جهتهِ وتوسل اليهِ ان يثبت هذه الاشاعة ويصدقها فابى عليهِ ذلك وانحى عليهِ باللوم الشديد ووجه سهام طعنهِ على الخصوص نحو كبريائهِ وتشامخهِ وانذرهُ بانهُ اذا عاد مرة اخرى الى شيءٍ من مثل هذا اطلع الناس عموماً على صفاتهِ الحقيقيَّة وجعلهُ مضغة في افواه المحتقرين والمستهزئين

وبلغ رتشرد ان الملك العادل انضم الى اخيهِ فارسل في الحال وطلب حضور لوسيان اليهِ بجميع الجنود التي تحت قيادتهِ واوعز الى اختهِ متيلدة بالحضور اليهِ مع ملك القدس فاطاعت الامر مكرهة وذهب رئيس الاساقفة معها

وكان رئيس الاساقفة قد ابلغها خبر اطلاق الملك العادل وانهُ ابرأها من وعدها لهُ فشعرت بأنَّ العالم بامرهِ لم يبق لهُ اقل حقٍ عليها وعزمت ان تستعدَّ لاسترجاع نذورها والانقطاع الى الابد عن افراح الدنيا واحزانها وكل ما يتعلق بها . واطلعت اخاها على ذلك فغاظهُ جداً لانهُ جاء على خلاف ما كان يرجوهُ ويتوقعهُ منها ولا سيما بعد ما اكتسب لوسيان حسب اعتقادهِ شرف فتح قيصرية فسألها عن تأثير غضبهِ فيها فقالت :—

" اخاف من تأثيرهِ فيك واما فيَّ فلا تأثير لهُ على الاطلاق لانَّ نصيبي محتمٌ ولا يثنيني عنهُ سوى الموت وهذا لاخوف منهُ عندي ابداً "

فتعجب رتشرد من ثبات عزمها الذي لم يرَ لهُ شبيهاً عند اربط الرجال جاشاً واثبتهم عزماً . ورأى نفسهُ مضطرًّا للاذعان والانقياد الى سلطةٍ ادبيَّة سامية رآها في مَن لم يبقَ للعالم سلطة عليها وقد لاحت لعينيهِ اشبه شيءٍ بملاكٍ سماويٍ

وبعد مضيِّ يومين شاهد الافرنج كتائب العرب خارجةً من ابواب عسقلان فاستعدوا هم ايضاً للقتال

وخلا لوسيان بحامل سلاحهِ الذي استعان بهِ على اخذ قيصرية وامسر الملك العادل وكان رجلاً محتالاً ساقط المروَّة كثير الجشع والطمع وقد استعبدهُ ملك القدس بالبذل ومجَّرهُ لاتمام مقاصدهِ الاثيمة . فقال لهُ :—

" اني عازم على شيءٍ ذي شأن في هذا اليوم المهم . يجب ان القى الملك العادل . ولا يهمني ان اذوق كأس الحتوف على يدهِ بشرط انهُ لا يحيا بعدي دقيقةً واحدةً فابقَ بجانبي مدة المعركة ولا تفارقني طرفة عين . واذا تمكنتُ من اجتذابهِ وابعادهِ عن رجالهِ فاتبعني

واذا رأيتني مستظهرًا عليهِ فالزم السكون ولا تبدِ حراكاً . ولكن اذا سقطتُ فاني اعتمد على امانتك واخلاصك . لا تنسَ اياك ان تبقيهُ حيًّا بعدي "

ثم خرج جيش الافرنج من المعسكر لملاقاة جيش صلاح الدين . وكان رتشرد القائد العام لموقف على مرتفع اشرف منهُ على اطراف الجيش وشاهد الكتائب كلها مستعدة تمام الاستعداد ومصطفة بكمال الترتيب والنظام فشاقهُ منظرها المهيب وصاح من شدة تأثره واعجابهِ : —

" اللهمَّ كن على الحياد يكون النصر لنا "

ثم برز الجيشان وهما متساويان في الحميَّة والحماسة واخذا يقتربان احدهما من الآخر شيئاً فشيئاً حتى تلاقى الابطال وتلاحموا وتزاحموا وحمي وطيس الطعن والضرب وثار الغبار فوقهم فحجبهم عن الابصار واصدت التلال والاودية بصليل الاسلحة وصهيل الخيل وانين الجرحى

وكان لوسيان يصول ويردي ويصرع ويجندل ببأس شديد وعزم يفلُّ الحديد وقد احفظهُ جدًّا انهُ لم يلقَ من يطلبهُ وزاد بأسهُ وعزمهُ اشتدادًا فانتصر في القلب وكان الظفر حليف رتشرد في الميسرة اما جيش الميمنة فلم يستطع الثبات امام صلاح الدين . على ان ذلك لم يضعف عزم الافرنج بل زادوا ثباتاً واقداماً . واذا بالملك العادل ظهر في ساقتهم فزعزع اركانها وانقضَّ على الميمنة فضعضع رجالها وعطف على القلب فقطع عزائم جنودهِ وحول كفة النصر الى جهة العرب . فشق ذلك على لوسيان وعزم ان يستميل خصمهُ اليهِ ويلهيهُ بنزالهِ ويمكِّن الافرنج من استرجاع مراكزهم واذا دارت عليهِ الدائرة فهو واثق انها تدور ايضاً على عدوهِ بفضل خادمهِ الذي لم يكذبهُ قط . فنادى الملك العادل ودعاهُ الى مبارزتهِ فلم يحفل بهِ وعزم ان يتجنب المبارزة في ذلك اليوم لئلا تحول دون احراز النصر الذي ارادهُ

لكنَّ لوسيان تبعهُ من مكان الى آخر واسرف في تعييرهِ وتحقيرهِ حتى هاج ساكن غضبهِ ولم يعد يمكنهُ الصبر عليهِ وظنَّ انهُ في بضع دقائق يقطع لسانهُ البذيء ويسرع الى ساحة القتال قبلما يشعر احدٌ بخروجهِ منها . فنادى لوسيان وقال لهُ : —

" لنسرع الى اطفاء نار الحقد التي تغلي في قلبينا "

فتبعهُ لوسيان وخادمهُ وراءهُ حتى بلغ الملك العادل صخرًا كبيرًا قائمًا وراء ساقة الجيش يحجبهما عن النظر والقى ترسهُ جانباً وقال لخصمهِ : —

" لنتجنَّب وسائل الدفاع تعجيلاً للدقيقة التي تنقطع فيها انفاس احدنا المعدودة "

فخذا لوسيان حذوهُ واستل سيفهُ وابتدأ الصدام وبعد اخذ ورد وكرّ وفرّ عاجل الملك العادل لوسيان بضربة من سيفهِ اصابت رأسهُ وفلقت خوذتهُ وصبغت وجههُ وعينيهِ بالدماء. فخلع الملك العادل خوذتهُ وتوقف عن استئناف الضرب ليمكن خصمهُ من الثبات في موقفهِ . ولكنهُ لم يتمكن من موقفهِ حتى القى بنفسهِ فجأةً بلاادنى انذار على الملك العادل فلم يستطع ان يدفعهُ عنهُ وأُصيب منهُ بجرح في فخذهِ . وحاول لوسيان اعادة الكرة عليهِ فخلا الملك العادل من طريقهِ وابتدرهُ بضربةٍ أَسالت دماءهُ . ثم غير لوسيان بغتة خطة قتالهِ وتحمَّل بصبر هجمات عدوهِ غير متعدٍّ حد الدفاع وخلا من ضرباتهِ دائرًا حولهُ بسرعة مدهشة محاولاً ملاشاة قوة خصمهِ الآخذة في الانحطاط بالارهاق وفقد الدم — لكنَّ الملك العادل سئم هذه المحاولة والمطاولة وقبض على لوسيان بيد كأنها من حديد ورمى بهِ الى الارض وانطرح فوقهُ ورفع يدهُ واجهز عليهِ واذا بحامل سلاح لوسيان الذي شاهد المعركة من اولها ورأى سيدهُ طريحًا تحت خصمهِ قد اسرع من ورائهِ ليبتدرهُ بطعنة خنجر في صدرهِ وقبل ان يفعل ذلك سمع صوتًا ارتجت لهُ الجبال والاودية فالتفت واذا برنشرد قلب الاسد يقول لهُ خلِّ عنك ايها الغدار ثم ترجل وامسك بيد الملك العادل وقال لهُ واحدة بواحدة ايها الملك فاني استطيع الآن ان اروي سيفي بدمك ولكن حاشا لي ان افعل ذلك بمن منَّ عليَّ بانقاذ حياتي وحياة كثيرين من رجالي ثم اعتنقهُ واركبهُ على جوادهِ وارسل معهُ مَن سار بركابهِ الى ان وصل الى اخيهِ . وتهادن الملكان الى ان عقدت شروط الصلح

الخاتمة

وبعد سنة كانت اخت رنشرد واقفة في احد ابراج دير الكرمل فرأت في البحر سفينة عليها شعار الاسرة المالكة في انكلترة ومقدَّمها متجه غربًا نحو ارض ميلادها . لان رنشرد وبرنغاريا وباقي انسبائها واصدقائها كانوا راجعين الى الوطن . فتنهدت تنهد الاسفِ لكنها عادت فافتكرت انها لاتزال في البلاد التي يملكها مَن ملك فؤادها . فبدت على وجهها ابتسامة عزاء كفكفت دموعها لانها لا تزال معهُ في بلاد واحدة ولو لم ترهُ الاَّ بعين الخيال

تمت

رواية

فتاة الفيوم

الفصل الاول

شركة قارون

وصلتُ الفيوم نحو الساعة التاسعة مساءً ودخلت اكبر نزل فيها مع رفيق لي ولم اكن قد دخلتهُ من قبلُ فوصلتُ غرفة المائدة اولاً كأن سلطان الجوع قادني اليها على غير قصد مني وهي دار كبيرة في الطبقة العليا جانبان منها جداران من جدران النزل وجانبان سجوف متصلة العرى وسقفها مسنَّم تغطيهِ سجوف قلدت بها الخيام البلديَّة وما هي منها في شيءٍ . وعلى الجدارين صور وكتابات تشبه الصور والكتابات المصرية القديمة ولكن نسبة هذه الحديثة الى تلك القديمة كنسبة التراب الى الذهب . فوقفت انظر اليها مدهوشاً ولا اصدق ان ذوق الناس ينحط الى هذا الحد او ان راسم هذه الصور وكاتب هذه الخطوط من نسل صنَّاع الفراعنة والبطالسة . وكأن الارتقاء الذي يقول بهِ العلماء ظلٌّ منتقل ينبسط على قوم ثم يزول عنهم فيتولاَّهم الحرض والانحطاط . ولم يكد هذا الخاطر يخطر ببالي حتى نازعهُ خاطر آخر اذ تمثَّل لي الفرق الكبير بين هندام الخيام البلدية وانتظام اشكالها والوانها وما تقتضيهِ من المهارة في قطع رقعها ولفقها و بين هذه الشقق التي ابتيعت كما نسجها النساجون ومدَّت على السقف والجدارين . فان امراء البلاد واعيانها اكثروا من استخدام الخيام البلدية في حفلاتهم واعيادهم فنشط صنَّاعها الى اتقانها وجروا في ذلك شوطاً بعيداً وهذا كان شأن الفراعنة والبطالسة في تشييد الهياكل والمدافن وزخرفتها بالرسوم والنقوش فنشأ عندهم الصنَّاع او وفدوا عليهم من البلدان القاصية وارتقت صناعة الرسم والنقش رويداً رويداً حتى بلغت اوج مجدها وكانت ترتقي بارتقاء الدولــــة المصرية وتنحط بانحطاطها . فالاقبال على الشيء والتنافس فيهِ يزيدان في اتقانهِ حتى اذا استمرا زمناً صار صناعة وطنية وهكذا ارتقت

الصناعات على انواعها. ولو اهتمّ امراؤنا واغنياؤنا بارتقاء صناعاتنا لوجدتها كلها في اوج مجدها. جالت هذه الخواطر في بالي والخادم يبسط السماط على المائدة ويضع عليها الصحاف والاكواب فوضع صحافًا لثلاثة لي ولرفيقي والثالث فسألتهُ من هذا الثالث فقال مهندس انكليزي . وبعد قليل اجتمعنا على المائدة فتعارفنا حالاً وكان المهندس اولنا كلامًا على غير المعتاد لان المشهور عن الانكليز انهم من ابعد الناس عن المجاملة . فسألني من اين والى اين فقلت من القاهرة الى جهات سنهور فقال وانا ذاهب الى هناك ايضًا لاحقق بعض النقط في مساحة الارض التي اشترتها شركتنا

فقلت اي شركة

قال شركة قارون الم يبلغك خبرها

قلت بلغني الخبر ولكن هل عقدتم الشركة وصدر الامر بها

فقال نعم عقدناها شركة انكليزية مع ان اكثرنا من الوطنيين لكي يكون فيها اسهم تأسيس بعد قرار الحكومة المصرية الاخير وهو منع اسهم التأسيس وانا مستغرب عدم اطلاعك على ذلك

فقلت لقد كثرت الشركات حتى صارت اكثر من الهم على القلب وصار يتعذَّر على المرء ان يطّلع على بياناتها كلها او ان يحفظ اسماءها ويعلم اغراضها فما هو غرض شركتكم لانني نسيت ما هو

فقال اننا اشترينا عشرة آلاف فدان على بحيرة قارون اشتريناها من الحكومة المصرية بثمن بخس او قل بثمن اسمي الفدان بجنيه واحد واخذنا معها التزام صيد السمك من البحيرة ولا يخفى عليك ان بحيرة قارون كانت تغلُّ للخزينة في زمن البطالسة ما يساوي وزنة من الفضة كل يوم او نحو مئة الف جنيه في السنة وكان فيها اكثر من عشرين نوعًا من السمك على ما قالهُ المؤرخون الثقات . هذا كان دخل الخزينة من سمكها في تلك العصور الخالية ونحن الآن في عصر العلم والعرفان وقد اكتشفنا طرق تربية السمك وتفريخهِ حتى من البيض الجاف وجلب بيض الانواع الفاخرة منهُ من اقاصي البحار والانهار وتوليدها وتربيتها حيث نشاء فلا يتعذَّر علينا ان نستغلَّ من هذه البحيرة ما يساوي مئتي الف جنيه في السنة سمكًا نبيعهُ في القطر كلهِ ونملأُ بهِ اسواق القاهرة فيكثر الناس من اكلهِ وتزيد كمية الفصفور في ادمغتهم فتقوى عقولهم وتشتد عزائمهم ولا تعود امة تفوقهم في ميدان الحضارة . فنحن عاملون عملاً عظيمًا يعود بالثروة على شركتنا وبالخير الاعظم على البلاد كلها

فقلت هذا من قبيل البحيرة ولكن ما حاجتكم الى العشرة آلاف فدان هل هي ارض زراعية او مرادكم ان تصلحوها للزراعة

فقال كلاً هي ارض بور لا تزرع واكثرها عالٍ عن الاراضي الزراعية التي حولها ومرادنا ان نبني فيها مدينة

فقلت مدينةً ! مَن يأتي ويسكن هنا منقطعاً عن مراكز التجارة والصناعة

فقال اما من جهة الصناعة فعندنا هنا تربية السمك في البحيرة وصيدهُ منها وتصدير بعضهِ الى العاصمة والى سائر جهات القطر وتمليح البعض الآخر وتقديدهُ ووضعهُ في العلب والبراميل وهذه صناعة واسعة تحتاج الى مئات بل الوف من العمال . وعندنا ايضاً قوة مائية كبيرة فان سطح البحيرة منخفض عن الاراضي الزراعية التي قرب سنهور اكثر من خمسين متراً ومرادنا ان نبني اقنية كبيرة لماء الصرف ونجرهُ فيها حتى اذا صار على شاطئ البحيرة انزلناهُ في آلات التربين ونأمل ان نولد قوةً تساوي اربعة آلاف حصان على الاقل وليس في القطر المصري قوة طبيعية غيرها على مقربة من عاصمتهِ فنستطيع ان نعمل بها الوفاً من الاعمال الميكانيكية ولذلك لا تستغرب ان تنشأ صناعات كثيرة في هذه المدينة التي عزمنا ان نسميها مدينة قارون حيث تكون القوة رخيصة او بلا ثمن . ولماذا لا تصير معامل هذه المدينة مثل معامل لنكشير في غزل القطن ونسجهِ وطبعهِ او مثل معامل اليابانيين الذين ظهروا بالامس وهم يناظرون اوربا الآن في اسواق المشرق والمغرب . ثم ما يمنع زرع انواع الفاكهة في اراضي الفيوم الخصيبة حول هذه المدينة والفاكهة كثيرة فيها الآن . وما يزيد منها عن حاجة القطر يقدَّد او يسكَّر ويوضع في علب ويباع في هذا القطر ويصدَّر الى سائر الاقطار . فان كنا نحن الانكليز نجلب الفواكه من اسبانيا ونصنع منها المربيات ونتاجر بها فكيف لا يستطيع الناس ان يفعلوا ذلك في القطر المصري والفاكهة حولهم ولا تكاد تنقطع على مدار السنة وبذلك تكون الفائدة من شركتنا صناعية وزراعية وتجارية . وهناك فائدة اخرى لا اظنك تجهلها وهي ان الارض حول البحيرة اخفض من سطح البحر المتوسط بنحو اربعة واربعين متراً فالهواء هناك كثير الاكسجين فيكون الاكسجين في ما يسعهُ الصدر من الهواء على شاطئ بحيرة قارون اكثر كثيراً من الاكسجين في ما يسعهُ الصدر من الهواء في العاصمة او في الاسكندرية او غيرها من بلدان هذا القطر اوغيرهِ من الاقطار . والاكسجين عنصر الحياة وقوامها وهو الذي يقوي الضعاف ويشفي المرضى ولذلك تصير مدينتنا ملجأً للاغنياء من كل الاقطار يلجأُون اليها لتجود صحتهم ويتمتعوا بنعيم الحياة لان نعيمها الحقيقي في جودة الصحة

فضلاً عن ان الهواء هنا معتدل صيفاً وشتاء فلا البرد شديد ولا الحر شديد ولا الغيوم كثيفة تحجب اشعَّة الشمس وستكون مدينة قارون فردوساً ارضيًّا ولذلك مرادنا ان نبني فيها لوكندة تكون من اكبر لوكندات الدنيا وقد خصصنا لها مئة فدان من الارض ننشئ فيها الجنائن الغناء والرياض الفيحاء ونخصص منها جانباً للصيد والقنص ونبيح لنازليها ان يصطادوا الطير والسمك و يقيموا في الزوارق ما شاءوا

فتبسمت وقلت ان آراءك سديدة من وجهتها العلمية ولكن العمل قد لا ينطبق على العلم وما غرضك من الذهاب الى هناك الآن

فقال اننا ارسلنا المساحين لمسح الارض ورسم خريطتها وتقسيمها وتخطيط شوارعها حتى ننشر خريطة مصغرة مع لائحة الشركة يوم عرضها للاكتتاب ومرادي ان اشرف على اعمالهم واحثهم على انجازها باسرع ما يمكن

فقلت لهُ كم جعلتم رأس مال الشركة

فقال مليون جنيه مقسمة الى مئة الف سهم قيمة السهم منها عشرة جنيهات وجعلنا لها عشرة الآف سهم من اسهم التأسيس ولم نعطِ اصحاب الامتياز شيئاً من المال سوى النفقات التي انفقوها ثمن الارض و بعض المصاريف الاخرى وقد بلغت كلها ثلاثين الف جنيه واعطيناهم ايضاً نصف اسهم التأسيس ومرادنا ان نستخدم رأس المال كلهُ في تخطيط الارض وعمل الارصفة على البحيرة وانشاء الاماكن لتربية السمك و بناء الفندق الكبير في المدينة وبعض المنازل فيها واصلاح الارض حولها. ونقدّر انهُ بعد سنتين او ثلاث يكون لنا ربح سنوي يساوي عشرين او ثلاثين في المئة من مبيع الاراضي والاطيان والسمك والقوة المائية نوزع منهُ ستة في المئة فائدة للاسهم العادية وما بقي يقسم مناصفة بين الاسهم العادية واسهم التأسيس. ولم نعرض الاسهم للاكتتاب العمومي حتى الآن ولكن الناس يشترون الآن السهم من الاسهم العادية باثني عشر جنيهاً ومن اسهم التأسيس بخمسين جنيهاً واني استغرب كيف انك لم تقف على هذه التفاصيل كلها قبل الآن . اما انا فلست من مؤسسي الشركة ولكن اخي الاكبر لورد مكنزي من مؤسسيها واكبر المساهمين فيها

فعرفت انهُ من ابناء الاعيان ولم استغرب كونهُ مهندساً لان من عادات الانكليز الحميدة ان اعيانهم يعطون املاكهم للبكر من ابنائهم ويتركون بقية الابناء ليسعوا لانفسهم فلا تتوزع ثروتهم وتضمحل

وفرغنا من الطعام حينئذٍ وكنت حين قيامي من العاصمة مصاباً بزكام شديد فرأيت ان

تغيير الهواء قد شفاني منهُ . وكان البرد شديدًا في غرفة المائدة لا احتمل مثلهُ في العاصمة اما هناك فلم اكترث لهُ فقلت في نفسي قد يكون هذا الرجل مصيبًا في كل ما شرح وتصير هذه المدينة التي عزمت شركتهُ على بنائها ملجأً لكل مَن انحرفت صحتهُ . وعزمت ان ارافقهُ وارى موقع المدينة وامتحن جودة هوائها بالبحث عن الاوزون فيهِ . ونمت تلك الليلة وانا احلم بمدينة قارون وقصورها الشاهقة وفندقها الفسيح ومصايد الاسماك وبساتين الفاكهة ومزارع البقول ومعامل الغزل والنسج والزوارق والذهبيات تمخر في البحيرة وعليها اهل الغنى والقصوف يغنون ويطربون واذا بهيكل انتصب في وسطها وارتفع منهُ برج شاهق الى السماء وتجلَّت عليهِ روح رعمسيس الثاني فكتبت على الظلام بحروف من نور سطرًا قرأهُ العارفون بالقلم المصري " العدل يعمر البلاد والظلم يخربها " . ثم استيقظت فاذا الساعة السادسة صباحًا واطللت من شباك غرفتي على ساحة كبيرة يجري نهر يوسف عن يمينها فيسكب النضار في مزارع الفيوم وعليهِ السواقي تئن انين العاشق الولهان وتدور بمائها كما يدور باهلهِ الزمان

الفصل الثاني

على البحيرة

في بيت كبير من بيوت الفيوم القائمة على بحر يوسف رجل واسع الثروة عريض الجاه يملك الوفًا من الافدنة ويديرها بنفسهِ وكان وحيدًا لابيهِ فورث ثروتهُ كلها وزاد عليها بضعة الوف من الافدنة اشتراها من الدائرة السنية واسمهُ ابرهيم بك لبيب ولهُ ثلاثة ابناء يوسف بكرهُ وقد علَّمهُ صناعة الطب في القصر العيني ثم في مدرسة كمبردج ببلاد الانكليز وامين الثاني وقد علَّمهُ علم الحقوق في المدرسة الخديوية وارسلهُ الى اكسفرد ليتعلم علم السياسة ورياض الثالث وهو يتعلم الزراعة في المدرسة الزراعيَّة . وقد جرى في ذلك على رغبتهم وحسب اميالهم . وابنة تعلمت عند المرسلين الاميركيين في مدرستهم بالقاهرة ثم اتمت دروسها في البلاد الانكليزية وعادت منها بفتاة انكليزية لتكون رفيقةً لها ومسلية وكان ذلك برأي ابيها ومشورتهِ لان امها ماتت منذ بضع سنوات فخاف ابوها ان تسأَم الاقامة في البيت اذا لم يكن لها رفيقة تسليها

وكان امين قد اتمَّ درسهُ واشتهر بخطبهِ الحماسيَّة ضد المحتلين في بلادهم وعاد الى مصر ليسعى الى تعزيز الحزب الوطني واتفق الاولاد الثلاثة واختهم على الخروج الى جهات بحيرة قارون وقضاء يومين او ثلاثة هناك ووافقهم ابوهم على ذلك فارسلوا اليها الخيام مع الخدم

وقاموا في الصباح فامتطوا صهوات الجياد وركب ابوهم مركبة سارت بهِ الى سنهور ثم ركب حمارًا حصاويًا الى ان وصلوا الى جانب البحيرة الجنوبي فنزلوا فيهِ وكان الخدم قد نصبوا الخيام واخذوا يعدُّون الطعام

واتفق وصولنا الى تلك الجهات حين وصولهم اليها وكنت اعرف يوسف وامينًا فلما رأياني رحبًا بي وعرَّفاني بابيهما واختهما ورفيقتها وعرَّفتهم برفيقي وبالمستر مكنزي المهندس واخبرتهم انهُ اخو لورد مكنزي مدير شركة قارون فرحبوا بهِ واجلُّوا قدرهُ. وكان ابرهيم بك قد سمع عن هذه الشركة واهتمَّ بامرها لان اطيانهُ تجاور الاراضي التي اشترتها من الحكومة وكاد يأخذها منها بالشفعة ولكنهُ تنازل عن شفعتهِ لمَّا علم غرضها وانها ساعية الى احياء الارض وانشاء مدينة فيها . فدعونا للغداء معهم فاعتذرنا وكنا عازمين على تناول الغداء في نزل قارون المقام هناك ولكنهم لجُّوا علينا كثيرًا فقبلنا دعوتهم واخذت السيدة نزهة ابنة ابرهيم بك تعتذر الينا لانهم لم يحضروا معهم من ادوات الاكل الَّا الضروري والتفتت الى المستر مكنزي وكلمتهُ بالانكليزية قائلة ان المهندس في هذه البلاد مضطر ان يختبر عيشة البدو فنحن نريك اياها ونطلب منك ان تمارسها معنا وعسى ان لا تستصعبها. فاحمرَّ وجههُ وتلعثم لسانهُ وحصر عن الجواب اولاً ثم قال لا تتعجبي يا سيدتي اذا دهشت وحصرت عن الكلام لان كل ما اراهُ امامي عجيب مدهش ولقد كنت اناجي نفسي قائلاً ترى هل استطيع ان اكلمك وانا لا اعرف كلمة من اللغة العربية فاذا انتِ تتكلمين الانكليزية احسن مما اتكلمها انا ويظهر انكم كلكم تتكلمونها . فقالت نعم حتى ابي

فقال يحق لنا ان نفتخر لان كل اعضاء هذه العائلة الكريمة يتكلمون لغتنا

ثم التفت اليَّ وقال لقد وجدتُ الذين يتكلمون الانكليزيَّة اكثر مما كنت اظن

فقلت نعم ولكن لم يكن الامر كذلك منذ بضع عشرة سنة واتذكر ان احد رجالكم تبرَّع حينئذٍ بجائزة لمن يفوق غيرهُ في اللغة الانكليزيَّة من تلامذة نظارة المعارف فترددت النظارة في قبول الجائزة وعرضها لئلاَّ يقال انها تنشّط تعليم اللغة الانكليزيَّة اما الآن فصار اكثر التلامذة يتعلمونها ويفضلونها على الفرنسوية

فقال امين هم مضطرون لا مختارون فقال لهُ اخوهُ يوسف ولماذا هم مضطرون وهل يفضلون تعلُّم اللغة الفرنسوية لو خُيِّروا ولماذا يفضلونها واللغتان غريبتان عنا واشغالنا التجارية مع انكلترا اكثر مما هي مع فرنسا وقد كانت كذلك قبل الاحتلال . ثم التفت الى المستر مكنزي وقال لهُ ان اخي خصم لكم ولسياستكم في بلادنا وهو من الحزب الوطني. فضحك هذا

وقال اذاً هو صديقي لاني انا من الاحرار ثم صافحهُ وسرنا كلنا الى الخيمة التي فيها المائدة تتقدمنا السيدة نزهة ورفيقتها وجلست امام ابيها على صدر المائدة وجلس المستر مكنزي الى يمينها وانا الى شمالها وتجاذبنا اطراف الحديث وكان باب الخيمة مفتوحاً تجاه البحيرة وهي مبسوطة امامنا كصفيحة من الزبرجد وقد قامت الجبال والآكام على حدها الشمالي كالحراس ونفذت سهام الشمس في الهواء فلطفتهُ وابعدت عنهُ بخار الماء فبانت حدود الصخور والتخاريب وظهرت الوانهما الصفراء والزرقاء وتشعبت شؤُون الحديث وكان اكثرها دائراً على شركة قارون والمدينة التي يراد انشاؤُها فقال ابرهيم بك ان في اختيار هذا الاسم لها تفاؤُلاً حسناً لان قارون في العربية هو الملك كريسوس عند الافرنج المشهور بغناه . ولم ارَ من المستر مكنزي طلاقة في الحديث كما رأَيت منهُ في الفيوم بل كنت كلما نظرت اليهِ اجدهُ يختلس النظر الى مس برون رفيقة السيدة نزهة وهي مطرقة لا تنظر اليهِ وقد صبغ الحياء وجهها وقلما شاركتنا في الحديث وكأَن ذلك كان على خلاف عادتها لاني كنت ارى ابرهيم بك واولادهُ يوجهون الحديث اليها احياناً كثيرة فتجيب بعبارات وجيزة ولذلك افاضت السيدة نزهة في الحديث . وكان كثيرون من الفلاحين قد اجتمعوا امام باب الخيمة ولاحظت هيئتهم الرومانية وألفتت المستر ماكنزي اليها فان الوانهم بيضاء في الغالب وانفهم اقنى دقيق وشفاههم رقيقة فقالت ولماذا لا يكونون كذلك وكلنا من نسل القواد الرومانيين الذين أُقطعوا الفيوم فسكنوها وتناسلوا فيها . فقلت لها اذاً انت تدرسين تاريخ مصر القديم فقال لي اخوها يوسف انها تدرس التاريخ القديم والتاريخ الحديث وتفتش عن الآثار القديمة وحالما ظهر كتاب الماجور برون عن الفيوم تناولتهُ وطالعتهُ وذهبنا نفتش عن آثار البناء القديم المعروف بالتيهِ الذي وصفهُ هيرودوتس ابو التاريخ

فقالت نعم ولماذا لا نفتش عن آثار بلادنا السنا احق بذلك من الاوربيين الذين يبحثون وينقبون وينفقون الاموال الطائلة . ثم التفتت الى المستر مكنزي وقالت لهُ ان صحَّ ما ما حققهُ الباحثون في الآثار القديمة فبحيرة الفيوم كانت في عهد الفراعنة عشرة اضعاف ما هي الآن ولم يكن ظاهراً من كل مديرية الفيوم سوى قطعة صغيرة من العدوة الى بهمو فسنهور وابو كساه وسنرو اي الارض العالية وما بقي كان مغموراً بماء البحيرة فلا تنتظروا الآن ان تصيدوا من السمك قدر ما كان يصاد حينئذٍ . قالت ذلك وتبسمت كانها ذكرتهُ بما نُشر عن بيان شركتهم على سبيل المزاح

فبهت من كلامها وتلعثم لسانهُ اولاً ثم قال اصبتِ ولذلك ساطلب من الشركة ان

لا تضع مسألة السمك في بيانها . فضحكنا كلنا واتضح لي ان السيدة نزهة مطلعة على ما كتب عن هذه المديرية فارتفع شأنها في عينيَّ وقلت في نفسي ما اقل البنات اللواتي يدرسن درسها ومَن منهنَّ لا تفضل كتب الروايات على كل الكتب التاريخية والادبيَّة وصرت اوجه الكلام اليها كما اوجههُ الى احد العلماء

وخرجنا بعد الغداء نتمشَّى حول البحيرة وارانا المستر مكنزي المكان الذي يقصدون ان يبنوا فيهِ المدينة وهو مرتفع رملي الى الجهة الشرقية فيهِ بعض الحجارة والشقف القديمة . والتفت المستر مكنزي الى السيدة نزهة وقال لها ان وجود هذه الآثار هنا ينقض ما ذهب اليهِ السر همبري برون والاستاذ بتري لان الآثار رومانية وهذا يدل على ان حد البحيرة كان ههنا في زمن الرومانيين

فقالت انا كنت اتكلم عن زمن هيرودوتس وهو قبل زمن الرومانيين بقرون كثيرة ثم ما ادرانا ان هذه الحجارة والشقف لم يؤتَ بها من الضفة الشمالية حيث توجد آثار الديماي والارض مرتفعة هناك كما هي مرتفعة في مدينة الفيوم فلم تكن البحيرة تغمرها ولا في زمن الفراعنة

فرأى المستر مكنزي انهُ يكلم فتاة ابرع منهُ في علم التاريخ وعلم الآثار فاعتذر اليها وبقي يحاول الانفراد بمس برون وهي تجنبهُ الى ان التقى بها وحدها وقال لها ول ول مس برون ما هذا الاسم الم تجدي اسماً اقل شيوعاً منهُ . فقالت لهُ اسكت والزم الصمت

فقال ها انتِ اخبريني ماذا جرى وكيف وصلتِ الى هذا المكان فان السر هنري قد اقلق انكلترا وملأ جرائدها بالسؤال عنكِ

فقالت القصة طويلة ولا وقت لي الآن لاقصها عليك ولكن ما لنا ولها ارجو من شهامتك ان تكتم خبري عن كل احد عدني بذلك الآن

فقال اظن ان اباكِ آتٍ الى مصر هو واخي لورد مكنزي فاذا سألني ابوكِ عنكِ فماذا اقول لهُ

فقالت ايصعب عليكم انتم الرجال ان تجدوا الف حيلة للتخلص من الجواب

فقال مهما كان جوابي لا يسلك على السر هنري وانا نفسي اريد ان اعرف سبب اختفائكِ ومجيئكِ الى هنا . فقالت عدني الآن انك لا تخبر احداً باموري اما قصتي فساخبرك بها في وقت آخر

ووصلنا حينئذٍ اليهما وكان لي شغل لا بدَّ من قضائهِ فودعت ابرهيم بك وعائلتهُ ولكنهم لم يسمحوا بذهابي الَّا بعد ان وعدتهم بان اعود اليهم في المساء واتعشى معهم

الفصل الثالث

بعض الغامض

توارت الشمس في الحجاب بعد ان ودعت الزرع وداع الحباب والبست الجوّ حلة عسجدية وبسطت على الارض مطارف كسروية وحلّقت الغربان في عنان السماء لتكون آخر من ينظر ملكة النهار فوق الغبراء . ووقف البدر رقيباً ليرى ما يكون من هذا الوداع وقد اصفرّ وجههُ حسداً وودّ ان يشتد حلك الظلام ليكون فيهِ مفتقداً . وخرجت النساء للاستقاء وقد توجنَ رؤُوسهنّ بجرار الماء . وعادت الانعام من المراعي بطاناً بعد ان خرجنَ اليها خماصاً . وتموجت اردافهنّ كانهنّ لبسنَ من الحرير درعاً دلاصاً . ونبحت كلاب العزب عابري الطريق . وارتفع الدخان من الاكواخ وليس في القدور غير السليق . وضاءت الحباحب في كهفها ليهتدي اليها الفها . وطارت الخفافيش تفتش عن فراش تأكلهُ . ونقّت الضفادع طرباً كأنها لا ترى في الحياة عبئاً تحملهُ

وانفرد المستر مكنزي بمس برون ثانيةً قبل العشاء فرآها تنظر طارةً الى السماء وطوراً الى الماء وقد مسكت بيدها زهرةً برية وهي تفتل غصنها باناملها كأنها تحاول جمع افكارها المتشردة فتعصيها . فقال لها قولي لي ماذا اقول لابيك وكيف يصحّ لي ان التقي بهِ ولا اسألهُ عنك وكيف اتجاهل وجودكِ في مصر . وهل انتِ مسرورة بالاقامة في هذا البيت

فابرقت اسرّتها لما انتقل من السؤال الاول الى الثاني وقالت نعم اني مسرورة جداً بالاقامة هنا مع مس ابرهيم بك وانا احبها مثل اختي وهي تحبني مثل اختها ولا تقدر ان تفارقني يوماً واحداً وقد انحرفت صحتي في الشهر الماضي فقلقت عليّ اشد القلق واتوني بطبيب من القاهرة كأن لا قيمة للمال عندهم نعم هم يدققون في الامور الصغيرة الى حد البخل ولكن اذا دعت الحال فتراهم يعطون الف الجنيه كما يعطون القرش وفوق ذلك فان لي هنا عملاً اهم من ركب الاوتوموبيل والرقص في بيوت لندن وهو اني ساعدت مس ابرهيم في ترتيب بيت ابيها . ماذا كنت اعمل في لندن غير النوم الى الظهر والسهر الى نصف الليل ومسايرة لورد مورلي اكراماً للادي مكدن . ليكن في علمك اني باقية هنا وغير راجعة الى لندن ابداً وارجو من شهامتك ان تكتم امري كل الكتمان لاسيما وانك غير مكلّف بافشائهِ

فقال لها اذاً ابرهيم بك وعائلتهُ لا يعلمون شيئاً من قصتك يا مس مكدن

فقالت كلاّ ولا يعلمون الاّ اني فتاة انكليزية اتيت مع ابنتهم رفيقة لها

فقال ولكن ما هو السبب الذي دعاكِ الى ترك بيت ابيكِ والمجيء الى هنا ومن يترك قصور السر هنري مكدن و يأتي الى هذه البلاد

فقالت هذه قصة يطول شرحها وكنت اظن انك عالم ببعض تفاصيلها وهنذا ابرهيم بك وابنتهُ فلا سبيل لشرحها الآن ولا حاجة بي ان اكرر عليك الوصية بالكتمان التام

ودنت نزهة وابوها منهما وقالت نزهة لها ارأيتِ ما اجمل غياب الشمس تصوَّر يا مستر مكنزي اننا الآن في يناير ولا غيمة في السماء وقد مضى اكثر من شهر ولم تقع نقطة من المطر . كيف الحال عندكم الآن والمطر والثلج والبرد ولكنني احب بلادكم

فقال هل تحبينها اكثر مما تحبين هذه البلاد

فقالت لا اعلم . لا اظن . لا تصح المفاضلة بين البلادين لان لكل بلاد منهما مزايا ليست للاخرى ولكن لا شبهة في ان الصيف عندكم يفضل على الصيف عندنا من كل وجه والشتاء عندنا يفضل على الشتاء عندكم . هذا من حيث الهواء والحر والبرد . اما من حيث البلاد نفسها ونظافتها وجبالها ووهادها واشجارها وغياضها ومناظرها الطبيعية والصناعية وتغير اشكالها فلا شيء عندنا يقابل بها ولا سيما بلاد اسكتلندا وويلس وجنوبي انكلترا . بلادكم كلها جميلة وقد تبارت الطبيعة والصناعة في تجميلها . وبلادنا ايضاً جميلة . انظر الى هذه المروج الخضراء الفول والقمح والبرسيم شقق خضراء متصلة الحواشي لا فاصل بينها غير طرق السابلة الضيقة . وهذه البحيرة البديعة والجبال المنتصبة امامها والتاريخ القديم الذي يحيط بها . الوف والوف من السنين تنظر الينا من وراء الغيب اين امنهوتب اين رعمسيس اين ملوك الفرس اين البطالسة اين القياصرة اين القرون التي مرَّت على هذه البلاد وابقت فيها من آثار عظمتها ما يدهش العقول . هل رأيت هرم ميدوم في طريقك الى الفيوم . نحن هنا في مدرسة دائمة ندرس تاريخ الامم وما مرَّ بها من العبر . اليس الامر كذلك يا مس برون . سنصير انا وانتِ من علماء الاجبتيولوجيا[1] ياعزيزتي

قالت ذلك واعتنقتها وقبلتها وكانت تحمل برنيطتها بيدها وهي من برانيط الشمس الواسعة الكنار وشعرها معقوص على رأسها قصائب متموجة اسود ضارباً الى الشقرة . فنظر اليها المستر مكنزي ملياً وقال في نفسهِ لقد صدقت فان دم اليونانيين والرومانيين اختلط بدم المصريين الاولين والناس كلهم اخوة وابناء اب واحد وام واحدة وما هذا الاختلاف الذي تراهُ في الوانهم وملامحهم الاَّ من تأثير الاقليم والمعيشة

(١) علم الآثار المصرية

واجتمعنا الساعة السابعة مساءً حول مائدة فاخرة واديرت علينا الوان الطعام من سمك البركة وبطها ولحوم الفيوم المشهورة بطيب طعمها مطبوخة كلها على النسق الفرنسوي او ما يقارب النسق الشرقي ودار الحديث اولاً على صيد السمك من بحيرة قارون لانا كلنا استطبنا سمكها ثم على صيد البط منها ومما يجاورها وكان امين ورياض قد مضيا للصيد بعد الظهر وعادا بعشر بطات وطيور اخرى صغيرة . والتفتت نزهة الى ابيها وقالت لهُ ما دام امين ورياض يأتياننا بصيدهما فيكون من الحكمة والتوفير ان نقيم ههنا . فقال امين اصبتِ لان اصحابك قد غلّوا علينا المعيشة في كل مدن القطر . قال ذلك والتفت اليَّ كأنهُ يطلب موافقتي لهُ على كلامهِ

فقلت نعم ان المعيشة اصبحت غالية جدًّا وان كان لاصحاب السيدة نزهة يد في ذلك فتكون يدهم للنفع لان المعيشة لاتغلو الّا حيث ترخص النقود والنقود لاترخص الّا حيث تكثر

فقال امين نعم هذا مبدأٌ صحيح في فن الاقتصاد السياسي ولكن قد تكثر النقود وتكون للذين تكثر بينهم وقد تكثر وتكون ديناً عليهم كما في حالتنا الحاضرة فقد جاءتنا البنوك باموال اوربا فاستدناها منها ونحن نبذّرها الآن فرخصت بين ايدينا وغلت برخصها الحاجيات والكماليات ولكن الدين لا بدَّ من ايفائهِ عاجلاً او آجلاً فمن اين نوفيهِ بعد ان نكون قد بذّرناهُ وانا اؤكد لك ان حالنا اليوم اسوأُ مما كان عليهِ حال آبائنا منذ ثلاثين او اربعين سنة

فقال ابوهُ نعم اسوأُ مما كان في زمن السخرة والكرباج اسوأُ مما كان في عهد الظلم والاستبداد هذه الاطيان كلها هذا التفتيش الكبير نزع من اصحابهِ غصباً عنهم بثمن او بلا ثمن وضُمَّ الى املاك الدائرة السنية وأُجبر اصحابهُ على حرثهِ وزرعهِ من غير اجرة والكرباج فوق رؤُوسهم واذا هرب واحد منهم أُلزم اخوتهُ او اقاربهُ او اهل بلدهِ ان يقوموا بما كان مفروضاً عليهِ من العمل وان يدفعوا ما كان مفروضاً عليهِ من المال . ماذا تعلم من الايام الماضية حتى تفضلها على هذه الايام ابوك عرف الزمانين انا عرفت ذلك الزمان وهذا الزمان واني متعجب كيف بقي احد منا في قيد الحياة فبأي حق تفضل تلك الايام على هذه الايام

فقال رياض اما انا فاني كنت اود ان اكون في تلك الايام مفتشاً في هذا التفتيش حينما كان يزرع قصباً

وكأن السيدة نزهة رأت ان الحديث اوغل في سبل الجد فارادت ان تصرفهُ الى المزل فقالت لاخيها حتى تشبع من القصب

فقال نعم حتى اشبع واشبعك انت ومس برون فانكما تجبانهِ اكثر مني

فقالت لمس برون هل تعلمتِ مص القصب

فقالت نقوبياً ولكنني لست ماهرة مثل مس لبيب

فقالت السيدة نزهة نسيت القصب مع انهُ احسن فاكهة هنا

ثم التفتت الى احد الخدم واوصتهُ ليذهب الى اقرب مقصبة ويحضر لنا القصب منها واعتذرت الينا عن فعلها هذا وقالت بالعربية برّية وحرية ثم ترجمت عبارتها بالانكليزيّة لكي يفهمها المستر مكنزي

فقال لها لا داعي للاعتذار فان كل ما اراهُ على غاية الانتظام وانا احب القصب كما تحبونهُ ولو لم ابلغ مبلغ المستر رياض في محبتهِ ثم التفت الى ابرهيم بك وقال لهُ هل تظن ان كثيرين يقولون قولك من جهة تفضيل هذه الايام على الايام الماضية

فاجابهُ ابرهيم بك ان الذين ذاقوا مرارة تلك الايام يعرفون حلو هذه الايام واما يوسف وامين ورياض فلا يعلمون منها شيئاً ولا يستطيعون ان يتصوّروها

فقالت السيدة نزهة انا استطيع ان اتصورها فاذًا انا اكبر منكم كلكم فاني استطيع ان اتصور العمدة او شيخ البلد مطروحاً على الارض ورجلاهُ في الفلق واثنين يروغان عليهِ بالضرب الى ان يغمي عليهِ فيرش وجههُ بالماء حتى يفيق ثم يعاد ضربهُ حتى يسيل الدم من رجليهِ وجنبيهِ وقد اخبرتني المرحومة جدتي انهم فعلوا كذلك بالمرحوم جدي وقصّت عليَّ القصّة مراراً كثيرة حتى رسخت في ذهني · اما امين فلا يصدق ان الناس كانوا يمتهنون الى هذا الحد

فقال ابوها ان ما اخبرتك بهِ امي ليس شيئاً بالنسبة الى ما كان يصيب غيرنا لان ابي كان من المفتشين المسموعي الكلمة اما غيرهُ من العمد والاعيان فكان يجلد مراراً في العام الواحد ولكن ما لنا ولهذا الحديث الآن هات يامستر مكنزي اخبرنا كيف وجدت بلادنا

فقال المستر مكنزي وجدتها من اجمل البلدان حتى في فصل الصيف فاني لم اجد حرارتها اشد من حرارة بلاد الهند · حتى بلاد السودان لا تبلغ في حرها مبلغ بلاد الهند وقد ذهبت الى الخرطوم في الصيف الماضي ولم أرَ الحر فيها فوق الطاقة واصابنا الهبوب مرّة او مرّتين وانا هناك فتضايقنا منهُ ولكن مدتهُ قصيرة ويزول حالاً والصحة هناك على اجودها لنقاوة الهواء وجفافهِ

فقال له امين فلا عجب اذاً اذا قيل انكم ستجعلون السودان هنداً ثانية ولكن اذا كان الامر كذلك فلماذا تحملون مصر نفقاتها او عجز ميزانيتها

فقال المستر مكنزي اظن ان السبب واضح وهو اننا اذا لم نحفظ السودان لمصر اخذتها دولة أُخرى ولم يعد في طاقتنا ان نتصرف بالنيل تصرفاً يعود بالنفع على مصر . وانا لست بارعاً في التعليل السياسي ولكن اظنني مصيباً في هذا القول أليس الامر كذلك يا ابرهيم بك

فقال ابرهيم بك نعم هذا هو الصواب فقد كنا نقاسي الاهوال من قلة الماء في زمن التحاريق اما الآن فاصطلحت الحال جداً ولا نزال نحتاج الى كثير من الماء ولا سيما في الفيوم فاذا كانت الاعمال التي يراد عملها في السودان تكفل لنا الري الصيفي فكل ما ينفق على السودان لا يكون شيئاً بالنسبة الى الفوائد التي ننالها منهُ

فالتفتت السيدة نزهة اليَّ وسألتني عن رأيي في المسألة فقلت اني من رأي ابرهيم بك ولكن يمكن الاقتصاد في نفقات السودان كثيراً فاني لا أرى فائدة لسكة سواكن او لاداعي لها الآن وقس على ذلك نفقات كثيرة من هذا القبيل . وتعمير السودان لازم ولكن لا داعي للتعجل فيهِ ولا هو مطلوب منا

فقالت لي هل ذهبت الى السودان . فقلت نعم ورأيت اعمال الاصلاح جارية فيهِ بما يمكن من السرعة

فقالت وهل السودانيون اهلٌ لان يعتنى بامرهم الى هذا الحد

فقلت يظهر ان العرب منهم اهل لذلك وهم يقدرون الاعمال التي تعمل في بلادهم قدرها ولكن هي مثل كل الاعمال الآتية من الخارج تقبل كأنها ثياب عارية وانت تعلمين المثل العربي الثوب العارية لا يدفئ ولا فلاح لامَّة ما لم تنهض هي نفسها وتحك ظهرها بظفرها كما يقال

فقال امين اصبت اصبت وهذا حالنا في مصر فان المستر مكنزي واصحابهُ قبضوا على كل الاعمال والمصالح ومهما احسنوا واخلصوا في ادارتها فنحن الخاسرون اخيراً لاننا نصير عاجزين عن ادارتها بانفسنا فلو تركونا وشأننا لادرنا امورنا واخطأنا اولاً من وجوه كثيرة ولكن الانسان لا يتعلَّم الَّا من الخطإ فنتعلَّم اخيراً كيف ندير اعمالنا من غير خطإٍ كالطفل الصغير فانك ما دمت تحملهُ بيديك خوفاً من ان يعثر ويقع اذا مشى فانهُ لا يمشي ابداً ولكن دعهُ يمشِ على رجليهِ ويقع فانهُ يتعلم المشي اخيراً

وكنا قد فرغنا من اكل الفاكهة فقالت السيدة نزهة ابقوا في حديثكم السياسي الاقتصادي وانا والسيدة نزهة خارجتان نمشي في ضوء القمر . وقال المستر مكنزي وانا

امشي في رفقتكما ان سمحتما لي وقلت انا كذلك وقمنا وخرجنا نمشي على شاطىء البحير

قالت زهرة لاحمد وهما يرفعان الصحاف عن المائدة "شفت الراجل الانكليزي دا يكلم ستي برون وحدها اظنها من بلده"

احمد — كلهم من بلد واحد والظاهر يعرفوا بعض من قبل

زهره — لا ما يعرفوش انا كنت حاضره لما عرَّفتهم ستي نزهه ببعض وموش عارفه ليش ستي برون ما عادتش تتكلم مثل عادتها وصار كل الكلام لستي نزهه

احمد — الظاهر في حاجه بينها وبين الراجل دا

نزهة — ما اعرفشي ومن اول ما بصَّيت فيها قلت دي بنت ناس كبار وكنت رتّب صندوقها من يومين ثلاثه وجدت عندها علبة مجوهرات احسن ما عند ستي نزهه ولما شفتها اخذتها مني وخبتها . انا موش خايفه منها ولكن قلبي يقلي انها مش تمام

وبينا هما يتحدثان كذلك دخلت جارية سوداء مترهلة البدن في سن الكهولة وشتمتهما وامرتهما ان يسرعا في تنظيف المائدة لان يوسف بك قال لها ان البكوات سيعودون قريبًا ليلعبوا الورق هناك

وفيما نحن نتجاذب اطراف السمر في ضوء القمر والسيدة نزهة تقول بعثت مرسي ليجلب لنا قصب السكَّر ولم يعد حتى الآن اذا بطلق بندقية تبعتهُ طلقات كثيرة وصعقات شديدة . فعدونا كانا الى ناحية الصوت مدفوعين الى ذلك عن غير قصد وبعد مسيرة نحو الف خطوة رأينا رجلاً مطروحًا على الرمل والى جانبهِ عيدان القصب وحاول الدكتور يوسف انهاضهُ فوجدهُ ميتًا لا حراك بهِ والدم لا يزال ينزف من جنبهِ ورأت السيدة نزهة هذا المنظر فاضطربت وأُغمي عليها فحملها اخوها بين يديهِ وابعدها عن القتيل والقاها على ظهرها وفك ازرارها وبعث رياضًا اخاهُ الى الخيمة ليأتيهُ بجزدان الادوية والشمامات ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى اتى الخفراء الينا وقصوا علينا واقعة الحال وهي انهم أُخبروا ان الشقي ابا سعدان ومنصرهُ مختبئون في القصب وقصدهم السطو على عزبة الياس فتربصوا لهم هناك ورأوا الخادم مرسي عائدًا بالقصب فانذروهُ ان لا يعود بطريق الجبل والظاهر انهُ رأى ترعةً او مصرفًا في طريقهِ فاختار طريق الجبل ورآهُ اللصوص واطلقوا عليهِ الرصاص فاسرع الخفراء اليهم وادركوهم ورموهم بطلقات كثيرة فاصابوا ابا سعدان رئيس المنصر لكن رفاقهُ كثروا عليهم وحملوهُ وتغلغلوا في القصب فتعذر عليهم اتباعهم

وحضر حينئذٍ كثيرون من اهالي العزب المجاورة وأُرسل الخبر الى معاون البوليس في نقطة ابو كساه . وافاقت السيدة نزهة فمشينا معها الهوينا واوصلناها الى نزل قارون لانها خافت ان تنام في الخيمة فنامت فيهِ هي ورفيقتها . ومضى الليل ونحن في قلق مستمر وكتابة محاضر التحقيق وقام ابرهيم بك في الصباح وعاد بعائلتهِ الى الفيوم ومضي الدكتور يوسف مع جثة مرسي الى مركز سنورس وقد حزن اولاد ابرهيم بك على خادمهم حزناً شديداً لان لهُ في خدمتهم سنين كثيرة وكان كبير الهمة شديد الامانة

وبقيت انا يومين آخرين وعدت الى الفيوم مع المستر مكنزي وكان رفيقي قد سبقني الى مصر

الفصل الرابع

استقلال مصر

حالما وصلنا الفيوم مضيت انا والمستر مكنزي وزرنا بيت ابرهيم بك نسأل عن صحة السيدة نزهة ونشكرهم على حسن ضيافتهم لنا فرحبوا بنا وطلبوا منا ان نقيم عندهم ونتغدى معهم

والبيت قديم ولكن أُدخلت فيهِ اصلاحات كثيرة جديدة وهو طبقتان كبيرتان جداً السفلى لمقابلة الزوار ونزول الضيوف وفيها غرفة كبيرة للمائدة ومكتبة ابرهيم بك وهي حافلة بالكتب النفيسة ولا سيما الكتب التاريخية اما غرف المشاهدة التي يشاهد فيها الدكتور يوسف مرضاهُ فمبنية وحدها في طرف الحديقة . والطبقة العليا قسمان مفصولان احدهما عن الآخر الواحد للنساء والآخر للرجال وفيهما غرف كثيرة للمنامة والاكل والجلوس والاستقبال : ولم أَرَ في بيت من بيوت مصر من فاخر الاثاث والرياش اكثر مما رأيت في ذلك البيت وقد قيل لي ان اكثر الاثاث الثمين مشترى من سراي الجيزة وسراي الجزيرة فهو من قصور اسمعيل باشا وبعضهُ كان لا يزال في صناديقهِ كما اتى من اوربا كالثريات الكبيرة والبسط التي من نوع الغوبلين الثمين والستائر المحوكة لاسمعيل باشا خاصة والموائد والكراسي والمقاعد وما اشبه

وكان ابرهيم بك جالساً في مكتبتهِ واثاثها انكليزي كلهُ فاستقبلنا فيها وألحّ علينا بالبقاء عندهم وقال لنا رياض انهُ ينزل معنا الى مصر لان اجازتهُ انتهت ولا بدَّ من رجوعهِ الى المدرسة فاجبنا طلبهم وجلسنا معهم في المكتبة حول نار موقدة لان النهار كان بارداً جداً

وقال ابرهيم بك لابنهِ رياض انك راجع اليوم الى المدرسة فاحذر من ان تجاري غيرك من الشبان في المظاهرات الفارغة كما فعلتم سابقاً فان الذين يحركونكم ويحضونكم على ذلك خادعون او مخدوعون واني ارى الحوادث الجارية الآن مثل الحوادث التي كانت جارية قبيل الثورة العرابية واخاف من عاقبتها

فقلت لهُ هل تتبعت حوادث الثورة العرابية من اولها

فقال كيف لا وقد كنت محسوباً من دعائم الحزب الوطني قبل ان تهوَّر ثم اضطررت ان انفصل عنهُ لما رأيت بين اعضائهِ عدداً كبيراً من المهاويس او المفاليس . فقبضوا عليَّ وزجوني في السجن لانهم ظنوا بي الخيانة مع اني لم اخنهم قط ولكن كان لي صديق كنت استخلصهُ واخبرهُ بكل ما يجري في اجتماعاتنا والظاهر انهُ كان جاسوساً فكان يمضي ويفشي اعمالنا ولولا وساطة بعض الاصدقاء لقضي عليَّ

وابرقت اسرَّة المستر مكنزي وقال لابرهيم بك احبُّ ان اقف على خلاصة ما تعلمهُ من اسباب الثورة العرابيَّة ومأجرياتها وهل تظن حقيقة ان الحركة الحاضرة تؤدي الى ما ادَّت اليهِ تلك

فقال اما اسبابها وماجرياتها فسأشرحها لك لاني من اخبر الناس بها وعندي كل تفاصيلها واما هل تؤدي الحركة الحاضرة الى مثلها او لا تؤدي فهذا يتوقف على المتطرفين من حزب الاحرار عندكم لانهم اذا ظلوا ينفخون في انوف الذين يغترون باقوالهم واقنعوهم ان انكلترا تجلي عن القطر المصري اذا نحن غاضبناها فلا يبعد ان يصدِّق جمهور كبير قولهم ويجاهروا بالعدوان ولاسيما اذا اصاب البلاد عسر مالي لان المديون المفلس يلتمس كل وسيلة للتخلص من دائنهِ او لتخويفهِ حتى لا يطالبهُ بالدين . نعم اذا بقيت الاشغال رائجة كما هي رائجة الآن فلا خوف من الثورة لان الاكتساب يربط الناس بالمصالح . ولكن رواج الاشغال الذي نراهُ الآن لا يطول لان الاموال آتية من الخارج ولا بدَّ من ان ينقطع سيلها ويطلبها اصحابها منا فيضطر الناس الى الايفاء . انظر الى فلان صاحب الجريدة الفلانية فانهُ يبلغني انهُ مرتبط مع بعض الشركات وقد ربح منها ربحاً طائلاً فهو يساير ويجامل الآن ولكن لا يبعد ان يغتر فيبتاع بما كسبهُ اراضي وعقارات لا يستطيع ان يوفي كل ثمنها ولا نصفهُ فاذا هبطت الاسعار بعد حين ولم يستطع ان يوفي ما عليهِ اضطرَّ ان يلجأ الى المشاكسة والمعاكسة وتكدير جو السياسة وقس عليهِ امثالهُ من المستغرقين في الدين

فقال المستر مكنزي هذه مسألة اخرى واسمح لي ان اقول اني لست من رأيك في

انقلاب الحال من اليسر الى العسر بل اليسر متزايد يوماً فيوماً ما دامت ثروة البلا مكفولة بريع اطيانها · والذي يهمني البحث فيه الآن هو مسألة استقلال مصر فاني واثق تمام الثقة ان في البلاد الانكليزية حزباً كبيراً يرغب في جلاء جنودنا عن مصر واعطائها الاستقلال التام وهو الحزب الديموقراطي وهذا الحزب آخذ في الازدياد يوماً فيوماً فعلى مَ لا تساعدونهُ بتنبيه العواطف الوطنيَّة الى طلب الاستقلال فان الحزب الذي انا منهُ يرى ان ليس لنا اقل حق في احتلال مصر وان احتلالها لم يأتنا باقل نفع بل عاد علينا بالضرر الكبير ماليًّا وسياسيًّا فاولاً حمَّلنا نفقات الحرب العرابيَّة وحملة السودان الاولى وهي لا تقل عن عشرة ملايين من الجنيهات وثانياً خسرنا زهرة قوادنا وضباطنا في حروب السودان وثالثاً التي النفرة بيننا وبين اعظم دولة من دول اوربا حتى اضطررنا ان نترضاها مراراً · وتجارتنا مع هذا القطر لم تزد كما زادت تجارات الدول الاخرى فكأننا احتللنا مصر لضررنا ونفع غيرنا ولذلك كله لا استبعد ابداً ان يجلي جيش الاحتلال عن بلادكم في القريب العاجل

فقال ابرهيم بك هذه احلام يحلم بها بعض شباننا وقد تفضي الى الامتلاك بدل الاحتلال والظاهر انهُ فاتك يامستر مكنزي ان السبب الحقيقي لمجيء انكلترا الى هذا القطر هو المحافظة على اموال المداينين واصحاب ترعة السويس والمتاجر الكبيرة في القطر فان اسمعيل باشا ترك البلاد مديونة لماليي اوربا بنحو مئة مليون جنيه عدا ديون الاهالي الكثيرة لاصحاب البنوك فلما خاف الماليون على اموالهم من الضياع بسبب الثورة العرابية الزموا الحكومة الانكليزية بارسال جنودها الى هنا · ويقول البعض ان الماليين هم الذين بزروا بزور الثورة وحرَّكوا العرابيين على القيام لكي يصلوا الى هذه النتيجة ويجعلوا السيطرة لانكلترا · وسواءٌ صحَّ هذا القول او لم يصح فلا شك في ان المحافظة على اموال المداينين ومصالح التجار كانت السبب الجوهري الذي حمل حكومتكم على ارسال جنودها الى بلادنا وهذا السبب لم يزل الآن بل قوي لاننا صرنا مديونين لكم نحن وحكومتنا بنحو مئتي مليون جنيه فلا يُعقَل ولا اصدق انكم تبدلون حالة جربتموها ورأيتموها مأمونة بحالة لم تجربوها ومن المحتمل او المرجح انها تكون غير مأمونة

فقال اصبت في كل ما قلت وهذا هو الامر الذي يحملنا نحن الراديكاليين على طلب الجلاء عن مصر لاننا نقول ان عامة الشعب الانكليزي الذي يدفع نفقات الحكومة ليس مكلفاً بان يحمي مصالح نفر قليل من الماليين واصحاب المعامل · فالماليون ديَّنوا الحكومة المصرية على مسؤوليتهم ولم يستشيروا الامة الانكليزية واخذوا الربا الفاحش مقابل الخطر

من التديين لحكومة غير مأمونة . واصحاب المعامل شأنهم شأن غيرهم من تجار الالمان والفرنسويين. والامة الانكليزية غير مضطرة ان تنفق على جيشها لحماية مصالحهم. ولو بحثت لوجدت ان الجانب الاكبر من دين الحكومة المصرية والشعب المصري لآحاد يعدون على الاصابع من الانكليز والفرنسويين فهل من العدل ان نغرّم امة عددها اربعون مليونًا لكي يأمن بعض اغنيائها على اموالهم وعلى الربا الذي يتقاضونهُ سنويًا

فضحك ابرهيم بك وقال اني مسرور بسماع هذه الاقوال منك وما كنت اظن ان رجلاً يشتغل في شركةٍ مالية يخطر على بالهِ مثلها او يجاهر بها فقل لي ماذا يحلُّ بشركتكم اذا اجليتم عن مصر غدًا

فقال من المحتمل ان احوالها تسوء ولا نعود قادرين على جلب الاموال من اوربا ومن المحتمل ايضًا ان احوالنا تصير احسن مما هي الآن لان معاملة الشرقيين اسهل جدًّا من معاملة ابناء بلادنا فهذا الامتياز او المشترى لم ننلهُ الَّا بشق الانفس من معارضة فلان وفلان من رجال المالية على انهُ لو كانت معاملتنا مع الوطنيين لكان الامر اسهل جدًّا

فتبسم ابرهيم بك وقال كذا كذا يا مستر مكنزي

فشعر المستر مكنزي بخطإهِ واعتذر قائلاً اني لم اوضح مرادي فنحن قاصدون قصدًا حسنًا جدًّا فان هذه الاراضي التي اشتريناها بور كما تعلم ومن المرجح انها كانت تبقى بورًا ابد الدهر وما غرضنا ان نختلس املاك البلاد بل ان نزيد عمارتها فنفيد ونستفيد ويكون الربح الاكبر للبلاد لا لنا ولكن بعض رجالنا الموظفين عندكم قصار النظر في العواقب او شديدو الحذر لكثرة ما يسمعون من التقريع ولاسيما بعد ان اعطوا امتياز المناجم جزافًا فعاد بالخراب على آخذيهِ

فظهر على ابرهيم بك كأَنهُ رضي بهذا الاعتذار ولعلهُ اعتقد صحتهُ واخلاص المستر مكنزي لكنهُ قال ومع ذلك فانا معتقد تمام الاعتقاد ان اصحاب النفوذ في بلادكم لا يسلمون بالجلاء الَّا بعد ان يثقوا ان اهالي البلاد صاروا قادرين على ادارتها وحدهم وحفظها من طمع الطامعين فيها وهذا الامر لا نناله الَّا بعد سنين كثيرة

فقلت لهُ اتسمح لي ان اظهر رأيي في هذا الصدد

فقال تفضل وقل ما بدا لك

فقلت اننا قد لا نبلغ الغاية المطلوبة اذا بقي الغير يعتني بنا ويدبر امورنا ولكن اذا تُركنا لانفسنا فلا شبهة عندي اننا نهتدي من تلقاء انفسنا الى مواقع الخطإِ فنتجنبها والى

مسالك الصواب فنجري فيها وبغير ذلك لا يرجى ان نصير قادرين على حكم انفسنا بانفسنا وهذ هو رأي ولدكم على ما اوضحهُ لنا منذ يومين

فقال قد يكون الامر كما قلت ولكن الاور بيين اصحاب المصالح المالية والسياسية في هذا القطر لا يسلّمون معنا بامتحان ذلك لانهُ ان نجح الامتحان فلا تزيد الفائدة لهم وهي ضمان اموالهم ومصالحهم وان لم ينجح فالضرر كبير عليهم وما من عاقل يترك برضاهُ طريقاً مأموناً ويسير في طريق غير مأمون

قلت اذن يجب ان نفعل ذلك على غير رضاهم

فقال نعم ولكن هيهات اين مدافعنا وبوارجنا فاننا لما كنا على تمام الاهبة للقتال جرى لنا ما جرى. وقد صرّحت انكلترا غير مرة انها لا تترك البلاد الّا برضاها وحينما تحكم هي انهُ حان الوقت لتركها . ووقائع الحال تدلني على ان نتيجة هذه المظاهرات والمشاغبات انما هي امتلاك البلاد فقد كان اصحابك الاحرار يامستر مكنزي يمنوننا بالاستقلال التام قبل الثورة العرابية وهذه كتاباتهم محفوظة عندي وحالما ثرنا تركونا وحاربونا

فقال احقيق ما تقول وهل يمكنك ان تريني كتابات كتبت حينئذٍ تدل على ان الاحرار كانوا يمنونكم حينئذٍ بان تُعطَوا الاستقلال التام

فقال لبيّك ولكن لا بدَّ لي اولاً من ان اشرح لك اصل الحزب الوطني او اصل الحزب الناهض ضد الاجانب وعندي هنا ملخص مقالة نشرت منذ خمس وعشرين سنة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية موضوعها (Origin of the National Party in Egypt) (اي اصل الحزب الوطني في مصر) وكاتبها رجل اوربي اقام في هذا القطر سنين كثيرة وعاشر كل طبقات الناس من اكبر الامراء الى اصغر الفلاحين وعرف كل ولاة مصر من محمد علي الى المرحوم توفيق باشا الخديوي السابق وهاك خلاصة ما كتبهُ في هذا الصدد

الفصل الخامس

اصل الحزب الوطني

لما اتيت مصر سنة ١٨٣٩ كان محمد علي شيخاً طاعناً في السن لكن عقلهُ كان لا يزال على مضائهِ وكان قصير القامة ممتلئ البدن مهيب الطلعة تراهُ مرةً فلا تنسى منظرهُ. في وجههِ ملامح الشعب الالباني مع شيءٍ من ملامح التتار كبير الانف صغير الفم عيناهُ صغيرتان براقتان كعيني الباشق ولحيتهُ طويلة بيضاء وحاجباهُ غليظان ابيضان يلبس القمباز ويعتم

بعمامة وسيفهُ لا يفارق جنبهُ • وهو كثير الكلام كثير السؤال كثير الحركة صارم جداً في حكمهِ ولكنهُ يميل الى العفو والتؤدة احياناً كثيرة • اجتمعت فيهِ مناقب الاتراك القدماء ومعايبهم

وكان بلاطهُ تركيًا اي انهُ كان لا يتكلم الاَّ اللغة التركيةْ في سرايهِ مع انهُ تعلم العربيَّة لكي يكلم بها اهالي البلاد . واستخدم كثيرين من الاوربيين وكانوا كلهم من العلماء وقد استخدمهم لعلمهم فقط فلم يسمح لهم ان يشتغلوا بالسياسة ولم يكن يكلمهم الاَّ نادرًا وكان الوسيط بينهُ وبينهم بوغوص بك عم نوبار باشا وهم الذين انشأُوا لهُ مدرسة المهندسخانة ومدرسة الطب والمدرستين الحربيتين في طرة والجيزة ودار التعليم في باريس فتعلَّم الفتيان المصريون في هذه المدارس ونشأَ منهم الرجال الذين اوجدوا الانتباه السياسي

وكان الفلاحون في الوجهين البحري والقبلي يعملون في اطيانهم كما كانوا يعملون من عهد الفراعنة ولا يخطر لهم خاطر في سياسة بلادهم ولا ينظرون الى غير محمد علي حاكمًا شرعيًا لهم . كانوا يهابونهُ ويخافون منهُ لكثرة مَن اخذ منهم لحروبهِ ولكنهم لم يحلموا قط انهم يستطيعون ان يسأَلوهُ عما يعمل . ولم يكن طماعًا ولا متلافًا فكان يأْخذ منهم كل ما يحتاج اليهِ من غير قيد ولكنهُ كان يكتفي بهِ فلم يستدن غرشًا ومات وليس على الحكومة غرش دينًا

ولما وصلتُ الى مصر قابلني مرتين وسأَلني عن عملي وهو زرع القطن وارسلني الى المنصورة لكي اراقب شونهُ هناك وازرع الفي فدان من قطن السي ايلند . وهناك تعرَّفت بالفلاحين وعاشرتهم فانهم كانوا مضطرين ان يأْتوني بمحصولاتهم من كل انحاء الوجه البحري لان محمد علي كان محتكرًا اياها • واضطررت ان اسافر كثيرًا في اقاليم الوجه البحري وكان ترجماني شاب من الفلاحين اسمهُ محمد افندي وقد تخرَّج في مدرسة المعلمين بباريس ونال الشهادات العليا في العلوم والآداب وهي تؤهلهُ ليكون استاذًا فيها لانهُ كان من النوابغ فلما عاد الى وطنهِ جُعل كاتبًا صغيرًا براتب لا يزيد على ثلاثة جنيهات في الشهر لان اقرانهُ من الاتراك والشراكسة غاروا منهُ على ما قال لي وسعوا في اقصائهِ عن مناصب الحكومة التي يستحقها وبقي في هذه الوظيفة الى ان جُعل ترجمانًا لي وللحال عرفت مقدرتهُ وانهُ اهلٌ لاي وظيفة كانت مهما كانت سامية واخبرت محمد علي عنهُ فامر بتعيينهِ معاونًا في مصلحة الزراعة ثم اعطاهُ رتبة قائمقام ولو كان تركي الاصل لاعطاهُ رتبة باشا

وقد اطلعني هذا الشاب على ما يقاسيهِ ابناء وطنهِ من الذل والعناء وعدم انصاف المتعلمين منهم لانهم من الفلاحين اصلاً لا لسبب آخر فرأَيت من كلامهِ ان جرثومة الحزب

الوطني غُرست في النفوس غرسها العلم من جهة والجور من اخرى فان الوطنيين الذين فتح العلم عيونهم رأوا ان حقوقهم مهضومة فتجاسر كبار النفوس منهم على المطالبة بها ولو همساً في الآذان ورأوا بين اعيان الفلاحين مَن يسمع لشكواهم و يرثي لبلاهم فنمت الكراهة للحكام الاجانب في نفوسهم ٠ وتركت خدمة محمد علي بعد خمس سنوات واخذت اشتغل وحدي بزرع القطن والتجارة فزاد تعرفي بالفلاحين واحوالهم

وتوفي محمد علي سنة ١٨٤٩ وكان ابنهُ ابرهيم باشا قد خلفهُ على سرير مصر وتوفي قبلهُ وهو يشبههُ في الهيئة ولكنهُ كان اكبر منهُ جسماً واكثر شبهاً بالشراكسة لان امهُ شركسيَّة وكان شديد الذكاء مثل ابيهِ لكنهُ لم يكن حليماً مثلهُ فكرههُ الفلاحون ٠ وخلفهُ عباس باشا ابن اخيهِ وكان حليماً محبًّا للفلاحين والفلاحة مقتصداً في نفقاتهِ لا ينفق الَّا على المباني والخيل وهو اول من فتح مصر للتجارة

وقد عاملتهُ وعرفت مهارتهُ في ادارة الأشغال التجارية لاني كنت اورّد بزرة القطن الى تفتيشهِ في الوادي قرب التل الكبير ٠ وكان الفلاحون يحبونهُ لعدلهِ والبدو يحبونهُ لحبهِ لهم ولخيلهم ٠ وبعث بكثيرين من الشبان الى فرنسا وانكلترا ليتعلموا فيهما لكنهُ لم يستطع ان يحميهم و يستعمل مواهبهم وعلومهم بعد رجوعهم الى وطنهم ٠ ومات ولم يترك ديناً على الخزينة بل ترك ثروة واسعة لوارثهِ الهامي باشا واستدان مرة ٣٨٠٠٠٠ جنيه لكنهُ اوفاها في سنوات قليلة ولولا سيرتهُ الشخصية لكان من افضل ولاة مصر

وخلفهُ عمهُ سعيد باشا سنة ١٨٥٤ وامهُ شركسية وقد تعلم عند معلمين من الفرنسويين ليكون بحريًّا وهو اول من اعتمد على الاوربيين في ادارة اعمالهِ ووثق بهم وكان كريماً متلافاً حليماً برًّا بالفلاحين الَّا انهُ كان يكره البدو وقد حاول ان يصرفهم عن البداوة الى الحضارة ونكَّل بهم . وعزز الجيش وانفق عليهِ النفقات الطائلة وهو اول من رقى الفلاحين الى المناصب العالية في الحربية وفي جملتهم عرابي وطلبه فاستعزَّ الحزب الوطني بهِ . وخفَّف الضرائب والغى الفردة فنجحت البلاد في ايامهِ ونمت ثروتها٠ وفي ايامهِ كثر ورود الاوربيين الى البلاد واخذهم الامتيازات فيها وانشائهم الشركات ٠ وهو الذي اعطى المسيو دلبس الامتياز بحفر ترعة السويس وكأنهُ فعل ذلك اغاظة للسلطان عبد العزيز ولما قاومهُ السلطان وعاونتهُ انكلترا على ذلك استعان عليهما بفرنسا وهو اول من استدان من الماليين الاوربيين لكنهُ ترك في خزينتهِ جانباً كبيرًا من الاموال التي استدانها

وخلفهُ اسمعيل باشا وهو ابن ابرهيم باشا وقد جاء مهازًا ايقظ الفلاحين من سباتهم

فجعلوا يئنون و يشكون . وكان ذكيًا يجامل الاوربيين فيتودّدون اليهِ ويتملقونهُ . عرفتهُ تمام المعرفة لكنهُ كان يكرهني لاني كنت صديقاً لاخيهِ مصطفى وعمهِ حليم . ولما انتهت الولاية اليهِ ظنّ الاوربيون الذين لا يعرفونهُ انهُ افضل كل سلفائهِ لكنهُ لم يكن كذلك وكان عيبهُ الاكبر حبّهُ للمال وكانت لهُ اساليب مختلفة لجمعهِ والتفّ عليهِ رجال مختلفون علّموهُ كيف يحصّل الاموال الطائلة على اساليب لم تكن معروفة في بلاد المشرق وفي مقدمتهم راغب واسمعيل صديق ونوبار وكان اسمعيل صديق امهرهم وهو عربي مغربي الاصل كان في اول امرهِ عند عباس باشا على خيلهِ في شبرا والمطرية وكان مغرمًا بالخيل مضيافاً على جاري عادة العرب كريمًا متلافاً محبًّا لبلادهِ لكنهُ اضرّها اكثر من كل احد سواهُ ما خلا اثنين. وكان يكره الاتراك والاوربيين و يبذل النفس والنفيس في خدمة مولاهُ . وهو الذي مكّن اسمعيل باشا من ابتزاز ما ابتزهُ من اموال الفلاحين واملاكهم في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من ولايتهِ . كان متوسط ضريبة الفدان في عهد سعيد باشا اربعين غرشاً فرفعهُ رويدًا رويدًا حتى بلغ مئة وخمسين غرشاً واعاد الفردة اي مال الاعناق واستنبط ضرائب جديدة واخترع مال المقابلة حتى لم يبقَ للفلاحين شيء وهبط ثمن الاطيان حتى كسدت ولم يعد احد يشتريها. ولم يحصِ احد مقدار الاموال التي اخذها اسمعيل صديق من الفلاحين لكنهُ كفّر عن ذنبهِ اخيرًا بمقاومتهِ مولاهُ في امر مالي طلبهُ منهُ لانهُ رآهُ يفضي الى تسليم البلاد للاجانب فكانت عاقبة مقاومتهِ ما هو معلوم من امرهِ

ومن رأيي ان مسؤولية الدين المصري يقع اكثرها على نوبار باشا بعد اسمعيل باشا وانهُ هو الذي جعل اسمعيل باشا يعترف بامتياز ترعة السويس وهو سبب التصفية وكل الاعمال المالية الكبيرة واليهِ ينسب تقاطر الماليين الى القطر المصري وانشاء البنوك فيها واعطاء الامتيازات للاجانب ورهن املاك الحكومة ووضع المراقبة الثنائية وانشاء المحاكم المختلطة

وهذا الانقلاب العظيم في احوال البلاد اثر في اهاليها تأثيرًا كبيرًا فقد رأيتهم في عهد محمد علي كالانعام يحرثون ارضهم ويزرعونها ولا يسألون عن شيء آخر وقد ضربت عليهم الذلّة لكن لم تخلُ البلاد حينئذٍ من اناس قلائل تعلموا في اوربا وجعلوا يخبرون الذين حولهم سرًّا عما رأوهُ فيها من الحرية . وجاء عباس فكان عطوفاً على الفلاحين محبًّا للبدو فانتعشت نفوس الفريقين وجاء سعيد فخفف الضرائب وقوّى الآمال بالنجاح

وسنة ١٨٦٤ هبط ثمن القطن بغتةً وزادت الضرائب فساءت احوال الفلاحين جدًّا ثم تيسّرت بين سنة ١٨٦٦ و ١٨٦٩ بسبب الاموال التي أُنفقت على انشاء ترعة السويس

فلما تمت الترعة عادت الازمة فاشتدت واستحكمت حلقاتها ولم يعد الفلاحون قادرين على ايفاء الضرائب فجعلوا يستدينون الاموال بالربا الفاحش ولما حلّ ميعاد ايفائها اضطروا الى الايفاء تحت الكرباج او الى ان يستدينوا بربا اكثر كثيرًا حتى لقد استدان بعضهم المئة بمئتين . ولما انشئت المحاكم المختلطة صارت اطيان الفلاحين ترتهن وتباع لايفاء الدين حتى لم يعد في الطاقة احتمال تلك الحالة

وجاء البلاد حينئذٍ السيد جمال الدين الافغاني وهو من متخرجي مدارس بخاري ودهلي وكان شابًّا جميل المنظر حسن الطلعة طلق اللسان فصيح العبارة فالتفّ حوله جماعة كبيرة فدلهم على اسباب شقائهم ولامهم على تحمُّل الضيم وهم من العرب الكرام وحثهم على احراز العلم وطلب الاستقلال وكان في اول امره يكلم الناس خفية خوفًا من اسمعيل باشا ثم زادت مجاهرتهُ رويدًا رويدًا ولم ينلهُ مكروه فاخذتهُ الجرأة لما خلع اسمعيل باشا فاخرجتهُ الحكومة المصرية من بلادها

وحتى ذلك الوقت كانت هذه الافكار محصورة في الطبقة العليا من الشعب ولم تصل الى العامة لكن قام في ذلك الحين رجل اوصلها اليهم وهو اسرائيلي مولود في القاهرة ومحتمٍ بالحماية الايطالية يحسن العربيَّة تكلمًا وكتابةً لكنهُ اختار اللغة العاميَّة لكي يصل الى عامة الشعب وكان يعرف الايطالية والفرنسويَّة والانكليزيَّة . كان في اول امرهِ مدرسًا في المدرسة الحربيَّة بالقاهرة وقد علم فيها كثيرين من الشبان الذين صار لهم بعدئذٍ شأن في الثورة العرابيَّة وهذا سرُّ انتشار روح الثورة بين ضباط الجيش . ولما رأى ان كلمتهُ مسموعة وآراءهُ مقبولة تجاسر ونشر جريدة هزليَّة مصورة انتقد بها اعمال الحكومة على اسلوب هزلي وبلغة عامية ووزعها سرًّا فتداولتها الايدي وطربت لها النفوس

وهنا دخل الخادم وقال الغداء حاضر ففتح ابرهيم بك ساعتهُ ووجد الساعة واحدة بعد الظهر فنهض وقال هيُّوا بنا الى الطعام وسنعود الى هذا الموضوع في فرصة اخرى . وسار امامنا الى غرفة المائدة ثم ادخلنا امامهُ واجلسنا عن يمينهِ وعن يسارهِ واعتذر الينا عن غياب ابنتهِ ورفيقتها بانهما ذهبتا الى بيت مرسي خادمهم وشاركتا اهلهُ في المأتم ورجعت السيدة نزهة مصابة بصداع شديد وكأن ندب النادبات ذكَّرها بامها فبكت كثيرًا فاعتراها الصداع

ولما قال ذلك رأينا الدموع تجول في عينيهِ فاطرق رأسهُ وصمت وحينئذٍ دخل الدكتور يوسف وتنفَّس الصعداء فقلت لهُ مالك فقال التحقيق في المركز والمديرية ازهقا نفسي فقال المستر مكنزي وكيف ذلك فاخذ الدكتور يوسف يقص علينا ما جرى

الفصل السادس

تحقيق البوليس والنيابة

قال الدكتور يوسف مضينا الى مركز سنورس وجثة القتيل معنا وحضر مأمور المركز وطبيبهُ وعضو النيابة وتلي اولاً محضر تحقيق معاون البوليس وهو هذا بعبارتهِ البليغة وقد نسختهُ لاطلعكم عليهِ

انهُ في يوم ٧ يناير سنة ١٩٠٧ بناحية سنهور الغربية نحن احمد حسن معاون بوليس نقطة ٠٠٠٠ اقرر ان غفير الدورية المسمّى مصطفى ابو عمه حضر الينا في يوم تاريخهُ الساعة ١١ افرنجي ليلاً وابلغنا انهُ كان جالس مع رفاقه بقرب عزبة الياس حيث عُلم لهم ان الشقي ابو سعدان ومنصره عازمين على السطو فسمعوا عيار ناري من جهة بحري خارج من زراعة القصب الساعة ٩ افرنجي ليلاً فاسرعوا الى محل الواقعة ولما رأوهم اللصوص هربوا منهم فاطلقوا عليهم عدة عيارات نارية فاصابوا الشقي المدعو ابو سعدان فوقع وقبل ان يصلوا اليهِ و يمسكوهُ حملهُ رفاقهُ وهربوا فتبعوهم ولم وقفوا لهم على اثر وعادوا الخفراء فوجدوا ان اللصوص قتلوا رجل كان راجع من الغيط الى البركة وهو خادم في بيت ابرهيم بك لبيب من اهالي الفيوم الذي كان وقتها هو وعائلته ناصبين خيامهم عند البركة وحضر ابرهيم بك واولاده ورأوا المقتول وعرفوهُ وقالوا ان اسمهُ مرسي . وللحال قمنا وبرفقتنا اثنين عساكر وحضرنا مع الخفير الى محل الواقعة فوجدنا الخادم مرسي مطروح على الارض وحوله الخفر ومعهم ابرهيم بك لبيب وابنهُ الدكتور يوسف لبيب فكشف عن المقتول امامنا وقال ان الاصابة في جنبه الايسر وانهم كلهم كانوا نازلين في خيامهم عند البركة فسمعوا الطلقات النارية وحضروا الى محل الصوت ولم رأوا احد من اللصوص ولكن رأوا الخفر فقط ورأوا ان المقتول هو خادمهم . وقد نقلنا المقتول الى ديوان المركز واحضرنا حكيم المركز بالامر وقفل المحضر حيث كانت الساعة ثلاثة بعد نصف الليل

ثم كتبوا محضرًا آخر عمّا تمّ في المركز ودعيت اليوم الى المديريّة وأُعيد التحقيق ثانيةً وبلغني انهم قبضوا على القاتل ولكنهُ انكر كل ما نُسب اليهِ تمام الانكار ولا اعلم كيف تنتهي هذه الامور وقد تقوّضت دعائم الامن العام

فقال المستر مكنزي هذه مسألة أُخرى احب ان ابحث فيها

فقال الدكتور يوسف اني كطبيب لا اجيز البحث في المسائل السياسية على الطعام . فقلت لهُ احسنت ووافقني رياض على ذلك وقال ابرهيم بك اننا نازلون الى مصر بعد اسبوعين فشرفانا فاتمم لكما حديثنا السابق

الفصل السابع

صادف قلبًا خاليًا

لم نكد نتم الغداء حتى هرولنا الى المحطة ومعنا رياض افندي واطلّت السيدة نزهة من شرفة (بلكون) البيت لوداعنا وهي ممسكة رأسها بيدها ودعت لنا بالسلامة وأملت ان ترانا في القاهرة بعد اسبوعين او ثلاثة . ونزلت رفيقتها لوداعنا ايضاً وطلبت من المستر مكنزي على انفراد ان لا يرشد اباها اليها مهما لجّ في الطلب وقالت له انها ستحاول بكل جهدها لكي تخفي خبرها الى ما شاء الله . فوعدها خيرًا

ودخلنا مركبة واحدة وسار بنا القطار يطوي صدور الارض على اعجازها فاطللت من الكوة استنشق نسيماً لطفتهُ حرارة الشمس ولم تزد في حرارتهِ واحاول ان امحو من مخيلتي صورة ارتسمت فيها وصوتاً رنّاناً طرق اذنيَّ ساعة الوداع وكنت اراني كمن يتهم نفسهُ بجريمة ثم يدفع التهمة بحجة يرى ضعفها

ثم ان تلك الصورة اعادت الى مخيلتي صورًا أُخرى ارتسمت فيها وانا لم انتبه لها فتمثلت امام عيني حينئذٍ تلك الفتاة وهي تجادلنا وتقول انها من نسل القواد الرومانيين او اليونانيين الذين أُقطعوا بلاد الفيوم وان بحيرة قارون كانت تغطي اكثر البلاد . ثم تصف المروج والبحيرة والجبال والتاريخ القديم ومن قام فيهِ من الملوك العظام . والنسيم يعبث بشعرها المتموج على رأسها ويلثم خديها المتوردين من توقد ذهنها وكبر نفسها . وتتوالى سلسلة الصور كأنها في آلة السينامتوغراف الى ان تصل الى الصورة الاخيرة وهي واقفة في شرفة البيت وقد امسكت رأسها بيسراها واشارت الينا بيمناها اشارة الوداع

اجتاز القطار الاراضي الزراعية على حدود الفيوم ودخل ارضاً بعضها بور وبعضها مزروع . والبور رمال قفراء قاحلة على ما يظهر والمزروع كان قاحلاً مثلها ولكن ماء النيل احياهُ ومكروبات الزراعة جلبت اليهِ الغذاء من الهواء فكساهُ البُرُّ ثوبًا سندسيًا . ثم انقطعت الزراعة ولم نعد نرى الّا كثبان الرمال وقد نصبت فيها الحواجز لكي لا تعبث بها الرياح وتطمر بها الطريق

وفتح كلٌّ من المستر مكنزي ورياض افندي كتابًا وغاص فيهِ وتركاني اجادل نفسي واحاول التسلية بمناظر الطبيعة فاراها ممزوجة بالصور الخيالية الراسخة في ذهني . وبعد قليل تقلص ظلُّ الصحراء واشرفنا على ارض سوداء ومروج خضراء وترع ممدودة كبطون

الافاعي الأ انها مستقيمة · وعزب منشورة كالحبب على وجه الماء الأ انها مستديمة · وهل مثل المديريات الوسطى بعد المشروعات المستجدة ارض ترابها تبر وحبها ذهب · ولقد اجاد من قال

اذا الارض ادَّت ريع ما انت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من ارضِ

ولكن كم يكون شأنها اذا ادَّت ريعين او ثلاثة فلا عجب اذا بلغ ثمن الفدان في تلك الجهات مئة وخمسين جنيهاً بعد ان كان بالامس عشرة جنيهات او حواليها

وهل خطر على بال احد ان بيوت الطين التي يبنيها النمل في بلاد الحبشة لكي يخزن فيها طعامهُ ويربي صغارهُ تهدمها الامطار وتجرفها السيول فتحملها الى النيل وهو يأتي بها على منكبيهِ ويبسطها في ارض مصر ابليزًا يزيد بهِ خصبها وغذاء لما يزرع فيها وينبت منها

حاولت ان اسلي نفسي بهذه الخواطر عن شاغل شغل بالي وهمٍ جديد كنت منهُ خاليًا فصح فيَّ قول من قال

اتاهُ الهوى من قبل ان يعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

همست بهذا البيت وكدت اضحك على نفسي استخفافًا لكن اخذتني الرعدة كمن يقف في هيكل مستخفًا مستهزئًا ثم لا يلبث ان يشعر بهول الموقف فيعتريهِ الاضطراب والوجل لئلاً يكون قد اهان من يعبد في ذلك المكان · فانبسطت وانقبضت وتهللت واضطربت في وقت واحد · وما اكثر مخادع النفس وما تحويهِ من الانفعالات · وبينما انا قلق التمس حيلة تصرفني عما انا فيهِ اذا بالمستر مكنزي يقول ما اضعف هذا النور قال ذلك واطبق كتابهُ فاقتدى بهِ رياض افندي وتهيأ للحديث فجلست والتفت اليهما وقلت ما اخصب هذه الارض وما اوفر خيراتها اندري يا مستر مكنزي كم ايجار الفدان هنا

فقال لا اعلم ولكن بلغني انهُ نحو ثمانية جنيهات

فقلت نعم وقد يبلغ عشرة او اثني عشر او اكثر . وكم ايجار الفدان في بلادكم

فضحك وقال انهُ لا يذكر وقلما يبلغ جنيهًا واحدًا

فقال رياض ولماذا ألا تغلُّ الارض عندكم كما تغلُّ عندنا فقد قرأتُ في كتب الزراعة ان متوسط غلة القمح عندكم اثنان وثلاثون بشلاً او نحو ستة ارادب · والارض التي تغل عندنا ستة ارادب من القمح تحسب ارضًا جيدة ويؤجر فدانها بثمانية جنيهات

فقال المستر مكنزي ان الفرق كبير بين ارضنا وارضكم فاولاً ان تبن القمح قليل جدًّا عندنا ولا فائدة منهُ ونحن لا ندرس القمح درسًا يفتت اصولهُ ويصيرها تبنًا وثانيًا اننا نزرع الارض سنة ونهملها سنة اي نتركها مرعى للمواشي وثالثًا ان الارض لا تغل هذه

الغلة الاّ اذا سمدناها بالسماد الغالي الثمن ورابعاً وهو الامر الاهم ان اجرة العمال عندنا غالية جداً فاجرة الحارث لا تقل عن خمسة عشر غرشاً في اليوم وكذلك اجرة الحاصد والدارس فيذهب اكثر الدخل اجرةً للعمال ولذلك يضطر صاحب الارض ان يكتفي بالايجار البخس

فقال رياض ولكن المال الذي تدفعونهُ للحكومة طفيف جداً لا يذكر بالنسبة الى ما ندفعهُ نحن فان مال الفدان من هذه الارض لا يقل عن جنيه في السنة

فقال المستر مكنزي نعم وهذا فرق كبير ولكنهُ ليس شيئاً في جنب أُجرة العمال

ولم يلذ لي هذا الحديث مع انني كنت التذُّ بامثالهِ عادةً وبكل ما فيهِ بحث في معايش الناس فقمت وخرجت ومشيت نحو غرفة الماء فغسلت وجهي وعدت ودخلت مخدعاً غير المخدع الذي كنا فيهِ فرأيت ما اقشعرَّ لهُ بدني رأيت رجلاً ملقًى في ارض المخدع والدم يشخب من جنبهِ فوقفت لا ابدي حراكاً وحاولت ان اصرخ وانادي احداً فانقطع صوتي وصرت انظر الى نفسي لأرى أَفي يقظة انا ام في حلم ثم اقفلت باب المخدع وهرولت الى رفيقيَّ لاخبرهما واذا بصوت صمَّ اذنيَّ فوقعت مغمًى عليَّ ولم اعد اعي على شيء

الفصل الثامن

النجاة العجيبة

ومَن كانت منيَّتهُ بارضٍ فليس يموت في ارض سواها

مضى عليَّ شهران وانا في هذا المستشفى وقد عادني فيهِ المستر مكنزي مراراً وعادني ايضاً ابرهيم بك واولادهُ كلهم حتى السيدة نزهة - لا ابعد الله المرض اذا كان وسيلة لمشاهدة الاصدقاء والاحباء وعطفهم على المريض لكنني مريض المبا لا جسداً ورحم الله مَن قال

ولما اشتكت من صدرها علة الاسى وقالت أَلا فانظر الى مصدر الامرِ

فقلتُ لها كفّي الشكاية واعلمي فهيَ علة في القلبِ لا علة الصدرِ

أُنقذتُ من بين القتلى والجرحى كما انقذ غيري وانا فاقد الرشد لا اعي على شيء وبقيت غائباً عن الصواب بضعة ايام بارتجاج اصاب دماغي وهو لطف من المولى لكي لا اشعر بالألم الشديد من انكسار يدي ورجلي ويا حبذا لو اتم لطفهُ فانقذني من كسر اليد والرجل ايضاً كما انقذ رفيقيَّ رياضاً والمستر مكنزي فانهما خرجا بصدوع طفيفة شفيا منها بعد ايام قليلة .

ومن الغريب اني لم اسمع شيئاً عن القتيل الذي شاهدتهُ في القطار قبلما أُغمي عليَّ بل حسب

بين القتلى الذين قتلوا قضاءً وقدرًا بخروج القطار عن الخط وانقلاب مركباته بعضها فوق بعض · ولا شبهة عندي الآن ان اليد الاثيمة التي قتلت ذلك الرجل كان لها شركاء وضعوا خشبة كبيرة في طريق القاطرة فاصطدمت بها وتدهورت في الترعة التي الى جانب الطريق وارتمت المركبات فوقها

مَن هو ذلك الرجل · فتشت بين اسماء القتلى فلم اجد اسم احد اعرفهُ · والقتلى والجرحى ثلاثة عشر وهو عدد مشوم في ما يقولون ولكنهُ قليل جدًّا بالنسبة الى عدد الركاب · ولعلهم لم يذكروا الاَّ اسماء الذين قتلوا حالاً او كانت جروحهم بالغة مثلي لاني لم ارَ بينها اسم المستر مكنزي ورياض لكن من هو ذلك القتيل · من حين وعيت من اغمائي وانا اسأل نفسي هذا السؤال ولكنني لم اتجاسر ان اسألهُ لغيري ولا سمح لي الجراح ان امسك القلم بيدي واكتب الاَّ اليوم فكتبت هذا السؤال على الورق واطلعت عليهِ جسمًا اصمَّ ابكم لا يسمع ولا يتكلم · الم يرَ الاطباء الذين شاهدوا القتلى قبل دفنهم ان بينهم قتيلاً قُتل صبرًا بخنجر خرق فؤادهُ · او لعلَّ المركبة انكسرت بهِ فتهشم بدنهُ ولم يعد يظهر انهُ مقتول بخنجر · ولكن من هو القاتل ولماذا قتلهُ · هذا سرٌّ غامض وسيبقى غامضًا الى حين تكشف السرائر وتعلم الضمائر ولا احد يعلم ان ذلك الرجل قتل قتلاً غيري وغير قاتلهِ وقد يكون قاتلهُ بين قتلى الركاب وعند الله يجتمع الخصوم

وصلتُ الى هنا ودخل الخادم وقال ان ابرهيم بك آتٍ لعيادتي فدخل وسرَّ لما رآني استعمل يدي وقال عسى ان تمشي على رجلك قريبًا فقلتُ عسي ولكن لا اظن اني انجو من العرج ثم ضحكت فقال ما يضحكك قلت ليس على الاعرج من حرج

ثم قلت لهُ هل انتهى التحقيق في مسألة خروج القطار عن الخط ووقوعهِ وهل عُرف السبب الذي اخرجهُ عن الخط

فقال لقد ثبت من اول الامر ان القطار خرج بفعل فاعل لانهم وجدوا في طريقهِ خشبة كبيرة معترضة ولكن لم يعلم حتى الآن من وضعها هناك لاسيما وان تلك الجهة خالية من السكان . ثم اكتشفوا امرًا قد تكون لهُ علاقة بالحادثة وهو انهُ كان مع احمد بك خليل احد القتلى مبلغ كبير من المال نقود واوراق مالية ثلاثة آلاف جنيه او اكثر وهذه كلها فقدت ولم يوقف لها على اثر ولا يعلم الآن هل وجدها احد مع القتيل فاخفاها او هل عرف الاشقياء ان مع ذلك الرجل مبلغًا طائلاً من المال فوضعوا الخشبة في طريق القطار حتى يقع ثم هجموا عليهِ وسلبوا ما معهُ

فقلتُ لهُ هل تعرف احمد بك خليل الذي كان معهُ المال

فقال نعم اعرفهُ تمام المعرفة

فقلتُ لهُ هل يمكنك ان تصفهُ لي

فقال هو كهل طويل القامة قصير اللحية وقد كان في المركبة التي كنتم فيها في المخدع الاول منها وانتم في الثالث . ولماذا تسألني هذا السؤال

قلت خطر لي خاطر ولم اكن اظن ان الامن مفقود الى هذا الحد في اقل من اسبوع يقتل قتيلان في مديريتكم

فقال مَن هما

قلت خادمكم والرجل الذي قتل في القطار . ولما قلت ذلك شعرت اني اخطأت ولكن سبق السيف العذل

فقال من هو هذا القتيل الثاني

قلت احمد بك الذي تقول ان اللصوص قتلوهُ لما وقع القطار

فقال لم اقل ان اللصوص قتلوهُ ولكن اذا ثبت ذلك فلا يكون في مديريتنا بل في بني سويف

قلت لا فرق في ذلك ومرادي انهما قتلا في اسبوع واحد وفي مكانين متقاربين وماذا جرى في امر خادمكم

قال لم يجرِ شيءٌ حتى الآن غير التحقيق وقد قبضوا على القاتل ولكنهُ انكر وأُحيلت اوراق القضية على محكمة بني سويف . ولكن لماذا تظن ان احمد بك قتل قتلاً بفعل فاعل

فوقعت في حيص بيص ولم اعلم بماذا اجيبهُ ولكن حدث حينئذٍ ما اخرجني من حيرتي دخل ابنهُ الدكتور يوسف ومعهُ اختهُ وقد اتيا لعيادتي او لزيارتي لاني لم اكن مريضاً ودنت السيدة نزهة مني وسلّمت عليَّ مصافحةً فمددت لها يدي اليمنى فابرقت اسرّتها وقالت بالانكليزيَّة جود جود اي حسناً حسناً صرتَ تستعملها

فقلت وقد كتبت بها اليوم نحو ساعتين

فقال الدكتور يوسف لا تتعبها كثيرًا . ثم جسَّ مكان الكسر وحرَّك اصابعها وادارها ذات اليمين وذات اليسار وقال صارت سليمة تماماً ولكن لا تتعبها

فقلت لهُ اين مس برون فاني لم ارَها منذ اسبوعين

فقالت السيدة نزهة انها تسلّم عليك وكانت عازمة على المجيء معنا ولكن اتى المستر

مكنزي وظلب منها ان تذهب معهُ لزيارة بعض المعارف

فقلت اني استغرب الفة مكنزي لهذه الفتاة فان خاصة الانكليز لا يعاشرون عامتهم وهو من اخص خواص الانكليز واخوهُ لورد مكنزي عرضت عليهِ وزارة فرفضها فكيف يتنازل ويعاشر هذه الفتاة

فالتفت الدكتور يوسف الى اختهِ والتفتت هي اليهِ وقال ابوهما اني مثلك في الاستغراب وقد سألت عن المستر مكنزي فقيل لي انهُ من افضل الرجال واكثرهم تهذيباً وعلى كل حال نحن مسؤُولون عن هذه الفتاة

وقال الدكتور يوسف ان الغربة توجب الالفة على حد ما قيل " وكل غريب للغريب اليف ". ومع ذلك فاني ارى المستر مكنزي يهتمُّ بها اكثر مما يهتمُّ بها غيرهُ من رجال الانكليز وقد اقنعها يوم الاربعاء الماضي فذهبت معنا الى السبق في الجزيرة ورأيتهما هناك وحدهما اكثر الوقت ولم ارَ احداً غيرهُ يكلمها او يهتمُّ بها

فقالت السيدة نزهة انها لا تحبُّ ان تكلم احداً من الانكليز فقد زارنا كثيرون منهم وكنت الحُّ عليها لتخرج معي الى غرفة الاستقبال وتقابلهم فلم ترد والظاهر انها تعرف المستر مكنزي منذ زمن طويل وقالت لي ان خطيبتهُ صديقة لها وكانت معها في مدرسة واحدة

فقلت اذاً المستر مكنزي خاطب

فقالت نعم ارح بالك . وابتسمت ابتساماً فهمت مغزاهُ

فقلت ان بالي مستريح من هذا القبيل ولكن الدكتور يوسف احرى بان يريح بالهُ

فقال الدكتور يوسف حقًّا لم اكن اعرف ان المستر مكنزي خاطب مع اني كنت استبعد انهُ يخطب مس برون لما اعلم من بعد المقام بينهُ وبينها

فاحتدمت السيدة نزهة غيظاً وقالت هل هو احسن منها فشر وان كان ابن لورد فاني لم ارَ بين كل فتيات الانكليز فتاة الطف منها ولا اكثر تهذباً وكلا كما لا يجد مثلها ولو فتش المسكونة

ونظرت اليَّ وضحكت فتضاحكت رغماً عني لاني شعرت كأنها لطمتني بيدها او رفستني برجلها ولكنني جمعت قواي وحاولت تغيير الموضوع فقلت سمعت مرةً مثلاً يقول من تزوج من غير ملتهِ وقع في غير علتهِ ومالنا ومالها هل اتممت حديثك يا ابرهيم بك للمستر مكنزي عن الثورة العرابيَّة

فقال لا ونحن منتظرون حتى تشفى وتشاركنا فيهِ فمتى تظن انك تستطيع القيام والمشي على رجلك

فقلت اني الآن استطيع القيام والمشي على العكازة ولكن يصعب عليَّ نزول السلالم . وقد قال لي الجراح اليوم اني استطيع النزول بعد اسبوع او اسبوعين . ولكن هذه الحادثة خسرتني كثيرًا فان الناس كلهم اشتغلوا وربحوا وانا مطروح على هذا الفراش

فقال ابرهيم بك اشكر ربك من هذا القبيل لان الناس جنُّوا كلهم من كبيرهم الى صغيرهم اشتروا متر الارض الزراعية بخمسة جنيهات والاراضي التي خططوها للبناء تسع ثلاثة اضعاف اهل مصر ولا يمكن ان تبنى كلها من الآن الى مئتي سنة ولو بقيت زيادة السكان سائرة على هذا النمط

فقالت السيدة نزهة ومع ذلك نرى ان الجميع قد ربحوا حتى النساء فاني اعرف سيدة اشترت وباعت واشترت وباعت فربحت اكثر من ثمانية الآف جنيه وعندها الآن ارض اشترت مترها بثمانية عشر جنيهًا وقد عرضوا عليها ثمن المتر ثلاثين جنيهًا فلم تبع وعندها الف متر فتربح بها اثني عشر الف جنيه

فقال لها ابوها انها تكون مجنونة اذا لم تبع وقد فهمت من تعنين ولكن كان المتر هناك لا يساوي خمسة جنيهات منذ سنة من الزمان فماذا جرى الآن حتى صار يساوي ثلاثين جنيهًا واذا هبط غدًا الى خمسة جنيهات او الى عشرة فتكون قد خسرت كل ما ربحتهُ وخسرت فوقهُ . وما ادرانا انها لم تشترِ اسهمًا بربحها كلهِ وقد اخذ ثمن الاسهم في الهبوط من الآن ولو كانت اراضي البناء حافظة مركزها

فقلت كيف احوال شركة قارون

فقال انهم اصدروا السهم بعشرة جنيهات فارتفع حتى بلغ ستة عشر وعاد الآن الى اربعة عشر جنيهًا وهي احسن من غيرها لانها صناعيَّة زراعية وهم لم يأخذوا الاَّ القسط الاول حتى الآن واظن انهم حينما يطلبون القسط الثاني تهبط الى ثمنها الاسامي او الى ما دونهُ فقد ابتدأَ الناس يشعرون بشيءٍ من الضيقة المالية والافكار مضطربة نوعًا من جهة السياسة فان فريقًا من حزب الاحرار لا ينفك عن التنديد بافعال الانكليز في مصر والناس هنا مغرورون باقوالهِ كما انغروا قبيل الثورة العرابيَّة والحال الآن كما كانت حينئذٍ حذو النعل بالنعل

فقالت وما هو رأي امين افندي.

فقال هو اشد طيشًا منهم وقد انضم الى الحزب الذي لا بدَّ من ان يوقع البلاد في مهلك ولا اعلم لمن طلع هذا الولد اظنهُ لخالهِ فان دمهُ لا يزال فائرًا مثلهُ

فقالت السيدة نزهة لا يحس بالشاب الأَّ ان يكون مقداماً مقتحماً وقد يكون امين متهوراً بعض الشيء ولكنَّ التهور خير من الخمول

فقال لها ابوها وانتِ ايضاً مثل خالك مع ان امكِ كانت ملاكاً. قوموا بنا فقد اتعبناهُ كثيراً

فنهضوا كلهم وانا الحُّ عليهم بالبقاء لاني مسرور بهذا الحديث جدًّا وفي الواقع اني كنت مسروراً ولا سيما لما احتدت السيدة نزهة وتوردت وجنتاها لكني لم استطع ان اصرفهم عن عزمهم فودَّعوني مصافحة وتركوني وحدي انا وافكاري اراجع ما سمعت وما رأيت فاشعر بالانبساط مرَّة وبالانقباض أُخرى واجمعت رأْيي اخيراً على ان هذه الفتاة خير من رأَيت وانني اذا علمت انها تحبني كما احبها كملت سعادتي ان صحَّ ان تكون في هذه الدنيا سعادة كاملة

زهره — جرى ايه ياخويه جرى ايه قال تركوا القاتل وما عرفوش ياخدوا منو لا حق ولا باطل

احمد — أُهو تركوه وضحك عليهم وبكرا تسمعي انو غلّب البلاد

زهره — دول ولاد قال عمل حالو اطرش ما بيسمعشي . وعمل ايه المحامي عن مرمي

احمد — يعمل ايه ان كانوا عايزين يخلصوهُ. وقال ما عجبنهش التحقيق اللي جرى في الفيوم

زهره — الظاهر عطالو كم نص

احمد — لا ما فيش حاجة ولكن صارت الدنيا فوضه الله يهوّنها

زهره — مسكين مرسي راحت عليهِ ومساكين مراتو وولاده

احمد — الدوره علبيروح اهو ستي نزهه تساعدهم شيعت حسين وفاطمه للكتاب وامهم بتخدم هون وهون حتى يرزقها بابن حلال والدوره علبيروح

زهره — ومالها ستي برون ماعادتش تضحك مثل عادتها

احمد — من وقت ما جاء الراجل الانكليزي اللي اسموا مكنزي صارت نوع . هم يعرفوا بلسان بعض وستي نزهه بتروح كثير لعند الخواجه اللي كسر رجلو وايدو

زهره — اصلو كويس وكريم ادّالك كم

احمد — ادّاني ريال

زهره — وانا ادّاني ريال

الفصل التاسع

كشف غامض

جاءني الدكتور عبد الله الجرّاح الشهير صباح اليوم وقال لي اكلنا امس حلوان شفائك فمتى تطعمنا حلوان الخطبة والزيجة

فقلتُ لا زيجة ولا خطبة فقد جاوزت السن الذي يرضي السيدات او تؤثر فيهِ عوامل الحب

فضحك وقال على مَن تخفي امركَ ألا تدري اني وقفت على كل ما يخالج ضميرك ويكنهُ قلبك

فقلت كيف ذلك وما معنى هذا الكلام

فقال قد لا يجوز لي ان اجاهر بما سمعتهُ منك لاحد غيرك لانني سمعتهُ وانت غائب عن الصواب تحت فعل البنج · ومن المرجح انك لو كنت واعياً لاخفيت ما ابديتهُ حينئذٍ ولكن لم اكن انا وحدي بل كان معي الدكتور يوسف اخو السيدة نزهة ولا بدَّ من ان يكون قد اطلع اختهُ على كل ما سمعهُ منك

فلما قال هذا القول اسودَّ الضياء في عينيَّ وتنازعتني افكار كثيرة ولكنني تجلّدت وقلت في نفسي انهُ يجدر بي ان اعرف ما قلتُ قبل ان ابني عليهِ حكماً · فقلت لهُ بالله قصَّ عليَّ واقعة الحال واخبرني بكل ما جرى وكل ما قلتهُ

فقال لما اعطيناك البنج (الكلوروفورم) لكي نجبّر رجلك اخذتَ اولاً تنادي امك وتبكي والظاهر انك تصورتها اجابت نداءك واتت اليك من عالم الغيب فجعلتَ تشكو اليها ما تلاقيهِ من متاعب الحياة واخيرًا قلتَ لها انك وقعت في وهدة اليأس وليس لك احد يهمك امرهُ في هذه الدنيا الاَّ الفتاة التي رأيتها في الفيوم وعلى شاطىء بحيرة قارون وبحت باسمها حينئذٍ وقلت انهُ اسم على مسمًّى ثم قلت ولكن قد لا يهمها امري وان كان الحال كذلك فلا مأرب لي في الحياة فتعالي يا امي وخذيني اليكِ · وجعلت تبكي وتنتحب · واكثرنا الكلوروفورم حينئذٍ فانقطعت عن الكلام وصبغ الحياء جبين الدكتور يوسف وكان ممسكاً نبضك فخفت ان تفلت يدك من يدهِ وربك الحميد انهُ لم يفهم كلامك غيري وغيرهُ لان الجراحين الآخرين لا يفهمان كلمةً من العربيةً ومن المحتمل ان يكون الدكتور يوسف علم اني فهمتُ مَن تعني اما انا فلم اظهر لهُ اني فهمت ذلك

فقلت لهُ هل اخبرت احداً بقصتي

فقال كلاً ولا يجوز لي ذلك بوجه من الوجوه كما قلت آنفاً لاني احسب انهُ اعتراف سري لا يجوز افشاؤُهُ

فقلت احسنت . وهذه هي الشهامة وارجو ان يبقى الامر مكتوماً كل الكتمان لاني قد اكون بحت باكثر مما في نفسي

ولما قلت ذلك شعرت ان الدم صعد الى وجهي وكاد يحرقني

فنظر اليَّ وتبسم تبسماً ادركتُ مغزاهُ . فقلت لهُ اذاً انت الرجل الوحيد الذي اكتشف سري نعم والدكتور يوسف اخوها وهل تظن انهُ اخبر اختهُ

فقال لا اظن بل ارجح انهُ لم يخبرها لانهُ يعرف حقوق صناعتهِ حق المعرفة ومع ذلك فترددهم المستمر عليك واهتمامهم بامرك لا يفسَّر بسهولة اذا نفينا معرفتهم بما قلت . هل كانوا يعرفونك من قبل

فقلت كلاً لا يعرفني الاَّ يوسف وامين وقد عرَّفاني بابيهما واختهما منذ شهرين او ثلاثة قبلما اصابتني هذه المصيبة ولا احسب انهم اهتمُّوا بامري الاَّ لاني كنت ضيفاً عندهم وكنت آتياً مع ابنهم لما وقع بنا القطار

فقال معرفة مباركة وابرهيم بك من اكبر السراة واوجه الوجوه والسيدة نزهة مشهورة بجمالها كما هي مشهورة بعلمها وادبها والاقباط يعطون البنت كما يعطون الصبي والثروة واسعة

قال ذلك متبسماً . ولما رأى اني لم اشاركهُ في التبسم قال — ان الذين يدَّعون انهم لا يسألون عن مال الزوجة هم اشد الناس مطالبةً بهِ حتى اني اعرف كثيرين من الشبان كانوا يدَّعون هذه الدعوى ثم ابطلوا الخطبة وامتنعوا عن الزيجة حينما لم يشأ والدا البنت ان يعطياها كل ما يخصها من الميراث وهما في قيد الحياة

فقلت أوأنت تحسبني منهم

فقال كلاً لست منهم ولكن كثرة الزهد توقع الشك . ثم تعال ننظر الى هذه المسألة من وجهها الاجتماعي . يكون الرجل غنيًّا ونشب ابنتهُ في نعمة وافرة تأكل ما تشتهي وتلبس ما تريد وعندها الخدم والحشم ثم يخطبها شاب لا يستطيع ان ينفق عليها كما ينفق ابوها فهل يجوز ان نُحمل شظف العيش لان زوجها ليس غنيًّا مثل ابيها ولا هو وارث لميراث وافر مثل اخيها

فقلت كلاً ولكن هب ان ثروة ابيها محدودة ودخلهُ منها يكفي لنفقات بيتهِ فاذا تزوجت

وخرجت من البيت لا تقل النفقات بخروجها لان ما يكفي ستة انفس قلما يزيد عما يكفي خمسة. اما اذا كانت ثروة الوالد وافرة يزيد دخلها على نفقاته فالواجب عليهِ ان يعطي بناتهِ قبل ابنائهِ كل ما يستطيع ان يعطيهنَّ اياهُ . ثم لا يخفى عليك يادكتور ان الراحة العائلية لا تتوقف على المال الكثير. اليك قصةً كنت اقرأُها اليوم وهي ان رجلاً اميركيًا جمع ثروة طائلة جدًّا بطرق مختلفة بعضها محلل وبعضها محرَّم وكان لهُ ابن وابنة وهما الوارثان لثروتهِ واتفق ان رأَت ابنتهُ شابًّا انكليزيًّا جميل المنظر رضيَّ الاخلاق حسن التهذيب فاحبها واحبتهُ وتواعدا على الزيجة وسُرَّ ابو الفتاة بذلك ولم يبالِ بان الشاب لا يملك شيئًا لانهُ هو كان واسع الثروة جدًّا كما تقدم وكان يحب ابنتهُ حبًّا مفرطًا ويرجو لها السعادة وقد اعجبهُ منظر الفتى وتوسم فيهِ سمات الخير وكان ابنهُ عليلاً لا يرجى لهُ العمر الطويل فرأَى ان هذا الفتى سيكون الوارث لكل اموالهِ ولم يأنف من ذلك

اما الفتى فقال الابنة ان اموال ابيكِ ليست مجموعة بطرق الحلال فلا اريد ان امس درهماً منها فان شئتِ ان تعيشي معي وتكتفي بما انفقهُ عليكِ مما اكتسبهُ بيدي (وكان مصورًا) وعلى قدر طاقتي فانا لكِ وانتِ لي والاَّ فلا بد من الفراق . وهمَّ على العودة الى وطنهِ فقالت لهُ انها تذهب معهُ اينما ذهب وتشاركهُ في السراء والضراء ولا تأخذ درهماً من اموال ابيها

فكتب كتابهُ عليها وعاد بها الى اوربا وكان معهُ نقود قليلة انفق منها الى ان وصل الى بلادهِ فاستأجر بيتًا صغيرًا ووضع فيهِ ما لا بدَّ منهُ من رخيص الاثاث. واتى الفتاة كتاب من ابيها يقول لها فيهِ انهُ اوصى البنك الذي يودعهُ اموالهُ ان يعطيها كل ما تطلبهُ الى حد مليوني جنيه اما زوجها فقال كلا وهذا عهد الله بيني وبينك . فقالت وهو كذلك

ولا تسل عن المشقَّة التي عانتها ابنة تربَّت حيث الخدم والحشم والمركبات على انواعها حيث تنهض من فراشها في الصباح فتأتي وصيفاتها يغسلنها ويعقصن شعرها ويلبسنها ثيابها ثم تذهب الى غرفة المائدة فتجد عليها لذيذ الطعام وتخرج بعد ذلك للنزهة في مركبة من افخر المركبات وتعود فتقرأُ قليلاً ثم تجلس للغداء وتخرج للنزهة او للزيارة وتلبس ثانية للعشاء وتذهب بعد ذلك الى اماكن التسلية والتمثيل وتمرُّ الايام وكل شيء طوع امرها وقد لا تتكلَّف ان تأمر بشيء بل يأتيها كل شيء من نفسهِ لان خدَم البيت يعرفون كل ما يطلَب منهم فيفعلونهُ من تلقاء انفسهم

هذه الفتاة التي ربيت في مهد الرفاهة والنعيم قامت في الصباح فلم ترَ في غرفتها ماء

تغسل بهِ وجهها ثم اتاها الخادم يقول لها ما تريدين ان اطبخ اليوم وعاد وهو يقول لا يوجد فحم في المطبخ ولا صابون ولا ملح ولا دهن . لكنها قالت في نفسها ان تسعة وتسعين في المئة من بنات جنسي عائشات في حالة ادنى من حالتي فلا بدَّ لي من ان ادرّب نفسي على هذه المعيشة حتى آلفها واتغلّب على ما اجدهُ فيها الآن من المشاق

ولبست في المساء افخر ثيابها واقامت تنتظر زوجها فحضر والادهان على يديهِ وثيابهِ وجلس معها للعشاء كأنهُ لم يرَها ولا هو محتفل بها فاسقط في يدها ولكنها صبرت صبر الكرام

ومرَّت الايام والشهور وهي تحاول ان تعوّد نفسها ما لم تعتدهُ قط فيتعذَّر عليها الامر وباعت حلاها التي ورثتها من امها وانفقت على بيتها ثم ولدت طفلاً وذاقت مرارة المخاض والنفاس وكانت الى هذا الوقت راضيةً بحالتها ولو كرهاً فلما صار طفلها بين يديها وهي عاجزة عن ان تلبسهُ وتعتني بهِ كما تريد كبر عليها الامر وفرغ صبرها وكان اخوها قد توفي واصبحت هي الوارثة الوحيدة فحملت طفلها وعادت الى بيت ابيها وكانت قد ارسلت اليهِ تلغرافاً تخبرهُ بولادتها وعزمها على الرجوع اليهِ فهيأ قصرهُ لاستقبالها واعدَّ لحفيدهِ جانباً كبيرًا منهُ وضع فيهِ كل ما يمكن ان يشترى بالمال من وسائل الرفاهة والتسلية فكبر الولد وترعرع وهو كأنهُ في فردوس اما هي فلم تطب لها الاقامة في بيت ابيها بعيدةً عن زوجها وكانت امها قد تركت لها ميراثاً طفيفاً يبلغ ريعهُ جنيهين في الاسبوع فاخذتهُ وعادت بهِ وبطفلها الى انكلترا ولم تخبر زوجها بذلك واقامت في بيت من بيوت الضيافة (بنسيون) ولم تطل الايام حتى جاءها نعيُ ابيها وجاءها من المحامي ان اباها ترك لها كل ثروتهِ وهي تبلغ عشرة ملايين من الجنيهات فكتبت اليهِ ان يوزعها كلها على المستشفيات والمدارس والاماكن الخيرية وارسلت اليهِ قائمة بذلك حتى لا يبقى لها شيءٌ من تلك الثروة

وكان زوجها قد دأب على اتقان فن التصوير وصوَّر صورة كان لها شأن كبير في جمعية التصوير الملكية فباعها بألف جنيه وطُلب منهُ تصوير غيرها بمبالغ طائلة وبينما هو يفكّر في زوجتهِ والبحث عنها لعلهُ يستطيع ان يردَّ اليها شيئاً مما خسرتهُ بخروجها من بيت ابيها سمع باعة الجرائد ينادون قائلين مات فلان الغني الاميركي ووهبت ابنتهُ كل اموالهِ للاماكن الخيريّة . فتناول جريدة وقرأ فيها الخبر ثم بحث عن زوجتهِ فوجدها وعاشا بعد ذلك بالرفاء والهناء

هذه القصة شاذَّة وقد تكون موضوعة لا اصل لها ولكنها تمثل حقيقة راهنة وهي ان

الراحة والسعادة لا تتوقفان على كثرة المال ٠ وكلُّ ما يحتاج اليهِ الزوجان لاجل الراحة والرفاهة انما هو الكفاف مع صحة العقل والجسد

ولما اتممت قصتي ضحك الدكتور عبد الله وقال اراك صرت من الوعّاظ ٠ والقصة حسنة المغزى ولكن هذا المصور احمق فقد اتعب نفسهُ واتعب زوجتهُ على غير جدوى لانهُ سواء تعلمت زوجتهُ طبخ الطعام او لم تتعلمهُ فنوع الانسان لا يزيد نفعاً ولا ينقص نفعهُ لان طبخ الطعام ليس مطلوباً من كل احد ٠ والاموال التي لم يشأ ان ينتفع بها هو وزوجتهُ وابنهُ اعطيت لغيرهم لينفقوها وهم ليسوا احق منهم بها وستزاد بها اجور اطباء المستشفيات واساتذة المدارس ويبقى صاحبك المصور يشتغل من صباحهِ الى مسائهِ ليصنع صورة قد ترضي مَن صنعت لهُ فيعطيهِ اجرتها وقد لا ترضيهِ فيرفضها ولا يعطيهِ شيئاً وان كنت لا تطلب مالاً مع ابنة ابرهيم بك ولا تحتاج الى مال ابيها فدعها لمن يطلب المال ويحتاج اليهِ

فقلت ان كانت لك فهي مباركة عليك

فقال " بارول " هات يدك وهزَّ يدي وخرج وهو يقول " بونجور اوره ڤوار "

خرج الدكتور عبد الله وتركني وحدي اراجع افكاري وانظر في حديثهِ ومغازيهِ فقلت في نفسي انهُ يمزح في كلامهِ الاخير فلا يعبأ بهِ ولكن ان كنت قد بحثت حقيقةً يحبي لهذه الفتاة وانا مبنّج وكان اخوها قد سمعني واخبر اباهُ واختهُ فعطفا عليَّ لهذا السبب فيكون عطفها ليس مجرَّداً عن كل غاية ٠ وكيف يليق بفتاة ان تتردد على رجل مثلي وهي تعلم انهُ جاهر بحبها ولم يخطبها ولا كلم اهلها في امرها ٠ فنفرت من هذا الفكر واشمأزت منهُ وقلت بل هي ارفع من ذلك ويستحيل ان يكون اخوها قد اطلعها على ما سمعهُ مني وما الدكتور عبد الله الا زارع خصومات ولعلَّ مرادهُ تنفيري من هذه العائلة وقد بلغ من حماقتي اني صدقت كلامهُ ٠ الآن فهمت سبب تودده اليها والى اخيها وكثرة تردده عليَّ هذا هو المكر بعينهِ ٠ والظاهر انهُ هو لا يعدهُ مكرًا بل مهارة

تشتَّتت افكاري وكاد يعتريني دوار ٠ فاخذت اراجع الحوادث الماضية حادثةً حادثةً من حين لقيت هذه الفتاة على شاطئ بحيرة قارون الى الآن وافسّرها بهذين الفرضين الاول اني بحتُ بحبي لها وانا تحت فعل البنج والثاني ان الدكتور عبدالله يريد صرف افكاري عنها والاقتران بها فرأيت ان كل ما كان غريباً في تلك الحوادث تزول غرابتهُ مع هذين الفرضين فكبر الامر عليَّ وضاق نَفَسي في صدري وكاد يغمى عليَّ ولكنني بقيت مرجحاً ان الفتاة لا تعلم شيئاً مما بحت بهِ وانما هي مدفوعة لزيارتي بعامل الصداقة ولو سمعت

انني بحت يحبها لمنعها الحياء من زيارتي ولاسيما امام الدكتور عبدالله . ولو كانت تحبني كما احبها لمنعها حبها لي عن زيارتي ايضاً لانها تشعر ان حبها ينمُّ عليها وتحسب ان كل الناس يعلمون بهِ كما تعلمهُ هي فلا بدَّ من ان قلبها خالٍ من كل فكر من هذا القبيل لم يبلغها ما فاتهُ ولا هي ناظرة اليَّ بغير عين الصداقة المحضة . فطوَّبتها على خلوّ قلبها وزاد شغفي بها لبساطتها وسلامة نيتها . اما الوعد الذي وعدت الدكتور عبدالله بهِ فكلام بكلام واذا كان هذا الرجل مكّارًا غير خالص النيَّة فلا بدَّ من ان تكتشف السيدة نزهة ذلك لان النساء اشد فراسة من الرجال فيستحيل ان ترضى بهِ وهي على ما ظهر منها من حريَّة الفكر وسمو الادراك والترفُّع عن الدنايا . ولم ارَ قط انها كانت تنظر اليهِ بعين المودَّة بل كثيرًا ما كانت تقصّر الكلام معهُ باجوبة سديدة مفحمة فاطمأَنَّ بالي وجاءني الخادم حينئذٍ يدعوني الى الغداء

الفصل العاشر

مجلس القضاء

ما هذا الخبر يا امين هل اطلقوا سراح ابي سعدان وكيف جرى ذلك والرجل قتل مئة قتيل وغلَّب البلاد

قال ابرهيم بك ذلك وهو جالس في شرفة بيتهِ في العاصمة واولادهُ حولهُ وانا معهم وكنت لا ازال اتوكأُ على عصاي لكي لا أتعب رجلي وقد دعوني يومئذٍ للغداء معهم وقالوا انهم صنعوا لي ملوخيَّة على طريقتهم

فقال لهُ امين حضرتُ المرافعة وهي من المضحكات المبكيات . اتوا بابي سعدان فخرج من السجن وقد اطلق لحيتهُ وطال شعرهُ واحدودب ظهرهُ واصفر وجههُ وغارت عيناهُ حتى تظنهُ حبيساً لزم صومعتهُ او شيخاً فانياً قارب الوفاة فوقف في باب المحكمة والتفت يمنةً ويسرةً وحيّ الحضور بالسلام عليكم وهو يتوكأُ على عصاً قصيرة ويكاد رأْسهُ يصل الى الارض ومشى مشياً بطيئاً يرسف بقيودهِ الى ان بلغ قفص المجرمين فوقع فيهِ مدعياً انهُ لا يستطيع الوقوف لوهن قدميهِ فسمحوا لهُ بالجلوس وسألهُ القاضي عن اسمهِ وبلدهِ وعملهِ فتصامَّ وظهر عليهِ انهُ لم يسمع شيئاً فجعل العسكري الواقف الى جانبهِ يصرخ في اذنهِ مردداً سؤال القضاة وهو يلتفت اليهِ كمن لم يسمع شيئاً او لم يفهم معنى ما سمعهُ الى ان بحَّ العسكري فاجاب عن اسمهِ وبلدهِ وسنهِ وعملهِ وقال ان عمرهُ نحو ثمانين سنة وانهُ كان فتيَّ في زمن

ابرهيم باشا . وشرح عضو النيابة الواقعة احسن شرح . ثم سئل المتهم عما يعلمهُ من امر القتيل مرمي فانكر انهُ يعرف شيئًا من امرهِ فسئل عن الرش (الخردق) الذي وجد في ظهرهِ فقال لقد قلت لكم مئة مرة ان ولدًا اصابني خطأً وهو يرمي الحمام فقد كنت جالسًا في الغيط فلم اشعر الاَّ والرش اصابني وطرحني على الارض فنهضت والتفت فرأيت الحمام طائرًا وولدًا بيدهِ بندقية وهو يعدو راكضًا فعدوت وراءهُ ولم ادركهُ لانهُ كان قد ابعد عني كثيرًا

فسألوهُ الى اين ذهبت بعد ذلك

فاجاب بعد ان كرّر العسكري السؤَال في اذنهِ ذهبت الى بيتي

فقالوا لهُ ماذا قالت لك امرأتك

فقال لم تقل شيئًا

فقالوا وماذا قلت لها انت

فقال لم اقل شيئًا

فقالوا الم ترِ نفسك لطبيب

فقال كلاَّ . وكان يجيب بالنفي عن كل مسائلهم . واخيرًا شرحوا لهُ التهمة بالايجاز فانكر كل الانكار وبكى واشتكى وقال يا ناس خافوا ربنا رجل عاجز مثلي رجل ينتظر الموت ساعة بعد ساعة ليلاقي ربه . رجل في هذا السن لا يستطيع المشي على رجليه يتهجم على مساكن الناس يقتل وينهب هل تصدقون ذلك يا قضاة هل تصدقون اني انا استطيع ان احمل البندقية وهل اطلق النار بهذه العصا ما هذا الجنون من اتهمني هذه التهمة يا ربي ولكن اولاد الحلال كثار. وجدوا القتيل وان كان معاون النقطة لا يكتشف القاتل وقع تحت لوم المأمور وان كان المأمور لا يكتشف القاتل وقع تحت لوم المدير وان كان المدير لا يكتشف القاتل وقع تحت لوم الداخلية اهو وجدوا رجل قالوا انهُ قاتل والسلام

ووقف المحامي عنهُ واستلفت الانظار الى شيخوختهِ وضعف جسمهِ وقال ان رجلاً مثلهُ لا يعقل انهُ يقدم على السطو وجرح شهادة الشهود وخطأَ النيابة في استنتاجها وقال ان الوقائع التي ذكرتها ونسبتها الى ابي سعدان يحتمل ان تكون قد وقعت من رجل آخر بهذا الاسم ثم طلب لهُ البراءة لانهُ شيخ مريض فانٍ لا يستطيع ان يأتي العمل الذي نسب اليهِ ولم يقم دليل واحد على نسبتهِ اليهِ

وكنت اسمع القضاة يتكلمون همسًا ويقولون كيف يعقل ان رجلاً مثل هذا يقدم على السطو والقتل واخيرًا خلوا للمداولة ولم تكن الاَّ دقيقة حتى عادوا ونطقوا بالبراءة

اما ابو سعدان فبقي شاخصاً اليهم لا يتكلم كأَنهُ لم يسمع شيئًا مما قالوهُ ثم دنا عسكري منهُ وصرخ في اذنهِ قائلاً ادعُ لافندينا وللقضاة. فظهر كانهُ لم يسمع شيئًا فصرخ العسكري في اذنهِ ثانيةً وثالثةً واخيرًا قال المتهم لا يمكن ان يحكم عليَّ هؤُلاء القضاة العادلون فانهم عادلون عادلون الله يكون معهم الله يقويهم يا رب. ونزع عمامتهُ عن رأْسهِ وبسط يديهِ واخذ يدعو لهم ثم قال للعسكري اي ساعة يصدر الحكم فقال لهُ العسكري قد صدر الحكم يا ابويَ ببراءتك فالتفت اليهِ كأَنهُ لم يسمع شيئًا وبعد صياح واشارات ظهر انهُ فهم فبسط يديهِ ثانية وجعل يدعو للقضاة ونهض فاخرجوهُ من المحكمة ونزعوا القيود من رجليهِ. ورأَيتهُ بعد ذلك في المحطة عائدًا الى الفيوم مع اقاربهِ حتى اذا دخل المركبة انتصبت قامتهُ وابرقت اسرتهُ وجعل يتهكم على الحاكم والقضاة

فقطب ابرهيم بك حاجبيهِ وقال اذًا ذهب دم مرمي هدرًا ولم يعد في الامكان ان نأْمن على عزبنا في جهات سنهور وسنورس ولا بدَّ لنا من استخدام بعض الاشقياء لحفظ الامن

واتى المستر مكنزي حينئذٍ فاخبرهُ امين افندي بخلاصة المحاكمة وتبرئة القاتل وعزم ابيهِ على استخدام الاشقياء لحفظ الامن في عزب اطيانهِ ثم قال هذه نتيجة قضاء ومحاكم لا سيطرة عليها من الامَّة فلو كان عندنا مجلس نوَّاب لسننا القوانين التي تناسب بلادنا لا القوانين التي تناسب فرنسا وانكلترا . اسأَل كل اهالي البلاد التي منها هذا الشقي يقولوا لك كلهم انهُ من اكبر الاشقياء وانهُ قتل عشرات من الناس ومع ذلك لا تستطيع الحاكم ان تحكم عليهِ الاَّ بموجب القانون الفرنسوي ولا تستطيع الحكومة ان تبعدهُ عن بلادهِ لئلاَّ يقوم رجل من الاحرار في بلادكم ويسأَل وزير الخارجية عن سبب ابعادهِ فيلوم وزير الخارجية نائب حكومتهِ في مصر على هذا العمل الاستبدادي فنبقى على ما نحن فيهِ من ضياع الحقوق وتقوُّض دعائم الامن وهذه حال لا تحتمل

فقال المستر مكنزي هل حاولتم ان تبدلوا قوانينكم بغيرها ومنعكم الانكليز من ذلك

فاجابهُ امين ما الفائدة من المحاولة ومجلس الشورى للاستشارة فقط وللحكومة ان تعمل برأْيهِ او لا تعمل والجمعيَّة العمومية تطلب مطالب كثيرة فلا تجاب اليها الاَّ في ما ندر والموظفون منكم لا يعملون الاَّ برأْيهم وهم يجهلون لغة البلاد ويحتقرون اراء رجالها ولم ارَ في حياتي استبدادًا مثل استبدادهم وهذا القول لا يصدق عليهم كلهم لان فيهم الصالح والطالح ولكن الضرر لا يزال من هذه الجهة اذا وجد النفع في جهة أُخرى

الفصل الحادي عشر

عود الى الثورة

دعيت الى العشاء في بيت ابرهيم بك بالقاهرة وقيل لي ان المستر مكنزي مدعوٌّ ايضاً وانّنا اذا ذهبنا باكرًا فابرهيم بك يقص علينا بقية قصة الحزب الوطني. فلبست ثياب المساء ومررت على نزل شبرد واخذت المستر مكنزي معي لانهُ كان في انتظاري هناك وسرنا الى دار ابرهيم بك فوجدناهُ جالساً وحدهُ في مكتبتهِ فاستقبلنا فيها ثمَّ جاء اولادهُ ومعهم السيدة نزهة ومس برون

والمكتبة غرفة رحبة مفتوحة من الشمال والشرق وفيها كراسي ومقاعد كبيرة من الجلد البني وخزائن الكتب من الجوز القاتم اللون وفي ارضها بساط فارسي يغطيها كلها منقوش نقشاً جميلاً بالوان حمراء وصفراء. ولما استقرَّ بنا المجلس أُتينا بالقهوة والسكاير وشرع ابرهيم بك في تتمة حديثهِ الذي بدأَهُ ونحن في الفيوم فقال وقفنا عند الكلام على ابي نظارة وجريدتهِ الاولى التي انتقد بها اعمال رجال الحكومة على اسلوب هزلي وبلغة عاميةٍ ووزعها سرًّا فتداولتها الايدي وطربت لها النفوس وكان انتقادها جارحاً لانهُ صحيح ومطرباً لما فيهِ من النكت ولانهُ بلغة عامية يفهمها ابناء البلد ولا يأنف منها كبار المتعلمين حتى علماء الازهر فاني رأيت بعض رجال الحكومة وكبار العلماء يقرأُونها بنغمة الطرب ويؤمنون على كل كلمة فيها ولا سيما اذا كان الكلام مبهماً يفسرهُ كل احد حسبما يشاء او حسبما هو راسخ في ذهنهِ. ولكن ليس المراد ان اطلعكم على رأْيي بل على رأي ذلك الكاتب الذي كتب منذ خمس وعشرين سنة المقالة التي عنوانها "اصل الحزب الوطني في مصر" كما قلت لكم قبلاً فقد قال ان تلك الجريدة شاعت في القطر المصري وتداولتها الايدي في السنوات الخمس الاخيرة من حكم اسماعيل باشا حتى لم يبقَ حمَّار في مصر والارياف الأَ سمع من يقرأُها لهُ اذا كان هو يجهل القراءة وقد كنت انا من الموزعين لها في الارياف ومن اشد الناس رغبة في نشرها وهي اول جريدة من جرائد الحزب الوطني وبواسطتها نشأَت مصر الفتاة. وانشأ صاحبها تياترو صغيرًا وجعل يمثل فيهِ ويبين اسراف العائلة الخديوية فتهافت الناس عليهِ من كل فج واقتدى بهِ بعض تلامذة الازهر. ثم انشأَ جريدتهُ الثانية المسماة بابي نظارة التي جمع فيها ما كان ينشرهُ في نشرتهِ الاولى وما كان يقولهُ في التياترو ورسم فيها صورًا هزلية تهكم بها على الخديوي ونظارهِ فراجت أَي رواج وكانت سبباً لشهرة صاحبها ونفيهِ فان رياض

باشا امر بالقبض عليهِ . ولو لم يكن محتمياً بالحماية الايطالية لذهب في ظريق من تقدمهُ من محبي وطنهم لكن الحماية لم تقهِ من النفي فنفي ومضى الى باريس واعاد نشر جريدتهِ فيها

وهنا اعترض الدكتور يوسف قائلاً ماذا كان غرض ذلك الرجل وما هو نفعهُ الذاتي من تلك الجريدة هل كان يكتسب منها مالياً

فقال ابوهُ هـذه امور لا يعلمها الاَّ الله والراسخون في العلم والتفت اليَّ كأَنهُ يطلب مصادقتي على ذلك والتفتت اليَّ السيدة نزهة ايضاً فقلت اذا كنتم تطلبون رأْيي فاني اعتقد ان ذلك الرجل واسمهُ يعقوب صنوه على ما اظن كان مأْجورًا لهذا العمل وقد كنت ولدًا صغير السن حينئذٍ فلا اتذكر اني رأَيت تلك الجريدة

فقال امين وكيف ذلك ومَن استأجرهُ وما هو غرضهُ

فقلت المال اصل كل الشرور كانت الحكومة مديونة في عهد اسمعيل باشا بنحو مئة مليون جنيه ورأَى المداينون انهُ لا ضمان لاموالهم الاَّ اذا وضعت مالية مصر تحت مراقبة دولة اوربية واكثر المداينين من الفرنسويين والانكليز وان شئتم فقولوا من رعايا الفرنسويين والانكليز لانهم اسرائيليون سوريون لا من الفرنسويين اصلاً ولا من الانكليز فسعوا لتكون المالية المصرية او الحكومة المصرية تحت مراقبة فرنسا وانكلترا ولما رأَوا انهُ يستحيل اتفاق الدولتين في كل شيءٍ ولا بدَّ من انفراد واحدة منهما فضَّلوا ان تنفرد انكلترا بهذه المراقبة لان الحكومة الفرنسوية متقلبة الشؤُون ورأَوا ان انكلترا لا تقدم على عمل الاَّ مضطرة فاشتروا لها اسهم ترعة السويس حتى تزيد مصالحها في مصر ثم عملوا على تحريك الثورة حتى يضطروها الى احتلال البلاد دفاعاً عن مصالحها واستأْجروا ذلك الرجل وامثالهُ لاضرام نار الثورة

وكنت اتكلم والعيون شاخصة اليَّ فقالت السيدة نزهة هذا هو التعليل المعقول وقال ابوها الم تسمعوا ما قرأْتهُ لكم وهو ان ذلك الكاتب نفسهُ كان يوزع نشرة ابي نظارة فهل يعقل ان لهُ غرضاً غير اثارة الخواطر . وتبسم المستر مكنزي وقال لي لقد اتهمتنا من جهة وبرَّأْتنا من اخرى وانا أُؤَكد لك ان كل ما فعلناهُ في توسيع املاكنا انما فعلناهُ مدفوعين الى ذلك بالحاجة تجارنا وللدفاع عن مصالحهم ثم التفت الى ابرهيم بك وقال لهُ اذا كان صاحبك من جملة المحركين في الثورة العرابية . فاجابهُ نعم كان كذلك وكان لهُ شركاء في ذلك العمل وهاك تتمة حديثهِ في مقالتهِ قال : —

وقام في ذلك الحين رجال كثيرون من طالبي تغيير الاحوال مثل سلطان باشا

والاباظية والشريعي وفكري وواصف و بطريرك الاقباط وبطريرك الارثوذكس واخيرًا قام عرابي واشتهر بغيرتهِ الوطنية ومنهُ ومن رفاقهِ تألف الحزب الوطني وقد نشأ هذا الحزب اولاً على هذه الصورة · في سنة ١٨٦٦ طلب الباب العالي من اسمعيل باشا ان يرسل جنودهُ لقمع ثورة اليونان في كريت فاراد اسمعيل باشا ان يحمّل الحكومة العثمانية نفقات الجنود المصرية فانشأ مجلسًا من اعيان البلاد لكي يوافقوهُ على مرامهِ ويطرح نفقات حملة كريت من ويركو مصر ويجعل المسؤلية على اعيان البلاد فجعل هؤلاء الاعيان يفدون الى مصر ويقرون ما يطلبهُ منهم الى ان كثرت الديون المصرية ورأى انهم صاروا يتبرّمون من المصادقة على كل ما يطلبهُ منهم فصرفهم ولكن جمعهُ لهم واعتمادهُ عليهم جعلاهم يحسبون ان لهم كلمة تسمع او انهم صاروا بحيث لا يستطيع ان يغفل امرهم · ولما لم يلغ الدكرتو الذي جمعهم بموجبهِ صاروا يحسبون انفسهم قوةً في البلاد وهم اساس الحزب الوطني الذي تولد بعدئذٍ

ولما رأى الوطنيون افراط اسمعيل في الاسراف شعروا ان لا دواء لتلك الحال الاَّ اذا راقبت الامة على اموالها · ثم نشأت المراقبة الاوربيَّة وعندي انهُ لو لم تتداخل اوربا في سياسة مصر لاضطر الوطنيون اسماعيل باشا الى القبول بمراقبة الامة على اموال الحكومة وسواء كنت مصيبًا او غير مصيب فلا شبهة انهُ صار في البلاد قوة حينئذ وان اسماعيل باشا شعر بوجودها ولو لم يشعر بهِ نظارهُ

وفي سنة ١٨٧٨ كانت حيل اسماعيل المالية قد فرغت وجعل يفكر في اشهار الافلاس ورأى ان الناظرين الاوربيين اللذين نصبهما في حكومتهِ ليسهل عليهِ اقتراض الاموال قد صارا حملاً ثقيلاً عليهِ فعزم على التخلص منهما ولم يرَ سبيلاً الى ذلك الاَّ بالالتجاء الى صنيعتهِ القديمة اي مجلس الاعيان والحزب الوطني فاخذ يذاكرهم في الامر سرًّا عن يد بعض اعوانهِ ووعدهم وعودًا كثيرة خلاصتها انهُ يحسبهم حزبًا وطنيًّا ويكون زعيمًا لهم ويقوم معهم في وجه كل المداخلات الاجنبية وفي وجه كل الموظفين الاجانب · ثم يتفق هو والاهالي على تصفية الديون وتوحيدها كلها وجعل فائدتها ٧ في المئة فقط وحالما يتم ذلك يجمع مجلس الاعيان ويمنحهم حكومة دستورية

ولم يكن اسمعيل باشا قاصدًا ان يفي بما وعد بهِ من حيث جعلهُ الحكومة دستورية ولكن كان شريف باشا قد انشأ قانونًا اساسيًا فنظروا اليهِ كرجل حر يحسن ان يكون زعيمًا للوطن · وشاع حينئذٍ ان المراد بتصفية الديون الوصول الى ابطالها كلها والتخلص منها دفعةً واحدة فان اسمعيل باشا كان يعلم ان البلاد تئن من ثقلها وتود التملص منها فاشاع ما اشاع

ثم جعل يخابر قواد الجيش ليعلم افكارهم وافكار الضباط الذين تحتهم لكي يخيف الناظرين الاوربيين ويلبس الاعتداء عليهما لباس تمرد عسكري فهجموا على ولسن في الطريق وحصروا بلنير في بيته وافلح اسمعيل باشا في غرضهِ ولكنهُ كان يلعب بسيف ذي حدين فنال غرضهُ من اوربا وقتياً ولكنهُ قوّى الحزب الوطني حتى صار اقوى منهُ

وسنة ١٨٧٩ شعر المداينون وغيرهم ان قصد اسمعيل باشا اظهار الافلاس فاضطروا دولهم الى المداخلة فخُلع اسمعيل وخلفهُ ابنهُ توفيق وهنا وصف الكاتب توفيق باشا وصفاً نعفونني من تلاوتهِ عليكم الى ان قال اما توفيق باشا فلم يخلف اباهُ ليتسلط على البلاد بل وضعت السلطة في يد رياض باشا الذي عين بقرار من دول اوربا فاستلم زمام الاحكام وجرى على خطة الارهاب التي كان اسمعيل جارياً عليها لكن الحزب الوطني لم يرهبهُ بل بقيت جرائدهُ تتكلم بجرأَة ونشر هذا الحزب منشورهُ الاول في ٩ نوفمبر سنة ١٨٧٩ واللجنة التي كتبت ذلك المنشور كانت مؤلفة من سلطان باشا وسامي باشا وعلي بك يمني واسمعيل باشا يسري وعثمان باشا لطفي وشريف باشا وانا نفسي انشأْت المنشور باللغة الفرنسوية وهو يختلف قليلاً عن المنشور العربي وهذه خلاصة بعض موادهِ

ان اسمعيل باشا استعان بالحزب الوطني في وقت ضيقهِ وهو عارف ومعترف بوجود هذا الحزب ولكنهُ استعان بهِ بعد فوات الفرصة فلم يلبِّ نداءهُ احد والآن قام الحزب الوطني لكي ينجي البلاد من الدمار وهو يطلب ان تكون لهُ حقوق كل امة تستحق ان تسمَّى امة

والحزب الوطني مستاءٌ من وجود المداخلة الاجنبيَّة التي افضت الى خلع اسمعيل باشا ولو استحقَّ ذلك ولا يسلم ان حكومة انشأَتها اوربا تعبّر عن مطالب البلاد ورغائبها لان البلاد لم تُستَشَر في ذلك فهي ترفض هذه الحكومة

ان مصر قادرة على ايفاء ديونها ولكنها توفيها على الاسلوب الذي تختارهُ ولذلك تطلب الاستقلال بحكومتها

والحزب الوطني يسلّم بنفع المساعدة الاوربيَّة المقيدة ولكنهُ يرفض كل مداخلة اجنبيَّة وهذا الحزب يقبل في دائرتهِ كل سكان القطر المصري الخاضعين لقوانينهِ مهما كان اصلهم وجنسهم وهو عازم على نيل حقوقهِ بالوسائل السلمية ولا يلجأُ الى القوة الَّا اذا عجزت الوسائل السلميَّة عن نيل المراد . ولذلك فهو يعتمد على عدل الدول الاوربية معتقداً انها تريد الخير لمصر ويعتمد بنوع خاص على شهامة البرنس بسمارك[1] المدافع عن الحقوق الوطنيَّة

(١) زيدت هذه العبارة بطلب اسمعيل باشا يسري

ولا يستطيع زعماء هذا الحزب الآن ان يوقعوا هذا المنشور لان النفي والقتل لا يزالان نصيب من يجاهر بحب وطنهِ ولكن اذا ضمنت سلامتهم فكلهم يوقعونهُ

وتتعهد مصر بايفاء ديون حكومتها ولكنها لا تسلم برهن دخلها لبعض المداينين دون سواهم كما هو مفاد اتفاق غوشن وجوبر واتفاق روشيلد

ولذلك فالحزب الوطني يطلب المطالب التالية من حيث الامور المالية

(١) ارجاع اطيان الدومين الى الحكومة

(٢) الغاء كل الامتيازات التي اعطيت لبعض المداينين

(٣) توحيد الديون كلها وجعل فائدتها ٤ في المئة

(٤) انشاء مراقبة دولية مشتركة تكون الى وقت محدود لاجل مراقبة ايفاء الدين لا غير

ونشرنا ستة آلاف نسخة من هذا المنشور ولجأ الذين وضعوه الى حلوان وكانت المراقبة شديدة عليهم

وعاد المستر رفرس ولسن الى القاهرة في ربيع سنة ١٨٨٠ وقرَّر قانون التصفية هو ورياض باشا . وقد اطنب الكتَّاب الاوربيون في مدح ذلك القانون لكنهُ كان في الحقيقة ضغثاً على ابَّالة وبمثابة القشة الاخيرة التي تكسر ظهر الجمل كما يقولون فحوَّل سخط الحزب الوطني عن الاتراك الى الاوربيين . ومما زاد الطين بلة الغاء قانون المقابلة لانهُ نقض عهد الحكومة مع الفلاحين وخسَّرهم عشرين مليوناً من الجنيهات وكانوا قد استدانوا اكثرها من المرابين ربا فاحش فشعر الفلاحون كلهم بثقل هذه المظلمة ولما اعترض عليها بعضهم نفي الى البحر الابيض مع ان المستر ولسن انتدب كل من لهُ اعتراض ليبديهُ وكان الرجل الذي نفي صديقاً حميماً لعرابي فاغتاظ عرابي من هذا الامر ووقع في نفسهِ وقعاً اليماً واستنهض همة اخوانهِ الضباط ليقاوموا هذا الظلم والاستبداد بالقوة والاَّ فلا امان على حياة احد من سكان القطر

وكان الخديوي يغار من رياض باشا ويكره المراقبة الاوربية فمال الى الجنود وكان يود علي فهمي ويسر بمقابلة عرابي وكان عرابي قوي الحجة حسن المحاضرة فتشاور الرجلان مع الخديوي وكتبا احتجاجاً رفعاهُ الى رياض باشا طلبا فيهِ اصلاح الجيش واستخدام الضباط من المصريين لا من الشراكسة وعزل عثمان رفقي فلم يجبهم رياض باشا الى ذلك بل دعاهما الى المجلس ودعا معهما عبد العال واوصى هؤُلاء الثلاثة الجنود الذين تحت امرهم ان يبادروا الى انقاذهم اذا أُلقي القبض عليهم ففعلوا ونجا الثلاثة ونالوا عفو الخديوي ومن ثمَّ انتشر صيت عرابي في البلاد كلها ونظر اليهِ الناس كرجل قادر على تخليص الاهالي من ظلم الحكام وجعلت

العرائض تنهال عليهِ من كل فج وحسبوا انهُ زعيم الامة كلها كما انهُ زعيم الجنود

وهذا التمرد العسكري الذي حدث في فبراير سنة ١٨٨١ هو اول فصل من فصول الثورة . والفصل الثاني اهلي نما في الربيع والصيف التاليين وبلغ حده في سبتمبر واشترك فيهِ الجنود والملكيون وكان غرضهُ قلب الوزارة الرياضية كلها واساسهُ سلطان باشا واباظه باشا والاول من اكبر اصحاب الاملاك في الوجه البحري والثاني من اكبر اصحاب الاملاك في الوجه القبلي فان هذين الرجلين نشرا منشورات سرية على مشايخ البلاد قالا فيها انهُ قد حان الوقت لتصير الحكومة دستورية . وكان توفيق باشا قد وعد الاهالي بمنحهم الحكومة الدستورية حينما تولى واكّد وعده سرًّا بيمين حلفها على القرآن لكن رياض باشا منعهُ من ذلك فطلبا منهم ان يرفعوا اليهِ عريضة يسألونهُ فيها ان يفي بوعدهِ باعطاء البلاد حكومة نيابيّة ووزارة مسؤولة وجمع مجلس الاعيان حالاً لوضع القانون الاساسي وتعيين شريف باشا بدل رياض باشا لانهُ (اي شريف باشا) رئيس الحزب الوطني وكان قد تعهد انهُ يعمل حسب رغبة حزبهِ حالما يتولى الوزارة . وتقرر ان تسير ثلاث اورط من الجنود الى سراي عابدين في ٩ سبتمبر وتطلب من الخديوي المصادقة على عزل الوزارة وأُعلم ايضاً كيف يتصرف في عزل الوزارة . اي ان الخديوي والجنود والشعب كانوا كلهم متفقين على هذه الخطة . وفي اليوم التالي عرفت الامة المصرية كلها انها ابطلت حكم الاستبداد ودخلت في عصر جديد ولم تكن تعلم ما خبئ لها في زوايا القدر

لما وصل ابرهيم بك الى هذا الحد قال هذه خلاصة ما كتبهُ المسيو نينه في مجلة القرن التاسع عشر في اواخر سنة ١٨٨٢ وصدر في جزء شهر يناير سنة ١٨٨٣ وهو صحيح اجمالاً ولو خالف الحقيقة في بعض التفاصيل

فقلت لهُ يظهر لنا من ذلك ان الحزب الوطني قديم في مصر أُنشئ فيها منذ خمس وعشرين سنة ولكنهُ قاد البلاد حينئذٍ الى الثورة ولا يبعد ان يقودها الى الثورة الآن ومن يعلم ما خبئ لنا في زوايا الدهر

فقال نعم هذا هو رأيي انا ايضاً

فقال ولدهُ امين هل غاب عنكم ان الاحوال تغيرت جدًّا عمَّا كانت عليهِ في ذلك الحين

فقال ابوهُ نعم تغيَّرت ولكن تغيرها لا يقوي الحزب الوطني بل يضعفهُ ففي المرة الاولى كان الجيش المصري كلهُ في يد الحزب الوطني اما الآن فاكثر الجيش الوطني في السودان وليس عندهُ ذخيرة حتى يخشى جانبهُ وفوق ذلك فجيش الاحتلال في البلاد وهو يؤيد كلمة

انكلترا ولذلك يستحيل علينا ان ننال حكومة نيابية الأ برضى انكلترا

وحينئذٍ فتح باب غرفة المائدة ونهضت السيدة نزهة وقالت هيَّا بنا فسار ابوها امامنا وسرنا وراءهُ وجلسنا حول المائدة وطلبت السيدة نزهة منا ان نترك السياسة في مكتب ابيها ونتفكه بطيب الحديث

الفصل الثاني عشر

الدسيسة الكبرى

زارني المستر مكنزي هذا الصباح وكنت في غرفتي اطالع في كتاب ادبي فقابلتهُ بالترحاب وقدمت لهُ كرسيًّا كبيرًا وصندوق السكاير فجلس وتناول سيكارة ونظر الى ما هو مكتوب عليها ثم اشعلها وسألتهُ هل يشرب شيئًا فاجاب بالايجاب فناديت الخادم ليأتيني بالموسكي والصودا وانا اقتنيهما لاصدقائي الانكليز ولو كنت لا اشربهما لاني عرفت بالاختبار ان اكثر الانكليز لا يطيب لهم عيش ما لم تكن زجاجتا الموسكي والصودا امامهم فملأ كاسًا وشرب شيئًا منهُ وقال الا تزال على عادتك فقلت اني كذلك لا تعصبًا ولكن يصعب على من كان في سني ان يعتاد شيئًا لم يعتدهُ في صباه

وتكلمنا في مواضيع شتى وكنت ارى في كلامهِ انهُ يقصد شيئًا غير ما يكلمني بهِ واخيرًا ادنى كرسيهُ من كرسيَّ وقال لي هل نحن في مأمن من ان يسمعنا احد وهل عندك مكان للسر

فقلت نعم لا احد يسمعنا هنا وخادمي لا يعرف الانكليزية وانا على ما تعهد

فقال حسنًا وانا خبير بقراءة ضمائر الناس ولا تحسب اني اتملقك اذا قلت لك انني توسمت فيك سمات الاخلاص من اول يوم رأيتك الاخلاص مع التعقل · واراك تحب وطنك وتغار اليهِ غيرة صحيحة وتعلم ما يضرهُ وما ينفعهُ وكنت اود ان ابقي حديثي هذا الى ان يتم لنا ابرهيم بك ما اخذ يتلوهُ على مسامعنا من الاخبار التي كانت اساسًا للثورة العرابيَّة والاحتلال الانكليزي لاني واثق انها تبين الامور التي اريد ان اكشفها لك ولكني اخاف ان يأزف الوقت وتفوت الفرصة ولهذا بادرت وجئت اليك لاطلعك على سر لا يعلمهُ كثيرون وعلى دسيسة سيذهب فيها الابرياء ضحية الطامعين· وليس غرضي من ذلك مجرد اطلاعك على هذا الخبر بل الاعتماد على مساعدتك الكبيرة فان اللورد هارتي أُخبر منذ ايام بتفاصيل

دسيسة كبيرة يراد بها اضرام نار ثورة في البلاد حتى تضطر الحكومة الانكليزية ان تشهر حمايتها عليها وقد تضطر ان تحارب دولة او اكثر من دول اوربا بسبب ذلك ٠ واتفق انني كنت قد سمعت عن هذه الدسيسة قبله ُ ووجهت نظره ُ اليها والذي اخبرني واخبره ُ اطلعنا على اسماء كل المشتركين فيها وعلى اليمين التي حلفوها ولما رأيتهُ مضطرباً في امرهِ اشرت عليهِ ان يأتمن رجلاً من الوطنيين العقلاء ذوي النفوذ و يرسله ُ الى اصحاب هذه الدسيسة وان شئت فقل اعضاء هذا الحزب ليبسط لهم واقعة الحال و يطلعهم على الغرض الحقيقي الذي يقصده ُ اولئك الذين حرضوهم ولا يزالون يحرضونهم فان الماليين الاوربيين لا يزالون مستسمنين مصر و يحسبون انها تستطيع ان تستدين منهم مئة مليون اخرى من الجنيهات ولكنهم يخافون من ازدياد النفوذ الوطني وتقلص النفوذ الاجنبي ولاسيما بعد المجاهرة بطلب المجلس النيابي و يظنون انهُ اذا فاز الوطنيون بذلك فلا يبعد ان يتسلطوا على المالية وتقع في البلاد ارتباكات كثيرة حتى لا تعود قادرة على ايفاء ربا دينها الحاضر اي انها تعود الى ما كانت عليهِ قبل الثورة فهم يريدون الآن ان يضرموا نار ثورة اخرى حتى تضطر انكلترا ان تمتلك البلاد نهائيًا فيصير دينهم بأمن ولو تضاعف . وعندي ادلة كافية على تعيين اسماء الرجال الاوربيين المشتركين في هذه الدسيسة وعلى ان بروغرامهم يشمل قتل جماعة من الوجهاء

فقلت لهُ اني اصدق انهم يكتبون و يستكتبون و يخطبون وينادون و يطلبون من اصدقائهم في انكلترا ان ينادوا باسمهم وقد يستأجرونهم لذلك ولكنني لا اصدق انهم يخرجون من القوة الى الفعل ومن الكلام الى اللكام ٠ نعم يصيحون وينادون ولكنهم لا يقتلون احدًا ولا يرتكبون اثمًا فظيعًا مثل هذا

فقال قد تكون مصيبًا اذا كان الامر متوقفًا عليهم وحدهم ولكن الذي يستصعبونهُ هم ولا يستحلونهُ لا يستصعبهُ محرّضوهم ولا يستحرمونهُ وانا اؤكد لك انهم كتبوا اسماء الذين يجب قتلهم لاثارة الفتنة وساطلعك عليها حينما تأخذ على نفسك ان تشاركنا في الرأي وفي العمل وترد عن بلادك فتنة تعيدها ثلاثين سنة الى الوراء

فقلت اني افعل ذلك وامرٌ بحسبان لورد هارفي اياي موضع ثقة

فقال اذًا تفضل وتعشَّ معهُ الليلة فانهُ طلب مني ان ادعوك اليهِ اذا اردت ان تلبي دعوتهُ

ولما وصل الى هذا الحد قرع الباب ودخل علينا صديق بلا استئذان ثم اعتذر بقولهِ انهُ توهم اننا اذنا لهُ في الدخول فاضطررنا ان نرجئ الحديث الى فرصة اخرى

الفصل الثالث عشر

بداءة الازمة

التفت السر صموئيل لوكاس الى ساعة كهربائية قائمة امامهُ وقال كيف يتأخرون عن الميعاد مضي ثلاث دقائق . ثم ضغط زرًّا كهربائيًا فدخل فتى عليهِ ثياب مقصبة الحواشي وقال نعم يا مولاي · فقال لهُ السر صموئيل الم يقل المستر جوزف والمستر ارنست انهما يحضران في الميعاد · وقبل ان يتم كلامهُ وقف بالباب رجلان في سن الكهولة احدهما نحيف الجسم اصفر الوجه خفيف العارضين والآخر بدين احمر الوجه جاحظ العينين فنهض السر صموئيل لهما وصافحهما فجلسا عن جانبيهِ وخرج الخادم واقفل الباب

ففتح السر صموئيل درجًا واخرج منهُ رزمة من المكاتيب بعضها بالعبرانية وبعضها بالايطالية وبعضها بالفرنسوية وبعضها بالانكليزية · وجعل يقرأ عليهما المكتوب بعد المكتوب · والنحيف منهما وهو المستر جوزف ينتف شاربيهِ ولحيتهُ والسمين وهو المستر ارنست يمص الدخان من سيكار غليظ في فيهِ ثم يطلقهُ في الهواء فيصعد دوائر كأَنهُ حلقات الاثير في رأي لورد كلفن

والمكاتيب من مصر من القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة والفيوم وهي تصف افتضاح السر ووقوف الحال وتنذر بالسوء وتدل على ان في البلاد حركة مثل الحركة العرابية تمامًا وهي في مبدإِها

ولما اتى على آخرها قرأَ كتابًا من لورد مكنزي يلومهم فيهِ على تأخرهم في اصدار اسهم شركة قارون ويقول لعلنا اضعنا الفرصة فان كل الذين اكتتبوا هنا في مصر يقولون اننا اذا طلبنا الاكتتاب العمومي الآن لا نجد في مصر عشرة يكتتبون معنا واخاف ان تكون الحال كذلك عندكم ثم ان السنديكات قد انفق كل امواله وان لم ينجح الاكتتاب اضطرَّ الى توقيف العمل وضاعت عليهِ الاموال التي انفقها وقد بلغت حتى الآن نحو عشرين الف جنيه عدا الثلاثين الفًا التي اعطاها لاصحاب الامتياز ولا يبقى لديهِ الأَ عشرة آلاف جنيه من الستين الفًا التي هي رأس مالهِ

ولما قرأَ هذا الكتاب جعل السمين من الرجلين يكثر من مص الدخان واطلاقهِ والنحيف من نتف عثنونهِ واخذ السر صموئيل ينظر تارة الى سقف الغرفة التي هم فيها وتارة الى الاوراق التي بين يديهِ واخيرًا تكلم النحيف فقال

اتتني ايضاً مكاتيب خصوصيَّة تؤيد مكاتيبك ولا بد من المبادرة الى اغتنام هذه الفرصة قبلما يشيع الخبر ولابد ايضاً من ذهابي الى باريس بنفسي للاتفاق مع السماسرة وانما تدبران الامر معهم هنا . كم عندنا من الاهلي والزراعي والعقاري والدائرة والواحات والدلتا واللوكندات المصرية . ففتح السر صموئيل دفترًا كبيرًا امامهُ وقال عشرة آلاف من الاهلي وخمسة عشر الفًا من الزراعي واثنا عشر الفًا من الدائرة ومئة الف من الواحات وتسعة آلاف من الدلتا واربعة آلاف من اللوكندات وهي تضرّب معاً بنحو ستمائة وخمسين الف جنيه حسب السعر الذي اشتريناها بهِ وتساوي الآن حسب الاسعار الحاضرة مليونًا و٢٧٠ الف جنيه . وعندنا ايضاً ودائع تساوي نحو مليونين من الجنيهات وتصريفها موكول الى ارادتنا والرجل مصرٌّ على الاستعفاء وسيعلن ذلك في مجلس النواب بعد ثلاثة ايام . ثم التفت الى المستر ارنست وقال لهُ اتفق انت مع سماسرة البيع وبيعوا الى حد ثلاثة ارباع الاسهم واتفق انا مع سماسرة الشراء فنشتري مقدار ثُمنها . والتفت الى المستر جوزف وقال لهُ فوّض الى سلمون وابراهام ان يبيعا الى حد الثلث وفوّض داڤيد وجماعتهُ ليشتروا قليلاً ولكنني لا اظن اننا نفلح في باريس لان الفرنسويين يعرفون كل شيء قبلنا وهم ابعد من الانكليز نظرًا في العواقب وعلى كل حال لا بدَّ لنا من ان نتظاهر مع المشترين لكي لا نكسر السوق اما الموحد وسائر سندات الحكومة فلا خوف عليها واذا عرضت بنزول اثنين او ثلاثة فلا بأس بالمشترى ولم يكد يتم كلامهُ حتى نظر الثلاثة معاً الى الساعة الكهربائية ونهضوا

وكان اليوم التالي يوماً مذكورًا في الاوراق المصرية لم تشاهد بورصة لندن وباريس مثلهُ وقف سماسرة البيع وسماسرة الشراء داخل السياج وتكأكأ الناس عليهم وكانت جرائد المساء قد نشرت خبرًا من مؤداهُ ان انكلترا اتفقت مع فرنسا على بسط حمايتها على مصر نهائيًّا . ذكرت الخبر كاشاعة من باريس ولم تكفل صحتها — سطرًا واحدًا نُقد بعضها عليهِ الوفًا من الجنيهات ونقلتهُ عنها الجرائد الفرنسوية وقرأهُ المشتغلون بالاوراق المالية قبلما فُتحت البورصتان ولم تكذبهُ جرائد الصباح فاشتدَّ الحماس وتهافت الناس على مشترى الاوراق المصرية في بورصة لندن فارتفع الاهلي من ٢٤ جنيهاً الى ٢٧ والزراعي من عشرة جنيهات الى اثني عشر جنيهاً والدائرة من ٢٢ الى ٢٩ وتبعتها بقية الاسهم الصغيرة وتابعتها بورصة باريس وبلغ الجنون حدَّهُ في بورصتي مصر والاسكندرية . والمطّلعون على دخائل الامور وقفوا مدهوشين لا يصدقون عيونهم وآذانهم وانخدع بعضهم فاعتقد انهُ مخطيء في رأيهِ وان الاحوال سائرة من حسن الى احسن وانهُ لا بدَّ من استمرار هذا الارتفاع في

الاسعار فاندفع مع المشترين وفي آخر النهار بردت السوق قليلاً . وجاء في جرائد المساء ان بعض الذين ربحوا بارتفاع الاسعار مما اشتروهُ في النهار خففوا مراكزهم في المساء وهذا سبب ما حدث من الهبوط القليل وبشَّرت تلك الجرائد بصعود في اليوم التالي . ومضى يومان والاسعار تتراوح بين الصعود والهبوط . وفي مساء اليوم الثالث وقف رئيس مجلس النواب وقال اني اخبر هيئة المجلس والاسف ملء فؤادي ان وكيل حكومتنا في القطر المصري مضطر الى الاستعفاء تبعاً لمشورة الاطباء . وقرأَ رسالة منهُ في هذا الصدد ثم عاد الى اطراء اعمالهِ واخلاقهِ وفضّلهُ على كل رجل من ابناء الامة البريطانية الذين اعلوا منارها

فاخذت اعضاء المجلس دهشة وقال واحد من المتطرفين لجارهِ الم اقل لك اننا نرى النهاية قريباً فقال جارهُ اذًا هذا هو سر الحركة التي رأَينا في البورصة منذ ثلاثة ايام الى الآن يا خراب بيتي وفقر عيالي

وأُعلن الخبر في مجلس الاعيان ايضاً فكانت الدهشة اشد . وقال احد الاعيان لجارهِ لورد بري اذًا سيأتي وينازعنا مراكزنا فقال لهُ جارهُ اذا صحَّ ذلك فستضيع كل اموالنا التي وضعناها في مصر كيف عرف ذلك اولئك الشياطين سماسرة البورصة . خربونا خربونا . عندي اسهم وسندات بستين الف جنيه واشتريت اليوم بعشرين الف جنيه باعلى الاسعار اشتريت البنك الاهلي بثمانية وعشرين جنيهاً والدائرة بثمانية وعشرين ايضاً لا بدَّ لي من الذهاب الآن الى السمسار والاتفاق معهُ على البيع غدًا قبل هبوط الاسعار . قال ذلك وخرج من المجلس وركب مركبتهُ وذهب توًّا الى مكتب السمسار فلم يجدهُ في مكتبهِ فعاد الى قصرهِ وجلس للعشاء مع زوجتهِ وهو لا يكاد يستطيع ان يفتح فاهُ وينطق بكلمة فسألتهُ زوجتهُ عن امرهِ فاخبرها بواقعة الحال وكان من فقراء الامراء واموالهُ لزوجتهِ ولا يزيد دخلها على ثمانية آلاف جنيه في السنة وثمن ما عندهُ من الاسهم المصرية يبلغ نصف هذه الثروة وكانت زوجتهُ قد عقدت النيَّة على الذهاب معهُ الى اسوج ونروج وقضاء شهرين من اشهر الصيف هناك واوصت جوهريًا على عقد من اللؤلوء لا يقلُّ ثمنهُ عن ستة آلاف جنيه ورسم لها المهندس قصرًا جديدًا تبلغ نفقات بنائهِ عشرين الف جنيه فاضطربت في امرها واسقط في يدها حتى كاد يغمى عليها ثم قالت لهُ الم اقل لك ما لنا وللاوراق المصرية الم اقل لك ان ابي خسر بها خسارة كبيرة قبل الاحتلال الم اقل لك مالنا وللمخاطرة باموالنا القليلة

ثم انتبهت الى انهُ لا فائدة من هذا الكلام الآن بل تزيد بهِ نغص زوجها فصمتت برهة ثم تبسمت وقالت لهُ لا بأس يا تشارلي بعْ هذه الاوراق باي سعركان غدًا وانا عدلت

عن السفر وعن العقد وعن البناء ولا اظن اننا نخسر اكثر من عشرين الف جنيه فنوفرها من القصر والعقد ويجب ان نتعلم من هذا الدرس ان لا نخاطر ابداً

وقضيا بقية السهرة ولم يتكلما الاَّ قليلاً وذهب لورد بري الى سريرهِ وكأن كابوساً على صدرهِ يكاد يخطف انفاسهُ فجعل يتقلب في فراشهِ ويحاول التنفس فيرى صدرهُ ضيقاً مضغوطاً وافكارهُ مضطربة تذهب بهِ الف مذهب في الدقيقة من الزمان ولا تستقر على حال فنهض وفتح شباكاً واطل منهُ الى ان برد رأسهُ ثم عاد الى سريرهِ واخذ يحسب ما عندهُ من الاسهم وكم يمكن ان تبلغ خسارتها وهو يلوم نفسهُ لانهُ تصرَّف باموال زوجتهِ ولم يكن يشكُّ في حبها لهُ وفي انها لم تقصد تعنيفهُ ولكن كلامها ثقل عليهِ وحاول النوم ولكن طار النوم من عينيهِ وانتقل بافكاره الى ايام صباهُ وما مر بهِ من العبر وكيف اضاع تلك الايام في اللهو والشهوات الى ان ضعف جسمهُ وانتهكت قواهُ ونفدت امواله واضطر اخيرًا ان يتزوج امرأة اكبر منهُ سناً طمعاً بمالها لكي يحفظ مقامهُ بين اقرانهِ. ومرَّت امام ذاكرتهِ البنات اللواتي منَّاهنَّ بالاقتران بهِ ولو لم يكن بوعد صريح ولاسيما الفتاة التي هربت معهُ الى ايطاليا ومرضت فيها فدفنها في مقبرة ميلان

وكانت هذه الافكار تمرُّ في ذاكرتهِ تباعًا دراكاً كخيل الرهان او تسير سيرًا وئيدًا كأنها النياق يحملن جندلاً او حديدًا فلا السريع يروي غلة ولا البطيء يكشف غمة. وجعل وريدا صدغيهِ يضربان كالمطارق الى ان كثر الفضول في دمهِ وفعل بهِ فعل الافيون فخدر مشاعرهُ الواحد بعد الآخر وامسى جثة لا حراك بها وكان قد مضى من الليل ثلثاهُ ونهض عند الضحى خائر القوى فقابلتهُ زوجتهُ بأسمة ولم تذاكرهُ في الاسهم ولكنهُ شعر كأن كل لحظة من لحظاتها سهم في فؤادهِ فتأوه على الثروة الطائلة التي اضاعها بطيشهِ في زمن الصبا ولكن التأوه لا يردُّ فائتاً

وظهرت جرائد الصباح وفيها خبر استعفاء وكيل انكلترا فطنَّت لهُ الآذان واسقط في يد الذين اشتروا اوراقاً مصرية في الثلاثة الايام الماضية لانهم اشتروها بثمن فاحش وقام في اذهانهم حينئذٍ ان سعرها سيهبط كثيرًا فتهافتوا على البيع في ذلك اليوم ولم يجسر احد ان يسند السوق فهبطت هبوطاً فاحشاً وبلغ الهبوط في بعض الاوراق نحو ثلاثين في المئة في يوم واحد

ولكن الخسائر التي اصابت الناس في البلاد الانكليزية لا تعد شيئاً في جنب ما اصابهم في القطر المصري فان السماسرة حسَّنوا للناس ان الاسعار كلها ستستمر على الارتفاع وسهلوا عليهم المضاربة وساعدتهم البنوك عليها وانشيء بنكان او اكثر لتسليف النقود لاجل

المضاربة فصار الذي معهُ عشرة جنيهات يشتري بها ما يساوي خمسين جنيهاً واغري الناس بالارتفاع الذي توالى في الشهرين السابقين فاعتقدوا انهُ يسير على وتيرة واحدة فلم يحجم احد عن المضاربة وصار من يستهجنها يخشى ان يجاهر باستهجانها بل صار مَن يُعد جاهلاً بالنسبة اليهِ يعيّره لانهُ لا يعرف اساليب الشغل والكسب . ولما رأى ان كل معارفهِ اشتغلوا وربحوا استجهل نفسهُ ايضاً وحاول مجاراتهم حتى لم يسلم احد من الوزير الكبير الى البقال والغسالة . فكم من وجل رهن اطيانهُ او باع املاكهُ او استدان بطريقة اخرى واشترى اسهماً باضعاف ما معهُ من النقود وكم من امرأة قصدت السمسار واعطتهُ كل ما اقتصدتهُ في حياتها وذخرتهُ لشيخوختها فابتاع لها اسهماً بما يساوي اضعاف النقود التي سلمتهُ اياها . وكم من تاجر اهمل تجارتهُ وجمع كل النقود التى استطاع جمعها واشترى بها ارضاً بوراً لا تساوي شيئاً في غير هذا الوقت . وبعض موظفي الحكومة ادعوا المرض حتى احيلوا على المعاش وجعلوا يقضون الوقت في ساحة البورصة . وكانت الظواهر كلها تدل على ان اسعار كل شيء آخذة في الارتفاع الى ما لاحدّ لهُ . وبينما الناس غائصون في بحر الاوهام وهم يحسبونهُ ذوب اللجين وبانون احكامهم على الاحلام وهم يظنونها الحق اليقين جعلت الاسعار تهبط في لندن وباريس فذعر الناس في مصر وتهافتوا على البيع وحاول البعض ان يمسكوا السوق بالمواعيد والاماني ولكن الذعر استولى على النفوس فتدهورت الاسعار تدهوراً وهبط بعضها من عشرين جنيهاً الى ثلاثة جنيهات او اربعة والاسهم المعدودة من الطبقة الاولى كالاهلي والزراعي هبطت عشرة في المئة الى عشرين في المئة فطارت اموال الفقراء الذين اشتروا باضعاف ما عندهم

امرأة معيشتها ومعيشة بيتها من ابرتها جمعت في حياتها مئتي جنيه فاشترت بها خمسين سهماً من اسهم البنك الاهلي على امل ان يزيد ثمنهُ اربعة جنيهات فتتضاعف نقودها فهبط السهم اربعة جنيهات في يومين فخسرت كل غرش عندها ثم زاد الهبوط في اليوم الثالث فطالبها السمسار بما زاد لهُ عندها من الخسارة وقس عليها كثيرين من الذين سيقضون بقية عمرهم في الهم والتعب والنصب والتقتير ليفوا الديون التي تراكمت عليهم في بضعة ايام . وتدرج الهبوط الى اراضي البناء فالذي كان يحسب انهُ ربح بصفقة واحدة عشرة آلاف جنيه امسى واصبح فاذا ربحهُ كلهُ قد اضمحل واشرف على الخراب واستولت الكآبة على الناس فلم تعد ترى الا وجوهاً كاسفة واناساً يندبون حظهم او يمنون انفسهم بتغير الحال ويبيتون بين الهموم والاحلام فلا هم يقطعون بالخسارة ولا بالنجاة منها ولا بفرج قريب او بعيد . يعللون انفسهم بالاماني ساعة ثمّ تتغلّب المخاوف عليهم فتوقعهم في القنوط

الفصل الرابع عشر

السر الخفي

الامور المذكورة في الفصل السابق علمتها وسمعت بها وانا مشغول البال بامر اهم منها مشغول بامر لهُ المساس الاكبر باستقلال البلاد وكنت اود ان لا اذكر كلمة عن هذا الامر لولا علاقتهُ بالامور المذكورة في الفصل السابق فانهُ هو مسببها والمحدث لها وقد ذكرتهُ هنا لكي اجلو بهِ احدى غوامض التاريخ

دعيت للعشاء عند لورد هارفي كما تقدم في فصل سابق وكانت الساعة العاشرة صباحاً حينما فارقني المستر مكنزي ومضى ذلك النهار وانا اشعر كمن يكاد قلبهُ يطير من بين جنبيهِ لا لانني لم آكل على مائدة لورد قبل ذلك فانني اكلت على موائد الوزراء واكلت مرةً على المائدة الخديوية ومراراً على مائدة لورد مكنزي بل لان ايتمان لورد هارفي اياي ووضعهُ هذه الثقة بي جعلاني استكبر نفسي واستعظم شأني هذا من الجهة الواحدة ومن الجهة الاخرى لم اكن اصدّق ما اخبرني بهِ المستر مكنزي وكنت احسب انهُ هو ولورد هارفي مخدوعان وقد خدعهما رجل داهية لغرض سياسي او مالي وكنت افكر في كيف اظهر خداعهُ وفرضت كل الفروض التي يمكن ان تفرض في هذه الحال ثم لمت نفسي لتعجلي في البحث عن امر ساقف على حقيقتهِ بعد ساعات قليلة ولكن المرء مفطور على فرض الفروض وكشف الغوامض

وزارني ابرهيم بك عصر النهار فاجتهدت لا ستلمح منهُ شيئاً عما اخبرني بهِ المستر مكنزي فوجدتهُ لا يعرف شيئاً صريحاً ولكنهُ يعلم ان البلاد مضطربة او ان فيها حركةً قوية واناساً يدسُّون الدسائس لا لغرض حميد وقال لي انهُ لا يفهم كيف ان المحتلين يقرّبون اليهم فلاناً وفلاناً وفلاناً وهم من دعائم رجال الثورة ولا كيف يثقون بهم وهم عاملون على اثارة الفتنة في البلاد ولا يفهم ايضاً كيف دخل مناصب الادارة والقضاء اناس لا يضمرون للمحتلين غير البغضاء حتى بعض الانكليز الذين في تلك المناصب يجاهرون بتسفيه رأي حكومتهم وتخطئة سياستها . فقلت لهُ وما رأيك في غير الانكليز من الاجانب لاني احسب انهم هم العاملون على اثارة الفتنة فقال ان معرفتي بهم قليلة ولكن يبلغني ان رجلاً المانياً يكثر الاجتماع بالناقمين على المحتلين. فعرفت من يعني ولكنني لم اصدق ان لذلك الرجل يداً في ما بُلّغت عنهُ

ولما طال الكلام في هذا الموضوع خفت ان يملهُ ابرهيم بك فحولتهُ الى البحث عن

الاراضي الزراعيّة والمضاربات وشركة قارون وانتقلت الى الكلام على اولاده وسألتهُ هل صمموا النية على السفر الى اوربا فقال انهم لم يصمموا حتى الآن لانهم اشتبكوا باشغال مالية كبيرة يريد تخليصهم منها قبل السفر ولا يعلم هل يستطيع ذلك فان امينًا اشترى كثيرًا من اراضي البناء في هذين اليومين بغير مشورتهِ وعلى ضد رأيهِ اشتراها لا لحاجتهِ اليها بل بقصد المتاجرة وان شئت فقل المضاربة واذا اراد ان يبنيها لاستغلال ربعها لزمها الوف كثيرة من الجنيهات لانها الفا متر في الاسماعيلية وبضعة الوف في الدمرداش وقد وضع فيها كل دراهمهِ ودراهم اخيهِ وكتب عليهِ سندات بالباقي من الثمن ومن المحتمل او المرجح ان اسعارها ترتفع ايضاً خلافاً لرأيهِ ولكن اذا هبطت كما يخشى فالخسارة كبيرة جدًّا

ثم قال وفوق ذلك فان مسألة مس برون شغلت بالنا

فقلت وما هي مسألتها فاني استغربت كيف اني لم ارها عندكم منذ ايام

فقال نعم لم ترها وقصتها غريبة وطويلة فشرفنا الليلة فنقصها عليك نزهة لانها وقفت عليها كلها

فقلت اني مدعو الليلة للعشاء في مكان آخر ولكني سأتشرف بعد يومين او ثلاثة

ثم قام ليذهب ودعاني لاخرج معهُ في مركبتهِ للنزهة فلبيت طلبهُ شاكرًا وسرت معهُ في طريق الجزيرة والجيزة الى سكة الاهرام متنزه اهالي القاهرة في هذه الايام . فقد كان متنزههم منذ عشرين عامًا سكة شبرا كان الخديوي السابق يذهب اليها كل مساء ليتبعهُ نخبة السكان بمركباتهم لكي يحيوهُ ويرى بعضهم بعضًا لا بقصد النزهة واستنشاق الهواء النقي لان المتنزهين لم يكونوا يستنشقون الاَّ غبارًا تثيرهُ المركبات . ثم انقطع الناس عن الذهاب الى شبرا بعد وفاتهِ وسكن الخديوي الحالي في سراي القبة فقصدوا دائرة الجزيرة واقاموا على ذلك بضع سنوات والمركبات تسير بهم الهوينا ذهابًا وايابًا حول ميدان الجزيرة الى ان أُصلحت سكة الاهرام فصاروا يقصدونها بمركباتهم ويرجعون في المساء وقد اكتست وجوههم وايديهم كساء من الغبار بل نفذ الغبار ثيابهم وكسا ابدانهم . وزاد الطين بلة بمجيء هذه الاتوموبيلات او السيارات فانها ضربة العمران لاثارة الغبار زوابع واعاصير ولا سيما سيارات الشبان الذين يتسابقون بها في يوم جف ماء الرشّ فيهِ فلم تعد ترى في ذلك الطريق غير سرادق الغبار ولم تعد تشم غير روائح الزيوت الكريهة التي تشعل في السيارات . اما حديقة الجيزة التي كانت تعطر الارجاء بشذى اريجها فقد مدَّ عليها

مظاهر الخراب هُدم سورها ودُكّ قصرها ويبست اشجارها ورياحينها . ذلك القصر البديع قوّضت اركانهُ واقتلع رخامهُ وامسى ركاماً من الانقاض وتلك الحديقة الغناء يبست خمائلها ولم يبقَ من اشجارها غير العذبة التي وصلت جذورها الى النيل

وقد رأيت ذلك مراراً في الشهر الماضي ولكنهُ لم يؤثر في نفسي كما اثر تلك الساعة فان ابرهيم بك كان مشغول البال على ما يظهر فلم يتكلم الاَّ قليلاً وانا كنت قلقاً فلما وقع نظري على خرائب القصر وتذكرت ما كان عليهِ منذ عشرين عاماً وما كان فيهِ من فاخر الاثاث والرياش — بسط الغوبلين الفاخر الذي يندر مثلهُ في قصور الملوك وثريات البلور الكبيرة التي لا يدفع ثمنها الاَّ امير لا قيمة للمال عندهُ كاسمعيل ثم صيرورتهُ متحفاً لآثار الاولين ومعرضاً لما خافوا عليهِ من عيون الانام فغيّبوهُ في غيابات الجبال واخفوهُ تحت صم الجنادل ولكن ابى الدهر الاَّ أن يفشي سرهم ويكشف سترهم فاستخرجت تلك الرفات من باطن الارض بعد ان استراحت فيها الوفا من السنين وعرضت لعيون اهل الشرق والغرب وابى طمع الانسان ان يبقيها مستريحة في قصر ملكي تُتذكر بهِ مجدها السالف فابتاع القصر هادموهُ وخرّطوا لارضهِ الخرائط وباعوها قصد بناء المنازل والاكواخ ولا يعلم الاَّ الله متى يعود اليها العمران

وبلغنا سكة الاهرام وشاهدت حقول الحنطة على الجانبين تموج كالبحر الزاخر

فقال لي ابرهيم بك انظر بعهدك هل رأيت مثل جنون الناس في هذه الايام . هذه الحقول التي خلقت لزرع الحنطة ولم تستعمل لغير الزرع من حين اوجدها النيل وكان فدانها لا يساوي عشرين جنيهاً منذ عشر سنوات يبعت الآن بالمتر للبناء فهل عزم الناس على هجران بيوتهم في المدينة وبناء غيرها في هذه الحقول وفي اراضي الدمرداش والقبة والزيتون والمطرية وروض الفرج وكل ارض زراعية حول العاصمة بل في الصحراء الشرقية والجنوبية

فقلت صدقت اني مثلك لا ارى مسوّغاً لهذا العمل واخاف ان يتداعى قريباً

فقال ولماذا تخاف من ذلك هل انت سامع شيئاً

فقلت كلاَّ ولكن لم يحدث تغالٍ مثل هذا في بلاد من البلدان الاَّ عقبهُ الهبوط والفشل

فقال وما قولك في جو السياسة فان الدلائل لا تسرني وهي الآن كما كانت قبل الثورة العرابية تماماً وتنذر بشر قريب

فحاولت ان اكتشف منهُ شيئاً عما اخبرني بهِ المستر مكنزي فوجدت انهُ خالي الذهن

من هذا القبيل ولكنهُ شعر شعورًا عامًا باضطراب الحال و بان تحت الرماد وميض نار . وشاهدنا السيدة نزهة واخاها في مركبة اخرى فتبسمت لي كأنها الزهرة طلعت من خلال الغيوم ولم تلبث الاَّ طرفة عين لانها لم تكد تنظر اليَّ حتى اطرقت وابعدت بها المركبة عن نظري فنسيت الموضوع الذي كنت اكلم اباها فيهِ ونسبت معهُ لورد هارفي واضطراب الاحوال وارتفاع الاسعار وكل المشاغل التي كانت تشغلني عنها وغصت في بحار الافكار ولم انتبه الاَّ والسائق يزعق و يشتم فان سيَّارة من السيارات كادت تلطم مركبتنا ولولا لطف الباري لجعلتنا هباء منثورًا لانها كانت آتية بسرعة لا تقلُّ عن اربعين ميلاً في الساعة فذعر السائق منها واراد تحويل الجواد من طريقها وكأنهُ نسي انهُ اذا ادار الجواد شمالاً فالمركبة تنحرف يمينًا وتقع في طريق الاوتوموبيل ولكن سائق الاوتوموبيل كان امهر منهُ فادرك بيداهتهِ الخطر قبل وقوعهِ وفي لحظة من الزمان ادار اوتوموبيلهُ فمرق كالسهم ولم يمس مركبتنا ولكنهُ لم يحد عنها الاَّ شعرة فحمدنا الله على النجاة وقلت في نفسي هذه هي الثانية والله ينجينا من الثالثة

ولبست في المساء وقصدت دار لورد هارفي فلاقاني غلام الى الباب واخذ ورقة الزيارة مني ووضعها في صحن من الفضة ودخل ونادى باسمي بصوت جهوري ثم فتح غلقي الباب الداخلي ونهض لورد هارفي لاستقبالي ودخل المستر مكنزي حينئذٍ وصافحني ولم يستقرَّ بنا المجلس حتى قرع جنك العشاء وجلسنا على المائدة وحدنا وافتتح لورد هارفي الكلام فقال

اخبرني المستر مكنزي عنك واظن اني صرت اعرفك كما يعرفك هو وقد فهمتُ منهُ انك تفضل الحالة الحاضرة لبلادك على كل حالة سواها اي ان نبقي البلاد لاهلها ونساعدهم مساعدةً في اصلاح شؤُونها وتربية ابنائها الى ان يصيروا كفئًا لتولي شؤُونهم بيدهم كما نتولى نحن شؤُوننا بيدنا في بلادنا . ولا يخفى عليك ان عشرين سنة وثلاثين سنة لا تكفي لتربية امة على الحنكة السياسيَّة ولاسيما اذا كان بين ظهرانيها اناس كثيرون من امم مختلفة ولكلّ منهم مصالح خاصَّة ومصالحهم تضارب مصالح اهل البلاد فان الرجل السياسي منا ينتقل من وكالة سياسيَّة الى اخرى ويتدرَّج من منصب الى آخر عشرين سنة او ثلاثين سنة حتى يعلمهُ الاختبار وتحنكهُ التجارب فيشيخ وعمرهُ عشرون سنة ولا يصلح ان يصير سفيرًا الاَّ بعد ان يصير عمرهُ خمسين سنة او اكثر . وانتم لو تركناكم وشأنكم فمن المحتمل ان تستطيعوا السير وحدكم ولكن المرجح ان الذين لهم مصالح كبيرة في بلادكم يغلبونكم على أمركم . ولو كنتم في بقعة من الارض بعيدة عن اوربا او لو لم يكن للاوربيين مصالح مالية كبيرة في

بلادكم لكان الامر اهون عليكم جداً اما وانتم في الحالة التي وجدناكم فيها فيستحيل عليكم ان تنجوا من سيطرة الاوربيين بل تمسون تحت سيطرة دول كثيرة بدل دولة واحدة٠ وان كبار السن منكم ليذكرون كيف ان وكيل قنصل اصغر دولة من الدول الاوربيَّة كان يأمر وينهى في المديريات بل في العاصمة نفسها كأَنهُ الحاكم بامرهِ . هذا والامر كلهُ كان مفوَّضاً اليكم ولم يكفَّ الطامعون بكم اذاهم عنكم الاَّ خوفاً منا او مجاملة لنا فان لم تصيروا اقوى مما كنتم اضعافاً مضاعفةً صارت حالكم اذا تركناكم اسوأ مما كانت قبل احتلالنا لبلادكم

وكان يتكلم بكلام فصيح منسجم كأَنهُ يملي على كاتب او يخطب على منبر ويعزز معانيهُ بتقوية صوتهِ وتوضيح لفظهِ وكانت هيئة وجههِ وحركات عينيهِ تدلُّ على اخلاصهِ وصدْق طويتهِ واتفق اني كنت جالساً حيث ارى النور واقعاً على وجههِ فاستوضح ملامحهُ كلها

وبعد هذه المقدمة اخبرني بتفاصيل المؤامرة او الدسيسة وسلمني كل الاوراق المتعلقة بها ثم اعطاني اوراقاً مالية من اوراق البنك الاهلي بالف جنيه وقال انا اعلم انك في غنًى عن المال ولا تريد ان تخدم بلادك مأْجوراً وهذا سننظر فيهِ في فرصة اخرى ولكن لا بدَّ لك من استخدام اناس لنيل مرامك وهؤُلاء لا يخدمون الاَّ مأْجورين وانا مستعد لمقابلتك كل يوم خميس بين الساعة الرابعة والسادسة وفي كل يوم آخر اذا دعت الحال بعد الساعة التاسعة مساء٠ فاخذت الاوراق كلها ووعدتهُ بان اطَّلع عليها واكتب خلاصتها واردها اليهِ وودَّعتهُ وانصرفت

الفصل الخامس عشر

الاستاذ المبلّغ

رجعت من بيت لورد هارفي الساعة الحادية عشرة وفتحت الاوراق والتقارير السرية وهي طويلة فلم استطيع استيعابها في اقل من ساعتين ولم اكد اصدق عينيَّ لما رأَيت اسماء المشتركين في تلك المؤَامرة وكنت اعد بعضهم من اصدقائي او من الذين انا وهم على معرفة تامة ووفاق تام ولا سيما لما رأَيت اسم امين افندي ابن ابرهيم بك بين اسمائهم فدهشت من ذلك واستعظمتهُ ونهضت الى سريري لعلي أُمتع براحة النوم فاريح دماغي . ولم اكد اضع رأْسي على وسادتي حتى غلب عليَّ سلطان الكرى على غير ما انتظرت ولم استيقظ الاَّ وقد تضخوت واظنني حلمت بالثورات والمذابح ولكن لم يبقَ منها في ذاكرتي

الا اثر طفيف نسيتهُ كلهُ بعد ساعة من الزمان

وكان لورد هارفي قد فوض اليَّ ان استخدم من اشاء وآتمن من اريد . وكنت قد عرفت اسم المبلغ وأُخبرهو اني مؤتمن على كشف هذه المؤامرة واحباط مساعي اصحابها وطُلب منهُ ان يأتي اليَّ و يساعدني بكل ما اطلبهُ منهُ وكذلك أُمر حكمدار العاصمة ان يفعل كل ما اشاء

وجاءني المبلغ نحو الساعة العاشرة صباحاً واسمهُ صائب بك فرحبت بهِ وطلبت منهُ ان يقص عليَّ كيف اكتشف هذه المؤامرة فقال اني لست اول من اكتشفها وهي لم تكتشف اكتشافاً ولكن احد المشتركين فيها اطلعني على سرهم ولعلهُ فعل ذلك مخدوعاً او مستهوًى فاني لحظت منذ شهرين او ثلاثة ان اناساً مختلفين يترددون على دار في عطفة من عطفات باب الخلق وكنت ساكناً بالقرب من تلك الدار وبيتي يطل على مدخلها ولكن مدخلهُ من عطفة اخرى في شارع آخر فكنت ارى الذين يدخلون تلك الدار و يخرجون منها وهم لا يرونني وكثيرًا ما شاهدت بينهم اناساً من الطبقات العليا من سكان العاصمة ومن الاقاليم وبعضهم من الاجانب مستوطني مصر وكنت ارى بينهم استاذًا اعرفهُ و يعرفني فظننت في اول الامر ان هناك نادياً علمياً لكنني لم ارَ لهُ ولا لما يتلى فيهِ ذكرًا في الجرائد وانت تعلم ان الناس في مصر لا يتكلمون كلمة في نادٍ من الاندية الا ويرسلون بها الى الجرائد لتنشر فيها وقد تنشر قبلما تقال حتى لا تفوت الفائدة احدًا . فاستغربت ذلك ورغبت في كشف الامر وجعلت اراقب الآتين الى تلك الدار من وراء شباك مشبَّك واكتب اسماءهم في دفتري فرأيت انهم لا يزيدون على ثلاثين يتردد بعضهم دائماً و بعضهم احياناً وغالب مجيئهم اليها بين الساعة الخامسة والسادسة بعد الظهر وقد يأتون في المساء وقلما يدخلها اثنان معاً

ولما ترجح لي ان المجتمع ليس نادياً علمياً او ادبياً ظننت انهُ مكان للمقامرة لكنني كنت ارى بين الحضور اثنين من البخل خلق الله وظننت ان البخل والقمار لا يجتمعان

والتقيت بذلك الاستاذ في احدى القهاوي وتجاذبنا اطراف الحديث وتمنيت امامهُ انشاء نادٍ ادبي نجتمع فيهِ للخطب والمذاكرات العلمية والادبية فتمنّى ذلك مثلي وذكر حاجة البلاد الى مثل هذه المجتمعات التي توسع المعارف وتؤلف ما بين القلوب ولم يشر الى اجتماعهم بكلمة ولا بحرف فسقيتهُ على حسابي واشرت الى مركبة لاذهب فيها للنزهة ودعوتهُ للذهاب معي فاجاب دعوتي شاكرًا وجعلنا نتكلم عن رجال مصر وذكرت واحدًا من الذين رأيتهم يترددون على تلك الدار واثنين او ثلاثة من غيرهم لأرى تأثير ذلك في

وجههِ فلم ارَ اقل دلالة على ما كنت اتوقعهُ فغيرَّت الموضوع وجعلت اتكلَّم عن حال مصر العموميَّة والنجاح الباهرالذي نجحتهُ فيهذهِ الاثناء . فتأوَّه وقال الا تظن انهُ كلهُ سطحي ها ألا ترى ان امرنا ليس في يدنا نعم ان امرنا لم يكن في يدنا قبل الاحتلال ولكن انتم الاتراك منا وفينا يأتي الرجل منكم ويقيم في البلاد ويتزوج من اهاليها ويصير منهم لهُ ما لهم وعليهِ ما عليهم اما هؤلاء الاجانب فيستنكفون من الاختلاط بنا ولا يمكن ان يصيروا منا ولا ينفكون عن حسبان انفسهم سادة لنا وانا اعلم انك من اصدقائهم ولا استغرب ذلك لانك من الناقمين على حكومتكم ولكنك لو جرَّبت سلطة الاجنبي لفضلت جور اخوانك على عدلهِ . هذا ونحن الآن في الرقارق ولا نعلم ماذا يفعلون بنا متى وصلنا الى الغمقات وامنوا اعتراض الدول عليهم

فتبسمت وقلت لهُ متى صرت في هذا الحماس كلهِ ألم يرقِ دوك هذه السنة

فقال لا وقد زودوا فلانًا وفلانًا دوني

فقلت ومن الملوم المستشار ام الناظر

فقال لا هذا ولا ذاك بل ناظر مدرستنا فانهُ يطلب الزيادة للذين يريدهم

فقلت اليس هو وطنيًّا

فقال بلى وطني واي وطني

فقلت اذًا دود الجبن منهُ وفيه

فقال الحق بيدك ولكن الحركة افضل من السكون وكل الذين تحرَّكوا استفادوا انظر الى فلان وفلان فانهم رقوهم كلهم تسكيتاً لهم

فقلت لهُ يا سلام الى هذا الحد

فقال اقول لك الدنيا كلها مصالح وما من احد الاَّ ويخدم مصلحتهُ

وكأَنهُ افاق الى نفسهِ او خاف من انتقادي عليهِ فقال ولكن يجب ان نضع خدمة الوطن فوق كل خدمة

فلم ارد ان اضيع هذه الفرصة بالانتقال الى الكلام المصنع الذي لا يستدل منهُ على شيء ولا يعبّر عما في النفس فحولتهُ الى الكلام الهزلي وقلت

اين الوطن واين محبة الوطن مصالح كلها مصالح يا اخي وكلهم تجار يتاجرون بنا قصد الكسب هل تعتقد ان فلانًا الذي يضرب على هذه النغمة دائماً في قلبهِ ذرة من حب الوطن الا يمكنك ان تبيعهُ وتشتريهُ بالقرش اسكت يا اخي اسكت ولا تقل لي وطن ووطنية

فقال الحق في يدك ولكن كيف العمل والذي لا يغني على هذه النغمة يكفرونهُ

فقلت اي سنة اعطوك آخر زيادة

فقال منذ ثلاث سنوات وكان دوري في الزيادة هذه السنة فاعطاها ناظر المدرسة لزوج اختهِ والمستشار مثاله ولا احد يستطيع ان يصل اليهِ ولا ان يشكو اليهِ رأساً

فقلت لهُ اتريد ان اكلمهُ في امرك

فنظر اليَّ مدهوشاً وقال اتعرفهُ هل هو صاحبك اعمل معروف يا اخي

فقلت اني سأفعل في اول فرصة

ولما رجعنا من النزهة هزَّ يدي شديداً وذكَّرني بوعدي فاكدتهُ لهُ وفعلاً قصدت المستشار في اليوم التالي واخبرتهُ عنهُ فطلب اوراقهُ وفحصها بنفسهِ وتمكن من زيادة راتبهِ ٣٦ جنيهاً في السنة . ولم يكد الخبر يصلهُ حتى طار فرحاً وفتش عني حتى التقى بي ودعاني الى العشاء معهُ في سنت جمس وفتح لي زجاجتي شمبانيا وصرنا من ذلك الحين من اعز الاصدقاء ولم افاتحهُ اولاً بامر الاجتماع مع انني كنت اراهُ يحضر مع الحضور لكنهُ هو اشار الى عدل المحتلين اذا وقفوا على حقيقة الحال والقى اللوم على الذين حولهم الذين يرونهم الابيض اسود والاسود ابيض . فوافقتهُ على ذلك ثم قال لي هل تعرف المستشار من عهد طويل

فقلت نعم اعرفهُ واعرف كثيرين غيرهُ وارى عيوبهم طفيفة بالنسبة الى عيوبنا وجلَّ من لا عيب فيهِ ولكن الدنيا مصالح كما قلت لي ولا يبعد ان يكون لبعض الاوربيين مصالح في اخراج المحتلين من البلاد او في اكراههم على اخذها وهم يوغرون الصدور عليهم

فقال اصبت اصبت انا عارف انا اصبت اصبت

وكان قد شرب الزجاجة الاولى وكاد يتم الثانية أما انا فاكره الاشربة الروحية وكنت امص كاسي مصاً اكراماً لهُ فلما تمكنت الخمرة من رأسهِ سهل عليَّ اكتشاف كل شيء ففهمت منهُ انهُ مشترك في جمعيَّة سياسية سرية القصد منها تغيير الحالة الحاضرة باية واسطة كانت محللة او محرمة وانهم يجتمعون في دار قرب باب الخلق

وقد لمت نفسي ولا ازال الومها لانني اغتنمت فرصة سكرهِ للوقوف على سرّهِ ولكن الضرورات تبيح المحظورات . وزادت رغبتي في معرفة اسماء الاعضاء كلهم وشركائهم في اوربا والعمل الذي يقصدونهُ والوسائل المؤدّية اليهِ وقلت ان ذلك لا يتم لي الآن بالوقوف على قانون الجمعية ومحاضر جلساتها وترددت بين ان اغريهُ ليطلعني عليهِ من نفسهِ واكتفيت تلك الليلة بما وقفت عليهِ وعزمت ان ادعوهُ للعشاء في ليلة اخرى واتحيَّن الفرص وما

تكشفهُ وعدت الى بيتي وراقبت مدخل الدار في اليوم التالي فرأيت الاعضاء يفدون اليها حسب العادة وصاحبنا الاستاذ معهم فاقاموا ساعتين وخرجوا ولم اتبين وجوههم حينما خرجوا لان الظلام كان حالكاً وليس في تلك العطفة الأ مصباح ضئيل

والتقيت بالاستاذ بعد يومين وقلت لهُ الا تتعشى معي الليلة فقال كلاّ لا نني مدعو للعشاء عند بعض الاصدقاء . فقلت اذاً غداً فاجاب بالايجاب واتفقنا على ان نتعشى في سنت جمس حسب العادة وجلسنا نتكلم في مواضيع مختلفة واشرت من طرف خفي الى جمعيتهم السرية فتجاهل امرها كانهُ لم يفهم شيئاً واتضح لي حينئذٍ ان كل ما اخبرني بهِ في المرة الماضية انما اخبرني بهِ وهو تحت فعل المسكر كانهُ في حالة الذهول او الاستهواء او في حالة اخرى من حالات الدماغ غير حالتهِ العادية وطرقت الموضوع على اساليب مختلفة حتى تأكدت انهُ خالي الذهن مما جرى لهُ في سكرهِ فقلت في نفسي اذاً الشخص المسؤول للجمعية السرية هو غير الشخص الذي افشى سرها لي وكلٌّ منهما غير مسؤول عما يفعلهُ الآخر فان كان هذا الرجل قد اقسم للجمعيةً ان لا يبوح لي بسرها فقد ابرَّ بقسمهِ لان الذي باح لي هو شخص آخر غيرهُ وهذا الشخص لم يرتبط بقسم . اي ان في ذلك الرجل ادراكاً عاماً وعقلين او شخصين اديبين احدهما الذي اراهُ امامي الآن وهو المشترك في الجمعية السرية والآخر هو الذي ايقظهُ المسكر لما نوَّم هذا وهو الذي اطلعني على مدركاتهِ العمومية فما ضرني لو استخدمت هذا الشخص الآخر لمعرفة كل اسرار الجمعية وانقاذ البلاد من شرها ان كانت تنوي لها شرًّا اوكانت اعمالها تؤول الى الشر ولو عن غير قصد

ووافاني الاستاذ في الميعاد فاكلنا وشربنا واكثرت لهُ من صب الكنياك حتى غاب عن الصواب ودرَّجتهُ في الحديث الى الجمعية وما فعلتهُ حتى الآن وكنت اسألهُ وهو يجيبني طائعاً وانا اعي كلامهُ في ذاكرتي واذا خفت ان انسى شيئاً اكتبهُ في مذكرتي الى ان عرفت منهُ كل الامور التي تراها في هذه الاوراق . ولما رأيت ان المسألة هامة جدًّا لعلو شأن المشتركين فيها لم ارَ لي بدًّا من اطلاع ذوي الشأن على ذلك وباسرع ما يمكن حتى يتلافوا العلة قبل تمكنها ويردأوا الشر قبل وقوعهِ ولقد سرَّني انهم لجأوا الى الوسائل السلميّة على ما يظهر من تفويضهم الامر اليك لتنصح المشتركين بالعدول عما يعود عليهم بالوبال وانا بين يديك ولا اضن عليك بما تظنهُ واجباً لدفع هذا الشر

فشكرتهُ واعدت نظري في الاوراق معهُ واطلعتهُ ايضاً على تقارير غيرهِ من الذين اهتدوا الى شيءٍ مما اهتدى هو اليهِ ولكنهم لم يقفوا على شيءٍ من الحقائق التي وقف هو

عليها وسألته عن الاستاذ وهل يمكن الوقوف على شيء منهُ وهو صاحٍ . فقال كلاً ولا يتكلم في هذا الموضوع بصراحة الاّ وهو سكران . فضربت له موعداً نجتمع فيهِ في بيتي فودعني وانصرف

وقت عصارى النهار ومضيت الى بيت ابرهيم بك لعلي اجتمع بامين افندي واقف على شيء منهُ فقابلتني السيدة نزهة بالبشر والايناس على جاري عادتها ولم يكن في البيت غيرها والخدم وعتبت عليَّ لانني اطلت الغيبة عنهم فاكّدت لها انني كنت مشغولاً جدًّا فقالت نعم و يظهر ذلك من عينيك . ولم اكن قد انتبهت الى شيء غير عاديّ في عينيَّ فقمت الى المرآة ورأيت ان عينيَّ تكادان تغوران في وجهي فقلت لها صدقتِ سهر دائم وهمٌّ مقيم

فتبسمت وقالت سهر دائم اسمعنا الله عنك الاخبار الطيبة اين هذا السهر

فقلت بين المحابر والدفاتر كما تعلمين

فقالت عسى كتاب او رواية او تاريخ عن الفيوم وما فيها من الآثار وانا انتقده لك

فقلت انّى لي هذا الشرف وانا واثق انكِ تنتقدينهُ مثل اكبر علماء الآثار والتاريخ ولم انسَ الموقف الحرج الذي وضعتِ فيهِ المستر مكنزي لما جادلك في بحيرة قارون وسمكها

فقالت والشيء بالشيء يذكر ماذا جرى لشركة قارون فاننا لم نعد نسمع عنها شيئًا ولا ذكرها المستر مكنزي لنا . هل بلغتك قصة مس برون او السيدة مكدن فقد اكتشفنا اخيرًا انها ابنة السر هنري مكدن وهو من اغنى سراة الانكليز ومن الغريب انني قرأت خبر اختفائها في الجرائد الانكليزيّة وقرأت وصفها فيها ولكنني لم اظن مطلقًا ان مس برون الساذجة في لبسها وسلوكها يمكن ان تكون ابنة ذلك البارونت المشهور

فاندهلت من كلامها وقلت لها كيف اكتشفتم ذلك ومن اكتشفهُ نعم ان السر هنري كان في مصر وقد رأيتهُ فيها مع لورد مكنزي اخي المستر مكنزي وأرى الآن شبهًا كبيرًا بينهُ وبينها ولكن كيف لم يذكر شيء في الجرائد عن هذه المسألة

فقالت لم يكشف الامر الاّ منذ بضعة ايام فلم يفت الوقت على الجرائد لتطنطن فيهِ لا سيما وعندنا الآن ثلاث جرائد انكليزيّة

فقلت لها لا اريد ان اتعبك كثيرًا ولكن كل احد يحب ان يقف على قصّة غريبة مثل هذه فهل لك ان تقصيها عليَّ او هل اطمع ان مس مكدن نفسها تخبرني بها او هي سرٌّ مكتوم ويجب ان يبقى مكتومًا

فقالت ان القصة لا تخلو من سر وكنت اظن ان النساء وحدهنَّ يهتممنَ باستطلاع

الاخبار واكتشاف الاسرار وان الرجال يترفعون عن ذلك او تشغلهم عنهُ الشواغل

فقلت اضربي ولا ترحمي

فقالت اصبت منك اذًا مكانًا مؤلمًا

قالت ذلك واحمرّت خجلاً فنسيت المي ووددت ان ترشقني بالف سهم مثل هذا السهم وارى حمرة وجنتيها ولومها لنفسها وغلبتي عليها وقلت لها يا حبذا كل الم منكِ

فاطرقت قليلاً ثم التفتت اليّ وقالت دعنا من الهزل هل تريد ان تسمع قصتها حقيقة

فقلت ألا تظنين انني اريد ان اسمعها

فقالت انني اعرف ما يشعر بهِ البنات مثلي ولكني لا اعرف ما يشعر بهِ الرجال

فقلت الا تظنين اننا كلنا في الهوى سوى ومن منا لا يحب الوقوف على الغريب

فقالت اسمع اذًا ولا تنظر اليّ كثيرًا وانت تسمع لئلا اتلعثم

فقلت اذن اغمض عينيّ

فقالت يظهر لي انك غير مهتم بسماع القصة فلماذا اتعب نفسي

فقلت لها انت وشأنك حضر امين افندي وهو يقصها عليّ

ودخل امين افندي حينئذٍ فسلم عليّ وقال اي قصة قصة مس مكدن او مس برون اني من اول يوم وقع نظري عليها قلت ان لها قصة غريبة فلم يصدقوني . اليس الامر كذلك يا نزهة

فقالت نعم وامين اشدنا فراسة ومع ذلك هو اكثرنا انخداعاً لهذا الحزب الذي يريد ان يقلب الدنيا رأساً على عقب ولم ترشدهُ فراستهُ الى حقيقة امرهِ

فقال لها اريحي بالك يا ستي فقد صرنا تحت الف رقيب ورقيب وهذه الحال لا تخلصنا ولا بدَّ من ضرب الضربة القاضية فإما علينا وإما لنا . ولكن دعينا الآن من هذا الموضوع وهاتي اخبرينا بقصة مس برون فاني لم استوعبها ولا تتبعتها من اولها

ولما رأيت ان المقام لا يناسب لمذاكرتهِ في امر الجمعيَّة السريَّة نظرت انا ايضاً الى اختهِ نظرة المتوسل وقلت لها اننا كلنا اذان مصغية. ودخل الدكتور يوسف حينئذٍ وعرف اننا في انتظار قصة مس مكدن فقال انهُ يسمعها معنا لانها لم تخبر بتفاصيلها غير اختهِ

فانتصبت السيدة نزهة في كرسيها وتهيأت للكلام وقالت على شرط ان تلوا لي الجبوة اخيرًا فقلت نعم . فقالت اذًا اسمعوا

الفصل السادس عشر

قصة مس مكدن

السر هنري مكدن علَم لايجهلهُ احد . ومن يجهل يخت مكدن ورفّاص مكدن وفولاذ مكدن وهو صاحب المعامل الكبيرة لسبك الحديد وبناء البوارج ومخترع طريقة عمل الفولاذ وقد أُخبرت عن ثقة ان في معامله لااقلّ من خمسة عشر الف عامل فهو واسع الثروة عريض الجاه ولكنهُ لا يشبع والانكليز يعبدون الالقاب كما نعبدها نحن المصريين . وتوفيت لادي مكدن ام صديقتنا منذ عشر سنوات وتزوج ابوها في اسرة من اسر الامراء واسم حميهِ الجديد لورد مورلي وهو من اقدم الاسر النرمندية التي جاءت مع وليم الظافر الى البلاد الانكليزية لكنهُ عائش على اسمهِ لانهُ بدّد ثروتهُ . وابنتهُ لادي ايثل التي تزوج بها السر هنري كان عمرها اكثر من اربعين سنة لما تزوج بها وقد بلغت هذا السن من غير ان تجد لها خطيباً لفقر ابيها فلما تزوجت جعلت تساعد اباها بمال زوجها ولها اخ اكبر منها بنحو خمس سنوات وهو الآن في الخامسة والخمسين من عمرهِ ولم يزل عزباً وتوفي ابوهُ منذ سنتين واورثهُ لقبهُ وقصرهُ والديون التي عليهِ ولكنهُ اورثهُ اسماً طيباً وعلماً واسعاً وهو من حزب الوزارة المتصدرة الآن وقد انتظم فيها لما شكلت

ومضى عشر سنوات ولم ترزق لادي مكدن ولداً وليس لزوجها اولاد من زوجتهِ الاولى غير صديقتنا مس مكدن فاهتمت لادي مكدن بان تزوج ابنة زوجها لاخيها لتنتقل ثروة زوجها الى اهلها

ولورد مورلي انيس المحضر ولكنهُ قبيح المنظر فجعل يتردّد على بيت اختهِ ويجالس مس مكدن ويتودّد اليها ودرى ابوها بذلك فلم يستنكف منهُ لاسيما وان لورد مورلي ذكر امامهُ غير مرة ان الحكومة قد تمنحهُ لقب لورد جزاء الخدمة التي خدمها اياها بانشاء البارجتين اللتين بناهما لها في العام الماضي واعترافاً بفضلهِ في انشاء مدرسة الصنائع في بلدهِ

واكثر لورد مورلي التردد على بيت السر هنري وكانت لادي مكدن تتغيب حتى تضطر مس مكدن الى مقابلتهِ ومسايرتهِ ولكن لم يخطر ببالها قط ان رجلاً جاز الخمسين من العمر يفتكر بالاقتران بفتاة لم تبلغ العشرين . ومضت الايام وهو يزور بيت السر هنري في المدينة وخارجها وكثيرًا ما كان يركب مع مس مكدن الاوتوموبيل او يخرج معها الى النزهة راكباً فرساً الى جانب مركبتها او يخرج الاثنان راكبين فرسين وهي تنظر اليهِ كما تنظر الى

ابيها لانهُ كان من سنهِ تماماً ولم يخامر ذهنها اقل ظن بما يقصده. وكان هو حذوراً يخشى ان يجاهر بما في ضميرهِ فتنفر منهُ و يعود بالفشل ولعل كثيرين من الرجال مثلهُ

قالت السيدة نزهة ذلك ضاحكة

فقلت اذا بلغوا سنهُ وحملهم الطيش على حب فتاة لا يبلغ عمرها نصف عمرهم

فقالت وما اكثر هؤلاء في هذه الايام ولكن ماعلينا ولنعد الى القصة

واتفق ذات يوم ان خرجت مس مكدن الى النزهة باوتوموبيلها ولم يكن معها غير السائق وابعدت عن ضواحي لندن في غابة غيضاء كانت ترغب في التردد عليها واذا بآلة المركبة وقفت وامتنعت عن السير فنزل السائق وجعل يعالجها بما عندهُ من الادوات وغابت الشمس واظلم الليل وهو يحسب في كل لحظة انهُ نجح في اصلاحها ثم يديرها فلا تدور الى ان عيل صبر مس مكدن وعزمت على الرجوع ماشية ومرَّت الساعة الاخيرة من غير ان تمر مركبة في ذلك الطريق و بينما هي واقفة تفكّر في اقرب محطة او قرية تصل اليها اذا باوتوموبيل جاء نحوها مسرعاً ووقف امامها ونزل اثنان منهُ واحتملاها ووضعاها فيهِ واطلقا لهُ العنان فسار يسابق البرق ولم تغب عن رشدها مع شدَّة ما اعتراها ولكنها حُصرت اولاً عن النطق لشدة دهشتها

وكان في الاوتوموبيل رجلان فقط فنظرت الى الرجل الجالس الى جانبها مغضبة وقالت لهُ ما هذا العمل وما هذهِ الشهامة أفي انكلترا رجال يخطفون السيدات من الطريق

فتبسم وقال لها ستغيرين رأيك فينا يامس مكدن

وجعل الاوتوموبيل يدور بهم في طرق متعرجه وكان الظلام قد حلك فلم تعد ترى شيئاً ثم دخلوا باباً في زاوية حديقة وساروا فيها الى ان وصلوا الى قصر لا انوار فيهِ فنزل الرجلان من المركبة وطلبا من مس مكدن ان تنزل فابت وطلبت منهما والغيظ ملءُ عينيها ان يرداها الى بيت ابيها حالاً وجعلت تلوم نفسها لانها خرجت من غير سلاح وقالت انهُ لو كان مسدسها معها لطيّرت دماغيهما. وخطر ببالها حينئذٍ ان هذه المكيدة عليها يقصد بها قتلها لتذهب ثروة ابيها الى ابن عمها وكان شاباً خليعاً وليس لابيها وارث غيرهُ بعدها وكان حاقداً على ابيها لانهُ لا يهيل الاموال عليهِ من غير حساب وقد طلب منها ان تقترن بهِ فابت فاضمر لها الشر وتهددها غير مرة فاسقط في يدها ووقفت والعناد ملءُ عينيها والتفتت اليهما وقالت ألا تعلمان ان سائق اوتوموبيلي يكون قد وصل الى البيت واخبر رجال البوليس فيقتفون اثركم ولا بدَّ ان يلحقوا بكم حالاً فارجعوا وانا اعدكم انني انزل امام بيتنا ولا اخبر عنكم

فضحك واحد منهما وقال ايخطر ببالك يا مس مكدن اننا نفعل هذا الفعل من غير ان ندبر امر سائق مركبتكِ فان كان قد عاد الى البيت فيكون قد عاد ماشياً ولا يصل الى اقرب محطة قبل ساعتين فانزلي واستريحي واكدي اننا نكون في خدمتك ولا ينالكِ منا اقل اذى ولا نطلب منكِ الاّ ان تسلي معنا بتغيير اسمك وسندعوكِ من الآن فصاعداً مس برون ثم نادى خادمة وقال لها تعالي يالومي وخذي مس برون الى غرفتها واهتمي بامرها

فحضرت عجوز طويلة القامة بدينة الجسم جاحظة العينين خنساء الانف قصيرة اصابع اليدين تمشي الهرولاء ودنت من مس مكدن وحاولت ان تقبّل وجنتيها فدفعتها هذه عنها اولاً ثم خطر لها خاطر فندمت على ما فعلت ومدت يدها اليها ونزلت من المركبة وسارت معها

اما سائق اوتوموبيل مس مكدن فانتظر نصف ساعة ثم اخذ يمشي راجعاً الى اقرب محطة فوصلها نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً وطلب السر هنري مكدن بالتلفون واخبره بواقعة الحال وكان السر هنري قد ذهب في المساء الى مؤتمر الحديد والفولاذ لسماع خطبة من احد العلماء الفرنسويين وللمذاكرة في موضوع ذلك المجمع وانفضّ الاجتماع الساعة العاشرة فعاد الى بيتهِ ولم يدعُ احداً من اصدقائهِ الى العشاء معهُ على خلاف عادتهِ لان افكارهُ كانت مضطربة وهو لا يعلم سبب اضطرابها ودخل البيت فوجد لادي مكدن في انتظارهِ وهي منحرفة الصحة مشغولة البال ايضاً واخبرتهُ ان مس مكدن خرجت بالاوتوموبيل الازرق الساعة السادسة ولم تعد ولا ارسلت خبراً عن سبب تأخرها. فانتظراها نصف ساعة وقاما للعشاء وقبل ان يتما عشاءهما دخل خادم وقال ان سائق الاوتوموبيل الازرق يطلب الكلام مع السر هنري فاسرع السر هنري الى التلفون وسمع السائق يقصّ عليهِ ما جرى لمس مكدن فامسى الضياء في عينيهِ ظلاماً واخبر لادي مكدن بخلاصة الخبر وادار التلفون الى دائرة البوليس السري المعروفة بسكتلنديارد ونادى رئيس البوليس واخبرهُ بما كان فقال لهُ الرئيس انتظرني فاكون عندك بعد ربع ساعة وللحال ركب اوتوموبيلاً واسرع الى بيت السر هنري ومعهُ ثلاثة من رجالهِ ودخل غرفة مس مكدن وقاعتها التي تجلس فيها وفتش لعلهُ يجد كتاباً منها لابيها فلم يجد شيئاً ثم جلس مع السر هنري على انفراد وسأَلهُ عما يظنهُ من امر الذين خطفوا مس مكدن فقال انهُ لا يظن شيئاً ولم يخطر ذلك على بالهِ قط . فسأَلهُ عن ابن اخيهِ وآخر مرة رآهُ فيها وآخر كلام تكلمهُ معهُ ثم قام الى التليفون وكلم السائق وسأَلهُ بضع مسائل وقام برجالهِ وركب الاوتوموبيل واسرع الى بيت المستر وليم مكدن ابن اخي السر هنري وسأَل عنهُ فقيل لهُ انهُ دخل غرفتهُ منذ نصف ساعة لينام فاسقط في يدهِ وكاد يرجع ولكن خطر لهُ خاطر

آخر فنزل من الاوتوموبيل وطلب من الخادم ان يريهُ الغرفة التي ينام فيها المستر مكدن فادخلهُ اليها فالتفت واذا الرجل نائم حقيقة في سريرهِ فقال في نفسهِ يستحيل ان يكون لهُ مشاركة في اختطاف مس مكدن وهو نائم مطمئن البال وقبل ان يزايل هذا الخاطر ذهنهُ عاد الى الاوتوموبيل واخذ منهُ قنديلاً من الاسيتيلين ساطع النور جدًّا ولهُ زجاجة حمراء وصعد بهِ الى الغرفة التي فيها المستر مكدن واغلق الباب ولم يجسر الخادم ان يمنعهُ عن ذلك لانهُ عرفهُ من هو والقى ذلك النور الاحمر الساطع على وجهِ المستر مكدن فجعل هذا يحرّك رأسهُ متململاً كمن يحاول الاستيقاظ من سبات عميق ولكنهُ لم يفتح عينيهِ ثم صار يتنفس تنفساً عميقاً فناداهُ رئيس البوليس باسمهِ وجرت بينهما المذاكرة التالية

رئيس البوليس — اسمع يا مستر مكدن انت نائم فلا تستيقظ

المستر مكدن — نعم انا نائم نائم

رئيس البوليس — اين رأيت مس مكدن ابنة عمك آخر مرةٍ

— في بيت ابيها

— ماذا قال لك داڤس ورفيقهُ عنها

— داڤس ورفيقهُ داڤس ورفيقهُ نعم قالا انهما يخطفانها ويخفيانها و و و

— ماذا قالا بعد ذلك

— لا اعلم ولكنهما يقنعان اباها انها انتحرت القت نفسها في البحر لكي لا تقترن بلورد مورلي فاصير انا الوارث الوحيد لعمي

— وكم تعطيهما

— لم اعدهما بشيء لاني لم اصدق كلامهما

— الى اين يذهبان بها حينما يخطفانها

— لا اعلم ولكني اظن انهما يذهبان الى البيت الاخضر في غابة سلي

— البيت الاخضر هل ذهبت انت الى هناك

— نعم ذهبت مرةً

— هل يطلقان الكلب ليلاً او يبقى مقيدًا

— لا اعلم

— نَمْ الآن واسترح ولا تفكر بهذا الموضوع ابدًا

فانبسطت عضلات وجههِ بعد ان كانت مقبوضة وتنفس تنفساً طويلاً عميقاً ثم ادار وجههُ

وخرج رئيس البوليس برجاله وركبوا الاوتوموبيل واخذوا السرهنري معهم وساروا الى المحطة التي فيها السائق فاستفهموا منهُ ثانية فقال لهم انكم ترون اوتوموبيلنا في الطريق وهناك طريقان الواحدة تذهب يميناً والاخرى يساراً اما الخطفة فساروا في الطريق اليسرى الى الجهة الغربية من البلاد. وكان كاذباً بقوله لان الخاطفين سارا الى الجهة الشرقية حيث البيت الاخضر وكانوا يعلمون موقعهُ جيداً وخطر لرئيس البوليس ان ينوّمهُ حينئذٍ ويكتشف منهُ حقيقة الامر ولكنهُ خاف ان تفوتهم الفرصة فتظاهر كأنهُ صدّق قولهُ وامرهُ بالبقاء هناك الى ان يعودوا اليهِ ثم سار برجالهِ والسرهنري معهُ فوصلوا الى البيت الاخضر الساعة الثالثة بعد نصف الليل وكان باب الحديقة الخارجي مقفلاً فلم يتعذر عليهم فتحهُ وساروا الهوينا الى ان دنوا من الباب الداخلي فوثب عليهم كلب كبير كأنهُ الاسد ولم يكد يدنو من المركبة حتى القى عليهِ رئيس البوليس رداء كبيراً غطاهُ بهِ وصبّ آخر قليلاً من البنج (الكلوروفورم) على منديل وجلس اثنان عليهِ وامسكا براسهِ وادنى الثالث المنديل من انفهِ ولم يكن الأ عشر دقائق حتى بنجوهُ واكثروا لهُ من البنج حتى امنوا شرّهُ وعالجوا الباب حتى فتحوهُ ودخلوا ومصباح الاسيتيلين معهم ولم يكن الأ قليل حتى اهتدوا الى غرفة دافس ورفيقهِ فعالجوا اولاً باب غرفة دافس ولم يكادوا يفتحونهُ حتى نهض دافس ومدّ يدهُ ليتناول مسدسهُ ولكن رئيس البوليس وضع مسدسهُ في وجههِ باسرع من البرق وقال لهُ ارفع يديك فوق رأسك والأ اطرت دماغك فرفع يديهِ وهو يشتم ويلعن لا سيما وان نور الاسيتيلين الساطع كان ملقى على عينيهِ فبهرهُ حتى لم يعد يرى احداً وتقدم اثنان ووضعا القيد في يديهِ وبقي واحد واقفاً امامهُ والمسدس في يدهِ لكي يمنعهُ عن الصياح وذهب الثلاثة الباقون وفتحوا غرفة رفيقهِ وقيدوهُ مثلهُ وسألوهما عن غرفة مس مكدن فانكرا انها هناك فقالوا لهما من معكم في البيت . فقالا ليس معنا الأ خادمة واحدة وهي مدبرة البيت وتنام في غرفة عند السطح . وكانت قد سمعت اصواتاً في البيت فاوجست شراً ونهضت من سريرها ولبست ثيابها ونزلت فدنا رئيس البوليس منها والمصباح في يدهِ وقد القى نورهُ على وجهها وسألها عن اسمها فجعلت تتلعثم في الكلام كمن لا يزال النعاس رائناً على جفنيهِ فمدّ يدهُ واختطف شعرها عن رأسها واذا بهِ لمة عارية وهي رجل لا امرأة . فدهش من جرأتهم وقال نعم وماذا تريدون فاجابهُ الرئيس ان دافس ورفيقهُ مقيدان وهما موقفان بامر الملك وانت موقف ايضاً فدلّنا على الغرفة التي فيها مس مكدن . فلعنهم ولعنها وسار امامهم الى غرفتها ولما دنوا منها سمعوها تقرع الباب من الداخل وتنادي وتقول انا هنا انا هنا

ففتحوا الباب ولما رأت اباها وقعت بين يديهِ وأُغمي عليها فاحتملوها الى الاوتوموبيل ليعودوا بها وفي تلك اللحظة وصل اوتوموبيل آخر وفيهِ ثلاثة من الشرطة فقيَّدوا داڤس ورفيقهُ ووضعوها فيهِ وساروا بهم الى السجن لينالوا عقابهم

وجرى ذلك كلهُ بين الساعة التاسعة ليلاً والخامسة صباحاً فلم تدرِ بهِ صحف الاخبار وظهرت صحف الصباح وليس فيها شيء سوى ان السر هنري كلم دائرة البوليس السري عند نصف الليل فخرج رئيس البوليس اليهِ ويقال ان اللصوص هجموا على بيتهِ وهو غائب ودخلوا غرفة لادي مكدن وسرقوا منها حليِّ تساوي اكثر من مئة الف جنيه وبينها عقد اللؤلوء الذي اشترتهُ حديثاً بخمسة وعشرين الف جنيه · والخبر مختلق من اولهِ الى آخرهِ ولكن السر هنري وزوجتهُ وابنتهُ لم يشاؤُوا ان يكذبوهُ · ومهارة البوليس السري عندهم مثل مهارتهِ عندنا اليس الامر كذلك

قالت السيدة نزهة ذلك وهي ملتفتة اليَّ وكنت انا مشغولاً بسماع القصَّة ونصوُّر مس مكدن في تلك الغرفة المظلمة بعد ان وقعت في ايدي ذينك الشيطانين افكّر بها وبكلام السيدة نزهة وحسن القائها وفصاحة لسانها فلما بادرتني بهذا السؤَال لم يكن لي من الوقت ما يكفي لتوجيه افكاري منها الى سؤَالها فاجبتها نعم لا ماذا قلتِ · فضحكت وقالت الظاهر ان قصة مس مكدن اشغلتك عن كل شيء

فقلت لها ومن لا تشغلهُ هذه القصة وانتِ الشارحة لها

فقالت اني لم اشرح بل اختصرت غاية الاختصار وسأتم لكم الحديث في فرصة أُخرى

قالت ذلك ونهضت وقالت اعذروني دقيقة · وقد سكرتُ من حديثها لانني لم أسمعها قبلاً تتكلَّم بمثل هذه الطلاقة نعم سمعت مجادلاتها عن الفيوم وبحيرة قارون وسمعت لومها للحكومة لانها متهاونة بامر الاشقياء ولكنني لم اسمعها قبلاً تروي لنا قصَّة طويلة مثل هذه

ثم عادت بعد قليل فنهضتُ اجلالاً لها فاحمرَّت وجنتاها وقالت العفو · وادنيت منها كرسيًّا كبيرًا منخفضاً مما تستريح السيدات بالجلوس عليهِ فشكرتني وجلست وقال لها اخواها اننا في انتظار بقية القصة

فقالت ظننت اننا اجلّناها الى فرصة اخرى

ثم التفتت اليَّ وقالت الا تظن انني اتعبتكم بما يكفي الآن ونؤَجل التتمة الى زيارة اخرى

فقلت الامر لكِ يا مولاتي ولكنني لو خيّرتُ لاخترت ان اسمع تتمتها الآن اذا كان ذلك لا يتعبكِ

فقالت حتى تعفى من الزيارة الثانية

فقلت واذا كانت تتمتها لتوقف على تكرير زيارتي فانا ارضى ان تخبرينا في كل زيارة كلمة واحدة على شرط ان لا تسأموا من تكرار الزيارات

فضحكت وقالت اما السآمة فانت تعلم ان لا محل لها في بيتنا اذا زارنا اصدقاؤنا واما القصة فاذا كان لا بدّ من اتمامها الان فاسمعوا

عادت مس مكدن او مس برون الى بيت ابيها مكسورة الجناح خائفة ان تشيع عنها اشاعات كاذبة وجعلت تتتبع الجرائد اليومية جرائد الصباح وجرائد المساء فلم ترَ اقل اشارة اليها وكانت تخاف ان يحدث السائق احد مخبري الجرائد بامرها ولكن رجال الحفظ قبضوا عليهِ بحجة التواطىء مع داقس ورفيقهِ والقوهُ في السجن

واما ابن عمها فلم يظهر انهُ علم شيئاً مما جرى لها والظاهر انهُ لم يحفظ شيئاً مما قالهُ لرئيس البوليس السري لانهُ لم يفه لاحد بكلمة في هذا الموضوع بل بقي على جاري عادتهِ يلج بطلب النقود من عمهِ فاذا حصل على شيء منها ارتضى بهِ وغاب اياماً لا يسمع لهُ صوتٌ

و بقي لورد مورلي يتردّد على بيت ابيها حسب عادتهِ وصارت تسمع زوجة ابيها تشير اليهِ وكانت تنتقل من التلميح الى التصريح فتصفهُ بالعلم والعقل وفكاهة الحديث وشدة انعطافهِ على ذويهِ وتقول هنيئاً للسيدة التي تقترن بهِ لانهُ يعبدها فتعيش معهُ ملكة

ورأت ان اباها موافق لزوجتهِ على ذلك وكانت تحبهُ وتحترمهُ وتفتخر بسعة عقلهِ وعلو مقامهِ ولكنها لم تكن تصدق انهُ يضحي سعادتها لامر زري مثل التقرُّب من عيال الاشراف او الحصول على لقب مثل القابهم لا سيما وانها ابنتهُ الوحيدة فتألمت من جراء ذلك وشعرت كأن خنجرًا خرق فؤادها وقطع اصول انفتها وعزة نفسها . وكبر عليها ان تكلم اباها في هذا الموضوع ووقع نظرها ذات يوم على اعلان في جريدة يومية من سيدة تطلب فيهِ فتاة انكليزية تقرأ لها باللغة الفرنسوية لضعف عينيها فكتبت اليها وتمّ الاتفاق بينهما كتابة ولبست ابسط ما عندها من الثياب ووضعت بعض لوازمها في كيس كبير ونزلت بهِ ونادت مركبة وسارت وكان من عادتها ان تخرج بثياب في ذلك الكيس وتذهب الى حي المساكين في مدينة لندن توزعها عليهم فظن الخدم انها ذاهبة لذلك على جاري عادتها اما هي فسارت بالمركبة الى قرب الحي الذي فيهِ بيت السيدة التي اعلنت انها محتاجة الى فتاة تقرأ لها وصرفتها هناك وسارت ماشية والكيس في يدها الى ان وصلت الى بيت السيدة فقرعت الباب وبداها ترتجفان فأتى خادم وفتح وقال لها ماذا تريدين فقالت اخبر مدام ده فور

ان مس برون حضرت حسب طلبها فاطرق الخادم هنيهة ثم اشار اليها لتدخل ومضى واخبر سيدتهُ وعاد بعد هنيهة وسار بها واصعدها الى غرفة كبيرة كالغرف التي في بيت ابيها ولكن الستائر كانت مسدولة على ابوابها وكواها فلم تكد ترى فيها شيئًا فوقفت هنيهة ريثما اتسعت حدقتاها فابصرت في صدر الغرفة سيدة متكئة على كرسي كبير فرفعت السيدة رأسها اليها وقالت تعالي اهذا انت يا مس برون تعالي حتى اراكِ . افتح النور يا داڤي افتح النور . ادني مني اقتربي اقتربي ولا تخافي . طيب طيب . ثم قرعت جرسًا كهربائيًّا الى جانبها فاتت امرأة قصيرة القامة نحيفة الجسم كأَنها جلد بسط على عظم فقالت لها مدام دهفور خذي مس برون الى غرفتها لتضع امتعتها ثم عودي بها الى هنا

وما جرى لها في بيت مدام دهفور يطول شرحهُ وقد اقامت هناك شهرين لقيت فيهما الامرين لا من مدام دهفور نفسها لان تلك السيدة كانت من فضليات النساء وارقهن قلبًا على حدة طبعها ولكن من خدمها وقلة ادبهم ومن ابن مدام دهفور وهو شاب متهور احب مس مكدن وظنها من البنات المستضعفات ولما كاشفها بحبهِ ورأى منها الانفة والشمم ثاب اليهِ عقلهُ وجعل يغير سلوكهُ لاجلها فصار يقيم اكثر اوقاتهِ في البيت وكان لا يدخلهُ الا في اواخر الليل لينام فيهِ ولكن درت امهُ بحبهِ لها فاضطهدتها اضطهادًا مرًّا لانها كانت تجهل اصلها حتى اضطرت ان تعلن في الجرائد انها تود ان تأتي الى القطر المصري رفيقة مع سيدة واطلعت على الاعلان وكاتبتها فتركت مدام ده فور برضاها ولم تدع ابنها يعلم بذلك وخرجت من بيتها سرًّا وجاءت معي الى هنا والسلام عليكم

فعجبنا من هذه القصة وشكرت السيدة نزهة وقلت لا فض فوكِ . وقال لها الدكتور يوسف الم يظهر لكِ من كلامها ان ابن مدام ده فور كان يحبها حقيقة وانها هي كانت تحبهُ ايضًا

فقالت ياسلام اوَ تريد ان تعرّفني ومتى كان البنات يبحن باسرارهن واسرار اخواتهن

فقال فهمنا ياستي فلا تؤاخذينا

فقالت لا تقل فهمنا ولا ما فهمنا فاني لم اقل شيئًا ولا يحق لي ان اقول شيئًا في هذا الموضوع لان مس مكدن لم تبح لي باسرار قلبها وكل استنتاج قد يكون في محلهِ وقد يكون بعيدًا من الصواب بعد المشرق عن المغرب وعلى كل حال هي راجعة الآن مع ابيها وقد طلبت منها ان تكتب قصتها وما لقيت في بيت مدام ده فور لانها مؤثرة جدًّا وقد بقيت ثلاث ليالي تقصها عليَّ ولو كتبتها لملأت مجلدًا وافادت في تهذيب اخلاق الشبان وفي الاهتمام باختيار الخدم لئلاَّ يفسدوا اخلاق الاولاد

الفصل السابع عشر

مغاضبة المحتلين

لما اتمّت السيدة نزهة قصة مس مكدن كان ابرهيم بك قد عاد الى البيت وغابت الشمس فاستأذنتَ في الانصراف فلم يؤذن لي وقال ابرهيم بك بل نتعشَّى معنا ووافقهُ ولداهُ ونظرت السيدة نزهة اليَّ نظرة ظاهرها التوسُّل وباطنها الامر المطاع وقالت نعم نتعشَّي معنا وابي يتم لنا قصة الثورة العرابية حتى يكون يومنا كلهُ قصصاً بقصص

فقلت يا حبذا الف امر مثل هذا الامر . ولكن لا بدَّ لي من اخبار خادمي حتى لا ينتظرني وحتى يعرف اين انا لاني كنت منتظرًا واحدًا يزورني الليلة . فقمت الى التلفون لاخبر خادمي فقال الدكتور يوسف تمهَّل . ما قولكم في الذهاب الى الجزيرة وتناول العشاء فيها فقالت اختهُ احسنت فان هذا الحر الباكر يكاد يزهق نفوسنا ثم نظرت الى ابيها تطلب مصادقتهُ وكان يشمل بكارتهُ فقال لا بأس فاني اذهب معكم على شرط ان نجلس وحدنا منفردين . فقال امين افندي هذا سهل جدًّا نجلس بعيدين عن كل احد على ضفَّة النيل

وكنت ارى ذلك المطعم في طريقي الى الجزيرة في اولهِ عن اليمين بين النيل والطريق ولكنني لم ادخلهُ من قبلُ فاستحسنت رأيهم

وقالت السيدة نزهة ألا تدعون المستر مكنزي للعشاء معنا فانهُ يريد ان يسمع تتمة اخبار الثورة على ما ظهر لي

فقال الدكتور يوسف بلى ندعوهُ ثم قام الى التلفون ودعاهُ للعشاء معهم في لوكندة زندر على النيل الساعة الثامنة مساء

فقلت اذا كان الامر كذلك فاسمحوا لي بالذهاب الى بيتي الآن ثم اوافيكم الى هناك في الساعة المعينة . فسمحوا لي والتقيت في طريقي بصديق لي كنت اعرفهُ من عهد المدرسة وهو من اعضاء الجمعية السرية فتصافحنا ومشينا سويةً وقبل ان يطول الحديث اظهرت عتبي عليهِ لانهُ لم يشركني في جمعيتهم . فتجاهل امرها ولكنني اخبرتهُ بكثير مما اعرفهُ عنها حتى لم يعد يشك في اني واقف على كل امورها فقال — نعم وانت ترى اننا نجحنا نجاحاً باهرًا فاضطررنا وكيل المحتلين الى الاستعفاء

فقلت ان كان الامر كما تقول فقد عملتم على خراب البلاد واوقعتم القطر المصري في ضيقة مالية تستحكم حلقاتها حتى تخنق الزراعة والتجارة

فقال هذه واقعة الحال الآن ولكن هذه الازمة مفتعلة اوقعنا فيها اصحابك حتى نكمّ افواهنا عن الكلام ونتوسل اليهم ليفرجوا كربتنا. ولكن لن نفعل. ولا بدَّ من ان نلتجئ الى الفرنسويين فانهم اطيب عنصرًا وارحم وأرأف واقرب الى مساعدتنا بالمال

فقلت نعم ويهبونكم المال هبةً

فقال لماذا الهبة نستدينهُ منهم برباهُ

فقلت بربا طفيف اثنين او ثلاثة في المئة كما تستدين حكومتهم منهم

فقال كلا لا اظن انهم يدينوننا الآن باقل من سبعة في المئة

فقلت يا سلام سبعة في المئة وهل ذلك مرحمة منهم

فقال ولكن كيف العمل أليس ذلك ارحم من البنوك التي لا تقبل الآن ان تعطي غرشًا باقل من تسعة في المئة والغالب انها لا تدين احدًا لا برهن ولا بغير رهن

فقلت سبعة في المئة لننظر ماذا نفعل بهذه الاموال وكيف نستثمرها

فقال نوفي بها ديوننا المطلوبة منا الآن اقساطًا وفروقات

فقلت ومن اين نوفيها هي اخيرًا

فقال من ريع اطياننا لان ليس لنا مورد آخر للرزق

فقلت وما هي نسبة ريع الاطيان الصافي الى ثمنها

فقال نحو خمسة في المئة

فقلت بل قل اربعة او ثلاثة في المئة اذا اعتبرنا الاسعار الفاحشة التي اشترينا بها من الدومين ومن بعضنا

فقال نعم قد لا يكون الريع الصافي اكثر من اربعة في المئة

قلت فكيف نوفي ديونًا رباها السنوي سبعة في المئة ألا تكون النتيجة اخيرًا اننا نضطر ان نبيع اطياننا لكي نوفي ديوننا وماذا يصيب الاطيان اذا عرضت للبيع فان الفدان الذي يساوي مئة جنيه الآن لا يشتريهِ احد حينئذٍ بخمسين جنيهًا

فقال وكيف العمل انترك اصحابك يتحكمون بنا كما يشاؤون ولا يفرجون كربتنا ولماذا لا تقول انهُ اذا استمرَّ ثمن القطن على ما هو عليهِ او زاد حتى بلغ ٢٥ ريالاً كما نرجو تنفك هذه الضائقة من نفسها لان الزيادة في ثمن القطن وحدها تزيل العسر المالي فاذا بلغ الموسم سبعة ملايين قنطار وزاد ثمن القنطار جنيهًا فالزيادة وحدها تفرج القطر. ثم اني استغرب منك كيف انك تحسب ان الانسان يعيش بالخبز وحدهُ ألا تحسب ان لنا حياة ادبية حياة

قومية حياة سياسية اتريد ان نبقى موتى ولا شأن لنا يتحكم اصحابك بنا كيفما شاؤوا فقد استأثروا بالحربية والمالية والداخلية والحقانية والمعارف والاشغال · كل المناصب العالية في يدهم وكل شيء في يدهم يأتي الصعلوك منهم فيستبد ويأمر وينهي كأنهُ الحاكم بامرهِ الم يحن لنا ان نستقل بانفسنا انبقى تحت وصاية الاجنبي ألم نبلغ سن الرشد

ودنونا حينئذ من بيتهِ فدعاني اليهِ ففتحت ساعتي ووجدت انني استطيع ان اقضي معهُ ساعة اذا اردت فقبلت دعوتهُ وجلسنا في مكتبهِ منفردين وكان محامياً ومكتبهُ في بيتهِ وعدنا الى حديثنا السابق فقال

الا تظن اننا بلغنا سن الرشد فان البلاد في ثروة عظيمة والامة كلها مستيقظة مطالبة بحقوقها وفوزها الاخير يشدد عزائمها ويحقق لها النجاح التام

فقلت وما هو النجاح الذي تنتظرونهُ او ما هو الامر الذي تطلبونهُ

فقال يا سلام أأنت غائب عن البلد ألا ترى اننا كلنا نطلب الجلاء وعود البلاد الى اصحابها · فقلت واذا لم يشإِ المحتلون ان يجلوا فماذا تعملون

فقال نغاضبهم ونغاضبهم ونستعين باحرارهم عليهم ونبين كراهتنا لهم بكل واسطة ممكنة ولو اضطررنا الى ايقاد نار الثورة في البلاد · فقلت لهُ هب ان لك ديناً على احد من عمد البلاد وانت مرتهن اطيانهُ واردت ان تضع رجلاً من قبلك وعلى حسابك يراقب زراعة الاطيان المرهونة ويقبض ثمن المحصولات لايفاء قسط الدين وهب ان العمدة اراد طردهُ من اطيانهِ وانت لا تأتمن العمدة ليستلم ثمن المحصول ويعطيك اياهُ فماذا تفعل

فقال ابذل جهدي حتى ابقي وكيلي هناك ولكن اذا اثبت العمدة اخلاصهُ ومقدرتهُ على الدفع لم تبقَ لي حاجة بالوكيل

فقلت اتسترجع وكيلك من غير ان تقتنع انت ان العمدة مخلص لك وقادر على ايفاء الاقساط المطلوبة وعازم على ذلك · فقال كلاَّ

فقلت عليك نور هذا شأن المداينين من الاوربيين فانهم لا يثقون اننا قادرون على ايفاء الدين ولا اننا نقصد ذلك ودليلي على هذا انهُ يوم يُعلَم ان المحتلين عازمون على الجلاء تهبط اسعار الاوراق المصرية ولما استعفى وكيلهم امس هبطت الاسعار هبوطاً غير قليل فالماليون لا يثقون بنا حتى الآن واعمالكم هذه تزيد عدم ثقتهم بنا

فقال وما دخل الماليين بالاحتلال والجلاء

فقلت أإلى هذا الحد ألا تعلم ان الاحتلال الانكليزي من اولهِ الى آخرهِ منتدب ومدَّبر

بسعي اصحاب الديون المصرية ولحماية مصالحهم وكل وزارة تقصد ان تعبث بمصالحهم يسقطونها في الحال . ولكن عقدة المسألة ليست هنا بل في امر آخر اذا عرفتهُ كما عرفتهُ انا تطن لهُ اذناك . واعلم ان غرض جمعيتكم الذي ترمي اليهِ تعزيز سلطة انكلترا في القطر المصري لكي تزيد ثقة المداينين بالديون الجديدة التي استدانها القطر منهم والتي يحتمل ان يستدينها في القريب العاجل وقد أُنشئت جمعيتكم ونفخ في أنوفكم طلب الجلاء لهذا الغرض لا لسواهُ

فقال هذا كلام لا يعقل لاني اعرف ان اكثر الذين يساعدوننا من افضل الناس واشدهم اخلاصاً لكل الشعوب المهضومة الحقوق ولا غرض لهم الاَّ مساعدة البشرية

فقلت وما ادراك انهم غير مأجورين باموال المداينين للغرض الذي اشرت اليهِ كما كان الذين اوقدوا نار الثورة العرابية يحركون الثورة هنا ومستأجروهم يضغطون على الوزارة في فرنسا وانكلترا حتى تهيأت اسباب الاحتلال وتم فعلاً

فنظر اليَّ طويلاً وهو صامت لا يتكلم كانهُ كان يفكر في ماقلتهُ لهُ ونظر الى سقف الغرفة واعاد نظرهُ اليَّ وهو يحرك سبابتهُ اليمنى . ثم قال قد يحتمل ان تكون مصيباً لان فلاناً اخبرني ان بعض الاوربيين كانوا يحرضونهُ هو ورفاقهُ على الثورة في زمن عرابي ولكن يصعب عليَّ ان اسيء الظن بفلان وفلان من اعضاء مجلس النواب الانكليزي ولماذا لا تنضم الينا لعلنا نصل الى الحقيقة من تبادل الآراء واذا شئت فاني اعرض اسمك غداً على لجنة انتقاء الاعضاء

فقلت حباً وكرامة . ومشيت الى بيتي وانا أُفكر في كلام هذا الرجل وفي الغشاوة المسدولة على عيون هؤلاء القوم وفي خطإِ المحتلين لانهم لا يعطونهم مطالبهم المعقولة المشروعة ولانهم لا يزالون يكثرون من احضار الرجال من بلادهم ليقيموهم في خدمة الحكومة ولا يعتنون الاعتناء الواجب بانتقاء الاكفاء من الوطنيين وفوق ذلك لانهم يتركون عوامل التهييج تفعل فعلها في البلاد وهم قادرون على اخمادها في لحظة من الزمان اذا ارادوا فيستريحوا و يريحوا وكدت ارتاب في حسن نيتهم لولا علمي انهم لا يتعرَّضون لعوامل التهييج لئلا يتسع الخرق عليهم في بلادهم فيتخذ اعوان الثورة ذلك حجة عليهم . وعدت الى التفكير في دخولي الجمعية السرية عضواً فيها فتهللت في اول الامر حتى خطر لي انهُ قد يطلب مني الوعد بان لا ابوح باسرارها فلا تبقى فائدة من دخولي فيها بل لا اعود قادراً على استعمال ما اعلمهُ عنها الآن فوقعت في حيص بيص ورأيت اني اخطأت في قبولي ما عرض عليَّ

وجاءني رجل كنت في انتظارهِ لاشغال خاصة فقضيناها وحالما انصرف اتى المستر مكنزي واخذني معهُ في مركبتهِ الى الجزيرة الى مطعم زندر

الفصل الثامن عشر

تتمة اخبار الثورة

مصر بلاد العجائب والنيل اعجب مافيها ولقد عرف القدماء كيف يتمتعون بمنظره البهيج والنسيم العليل الذي قلما ينقطع عنهُ في زمن الحر فبنوا كثيرًا من مبانيهم الفخيمة على ضفتيهِ كهيكل لقصر وهيكل كوم امبو وكمدينة منف عاصمتهم الكبرى . واما المتأخرون فاهملوهُ كل الاهمال اما لانهم عجزوا عن تشييد المباني العظيمة التي لا يخشى عليهامن فيضانهِ او لانهم خافوا ان تمر بهِ سفن الاعداء فتصل اليهم وكيفما كانت الحال فالضفة الشرقية من النيل حيث مدينة القاهرة لا تشمل الاَّ بولاق احقر احياء مصر والقصر العالي وقصرالبرنس ابراهيم اللذين هدما الآن ليتاجر بارضهما وقشلاق قصر النيل والمباني الحديثة التي بنيت في قصر الدوبارة واما الضفة الغربية فاذا استثنينا قصر الجزيرة الذي بيع وجعل فندقًا فلم يكن عليها بناء آخر منذ بضع سنوات وحتى الآن لا نجد عليها الاَّ بضع بيوت الى جانب فندق الجزيرة وشرقي حديقة الجيزة . ولقد كان المنتظر ان تكون المباني منتظمة في عقدين متصلين متناسقين على الضفتين من ساحل بحر الروم الى اعالي الصعيد

ومما يستغربهُ الاجنبي ايضاً قلة استعمال النيل للنزهة فانك ترى القوارب البخارية مستمرة السير في كل الانهار التي تجري في المدن الكبيرة واما النيل فقلما ترى فيهِ قاربًا من قوارب النزهة نعم ان الذهبيات كثيرة فيهِ ولكنها لاصحابها وقلما يشاركهم فيها احد غيرهم ولعلَّ سبب ذلك شدة البعد بين طبقات السكان في هذا القطر فالطبقة العليا والوسطى طبقة التجار وموظفي الحكومة على غاية النظافة غالبًا في ثيابها وابدانها واما طبقة العمال والفلاحين فعلى غاية القذارة حتى يتعذر عليك ان تجلس مع واحد منها لخبث الرائحة التي تنبعث من عرقهِ وثيابهِ ولذلك فكل ما يجمع بين هذه الطبقات لا يفلح لان الفلاح يبتعد عن الخواجه او الافندي وهما يبتعدان عنهُ وزد على ذلك ان نساء الطبقة الوسطى والعليا من الوطنيين يبتعدون عن هؤلاء وعن هؤلاء فينقسم الناس الى ثلاث فرق قلما تجتمع معًا فتضطر سكك الحديد مثلاً ان تخصص اكثر مركباتها لركوب العمال والفلاحين وكل الطبقة السفلى من الشعب فيركبوا فيها رجالاً ونساء من غير تمييز ويفعلوا كذلك في مركبات الترامواي . وبعض المركبات لركوب النساء خاصة من الطبقة الوسطى والعليا وبقية المركبات للطبقة الوسطى والعليا فيركب فيها رجال الوطنيين ورجال الاجانب ونساؤهم . فالعادات مانعة من امتزاج الناس كلهم

بعضهم مع بعض ولذلك قلما تراهم يجتمعون بكل طبقاتهم في حديقة او مشهد عام على خلاف ما نراهُ في المدن الاوربية حيث تركب الترامواي فيجلس على يمينك احد الموظفين او احد التجار وعلى يسارك خادمة حاملة سلتها بيدها ونازلة لتشتري اغراضها من السوق . وتركب سفينة للنزهة في السين او الرون او التيمس فتجدها مملوءة بالناس من كل الطبقات رجالاً ونساءً وكلهم بثياب نظيفة حتى لا تأنف من الجلوس مع احد منهم

جالت هذه الخواطر في بالي في لحظة من الزمان حالما دخلت المطعم ورأيت الجلوس فيهِ يعدون بالمئات وليس فيهم رجل من اصحاب العمم ولا امرأة من لابسات الحبرات بل كلهم من الاوربيين نزلاء القطر او المتشبهين بهم من الشرقيين ولم ارَ فيهِ امرأة واحدة وطنية من الخمسة الملايين من الوطنيات غير السيدة نزهة . والمكان جميل جدًّا جميل في موقعهِ على ضفة النيل جميل في حسن تنسيقهِ وترتيبهِ. خمائل صغيرة من الرياحين اقيمت بينها موائد الطعام وبُثت فوقها المصابيح الساطعة النور وكان ابرهيم بك واولادهُ قد سبقونا وجلسوا حول مائدة كبيرة منفردة على حافة النيل وقد زينت بالازهار فاستقبلونا حالما دخلنا وجلسنا بينهم كأَننا كلنا من عائلة واحدة وجاء الندل بالاطعمة والاشربة المبردة ودار الحديث اولاً على جمال ذلك المكان وعلى هجوم الحر باكرًا قبل المعتاد بنحو شهر من الزمان

فقال رياض وكان قد جاء من المدرسة الزراعية لينعشى معنا انهم زرعوا القطن في ارض المدرسة قبل الميعاد بعشرين يوماً لشدة الحر فقالت السيدة نزهة كنا نقول ان البرد احضرهُ لنا الانكليز من بلادهم فماذا نقول الآن في الحر . فقال لها المستر مكنزي والحر ايضاً من بلادنا من الهند او من استراليا او من اوغندا

فقلنا كلنا برافو كل الضربات منكم . وقال لهُ امين افندي على مَ لا تريحونا وتريحوا انفسكم . فقال لهُ اهكذا يكون اكرام الضيف

فقال امين افندي شروط الضيافة ثلاثة ايام واما انتم فجعلتم الايام سنين وعشرات السنين

فاجابهُ انكم انتم تمنعوننا من الخروج من بلادكم

فقال ابوهُ وهذا هو الصواب ولولا مشاغبة المشاغبين لخرجوا منذ زمن طويل ونحن كالمرتطم في الطين يزيد غوصاً فيهِ كلما زاد حركة للخروج منهُ

واتفق جلوسي امام السيدة نزهة وكنت اذا دعيت الى الطعام في بيت ابيها اجلس عن يمينها او يسارها فلا اراها مواجهة اما هناك فجلسنا كيفما اتفق وكانت لابسة ثوباً ابيض عليهِ شريط وردي دقيق وعلى رأسها برنيطة ريشها ابيض كبير اطرافهُ وردية وشعرها تحتهُ

قصائب مجتمعة بعضها مع بعض وفي عنقها قلادة من الذهب الوهاج ووجهها مشرق كالبدر وقد توردت وجنتاها من شدة الحر او من حركة روحها في جسمها وكانها كانت تحاول ان لا تنظر اليّ لئلا تقع عيناها على عينيّ ثم ترى انها السيدة الوحيدة بيننا ولا بد لها من ان تشغلنا بالحديث وتوفق بين مشاربنا شأن السيدات المتجملات بالكمالات. والكلام لا يصل الى القلوب ما لم ترافقهُ لحظات العيون فلما بذلت جهدها في اطرافنا بالحديث وكان لا بدّ لها من ان تقع عيناها على عينيّ كلما التفتت صبغ الحياء وجنتيها. هذا هو تفسيري لتورد وجهها الذي لم اعهدهُ على هذه الصورة من قبل لان اقليم مصر يزيل حمرة الوجه وقد اكون مخطئًا مغترًّا بنفسي ولكن هذا الاغترار حلو المذاق اذا لم يعقبهُ الفشل باكتشاف حقيقة تناقضهُ

وأُتينا بالقهوة بعد الطعام وطالبت السيدة نزهة اباها بوعدهِ وكأنها كانت قد تعبت من الحديث وودت ان تلقي الحمل على غيرها

فقال ابرهيم بك اننا ختمنا الكلام بالتمرد العسكري الذي اسقط وزارة رياض باشا واقام وزارة شريف باشا وانال البلاد حكومة دستورية حسب وعد الخديوي لخاصتهِ قبلما تولى فقد أُخبرت عن ثقة ان جماعة من الماسون ساعدوهُ على اخذ الخديوية بعد ابيهِ ان هو وعدهم باعطاء البلاد حكومة دستورية ولولا ذلك لانتقلت الى حليم باشا حسب رغبة الباب العالي وبعض الدول الاوربية. ولما افتتح مجلس الاعيان وخاطبهُ كعادة الملوك عند افتتاح مجالس نوابهم اجابهُ رئيس المجلس وأحد الاعيان جوابًا ملؤُهُ الشكر لهُ وكانت الدلائل كلها تدل على ان الخديوي راضٍ بما جرى والامة راضية ايضًا حتى ظن البعض ان تمرد الجنود كان مفتعلاً لاسقاط وزارة رياض باشا وانهُ كان بموافقة الخديوي ولكن المطلعين على دخائل الامور ينكرون ذلك كل الانكار

وشاع حينئذٍ ان مجلس الاعيان سينظر في ميزانية الحكومة وهذا يبطل عمل المراقبة المالية او يجعلها تحت امر مجلس الاعيان. وبلغ الخبر المداينين الاوربيين فقاموا وقعدوا واوجسوا شرًّا واقنعوا غمبتًا صنيعتهم لكي يمنع مجلس الاعيان من النظر في الميزانية ورأى غمبتًا ان فرنسا لا تستطيع ان تعمل من غير انكلترا لئلا تعارضها انكلترا وتبطل فعلها فتوسل اليها لتساعدهُ في ابقاء المراقبة على المالية المصرية وارسلت الحكومتان لائحة الى الحكومة المصرية تؤيدان فيها سلطة الخديوي وتمنعان مجلس الاعيان من النظر في الميزانية وتتوعدان الحكومة المصرية بالمداخلة الفعلية اذا حدث في البلاد ما يخل بالنظام الحاضر. فاغتاظ الاعيان من ذلك ومن الخديوي ايضًا حاسبين ان اللائحة اتت بايعاز منهُ واتحد مجلس

الاعيان مع الحزب العسكري مع ان شريف باشا كان قد نجح في التفريق بينهما

وبعد اخذ وعطاء دام نحو شهرين طلب مجلس الاعيان من الخديوي ان يغير الوزارة لانهم رأَوا من شريف باشا الميل الى موافقة انكلترا وفرنسا . وقدموا لهُ صورة القانون الاساسي لمجلس النواب وطلبوا منهُ ان يمضيها وقالوا لهُ ان ليس لدولة اجنبية حق ان تباحثنا في حقوقنا من جهة النظر في الميزانية . فاضطر الخديوي ان يسقط وزارة شريف باشا وطلب منهم ان يدلوهُ على الاشخاص الذين يختارونهم نظارًا فطلبوا منهُ ان يعين محمود باشا سامي رئيسًا للنظار وكان ناظرًا للحربيَّة فعينهُ وعيَّن عرابي ناظرًا للحربية وكان بقية النظار من الحزب الوطني او العسكري ما عدا مصطفى باشا فهمي ناظر الخارجية

وكان شريف باشا يظن الى ذلك الوقت انهُ يمكن اصلاح الاحوال وازالة الخلاف بحسن السياسة اما حينئذٍ فرأَى ان لا بدَّ من ارسال رجل من الاستانة تتبعهُ الجنود العثمانية لقمع الثورة وكان هذا رأي الخديوي ايضًا فاغتاظ زعماء الحزب العسكري من ذلك وتحالفوا على خلع الخديوي ومن ثم عاد مجلس الاعيان في يد الحزب العسكري

وصل ابرهيم بك الى هنا والتفت فالتفتنا واذا الدكتور عبد الله واقف فوق رأْسي فرددنا لهُ التحية ودعاهُ ابرهيم بك للجلوس معنا . والتفتُّ الى السيدة نزهة لأَرى تأْثير قدومهِ فيها فرأَيت اللون يزول من وجهها ثم يعود اليهِ كأَنها قلقت من مجيئهِ في تلك الساعة ولم ادرِ ما تعليل ذلك . ونادى ابرهيم بك الخادم فاتاهُ بكرسي وجعل هو يعتذر عن مجيئهِ الينا فقال لهُ امين افندي على مَ الاعتذار يا اخي فان المكان واسع يسعنا ويسعك

فقال اعتذر لاني ضيف غير مدعوّ

فقال لهُ امين افندي لو دعوناك لحسبت علينا اجرة مشوارك نصف جنيه في هذه الازمة المالية

فقال لهُ رياض لعلك نسيت انهُ جرَّاح والجراح لا يدعى الاَّ الى العمليات الجراحية واجرة المشوار من جنيهين فصاعدًا الى عشرة او عشرين . أَصحيح يا دكتور انك اخذت في مشوارك الى اسيوط مئة وستين جنيهًا

فقال نعم ولكنني بقيت هناك ثلاثة ايام

ولما رأَيت ان الحديث دار على الاطباء والجراحين التفت الى المستر مكنزي وجعلت اكلمهُ بالانكليزيَّة . ثم دعانا الدكتور امين لمشاهدة المشي على البكر فشاهدناهُ نحو ساعة من الزمان وانفرط عقدنا ولما ودعت السيدة نزهة قالت لي زرنا غدًا فاطلعك على شيء غريب

الفصل التاسع عشر

باب الخراب

دعاني احد الاصدقاء الى العشاء معهُ في نادي الاطباء فاتيتهُ نحو الساعة الثامنة مساء لارى مَن يجتمع فيهِ منهم فلما دخلتهُ مررت امام غرفة فيها كثيرون حول موائد اللعب ولم اكد اتبيّن احداً منهم من انعقاد دخان التبغ فوق رؤُوسهم ودخل بي صديقي تلك الغرفة فرأيت الدكتور عبدالله الجرّاح بين الجلوس فنهض وسلم عليَّ ورحّب بي وقدم لي كرسيًا لاجلس الى جانبهِ واحضر صديقي كرسيًا وجلس وقال لي الدكتور عبد الله ألا تشاركنا في اللعب فقلت لهُ مضى عليَّ الآن خمس سنوات لم امسك الورق بيدي فلا اريد ان اعود الى هذه العادة

وكانت عادة اللعب قد تمكّنت مني وخسّرتني اكثر الثروة التي ورثتها من ابي وفي ساعة واحدة عدت الى نفسي واقسمت لاختي يمينًا مغلظة ان لا اعود الى مسك الورق بيدي ابدًا ومرّت خمس سنوات وانا مبرٌّ بقسمي فانقطعت الى اعمالي واطياني والفلحت ووجدت فيها اكبر مسلٍّ لي وبالاجتهاد والاقتصاد استرددت ما خسرتهُ وزدت عليهِ ولكن لما دعاني الدكتور عبد الله لمشاركتهم في اللعب شعرت بدافع يدفعني الى ذلك لا استطيع مقاومتهُ لكنني قلت في نفسي انهُ لم يبقَ في الامكان ان اتعلّق على اللعب بعد ان تمكنت من تركهِ خمس سنوات لاسيما واني مشغول بمشاغل كثيرة فالجمعية السرية تشغل بالي دائمًا وصورة نزهة لا تفارق ذهني وهبوط اسعار الاملاك اوقع خللاً كبيرًا في ميزانيتي فصرت اخاف من هبوط الاجور اجور الاملاك واجور الاطيان فاخسر خسارة كبيرة. وجلس صديقي حالاً مقابلتي على مائدة اللعب ولما قطع الدكتور عبد الله الورق اعطاني منهُ والظاهر ان مشاغلي الكثيرة اضعفت عزيمتي فمسكت الورق غير محاذرٍ ولعبنا نصف ساعة ربحت فيها نحو عشرة جنيهات ثم قمنا للعشاء ورأيت ونحن على العشاء بعض الذين كنت اعلم انهم من الجمعية السرية فسقت الحديث معهم الى احوال مصر السياسيّة وغصنا في الموضوع حتى لم اعد ابالي بالرجوع الى مائدة اللعب . وجاءني الدكتور عبد الله يقول اتكسب فلوسنا وتهرب فقلت لهُ هاك فلوسك واخرجت العشرة الجنيهات من جيبي ودفعتها اليهِ فقال الفلوس ليست لي لاني انا لم اخسرها بل خسرها غيري فقلت لهُ اعذرني الليلة على كل حال لاني مشغول مع اخواني هنا بامر آخر فتبسم وتركنا

وتبيّن لي من الحديث مع هؤلاء الرجال وكانوا اربعةً انهم قد عقدوا النيّة على مناوأة المحتلين بكل واسطة ممكنة وانهم واثقون بالفوز عليهم لان احرار الانكليز يشدّون ازرهم وقال لي واحد منهم سمعت الاستاذ فلاناً يقول ان رأيك مثل رأينا من جهة السعي وراء الاستقلال ولو كنتَ مخالفاً لنا في اسلوب هذا السعي

فقلت ومَن لا يريد الاستقلال لبلادهِ ولكن اذا اردنا الاستقلال وجب ان نسير اليهِ في طريقهِ لا في الطريق التي تؤدي الى ضدهِ

فقال هل سمعت او عرفت ان امةً نالت استقلالها بالمسالمة

فقلت نعم هذه امة الترنسفال نالت استقلالها بالمسالة

فضحك وقال كلاً ثم كلاً بل نالتهُ بعد حرب شيبت الاطفال ولم تعطها الحكومة الانكليزية استقلالها الاَّ خوفاً من استمرار هذه الحرب ولو خفيةً اي بالمباغضة والمشاكسة ولقد احسنت صنعاً لان نتيجة ذلك كانت نزع الاحقاد من النفس. حتى استراليا وسكانها من الشعب الانكليزي نفسهِ لم ترضَ بغير الاستقلال ولم تنلهُ الاَّ وانكلترا مغلولة اليدين بحرب الترنسفال

واستمرَّ معنا الكلام الى الساعة الحادية عشرة وقد انسوا بي وكاد واحد منهم يدعوني الى الاشتراك معهم ولكني شعرت كأن رفيقهُ الذي كان جالساً الى جانبهِ داس على قدمهِ فانتبه الى نفسهِ

وكان اليوم التالي يوم جمعة فزارني صائب بك ومعهُ الاستاذ الذي كشف لهُ سر الجمعية السريَّة. زاراني قبيل الظهر فتكلمنا في مواضيع مختلفة ودعوتهما للغداء معي فاجابا دعوتي فاكلنا وشربنا واستطاب الاستاذ ما عندي من الشراب فافرط فيهِ حتى غاب عن الصواب وجعل صائب بك يسألهُ عن الجمعيَّة السرية وهو يجيب بكل صراحة ويسرد اسماء اعضائها وخلاصة اعمالها واخبرنا عن فروعها في الاقاليم المصرية وفي السودان ايضاً. والظاهر ان الذهول استحكم منهُ هذه المرَّة فكشف لنا اموراً تقشعرُّ منها الابدان واخبرنا ان الجمعية انقسمت منذ شهرين الى جمعيتين ظاهرية وباطنية والباطنيَّة اعضاؤُها من الاخصاء وهو معهم وذلك اني انكرت عليهِ ان تكون مقاصدها كما قال لان لي اصدقاء بين اعضائها مثل فلان وفلان ويستحيل عليهم ان يوافقوها على اعمال جهنميَّة مثل هذه فاباح لنا حينئذٍ بما لم يبح بهِ قبلاً وهو ان الجمعية قسمان وهؤلاء من القسم الظاهر فقط ولا علم لهم بما يجري في القسم الباطن ولا يختار احد للقسم الباطن الاَّ بعد الوثوق التام من اخلاصهِ وتفانيهِ

في افتداء الوطن وقال ان الجمعيات الفرعية مقسومة كذلك ودفتر القسم الباطن في خزنة الحديد ولها مفتاحان احدهما مع الرئيس والآخر مع الصرَّاف

فسأَلتهُ عن الميعاد المحدَّد للعمل فقال بعد اربعة اسابيع تماماً فتضرم نار الثورة في البلاد كلها في يوم واحد وفي ساعة واحدة ويستولي القائمون بها على مخازن الاسلحة والميرة في مصر والسودان ويقوم حينئذٍ متطرفو الاحرار على حكومتهم ويلجئونها الى ترك البلاد

ثم جاشت نفسهُ واخذ يتقيأ وجاء الخادم واعتنى بهِ الى ان فرغ من الاستفراغ فنظر اليَّ مدهوشاً واخذ يعتذر عمَّا بدا منهُ فطيبت خاطرهُ وكنت اشعر كمن ارتكب جناية كبيرة لاني اغتنمت فرصة سكرهِ لاقف على اسرارهِ ولكن المسأَلة هامَّة عامَّة تضيع فيها المصالح الخصوصيَّة ولا يجوز ان احجم عن اكتشاف خبر مثل هذا اذا كان اكتشافهُ لا يتأَتى الاَّ على صورة تؤلم نفسي

وبعد قليل ودعني صائب بك والاستاذ وعاد صائب بك اليَّ بعد ساعة من الزمان وسألني عمَّا عوَّلت عليهِ فقلت لا اعلم ولم اكن اعلم ما يجب ان افعلهُ حينئذٍ

وقصدت لورد هارفي قبيل المساء واطلعتهُ على كل ما علمتهُ من التدابير المدبَّرة وعلى فروع الجمعية في الاقاليم والسودان فاكبر الامر جدًّا وقال انظر الى هؤلاء الناس كيف يحرشوننا ليخرجونا ونحن امبراطوريتنا واسعة وكدنا نضيق بها ذرعاً ولكن الماليين يودون ان نضم مصر اليها ايضاً ويغرون هؤلاء الناس بما يوجب علينا ذلك وهذا امر لا نسعى اليهِ ولا نريدهُ. وبعد حديث طويل واخذ وعطاء قام الى التلفون واستدعى قائد جيش الاحتلال فنهضت لاودعهُ فودَّعني وقال شرّفني في الغد لننظر في المسأَلة ثانيةً

وانيت من بيتهِ ماشياً ومررت على نادي الاطباء فرأيت من نفسي دافعاً يدفعني الى دخولهِ فدخلتهُ بحجة ان ارى بعض اعضاء الجمعية السرية من قسمها الباطن لعلي اقف على شيء منهم او لعلي انذرهم بسوء المصير ولم اكد ادخل حتى رأيت الدكتور عبد الله وبعض رفاقهِ الذين لعبوا معي في النوبة الماضية فاستدعوني الى اللعب معهم وقال لي بعضهم انهُ ليس من اللياقة ان اكسب منهم واهرب فجلست معهم وتناولت الورق. جلست قبيل الساعة السابعة ومرَّت السابعة والثامنة والتاسعة وتعشيت معهم وعدنا الى اللعب ومرَّت ساعة بعد ساعة وانا اكسب منهم والذهب يتكوَّم امامي وانا اعزم ساعةً بعد اخرى ان اردَّ اليهم كل ما كسبتهُ منهم ثم قلت في نفسي اني انتظر الى ان ينقلب الزهر ضدي فاقوم واترك اللعب وارد اليهم كل ما كسبتهُ منهم ولما صار امامي نحو الف جنيه طلب واحد منهم ان يأْخذ

البنك فاخذهُ مني فابتدأت اخسر فنهضت وكنا قد بلغنا الساعة الثانية بعد نصف الليل وقلت لهم انظروا كم خسر كلٌ منكم فانا اردُّ اليهِ ما كسبتهُ منهُ · فقال الدكتور عبد الله هذا امر لا نقبلهُ ابدًا وما دام الزهر قد دار فاصبر حتى تخسر ما كسبتهُ . رأيتهُ يكلمني ويغمز الباقين بعينيهِ فاغتظت منهُ وجلست ولا ادري هل سحروني او استهووني او فعل بي نيكوتين التبغ المنعقد فوق رأسي فخدَّر اعصابي حتى فقدت الشعور

مضى الليل وطلع النهار ونحن جلوس حول مائدة اللعب · وجاءنا الخادم بقليل من اللبن والقهوة ومرَّت ساعة بعد ساعة ونحن جلوس لا حديث ولا كلام غير الفاظ الشتائم للورق الى ان صارت الساعة الثانية بعد الظهر فاتى الخادم كلاًّ منا بقليل من الخبز واللحم فابطلنا اللعب نصف ساعة وقت لاستنشق الهواء فكدت اقع مغمًى عليَّ · وكنت قد خسرت خسارة باهظة وقام في نفسي ان لا بدَّ من الانتظار الى ان يدور الزهر فاسترد ما خسرتهُ واترك اللعب بتاتًا وكانت قوى جسمي قد خارت من السهر والجوع والقلق فخارت معها قوى عقلي ونفسي · وعدنا الى مائدة اللعب ورفاقي يكسبون الواحد بعد الآخر وانا اخسر وهم سكوت وانا لا اتنازل الى التذمُّر وكتبت لهم التحويل بعد التحويل الى ان مضى الليل التالي كلهُ وكادت الشمس تشرق فنهض الدكتور ابرهيم وامسك بيدي وقادني الى امام المرآة وقال انظر الى وجهك فهل تريد ان تقتل نفسك وتقتلنا معك · خسرت خسرت وهذا نصيبك ولكن حرام عليك ان تموت وتموتنا معك لكي تسترد خسارتك

فنظرت الى المرآة ولو لم ارَهُ واقفًا الى جانبي وممسكًا بيدي لما صدقت ان الصورة التي كنت اراها هي صورتي وقد كلح وجهي وتقطَّب جبيني وغارت عيناي · وخطر ببالي حينئذٍ ان التحاويل التي اعطيتهم اياها لا بدَّ من ان تُقدَّم الى البنك في ذلك اليوم وليس لي فيهِ ما يقوم بايفائها ولا بايفاء ربعها فضاقت الدنيا في وجهي واظلم النور في عيني والتفتُّ اليهِ وقلت لهُ ارجو من فضلك ان لا تقدموا التحاويل الى البنك اليوم بل تتركوها الى الغد وارجو ان تخبروني بمجموعها فعاد اليهم وجمعوا قيمتها واخبروني فاصطكَّت ركبتايَ وقلت اذًا امهلوني ثلاثة ايام وقمت لامشي فلم استطع فسندني اثنان منهم واستدعوا مركبة اركبوني فيها وركب معي الدكتور عبد الله واوصلني الى بيتي وكان خادمي جالسًا في انتظاري ومستغربًا غيابي فلما رآني داخلاً على تلك الحالة والجرَّاح معي لم يشك في اني أُصبت بنازلة · واي نازلة فسرت الى سريري وانطرحت عليهِ واوصى الدكتور عبد الله خادمي ان يسقيني قليلاً من اللبن والكنياك وخرج

اين آمالي· اين مستقبلي · اين العمل السياسي الكبير الذي اؤتمنت عليهِ لانقذ بلاداً برمتها من الخراب والدمار · اين محبتي لنزهة وعزمي على مكاشفتها بذلك اين آمال اهلي بي · ذهب كل ذلك في ليلة واحدة · ضاعت حياتي · ضاع مستقبلي · يا الهي ما هذه البليَّة ما هذه المصيبة اين انتِ يا دموع الحزن يا دموع الندامة لتجلي ظلام عينيَّ · اين انتِ يا قطرات الدم النقي لتدخلي دماغي وتزيلي صدأ النصب من نفسي اما من صديقٍ اما من رفيق · كيف اسوّي اشغالي مع البنك ومن اين آتي بالنقود لاوفي ما تقيدت بايفائهِ · نعم لم اخسر كل ما املكهُ ولكن ثروتي اطيان وبيوت ومن يشتريها مني في هذه الازمة المالية · لم تفض دموع الحزن من عينيَّ من حين وفاة ابي وامي الا الآن لكنها ليست دموع الحزن بل دموع الضيق والغيظ دموع الالم النفسي · هل ارزح تحت هذا الحمل هل انتحر هل اشمت خصومي بي واترك نزهة للدكتور عبد الله خصمي الوحيد · خارت قواي وتولاني سلطان النوم

فتحت عينيَّ بعد اربع وعشرين ساعة فرأيت الدكتور يوسف جالساً امامي وحاولت الجلوس فلم استطع ولا عرفت حينئذٍ كم مضى عليَّ وانا نائم ولا ما بلغهُ من امري وتبسم وقال لقد شغلت بالنا ولكن الحمد لله على السلامة · فالنوم يرد القوى ولا شيء يقوم مقامهُ ثم نادى الخادم ليأتيني بكاس من اللبن والقهوة ولما شربتها اعتذرت لهُ عن اشغالي بالهُ على هذه الصورة · وقلت لهُ ان لا بدَّ لي من النهوض الآن لاني مشغول جدًّا وطلبت منهُ ان يصف لي شيئاً ينعشني ويقويني فتبسم وقال لي قضي الامر فلا تتعب بالك

فقلت واي امر · فقال مسألتك مع البنك

فاقشعرَّ بدني واضطربت في امري ولم ادرِ هل عرف حقيقة ما جرى لي ومن اخبرهُ فقلت لهُ زدني بياناً

فقال ان ذلك اللعين عبد الله قد اخبرنا بخسارتك في نادي الاطباء وعرفنا انها حيلة مدبرة عليك منهُ ومن اولئك اللصوص رفاقهِ فمضى ابي امس الى البنك وكلم المدير واوقف دفع التحاويل

ما غريق تتقاذفهُ الامواج وقد خارت قواهُ وكلَّت يداهُ وخدرت رجلاهُ وانقطعت انفاسهُ فودع الحياة واستسلم للقضاء ثم مدت اليهِ يدٌ قوية وانتشلتهُ من غمرات الردى · وما سقيم استيقظ ليلاً فوجد بيتهُ يشتعل وقد امتدت النار الى كل غرفهِ واحاط بهِ اللهب من كل ناحية وكاد الدخان يخنقهُ ثم اختطفهُ رجل بيديهِ وطرحهُ على ملاءة تحملها الرجال

فوصل اليها سالمًا · وما مجرم قضي عليهِ بالموت فودعهُ اقاربهُ وخلانهُ ونصبت لهُ المشنقة وعلق فيها وقبل ان تقبض روحهُ جاءهُ العفو من السلطان فانزل سالمًا باشد دهشة مني وشكرًا لمن انتشلني من مخالب الخراب والموت · ولم ادرِ كيف اخفي دهشتي او اعبّر عن شكري فانتصبت في سريري ومددت يديَّ الى الدكتور يوسف وقبضت على يدهِ ودموع الفرح في عيني وقلت لهُ أفي يقظة انا ام في حلم ماذا جرى لي هل جننت هل سحروني.

فقال هي غلطة ومن منا لا يغلط

فقلت واي غلطة أيقضي الانسان على نفسهِ في ليلة واحدة ويهدم كل ما بناهُ في حياتهِ ماذا فعلت وكيف انقدت الى هؤلاء الاشرار · ماذا قال ابوك عني وماذا قالت اختك ولا بدَّ من ان يكون الدكتور عبد الله قد طبّل وزمر الآن واخبر كل اهل مصر اني خسرت اموالي بالقمار · ياللعار يا للخجل اين اخبئ نفسي ما ذا جرى لي يا دكتور وما ذا اصابني

فاخذ يهون عليَّ مصيبتي واوصاني بملازمة فراشي الى ما بعد الظهر واوصى الخادم والطباخ بنوع الطعام الذي يهيأُ لي وخرج وهو يقول ان اباهُ قد دبر امر البنك واني لا اخسر غرشًا واحدًا · وكنت اعلم ان ذلك كلهُ من قبيل التطمين لي لا غير والاَّ فكيف لا ادفع كل غرش تعهدت بدفعهِ وقد ابيت فقيرًا لا املك شيئًا اذا بيعت اطياني واملاكي باسعار ما يعرض للبيع عرضًا· وهل استطيع ان ابدأ الحياة من جديد · وماذا يقول عني لورد هارفي والمستر مكنزي وكل الذين كانوا يثقون بي وكيف اصبح في عيني السيدة نزهة لا بقاء لي في هذه البلاد ولا بدَّ من الرحيل الى اميركا او استراليا او اية بلاد اخرى

وزارني المستر مكنزي بعيد الظهر فاخبره الخادم اني مريض ودخل واخبرني بقدومهِ فامرتهُ ان يدخلهُ اليَّ ثم ندمت على ما فعلت فدخل واعتذر لانهُ لم يعلم بمرضي قبلاً وسألني عن حالي ولما رأيت انهُ لا يدري شيئًا من قصتي اطمأن بالي واخذنا في الحديث وتجنبت الاشارة الى الجمعية السرية على قدر طاقتي لاني شعرت اني لم اعد اهلاً للبحث عنها وتذكرت حينئذ قصة الجرذ الذي فقد قوتهُ لما أُخرجت النقود من جحرهِ فظن المستر ماكنزي اني خائر القوى من شدة المرض فلم يطل زيارتهُ ولا اخبرني بما صمموا عليهِ

لما كنت مستغرقًا في نومي بعد ذينك اليومين العبوسين اللذين فقدت بهما ما املكهُ كان الدكتور عبد الله جالسًا في بيت ابرهيم بك ينفث سموم نميمتهِ ادخل اسمي في الحديث عرضًا كما اخبرني رياض · ثم قال لم اكن اظن انهُ مولع باللعب الى هذا الحد فقد بقي يومين وليلتين جالسًا على مائدة القمار حتى خسر كل ما يملكهُ نحو اربعين الف جنيه واذا

عُرضت اطيانهُ وعقارانهُ للبيع لا اظن انها تباع بهذا الثمن وانا اشفق عليهِ ولولاي لبقي يلعب الى الآن وانا آسف جدًا لاني كنت اودهُ واحسب انهُ من العقلاء ولكن القمار يتغلب على اكبر العقول فقد قرأت عن بعض وزراء انكلترا انهم ماتوا في فاقة شديدة من المقامرة

فقالت لهُ السيدة نزهة ومتى كان ذلك • فقال لها امس واول امس واضطررت اخيرًا ان انهضهُ بنفسي واضعهُ في مركبة وامضي بهِ الى بيتهِ ولولاي لقتل نفسهُ وانا اخاف الآن ان امضيَ واسأَل عنهُ لئلاً يكون قد انتحر حقيقةً . لا تستعملي احدًا باسمي نزهة ولا تخافي الأ من النهر الهادىء • انا اعرف هذا الرجل منذ سنين كثيرة وكان يقامر وقد خسر كل ما ورثهُ من ابيهِ ثم خدمهُ السعد ولمَّ حالهُ وعاد الآن يخسر في ليلة واحدة كل ما يملكهُ • الله يستر عليهِ • انا ارى في وجهك انكِ انتِ ايضاً متأسفة عليهِ • فقالت لهُ ما ادرانا ماذا جرى واصفرَّ وجهها وكأَنها خافت ان يغمى عليها فقامت وخرجت

قال رياض وتبعتُها الى غرفتها فقالت لي اطرد هذا اللعين من هنا فانهُ هو السبب في خراب صديقنا فلان وانا اراهن على ذلك• ورأيت الدموع في عينيها فقلت لها قومي واغسلي وجهك ثم عدت الى الدكتور عبد الله لاني تركتهُ وحدهُ فقال لي ما لها فقلت لا شيءَ ثم جلست صامتاً فسألني عن ابي واخويَّ فقلت لهُ لا اعلم الى اين ذهبوا وكأَنهُ شعر اني مستثقل زيارتهُ فنهض وودعني ومضى

هذا ما اخبرني بهِ رياض بعد حدوثهِ باشهر ولم استغربهُ لانني كنت اتوقعهُ من الدكتور عبد الله بعد ان رأيتُ منهُ ما رأيت

الفصل العشرون

الفراق

لما رأى الدكتور عبد الله ورفاقهُ ان البنك ابى دفع التحاويل واشرَّ عليها بالرفض قدموها الى المحكمة ورفعوا عليَّ قضايا طالبين مني قيمتها وتبرع امين افندي بالدفاع عني على غير رغبتي وحضر الى المحكمة وطلب المرافعة فاجلتها المحكمة الى ما بعد الاجازات على جاري عادتها لان قضاتنا حرسهم الله يشكون دواماً من كثرة القضايا فيقضون الوقت في تأجيلها ومتى جاء الحر خافوا ان يذيب ادمغتهم فهجروا البلاد الى ربوع اوربا • وقد بقيت في تلك الجلسة الى آخرها لارى مقدار شغلهم فوجدت انهم حضروا بين الساعة التاسعة والعاشرة مع ان القانون يقضي بحضورهم الساعة الثامنة • ثم خرجوا بين الساعة العاشرة والحادية عشرة

للراحة كأنهم تعبوا من الجلوس ساعة واحدة . والراحة خمس دقائق ولكنها دامت اكثر من نصف ساعة وعادوا الى الجلسة فنظروا في قضيتين لا غير وانتهت الجلسة ولم يقيموا في كراسي القضاء اكثر من ساعتين

وكنت اود ان ادفع قيمة التحاويل لا صحابها ولو استغرقت كل ما املكه ولا يذكر اسمي معلقاً بلعب القمار لكن امين افندي منعني من ذلك وقال لي اخطأت بلعبك والاعتراف بالخطإ اشرف من اخفائهِ واما هم نخدعوك ولا حقّ لهم بغرش مما كسبوهُ منك وعندي احكام كثيرة حكمت بها المحكمة بفساد هذا المكسب فعلى مَ تضر نفسك لكي تمتعهم بنتيجة خداعهم وعندي دليل مقنع على انهم غشوك . وبمثل هذا الكلام اقنعني حتى رضيت بالمقاضاة ولكنني لم اكن اتوقع ان يحكم لي

وكأن السيدة نزهة رأت صغر نفسي فعطفت عليَّ اكثر من عادتها لكي لا احسب انها ابتعدت عني بعد ارتكابي هذا الخطأ . وكنت قد صممت على مغادرة القطر المصري والذهاب الى اميركا او استراليا هرباً من العار فذكرت ذلك امامها عرضاً وقلت لها ان لي صديقاً في استراليا ذهب اليها وهو لا يملك شيئاً وصار الآن على ثروة طائلة من تربية الغنم وارسال لحمها الى اوربا وقد كتب اليَّ مراراً يدعوني اليهِ والمرجح اني البي دعوته الآن واصير راعياً للغنم

فتبسّمت وقالت طالما قرأت عن استراليا ووددت الذهاب اليها افلا تأخذني معك

فقلت يا حبذا واكون في خدمتك

فقالت وارعى لك الغنم مثل الراعيات المذكورات في خرافات اليونان فاسدل شعري والبس وشاحاً ساذجاً ولكنني لا احسن اللعب على الصفّارة مثلهنَّ . ما اجمل عيشة البداوة بعيداً من شرور الحضارة ومفاسدها . ولكن ألا تذهب معنا اولاً الى اوربا فقد صممنا امس على الذهاب اليها بعد اسبوعين . اتانا كتاب من السر هنري مكدن يدعوننا كلنا الى الذهاب اليهم وقضاء شهر من الزمان في مصيفهم وطلب منا ان نخبرك بذلك وندعوك للذهاب معنا فلنذهب الى هناك اولاً ثم نعود الى هنا ونسافر الى استراليا

فقلت لها انتِ تمزحين فلا يحسن بمثلي الذهاب الى النزهة بعد ان اصابني ما اصابني

فقالت يا سلام اخارت عزائمك من هذه الخسارة الطفيفة

فقلت لها اني مسرور لانكِ لا تعلمين مقدارها

فقالت هب انك خسرت كل ما تملكه بل قد بلغني انكَ خسرت كل ما تملكه حقيقة فهل نسيت ما يقول الشاعر " ما الفخر بالمال ان الفخر بالرجلِ "

الفصل الحادي والعشرون

اتفقوا على ان لا يتفقوا

عدت الى بيتي كاسف البال مبلبل الافكار اقول تارةً ان بها مثل ما بي من لوعة وغرام ثم اغالط نفسي واقول بل هذا غرور مني وما يجبيني اليها وسني يكاد يكون مضاعف سنها ولا انا من اهل الظرف والقصوف وقد جاءت النازلة التي نزلت بي ضغثاً على ابالة فلا عمري يناسب عمرها ولا ثروتي تناسب ثروتها بعد ان فقدتها كلها او اكثرها · وقد اخبرتها اني مسافر ولا بدَّ من السفر وساتحمَّل مضض الفراق لاني انا الجاني على نفسي · اقول ذلك ثم افكر في ما يأول اليهِ امر الجمعية السرية وتأثيرها في سياسة البلاد واحوالها المالية فترتعد فرائصي لانها اذا لم يتلافَ امرها ساءت بها سمعتنا وضاقت حلقات الازمة الحاضرة فلا بدَّ من بقائي هنا لعلي اساعد على احباط مساعيها· وقد يكون في ابتعادي عن السيدة نزهة ما يؤلمها ولا يجوز لي ذلك في شرع ولا في عرف لاني لم ارَ منها الأ كل ما يسرُّني ·اهذا هو الدافع لي الى البقاء وانا اتذرَّع اليهِ بالجمعية والمصلحة العمومية او الدافع اليهِ حبي لها وكراهتي الابتعاد عنها. فساورتني هذه الافكار الى ان تكبَّد البدر السماء وران الكرى على الاجفان فاستسلمت لسلطان النوم والاحلام · وقمت في الصباح منتعش القوى مطمئن البال على غير ما نمت كأن دمي نزح كل ما في جسمي من فضول اليوم الماضي وعوَّضني منها دقائق جديدة مملوءة قوة ونشاطاً فاغتسلت وافطرت ولبست ثيابي وعزمت ان ارد الى لورد هارفي كل النقود التي استلمتها منهُ لاني لم انفق منها شيئاً ولا عملت بها عملاً يذكر حتى الآن ثم اقطع تذكرة السفر من محل كوك واسافر في اول باخرة تذهب الى استراليا· وجلست اراجع حسابي وادبر اموري الى ما بعد العصر واذا بالمستر مكنزي قد جاءني وهو يقول لقد بلغنا غايتنا او كدنا فقد وقع الشقاق بين الاعضاء حتى يصحَّ فيهم قول مَن قال انهم اتفقوا على ان لا يتفقوا · والظاهر ان صاحبك الاستاذ هو سبب هذا الشقاق

قلت وكيف ذلك

قال ان تنويمك لهُ المرة بعد المرَّة اثَّر في ذهنهِ · ورفع راتبهِ زاد هذا التأثير والظاهر انهُ كلَّم بعض الاعضاء من الذين على شاكلتهِ وبيَّن لهم ان سعيهم عقيم واجتهادهم لا جدوى منهُ وانهم ينالون باللين ما لا ينال بالشدة . فلما اجتمعوا البارحة للاقرار على الاعمال التي يجب عملها والرجال الذين يعملونها ارتأى بعضهم تعيين الرجال بالقرعة كما يفعل

الفوضيون والنهلست فلم يوافقهُ جمهورهم على ذلك ووقع بينهم الشجار وارتأَى رئيس الجلسة تأجيل البحث في هذا الموضوع الى الليلة التالية فلم يشأْ طالبو القرعة ذلك وقال لهُ واحد منهم انك تطلب التأجيل هرَبًا فردَّ عليهِ الرئيس بكلام اغاظهُ وهدَّدهُ بالطرد من الجلسة فتوسط صاحبنا الاستاذ بينهما فكان جزاؤُهُ الشتيمة منهما كليهما فخرج مغضبًا والتقى بي هذا الصباح واسرَّ اليَّ ببعض ما جرى وهو يقول اننا اتفقنا على ان لا نتفق . فاخبرت صائب بك بما سمعت وهو استخلص بقية الخبر من بعض الذين يثقون بهِ . وفي رأْيهِ ان الفريق الاكبر منهم لا يزال مصرًّا على العمل وان بعضهم سيتبرَّع تبرُّعًا اذا لم يقرَّ القرار على الاقتراع وهم يحسبون ان امرهم لا يزال مكتومًا ومن رأْيهِ انهُ يكفي لتبديد شملهم اعلان امرهم لانهُ قلَّ من تحملهُ شجاعتهُ على الثبات . وقد ارسلوا تلغرافات رمزية الى اخوانهم في السودان هذا الصباح فحُجزت ولكننا لم نهتدِ الى حلها ولم نشأْ ان نخبر الاستاذ بها لاننا لا نأْتمنهُ الى هذا الحد اما المكاتيب فلا سبيل الى حجزها لانهم يرسلونها باسماء بعض التجار وقد اتيت الآن استشيرك في الامر

وظهر لي من كلامهِ انهُ لم يكن عارفًا بما اصابني من الخسارة فوقعت في حيرة . ثم خطر ببالي ان امين افندي كان معهم وان كان قد وقع الخلاف بينهم الآن وضعف امرهم فمن المحتمل اني استطيع ان اكتشف ذلك منهُ فقمت الى التلفون وكلمتهُ وطلبت منهُ ان يأْتي اليَّ لاستشيرهُ في بعض الشؤُون فقال انهُ يأْتي بعد ساعة فقلت للمستر مكنزي اني ابحث واعلمهُ برأْيي في المساء

واتاني امين افندي بعد ساعة وجرى بيننا الحديث التالي

— هل كتبتَ عقد الوكالة المطلقة لابيك في كل شيء في الرهن والبيع والقبض والوفاء

— نعم كتبتهُ

— هل خصصت البيع بالذكر وذكرت اطياني بمعالمها حتى لا يكون على عملهِ اقل اعتراض من المحكمة

— نعم فعلت ذلك والظاهر انك لاتزال مصممًا على السفر

— نعم لا ازال مصممًا لانني لا ارى لي سبيلاً آخر فانني اخاف ان املاكي كلها لا توفي ديوني اذا عُرِضت للبيع في هذه الايام ولاسيما اذا زيد الطين بلةً بما ينوي عليهِ الحزب الوطني او الجماعة القائمة لاحراج الانكليز واخراجهم من هذا القطر

— ما هو الضرر الذي ينالنا من خروجهم

— نفقد كل ما بقي لنا من الثقة المالية في اوربا الى ان تزول اسباب الاضطراب وهل يخطر ببالك ان الانكليز يخرجون من هنا الاّ اذا ارغمتهم اوربا على ذلك وكيف ترغمهم من غير حرب وهل تقع حرب ولا تتزعزع الثقة المالية واذا تزعزعت فمن يخرج نقوده من صندوقهِ ومن يشتري فدان الطين بعشرة جنيهات لا يا امين افندي لا ما دام حزب الثورة ناوياً هذه النيَّة فلا امل لي بايفاء ديوني من بيع املاكي ولا بدَّ لي من المهاجرة والهرب من هذه البلاد والسعي وراء الرزق في بلاد اخرى

فاحمرَّت وجنتاهُ وكنت اراهُ كمن يمنع نفسهُ عن الكلام او يزن كلامهُ قبل ان ينطق بهِ وبقي صامتاً دقيقةً من الزمان ثم قال

— حزب وطني حزب هلس كلنا هلس لا نصلح لشيء ولكن ما قولك فانت توافقني على اننا اذا أُعطينا الحكومة الذاتية اي اذا تُركنا لنتولَّى امر انفسنا فذلك اصلح لنا وقد لا يكون اصلح لنا في اول الامر ولكنهُ سيكون اصلح لنا اخيرًا فنقع ونقوم ونقع ونقوم الى ان نتعلَّم بالاختبار مواقع الضعف فنجتنبها ومواقع القوة فنلجأ اليها وأُؤكد لك ان هذا هو رأْي بعض نواب الانكليز ايضاً فاننا اذا قمنا وعملنا عملاً كبيرًا محسوساً يدلُّ على استنكارنا للحالة الحاضرة وعدم رضائنا بها فهم يشدون ازرنا في مجلس النواب الانكليزي ويهددون وزارة الاحرار بمقاومتها او تنيلنا مرادنا . والاحرار يضحون كل شيء حتى يبقوا في مناصبهم لانهُ مضى عليهم سنون كثيرة قبلما عادوا الى الوزارة وانت تعلم ان مصالحهم كثيرة مثل مصالح المحافظين فيضيع جانب كبير منها اذا طال انقطاعهم عن تقلُّد زمام الاحكام وقد اخبرونا صريحاً اننا اذا ضربنا ضربةً قاضية فهم يدافعون عنا ويحملون حكومتهم على انالتنا مطالبنا

— ما هي هذه الضربة القاضية

— هذه مسألة يصعب حلها بماذا تشير علينا انت

— اشير بان تقوم البلاد كلها قومة واحدة من حدود السودان الى آخر الوجه البحري وتحصروا الانكليز كلهم كما فعل اهالي الهند وتعلنوا انكلترا انها اذا لم تعلن الجلاء عن مصر في اربع وعشرين ساعة فلا امان على حياة رجالها فيجتمع مجلس النواب حالاً ويقوم اصدقاؤكم من اعضائهِ ويطلبون اعلان الجلاء وإخبار الدول الاوربيَّة بذلك رسميًا فيكون لكم ما تتمنونهُ قلت ذلك وانا اظهر الجد في مقام المزح

فتبسم وقال ما ادراك اننا لا نفعل ذلك

فقلت ومن قال انكم لا تفعلون ذلك اليست هذه هي خطتكم التي تحالفتم عليها
فامتقع وجههُ ولم ينطق بكلمة وانتظرت برهةً ولما رأيتهُ صامتاً لا يتكلم لم اشأ ان اقف عند هذا الحد بل قلت له انت ترى ان كل ما تقولونهُ وتصممون عليهِ في سركم يُعلَم تماماً . والراجح عندي ان الانكليز يعلمون الآن كل كلمة قيلت في جمعيتكم ويعلمون اسم كل عضوٍ من اعضائها لانهم غير غافلين عن ذلك ولا رجالكم كلهم اهل لحفظ السر ومن منهم لا يشتري رضى المحتلين بخبر ينقله اليهم وما ادرانا ان ليس بعضكم جواسيس على بعض بل ما ادرانا ان الذين يحرّضونكم على هذه الاعمال هم هم يشون بكم لاني لا ابرئهم من غاية يقصدونها ونفع يجرونهُ الى انفسهم فان كانت جرائد اميركا اوقعت العدوان بين اميركا واسبانيا واوقدت نار الحرب بينهما لكي يكثر قرّاؤُها بنشر اخبار القتال فلا يكثر على امثالها ان توقع اضطراباً في هذه البلاد يطول امره اياماً واشهراً لكي يتسع لها مجال النشر عنهُ . وزد على ذلك ان الماليين كلهم يتوقعون مثل هذه الحوادث ليكتسبوا بها بهبوط الاسعار وارتفاعها فانهُ اذا حدثت ثورة في القطر المصري هبطت اسعار اوراقهِ المالية عشرين او ثلاثين في المئة فيشتغل السماسرة والماليون بها بين بيع وشراء وتكثر مكاسبهم
فقال اظنك مصيباً في كل ما قلت يا لخيبة الامل . اذًا انت واثق اني منهم
قلت لا ريب في ذلك وقد رأيت اسمك في دفتركم بعيني ورآه اولو الحل والعقد منهم ولكن يحتمل انهم لم يعرفوا انك انت المراد بذلك
فقال ومن اطلعهم على اسمائنا
قلت هذا سر لا يمكنني ان ابوح بهِ ولكن هناك اسماء أُخرى ها كها لترى اني غير مخدوع ثم ذكرت له اسماء كثيرة مما بقي في ذاكرتي
فغير موضوع الحديث وقال لي كلٌّ يعمل على شاكلتهِ فمالنا ولهم ولكن ما قولك في مجلس النواب لماذا لا يكون لنا مجلس نوّاب مثل غيرنا من الامم الراقية
قلت لا اعلم ما هو اعتراض المحتلين على ذلك ولكن لا يخفى عليك اننا نحن الشرقيين نقيم الجامعة الدينيةَ فوق كل جامعة فاذا انقسمنا الى احزاب تكوّن منا حزبان حزب كبير جدًّا يشمل تسعة اعشار السكان او اكثر وحزب صغير يشمل عشر السكان او اقل فيكون اعضاء المجلس كلهم من الحزب الاول . ومعلوم ان كل حزب يراعي مصلحتهُ ولا يراعي مصلحة غيرهِ اذا كانت مخالفة لمصلحتهِ الاَّ اذا اراد ان يسلفهُ ليستوفي منهُ اي اذا تعادل الحزبان فان كلاًّ منهما يصير يراعي مصلحة الحزب الآخر مع مصلحتهِ حتى اذا اعطيت ازمَّة الحكومة

للحزب الآخر لا تضيع مصالح الحزب الاول — اما اذا بقيت ازمة الحكومة في يد حزب واحد لم يعد يخشى من مناظرة الحزب الآخر له ُ. ولو كانت مصالح الحزب الاصغر صغيرة مثله ُ لجاز الاغضاء عنهُ وعنها لان القليل يضحى في سبيل الكثير ولكن مصالح الحزب الاصغر تساوي مصالح الحزب الاكبر او تزيد عليها فلا يقبل منصف ان تضحى وهي تشمل جانباً كبيرًا من اطيان القطر واكثر مباني المدن الكبيرة وكل البنوك والشركات التي فيها. ولا منجاة من ذلك الأ اذا بطل انقسام الناس بحسب اديانهم في مصالحهم المعاشية والسياسية وهذا سيأتي يوماً ما ولكنني اخاف ان يكون ذلك اليوم بعيدًا. وانت ترى ان الامر الذي اشرت اليهِ خاص بالقطر المصري وما من بلاد اخرى يمتلك عشر سكانها نصف مصالحها غير هذا القطر

وهناك امر آخر خاص بهذا القطر ايضاً دون سواهُ وهو ان معايش الناس فيهِ متوقفة على ارادة جماعة من رجال الحكومة لانها متوقفة على ري الاطيان من النيل وتوزيع مياه النيل في يد رجال الحكومة وهذه المياه محدودة المقدار وقت الحاجة اليها لا تروي الأ مقدارًا معلوماً من الاطيان وفي اوقات محدودة فاذا لم يعدل رجال الري في توزيعها نفعوا زيدًا واضروا عمرًا ولذلك تمنع الحكومة المصرية موظفيها من امتلاك الاطيان في الاماكن التي يقيمون فيها لكي لا يستعملوا سلطتهم في جر النفع الى انفسهم فيضروا غيرهم. ومعلوم ان اعضاء مجلس النواب ينتخبون من اصحاب الاطيان الواسعة فلا بدَّ لهم من ان يراعوا مصلحتهم ويفضلوا نفعهم بحكم الفطرة ويضطر رجال الري ان يراعوهم ايضاً ما دام زمام الامور في يدهم فهم ككبار رجال الحكومة من هذا القبيل واذا فُضِّلت مصالحهم على مصالح غيرهم وقع الضرر على مجاوريهم من اصحاب الاطيان فاما ان يصبروا على الضيم او تقوم في البلاد الخصومات والمشاكل الكثيرة والفلاّح يقتل اباهُ على نقطة ماء. ولا سبيل للخلاص من هذا المشكل الأ بحرمان كبار المالكين من ان ينتخِبوا ومن ان ينتخَبوا اي يجب انتقاء اعضائهِ من الذين لا اطيان لهم في البلاد فيبطل بذلك اول ركن من اركان الحكم النيابي وهو حريَّة الانتخاب. فحالة القطر المصري خصوصية من هذا القبيل لا مثيل لها ولا يناسبهُ الا حكومة دستوريَّة في يد اناس مختارين اختيارًا مثل حكومتهِ الحاضرة ولذلك نجح في عهدها نجاحاً باهرًا لا يفضلهُ نجاح البلدان التي حكومتها نيابيَّة

فقال هذا امرٌ لم يخطر على بالي قبلاً وقد تكون مصيباً فيهِ ولكن لا يتعذَّر علينا تلافي السبب الاول بقسمة الاعضاء الى حزبين غير دينيين كان نخلق غرضاً لنقسم فيهِ مثل

جعل التجارة حرة او غير حرة فيتألف كل قسم من القسمين من مسلمين ومسيحيين او بان نجعل المجلس مجلسين ويكون اعضاء المجلس الاعلى معينين تعييناً من العلماء والعظماء واصحاب المصالح الكبيرة في البلاد ويكون له الحكم في قبول ما يقرّ عليهِ مجلس النواب او رفضهِ كما يفعل مجلس الاعيان في بلاد الانكليز . واما استعمال النواب مركزهم في جر المنافع اليهم فالصحف تكفي لمنعهِ لانها تندد بالذين يفعلون ذلك وتشهّرهم والمثل الانكليزي يقول اذا وجدت الارادة وجدت الطريق فلترد الحكومة الانكليزية اعطاءنا مجلس نواب فنجد عندنا مجلساً لا يقلُّ عن مجلسها في علوّ شأنهِ وسنعود الى هذا الموضوع في فرصة اخرى.

ثم ان نزهة قال لي انك مصمم على السفر الى استراليا فهل ذلك صحيح

فقلت نعم لاني لا ارى لي سبيلاً الى البقاء هنا وقد قلت لي انك كتبت التوكيل لابيك فعيّن اليوم حتى نذهب الى المحكمة وامضيهُ لك

فقال اسمع مني وغيّر فكرك وتعال معنا الى بلاد الانكليز

فقلت يا للعجب انطردونهم من بلادكم ثم تذهبون الى بلادهم

فقال انت تعلم ان مقاصدنا شريفة ولا محل للجدال الآن في الغاية الموصلة اليها اما ان كان بيننا خوَنة يفشون اسرارنا بعد اخذ الايمان المغلظة على كل واحد منا فهذا امر يفوق حدسي وتصديقي وقد كنت عازماً ان ابقى هنا ولا اسافر مع اهلي هذا الصيف اما الآن فقد عزمت على الذهاب معهم وترك الدار تنعي من بناها . ونحن الشرقيين لا تقوم لنا قائمة ما دام اعداؤنا منا وفينا وهذا كل ما يمكنني ان اقولهُ في هذا الموضوع واطلب منك ان لا تكلمني فيهِ بعد الآن ولكنني اتوسل اليك ان تسمع نصيحتي وتسافر معنا باسرع ما يمكن ولا اذهب من هنا حتى تعدني بذلك وانا واثق انك ستشكرني يوماً ما لاني لججت عليك هذه اللجاجة واقنعتك بالسفر معنا فعدني الآن انك تفعل حسب رغبتنا كلنا ابي واختي واخوي وانا ومس مكدن

ولما قال مس مكدن تبسم كمن يلمّح الى شيءٍ

فقلت اني استغرب لجاجتك في هذا الامر ألا تعلم اني امسيت صفر اليدين لا اكاد املك شيئاً

فقال ذلك افضل لك لان المال لا يأتي منهُ الاَّ التعب وان لم يكن معك نفقات السفر فانا ادفعها لك

فشكرتهُ وقلت لهُ اني افكّر في الامر قبل ان ابتّ رأيي فيهِ . ثم ودعني ومضى

الفصل الثاني والعشرون

الضربة القاضية

سافرت عائلة ابرهيم بك فودعتها ووعدتها اني اتبعها بعد اسبوعين من الزمان وقد لجّت كثيرًا لاذهب معها فاكرهت نفسي على الاباء حتى كاد يقوم في نفس السيدة نزهة اني اكره السفر معهم ولم استطع ان اكشف لها جليّة امري بل فضّلت ان تتهمني بشيء ليس فيَّ على ان افشي لها سر بقائي في مصر ورجعت من وداعها ويكاد قلبي يطير وراءها

واليوم التالي لسفرهم كان يومًا مشهودًا لم ترَ مصر مثلهُ من ايام المماليك ولكن لم يعلم بهِ الا نفر قليل ولم تنشر عنهُ الجرائد حرفًا

لما تحققت من كلام الاستاذ وامين افندي وغيرهما من الذين سبرت غورهم ان الجمعيّة السريّة مصممة على عملها رغمًا عمّا وقع بين اعضائها من الشقاق وان اعضاءها المتفرقين في الاقاليم عازمون على العمل في وقت واحد في اليوم والساعة ابديت رأيي للورد هارفي فقلّبهُ على وجوه كثيرة وخابر انكلترا بهِ فوافق وزير الخارجيّة ووزير الحربيّة عليهِ

وفي التاسعة والعشرين من الشهر القمري قامت فرقة من الجيش الانكليزي من ثكنة قصر النيل نحو نصف الليل وسرت الهوينا الى ان بلغت باب الخلق وقد البست حوافر خيلها احذيةً من اللبد ثم احاطت بالدار التي تجتمع فيها الجمعيّة السرية وملأت الشارع الموصل اليها ولما رآهم البواب فرَّ هاربًا فدخلوها وصعد جماعة منهم الى غرفة الاجتماع والمسدسات في ايديهم وكان الاعضاء جلوسًا ومسدساتهم امامهم فتبادلوا بعض الطلقات النارية وعلت الضوضاء واطفأ الرقيب نور الكهرباء ولكن كان مع الجنود الذين دخلوا قناديل سرية فاظهروها وفي اقل من ساعة قبضوا على كل الحضور وكتفوهم ووقع جريحان على الارض وهما من الجنود فاعتنى رفاقهما بهما

وكان الاعضاء الحضور لا يزيدون على ستة وعشرين وستبقى اسماؤهم مكتومة ما لم يفشوها هم وفُتحت الدفاتر وطلب من الكاتب ان يكتب الى كل رؤساء الاعضاء في الاقاليم يخبرهم بما حدث وبان اسماء الاعضاء كلها صارت في يد رجال الحل والعقد وان يختم الكتابة بخاتم الجمعية

وأُجلس الاعضاء الستة والعشرون على مقاعدهم وخاطبهم قومندان الجيش بواسطة الترجمان قائلاً

اننا لا نلومكم على الغرض الذي ترمون اليهِ ولكننا نلومكم ونخطئكم في الوسائل التي عزمتم على اتخاذها فانها جنائية ولا تنيلكم الغرض المطلوب بل تبعدكم عنهُ او تجعلهُ مما يستحيل الحصول عليهِ ولعلَّ اللوم علينا لاننا استعملنا اللين الزائد معكم وسمحنا لجرائدكم بتضليلكم اما اللين فطبعنا ولا نريد تغييرهُ واما اطلاق الحرية للجرائد فقد كنا نظنهُ مفيداً لكم ولم يخطر لنا انهُ يأول الى تضليلكم ولقد حذرتمونا انتم من هذه الحرية فلم نسمع شكواكم ونرى الآن انكم كنتم مصيبين واننا نحن المخطئون وهذا هو الشفيع لكم عندنا فان كنتم تعدوننا الآن وعداً اكيداً انكم تعدلون على الخطة التي كنتم جارين فيها فنحن نعدكم بكتمان اسمائكم ونسيان ما بدا منكم حتى الآن وما كنتم عازمين عليهِ حتى لا تروا منا في معاملة الموظفين منكم اقل فرق عمَّا اعتادوهُ من المعاملة وان كنتم لا تعدوننا هذا الوعد الآن بالقسمَ على الانجيل والقرآن فاننا نجركم الى المحاكمة في مجلس عسكري لانكم شارعون في ثورة ومتهيئون لها وانتم تعلمون عقاب مَن يخرج على حكومة بلادهِ ويعرضها لثورة داخلية

ووقف واحد منهم وهو من المحامين المشهورين بقوة العارضة وضعف المبادىء فمنعهُ قومندان الجيش عن الكلام وقال لهُ ليس المقام مقام اتهام ودفاع بل مقام طلب المعذرة عن ذنب ارتكبتموهُ والعفو عن جرم اقترفتموهُ فاما العفو واما العقاب

وكان بينهم شيخ عركهُ الدهر ولم ينجُ من عواقب الثورة العرابيَّة الَّا بشق النفس وقد عُرف بادارة شراعهِ الى كل ريح فقال انا اول مَن يطلب العفو والمرحمة فانكم انتم الذين انقذتمونا من نير حكامنا السالفين ولولا تزيين بعض رجالكم لنا الخروج عليكم ما كنا لنفعل ذلك . وتلاهُ آخر وآخر وكان اقلهم كلاماً اشرفهم نفساً واقربهم الى الانصاف والانتصاف . فحلفوا كلهم يمين الطاعة للحكومة وعدم الخروج عليها بوجه من الوجوه فأُطلق سراحهم واحتمل الجنود القتيل والجريحين واخذوا دفاتر الجمعية وعادوا من حيث اتوا

وفي صباح الليلة التي حدث فيها ما حدث دعي زعماء الجمعية في السودان الى دار واحاطت بهم الجنود وأُخبروا بكل ما عُلم من امر جمعيتهم وما حدث لزعمائها في القاهرة وهُددوا بالمحاكمة في مجلس عسكري فاقسموا يمين الطاعة . ووصلت المكاتيب الى الاقاليم فهلعت القلوب خوفاً وصمتت الالسنة . وقد مضت الايام ولم اسمع ان احداً اشار الى هذه الجمعية بكلمة او بحرف . ولما اطمأَن بالي من هذا القبيل عزمت على السفر الى انكلترا تابعاً عائلة ابرهيم بك

الفصل الثالث والعشرون

توالي المصائب

توالت عليّ المصايب وتفاقمت والمصايب لا تأتي فرادى . خرجتُ بالامس من بيتي ومضيت الى محل كوك لاقطع اوراق السفر واقمت هناك نحو ساعتين لكثرة الطالبين ولاختلافنا على الغرفة التي اخترتها . أقمت ساعتين وانا لا ادري ما خبأهُ لي القدر فيهما . وضعت ورقة السفر في جيبي وذهبت لابتاع ما لابد لي منهُ من الامتعة فرأيت مركبات الحريق تسير تباعاً سراعاً فقلت في نفسي انها دُعيت احتيالاً للتمرُّن لان النيران قلما تضطرم في النهار ولم امر طويلاً حتى التقى بي رجل اعرفهُ وقال لي أأنت هنا تمشي الهوينا والنار تضطرم في بيتك . فجعلت اعدو على رجليّ والمركبات حولي ومن عادتي ان اركب مركبة لاقلّ داعٍ لكنني لم انتبه لها الآن بل حسبت انني لا استطيع ان اصل الى بيتي الا عدواً . رآني الناس اعدو فجعلوا يعدون ورائي وهم يصيحون حرامي حرامي واكثرهم من الغوغاء والجهال وتبعهم رجال البوليس وكدنا نعثر بخطوط الترامواي ونقع بعضنا فوق بعض . وجددتُ في عدوي حتى انقطع نفَسي وكدت اقع عياء . ولما دنوت من البيت ورأيتُ الدخان مسردقاً فوقهُ ويندفع منهُ كأنهُ من افواه المدافع تخللهُ ألسنة النار تعلو وتندلع ثم تنقطع ويتلوها غيرها والمضخات تضخ الماء من الشارع فتزيد النار احتداماً كأن الماء زيت يصب عليها — لما رأيت ذلك كلهُ خانني جلدي فصرخت بيتي بيت ابي مسقط رأسي ما هذه البلية ما هذه المصيبة كتبي دفاتري اوراقي حججي عقودي كل ما املكهُ كل ما بقي لي في هذه الدنيا . وهجمت على النار ودخلت باب البيت كمن يلقي بنفسهِ في الاتون فامسك بي احد رجال المطافىء وقال خذوا هذا المجنون من هنا فحاولت الافلات منهُ ولكنهُ قبض على ذراعيّ ودفعني الى الوراء فوقعت على جنبي ونهضت حالاً وهجمت عليهِ وقلت لهُ كيف تمنعني من دخول بيتي . فرأيت انهُ لم يسمع كلامي لانهُ كان ملتفتاً الى كوّة في اعلى البيت فالتفت اليها واذا خادمي الامين فيها فناديتهُ باسمهِ وقلت لهُ الق بنفسك ومددت يدي كمن يحاول استلقاءهُ . ونشر رجال المطافىء ملاءة كبيرة امسكوا بزواياها الاربع واشاروا اليهِ ليرمي نفسهُ ووقفت انا اناديهِ واشير اليهِ ليفعل ذلك ففعل ونجا واقبل على يديّ يقبلهما ويقول لا تصمد فقد احترقت الغرف كلها واحترق كل ما فيها ولم انقذ غير هذه الاوراق واعطاني رزمة كبيرة كانت في يدهِ فاخذتها

وكدت ارمي بها في النار لو لم يخطفها من يدي . وارى الآن انهُ اصابني نوع من الجنون حينئذٍ لان اعمالي صارت كاعمال المجانين . واقبل بعض الاصدقاء فاحتملوني في مركبة وذهبوا بي واحترق البيت كلهُ ولم يبقَ منهُ الا جدران قائمة فلم يعد السفر يخطر لي ببال حينئذٍ لاسيما وان ثيابي كلها احترقت وليس في الامكان ان اخيط غيرها واسافر في السفينة التي كنت عازماً على السفر فيها

لكن الدهر الذي عبس في وجهي بسم في وجه غيري فقد جاءني كتاب من الدكتور يوسف يقول فيهِ بعد الديباجة "ماذا جرى عندكم حتى انتقلت الحال من العسر الى اليسر. اتتذكر لما ودعتنا على المحطة انني ملت انا وابي وتكلمنا مع احد السماسرة فانهُ تبعنا الى المحطة وقال لنا ان تحت يدهِ الف سهم من اسهم البنك الاهلي وصاحبها ساعٍ الى بيعها لانهُ مضطر الى النقود وهو يقبل ١٦ جنيهاً ثمن السهم اذا كان الدفع نقداً والثمن الآن ١٧ جنيهاً وهي بهذا السعر اي ١٦ جنيهاً تعطي ربحاً خمسة في المئة او اكثر فلا بد من ان يرتفع ثمنها حالما تحسن احوال السوق لان اغنياء اوربا يكتفون باربعة في المئة او اقل اذا كان الربح مضموناً . فرأى ابي ان الصفقة رابحة واشتراها منهُ واعطاهُ تحويلاً على البنك بالمبلغ على التسليم فلما وصلنا الى مرسيليا هذا الصباح رأينا في جرائدها ان سعر اسهم الاهلي بلغ ٢٢ جنيهاً فبعثنا تلغرافاً الى السمسار نأمرهُ ببيع هذه الاسهم حالاً فباعها لنا وبلغ متوسط ثمنها ٢١ جنيهاً ولا بدَّ من ان يكون بيعها قد انزل السوق . وجاءنا تلغراف منهُ بذلك فبلغ ربحنا خمسة آلاف جنيه في اقل من خمسة ايام ونحن الآن منتظرون ان تفي بوعدك وتقوم باول وابور يقوم من الاسكندرية ولك عندي بشارة اخرى ساطلعك عليها بعد وصولك الينا "

لما قرأت هذا الكتاب خطر على بالي قول مَن قال

خُصَّ بالمال واليسار اناسٌ واراني خُصصتُ بالإملاقِ
انا لا شكَّ من بقية قومٍ خُلقوا بعد قسمة الارزاقِ

ولم احسد ابرهيم بك على كسبهِ بل سررت بهِ غير اني فكَّرت في احوال الدهر وقلت لا بدَّ من يد للسعد والنحس في شؤُون الناس والاَّ فكيف يتفق ان تتوالى عليَّ النقم وعلى غيري النعم فان كانت خسارتي بالقمار ناتجة عن جهلي اساليب اللاعبين فاحتراق بيتي لا يد لي فيهِ وما هو الاَّ قضاء وقدر . وكذا كسب ابرهيم بك خمسة آلاف جنيه في خمسة ايام لم يتعب فيها ولم يشقَ بل اتاهُ الربح منساقاً اليهِ وهو سائر في عرض البحر

وكنت قد رأيت ارتفاع الاسعار المتوالي وعرفت سببهُ لان مكاتب التيمس عرفه

بنكية الجمعية السرية وبعث بالخبر تلغرافيًا الى جريدته وفي اليوم التالي جاءت التلغرافات الى مكاتبي الدايلي نيوز والدايلي كرونكل والدايلي ميل تطلب منهم ان يرسلوا اليها تفصيلاً مسهبًا عمّا حدث فكان لذلك وقع كبير في الدوائر المالية في انكلترا وللحال اطمأنت الخواطر واقبل الناس على ابتياع الاسهم المصرية واعالي مصر لا يعلمون سبب ذلك · وقد حمل الينا البريد الاخير الجرائد الانكليزية وفيها تفصيل مسهب لما جرى وما احدثهُ في الاسواق المالية . وانا كنت اعرف ذلك ولم استفد منهُ على الاطلاق بل لم يخطر ببالي ان استفيد منهُ فكيف عميت عن مصلحتي فلم اغتنم هذه الفرصة فالنحس اعماني عنها والسعد دفع ابرهيم بك الى مشترى الف سهم من غير سعي والدنيا قسم

ويختلف الرزقان والسعي واحدٌ   الى ان ترى احسان هذا لذا ذنبا

وقد تخدع الدنيا فيمسي غنيُّها   فقيرًا و يغنى بعد بؤس فقيرُها
فكم قد رأينا من تكدُّر عيشة   واخرى صفا بعد اكدرار غديرُها
وكم طامع في حاجة لا ينالها   ومن آيس منها اتاهُ بشيرُها

وما يدري الفقير متى غناهُ   ولا يدري الغني متى يعيلُ
ولا تدري اذا يممتَ ارضًا   باي الارض يدركك المقيلُ

ولم ارَ ذا عسر يدوم ولا ارى   مكان الغنى الاّ قريبًا الى الفقرِ
وان يكُ عارًا ما اتيت فربما   اتي المرء يومُ البؤس من حيث لا يدري

هذه ابيات لشعراء العرب عبَّروا بها عمّا خبروهُ من حال الزمان وقالوها عفوًا من غير تعمل . وقد كنت انكر السعد والنحس واقول بالسعي والاجتهاد واعلّق نجاح المرء على جدهِ اما الآن فتزعزعت ثقتي ولا سيما بعد هاتين الحادثتين احتراق بيتي ولا استطيع ان ابنيهُ الآن بخمسة آلاف جنيه وكسب ابرهيم بك خمسة آلاف جنيه وهو لم يسعَ اليها ولا حرَّك في طلبها يدًا فلا بدَّ من قوّة فاعلة تفوق طور البشر تدبّر شؤونهم فتغني وتفقر وتُسعِد وتُشقي وانا الآن في دور الشقاء

وخلاصة المقال ان نجم سعدي قد افل وزهري انقلب كان معي فصار عليَّ والدهر في الناس قلَّب

ان دان يومًا لشخص   ففي غد يتغلَّب

فلا تثق بوميض من برقهِ فهو خُلَّبْ
واصبر اذا هو اضرى بك الخطوب والِّبْ
فما على التبر عارٌ في النار حين يقلَّبْ

فلقد عبس في وجهي ثم بسم وهو الآن كالح عبوس ولا ادري متى تنفرج هذه الازمة ونحن مسيَّرون لا مخيَّرون . وان كان الامر كذلك فما فائدة السعي والحنكة . ولماذا هذا الجهاد المستمر والنصَب الدائم

ومن الغريب اني لم اكن مؤمّنًا على بيتي ولا على اثاثي فخسرت كل شيء في يوم واحد مع اني كنت انصح للناس ان يؤمّنوا حياتهم وبيوتهم . وقد عُرض عليَّ ثمن فاحش بهذا البيت منذ اربعة اشهر فلم ابعهُ لاني لم ارد ان يهدم بيت ولدتُ فيهِ وورثتهُ من ابي ولو كان قديمًا واذا اردت بيع ارضهِ الآن فلا اجد لها مشتريًا لان الضيقة المالية استحكمت حلقاتها ولا ترى مشتريًا واحدًا حتى ترى مئة بائع ولو لم تهبط الاسعار حتى الآن . ولكن يحتمل ان تروج الاشغال ثانية ما دام سعر القطن عاليًا جدًّا فان ثمن هذا الموسم سيبلغ ثلاثين مليونًا من الجنيهات او اكثر فنوفي بهِ ثمن ما نستوردهُ من البضائع وربا دين الحكومة ويبقى في البلاد ما يكفي لترويج الاشغال فيها . وما دام سبب القلق السياسي قد زال فلا بد من رجوع المياه الى مجاريها ما لم يقم عندنا وفي البلاد الانكليزية طائفة اخرى من المتجرين بالشغب والاراجيف

لما رأيت ان لا امل لي بانقاذ شيء من امتعتي اشتريت الضروري من الثياب وانتقلت الى فندق شبرد واخترت غرفةً تطلُّ على الشارع لاسلي نفسي برؤية المارين فيهِ ومراقبة احوالهم . ثم كتبت الى بيت ايرهيم بك اخبرهم بخلاصة ما جرى لي لان الصحف نشرت خبر احتراق بيتي فلم يعد في الامكان اخفاؤهُ وقلت لهم اني عدلت عن السفر بتاتًا

وسافر المستر مكنزي الى اوربا بعد النكبة بيوم واحد وجاءني منهُ كتاب مسهب من لندن كتبهُ يوم وصولهِ اليها وقال لي فيهِ انهُ وجد الدوائر المالية ناقمة علينا اشد النقمة وكذلك فريق كبير من حزب الاحرار . اما الدوائر المالية فلان بعضها رأى هبوط الاسهم المصرية المستمر واضطراب الاحوال في القطر المصري فباع على المكشوف حاسبًا ان هذا الهبوط سيتوالى ولاسيما بعد ما يفلس اكثر الشركات فيغطي ما باعهُ بثمن بخس جدًّا كما فعل في عهد الثورة العرابية . والظاهر ان بيت . . . . كان يعلم بتصميمنا على نكبة الجمعيَّة السرية وتمزيق شملها واعادة الامن والاطمئنان الى البلاد فكان سماسرتهُ يشترون لهُ كلَّ

ما يُعرض في السوق . فلما نشرت جريدة التيمس خبر النكبة في صباح الليلة التي حدثت فيها وخرجنا منها فائزين ذعر البائعون فتهافتوا على الشراء ولا سيما بعد ان أبدت جرائد المساء خبر جريدة التيمس وابدتهُ جرائد الصباح في نسخات اصدرتها ظهر النهار . قال ولا ادري كم بلغت الخسائر ولكنها فاحشة جداً فان احد اصدقائي خسر وحدهُ نحو ستين الف جنيه وهو واحد من كثيرين . وقد بردت السوق نوعاً الآن لان الارتفاع حدث بسبب كثرة المكشوف ولولا الخوف من افلاس كثيرين لاستمر الارتفاع لان بيت . . . . كانوا قد اشتروا مبالغ طائلة فلو مسكوا يدهم واصرّوا على التسليم ولم يبيعوا لارتفع ثمن الاهلي الى اربعين جنيهاً او خمسين وثمن الزراعي الى عشرين او ثلاثين وقس على ذلك سائر الاسهم التي تعاملوا بها كما حدث عندكم في اسهم دفريس ولكنهم شفقوا على الناس بعد ان مصّوا دمهم وابقوا فيهم بقية من الرمق . نحن نتعب ونشقى ونخاطر بارواحنا ولا يذكر اسمنا ولا نستفيد شيئاً وهؤلاء الداريون يديرون دفة الاموال كما يشاؤون وهم جالسون على كراسيهم في بيوتهم وان شئت فقل انهم يديرون دفة السياسة في المسكونة كلها وسيكون شأنهم في القرن التالي اعظم من شأن الملوك والقياصرة في القرن الماضي ان لم تتغلّب الاشتراكية عليهم وتنزلهم عن عرش سيادتهم . اما شركتنا شركة قارون فحالها عدم واخي يشكر الله لاننا لم نخسر كثيراً ولا خسّرنا غيرنا . والاطيان التي ابتعناها اطيان زراعية من اجود اطيان القطر المصري وقد ابتعناها بثمن بخس ومراد اخي وشركائهِ ان يأخذوها لحسابهم ويصفّوا الشركة ويردوا للناس ما دفعوهُ فنخلص من وصمة العار

هذا فريق من الماليين وعندنا فريق آخر تعلمهُ وهو الذي يسعى دائماً في حمل حكومتنا على ضم القطر المصري الى بلادنا لكي تبقى مصالحهم فيهِ مضمونة دائماً واكثر هذا الفريق من غير امتنا فساءهُ ما فعلناهُ وهو يسعى الآن الى اثارة الخواطر علينا ولا يبعد ان يعمد الى نيل مرادهِ باساليب اخرى فيرشي جرائدكم حتى تحرك الفتنة في البلاد وهي قادرة على ذلك فقد بلغني وانا آتٍ في الطريق ان في يد احد اصحاب الجرائد المصرية صكاً على كبير يتعهد لهُ فيهِ بان يدفع اليهِ اربعة آلاف جنيه كل سنة ان هو نُفي من القطر المصري بسبب ما يكتبهُ في جريدتهِ ولذلك يتفانى في احراج الحكومة الى نفيهِ بكل اساليب الطعن والشتم والتعيير. والظاهر ان رجال الحكومة يعلمون ذلك وهم صابرون على الضيم حتى لا ينال ذلك الرجل مأربهُ لكنهم يفعلون فعل من يحرق بيتهُ لكي لا يستظل خصمهُ بظلهِ

اما السياسيون الذين نقموا علينا وسلقونا بالسنة حداد في مجلس النواب فلا بدّ من ان

تكون قد اطلعت على اقوالهم فينا فقد قالوا اننا اعدنا عصر تيمورلنك وجنكيز خان وديوان التفتيش واننا انتهكنا حرمة البيوت وحرية الافراد واكثروا من الضوضاء ورئيس المجلس ساكت لا يحير جواباً الى ان قام عضو من المحافظين وحمل عليهم حملة منكرة وقال انهُ ما كان يرى للوزارة الحاضرة الاَّ السيئات اما عملها هذا فمحا اكثر ذنوبها لانهُ انقذ القطر المصري وكل البلدان الشرقية من شر تلك الجمعية الخبيثة . ولما رأى الاحرار ان المحافظين مؤيدون للوزارة سكنت ثورتهم . ولا ادري ماذا كان تأثير عملنا عندكم حينما اشاعتهُ جرائدكم

هذه خلاصة ما كتبهُ اليَّ في هذا الموضوع اما جرائدنا فلم تبحث فيهِ في اليوم التالي بل في الذي بعدهُ واكثرها يبحث فيهِ بحث الواجم ولا شبهة عندي ان اقلها كلاماً فيهِ اكثرها استعظاماً لهُ واكبارًا منهُ . ولقد لقيت الاستاذ بعد يومين فلم يشر الى ما حدث بكلمة . وقد اخذ كل احد يتبرأ مما حدث ويقول انا مالي . وسافر كثيرون من اعضاء الجمعية الى اوربا وظاهر الامر انهم ذهبوا هرباً من الحر والحقيقة انهم خافوا من ان يتّهموا بتهمة اخرى قصد الانتقام منهم . وقد زعمت احدى الجرائد ان الدفتر الذي فيهِ اسماء الاعضاء وقوانين الجمعية مزوّر وان الذين وُجدوا في دارها كانوا مجتمعين لغرض غير حسن ولكنهُ ليس سياسياً فانهم كانوا يجتمعون للمسامرة ويقامر بعضهم لا كلهم وهذا امر غير حسن لذاتهِ ولكنهُ ليس سياسيًا على الاطلاق . وبمثل هذه السخافات ارادت ان تبرئهم ثم حملت على المحتلين حملة شعواء واتهمتهم باختلاق المشاكل قصد الايقاع بالوطنيين وتسويد صحيفتهم في اوربا لكي يشتد الضيق المالي عليهم ويضطروا ان يبيعوا اطيانهم فيشتريها الاوربيون منهم ويمتلكوا بلادهم . وكثر تحدث الناس في هذا الموضوع في الايام التالية ولكن احتراق بيتي المالي عنهُ فلم اعد اهتم بهِ بل صارت نكبتي شغلي الشاغل

والتقيت بالدكتور عبد الله غير مرة فحاد من طريقي ولم يسلّم عليَّ وبلغني انهُ شامت بي وقد حرّض اختهُ لتكاتب السيدة نزهة وتخبرها بما اصابني . نعم لقد ضاقت بي المذاهب ويقال ان البلايا اذا توالت تولّت فعسى ان يكون هذا نصيبي فيبتسم لي الدهر بعد عبوسهِ

الفصل الرابع والعشرون

انفراج الازمة

هذه اربعة اشهر اخرى مرّت كحلم النائم والحياة كلها حلم وغمامة صيف . ولا معزي لي الاّ مكاتيب السيدة نزهة وابيها واخوتها فانها لما رأت توالي النكبات عليّ بادرتني بالكتابة تهوّن عليّ الامر وتقوي فيّ الاَمل كأَنها اشفقت ان تبرّح بي النوائب فأَستسلم للقنوط وجعلت تكتب اليّ مرتين في الاسبوع بالاضطراد فصارت مكاتيبها تعزيتي الوحيدة وجعلت انتظرها كليالي العيد وكنت احسب خسارتي المالية ربحاً كبيرًا لانها حنت عليّ قلب هذه الفتاة الطاهر ثم اعود الى عقلي واحاسب نفسي فارى اني مخطيء ولا يحق لي ان اشركها في الضراء ولم اشركها قبلاً في السرّاء . الاّ ان رجوعي الى عقلي صار نادرًا فغصت في تيار الحب والامل وجعلت اعدُّ الايام والساعات وانتظر رجوعها بفروغ الصبر

وقبل ان عادت عائلة ابراهيم بك بنحو شهر من الزمان بعثت اليّ تخبرني ان الدكتور يوسف خطب مس مكدن وان اباها لم يسلم بذلك اولاً لانهُ كان يود تزويجها من لورد مورلي ولكنهُ سلم اخيرًا لما رأى اصرارها وبعد ان عاشر الدكتور يوسف ورأى كرم اخلاقهِ وصحة معارفهِ

وقد سرّني هذا الخبر لكنهُ حرّك فيّ عوامل الغيرة ضنًّا بالسيدة نزهة ان ترى اخاها وزوجتهُ في بسطة من العيش وهي مقترنة بفقير لا يملك شروى نقير . ترى الفتاة التي كانت معها رفيقة مأجورة قد صارت سيدة عليها ولا تزال السيادة للمال . فجعلت افكر في طريقة اصرفها فيها عن عزمها لاعتقادي انها تجد لها رجلاً اغنى مني واكفى . وقد ساورتني هذه الهموم ونغّصت عيشي ولولا اشتغالي المتواصل بمراقبة اطياني واملاكي ولولا مكاتيب السيدة نزهة التي كانت ترد عليّ بالاضطراد لوقعت في وهدة اليأس

ثم جاءتني ورقة الدعوة الى الاكليل وارسلت تلغراف التهنئة في الساعة التي ظننت ان الاكليل تمّ فيها ولبثت انتظر عودة عائلة ابراهيم بك وذهبت الى الاسكندرية لملاقاتها وابتهجت برؤيتها رغماً عمّا كنت اجدهُ في نفسي من الانقباض . ولقد كاد سروري بمشاهدة السيدة نزهة ينسيني ما انا فيهِ لكنني كنت اعود الى نفسي حتى في ساعة السرور واعنّفها على تطلّعها الى ما صار فوق طورها واقول انهُ لا يحلُّ لي في شرع الحب والانصاف ان احمل

هذه السيدة على مشاركتي في فقري واحرمها من كل ما يناله المرء بالغنى من الراحة والرفاهة. ورأيت من مس مكدن وهي الآن زوجة الدكتور يوسف اكثر مما كنت انتظر من الحب والانعطاف فكانت تعاملني كما تعامل الاخت اخاها وكانت مغرمة بنزهة وكثيراً ما قالت لي انها تغار مني ولا تحسد احداً غيري. وظهر لي كأن بيت ابرهيم بك لم يكونوا يحسبون اقل حساب لغناي او لفقري لكن ذلك لم يخفف عني بل زادني نغصاً لاني صرت احسب نفسي عالة عليهم واخيراً سلمت لحكم القدر وبعت اقطاني واستوفيت ديوني فاصلحت حالي بعض الشيء واقترنت بالسيدة نزهة. ولا يعنيني الآن تفصيل ذلك ولو انتهت قصتي هنا ما همني ان اكتب حرفاً منها ولكن الحادثتين التاليتين دعتاني الى كتابة هذه الفصول لان فيهما اكبر دلالة على وجود ما نسميهِ سعداً او توفيقاً ففي الاسبوع الذي اقترنت فيهِ رافع امين افندي في قضيتي ضد الدكتور عبد الله ورفاقهِ وابرز للمحكمة كتاباً كتبهُ الدكتور عبد الله الى احد اصدقائهِ اخبره بهِ عن الحيلة التي استعملها لخداعي باتفاقهِ مع وكيل النادي على ترتيب الورق في صورة يكون هو الرابح فيها دائماً وانا الخاسر وبيَّن لهم ايضاً ان الدكتور عبد الله زوَّر امضائي في تحويل من التحاويل التي قطعها عليَّ

فلما اطلع القضاة على ذلك حكموا بابطال حق الدكتور عبد الله ورفاقهِ والزامهم بالمصاريف وحكموا عليهِ ايضاً بالسجن لجانٍ لتزويرهِ امضائي . فرُدَّت اليَّ ثروتي كلها ولم افقد منها الاَّ البيت الذي احترق وكان قديماً وكنت عازماً على هدمهِ وبناء بيت آخر بدلاً منهُ . واتفق بعد يومين او ثلاثة انني حلمت حلماً اقلقني وصرخت وانا نائم وجدتهُ وجدتهُ فايقظتني نزهة وقالت ماذا وجدت قلت لا شيء وضاع الحلم مني وذكرتُ لي ذلك في الصباح فقلت اني لا اتذكر شيئاً. ثم اخذت افكر كمن نسي امراً كان يعلمهُ وقمت حالاً على غير ارادتي وقلت لها قومي معي لنذهب الى بيتنا القديم فمشينا سوية ودخلنا من الباب الخارجي وكان مسدوداً بالواح من الخشب وجلنا من مكان الى آخر الى ان وصلنا الى مخدع داخل غرفة المنامة التي كان ابي ينام فيها وكان قبل مظلماً لقلة النور فيهِ اما الآن فانكشف سقفهُ واستنار فشعرت كأنني عدت الى الحلم الذي حلمتهُ وبادرت الى الجدار الشرقي حيث كانت خزانة كبيرة وقد حرقت الآن مع ما احترق وتفرَّست في الحائط فرأيت فيهِ اشارة كأن كوَّة سدَّت فيهِ تعلو عن الارض نحو مترين وكان الردم من السقفين قد ملأ ارضهُ وعلا فوقها حتى كاد يصل الى الكوَّة فقرعت الحائط بعصاي فظهر لي كأنهُ فارغ فاخرجت قضيب حديد من شباك وجعلت احفر في الحائط حول تلك الكوة المسدودة وهي صغيرة طولها نحو قدم وعرضها كذلك فوجدتها

مسدودة بالطوب الاحمر (القرميد) وحينئذٍ تجلى لي الحلم الذي حلمتهُ وتذكرتهُ بكل تفاصيلهِ حتى ظننت اني عدت الى النوم ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى انتزعت اكثر ذلك الطوب واذا انا بصندوق صغير من خشب الجميز طولهُ نحو فتر في مثلهِ عرضاً وعلوًّا وهو مقفل ولا مفتاح فيهِ فقلت لنزهة هذا كنز ابي الذي اخفاهُ خوفاً من اسماعيل باشا ثم توفي فجأة وقد فتشت عنهُ في كل جوانب هذا البيت فلم اجدهُ فكشفهُ لي الله الآن على وجهك

فقالت ألم اقل لك ان مال الحلال لا يضيع وعدنا الى البيت ووضعنا الصندوق على مائدة وعالجناهُ حتى انفتح فوجدنا فيهِ صرة صغيرة من الاطلس فمسكتها بيدي والتفتُّ الى نزهة وقلت لها اني حتى هذه الدقيقة كنت اعدُّ نفسي مجرماً لانني ظلمتكِ في تجملك تركي غنى ابيك وما يجلبهُ الغنى من الراحة والرفاهة اما الآن فسعدكِ قد كفَّر عن ذنبي وردَّ اليَّ ثروة ابي اتدرين ما بيدي يا نزهة طالما قالت لي امي انهُ كان عند ابي عقد كريم لا يقدَّر بثمن اشتراهُ من احد الهنود وحاول اسمعيل باشا مرارًا اخذهُ منهُ ولكن احتماءهُ بحماية اجنبيَّة وقاهُ منهُ

ثم فتحت الصرَّة واذا انا بعقد يتألق ضياء فيهِ اثنا عشر حجرًا كبيرًا من الزمرُّد تتناسق صغرًا من الوسط الى الطرفين الكبير منها كاللوزة والصغير كالفولة وواسطتها ماسة كالكوكب الدري يبلغ ثقلها نحو ثمانين قيراطاً فيها زرقة طفيفة تزيدها اشراقاً وبهاء . وقد قالت لي المرحومة والدتي ان ابي اشترى هذا العقد باثني عشر الف جنيه وهو يحسب انهُ اشترى لقطة لا تقدَّر بثمن . ثم قمت الى نزهة وقلدتها بهِ وقبَّلت وجنتيها وقلت لها لم اتمكن من ان اهدي اليكِ حلية ثمينة قبل الآن فخذي هذا العقد فان صفاء جوهرهِ يرمز الى صفاء قلبك الطاهر . فاعتنقتني وقالت لقد وجدتُ جوهرتي الثمينة قبل الآن . ثم ذهبنا الى بحيرة قارون لنبني لنا بيتاً على شاطئها نقيم فيه ايام النزهة ونتذكر الساعات الاولى التي قضيناها هناك

